

دوغان جوجل أوغلو

المحارب

من أجل حياة مفعمة بالحيوية والحماس والمعنى

ترجمة: أحمد الإبراهيم

أن تعيش ذاتك
في عالم يسعى ليل نهار
بكل ما يملك من قوة
لأن يجعلك مشابهاً للآخرين
يعني ذلك أنك بدأت
بشن أقسى حرب في العالم
وعندما تبدأ حرب كهذه
فلن تعرف للانتهاء طريق



المحـــارب

من أجل حياة مفعمة بالحيوية والحماس والمعنى

اسم الكتاب: المحارب

من أجل حياة مفعمة بالحيوية والحماس والمعنى

المؤلف: **دوغان جوجل أوغلو**

ترجمه عن التركية: **أحمد سليمان الإبراهيم**

عدد الصفحات: **580**

القياس: **14.5 ❖ 21.5**

2012/1000م -1433هـ





سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتــف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

الكاتب

دوغان جوجل أوغلو

المحارب

من أجل حياة مفعمة بالحيوية والحماس والمعنى

ترجمه عن التركية

أحمد سليمان الإبراهيم

الاهداء:

إلى الملاك الجميل الذي يقف إلى جانبي دوماً

حبيبتي بهاء

إلى البرعمين الجميلين اللذين أرغب أن أراهما أجمل محاربين

علي ومريم

مقدمة المترجم

أول خطوة في بناء وطن متطور هي بناء إنسان يعي ذاته ويعيش من أجلها لا من أجل الآخرين إذ ليس علينا أن نختار طريقاً لحياتنا يتناسب مع الآخرين لا مع أنفسنا . وعندما نختار ما يناسب شخصيتنا نستطيع أن نكون أكثر عطاءً لكن حتى نختار ما يتناسب يجب أولاً أن نعرف أنفسنا وحتى نعرف أنفسنا يجب أن نتأمل ما يجري داخلنا وأن نمتلك الثقافة العالية التي تجعل تأملنا ذا معنى، وكم نحن بحاجة إلى هذا الكتاب الذي يأخذنا في رحلة لاكتشاف الذات. إنه لا يقدم معلومات جاهزة بقدر ما يقدم آلية للتفكير نستطيع من خلالها أن نكتشف ذاتنا ونسعى لتغييرها .

يتحدث الكاتب في هذا الكتاب عن محارب يشن أقسى حرب في العالم ضد نقاط الضعف التي يعاني منها في شخصيته. ولا يدّعي الكاتب بأنه كتب هذا الكتاب بمفرده، بل كتبه برفقة الأستاذ عارف، والأستاذ عارف هذا شاب دفعته الأزمة النفسية التي يعيشها إلى حالة البحث عن معنى لحياته وهذا ما دفعه إلى الكاتب ليلتقي به ويتحدث معه. ولهذا يقول الكاتب «لا أقول أتحدث في هذا الكتاب بل نتحدث، لأنني والأستاذ عارف كتبنا هذا الكتاب سوية».

❖أبطال الكتاب

يبني هذا الكتاب موضوعه على الناس الذين يصارعون في هذه الحياة لكي يعيشوا ذاتهم. وتم تقديم هذا الموضوع من خلال الحوار بين الكاتب دوغان جوجَل أوغلو ومعلم مدرسة يدعى عارف أوكورِر.

يتعرف الكاتب خلال إحدى الندوات التي كان يقيمها على السيد عارف.

يبدأ السيد عارف حديثه فيقول إنه يعيش حالة ضياع أي أنه يشعر بالضياع من خلال ممارسة مهنة التعليم فيفهم الكاتب أن المشكلة التي يعاني المعلم منها ليست بسيطة إلى هذه الدرجة ويتفق معه على الالتقاء خلال فترات محددة، فيتحدثان خلال اللقاء الأول عن «بحث الفرد عن معنى لحياته». ويتقدم الكاتب خطوة من مشكلة السيد عارف الذي يستعيد ثقته بنفسه ويقترب، شيئاً فشيئاً، من شخصية المحارب.

❖الكاتب في سطور

ولد دوغان جوجَل أوغلو في منطقة سيليفكا التابعة لمدينة مرسين التركية في أسرة مؤلفة من أحد عشر فرداً هو الأخير بينهم، توفيت والدته عندما كان عمره عشرة أعوام.

عرف معنى الحياة: فلن يستطيع بعد الآن رؤيتها أو لمسها أو يتدلل عليها. بعد أن أنهى المرحلة الإعدادية في سيليفكا انتقل إلى جوار أخيه الأكبر الذي يعمل ضابطاً في السلك العسكري وأنهى هناك المرحلة الثانوية وكتب في هذه المرحلة أول قصيدة غزلية له.

طرح عليه معلم اللغة جاهد أوكورِر عندما كان في الثانوية السؤال الأول: ماذا تحب أن تصبح في المستقبل؟ فأجابه دوغان: أريد أن أصبح مهندساً. فقال له: ألا تريد أن تصبح عالماً. كان لهذا الحوار أثر كبير عليه، حيث دخل كلية علم النفس في جامعة استانبول وبعد تخرجه نال درجة الدكتوراه في علم نفس اللغة من جامعة إلونويس الأمريكية، وأما مجال تخصصه فهو سيكولوجيا الاتصال والإدراك. عمل كعضو هيئة تدريسية في جامعات استانبول وحاجي تبة وبوغازإيجي ثم درَّس في جامعات كاليفورنيا

وبيركلي من عام 1980 وحتى عام 1996 ومنذ هذا التاريخ وحتى الآن يقيم الندوات ويلقي المحاضرات على الطلاب والمعلمين والآباء والأمهات وعلى رجال الأعمال.

تعرف في أمريكا، عندما كان يحضّر رسالة الدكتوراه، على إميلي التي ولدت وكبرت في نيويورك، وتزوجها. وقد أثمر هذا الزواج، الذي استمر أحد عشر عاماً ثلاثة أولاد: أيشان وإليف وتيمور.

يقول الكاتب عن زواجه هذا «عندما تزوجت لم أكن أعرف نفسي كما لم أكن أعرف ماذا يعني الزواج، فالزواج الذي رأيته وعرفته في سيليفكا هو مؤلف من زوج وزوجة وأولاد، وعندما تزوجت من فتاة أمريكية تكافح من أجل تحرير المرأة حاولت أن أعمل زوجاً عليها، والنتيجة: تعذبت وعذبتها معي وأما العذاب الذي سببته لأولادي، الذين أتألم كثيراً من أجلهم، فهو أنني ابتعدت عنهم لمدة أربع سنوات.

علمني العذاب الذي عشته أنني لا أعرف الكثير وأن ثمة أشياء كثيرة عليَّ أن أتعلمها، وأقتنعت أن عليَّ أن أتطور ليس في مجال المعلومة فحسب بل عليَّ أن أتطور كإنسان، فبدأت بتطوير ذاتي، وفي الوقت ذاته بدأت بتأليف الكتب وكان كتابي الموسوم: «من إنسان لإنسان» أحد ثمرات هذه المرحلة، ولا زلت أتقاسم مع الناس ما أكسبه من معرفة خلال عملية التطور التي أعيشها».

❖كتبه

- الإنسان وسلوكه 1994،
- من إنسان لإنسان مرة أخرى 1991
- الطفل الذي في داخلنا 1992
- فكر جيداً واتخذ قراراً صحيحاً 1993،

- الأطفال الناضجون 1994
- نحن الذين في داخلنا 1996
- المحارب، من أجل حياة مفعمة بالحيوية والحماس والمعنى 1999،
- بالإضافة إلى عمله ككاتب مقالات في صحيفة «جمهوريَت» و«علم وتقنية» وفي صحف ومجلات تركية أخرى.

المترجم أحمد الابراهيم

المصطلحات المستخدمة في الكتاب

❖ **التبعية:** حاجة تأتي مع الفرد بالفطرة وتنعكس على حياته من خلال رغبته بأن يكون معترَفاً به ومقبولاً ومحبوباً وموثوقاً به من قبل الأشخاص الهامِّين بنظره.

❖ **التواضع:** تُستخدم كلمة التواضع في هذا الكتاب ضمن إطار تواضع المحارب الذي ينبع من رؤيته بأنه متساوٍ مع كل شيءٍ في هذا الكون، فهو يعتبر أن العصفور أو الزهرة أو الحشرة أو الإنسان الذي يتمتَّع بمركز مرموق ليس أعلى مرتبة أو أدنى مرتبة من أي إنسان آخر فكل شيء متساوٍ مع أي شيء آخر من حيث القيمة، وهذا المفهوم يشكِّل أساس تواضع المحارب.

❖ **البحث عن معنى:** بحث الفرد عن العلاقة ذات المعنى بين وجوده ككيان متكامل وبين النسق الموجود فيه.

❖ **حالة اللامعنى:** نمط من أنماط الحياة يظهر إلى الوجود حين لا يجد الفرد علاقة ذات معنى بين وجوده وبين النسق الذي يوجد فيه.

❖ **الاستقلالية وتحقيق الذات:** تحقيق الذات «Self actualization»: حاجة تأتي مع الفرد بالفطرة، وتتضمن شعور الفرد بأنه موجود وتعكس نفسها على حياته على شكل رغبة بالوصول إلى شعورٍ مفاده: «أنا موجود، أنا إنسان طبيعي، أنا أستحق المحبة، أنا إنسان ذو قيمة، أنا إنسان جدير بالثقة».

وبشكل عام، إنَّ ذات الفرد هي نتاج الخبرات التي يمر بها. وتقييم الفرد لذاته يتولد منذ الصغر تدريجياً مع الرغبة في تحقيق الذات المثالية

التي يحلم بها. وغالبا ما يسعى الإنسان إلى تحقيق ذات واقعية تتواءم مع إمكانياته وخبراته ودرجة تكيفه مع بيئته بدلاً عن السعي لتحقيق ذات مثالية غير واقعية.

استغلال الإمكانيات الذاتية الكامنة تساعد على تطوير الذات الحقيقية إلى تلك الواقعية التي تحقق للشخص السلام والوئام مع نفسه وبيئته.

«أبراهام ماسلو» العالم النفسي الأمريكي يقول في هذا السياق إن الإنسان يولد وهو محفَّز لتحقيق احتياجات أساسية في شكل هرمي تبدأ بالحاجات الفيزيولوجية كالجوع والعطش، مرورا باحتياجات الأمن والسلامة ثم احتياجات الانتماء والتقبل من المجموعة، وصولاً إلى احتياجات اعتبار واحترام الذات في قمة الهرم. وبعد تحقيق كل هذه الحاجات يجاهد الإنسان لتحقيق ذاته ليصل إلى أسمى مراحل الاكتفاء الذاتي والسلام مع نفسه.

ويذهب ماسلو إلى وصف هؤلاء الذين حققوا ذاتهم بأنهم واقعيون، متقبلون لأنفسهم وللآخرين، تلقائيون، مركزون على أهدافهم وعلى حل مشاكلهم، مستقلون، ديمقراطيون، ويتمتعون بروح الخلق والإبداع.

الدراسات التي قام بها «كارل روجرز» في مجال التحليل النفسي ساعدته على الإتيان بنظريته وطريقة علاجه المتمركزة حول العميل والتي تهدف أساساً لمساعدة العميل لكي يحقق ذاته. النظرية تقول:

«الإنسان يولد ولديه دافعية قوية لاستغلال إمكانياته الكامنة لتحقيق ذاته وليسلك بطريقة تتوافق مع هذه الذات، وقد يحتاج الإنسان إلى إنسان آخر يُظهر تفهماً ويبدي تعاطفاً كاملين لكي يساعده على استنباط هذه الإمكانيات الكامنة واستقلالها لكي يحقق ذاته».

❖ **الأعمال التي لم تُنجَز:** رغبة الفرد بالقيام بعملٍ ما ولكنه لا ينجزه أو لا يعمل على إنجازه لسبب من الأسباب فيتراكم ضمن شخصيته كعمل لم

يُنجز ما يؤدي إلى تراكم العواطف السلبية مثل الغضب والحقد والانتقام دون الإفصاح عنها، وإغراق الفرد في مجموعة من الأحاسيس السلبية.

❖ **إنجاز الأعمال التي لم تُنجَز:** إزالة العواطف السلبية مثل الغضب والحقد والانتقام، التي تراكمت بسبب عدم الإفصاح عنها سابقاً، في جوٍ من التفهُم لطبيعتها ومن خلال التقمص العاطفي، وبالتالي التخلص من الإحساسات السلبية.

❖ **البونزائي:** نوع من الأشجار القصيرة والثخينة التي تظهر إلى الوجود من خلال إخضاعها لطريقة في التقليم المستمر منذ أن تكون غرسة.

❖ **اللوحة الكبيرة:** هي شبكة العلاقات التي أقامها الفرد ضمن حياته، أي النسق الواسع الذي يدركه الفرد، وهي تضم كل ما يدركه في هذا الكون.

❖ **الإنسان الكريم:** هو الإنسان الذي يتقاسم حياته مع الآخرين انطلاقاً من وعيه باللوحة الكبيرة وإدراكه لها.

❖ **القيم:** ما يُعرف بأنه صحيح ويُنتظر من الفرد القيام به، وهو عمل إذا ما تمَّ إنجازه يُدعم من قِبل الآخرين.

❖ **وعي القيم:** وهو مفهوم يعني الرغبة في خلق الحياة ضمن إطار الأشياء التي تُعرف على أنها صحيحة، وإدخال النظام على الحياة ضمن إطار هذه الرغبة.

❖ **التغيُر:** الاختلاف والتمايز الذي يظهر على شكلِ سلوكٍ لدى الفرد، فإذا لم يتوقف هذا التغيُر عند سلوك الفرد بل تطور إلى مستوى يسمح بإعطاء معنى مختلف للكون فإننا نطلق عليه مصطلح تحوُل أو انعطاف. وعموماً، التغيُر لدى المحارب هو انعطاف أو تحوُل.

❖ **اللاتوازن:** هي الحالة الفيزيولوجية والذهنية الناجمة عن عدم تلبية احتياجات الفرد.

❖ **اتِّخاذ الموقف:** نذر الفرد نفسه من أجل مستقبلٍ ما واستخدام

«الآن وهنا» من أجل تحقيق هذا المستقبل. وهو معاكس تماماً للسلوك القائم على ردود الأفعال والذي يُطلق عليه مصطلح «اتّخاذ وضعية».

❖ **الصدق والنزاهة**: أول مراحل تكامل الشخصية، حيث الانسجام بين الجوهر والقول والعمل.

❖ **الأنا Ego**: يستخدم الـ Ego في هذا الكتاب على أنه الأنا الموضوعي. وهو «وعي الأنا» الذي يميّز الفرد عن الآخرين ويرسم حدوده.

❖ **ابستمولوجيا Epistemeloge**: **نظرية المعرفة أو الإبستمولوجيا** (Epistemology) كلمة مؤلفة من جمع كلمتين يونانيتين: episteme بمعنى علم أو معلومة وlogos بمعنى: حديث، علم، نقد، دراسة فهي إذاً دراسة العلوم النقدية، ويصبح المصطلح دالاً على المجال العلمي الذي يدرس طبيعة المعلومة ومصادرها وحدودها، تعتبر نظرية المعرفة أحد فروع الفلسفة الذي يدرس طبيعة ومنظور المعرفة، المصطلح بحد ذاته (إبستمولوجيا) يعتقد أن من صاغه هو الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريدريك فيرير.

يعرفها لالاند في معجمه الفلسفي بأنها فلسفة العلوم، وهي تختلف بهذا عن علم مناهج العلوم (ميثودولوجيا) لأن الايبستمولوجيا تدرس بشكل نقدي مبادئ كافة أنواع العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها. وإذا ما قال الفرد الذي يعمل في مجال الابستمولوجيا بأنه «يعرف» إنساناً أو شيئاً ما فإنه يعني أنه يعرف ما يريده هذا الشخص.

❖ **الأخلاق**: هو المجال الفلسفي الذي يدرس موضوع: «ماهو السلوك الصحيح وكيف يتم القيام به» أي يدرس ما يجب أن يكون، فهو علم وجوب وبذلك يختلف عن علم النفس على اعتباره علم وجود أي يدرس السلوك السليم والسلوك الشاذ.

❖ **المفهوم**: معلومة تؤدي إلى اختلاف ذي معنى في إدراك الفرد، كما توجّه عمله.

❖ **الفينومينولوجيا Phenomenology**: تيار فلسفي جاء به ادموند هوسرل ويدرس الخبرة الانسانية بمحاولة الاستقلال عن القيم والاحكام الذاتية وهو دراسة الأشياء (الموجودات) كظواهر Phenomena ومعانٍ موجودة في خبرتنا الواعية.

ظهر هذا المصطلح في بداية القرن العشرين بواسطة إدموند هوسرل ومارتن هيدغر وموريس ميرلو بونتي وجان بول سارتر. اعتبر هذا التيار أساساً مكينا للفلسفة مقارنة مع فلسفة الأخلاق والميتافيزيقا وفلسفة المعرفة. البعض يرجع هذا المصطلح الى هيجل وكانت.

الفينومينولوجيا يدرس كافة انواع الخبرة الإنسانية من التصورات، الفكر، الذاكرة، التخيل، الشعور، الرغبة، الاختيار إلى الوعي الجسماني والفعل الرمزي (التمثيلي) والنشاط الاجتماعي والنشاط اللغوي. يطلق عليها بعضهم «فلسفة العقل» وهي موضع جدال إلى اليوم.

❖ **الفينومين Phenomen**: مجموعة المفاهيم التي تتشكل نتيجة إدراك الفرد للعالم الخارجي بواسطة أعضاء الحس.

❖ **احترام الحقيقة**: العمل الواجب القيام به انطلاقاً من فكرة مفادها أن الحقيقة لن تتغيَّر حسب رغباتنا ولذلك يجب أن تكون أفكارنا وأعمالنا وممارساتنا منسجمة مع هذه الحقيقة المدرَكة.

❖ **الجشطالت، Gestalt psychology**: علم نفس الجشطالت مدرسة في علم النَّفس تركز على دراسة التجربة بوصفها وحدة متكاملة. ويؤمن علماء علم النفس الجشطالتي بأن النمط أو الشكل هو أهم عناصر التجربة. والنمط الكامل - طبقًا لنظرية هؤلاء العلماء - هو الذي يُعطي معنىً منفرداً لكل عنصر من عناصر التجربة. وبعبارة أخرى إن الكل أهم من ضم الأجزاء بعضها لبعض. وكلمة الجشطالت Gestalt ألمانية الأصل وتعني المثال أو الشكل أو الهيئة.

تأسست فلسفة الجشطالت حوالي عام 1912م على يد ماكس ويرثيمر، وهو عالم نفس ألماني. أما التَّجارب التي أجراها مع زميليه كورث كوفكا وولفجانج كولر، فقد ساعدت على نشر أفكار فلسفة الجشطالت على نطاق أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وهذه الأفكار كانت ردَّ فعل مضاداً للبنيوية التي كانت أكثر الأفكار الفلسفية شيوعًا في مطلع القرن العشرين الميلادي. وعلماء النفس البنيويون يرون أن أفضل طريقة لدراسة التَّجربة، هي تحليل عناصرها المنفصلة، مثل المشاعر، والصُّور والأحاسيس. وعلم نفس الجشطالت يختلف كذلك عن السلوكية التي تُنادي بدراسة الجوانب القابلة للملاحظة فقط من السلوك.

أثرت نظرية علم نفس الجشطالت إلى درجة كبيرة على دراسة الإدراك الحسي الإنساني، واستخدم علماء النفس أفكار هذه المدرسة لتطوير كثير من المبادئ. فمثلاً مبدأ الإغلاق يوضح أن الناس اعتادوا رؤية النمط غير المكتمل على أنه كليات مكتملة أو موحدة. ووفقا لهذا المبدأ نجد الدائرة المجزأة دائمًا دائرة مكتملة. ويوضح مفهوم الشكل ـ الخلفية أن الناس اعتادوا اعتبار أي نمط شكلاً على خلفية. ومن الأمثلة على ذلك الصورة على الحائط، والحروف على الصفحة.

❖ **نظرية العلاج الجشطالتي:** يلخص (سيميكين، 1979) العلاج الجشطالتي فيقول: «العلاج الجشطالتي عبارة عن نظام إدراكي قائم على عدم التفسير، ومبتعد عن الجانب التاريخي للفرد (الماضي). ومحور الاهتمام فيه هو الوعي في (الآن وهنا) وتدار معظم التعاملات بين المعالج والمريض على أساس من (أنا وأنت) بدلا من افتراض (التحويل أو التحويل المضاد) ويكون التركيز فيه على ما يجري فعلاً (العملية) لا على ما يمكن أو ما ينبغي أن يكون حادثاً (المحتوى). ويشجع المريض في تحمل المسؤولية عما يحدث فعلاً، وباتصال المريض مع السلوك يشجعه المعالج على تمثل أو رفض هذا السلوك.

وبذلك يُساعده على الاختيار والنمو من خلال التنظيم الذاتي العضوي. ويكون التركيز في العلاج الجشطالتي على الوعي المباشر الحالي لخبرة الشخص الذاتية، ولا يسمح في العلاج بالتفسيرات العقلية المعرفية Cognitive، للأسباب أو الأغراض، فهذه يرفضها العلاج الجشطالتي».

- **العملية العلاجية (الأهداف العلاجية):**

لعلاج الجشطالت عدة أهداف مختلفة وهو يهدف أساساً إلى تحدّي العميل لكي يتحول من اتجاه الحصول على دعم من البيئة إلى الحصول على دعم من داخل نفسه. فبموجب بيرلز (1969) أن الهدف العلاجي هو: أن تجعل العميل لا يعتمد على الآخرين، بل تجعله يكتشف في اللحظة الأولى بأنه يمكن أن يعمل أشياء أكثر مما هو يتوقع أن بإمكانه أن يعملها. ولوحظ الارتباط بين العلاج الوجودي الإنساني وعلاج الجشطالت. وبيرلز يعتقد أن الشخص العادي يستخدم جزءاً بسيطاً من الطاقة الهائلة التي بداخله، حيث أن لهذه النظرة ارتباط مع نظرة (مازلو) حول الشخص العادي والأمراض النفسية، وهي أن حياتنا تسير على نموذج وقالب واحد باستمرار، وإننا لا نحاول الإبداع في عيشنا إلا بطرق قليلة جداً. وبيرلز مقتنع بأننا لو عرفنا أنفسنا وأدركنا قدراتنا وطاقاتنا الإنسانية بشكلٍ كامل لكان لدينا الطريق لكي نجعل حياتنا غنية، حيث أن هذه الطاقات ترتكز على أساس مواقفنا الحية في كل لحظة من لحظات العيش.

وبذلك يكون الهدف الأول في العلاج الجشطالتي هو: مساعدة العميل على العيش بعمق. والهدف الأساسي لعلاج الجشطالت هو: الحصول على الوعي، حيث بالوعي نفسه يمكن للفرد أن يرى العلاج، وبدون وعي فإن العميل لا يمكن أن يحصل على الوسائل التي بواسطتها يُحدث التغيير الشخصي. فبالوعي يمكن أن تتوفر القابلية لمواجهة وقبول

الجزء المرفوض في كيان الفرد، ويكون على صلة بالخبرات غير الموضوعية مع الواقع؛ وبهذا يمكن للعميل أن يصبح وحدة كلية متكاملة، وعندها يكون العميل على وعي بأن الخبرات التي لم تكتمل، يمكن أن تنبعث من جديد ويبدأ التعامل معها في العلاج.

- طبيعة الإنسان عند الجشطالت:

ترى نظرية الجشطالت بأن الإنسان حرّ ويستطيع أن يتخلص من الماضي، وأن يعيش الحاضر، وأنه قادر على اتخاذ قرارات مسؤولة في سلوكياته. ويرى بيرلز أن الإنسان مفطور على تحقيق ذاته. ويفترض الجشطالت أن الإنسان يتصف بالصفات التالية:

1. الإنسان (كل) له جسم وعاطفة وعقل وأفكار وأحاسيس تعمل بشكل متشابك، كما أنه جزء من البيئة ولا ينفصل عنها.
2. الإنسان (فاعل) فالإنسان له دور فاعل وليس له دور الفرد المستجيب فقط، كما تراه السلوكية، فهو يقرر مسؤولياته تجاه المثيرات، وأن الاستجابات ليست تلك الموجهة له.
3. الإنسان (واعٍ) فهو قادر على وعي أحاسيسه وعواطفه ومدركاته.
4. الإنسان (قادر على الاختيار) وتكون قدرته على الاختيار من خلال وعيه لذاته، وهو مسؤول عن سلوكه الخفي والظاهر.
5. الإنسان (مالك للإمكانيات) فهو يمتلك الإمكانيات ومصادر القوة على العيش بفاعلية، ويمكن أن يستعيد ذاته من خلال خبرته وأفكاره.
6. الإنسان (ابن لحظته) يعيش الإنسان لحظته الحالية (هنا والآن) وهو يخبر نفسه في الوقت الحاضر، ويستطيع أن يخبر الماضي والمستقبل الآن كتذكر للماضي، وكتوقع للمستقبل.
7. الإنسان (حيادي) فهو لا سيء ولا شرير.

- **بنية الشخصية عند الجشطالت:**

ترى نظرية الجشطالت أن الشخصية هي نتاج لتفاعل الفرد مع بيئته المدركة، أي كما يدركها الفرد. ومن خلال تفاعل الفرد مع البيئة يحدث النمو. ويخاطر الفرد ويجازف محاولا إشباع الحاجات الموجودة لديه، وذلك عن طريق تكوين مفاهيم كلية عن البيئة.

❖ **طريق القلب:** أسلوب يُتَّبع حيث يقوم الإنسان بإجراء الاختيار بواسطة قلبه بعد أن يكون قد فكَّر ودرس الموضوع بواسطة عقله.

❖ **الوعي المراقِب:** وهو الوعي الذي يُدرِك عواطف الفرد وأفكاره ونيَّته والنسق الذي يوجد ضمن إطاره، وهو مُدرِك لأنه يُدرِك كل هذا. وقد استُخدم في الكتاب تحت اسم الأنا المراقب أيضاً.

❖ **القوة:** إحدى أبعاد الوجود، وتتمثل بوعي الفرد لقدراته وبأنه: «قادر على القيام بهذا الأمر». أي امتلاك الفرد القدرة على التأثير على نفسه وعلى غيره وعلى العالم.

❖ **الإنصاف:** مبدأ تطبيق العقاب والثواب على الأشخاص حسبما يستحقون من خلال التمييز بين الظالم والمظلوم، المحق وغير المحق، وهو يختلف عن مبدأ المساواة الذي إذا طُبِّق قبل تطبيق مبدأ الإنصاف سيؤدي إلى خلق العديد من المشاكل.

❖ **الزنزانة:** استُخدِم هذا المصطلح في الكتاب بمعنى الوضع الذي يوجد فيه الشخص دون أن يكون قد اختار هذا الوضع بشكلٍ واعٍ.

❖ **الخدمات:** جهد الفرد بأن يكون إنساناً مفيداً لبقية أجزاء الكل ضمن الشعور بالمسؤولية الناجمة عن شعور هذا الفرد بأنه أحد أجزاء هذا الكل.

❖ **الإخلاص:** هو التعبير الصادق عن النية.

❖ **المبدأ:** هو الفكر الذي يتَّبعه الفرد ويمارسه بشكل متماسك.

❖ **نذر النفس:** إصرار الفرد على بذل كل وقته وطاقاته من أجل تحقيق المستقبل الذي آمن به ونذر نفسه في سبيل تحقيقه.

❖ **وسط أو بيئة الاستكشاف:** النظر إلى البيئة انطلاقاً من فكرة تقول: كل شيء في الحياة وكل كلمة تُقال وكل سلوك يحدث هو فرصة للتعلم.

❖ **علاقة الفرد مع ذاته:** أساس كل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل، وهي مجموعة إدراكات الفرد الأساسية لذاته ضمن أبعاد الوجود.

❖ **مستويات تكامل الشخصية:** لتكامل الشخصية ثلاثة مستويات: علاقة الفرد مع عالمه الداخلي، وعلاقته مع القيم والمبادئ التي يؤمن بها، وعلاقته مع المستقبل الذي نذر نفسه في سبيل تحقيقه.

❖ **شرطا تكامل الشخصية:** أولهما: احترام الحقيقة، والثاني: تحمله مئة بالمئة مسؤولية الحقيقة التي يدركها.

❖ **تكامل الشخصية:** إدراك الحقيقة وتحمل المسؤولية ووجود تماسك وانسجام بين التفكير والقول والفعل.

❖ **حياة نكِرة:** استُخدِم هذا المصطلح في الكتاب على أنه شيء كأنه موجود وغير موجود وعيش الفرد ضمن عنصر التبعية فقط، وعدم امتلاكه حياة فردية خاصَّة به.

❖ **الصوفية:** وهي وجهة النظر الكونية التي تؤكد على أن الكون ليس منفصلاً عن بعضه البعض، بل هو مجموعة أجزاء متماسكة فيما بينها بعلاقة عضوية وبأن كل إنسان عبارة عن جزء ذي معنى وقيمة من هذا الكل.

❖ **النيَّة:** هي رغبة الفرد وتفكيره بتحقيق هدف موجود في داخله.

❖ **نقاء النيَّة:** تفكير الشخص بهدف وبمطلب ما وتطابق هذا التفكير مع سلوكه ونزعته الرامية إلى تحقيق هذا الهدف.

❖ **الأنطولوجيا:** مجال دراسة وتفكير فلسفي متعلق بماهية الوجود وسببه. وهيّ المبحث الفلسفي الذي ينظر في «الوجود من حيث هو موجود» على حدّ عبارة أرسطو. وبالتّالي فإنّ الأنطولوجيا هيّ دراسة الأشياء في ذاتها أي من حيث وجودها. ونتحدّث عن قسمة أنطولوجيّة أي تلك التي تميّز في الموجودات بين نوعين أو أكثر مثل القسمة الأفلاطونيّة بين عالم المثل والعالم المحسوس، فهي قسمة أنطولوجيّة باعتبار أنّ وجود المثل ليس من نفس قبيل وجود المحسوسات. ويمكن أن نقابل بين المبحث الأنطولوجي والمبحث الإبستمولوجي.

❖ **التقمص العاطفي** Empathy: يعتبر التقمص أو التمثل أو التفهم العاطفي أو التعاطف، هو الفضيلة الأساسية في الذكاء الأخلاقي (الكفاءة الأخلاقية) وهو يعني «القدرة على فهم اهتمامات الآخرين، والشعور بها، بحيث يصبح المرء أكثر حساسية إزاء حاجات ومشاعر الآخرين، وأن يقدّر ظروفهم ويساعدهم، ويتفهم المشاعر الوجدانية المصاحبة للحظات الألم والفرح، وبشكل يحول دون معاملة الآخرين بقسوة، أو بلا مبالاة وبعدم التقدير لمشاعرهم.

❖ **الاغتراب:** ويقال أيضا الاستلاب. ويعني وصول المرء إلى حالة لا يعود ينظر فيها إلى نفسه على أنه جزء من الكل الذي يعيش ضمنه وشعوره بعدم وجود علاقات له مع الكل وبأنه بعيد ومنسلخ عنه. وهو فقدان الذّات لذاتها أو لأحد مقوّمات ذاتها. وبهذا المعنى يقال العبوديّة اغتراب باعتبار أنّ العبد ليس ملكاً لذاته أو أنّه فقد إحدى مقوِّمات الذّات الإنسانيّة وهي الحريَّة. ونتحدَّث أيضاً عن اغتراب الإنسان أو استلابه عندما يصبح غريباً عن ذاته أي يصبح وجوده في الواقع يتنافى مع ماهيَّته في الحقيقة. فعندما نتحدّث عن اغتراب الإنسان في العمل في النِّظام الرأسمالي مثلا نجد أنّ ماركس يركِّز على فقدان الإنسان لمقوِّمات ذاته على أنّه كائن عاقل، حر

ويصبح شبيهاً بالآلة بعيداً عن الإبداع مستعبَداً... أو نتحدّث عن اغتراب الإنسان في الواقع الرّاهن، واقع العقلانيّة العلميّة والتّكنولوجيّة: نجد هربرت ماركوز يركّز على فقدان الإنسان لقيمه ولبعده الوجداني ولحرّيّته. وقد تحدّث هيغل أيضا عن اغتراب الرّوح أي فقدان الرّوح المطلق لذاته وسعيه إلى الالتحاق بذاته.

❖ **الوعي المستحضر إلى الوسط:** معرفة الإنسان «نيته الموجودة داخل الآن وهنا» ضمن إطار فينومينته. ومقدار الوعي الذي يكون مزوَّداً به أثناء ممارسة عملٍ ما وانسجامه مع هذه المعرفة وهذا الوعي.

❖ **وعي الموت:** إدراك وجود نهاية أكيدة للحياة وأن هذه النهاية يمكن أن تأتي في كل لحظة.

❖ **خلق الآخر:** أن ينظر الفرد أو المجموعة إلى الآخر أو الآخرين على أنه لا تربطه بهم أية علاقة وعدم رؤية العالم بمنظارهم وإنكاره لوجهة نظرهم حول الكون.

❖ **التماهي:** رؤية الأنا مندمجة بالآخر ونظرة الفرد إلى نفسه على أنه هو هذا الآخر وبالتالي فقدانه القدرة على رؤية وجود أي تمايز أو اختلاف عن الآخر.

❖ **الحياة الذاتية:** تحقيق الفرد وجوده ضمن إطار التوازن القائم بين التبعية وتحقيق الذات.

❖ **اتّخاذ وضعية:** العمل والممارسة من خلال البقاء ضمن إطار ردود الأفعال وضمن إطار العبارات التي تُقال. وهي مصطلح مناقض تماماً لمصطلح اتّخاذ موقف، فالشخص الذي يتَّخذ موقفاً لا يبني سلوكه على ردود الأفعال، فهو يمارس حياته ليس حسب ردود أفعال الآخرين بل ضمن إطار المستقبل الذي نذر نفسه من أجل تحقيقه.

❖ **الحرب:** تدل كلمة الحرب في هذا الكتاب على مرحلة الصراع

والنضال الذي يخوضه الإنسان مع أناه الموضوعية لكي يصل إلى معرفة كاملة بالوعي المراقِب.

❖ **المحارب**: هو الشخص الذي يستخدم وعيه المراقِب بغية خلق توازن بين عنصري التبعية وتحقيق الذات، وهو الشخص الذي نذر نفسه لكي يعيش حياة ذاتية خاصة به.

❖ **حرية المحارب**: العيش بنيَّة نقيةٍ ضمن إطار الشعور بالمسؤولية حيال الأنا المراقِب فقط دون انتظار أي شيءٍ من أحد.

❖ **الاحترام**: عدم الدخول إلى داخل حدود الآخرين دون إذنٍ منهم.

❖ **الاختيار**: اتِّخاذ القرار بواسطة القلب بعد التفكير بكافة الاحتمالات.

❖ **أن يكون المرء جديراً بالحب**: بُعدٌ من أبعاد الوجود يخلق مع الإنسان منذ الولادة.

❖ **وعي الحدود**: وهو المفهوم الذي يتشكل فوق ساحة مسؤوليات وصلاحيات الفرد.

❖ **المسؤولية**: وتعني الاستعداد الدائم للمحاسبة وكشف الحساب.

❖ **شروط المسؤولية**: يجب تنفيذ شرطين أساسيين لكي يكون الإنسان مستعداً للمحاسبة وهما: 1 - امتلاك المعلومات والمهارات والذكاء في الموضوع الذي سيُحاسب عليه. 2 - توفُّر حرية التصرُّف والعمل. فلا يمكن أن يكون الإنسان مسؤولاً إلاَّ عن السلوك الذي يقع ضمن المدى المجدي لمسدَّسه.

❖ **الشكوى والتذمُّر**: استُخدم مفهوم الشكوى والتذمُّر في هذا الكتاب بمعنى سلبي معتبراً إياه رمزاً للهروب من المسؤولية.

❖ **الآن وهنا**: المجيء إلى الوسط المدرَك بوعي كامل وأن يكون المرء موجوداً مئة بالمئة في هذا الوسط مزوَّداً بنيَّةٍ صافية.

❖ **التاو:** مدرسة فكرية فلسفية يابانية تؤمن بأن كل شيء يعيش مرحلة التحوُّل إلى ضده،

❖ **الأصدقاء الذين يوقظون الإنسان:** تم استخدام هذه العبارة في الكتاب بمعنى أن الأحداث السلبية التي تُصيب المرء هي التي تعمل على إيقاظه من البلادة والكسل التي يعيشها.

❖ **اليقظة:** وصول المرء إلى إدراك مصادر الضيق وبذلك يصبح مستعداً لوضع أول خطوة على طريق خلق حياة ذاتية خاصة به.

❖ **أبعاد الوجود:** وهي الحاجات التي أتت مع الإنسان منذ الولادة ويريد أن يعيشها ويحياها، وقد تم الحديث في هذا الكتاب عن خمسة أبعاد للوجود وهي:

1- الوصول إلى مرحلة الإدراك، أي معرفة الحدود والمسؤوليات.

2- أن يكون مقبولاً من قِبل الآخرين على أنه إنسان طبيعي. 3- أن يكون جديراً بالمحبة والاشتياق.

4- الشعور بأنه مهم وذو قيمة وبأنه جزء لا يتجزأ من كلٍّ كبير. 5- أن يكون المرء قوياً، أن يعيش ضمن شعور مفاده: «أستطيع أن أفعل كذا إن شئت» وأن يحقق الشخص وجوده في نظر الآخرين (عنصر التبعية) من جهة وفي نظر نفسه (عنصر تحقيق الذات) من جهة أخرى.

❖ **خلق الغد:** انظر «خلق المستقبل».

❖ **رقصة الحياة:** تحقيق المرء لوجوده من خلال خلق توازن بين عنصري التبعية وتحقيق الذات. انظر إلى «أبعاد الوجود».

المقدمة

هذا الكتاب

يقول ا. ا. كومينغس:

أن تعيش ذاتك

في عالم يسعى ليل نهار

بكل ما يملك من قوة

لأن يجعلك مشابهاً للآخرين

يعني ذلك أنك بدأت

بشن أقسى حرب في العالم

و عندما تبدأ حرب كهذه

فلن تعرف للانتهاء طريق...

إننا نتحدث في هذا الكتاب عن محارب كهذا ولا أقول أتحدث بل نتحدث لأنني والأستاذ عارف كتبنا هذا الكتاب سوية.

نتحدث في **الفصل الأول** عن مشكلة «البحث» فالمشكلة الأساسية للحياة التي فقدت معناها متمثلة في عدم قدرة الفرد على أن يعيش ذاته. إنه يعيش حياة كأنها ليست له وها قد آن أوان الانتقال إلى حالة «البحث».

تبدأ اليقظة عند الوصول إلى حالة الإدراك، نتحدث في **الفصل**

الثاني عن «اليقظة» إذ لا يستوعب الإنسان أنه كان في حالة نوم إلا عندما يستيقظ. وإذا كان لا يعرف أنه نائم فلن يدرك أن ما يراه مجرد حلم.

حسنٌ، ما الذي يتوجب علينا فعله؟..

لننوِ...

وبذلك نكون قد دخلنا في **الفصل الثالث** **تحت عنوان «النية»** ولكن ماذا ننوي؟! إننا ننوي خلق غدٍ مفعمٍ بالحيوية والحماسة والمعنى...

و لكن كيف سنخلق هذا الغد الذي نتحدث عنه؟.

في الفصل الرابع سنتحدث عن **خلق غدٍ ضمن إطار شخصية متكاملة** من خلال معرفة أننا نعرف ما نعلمه وإدراك أننا لا نعرف ما نجهله والاحترام المستمر لحقيقة إدراكنا للفرق الموجود بين الحالتين.

إن خلق غدٍ يتطلّب وجود قوة وصلابة، والسؤال الذي يطرح نفسه هو من أين سنأتي بالقوة اللازمة لذلك؟ نقول:

«اعرف نفسك» ففي معرفة كهذه تكمن القوة الحقيقية المطلوبة، ونتابع... اعرف كيف تتحدث: مع من وعن وماذا وأين ومتى وكيف سنتحدّث؟ والأهم من هذا كله لماذا سنتحدّث؟...

في الفصل الخامس سنتحدّث **عن المعرفة.**

الحياة مسؤولية من؟!.

بعضهم يرى أنها مسؤولية الآباء والأمهات والبعض الآخر يرى أنها مسؤولية الزوج أو الزوجة وثالث يرى أنها مسؤولية الجيران ويأتي آخر ليقول: لا إنها مسؤولية الشركة التي يعمل الشخص فيها وآخر يقول إنها مسؤولية الدولة، بل ونرى البعض يرى أنه لا يوجد شيء اسمه المسؤولية.

في الفصل السادس سنتحدّث عن **مسؤولية المحارب.**

لِمَ انتشرت «بَلادة الحياة الآن» إلى هذا الحد؟ لماذا لا نرى العيون التي تنظر إلينا ولماذا نحطّم الأفئدة ولماذا نمضي حياتنا في ندم دائم؟!

في **الفصل السابع** سنتحدّث عن أجوبة لهذه الأسئلة ضمن إطار وعي **الموت** عند المحارب.

حسنٌ، هل يمكن لإنسان عادي، ضائع وضعيف أن يصبح محارباً؟

أجل

كيف؟

بأن يتغيَّر.

و كيف يتغيَّر؟

بالإدراك... بأن يعيش ما يدركه.

في **الفصل الثامن** سنتحدث عن التغيُر

و لكن كيف سيجرؤ الإنسان على التغيُر وهو يعيش حياة تزداد وطأتها شيئا فشيئا ويزداد ثقلها؟

بأن ينجز أعماله التي لم تُنجز.

سنعرِّفكم في **الفصل التاسع** على **الأعمال التي لم تنجز**. فإن لم ننجز الأعمال التي لم تنجز فلن نستطيع اكتساب القوة ولن نستطيع القضاء على البلادة التي نعيشها الآن.

هل تريدون مثالاً على ذلك؟

في **الفصل العاشر** سنقدّم مثالاً قوياً على التحول إلى محارب من **نوع دون جوان**.

وفي **الفصل الحادي عشر** سنلقي نظرة على ما تحدَّثنا عنه في الكتاب..

من هو الأستاذ عارف؟

الأستاذ عارف هو معلم المدرسة الذي تحدّث معي في هذا الكتاب.

هو لم يجدني بل أنا الذي وجدته، فمنذ زمن طويل وأنا أشعر بالحاجة للتواصل مع المعلمين وللبدء بحوار معهم وكنتيجة لبحثي الطويل وجدت الأستاذ عارف.

كان الأستاذ عارف يعاني من ضيق ويبذل جهوداً حثيثة، يريد أن يفهم، أن يعمل، ولكنه لم يجد من يدعمه، كان وحيداً.

بدأ أثناء حديثنا يطرح أسئلة معقدة تنمُ عن معرفة حيناً وأحياناً كانت أسئلته بسيطة إلى درجة محيِّرة، لماذا؟ لأنه يفكر بالقارئ، فعندما يجد أن الموضوع قد تعقد وبدا وكأنه فقد ترابطه يسعى إلى تسهيل الأسئلة، فقد كان هدف الأستاذ عارف الأساسي أن يقدم المساعدة لكم أنتم القرّاء، ولهذا كان يبدو أحيانا وكأنه غير متماسك... فاعذروه...

لمن كُتِبَ هذا الكتاب؟

إن كانت عبارة «حياة مفعمة بالحيوية والحماسة والمعنى» تعني لكم شيئا ما، وإن كنتم تريدون التعلُم في هذا الاتجاه وتريدون التغيُر في هذا الاتجاه وتريدون أن تكونوا في حالة عمل دؤوب فإن هذا الكتاب كُتب لكم.



1
بحث

أمسك بي عند الباب بعد انتهاء الندوة، كان يرتسم على وجهه مزيج من الهيجان والتوتر والسعادة والقلق. التقت عيوننا ببعضها البعض: «أستاذي، لديَّ سؤال هل يمكن أن آخذ من وقتك عدة دقائق؟! تفاهمت عيوننا فيما بينها وعندما تتفاهم العيون تصبح الأجوبة على المطالب إيجابية في معظم الأحيان، وهذا ما فعلتُه، قلت له: «يمكن أن أعطيك عدة دقائق» فتضاحكت عيوننا، كانت عيناه مفعمتان بالحرارة وبالشوق وبالبحث:

- أنا معلم، أؤمن بمهنة التعليم ولكنني حزين، قرأت كافة كتبك... أريد التحدث معك...

- ما اسمك؟

- اسمي عارف يا سيدي. عارف أوكورِرْ، كما قلت لك أنا معلم مدرسة، ولقد اخترت هذه المهنة لأنني أحبها جداً ولكنني الآن، وبسبب اختياري لهذه المهنة، أشعر أنني أحمق وضائع، بيد أنني لا أعرف بالضبط سبب إحساسي بالحماقة وبالضياع.

لقد أثَّرتْ لهجته الفجة بي وهو يشرح كيف يبحث عن معنى دون البت في شيء. إذن فأنا أقف وجهاً لوجه أمام شخص يريد أن يمسك

بحياته قبل أن تفقد معناها، شخص يبذل جهداً حثيثاً ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا يريد أو كيف سيصل إلى ما يريد.

- سيد عارف، وهل هذا موضوع يُبحث في عدة دقائق؟

- سيد دوغان، إن الوصول إليك أمر بمنتهى الصعوبة وهذه هي فرصتي الوحيدة، كتبت لك عدة رسائل ولكن لم أتلق الرد عليها. ولذلك أريد التحدث معك ولو لعدة دقائق فقط، لقد دخلت في أزمة نفسية لدرجة أنني ضغطت على نفسي مادياً وراجعت الأطباء النفسيين، ولكنني لم أستفد شيئا.

- أفهم ذلك، أرى أنه من الضروري أن نتحدث.

- نعم.

- ولكننا نحتاج لفترة أطول من عدة دقائق لكي نتحدث.

- حدِّد أنت الومان والمكان الذي تريد وأنا سأذهب إليه.

- غداً السبت، ما رأيك أن نلتقي غداً الساعة الثانية بعد الظهر في حديقة الشاي الموجودة إلى جوار محطة باصات النقل البحري في كاباتاش؟

- مكان مناسب بالنسبة لي، لأنني سأنطلق من منطقة أوسكودار.

- حسناً، إلى اللقاء يوم غد الساعة الثانية بعد الظهر.

ابتسمنا، تصافحنا باليد، كان منفعلاً جدًا، ارتسمت على وجهه علامات السعادة، وأنا بدوري أدركت رغبتي بالتعرف إليه عن كثب.



ليس من السهل أن ألتقي في مجتمعنا بشخص يبحث عن معنى. فمعظم الذين يريدون التحدث معي يسألونني عن كيفية تغيير أحد ما:

«زوجي لا يقيم تواصلاً معي، نصحته أن يقرأ كتبك ولكنه لم يقرأها، ماذا سأفعل؟».

«أمي وأبي، يتشاجران باستمرار مع بعضهما بعضاً، ما الذي عليَّ فعله كي يوقفا الشجار فيما بينهما؟

«معلم ابننا في المدرسة، شخص عبوس يوبِّخ طلابه باستمرار ماذا علينا أن نقول له لكي يصبح معلماً أفضل؟ أم تنصحنا بتغيير هذا المعلِّم؟»

«حماتي تحشر أنفها في كل شيء، لكن زوجتي لا تنزعج من تصرفات أمها بالرغم من انزعاجي، ماذا سأفعل وكيف سأتصرف لكي أمنع حماتي من التدخل في حياتنا؟!»

بالطبع أكثر سؤال يواجهني به الذين يلتقون بي هو «يا أستاذ، ما هو الطريق لتغيير أبناء هذا البلد، وكيف من الممكن أن نصنع منهم رجالاً؟».

بيد أن الأستاذ عارف لم يطرح أي سؤال من أجل تغيير الآخرين. بل قال إنه أدرك أن حياته فقدت معناها وإنه يتلوى ألماً ضمن هذا الفراغ، إنه...

في حالة بحث عن معنى:

أحببت الأستاذ عارف، فأنا أقدِّر كل إنسان يعيش حالة البحث. وأما إذا كان هذا الإنسان معلماً، فإن قيمته تزداد أضعافاً بالنسبة لي، ولذلك قرَّرت أن أخصَّه ببعض الوقت. كان اضطرابي يزداد كلما فكرت بموعد لقائنا يوم غد.



في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم السبت خرجت من بيتي. نزلت سيراً على الأقدام من أق يول إلى فندقلي. عبرت الشارع من

الإشارة الموجودة أمام مبنى المديرية العامة لشركة الضمان الموجودة في الزاوية.

عندما كنت أسير ووجهي متجهاً صوب البحر، رأيت جامعاً وإلى الأمام قليلاً ثمة حديقة وبداخلها تماماً تتوضّع حديقة للأطفال. وفي الحديقة أراجيحٌ محطمةٌ ومكسورةٌ ومقاعد مطليةٌ باللون الأخضر حُطِّم فيها المكان المخصص للجلوس، والناس يجلسون على هذه المقاعد بالرغم من تحطيمها. الآباء والأمهات منشغلون بدفع الأراجيح بأطفالهم وبعض الأطفال يصعدون على الزحلوفات والطيور تبحث في الأرض عن فتات تلتقطه وفي هذه الأثناء هبّت ريح قوية وكيدٍ خفيةٍ راحت تطيِّر الأوراق وأكياس النايلون وتضعها أمامها، هذه اليد الخفيةُ السحرية تحرِّك كافة القمامة الموجودة في الحديقة.

بدأت هذه الريح القوية بدحرجة كيس همبرغر فارغ ملقىً على الأرض، ركضت طفلةٌ عمرها أربع سنوات خلف هذا الكيس، التقطته ثم رفعته إلى الأعلى معجبة بنفسها وخاطبت أخاها الذي يكبرها بسنة واحدة على الأغلب والذي كان يراقبها قائلة: «انظر، لقد التقطت كيس ماكدونالد». اهتم أخوها بها كثيراً فنظر إلى الفتاة بكثير من الغبطة لأن الكيس الذي التقطته كان مثيراً بألوانه البراقة ورسوماته والكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي دونت عليه. وأما الفتاة فكانت مسرورة جداً لأنها أقوى من أخيها، نظرت إليه كمن حقق نصراً والكيس بيدها، كانت تفكر بأنها يجب أن تفعل بعض الأشياء بهذا الكيس ولكنها لم تعرف ماذا ستفعل به. كل تصرفاتها كانت تدلُ على أنها تنتظر اقتراحات أخيها في هذا الشأن.

وصلتُ إلى المقهى قبل السيد عارف. جلست على طاولة قريبة من المضيق. نهضت مبتسما عندما رأيت السيد عارف وتصافحنا.

الأستاذ عارف، رجل في الثلاثين من عمره، ذو شعر فاتح، ويمكن أن

يقال عنه أشقر في بلدنا الذي يكثر فيه ذوو الشعر الداكن. وكان لون شاربيه بلون شعر رأسه، ناحل، حسن الهندام، أنيق. وضع الكتاب الذي كان بيده على الطاولة، لا شك أنه يستغل الوقت الذي يستغرقه الطريق في قراءة هذا الكتاب.

فور جلوسه جاء نادل شاب، نظر إلى وجهينا دون أن يتفوه بأية كلمة، كانت علامات وجهه وطريقة وقفته تشيران إلى أنه ينتظر طلباتنا. طلبنا كأسين من الشاي. قال الأستاذ عارف «ظننت أنك ستطلب بابونج» فضحكنا.

كانت محطة باصات النقل البحري أمامنا تماماً. وكنا نرى مئات الأشخاص الذين ينزلون من باصات النقل البحري عندما تقترب من الميناء. وبعد عدة دقائق بدأ الذين كانوا ينتظرون في الميناء بالصعود إلى الباصات ليحتلوا مكان الذين نزلوا منها. وتتحرك السفينة بعد أن تهتز قليلاً.

كان يومٌ مشمساً، كان نصف الطاولة التي نجلس عليها واقعاً تحت الشمس، وكنت قد جلستُ في المكان الواقع في الظل، علب قطع السكر البلاستيكية موضوعة على طاولات بلا غطاء وفي الجو عدد من المحارم الورقية تتقاذفها الرياح وعندما تشتد تتجه تلك المحارم إلى البحر. قديماً، عندما كنت آتي إلى هذه الحديقة لأقرأ كتاباً كان يلفت انتباهي أمر لم يعره أحد أي اهتمام، فعندما يفتح الناس أغلفة مأكولاتهم، من سكاكر وشوكولا، يتركون الأغلفة على الطاولات فتذروها الرياح وتطيّرها إلى البحر.

أمسك الأستاذ عارف بإحدى تلك المحارم الورقية، التي تتقاذفها الرياح وترميها إلى البحر، وحشرها تحت الكتاب الموجود فوق الطاولة، فشعرت من جديد بحميمية تجاه الأستاذ عارف... ازداد حبي له.

❖ **تعارف...**

بدأت كلامي بالقول: «نعم يا سيد عارف، كنت تريد التحدث معي لبضع دقائق، والآن لدينا وقت أطول بكثير من عدة دقائق، إذ أنني أستطيع الجلوس معك حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، أي لدينا ساعتان كاملتان».

فأجاب كمن يريد البدء بالحديث منذ زمن قائلاً:

- سيد دوغان، شكراً لك على الوقت الذي أعطيتني إياه، إذ لم أكن أحلم مجرد حلم بأن أستطيع التحدث معك كل هذا الوقت ولهذا أشعر بالسعادة تغمرني، فالتحدث معك يحمل الكثير من المعاني بالنسبة لي.

- قلت لي أنك معلم وتؤمن بمهنة التعليم ولكنك تشعر بالتعاسة.

- أجل، اخترت مهنة التعليم لأنني أحبها. ولكنني الآن بدأت أشعر بأنني ارتكبت حماقة باختيار مهنة التعليم، أشعر كأنني ضائع ولا أعلم لماذا أشعر بالحماقة أو لماذا أشعر بأنني ضائع.

- من أين أنت؟

- من مدينة أسكي شهير.

- أين تلقيت تعليمك؟.

- أنهيت الثانوية في إسكي شهير، وأكملت تعليمي العالي في جامعة إيجه.

- منذ متى تعمل بالتعليم؟

- منذ خمس سنوات.

- منذ متى بدأت تشعر بأنك ارتكبت حماقة باختيارك مهنة التعليم؟.

- منذ ثلاث سنوات بدأت أفكر بذلك، وفي السنتين الأخيرتين بدأ هذا الشعور يزداد شيئاً فشيئاً.

- ما الذي جرى يا سيد عارف؟! لا أعتقد أنك، فجأة ودون سابق

إنذار، بدأت تشعر أنك ارتكبت حماقة، فلا شك أن ثمة أحداث ومشاهدات وأفكار دفعتك إلى هذا الشعور.

- نعم هذا ما جرى.

- هل توضّح قليلاً ماذا تقصد بقولك «هذا ما جرى»؟!

أحضر النادل الشاي فوضع كلٌّ منا قطعة من السكر في كأسه وحركنا السكر ورشفنا رشفة من الكأس، جمدت تلك العينان الحيويتان وسرحتا لفترة من الزمن ثم استعادتا حيويتهما. نظر إليَّ وابتسم كان في ابتسامته شيء الخجل والحياء. سحب نفساً عميقاً يعبِّر عن قلق وخوف من أن يُحاسَب على ما سيتحدث به إن لم ينل الإعجاب.

التقت عيوننا من جديد وبدأ حديثه بابتسامة خجولة:

- لم يقبل والداي أن أختار مهنة التعليم، كانا يريدانني أن أدرس إدارة أعمال أو هندسة كمبيوتر أو هندسة كهرباء أو أي مهنة مُريحة ولها رواج في سوق العمل، ولكنني أصررت على مهنة التعليم.

- لماذا؟

- عندما قرأت كتبك أحسست أن مجتمعنا يعاني من أخطاء هامة في موضوع الآباء والأمهات وفكرت بإمكانية إزالة قسم كبير من هذه الأخطاء من قِبل المعلّمين.

- إذن فكرت بأنك تستطيع بدرجة ما سد ثغرات ونواقص الآباء والأمهات.

- أجل يا سيد دوغان.

- ولكني آمل أن تكون قد أدركت وقتها أن التربية التي يقدمها الأهل لأبنائهم في البيت مختلفة في بعض النواحي، من حيث المضمون والشمولية، عن التربية التي تُقدم في المدارس، أي أنك لن تحلَّ في أي حال من الأحوال محل الآباء والأمهات. علماً بأنك تستطيع تقديم مساهمة

هامة في مجال التطور السليم للأطفال كما تستطيع تقديم خدمات قيِّمة لهم.

- يا سيد دوغان، لقد بدا لي أن التعليم الابتدائي، بشكل خاص يوفر الإمكانية لتقديم خدمات ذات معنى للأطفال.

- والآن، ألا يبدو لك كذلك؟!.

- كلاً لم أعد أراه كذلك الآن.

- لماذا؟!

- بداية، وجدت أن بعض المعلمين لا يفكرون في هذا الأمر، فعندما بدأت عملي كان بعض المعلمين القدامى في مدرستي يستغربون حماسي لهذه المهنة وحبي لها وهيامي بها، فبينما كنت أنظر إلى التعليم على أنه يوفر فرصة لتقديم خدمة كبرى كان أولئك ينظرون إليه على أنه «مهنةُ من لا حول له ولا قوة».

- هل سألتهم لماذا ينظرون إلى مهنة التعليم بهذا الشكل؟!

- وهل يُعقل ألاَّ أسألهم، طبعاً سألتهم فقالوا لي: لا توجد أية قيمة للتعليم أو للمعلومة في مجتمعنا وأن المعلمين مهمون فقط بالاسم ولكن بالفعل لا أحد يعطيهم أية قيمة، فلا المجتمع ولا الآباء والأمهات ولا الدولة ولا أحد يعطيهم أية قيمة، وما زاد من إحباط أولئك المعلمين هو وضع المدارس ونظام التعليم والرواتب المخصصة للمعلمين والعلاقة الصارمة بين المعلمين وبين الإدارة التربوية القائمة على «حاضر سيدي» والإهمال الذي يظهره الآباء والأمهات لتربية وتطوير أبنائهم.

إنهم يمارسون التعليم الآن من منطلق «**التعليم من أجل لقمة العيش**» ويقولون إن فكرة «**التعليم من أجل دفع عملية التطور**» هو ضرب من ضروب الخيال، ويقولون أيضاً إن باستطاعة الإنسان بناء عالم من الخيال عندما يكون أعزباً ولا يسعى لتأمين لقمة العيش لأسرته أو عندما

يكون طالباً، ولكن عندما يتزوَّج ويبني أسرة ويدخل في عالم الواقع سيفهم أن ما بناه ليس أكثر من خيال.

توقف عن الكلام لبرهة وبعد فترة وجيزة من التفكير عاد للكلام قائلاً:

- وعندما قالوا لي لا يمكن أن أمضي حياتي في عالم من الخيال وأنني سأفهم الحقيقة في النهاية، بدأت على ما يبدو، بفهم الحقيقة شيئاً فشيئاً.

- ولكني أرى أن معرفة الحقيقة لم تسعدك.

- طبعاً لم تسعدني، فمن ناحية يصعب عليَّ أن أقبل بأن هذه هي حقيقتنا وهذا هو واقعنا، ومن ناحية ثانية أقول إن كانت هذه هي حقيقة مجتمعنا فإن اختياري مهنة التعليم ضمن هذه الحقيقة وهذا الواقع هو فعلاً نوع من الحماقة، ومن السذاجة فعلاً ألاَّ يرى المرء هذه الحقيقة، ولكن في الوقت ذاته أجد صعوبة في أن أقبل أنني مغفل إلى هذا الحد، وباختصار إنني في وضع لا أُحسد عليه.

- أفهمك جيداً.

- سُررت جداً لأنني أسمع منك ذلك فما عُدت أفهم ذاتي.

- أستاذ عارف، لقد أحببت أن أناديك أستاذ عارف بدلاً من سيد عارف، فهل تأذن لي بذلك؟!

- هل هي محاولة لأن أتقبَّل مهنة التعليم؟

- اقبل إن شئت أو لا تقبل، فليس هذا ما أسعى إليه إن ما يهمني وما أسعى إليه، قبل كل شيء، هو معرفة دوافعك ونواياك التي كانت وراء تبنيِّك وجهة النظر الخاصة بك حول التعليم، إذ إنك بهذه النية استطعت أن تستحق وصف «معلم من أجل التطوير» ومهما قال الآخرون لا يهم، فأنت معلم فعلاً.

- حسنا، لماذا أشعر بأنني أحمق ولمَ كل هذا التشوش في دماغي؟

- لأنك لم ترسم إطاراً واسعاً لصورة كبيرة الحجم، فأنت تسعى إلى تفسير فكرة «**التعليم من أجل التطوير**» ضمن نسق ونظام تسود فيه فكرة «**التعليم من أجل لقمة العيش**» فالتعليم من أجل التطوير عبارة عن فلسفة حياة مختلفة تماماً، وأنت «المعلم عارف» ضمن حدود هذه الفلسفة، وإنني أشعر بالسعادة وأعتبر نفسي سعيد الحظ كوني تعرفت على المعلم عارف.

- شكراً يا أستاذي.

- كلما تبلورت فلسفة الحياة هذه وكلما ترسخت أسسها فإنك ستفهم أكثر لماذا أفكر بهذه الطريقة ولكن اسمح لي أن أدوّن بعض المشاهدات هنا:

عندما طلبت مني أن أسمح لك بعدة دقائق من وقتي حينما كنت خارجاً من الندوة، سألتك قائلاً: «يا سيد عارف هل هذا موضوع يمكن أن يُبحث في بِضع دقائق؟» وإنني آمل أن تكون قد أدركت الآن أن الموضوع الذي نتناوله لا تكفيه بِضع دقائق.

- نعم أدركت ذلك، ولكن لم يكن بمقدوري أن أطلب عدة ساعات.

- طبعاً معك حق. أريد الآن أن نتناول هذا الموضوع ضمن إطار من التواصل الواسع النطاق، ما رأيك؟.

- بالنسبة لي أستطيع أن أعطي هذا الموضوع ساعات طوالاً، ولكنني لا أريد أن أشكل عبئاً عليك أو أن آخذ كثيراً من وقتك الثمين. إنني قلق بهذا الشأن.

- أستاذ عارف، تحمل هذه الرحلة، التي سيخلقها هذا اللقاء، بالنسبة لي، معنىً عظيماً، فكما ستساهم بتطويرك كذلك ستساهم بتطويري، يخطر لي أن كلينا معلمان وكلينا نمرُ في مرحلة البحث، وأطفالنا

يشكلون لكلينا أساس رغبتنا بأن نكون معلمين، لأننا نريد أن نصل إليهم وأن نسعى إلى تطويرهم وإلى أن نخلق لهم حياة سعيدة قدر المستطاع.

- حسن يا أستاذي، ولكن متى ومن أين نبدأ؟!.

- الآن ومن هذه النقطة.

- كيف؟ لم أفهم.

- نبدأ الآن ومن هذه النقطة التي نتحدّث عنها.

- لقد بدأنا بالحديث عن تشوش دماغي وعن شعوري بأنني أحمق.

- أجل لنبدأ من ذلك.

- منذ أن زدتني شرفاً بإطلاق لقب «أستاذي عارف» عليّ لم أعد أشعر، كما في السابق، بأنني أحمق ومغفل وساذج.

- حسناً، وماذا يعني لك ذلك؟

- ماذا تقصد؟ عدم شعوري، كما في السابق، بأنني أحمق؟!.

- أجل.

- يعني أنني لست أحمقاً كما كنت أعتقد.

- لماذا؟.

- لأنني أعطي قيمة كبيرة لك ولما تفكر به وأحترمك كثيراً.

- لماذا؟.

- إنك عضو هيئة تدريسية ولك العديد من الأبحاث العلمية والكتب المنشورة واكتسبت إعجاب القرّاء، ولقد تابعت برامجك على التلفاز بكل إعجاب، فأنت إنسان شديد الأهمية في هذا المجتمع ولهذا السبب فإن قيام شخص بهذا الحجم بإعطائي قيمة لي يجعلني أنظر إلى نفسي بإعجاب.

- أستاذي عارف، قلت بأنك اخترت مهنة التدريس لأنها توفّر الإمكانية لكي يقدّم الإنسان خدماته للمجتمع.

- أجل.

- سألتك منذ قليل قائلاً: ألم تعد هذه الإمكانية متوفِّرة؟ فأجبتني: لا لم أعد أرى ذلك ممكناً، وعندما سألتك لماذا؟ بدأت حديثك بعبارة: «لأنني، قبل كل شيء، لم أر المعلمين يفكرون هكذا» وقد لفت انتباهي عبارة «قبل كل شيء» فهل هناك أشخاص آخرون عدا المعلمين أو مؤثِّرات أخرى أثَّرت على علاقتك بهذه المهنة؟.

- أجل يوجد، أثناء دراستي في الجامعة تعرفت على فتاة أُعجبت بها كثيراً وأقمت علاقة معها، وقد رفضت الزواج مني لأنني كنت مصراًّ على ممارسة مهنة التعليم، وهي الآن متزوجة من مهندس إلكترون.

- إذاً صديقتك كانت واحدة من الذين يتقوقعون ضمن فكرة تقليدية ضيقة، وأنا واثق تمام الثقة أن هناك عدد كبير من السيدات الشابات اللاتي سيقدِّرنك كثيراً لأنك اخترت مهنة التعليم، ولكن على ما يبدو لم تتوفر لك حتى الآن فرصة التعرف على واحدة منهن.

- لم أجد فرصة كهذه، ولا أدعي أنني بحثت عن أمر كهذا. أذكر أنني عندما كنت أبحث عن بيت للإيجار منذ سنتين، وجدت بيتاً لكن صاحبه فضَّل أن يؤجره لرجل يعمل في التجارة، وعندما سألته عن السبب قال: أنت معلم ومن الممكن أن تجد صعوبة في دفع الإيجار. فلقد عبَّر عن قلقه دون أي تردد. وكذلك أبي وأمي لا زالا حتى الآن ينتقدانني لأنني لم أختر مهنة تناسب قدراتي وإمكانياتي، حتى أصدقائي الذين كانوا معي في الثانوية لا يزالون حتى الآن يسخرون مني قائلين: ولك أنت مغفل وساذج، ففي حين يسعى الجميع لملء جيوبهم لاهثين وراء مصالحهم تسعى أنت للتضحية بنفسك في خدمة أطفال البلد، ستندم كثيراً إذا استمررت بالتفكير بهذه الطريقة. فكر بنفسك قليلاً وكن على ثقة بأنهم لن يفكروا بأولادك في المستقبل.

- أستاذ عارف، اسمح لي برسم لوحة عامة، وسأطلب منك بعد

ذلك أن تشير إلى المكان الذي تشعر أنك موجود فيه ضمن هذه اللوحة العامة.

❖ لنفترض...

- اللوحة كما يلي: لنفترض أن الرأي العام ووسائل الإعلام والحكومة وكافة المؤسسات المشابهة قد أدركت أن الأسر لم تُهيِّئ أبناءها للحياة، وإننا ندرك أن أفضل طريقة لمعالجة وضع كهذا هي تأهيل الآباء والأمهات وتحويلهم إلى أناس فعالين ومؤثرين ولديهم القدرة على التطوير، بيد أنه من الصعوبة بمكان القيام بعمل كهذا لأنه يتطلب خططاً متطورة وتنظيم ومتابعة واستراتيجية تعليمية والأهم من كل ذلك يتطلب زمناً طويلاً. ومع ذلك سنفترض أننا نقف وجهاً لوجه أمام مجتمع ونظام يُدرك أن المعلمين يستطيعون في مدارسهم القيام بعملية التعليم والتطوير والتأهيل للحياة التي لم يجدها الأطفال ضمن أسرهم.

ولنفترض أيضا أن هذا المفهوم منتشر في كل مكان وبشكل خاص بين المعلمين الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أكثر شرائح المجتمع أهمية ويدّعون بأنهم البناة الذين سيبنون مستقبل المجتمع.

«زملاؤك المعلمون يهنئونك على اختيارك لمهنة التعليم، انطلاقاً من فكرة أنها تخلق فرصة لكي يقدم الإنسان خدماته للمجتمع، ويمدحونك لأنك اخترت واحدة من المهن الأكثر حماساً ومعنىً وشعوراً بالشبع المعنوي بالإضافة لما تؤمنه من دخل عالٍ وتعطي الحياة معنىً عظيماً. وأما صديقتك في الجامعة، فإنها تُقدرك كثيراً لأنك معلم وتشعر بالإعجاب بك. ويقول لك والداك: يا بني كان من الممكن أن تختار مهنة أخرى تؤمن لك دخلاً أعلى ولكنك لا يمكن أن تجد مهنة قيِّمة وذات معنى كمهنة التعليم، فمُبارك لكَ اختيارك هذه المهنة. ويقول لك أصدقاؤك في الثانوية: إننا

فخورون بك يا عارف فلقد كنت الأفضل بيننا في اختيار مهنة ذات معنى، صحيح أن المال مهم ولكن الشعور بأنك تقدم خدمة للمجتمع أكثر أهمية، إننا نقدر لك اختيارك».

عندما كنت مستمراً في حديثي كان الأستاذ عارف ينظر في الأفق وعلى شفتيه ابتسامة.

- أفهم ما تريد قوله يا سيد دوغان.

- والآن سأطرح عليك السؤال التالي: في جو مفترض كهذا هل كان من الممكن أن يتشوش دماغك وأن تشعر بأنك أحمق وساذج لأنك قررت أن تصبح معلماً؟!.

- أعتقد لا. وهذا يعني أنني أثناء اتخاذي قرار فيما إذا كانت المهنة التي اخترتها جيدة أم لا، اعتمدت على تقييمات وردود أفعال الآخرين.

- ولكني أنا أيضاً أدخل في فئة «الآخرين».

- لم أفهم يا معلمي.

- قلت إنك مذ عرفت أنني قدَّرتك لكونك «المعلم عارف» ما عدت تشعر بأنك مغفل وأحمق، وسبب ذلك أنك تقدر أفكاري وتحترمها. وعندما سألتك لماذا؟ قلت أشياء كثيرة منها أنني، على سبيل المثال، عضو هيئة تدريسية ولي أبحاث علمية وكتب منشورة الخ.... وقلت أيضاً إن إعطاء شخص كهذا لي قيمة يجعلني أرى نفسي إنساناً ذا قيمة.

- الآن فهمت.

صَمَتَ. استمر صمتنا لفترة طويلة...

يمر من أمامنا رجل في السبعين من عمره يضع قبعة على رأسه ويشبك ذراعه بذراع إمرأة تضع غطاءً على رأسها ونظارة على عينيها ويسيران بخطوات بطيئة بين الأشجار في طريقهم إلى المقهى. يرتدي الرجل معطفاً وقميصا أبيض وبنطالاً وحذاء من الكتان. وأما المرأة فإنها ترتدي

معطفاً طويلاً. عندما رأيتهما جال في رأسي السيناريو التالي: هذا الرجل موظف حكومي اعتاد التصرف كرجل مرهوب الجانب ومحترم في جوٌ عمل أسسته سلطته، وهو الآن مضطر للاستناد على ذراع امرأة طالما رآها ضعيفة ولم يعطها أية أهمية. فهو لم يعد يستطيع السير بمفرده نتيجة فالج أصابه.

بحثَتْ عيناي عن النادل ولكني لم أجده فجاء نادل آخر هذه المرة بعد أن استلم رسائل عينيَّ، في الثلاثين من عمره ذو شعر مجعد ومظهر جدّي يرتدي قميصاً رمادياً من الأمام وأما أكمامه وظهره فهما باللون الأسود ويرتدي بنطالاً فضفاضاً من الكتّان وقد انتفخت جيوب بنطاله الخلفية كثيراً بسبب الأشياء الكثيرة التي وضعها فيها. طلبت نيسكافيه وماء وأما عارف فقد فضَّل الشاي من جديد. سألَنا النادل فيما إذا كنا نرغب النيسكافيه بالحليب، ونظرات عينيه تقول: «لا شك أنكما تأتيان إلى هنا للمرة الأولى». غادر طاولتنا بكل احترام.

قال السيد عارف: «كنت أعتقد أنني تجاوزت ذلك» وأردف قائلاً: «لا شك أن حقائق البيئة المحيطة بي بدأت شيئاً فشيئاً تضعني تحت تأثيراتها».

– سأعيد ما قلته سابقاً: لأنك لم ترسم إطاراً واسعاً للّوحة الكبيرة فقد تحولت حقائق البيئة المحيطة بك إلى حقائق خاصة بك، وذلك لأنك لم ترسم إطاراً واسعاً يناسب الصورة الكبيرة، فأنت تعمل على تفسير وفهم فكرة «**التعليم من أجل التطوير**» في نسق يُمارَس فيه «**التعليم من أجل لقمة العيش**» علماً بأن «**التعليم من أجل التطوير**» فلسفة مغايرة تماماً.

أحضر النادل ما طلبناه منه، ووضع القهوة بالحليب وكأس الشاي على الطاولة متمنيا لنا أن نشربها بالصحة والعافية ثم ابتعد. ووضع السيد عارف قطعة من السكر في كأسه وأخذت أنا رشفة من فنجاني...

البحث عن معنى:

- يا سيد عارف، أريد الآن التحدث عن مفهوم البحث عن معنى لأنك تمر الآن في صلب هذه المرحلة.

- نعم، أنا أيضاً أرى ذلك.

- أعتقد أن هذا الموضوع كان السبب الأساسي الذي جعلك تذهب إلى عيادة العلاج النفسي.

- معك حق، ولكن أقولها بكل أسف وحزن، لم يستطع المعالج النفسي الذي ذهبت إليه تقديم أية مساعدة لي.

- ربما يكون المعالج النفسي الذي ذهبتَ إليه غير قادر على تقديم المساعدة حتى لنفسه في معركة البحث عن معنى.

- ربما، لا أعرف، فلقد قال لي عبارات جاهزة لا تعني لي أي شيء: «إنك تحمِّل الأمور أكثر مما تحتمل، كن عملياً وواقعياً أكثر من ذلك، لا تولي أهمية كبيرة لما يقوله الآخرون، يجب أن يعيش الناس حسب ما يفرضه واقعهم لا كما يحلمون ويأملون» وجميعها عبارات يمكن أن أقولها لنفسي، وبالأحرى لو تحدَّثت مع أي رجل في الشارع لقال لي العبارات ذاتها أو لنطق بما يشبهها.

- لم توضع في تركيا، حتى الآن، القوانين التي تحدد الأشخاص الذين يمكنهم ممارسة علم العلاج النفسي أو علم النفس الطبي، ولهذا السبب يجب ألاَّ ننظر إلى كل معالج نفسي على أنه عالم نفس ماهر، فمن الواجب إجراء بحث أولي لمعرفة المراحل التعليمية والتأهيلية التي مرَّ بها المعالج النفسي.

- لقد ذهبت إلى المعالج المذكور لأنه من معارف أحد أصدقائي ولم يكن لديَّ وقتئذٍ أية فكرة عن مهارته.

أخذت رشفة من فنجاني وقلت:

- تبدأ الخطوة الأولى في عملية البحث عن معنى بطرح أسئلة حساسة وجذابة، يمكن لهذه الأسئلة أن يطرحها الإنسان على نفسه أو يمكن أن يطرحها عليه شخص آخر فيقدم الفرصة للتفكير بإيجاد أجوبة لها .

- مثل ماذا؟!.

- أسئلة بسيطة وسهلة، كتلك التي يطرحها الأطفال، بكل براءة، على أنفسهم.

- مثال...

- «من أنا؟» مثلاً .

انتفض السيد عارف كمن فوجئ بوجود طفل أمامه يطرح عليه هذا السؤال، وقال:

- قلت إن الخطوة الأولى في عملية البحث عن معنى تتمثل بإمكانية طرح أسئلة حساسة، حسناً وما هي الخطوة التالية؟.

- البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة.

- لا شك أنني لا أستطيع البحث عن أجوبة لأنني لا أعرف ما هي الأسئلة التي يجب أن أطرحها على نفسي.

- إنني أرى أنك تبحث عن أجوبة لأسئلة لم تطرحها على نفسك ودون أن تعرف ما هي الأسئلة التي ستطرحها

- كيف ذلك؟!.

- إنك مدرك للحالة النفسية التي تعيشها، فأنت تنظر إلى نفسك على أنك رجل أحمق وتشعر بالتعاسة وتعتقد بأن اختيارك كان خاطئاً .

- نعم هذا صحيح.

- وتريد أن تفهم سبب شعورك هذا، وبعد ذلك طبعاً تريد التخلص من هذا الشعور وهذه الأحاسيس.

- ولكن لا أعرف ما هي الأسئلة التي تريدني أن أطرحها على نفسي.

- الخطوة الأهم هي قدرتك على طرح الأسئلة الحساسة، وأنت لم تطرح بعد على نفسك مثل هذه الأسئلة.

- قلت بأنها أسئلة بسيطة من النوع الذي يطرحه الطفل، بكل براءة، على نفسه كـ (من أنا؟) على سبيل المثال.

- حقيقة، إذا طرحت سؤالاً كهذا على الأطفال الصغار فإنهم سيعرفون جوابه مباشرة، فبعضهم سيقول: «أنا ابن أبي» وبعضهم سيقول: «أنا ابن أمي» إذ أنهم سينظرون إلى الشخص الأقوى في منزلهم والأقرب منهم وإلى الذين يثقون به كثيراً ثم يجيبون على هذا السؤال من خلال علاقتهم به، فإذا كان الأب هو الشخص الأقوى في حياة الطفل سيقول: «أنا ابن أبي» وإذا كانت الأم فسيقول: «أنا ابن أمي» وأما الأطفال الذين يقولون: «أنا ابن أبي وأمي» فإنهم أولئك الأطفال الذين ينظرون إلى أبيهم وأمهم على أن كليهما الأقوى والأقرب منهم.

- وعندما يكبرون بماذا سيجيبون؟!.

- عندما يكبر الإنسان تتعقَّد الأبعاد الاجتماعية المحيطة به، فعندما يطرح الإنسان على ذاته سؤالَ: «من أنا؟» فإنه سيجيب حسب النسق والإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه.

- لم أفهم بالضبط ما هو النسق الاجتماعي الذي تقصده يا سيد دوغان؟!.

- ما أقصده بالنسق الاجتماعي لشخص ما هو: وضعه الاجتماعي ومع من يجلس وفي أي موضوع يبحث وأين يتحدث به.

- فعندما يكون أحد الآباء جالساً مع الآباء الآخرين في مدرسة ابنه، وجاءه من يسأله: «من أنت يا سيدي؟» فإنني أعتقد أنه يجيب من دون أي

تردد: «يا سيدي أنا والد مصطفى» لأن النسق الاجتماعي هنا عبارة عن مكان يتواجد فيه أولياء أمور التلاميذ في مدرسة ما. وسيكون جواب الشخص ذاته على السؤال ذاته متناسباً مع النسق الاجتماعي الذي يكون فيه: «أنا زوج ليمان خانم»، «أنا دكتور»، «إنني جاركم يا سيدي»، «أنا الابن الأكبر للسيد حسني» كما يمكنه تقديم أجوبة أخرى مشابهة.

- إذا كان الجواب مرتبطاً بالحالة الاجتماعية التي يعيشها الفرد فمن الممكن أن يجيب: «أنا تركي» أو «أنا مسلم والحمد لله» أليس كذلك؟!.

- أجل هذا صحيح.

- حسناً، ولكن بذلك تكون أنت قد أعطيتني الجواب الذي سأرد به على هذا السؤال الذي سأطرحه على نفسي، فضمن سياق العلاقة التي أقمتها وطورتها معك يمكنني أن أجيب بعبارة «أنا الأستاذ عارف».

- سأواصل طرح الأسئلة عليك وأنت حاول أن تجيب عليها بكل جوارحك.

- الآن؟!

- أجل الآن.

- حسناً.

- إذا نظرنا إلى أبعد من كونك معلم، من أنت؟.

- إنسان صادق ومجتهد وذو نوايا حسنة ويحب الناس ويعمل على تقديم المساعدة لهم.

- وأبعد من كونك إنسان يتميز بهذه الصفات، من أنت؟.

فكر السيد عارف قليلاً قبل أن يجيب، ضيَّق عينيه ونظر عبر الزجاج إلى الخارج وهمس بينه وبين ذاته مكرراً السؤال ذاته «أبعد من كوني إنسان.. من أنا؟» ثم نظر إليَّ وقال: «ليس في ذهني أي جواب لهذا السؤال».

تبادلنا النظرات فيما بيننا وضحكنا.

- في الوهلة الأولى يبدو هذا السؤال بسيطاً، ولكن إذا فكر فيه الإنسان سيكتشف أنه ليس بهذه السهولة، أليس كذلك؟!.

- نعم هذا صحيح، فإذا كان هذا السؤال البسيط معقداً بالنسبة لي، أنا الإنسان المتعلم، فكيف سيكون بالنسبة لإنسان عادي لم يتلق التعليم الذي تلقيته؟.

- لا يتسنى لهؤلاء فرصة طرح أسئلة كهذه على أنفسهم، فالوسط الاجتماعي الذي نشؤوا فيه يذكّرهم دائماً بالنسق والوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه.

- من أول من طرح هذا السؤال؟.

- معظم الذين استطاعوا طرح هذا السؤال واستمروا في البحث عنه هم المفكرون والفلاسفة.

- حسناً، وما هي الأجوبة التي استطاعوا التوصل إليها؟.

- وصل الفلاسفة إلى أجوبة مختلفة، ولهذا السبب طوروا فلسفات مختلفة عن بعضها البعض.

- لا شك أن هذا السؤال أساسي بالنسبة للفلاسفة على اعتبار أنه أدى إلى نشوء وتطوير فلسفات مختلفة.

- يطلقون على المجال المتمحور حول هذا الموضوع في الفلسفة الحديثة مصطلح أنطولوجيا ontoloji وهو مكون من مقطعين أنطو onto، وهي كلمة يونانية تعني الوجود، ولوجي loji، وتعني علم أو مبحث، وبذلك تكون الأنطولوجيا هي مجال دراسة الوجود أو مصطلح الوجود أو علم الوجود. وأعتقد أن أساتذة الفلسفة يستخدمون مصطلح أنطولوجيا كما هو، وباختصار هو مصطلح يُطلق على مجالات الدراسة أو التفكير المتعلقة بالوجود.

- سيد دوغان هل أنجزت دراسة خاصة في المجال الفلسفي؟.

- لا، لم أنجز دراسة خاصة. لكني وانطلاقاً من رؤيتي للفلسفة على أنها مجال دراسة عامة وأساسية، أسعى لقراءة المواضيع الفلسفية الأساسية كلما وجدت فرصة لذلك. وأتابع، بشكل خاص، التطورات التي تشهدها الفلسفة الحديثة.

- لماذا؟.

- لأن ثمة بُعدٌ فلسفي، أدركنا ذلك أم لم ندرك، خلف كافة المسائل التي نبحث عنها كأفراد أو كمجتمع، ولن نفهم المشكلة التي نبحث عن حل لها، من كافة جوانبها، ما لم ندرك البعد الفلسفي لها بشكل واضح وصريح. وطبعاً لن نصل إلى حل حقيقي ومتكامل للمشاكل حين لا نفهمها بكل أبعادها.

- وطبعاً يصح هذا الكلام بالنسبة للأفراد كما يصح بالنسبة للمجتمعات.

- برأيي هذا أمر مؤكد.

- وهذا يعني أنه ما لم أستوعب الأبعاد الفلسفية للمشاكل التي أعيشها فإنني لن أستطيع فهم السبب الذي أفقَدَ حياتي معناها وجعلني أشعر بأنني إنسانٌ أحمقٌ.

- نعم، ولهذا السبب فهمت من خلال طلبك الحديث معي بعد انتهاء الندوة لعدة دقائق فقط بأنك لا تعرف شيئاً يُذكر عن الأبعاد الفلسفية لمشكلتك.

- الآن دخلنا في مرحلة إدراك الأبعاد الفلسفية. أليس كذلك؟!.

- نعم، إننا الآن نبحث في الأسس الفلسفية للمشاكل التي تشغل عقلك.

- الآن بدأت أفهم جيداً ما دار بيننا من أحاديث والسبب الذي جعلنا نتحدث بها.

- هناك ثلاث مجالات أساسية للفلسفة، أحدها الأنطولوجيا أو علم الوجود الذي تحدثنا عنه منذ قليل، وأما المجال الفلسفي الآخر فهو الأبستمولوجيا Epistemoloji وهو مصطلح مكون من مقطعين: أبستم Episteme وهي كلمة من اللغة اليونانية القديمة وتعني المعلومة، وبذلك يكون الأبستمولوجيا هو المجال الفلسفي الذي يبحث في طبيعة المعلومة ومصادرها وحدودها، فعندما يقول الشخص الذي يعمل في مجال الأبستمولوجيا أنه يعرف شيئاً ما أو شخصاً ما فإن هذا يعني أنه يبحث في موضوع «ما الذي يريد أن يقوله هذا الشخص» أي يبحث في موضوع «ما الذي يعنيه معرفة شيء ما».

وأما المجال الثالث للفلسفة فهو الأخلاق، وهو العلم الذي يدرس السلوك الأخلاقي والاجتماعي. والذين يعملون في هذا المضمار يبحثون في «ما يجب على الإنسان القيام به».

- هل تتم دراسة هذه المجالات بشكل منفصل عن بعضها البعض؟.

- يمكن التفكير بها وكأنها منفصلة عن بعضها البعض، ولكن إذا ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة فإننا نرى أن العديد من الفلاسفة قد أقاموا علاقة عضوية بين هذه المجالات ومن خلال ذلك طوروا أنظمة التفكير لديهم.

- ماذا يعني إقامة علاقة عضوية؟.

- بما أن الإنسان كلٌ متكاملٌ، فإنه عند تناول الإنسان بالدراسة أو عند البحث عن أي موضوع يتعلق بالإنسان، أطلق على عملية مناقشة هذا الموضوع من خلال تأسيس علاقة عضوية مع كافة جوانب الإنسان دون إغفال وحدته وتكامله، عبارة «النقاش من خلال إقامة علاقة عضوية».

- فهمت.

- أعطى الفلاسفة أهمية متفاوتة لكل مجال من هذه المجالات، إذ

من الطبيعي أن يعطي الفيلسوف أهمية كبيرة للمجال الذي يتقنه ويتبناه وأن يطور مصطلحات مفصلة جداً في هذا المجال. فقد كانت الأنطولوجيا، على سبيل المثال، تمثل المجال الأساسي لفلسفة أفلاطون. حيث أسس أفكاره، المتعلقة بالمعرفة والسلوك على هذه الفلسفة الوجودية، ومن جهة أخرى نجد أن المفكر الفرنسي الشهير ديكارت قد أعطى أهمية للمعرفة وجعل السلوك والوجود أساساً لمجاله المعرفي. وأما الباحثون الذين أعطوا أهمية لموضوع «كيف يجب أن يتم السلوك» كميشيل فوكو Michel Foucault فقد جعلوا من الفلسفات الأخلاقية أساساً لفلسفاتهم الوجودية.

- وهذا يعني أنه لا يوجد بين هذه المجالات الفلسفية الأساسية مجالٌ له الأهمية الأساسية وله الأولوية بالنسبة لغيره من المجالات.

- كلا، لا يوجد شيء من هذا القبيل، فكل فيلسوف يحدد هذه الأولوية ضمن منظومة المفاهيم الخاصة به.

- إذا أردت أن أعرِّف هذه المجالات بما يخصني فهل يمكنني أن أدَّعي بأنني أصبح مفكراً ضمن مجال الأنطولوجيا عندما أسأل «من أنا»، وعندما أهتم بأسئلة مثل «ماذا أعرف؟» أو أريد معرفة ما الذي يريد طلابي أن يعرفوه وكيف يجب أن يعرفوه؟ «أكون قد لامست المسائل الأبستمولوجية، وأما عندما أطرح أسئلة مثل «كيف يجب أن أتصرف وكيف يجب أن يكون سلوكي وماذا يجب أن أعمل؟» أكون قد دخلت إلى مجال الفلسفة الأخلاقية.

- تماماً كما قلت.

- طرحتُ سؤالاً يقول «من أنا؟» ووقفت عند حدوده، ولم أستطع الإجابة عليك عندما سألتني: «من أنت أكثر من كونك إنسان صادق ومجد وخارج حدود الخصائص المشابهة؟. هل يمكن أن نعود الآن إلى هذه النقطة؟!.

مرَّ من أمامنا طفل في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمره، يعمل في مسح الأحذية، يتنقل من طاولة إلى أخرى وهو يحمل صندوق بويا في إحدى يديه وفي اليد الأخرى يحمل علبة كونسروة فارغة تزن أربعة أو خمسة كيلو غرامات. على إحدى الطاولات يجلس شاب، ذو شاربين كثيفين، بجانب امرأة سمراء. أشار إلى الطفل ماسح الأحذية، فجاء على الفور وشرع بطلي حذائه. كان شعر المرأة المنسدل على كتفيها طويلاً وناعماً. تبدو هذه المرأة من منطقة شرق الأناضول، بيد أنها لم تكن ككل نساء تلك المنطقة اللاتي يطغي عليهن الخجل والشعور بالاضطهاد. أسندت رأسها على يدها اليمنى التي تمسك سيكارتها، ووضعت في معصمها لفافة قماشية سوداء تستخدمها في ربط شعرها. كان يبدو على هذه المرأة الاهتمام بالطفل الذي يمسح الحذاء، إذ لم تكن عيناها الواسعتان تفارقانه وهي تحدثه عن أمر ما، أما الطفل فقد كان منهمكاً بعمله دون أن ينظر إلى المرأة، وكان بين الحين والآخر يرد بكلمة أو كلمتين. لم يكن يبدو على الرجل الذي يلمع حذاءه أنه مسرور من وجوده هنا. كان يرتدي قميصاً مخططاً وبطنه قد ارتخى بعض الشيء فوق بنطاله. فكرت بأن كل شخص هنا قد يكون مشوَّشاً، ولكن لكل واحد منهم منظومته العقلية الخاصة به.

لماذا تُظهر هذه المرأة كل هذا الاهتمام بالطفل الذي أمامها؟! لا شك أنه لامس أحداثاً عاشتها خلال حياتها، ولكن ما هذه الأحداث؟!. آه لو أستطيع معرفة ذلك؟. لا شك أن هذه الأحداث متعلقة بحكاية أناضولية خاصة بتلك المرأة. تولَّدت لديَّ رغبة عارمة بمعرفة حكاية كل إنسان وتمنيت لو أستطيع معرفة كل إنسان ضمن قصة حياته وأن يكون لي علاقة بهم، وشعرت بأنني وصلت إلى نضج يسمح لي بتقبلهم دون معرفة مسبقة بهم، وأحسست بطاقة من المحبة تتملكني، طاقة لم يوضع لها اسم حتى الآن.

❖ **من أنا؟:**

شعرت أنني أقمت مع السيد عارف علاقة ضمن هذه الطاقة.

رغبت بالعودة إلى الموضوع الذي كنا نتحدث فيه...

- سيد عارف، اسمح لي بإجراء اختبار بسيط...
- أي اختبار تريد إجراءه؟.
- اختبار سنجريه وأنت جالس في مكانك مغمض العينين.
- حسناً.
- اجلس بشكل مريح على كرسيك واغمض عينيك. والآن، فكر بجسدك، تفحصه جيداً، وحاول إدراكه بأكمله من رأسك وحتى أخمص قدميك... هل تشعر بتوتر عضو من أعضاء جسدك؟ أطلب منك الآن إدراك الأعضاء التي تشعر بالراحة والأعضاء التي لا تشعر بالراحة، بالأعضاء المتعبة والمتكاسلة والأعضاء القوية والحيوية.

«الآن، اختبر أحاسيسك، ما هي الأحاسيس التي تشعر بها الآن؟ هل تشعر بالانفعال؟ هل لديك أي قلق؟ هل أنت سعيد؟ هل تشعر ببعض التعب؟ هل أنت هادئ؟.

«والآن، اختبر أفكارك، بماذا تفكر الآن؟... ما هي الأفكار التي تجول في عقلك... هل تفكر بالأحداث التي تجري الآن أم أنك تفكر بما حدث في الماضي أم بما سيحدث في المستقبل؟... هل تفكر بالأشياء التي تحدثنا بها فقط أم تخطر ببالك أفكار متعلقة بحياتك الشخصية أم بالتعليم أم تخطر ببالك أفكار لها علاقة بجوانب أخرى في حياتك؟...»

في هذه الأثناء أحضر النادل كأساً من الماء وكأساً من اللبن إلى الطاولة التي بجانبنا، لامس طاولتنا أثناء عودته فبدت على السيد عارف رغبة بأن يفتح عينيه.

- يمكنك فتح عينيك الآن.

بدأنا حديثنا بعد مغادرة النادل...

- هل يمكنك الرد على سؤال «من أنت؟» بالقول: أنا جسدي؟.

- صحيح أنَّ جسدي جزء مني ولكنه لا يصلح أن يكون جواباً على سؤال «من أنا؟»

- فعلاً لا يصلح، فعندما كنت صغيراً كانوا ينادونك قائلين «يا عارف» وإذا عرضوا عليك صورة التُقطت لك عندما كنت صغيراً مع عدة أطفال وطلبوا منك قائلين: «دُلَّ على نفسك في الصورة» فإنك تجد نفسك بين هذه المجموعة من الأطفال وتدل عليها قائلاً «هذا هو أنا» علماً بأن جسد هذا الطفل، الذي هو أنت، مختلف تماماً عن جسد عارف الحالي. فمليارات الخلايا في جسدك تجددت، ولكنك من جديد تستطيع وبكل راحة ودون أدنى شك أن تقول أن ذاك الطفل وعارف الحالي هما شخص واحد.

- طبعاً أستطيع.

- هل يمكن أن نقول الشيء ذاته بالنسبة لأحاسيسك وأفكارك؟.

- أتقصد المعنى المتضمن «أنا لست أفكاري»؟.

- طبعاً هذا المعنى.

- طبعاً أستطيع، فأنا لست أحاسيسي ولست أفكاري.

- قلت بأنك راجعت المعالج النفسي...

- أجل.

- وقلت أيضاً أنك لم تحصل على نتيجة مفيدة...

- لم أحصل على نتيجة، وأكثر من ذلك، أحسست بضيق شديد.

- لم يستطع علم النفس العلمي خلال سنين طويلة التمييز بين الوعي وبين ما يتضمنه هذا الوعي، فالوعي هو الشيء الذي يُدرِك، أما مضمونه فهو الشيء الذي يُدرَك وهناك فرق كبير بين هذين المفهومين.

فالذي يُدرِك والذي يراقب هو الوعي بينما مضمون الوعي فهو المدرَك أو المراقَب.

- «فعندما أغمضت عينيك راقبت جسدك وأحاسيسك وأفكارك، فالذي كان يراقب هو وعيك بينما إدراكك المتعلق بجسدك وأحاسيسك وأفكارك فهو مضمون هذا الوعي».

- نعم، أستطيع فهم ذلك ولكن ما علاقة كل ما تحدثت به بسؤال «من أنا».

- سأروي لك قصة، فربما عندما تسمعها تفهم جيداً علاقة ما تحدثنا به بسؤالك:

مرَّت مجموعة من العمال، المكلفين ببناء سدٍّ، من القسم الشحيح من النهر إلى الضفة المقابلة وعند وصولهم قال رئيس العمال: «لقد نقصت المجموعة شخصاً واحداً» وراح يعد مجموعته، وفعلاً كان أحد أفراد المجموعة غير موجوداً، لأن رئيس العمال نسي أن يعُد نفسه ضمن المجموعة. فطلب من معاونه القيام بعملية العد، ولأن المعاون أيضاً نسي أن يعد نفسه قال إن المجموعة نقصت فرداً واحداً، وبعد ذلك راح كل عامل يعد أفراد المجموعة، وقد حصلوا جميعهم على النتيجة ذاتها، لأن كل واحد منهم نسي أن يعد نفسه ضمن المجموعة. وفي النهاية انتبه أحد القرويين المارين بجوارهم إلى ما هم عليه، ففهم مشكلتهم وبعد أن عدَّهم قال: «لا يوجد أي نقص في مجموعتكم» حينها فقط فهموا أنه يجب على عدَّاد المجموعة أن يعدَّ نفسه أيضاً.

وأما بالنسبة لك أنت فقد كنت، أثناء بحثك عن جواب لسؤال «من أنا؟» تُعد فقط مضمون وعيك: أنا معلم، أنا أم، أنا دكتور، أنا طفل، الخ... ففي معظم الأوقات لا نضيف الوعي الذي يطرح السؤال إلى حساباتنا، علماً بأن جواب السؤال متضمن في الوعي: فأنا عبارة عن وعيي الذي سأل كل هذه الأسئلة، والذي راقب والذي أدرك.

- هل العلاقة بين عارف الطفل وعارف الشاب الذي أمامنا الآن نابعة من ديمومة واستمرارية هذا الوعي.

- إن الذي جعلك تشير إلى أحد الأشخاص في الصورة وتقول: «هذا هو أنا» هو ديمومة وعيك واستمراريته. وحتى إن تغيُّرت أحاسيسك وأفكارك وجسدك وأدوارك الاجتماعية فإن ديمومة الوعي هي التي تحافظ على الجوهر «أنا».

- لا بد أن ديمومة الوعي هذه هي التي تبين للذين يبدلون جنسهم بأن الشخص الذي كان قبل عملية التبديل الجراحية والشخص الذي نتج عنها هما الشخص ذاته.

- كيف؟! لم أفهم جيداً.

- أقصد هناك أشخاص أمضوا جزءاً من حياتهم رجالاً وبعد ذلك تحولوا إلى نساء، أو بالعكس. فهؤلاء أيضاً إذا عرضت عليهم صورة التُقطت لهم قبل عملية التبديل فإنهم يشيرون بسهولة إلى شخص في الصورة ويقولون: «هذا أنا».

- آ آ آ... نعم فهمت إنه مثال جميل.

❖ زنزانة خـــاصة:

- لم يولِ علم النفس العلمي خلال سنين طويلة أية أهمية تُذكر للفرق بين الوعيَ الذي يُدرِك والذي يراقب وبين مضمون الوعي المراقَب والمدرَك. هل تعرف ما الذي حصل نتيجة ذلك؟!

- كلا، لا أعلم. ما الذي حصل؟.

- عندما لم يتم التمييز بين الأنا المراقِب والأنا المراقَب سُجِن الناس ضمن الشيء الذي يُراقَب، فعملوا على التعريف بأنفسهم حسب أدوارهم

الاجتماعية؟ «أنا معلم، أنا نجار، أنا أب، أنا أم، أنا مسلم، أنا امرأة، أنا رجل... وطبعاً بقوا سجناء في هذه الأدوار.

توقفت عن الكلام فترة من الزمن، ورشفتُ رشفة من قهوتي ونظرتُ إلى عيني السيد عارف ورددت العبارة التالية كلمة، كلمة:

- إن - زنزانة - كهذه - تقف - وراء - لُب - الأزمة - التي - تعاني - منها.

كان السيد عارف يستمع بدقة إلى ما أقوله، ولم تكن عيناه تستطيعان إخفاء الانفعال الذي ألمَّ به. فأحسست بأنه صار باستطاعته رؤية الكثير من الأشياء ويفهمها.

بعد فترة من الصمت بدأ حديثه قائلاً:

- لقد جروني إلى هذه الزنزانة دون أن أدري. لا، لا، هم لم يفعلوا ذلك، بل أنا دخلت إلى هذه الزنزانة بإرادتي وقفلت بابها على نفسي.

- سيد عارف، أنا متأكد تماماً من أنك استوعبت هذا الموضوع، إن هذه الزنزانة من النوع الذي لا أحد يستطيع فتح بابها إلا السجين نفسه.

- وهل فتحتُ الباب يا أستاذي؟! أقصد ألم أعد موجوداً داخل الزنزانة؟!.

- لك عندي خبرين: واحد جيد والآخر سيء، والخبر السيئ مكوَّن من خبرين، أولهما: لا لم تخرج بعد من الزنزانة. والآخر: وأنا أيضاً لا زلت داخلها.

- هل أنت أيضاً داخل الزنزانة؟!.

- نعم، ولكن ربما أنا لا أبقى فيها كامل أيام الأسبوع، ولكنني لا زلت حتى الآن داخلها. فيما سبق كنت أمضي كامل وقتي فيها عندما أفكر في موضوع ما وعندما أتحدث وعندما أنجز عملاً. ولكني الآن لا أكون داخل الزنزانة عندما أفكر أو أتحدث في بعض المواضيع أو عندما أخطط لعمل

ما، وأما في مواضيع أخرى فلا زلت داخلها. فعلى ما يبدو كنت سابقاً أبقى في الزنزانة سبعة أيام في الأسبوع، ولكنني الآن لا أمضي فيها إلا أيام الثلاثاء والأربعاء.

- ولماذا الثلاثاء والأربعاء؟!.

- إنهما يومان ذكرتهما عفو الخاطر ولا أقصد بهما تحديد يوم بذاته... فهذه الزنزانة تعني المكان الذي ألجأ إليه حين لا أصل إلى مرحلة الإدراك، وهو كذلك المكان الذي أمضي فيه بعض أيامي دون دراية مني بذلك.

- هل هناك من نجا من هذه الزنزانة مائة بالمائة؟!

- نعم يوجد، إنهم قليلون، ولكنهم موجودون.

- من هؤلاء؟!.

- لهؤلاء اسم خاص، لا شك أنك سمعت بالكلمة ولكنك لم تسمع بأنه تم استخدامها في هذا المجال.

- أي كلمة؟!.

- الاسم الذي أُطلق على الذين خرجوا من هذه الزنزانة مائة بالمائة والذين أدّعي وجودهم رغم قلة عددهم.

- ما هو الاسم الذي يُطلق عليهم؟!.

- المحارب.

- المحارب؟!.

- أجل.

- ولكنه اسم لا يذكّرنا بالسلام والحرية والسعادة.

- هذا صحيح، لأنه لا يمكنك التعرف على المحارب لكونك واحد من الموجودين في الزنزانة، وللتعرف على المحارب وفهمه يجب الخروج من الزنزانة

- حسناً، وهل يمكنني، أحياناً على الأقل، الخروج من هذه الزنزانة؟.

- بداية، تحدثت عن الخبر السيئ، والآن أقدم لك الخبر الجيد وهو: في اللحظة التي تدرك فيها أنك موجود في الزنزانة تكون قد خطوت الخطوة الأولى على طريق المحارب.

- يا أستاذي، تقول بأنني خطوت خطوتي الأولى بالرغم من أنني لم أصل إلى مرحلة الإدراك الكامل، فهل أمتلك القدرة على المضي في رحلة المحارب؟.

- لا أعلم. أريد أن أرافقك في هذه الرحلة، ولن تكون رحلة خاصة بك وحدك، إذ أنها ستكون بالنسبة لي أيضاً رحلة ذات معنى عميق.

- إن الخروج في رحلة كهذه يجعلني أضطرب جداً يا سيد دوغان، لا أعرف كيف حدث ما حدث ولكنني أشعر بأنني أصبحت عارف الأقوى والأكثر سعادة والأكثر حيوية من عارف الذي التقى بك أول مرة.

نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى الرابعة، عندما رآني أنظر إلى الساعة نظر هو الآخر إلى ساعته.

في هذه الأثناء، نهض شابان وفتاتان إحداهما محجبة، عن إحدى الطاولات التي أمامنا. فصرخت سيدة، عندما رأتهم ينهضون، قائلة: «انظر هناك طاولة فارغة» ومشت مسرعة بين الطاولات والكراسي، وما أن تناول الشخص الأخير من المجموعة حقيبته وعلبه صغيرة، حتى وضعت حقيبتها وأشياءها على الطاولة وصرخت قائلة: «هيا يا عمر، انظر هنا أفضل، تعال» بناء على هذا النداء تقدم رجل خمسيني نظيف الألبسة ذو لحية مستديرة ومر بجانبي وهو يجر رجله اليسرى بسبب فالج كان قد أصابه. كان القلق يبدو على المرأة وهي تنظر إلى الرجل الذي يسير ببطء شديد لأنها جعلته يسير بين الطاولات والكراسي، وفي الوقت ذاته كان يبدو على وجهها علامات الانتصار لأنها اختارت مكاناً أفضل من الذي كانا يجلسان فيه.

قال السيد عارف:

- لقد انتهى الوقت. متى أستطيع رؤيتك ثانية؟.

- نعم لقد انتهى وقتنا، هل تعلم إلى أين أوصلنا حديثنا اليوم؟.

- بالنسبة لي أوصلني إلى نتيجة مفادها أنني شخص قليل الحيلة، متردد فيما يريد ويرغب، ويعيش حياته كما يريد له الآخرون أن يعيشها.

- أصدرت أحكاماً قاسيةً على نفسك يا سيد عارف. ما أردته هو طرح سؤال فلسفي، فلقد ناقشنا في حديثنا اليوم موضوع البحث عن معنى في حياة الفرد. هذا ما أردت قوله.

- فهمت يا أستاذي، متى سنلتقي ثانية؟.

أخرجت مفكرتي من جيبي ونظرت فيها وقلت: «نستطيع أن نلتقي يوم السبت القادم». فاقترح قائلاً: «يمكن أن نلتقي في أي يوم تريده، على اعتبار أن المدارس معطلة» فقلت: «أكثر يوم يناسبني هو يوم السبت القادم». وأردفت قائلاً:

- لنلتقِ في حديقة فنار بهجة في الضفة المقابلة، هل نستطيع أن نلتقي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت القادم أمام الهرم؟.

- حسناً يا سيد دوغان، سأكون هناك في الموعد المحدد.

افترقنا هنا. مشيت على ساحل البحر باتجاه منطقة فندقلي. كان ثمة طفل في الرابعة من عمره، يبدو الاضطراب والخوف واضحاً عليه بسبب وقوفه على ساحل المضيق، يمسك بقوة بيد مراهق في السابعةعشرة أو الثامنة عشرة من عمره - ربما يكون أخاه الكبير أو عمه أو خاله- يجلس القرفصاء بجانب الطفل ويضمه بيده اليسرى إلى صدره. أما الطفل الصغير فقد كان يتحدث باضطراب وانفعال واضحين، والشاب يستمع إليه ويرد على أسئلته بكل جدية. إن مراقبتي لحديث المراهق مع هذا الطفل المحظوظ فعلاً، كإنسان لإنسان، ملأت روحي

بمحبة دافئة وعظيمة للإنسان. وخطر ببالي أن أذهب إلى هذا المراهق وأهنئه على ما يفعله.

تابعت سيري، ثمة أناس كثيرون، بعضهم يجلس على المقاعد وبعضهم الآخر يجلس على الصخور الموجودة على الشاطئ ومجموعات أخرى تمددت على العشب، شخص واحد يتصفَّح صحيفة موجودة بيديه، والآخرون ينظرون في الأفق البعيد.

لفت انتباهي شاب وفتاة يتجهان نحوي. لفَّ الشاب ذراعه على عنق الفتاة بطريقة كأنه يقول فيها: «يا عالم، يا بشر، لتعلموا جميعكم أن هذه الفتاة لي». وأما الفتاة فقد كانت مسرورة من هذا الوضع، والشاب أيضا كانت تغمره السعادة، وكلاهما منفعل وكلاهما مندهش بعض الشيء. تذكرت، وأنا أنظر إليهما، أيام شبابي، فالمهم في هذه الحالة ليست شخصية الإنسان الذي بجانبك، بل المهم هو فيما إذا كان هذا الشخص يناسب الصورة التي طبعتها في مخيلتك عنه. كم تمنيت، في أيام الشباب والجامعة، أن تكون لديَّ فتاة تلبس تنورة قصيرة وتدخن. وفعلاً كانت فيغان تلبس تنورة قصيرة وكانت تدخن كثيراً. تذكرت عندما مشيت معها أول مرة.

بدأت طريق الصعود ببطء شديد إلى منطقة «جيهان غير» ماراً من جانب مبنى التأمينات الاجتماعية.

2
اليقظة

التقينا يوم السبت في مركز بيراميت (الهرم) للتسلية، أمام حديقة فنار بهجة ومشينا رويداً رويداً باتجاه الحديقة. كان السيد عارف يرتدي بنطلون جينز وفوقه قميص بأكمام طويلة وأما أنا فقد كنت أرتدي بنطال جينز وفوقه قميصاً بنصف كم.

كان يوماً مشمساً والحديقة مليئة بالشباب الذين جاؤوا للتنزه، والآباء والأمهات الذين جلبوا أطفالهم معهم، والناس الذين يسيرون مع كلابهم. تركنا نادي يلكان على يميننا واجتزنا منشآت نادي فنار بهجة ثم جلسنا على إحدى الطاولات الموجودة تحت شجرة دلب كبيرة. طلبت ماءً بينما طلب السيد عارف لبناً.

كان السيد عارف يبدو متشوقاً للحديث وكنت مسروراً لرؤيته على هذه الحالة.

- فكرت كثيراً بما تحدثنا به في المرة السابقة، وما استطعت فهمه الآن، هو أنني اتجهت إلى خلق عالم ذي معنى خاص بي، وبأنني دخلت إلى الزنزانة ككل الناس دون إدراك مني لأن وعيي لم يكن ناضجاً، وأنني الآن في بداية مرحلة اليقظة، أي أنني أعيش حالة يقظة تدفع بي نحو فهم حقيقة وجودي في الزنزانة.

في هذه الأثناء وقف غراب على غصن شجرة ونعقَ ثم خفق بجناحيه وطار فقلت:

- إن هذا الغراب يؤيِّد كلامك.

فضحكنا ...

- إنني متفق معك يا سيد عارف، فأنت فعلاً تعيش مرحلة اليقظة، وإن الذي أدخلك في مرحلة اليقظة هذه هو سعيك للبحث عن معنى.

- نعم، إنني أسعى للعثور معنى لحياتي.

- كانت مهنة التعليم تعدك بحياة مليئة بالمعنى، ولكن هذا المعنى ضاع مع مرور الأيام، وإن تحولك إلى معلم عادي قد أفقد حياتك معناها.

كان يستمع إليَّ بإصغاء. رشفت رشفة من مائي بينما رشف هو رشفة من لبنه.

- لقد طور المفكرون، الذين خبِروا وراقبوا حالة اللامعنى هذه، أسلوباً جديداً من التفكير، أطلقوا عليه مصطلح التفكير الوجودي. فلقد ولدت الوجودية كرد فعل على فقدان الحياة معناها. تعتمد هذه الفلسفة على النظرة الفينومينولوجية phenomenology (الظاهراتية) كنقطة أساسية لها.

- وما هي وجهة النظر الفينومينولوجية؟!.

- تناول الفيلسوف الألماني ادموند هوسرل العلاقة بين العالم الخارجي وبين الإنسان الموجود ضمن هذا العالم ويشعر به. نعيش كلانا الآن في محيط فيزيائي واحد، ولكن العالم الذي أشعر به أنا مختلف عن العالم الذي تشعر به أنت، أي أن العالم الذي أدركه وأعيشه مختلف عن العالم الذي تدركه وتعيشه أنت. نطلق مصطلح فينومن (phenome) (ظاهرة) على هذا العالم المدرَك والمعاش، أي أننا شخصان نمتلك فينومينات مختلفة عن بعضها البعض ضمن ذات العالم الذي نعيشه كلانا.

- هل تستطيع تقديم مثال على ذلك؟!.

- منذ قليل طار غراب عن غصن شجرة. هل تذكره؟.

- نعم، ذاك الغراب الذي نعق فقلتَ لي بأنه يؤيِّد ما أقوله.

- حسناً، هل أدركت أنت صوت الغراب قبل أن أنبهك إليه؟.

- لا...

- هذا يعني أن صوت الغراب لم يكن في تلك اللحظة ضمن منظومة فينوميناتك، وأما أنا فقد سمعته من جهة وحمَّلته معنى من جهة أخرى. وأعتقد أن لا حاجة لأن أقول لك بأن كلينا يدرك أننا كنا نعيش فيزيائياً في البيئة ذاتها.

- نعم، إنني أقبل بما لا يترك مجالاً للشك، بأن كلينا نعيش في الوسط الفيزيائي ذاته.

- من هذا المنطلق تقول الفلسفة الوجودية بأن الناس يخلقون وجودهم ضمن الفينومينات الخاصة بهم، أي أنهم يخلقون وجودهم ضمن الفينومينات التي يدركونها ويعيشونها ويعطونها معنى. فالفيلسوف هوسرل يقول بوجود علاقة وثيقة بين الشخص المدرِك وبين الشيء المدرَك.

- وما معنى هذا؟.

- يعني أنك إذا لم تطور وعيك فلن تدرك الفينومينات المناسبة لهذا الوعي. فمثلاً: حضرتَ الندوة التي قدمتُ محاضرتي فيها، وتأثرتَ بما سمعته مني. ولكن يوجد أشخاص حضروا الندوة ولكنهم لم يتأثروا.

- إن هذه المشاهدة تشبه مصطلح النموذج أو الموديل Paradigm الذي تحدَّثت عنه في أحد كتبك، فإذا لم يوجدِ الشخص نموذجه في موضوع ما فإنه لن يستطيع إدراك هذا الموضوع.

- نعم، هناك علاقة أكيدة مع مصطلح النموذج Paradigm ولكن بالإضافة لذلك تتضمن الفكرة التي طرحها هوسرل مصطلح «النيَّة»، حيث

يقول: «كل وعي يطوِّر نيَّة خاصة به، حيث تؤثر هذه النيَّة على ما يدركه هذا الوعي وعلى صياغة معنى ما أدركه».

- لاشك أن هذا يبقى خارج المنهج العلمي، لأن العالِم يسعى دائماً لأن يكون موضوعياً.

- يقول هوسرل: للعلم أيضاً مواقف ونوايا خاصة به، ويأخذ المنهج الموضوعي مثالاً للتدليل على صحة ما يقول، حيث يؤكد على أن المنهج الموضوعي للعلم قد حرف الحوادث التي يدرسها عن منحاها الإنساني.

- وما علاقة كل ما تقوله يا سيد دوغان بسعيي لإيجاد معنى.

- بداية سأطرح عليك هذا السؤال: هل أنت مدرك لكونك تعيش حالة البحث عن معنى؟ وبالأصح: هل تقبل أنت بحقيقة أنك تعيش حالة البحث عن معنى؟!.

- سابقاً لم أكن مدركاً لذلك، ولكني الآن مدرك. وأجيبك بنعم إنني أقبل أن أكون ضمن هذه الحالة.

- هذا يعني أنك لم تكن مدركاً لذلك في السابق.

- فعلاً لم أكن مدركاً لذلك.

- ولماذا لم تكن مدركاً؟.

- لأنني لم أكن ممتلكاً لهذا النوع من الوعي.

- إذن، هل يمكننا القول بأنك لم تكن في السابق مدركاً لوجودك داخل الزنزانة، بالرغم من أنك كنت داخلها؟.

- نعم يمكننا قول ذلك...

- إذن، كنت تضع نفسك داخل فينومينة Phenomen إنسان لا يعرف أنه موجود داخل زنزانة؟.

- نعم، يمكننا قول ذلك أيضاً. فأنا الآن أيضاً داخل زنزانة، لكنني أعرف ذلك، وإنني وصلت إلى مرحلة تستوجب مني العمل للبقاء داخل

الزنزانة أو للخروج منها. وأستطيع الآن القول بكل وضوح: إن المفتاح الذي سيفتح باب الزنزانة ويحررني موجود ضمن وعيي.

- الخروج من الزنزانة، نيل الحرية، استخدام إرادتك الحرة في إعادة بناء حياتك... كلها أمور يطلق عليها هوسرل مصطلح «النية»، أي أن وعيك يخلق فينومينولوجيته من خلال النية الخاصة بك.

- نعم، بتُ أرى ذلك بكل وضوح.

- دخولك إلى الزنزانة لم يكن مجرد مصادفة. فالثقافة، التي حبستك مع غيرك من البشر، تمتلك نية ومستوى من الوعي.

- أمر غريب فعلاً، إذ لم يكن يخطر ببالي وجود مصطلح يدعى «نية الثقافة».

- لقد قدم هوسرل لتاريخ الفكر الإنساني خدمة عظيمة من خلال إيجاده مصطلح كهذا. وعلاقة هذا المصطلح بحياتك هي كما يلي: كلما حاولت الخروج من الزنزانة، تبذل «نية الثقافة» كل ما بوسعها لكي تمنعك من ذلك.

- وكيف ستفعل نية الثقافة ذلك؟!.

- لو كان زملاؤك المعلمون القدامى، الذين تحدثنا عنهم سابقاً، معنا أثناء حديثنا هذا لوجدت في تعابير وجوههم وفي أحاديثهم، وبشكل عام في ردود أفعالهم أمثلة كثيرة على ذلك.

ارتسمت على وجه السيد عارف ابتسامة تدل على أنه استوعب ما قلته وهو يأخذ رشفة من كأس اللبن. كان يهز رأسه ببطء، فلقد فهم ما قلته جيداً، وأدرك أنه عاش وخبِر هذه الحقيقة.

- كان أصدقاؤك هؤلاء سيفعلون كل ما بوسعهم لكي لا تتأثر بحديثي، وسيدّعون بأنني أسبح في عالم من الخيال وبأنني سأضرُك أكثر مما أنفعك، بل سيطلبون منك أن تعود إلى رشدك بدل الركض وراء عالم

من الخيال، وخاصة إذا سمعوا عبارات مثل الزنزانة والسجن، فإنهم قد يزعمون بأنني متمرد وفوضوي وانقلابي، ولن يمر وقت طويل حتى أدخل السجن فعلاً.

- هل تريد القول أن بيئتي ستقاوم عملية التغيير التي ستطرأ عليَّ؟!.

- نعم، ما أريد قوله هو: كلما تغيُرتَ أكثر كلما ازدادت مقاومة البيئة المحيطة بك لعملية التغيير هذه.

- مرَّت عبارة في كتابك الموسوم «من إنسان لإنسان» تقول: إذا تصرَّفت بشكل مختلف عن المجتمع فإن هذا المجتمع سيتخذ موقفاً منك.

- يقول ا. ا. كومينغس:

أن تعيش ذاتك
في عالم يسعى ليل نهار
بكل ما يملك من قوة
لأن يجعلك مشابهاً للآخرين
يعني ذلك أنك بدأت
بشن أقسى حرب في العالم
و عندما تبدأ حرب كهذه
فلن تعرف للانتهاء طريق...

سادت فترة من الصمت...

ثمة طفلة تتعلم المشي حديثاً، تقف على رجليها وتخطو بضع خطوات، مع نظرات أبيها وأمها المنفعلة وضحكاتهما وكلماتهما المشجعة لها. وعندما التفتت إلى الخلف فقدت توازنها وسقطت على الأرض.

نهض والدها وأمسك بها من تحت إبطيها ورفعها إلى الأعلى قائلاً: «مرحى لك يا ابنتي، ما أجمل مشيتك».

التفت السيد عارف إلى يساره ليعرف إلى أي شيء أنظر، ثم ارتسمت ابتسامة على وجهينا.

كنت أستطيع إدراك أننا نتقاسم محبة الأطفال فيما بيننا.

سادت بيننا فترة من الصمت لكي نستوعب كلمات إ. إ. كومينغيس.

تابعت كلامي:

- هل تعرف يا سيد عارف أن المقاومة ستظهر بشكل مؤكد في أي مكان يحدث فيه التغيير، وهذا أمر طبيعي إلى أبعد حد.

- أليس من الصعب يا سيد دوغان، أن يسعى المرء إلى التغيُّر ويصر عليه بالرغم من كل المقاومة التي تواجهه؟!.

- إذا كنت مصراً على أن تصبح محارباً فإنك ستعرف بأنه لايمكنك أن تكون غير ذلك ولن تعرف بعد ذلك مصطلحات من مثل «صعب» أو «سهل».

- إذن ما هي المصطلحات التي يتبناها المحارب ويعمل ضمن إطارها.

- سنتحدث لاحقاً عن المصطلحات التي يحلّق المحارب في فضاءاتها، ويتصرف ويشعر ضمن إطارها، فالمحارب حين ينتقي خياراته لا يولي أهمية لكلمة «صعب» أو «سهل»، بل أكثر ما يعكس موقف المحارب هو التفكير بـ «الشيء ذو القيمة والمعنى الواجب القيام به» و«ما هو الشيء الذي يكون عدم القيام به هو الذي يحمل القيمة والمعنى ولا يجب القيام به».

- ما تريد قوله: حياتك، أنت من يخلقها ولا أحد غيرك.

- هذا ما يحدث دائماً. فليسوا هم الذين وضعوك في هذه الزنزانة، بل أنت فيها لأنك رضيت بذلك، وكنت تحمِّل الآخرين مسؤولية سلوكك، فقط لأن وعيك لم يوافق على ذلك.

ازداد الازدحام في الحديقة كثيراً. لفت انتباهي أن الرجل وزوجته

اللذان يجلسان مع طفلهما على الطاولة التي بجانبنا ينظران إلينا، وعندما التقت عيناي بعيونهما ابتسما لي وألقيا التحية عليّ بلفتة من رأسيهما. فكرت: «لا شك أنهما كانا بين الجمهور الذي حضر إحدى الندوات التي شاركت فيها»، وأما الطفل فلم يعرني أي انتباه، بل كانت نظراته موجَّهة إلى كلب صغير نائمٍ تحت الطاولة.

- يا سيد عارف، أريد أن أوضّح لك بعضاً من مشاهدات المحلل النفسي الأمريكي آرثر. خـ. ديكمان Arthur. j. Deikman المتعلقة بأحد مرضاه:

ورحت أقرأ من كتاب Observing self باللغة الإنكليزية وأترجم ما أقرؤه ترجمة فورية إلى اللغة التركية:

كانت مريضتي، البالغة من العمر أربعين عاما، تصاب بنوبات من الكآبة Depression، ومنذ سنوات ومريضتي تراجع عيادات التحليل النفسي، غير أنها لم تُشفَ من هذه الكآبة التي كانت تصيبها بنفس الشدة في زمن محدد من كل عام وتضعها تحت تأثيرها التام لفترة محددة من الزمن. وكانت هذه الكآبة تتركز على شعور هذه المرأة بأن حياتها، بل وبأن الحياة بشكل عام، خالية من المعنى فترقد في سريرها طيلة فترة إصابتها بالكآبة وتقطع علاقاتها مع العالم الخارجي وتبقى أسابيعاً ممددة على السرير فاقدة أي قدر من السعادة، منتظرة زوال النوبة... عندما حضرتْ المريضة إلى عيادتي وشرحت لي مشكلتها، قلت لها أنه من الممكن أن يكون شعورها بفقدان المعنى وبالتعاسة نابعاً من حياتها، ومن الممكن أن يكون شعورها بفقدان المعنى مؤشر على وجود

شيء هام في حياتها وقد لا يكون هذا الشيء سيئاً ولكن قد يكون من الضروري النظر إلى هذا الشيء على أنه فرصة للتعلم من أجل استخلاص الدروس... فقد أصيب العديد من الذين نذروا أنفسهم من أجل الإنسانية بهذا النوع من الكآبة، وأشرت إلى أنهم خلال إصابتهم بهذا المرض، خلقوا فرصاً لتقديم خدمات عظيمة للإنسانية. ويجب أن نتعامل مع هذا المرض على أنه صديق قبل أن نتخلص من الشعور بفقدان المعنى، ويجب أن نتناول هذا الشعور بفقدان المعنى على أنه معلم وننفتح على الأشياء التي من الممكن أن يعلمنا إياها، وأوضحت أن مجرد التفكير، في مرحلة البحث، بسؤال: ما الذي يريد أن يعلمني إياه هذا الوضع الذي أعيشه؟! سيكون موقفاً وإنجازاً عظيماً.

بعد فترة بدأت مريضتي تستمع إليَّ بانفعال واهتمام راح يزداد شيئاً فشيئاً، وارتاحت كثيراً عندما بدأت تنظر إلى هذه الكآبة على أنها فرصة للتعلم بدلاً من كبتها أو التخلص منها، وبدلاً من التفكير بأنها تمرُ بحالة مرضية دخلت إلى مرحلة الانفعال والاهتمام التي يتمتع بها الباحث - الذي يبحث عن شيء يهمه شخصياً - وفي كل مراجعة، وفي كل جلسة من جلسات العلاج كانت تبدو أكثر إثارة وأكثر اهتماماً وأكثر تماسكاً، والأهم من ذلك كله أنها بدأت تتحول إلى إنسانة مفعمة بالمعنى، فلقد بدأت حياتها، والحياة بشكل عام، تكتسب معنىً جديداً وبدأت تنكشف العديد

من «حاويات القمامة» التي كانت تخفيها لكي لا تقف وجهاً لوجه مع حالة فقدان المعنى التي تطغي على حياتها وعلى حياة الناس الذين تربطها علاقات معهم وبدأت تطفو على السطح.

استمع السيد عارف باهتمام إلى ما قرأته وقال بعد أن أنهيت ترجمتي: «حياة فاقدة المعنى» ثم صمت لفترة ونظر إليَّ وكرر قائلاً: «حياة فاقدة المعنى» ثم تابع حديثه:

- هذه النقطة مشتركة بيني وبين مريضة هذا المعالج النفسي، فأنا أيضاً أفقد حماسي وأقترب شيئاً فشيئاً من الإصابة بالإكتئاب.

صمت لفترة ثم ردد قائلاً وكأنه يحدث نفسه:

- لماذا؟! لأن المهنة التي كنت أراها سابقاً ذات معنى، تفقد الآن معناها، وعندما تحدثت معك الآن بدأتُ أرى أن عدم النظر إلى نفسي على أنني عنصر أساسي في المشكلة هو الذي سبب حالة فقدان المعنى هذه.

صمت من جديد. أخذتُ رشفة من كأسي. ومن جديد بدأ السيد عارف يتحدث:

- بدأتُ بعد ذلك بعدم الاكتراث بأفكاري وبقيمي، ومع مرور الوقت بدأتُ أعتمد بشكل أساسي على آراء وأفكار وقيم الناس الآخرين. ثم بدأتُ أنظر إلى عارف أوكورِزْ وكأنه غير موجود.

التقت نظراتنا، من الصعب أن يصدِّق المرء أن عين الإنسان يمكن أن تحمل كل هذه المعاني والأحاسيس المختلفة في الوقت ذاته... فقد كان في عينيه حزنٌ وغضبٌ وهزيمةُ إنسانٍ يقول لنفسه: «كيف لم أرَ كل هذه الأمور من قبل؟!»

ولكن في الوقت ذاته كان في عينيه سعادةُ وجديةُ وعمقُ ومسؤوليةُ إنسان يقول لنفسه: «رائعٌ أنني أدركت ذلك الآن».

تابع قائلاً:

- أستطيع الآن أن أرى أن فقداني للحماس وانهياري النفسي كان يسعى لأن يقول لي شيئاً، وأن هذا الشيء الذي يسعى لقوله هو ضرورة إعادة النظر من جديد بالأسس التي تقوم عليها حياتي.

أفهم جيداً الأمر الذي يتحدث عنه السيد عارف، فكم من مرة وجدتُ نفسي في الوضع الذي يجد السيد عارف نفسه فيه، في الحقيقة هو أوفر حظاً مني، فأنا لم أجد من يضعني أمامه ويحدثني، أما هو فقد وجد أمامه شخص مجرِّب، يقدِّره ويسعى لتطويره، ويتحدث معه وجهاً لوجه. فقد كنت أبذل جهدي لأفهم نصيبي مما تقوله الأحداث لي.

خطر على ذهني مثالٌ قُدِّم في إحدى الندوات التي ذهبت إليها، فقلت:

- قُدِّم المثال التالي في إحدى الندوات: لنفرض أن لديك موعداً هاماً جداً يوم غد. الموعد في الساعة التاسعة، وأنت تخشى أن تتأخر عليه، ولكي لا تتأخر على موعدك تشرح الوضع للذين يسكنون معك في البيت قائلاً: «إنكم تعرفون جيداً أنني لا أستيقظ بسهولة، لذلك أرجوكم أن توقظوني في الساعة السابعة صباحاً ولا تتركوني، مهما فعلت ومهما قلت، قبل أن أستيقظ، قولوا لي هيا استيقظ واستعد من أجل موعدك في الساعة التاسعة».

«يتفهم أصدقاؤك الموقف، وفي الساعة السابعة من اليوم التالي يقرعون باب غرفتك ولكن ما من مجيب، فيعودون لقرع الباب بعد خمس دقائق ومن جديد لا جواب، وبعد عشر دقائق يدخلون غرفتك ويطلبون منك الاستيقاظ، ولكنك لا ترد عليهم إلا بقولك: «دعوني أنام قليلاً» ولكنهم لا يخرجون من الغرفة لأنهم يعرفون عادتك جيداً، ومن جديد يحاولون إيقاظك ويهددونك بأن يسكبوا عليك ماءً بارداً إذا لم تستيقظ

فتقول لهم: «حسناً سأنهض» ولكن عند عودتهم إلى سريرك بعد عشر دقائق يكتشفون أنك لا زلت نائماً، فيبدؤون بالصراخ في إذنك، وفي نهاية المطاف تنهض من سريرك دون أدنى رغبة منك».

كان عارف يستمع لهذه القصة وهو يبتسم. فسألني ضاحكاً:

- من هم أصدقائي الذين يحاولون إيقاظي؟!

لم أرد عليه فوراً، فقد أردت التأكيد على أهمية وجود أصدقاء كهؤلاء.

- طبعاً من المهم جداً وجود أصدقاء كهؤلاء، يُلِحُّون عليك ويبذلون قصارى جهدهم لكي تستيقظ، ولكن العديد من الأشخاص يقولون: «وما دخلي أنا إن كان لا يريد أن يستيقظ، فهو يعرف مصلحته» ويتركونك في الفراش ويغادرون.

ابتسم السيد عارف وكرر سؤاله:

- يا أستاذي، هل يوجد لديَّ أصدقاء كهؤلاء؟!.

- أجل يوجد.

- ومن هم هؤلاء الأصدقاء؟!

- أصدقاء كُثُر كالحزن والتشاؤم والكآبة التي لاحظها المعالج النفسي أثناء محاولته إيقاظ مريضته.

- هل هذا يعني أن أصدقائي الذين كانوا يحاولون إيقاظي هم الضيق الذي أشعر به وفقدان المعنى والكآبة؟.

- نعم، إن عدم توازن الشخصية وتعاستها وشعورها بالضيق والكآبة التي تصيبها، هم أهم الأصدقاء الذين يحاولون إيقاظ هذه الشخصية.

- ما الذي يريدون أن يقولوه لنا؟ هل يريدون أن يقولوا لنا انهضوا ستتأخرون عن موعدكم؟.

- أنت من يقرر ذلك، ما الذي كانت تقوله لك كآبتك؟.

- كانت تقول لي أصبحت حياتك تافهة.

- حسناً هل كان وراء هذه العبارة دعوة ما؟ هل كان وراءها دعوة للاستيقاظ؟.

- أجل.

- بهذا المعنى، يا سيد عارف، نستطيع القول أن كل ألم - سواء كان ألماً جسدياً أو عاطفياً أو ذهنياً - يحمل رسالة ما، فإما أن تقوم هذه الرسالة بتوضيح ما لا يجب القيام به كأن تقول مثلاً: «لا تعش حياتك بأفكار وقيم الآخرين». أو أن تشير إلى الأمور التي يجب القيام بها كأن تقول: «عُد إلى جوهرك، وأسِّس حياتك اعتماداً على قيمك الخاصة بك».

- هل هناك علاقة بين شدة لهجة الرسالة وكون الموضوع عاجلاً لا يحتمل التأخير؟!.

- لم أفكر مطلقاً بهذا الأمر.

- أرى أنه لا بد من وجود هذه العلاقة. فالضيق الذي كنت أشعر به كان يتزايد باستمرار، وتشير هذه الزيادة إلى أن المشكلة ما عادت تحتمل التأجيل.

- أظن أنك محق.

❖ طبقات تشكل الوعي:

صمت السيد عارف فترة من الزمن، كان يبدو من نظراته أن لديه سؤال يريد طرحه:

- سيد دوغان، ما هو مصدر هذا الشعور بالضيق؟ أقصد من أين نجمت كآبتي؟.

- يحدد المفكر فريدريك س. بيرلز، مؤسس مدرسة الجشطالت للعلاج النفسي، ثلاث مجالات للوعي وتكون هذه المجالات متتالية

ومتطابقة كالطبقات فوق بعضها البعض، ففي الطبقة الأولى يدرك الإنسان ذاته، وهذا الإدراك يشكل الوعي الأساسي، يتطور ويتكرر بشكل مستمر خلال حياة الإنسان. ولكن هناك احتمال أن لا يتطور هذا الوعي إذا ما تم كبته والتعتيم عليه. فإذا ما تطور واستمر واكتمل فإنه يشكل ما نسميه «الأنا المراقِب». وأما الطبقة الثالثة فهي إدراك العالم الخارجي.

- لقد نسيتَ الطبقة الثانية يا سيد دوغان.

- كلا لم أنسها. فمن المفيد ذكر الطبقة الثالثة قبل الطبقة الثانية. نعم، الطبقة الثالثة هي إدراك العالم الخارجي. يحيط بنا عالم معقد كثير الأبعاد، وتعتبر عملية إدراكنا لهذا العالم كما هو ضرورية بغية التوافق والتكيف معه، ومن المهم إدراك هذه الحقيقة الخارجية كما هي ومواصلة إقامة علاقات معها، لأن هذا الإدراك يشكل الأساس الذي تقوم عليه علاقة الشخص مع حقيقة العالم الخارجي، علماً بأنه من الصعب مواصلة إقامة العلاقة مع حقيقة العالم الخارجي لأن الطبقة الثانية من الإدراك تعيق تحقيق ذلك.

- ولكنك لم تتحدث عن الطبقة الثانية حتى الآن.

- الآن سأتحدث عن الطبقة الثانية. تحتل الطبقة الثانية مكاناً بين إدراك الشخص ذاته وبين إدراكه العالم الخارجي. وهذا الإدراك الاصطلاحي هو العالم الذي يتضمن اللغة والثقافة.

- إنه عالم الثقافة الذي يمتلك نية خاصة به كما قال هوسرل.

- نعم إنه عالم الثقافة واللغة الذي يمتلك نية خاصة به.

صمتُ عند هذه النقطة. فهم السيد عارف أنني قصدت من صمتي هذا لفت انتباهه إلى هذه النقطة، وفعلاً تحول إلى آذان صاغية إلى ما سأقوله. فأردفت قائلاً:

- وغالباً ما تعيق هذه الطبقة إدراك الشخص لنفسه وللعالم الخارجي، وكأنها تبني جداراً يفصل بين الشخص وبين العالم الذي يعيش

فيه. وبالتالي لا يصل الشخص إلى إدراك نفسه ولا إلى إدراك العالم الخارجي، ويعيش فقط حقيقة هذا الجدار، أي أن هذا الجدار يبدو وكأنه يمثل حقيقة الشخص.

يقول بيرلز: «ومن خلال طغيان هذه الطبقة الوسطى على كل شيء تبدأ بقطع العلاقة بين الشخص والأنا الخاصة به. وتتضمن هذه الطبقة أحاديث أصدقائك من المعلمين القدامى واعتقادات والديك وقيم المجتمع المتعلقة بمهنة التعليم. كما أن هذه الطبقة لا تعطيك فرصة لإدراك ماهية ذاتك وجوهرك.

ولكي تدرك ذاتك يجب أن تتخلص من تأثيرات هذه الطبقة الوسطى، أي يجب أن تصل إلى إدراك كامل بهذه الزنزانة التي تحدثنا عنها سابقاً. وهذا الإدراك هو ما أطلقُ عليه مصطلح «اليقظة».

– هل يمكن للإنسان أن يعيش كامل حياته دون أن يستيقظ يا سيد دوغان؟!.

– غالباً ما يحدث هذا.

– هذا يعني أنه من الممكن أن نعيش كامل حياتنا دون أن نستيقظ بالرغم من كل النداءات التي يطلقها شعورنا بالضيق والحزن والكآبة؟!.

– نعم غالباً لا يستيقظ الإنسان. وهناك وجه آخر لهذه النداءات وهو: ينظر الآخرون إلى هذه النداءات على أنها مجرد هراء لا معنى له، وذلك لأنها نداءات خاصة جداً بالشخص الموجهة له. فعلى سبيل المثال قد ينظر أصدقاؤك من المعلمين القدامى إلى هذه النداءات الموجهة إليك على أنها كلام فارغ.

– وما الذي سيحدث إن تعاملت أنا مع هذه النداءات بجدية واستمعت لما تريد قوله لي؟...

توقف، ونظر في وجهي. كان هذا سؤلاً سأله وينتظر مني جواباً:

- إذا تعاملت بجدية مع هذه النداءات، وإذا استمعت إليها .....

توقفت عن الكلام، وبعد فترة من التفكير تابعت قائلاً:

- أنت تفهم طبيعة النداءات الموجهة إليك ولكن الآخرين قد لا يفهمونها أبداً. بالرغم من أنها واضحة بالنسبة لك لأنها خاصة بك.

- سيد دوغان، إنك تتحدث وكأنك أحد الذين تعرضوا لموقف مشابه وتلقوا نداءات مشابهة.

- نعم، منذ أربع سنوات بَعِدتُ عن أولادي، وقد شعرتُ بالتعاسة والانهيار في الفترة التي بقيت فيها وحيداً.

- وماذا كان النداء؟.

- بسيط جداً، نداء أن تصبح سعيداً، فكرت كيف يمكن أن أصبح سعيداً؟ لم يكن من الممكن أن أتهرب من مسؤولية أن أكون أباً لأولادي. بهذا المعنى كان النداء نداءً يقول: «عُدْ لأولادك فهم بحاجة إليك».

- حسناً، وماذا فعلت؟.

- في اللحظة التي قررت فيها العودة لأولادي تحولت إلى إنسان مفعم بالسعادة والحماس.

- هل عُدتَ إلى أولادك؟.

- نعم، وشعرت من صميم قلبي حينئذٍ بأنني اتَّخذت القرار الصحيح.

- أي أنك سلكت الطريق الذي دلك عليه قلبك.

- نعم هذا ما فعلته، صحيح أن وجودي مع أولادي يضيِّع الكثير من وقتي فيما يخص حياتي المهنية، ولكن لكي تكون حياتي ذات معنى ومشبعة ولأنني إنسان نزيه وسوي كان من الضروري أن اتَّخذ هذا القرار. استجبت للنداء فوجدت سعادتي.

- والآن كيف هي علاقتك بأولادك؟.

- إنني أقيم مع أولادي علاقة وثيقة وصحيحة وصادقة، وإنني مدين

كثيرا، لوصولي إلى هذه النتيجة، إلى إدراك هذه الرسائل التي عملت على إيقاظي. لنتحدث الآن عن الرسائل التي تعمل على إيقاظك...

- نعم، سألت سابقاً من هم أصدقائي الذين يحاولون إيقاظي.

- عالمك الداخلي، الذي يبذل الجهود الحثيثة لكي تحافظ على خصوبتك ولكي تواصل حياتك بنفس مفعمة بالارتواء والمعنى. نعم عالمك الداخلي هذا هو الذي يعمل على إيقاظك. فلو نجحت مرحلة العلاج النفسي الذي بدأت بها لواصلت رحلتك التي كانت ستوصلك إلى جوهرك وذاتك. فما يُنتظر من العلاج النفسي هو الوصول إلى جوهر الذات، من خلال نفض الرماد الذي يغطي الجمر.

- كانت التعاسة التي تسيطر على ذاتي تشير إلى أنني أمر في حالة انهيار أليس كذلك؟!.

- نعم إن جوهر ذاتك هو مصدر طاقة الحياة لديك، وعندما تنسلخ عن ذاتك تفقد الحماس للحياة، وكذلك اكتساب حياتك للمعنى يأتي من هذا الجوهر، فكل ما تعمله وتقوم به يكون له علاقة بالجوهر يكون مصدراً للمعنى والانفعال. وأما الأشياء التي تفعلها بشكل منسلخ عن الذات فإنها تسبب الشعور بالضيق وفقدان المعنى.

- لِمَ تتضخم الطبقة الوسطى إلى هذا الحد ولماذا يبقى جوهر ذات الإنسان كقطعة جمر تحت الرماد يا سيد دوغان؟!.

❖ رقصة الحياة:

طرح السيد عارف سؤالاً هاماً فأردت الإجابة عليه وتوضيح ما لم يفهمه:

- عندما يولد الإنسان يأتي مزوداً بحاجتين مختلفتين، لا بل متضادتين فيما بينهما.

- ألا يكون معه سوى هاتين الحاجتين؟!.

ضحكت دون إرادة مني. حقيقة تبقى اللغة قاصرة في التعبير عن كل ما يفكر به الإنسان. حدَّثت نفسي قائلاً: يجب على الإنسان أن يكون حذراً وأن يولي أهمية كبيرة للكلمات والجمل التي يستخدمها حين يتحدث مع الشخص الذي أمامه حول موضوع ما وذلك لكي يتمكن من الحديث بوضوح عن هذا الموضوع.

- كلا لا يولد مزوداً بحاجتين فقط، بل يكون مزوداً بأكثر من ذلك، ولكن ثمة حاجتان تعتبران الأكثر أهمية بين الحاجات الكثيرة التي يكون مزوداً بها. إحداهما: **التبعية**، والأخرى: **تحقيق الذات**.

«فالطفل قبل ولادته يكون «تابعاً» بأكمله لبطن أمه، فهي تتنفس وتأكل من أجله وتطرح فضلاته، أي كما يقول المثل: الخبز من الأرض والماء من البحيرة وما عليه هو إلا أن ينمو. إن أول سلوك هام وذي معنى يقوم به الطفل بعد ولادته هو التنفس. وابتداءً من هذه اللحظة يأخذ الطفل طريقة في الاستقلالية وتحقيق الذات رويداً رويداً.

نعم، من هذا التوازن بين «**التبعية**» و«**تحقيق الذات**» تتشكل ما تسمى **رقصة الحياة** لكل فرد.

ابتسم السيد عارف وكرر ما قلته «رقصة الحياة». كنت على وشك متابعة حديثي غير أنني تراجعت حين أدركت رغبته بقول شيءٍ ما.

- لقد أعجبني مصطلح «رقص» يا أستاذي. هل أنت من وضع هذا المصطلح؟!.

- بدأت باستخدام هذا المصطلح منذ أن استخدمه الأصدقاء العاملون في فريق «من إنسان لإنسان». وجدت أنه يناسبني فبدأت باستخدامه. إذن أعجبك أنت أيضاً؟!.

- من تعني بقولك فريق «من إنسان لإنسان»؟.

- هو اسم الفريق الذي أسسه الأصدقاء الذين أعمل وإياهم سوية في مجال التعليم. هم أول من استخدم مصطلح «رقصة الحياة» وعنهم أخذته.

ابتسم السيد عارف بعد أن أخذ جواباً شافياً للموضوع الذي شغل عقله. تابعت حديثي:

- اتجاهاتنا التي تعبِّر عن التبعية هي تلك الاتجاهات المتعلقة بالمجتمع والحياة الاجتماعية والثقافة، كأن نفعل ما تنصحنا به والدتنا وألاَّ نعادي جيراننا وأن نؤمن لقمة العيش من خلال اختيارنا مهنة محترمة في المجتمع وأن نضحي من أجل المجتمع... كلها أمور تعبِّر عن الحاجة التي نطلق عليها اسم: «التبعية»، وأما اللعبة التي نمارسها برغبة منا، والاستراحة التي نمضيها برغبة منا، والعلاقة الجنسية التي نقيمها لأننا نريد ذلك وكذلك الذهاب في رحلة، وإقامة علاقة مع الطبيعة، والأحلام التي نبنيها برغبة منا، وباختصار، كل الأفعال التي نأتي بها ونمارسها لأننا نحن بذاتنا نريد ذلك، هي مصدر ما نسميه الحاجة إلى «تحقيق الذات».

- كل ما قلته يصح على المجتمعات كما يصح على الأفراد. أليس كذلك؟!.

- نعم، ما ذكرته هي أشياء كونية وعامة، وهي أمور صحيحة بالنسبة لكل إنسان بغض النظر عن الثقافة التي ينتمي إليها.

- حسناً، وكيف يتشكل التوازن بين التبعية وتحقيق الذات؟! أو بالأحرى كيف لا يتشكل هذا التوازن؟!.

- أهم سبب متمثل بالأسرة التي ينشأ وينمو الطفل فيها.

صمتُ لفترة وجيزة في محاولة مني لتصحيح ما قلته، أردفت قائلاً:

- ما قلتُه لم يكن صحيحاً، لأن العامل الأهم في هذا الموضوع هي الثقافة التي تحدد نهج الأسرة التي ينشأ فيها الطفل، وبعبارة هوسرل: «نية

تلك الثقافة»، فعلى سبيل المثال، تطلب الأم من ولدها البالغ من العمر أربع سنوات، حين خروجه إلى الشارع ليلعب مع أصدقائه، قائلة: «ارتدِ معطفك الصوفي».

«لماذا تقول الأم لولدها «ارتدِ معطفك الصوفي»؟. طبعاً لأنها تريد أن تقوم بمهام الأمومة على أكمل وجه، ولأنها لا تريد أن يقع ولدها بالمرض، بالإضافة لذلك لأنها رأت جيرانها وأمها وحماتها يفعلون الأمر نفسه. فلنفترض أن هذه الأم لم تجد حاجة لأن يرتدي ولدها معطفه وتركته ينزل إلى الشارع دون ارتدائه، فإنها ستخجل مما سيقوله جيرانها وأمها وحماتها: أي نوع من الأمهات أنتِ حتى تتركي ولدك ينزل إلى الشارع دون ارتداء معطفه الصوفي؟! ولذلك فإن الأم، بشكل شعوري أو لا شعوري، برغبة كاملة منها أو خشية ما سيقوله الآخرون، تطلب من ولدها ارتداء معطفه. إن هذا الطلب يتناسب مع نية تلك الثقافة في «وجوب أن يكون أبناء هذه الثقافة مرتبطين ببعضهم البعض».

يتلقى الطفل المعلومات القادمة من جسده ويقول لأمه: «أمي أنا لا أشعر بالبرد».

توقفت هنا قليلا لأبيِّن أهمية ما سأقوله، ونظرت إلى وجه السيد عارف، فهم سبب صمتي المفاجئ وسبب توجيه نظري إلى وجهه فقال:

- أسمعك جيداً يا أستاذي.

- من خلال مضمون الرد الذي يقول فيه الطفل لأمه: «أنا لا أشعر بالبرد يا أمي» يمكن الحديث عن عملية تفاعل حساسة من ناحية تطور مفهومي التبعية وتحقيق الذات. ويمكن أن ترد الأم على ولدها بأحد الخيارات التالية:

«أهذا ما تراه يا ولدي؟ إذاً لا داعي لارتداء معطفك».

بهذا الموقف تكون الأم قد عبَّرت لولدها عن ما يلي:

«أنت إنسان طبيعي ولديك القدرة على تحديد ما إذا كنت تشعر بالبرد أم لا ....

بإمكانك اتخاذ القرار الذي تراه مناسباً حول وضع يخصُّك، وأنا من جهتي أحترم قراراتك، فأنت تمتلك القدرة على اتخاذ القرارات المتعلقة بجسدك...

نستطيع أنا وأنت أن نجري نقاشاً حول مشاكلك، فكما لدي الحق في التعبير عن رأيي، كذلك لديك الحق في وضع حلول للمشاكل التي تخصك».

يمكن أيضاً للأم أن تقول لولدها، الذي لا يريد ارتداء معطفه ما يلي:

«يوجد برد في الخارج، ستصاب بالمرض ولن أسمح لك بالخروج ما لم ترتدِ معطفك الصوفي».

بهذا الموقف تعبِّر الأم لولدها عن ما يلي:

«أنت لست طبيعياً ولا تمتلك القدرة على معرفة ما إذا كنت تشعر بالبرد أم لا. ولذلك يجب أن تولي أهمية لما يقوله الآخرون أكثر من الأهمية التي توليها لما تقوله أنت...»

«أنت لا تستطيع اتخاذ القرار المتعلق بوضعك، إذ أنك لا تملك القدرة على اتخاذ القرارات في المواضيع التي تخص جسدك...»

«إذا وقعت مشكلة بيني وبينك فأنا من سيحلها، وأنا من سيقول لك ما الذي يجب أن تفعله، فلا يمكن حل المشاكل من خلال مناقشتها فيما بيننا، أنا أملك حق التعبير عن رأيي ولكن أنت لا تملك هذا الحق...».

ويمكن للأم أن تقول لولدها الذي لا يريد ارتداء معطفه الصوفي ما يلي:

«حسناً يا ولدي، يمكنك الخروج واللعب دون ارتداء معطفك، ولكنني سأعلّق معطفك على الكرسي الموجود خلف الباب، فإن شعرت بالبرد تعال وارتده».

بهذا الموقف تكون الأم قد عبَّرت لولدها عن ما يلي:

«إنك إنسان طبيعي وتمتلك القدرة على تحديد ما إذا كنت تشعر بالبرد أم لا، ولكن الحياة تقتضي إجراء بعض التغييرات، ولذلك من الطبيعي جداً أن تغيِّر قرارك إن اقتضت الظروف ذلك...

«يمكنك أن تتخذ قراراً حول وضعك، وكذلك يمكنك تغيير هذا القرار إن شئت، إنني أحترم قراراتك كما أحترم رغبتك بتغيير هذه القرارات، فأنت تمتلك القدرة على اتخاذ القرارات التي تخص جسدك، كذلك تمتلك القدرة على تغيير هذه القرارات...

يمكننا أنا وأنت حل المشاكل من خلال مناقشتها فيما بيننا، فكما أملك الحق في التعبير عن رأيي كذلك أنت تمتلك الحق ذاته فيما يخص حل مشاكلك».

كان السيد عارف يُصغي لما أقوله باهتمام، وبعد انتهائي من كلامي حول المثال الذي أوردته، أحنى رأسه وهزَّه يميناً وشمالاً وهو يبتسم. لم أفهم تماماً ما يريد قوله. توقفت عن الحديث ونظرت إلى وجهه كمن ينتظر جواباً منه.

بدأ السيد عارف كلامه قائلاً:

- طبعاً الطفل لا يدرك ذهنياً الرسائل التي وجهتها له والدته، بل

يدركها حدْسياً، ويصل إلى قرار حول وجوده من خلال هذه الرسائل التي يدركها بحدْسه. إني أهز رأسي لأن المثال الذي أوردته أثار تفكيري كثيراً، لأن آلاف حالات التأثير والتأثر تحدث يومياً، وبالأحرى لأن الطفل، أثناء نموه يواجه الآلاف من هذه الحالات، ولكن أكثر الآباء والأمهات غير مدركين لذلك.

– نعم، مع كل أسف غير مدركين لذلك. صحيح أن الطفل يولد في عالم مجهول ولكنه يأتي في بيئة أُسرية معلومة، تحميه وتُشعره بالأمن، ولا يمكن لهذا الطفل التخلي عن هذه البيئة الآمنة مهما كان السبب، ولهذا يبدأ بالابتعاد عن أناه الجوهرية وشيئاً فشيئاً يختار أن يكون موجوداً تابعاً.

«يولي الأشخاص، الذين لا يجدون الثقة في جوهر ذاتهم ولا يستطيعون اكتسابها من عالمهم الداخلي، اهتماماً وحرصاً شديدين للبقاء داخل الزنزانة التي أطلق عليها بيرلز مصطلح الطبقة المتوسطة، وهذا يعني البقاء ضمن الأدوار الاجتماعية، وهذا يعني أيضاً أن يصفَ الإنسان نفسه، في معرض رده على سؤال «من أنا؟»، بعبارات مثل «أنا أب»، «أنا أم»، «أنا ابن»، «أنا جاركم»، «أنا معلم»، «أنا دكتور»، «أنا مسلم»، «أنا تركي»، «أنا خال»، «أنا عم» إلخ...

❖ حيـــاة نكرة:

على يميني مباشرة في القسم الخارجي من المقهى زوجان متوسطا العمر يجلسان ولا ينظران إلى بعضهما أبداً ولا يدور بينهما أي حديث، وباختصار، كانا يجلسان مع بعضهما فيزيائياً فقط، إذ لم يكن يبدو أنه يربط بينهما أية علاقة، وكأنه لم يبق لديهما ما يقولانه لبعضهما.

تحدثت مع السيد عارف حول ملاحظتي فقال:

– يا أستاذي إن هذه العلاقة منتشرة جداً وليست خاصة بهذين الزوجين، فمن الممكن مصادفة حالات مشابهة في كل مكان.

- هذا صحيح وأنا أيضاً أصادف حالات مشابهة، يمكن النظر إلى هذه الحالة على أنها عبارة عن دورين اجتماعيين يقيمان علاقات فيما بينهما، وعندما تتحول العلاقة إلى مجرد دورين اجتماعيين يقيمان علاقات مع بعضهما فإن جوهر الإنسان يتحول إلى أمر ثانوي.

«يعيش الشخص ضمن هذا النمط من التفكير في قلق مستمر، يتمحور هذا القلق حول القدرة على مواصلة لعب دور جيد ليقولوا عنه: إنه أب جيد، يا لها من أم حنون، إنه ولد صالح، إنه معلم جيد. وهذا قلق مفاده: «ماذا سيقول عني الآخرون؟»... «هل سيحترمونني ويقدرونني؟»، «هل سيقولون لي مرحى؟»، «هل سيصفّقون لي؟» والشخص الذي يتحرك ضمن هذا النوع من القلق يتبنى أسلوباً لإثبات وجوده، ولكن هذا الوجود الذي يطرحه لا يعبّر عن جوهره بالمعنى الحقيقي. أنا أطلق على هذا النمط من الحياة مصطلح «حياة نكرة».

فالذين يواصلون حياتهم ضمن نمط «الحياة النكرة» لا يعيشون وجودهم الخاص بهم، بل يسعون لتحقيق تطلعات الآخرين. نعم هؤلاء هم الذين يمضون كامل حياتهم في الزنزانة، أو بلغة أخرى، هؤلاء هم المستغرقون في النوم، ولكنهم ليسوا مدركين أنهم في زنزانة.

طلبت من النادل، الذي مرّ من أمامنا، أن يحضر لي كأساً من الزهورات. فالتفت إلى السيد عارف وسأله: «هل تريدون أنتم أيضاً شيئاً؟». فأجابه: «كلا أنا لا أريد شيئاً».

تابعت حديثي قائلاً:

- يواجه الذين يعيشون في الزنزانة صراعاً أساسياً دخائلهم. وكلنا نعيش هذا الصراع الأساسي في دخائلنا، فهذا الصراع موجود داخلي كما هو موجود داخلك وهو موجود أيضاً داخل كل إنسان من الذين نراهم حولنا.

- ما هو هذا الصراع الأساسي يا سيد دوغان؟.

- يتمثل هذا الصراع الأساسي في أن لكل إنسان ولكل حيوان ولكل نبات هدف أساسي جاء مع كل منهم منذ الولادة، ويتمثل هذا الهدف في أن «يحقق ذاته» فكم من السنوات أمضت هذه الشجرة لكي تحقق ذاتها ولكي لا تصبح شيئاً آخر. فهي نمت وتطورت وفرّعت أغصانها لكي تصبح هذه الشجرة.

«والهدف الأساسي للغراب الذي نعق منذ قليل، هو أن يصبح ذاته، أي أن يصبح غراباً ولا شيء آخر. فالغراب لا يسعى لأن يكون قطة، وكافة المخلوقات في الطبيعة، باستثناء الإنسان، تعيش بجسدها، بسلوكها، بصحتها وسلامتها، بتطورها، وبكل مراحل حياتها لكي تحقق ذاتها». فكافة المخلوقات عدا الإنسان تكمل عملية تحقيق ذاتها بنجاح طالما هي موجودة في المكان الطبيعي لها.

- هذا يعني أن الطير يحقق ذاته كطير ما لم يتم التدخل بحياته، ويعيش كطير طيلة حياته. وكذلك السلحفاة تحقق ذاتها كسلحفاة وتواصل حياتها كسلحفاة. هل هذا ما تريد قوله؟.

- أجل، هذا ما أريد قوله فيما يخص الحيوانات والنباتات التي تعيش في بيئاتها الطبيعية.

- هل يوجد حيوان أو نبات لا يعيش في بيئته الطبيعية؟.

- هل ذهبت إلى حديقة الحيوانات؟

- نعم ذهبت.

- هل راقبت الحيوانات المحبوسة في الأقفاص؟.

- طبعاً راقبتها وأستوعب ما تريد قوله. أتذكر الآن كم تألمت حينما رأيت الأسد في القفص. لم يكن المسكين قادراً على أن يعيش ذاته، أي أن يكون أسداً وهو في القفص. وآلمني أكثر تجوله في القفص وهو لا حول له ولا قوة.

أحضر النادل الزهورات لي، فشكرته على ذلك. فقال: «بالصحة والعافية» وغادر طاولتنا مسرعاً لكي يلبي طلبات الآخرين.

تابعت حديثي قائلاً:

- هل رأيت بحياتك شجرة البونزائي Bonzai.

- هل تقصد تلك الشجرة القصيرة والثخينة التي يزرعها اليابانيون؟!.

- نعم تلك الشجرة.

- ولكن ليس لديّ معلومات حول هذه الأشجار.

- وأنا أيضاً لا أعرف شيئاً عنها. ولكن ما أعرفه هو أن هذه الشجرة تتعرض منذ أن تكون غرسة لعمليات تقليم نظامية تستمر طيلة حياتها، وتتم المحافظة على شكلها من خلال عمليات التقليم الخاصة هذه. ولكن هذه الشجرة لا تتمكن من أن تفرع وتمد أغصانها كيفما تشاء وتتحول إلى شجرة كبيرة.

- هل نحن البشر نشبه الأسد المحبوس في القفص أو الشجرة التي تتعرض لعمليات تقليم مستمرة؟!.

- بالنسبة للذين يعيشون حياة نكرة، نعم.

- وهل أنا ممن يعيشون حياة نكرة؟!.

- أنت أفضل من يستطيع الإجابة على سؤال كهذا.

- أعتقد أنني بدأت أقاوم ضد هذا النمط من الحياة النكرة.

- ولهذا رغبت بالتحدث معي. فلقد اتَّخذت قراراً بأن تحقق ذاتك وبأن تصبح «عارف أوكورر» فعلاً، بعد أن أمسكت القوى الخارجية المقصات لكي تقلمك وبدأت شيئاً فشيئاً بتقليم «عارف» الذي بدأ ينمو بداخلك.

- إن إدراكي لعملية التقليم هذه يزعجني جداً يا سيد دوغان، لقد بدأتُ أشعر بثورة الغضب التي تغلي بداخلي.

- لأنك لا تمتلك شخصية المحارب، فما تشعر به هو ردة فعلك، باعتبارك إنسان عادي، على هذا الوضع أو الحالة التي تعيشها .

- بدأت أتوق لمعرفة موقف هذا المحارب، ألا يغضب المحارب؟! متى ستبدأ بالحديث عن موقف المحارب؟!.

- تعلم جيداً أن الغاية من حديثنا هي التعريف بموقف المحارب ودراسته، وإذا ساعدتنا إرادتنا ووعينا سيكون هدفنا أيضاً السير على طريق خلق هذا المحارب. ولكننا حتى الآن لم ننته بعد من الحديث عن **أهمية البحث عن معنى** ومن الحديث عن المراحل الأساسية **لليقظة.**

❖ اليقظـــة:

- إنني أرى غرابة في مصطلح اليقظة هذا، فلكي يستيقظ الإنسان لا بُدَّ أن يكون نائماً أولاً . أليس كذلك؟!.

- نعم.

- هذا يعني أنني، بطريقة أو بأخرى إنسان نائم.

- هل تفهم «حالة النوم» هذه على أنها عبارة عن استلقاء وإغفاء على السرير فقط؟!.

- كلا، ولكن لا أعرف كيف سأفهمه، أعتقد أنك تستخدم «يقظة الإنسان» هذه ضمن معنى خاص.

- إنني أستخدمه بمعنى «عدم القدرة على الإدراك» و«عدم رؤية ما تنظر إليه».

بالأمس استخرجت كلمة «يقظة» من معجم الصديق في اللغة التركية للكاتب علي بوسكوللو أوغلو وهي تعني ما يلي:

اليقظة: 1- الخروج من حالة النوم. 2-الوصول إلى حالة يستطيع الإنسان فيها فهم واستيعاب الأمور.

3- التخلص من الجهل. 4- (بالنسبة للنبات) البدء بالحيوية والامتداد والاخضرار. 5 - الظهور، التبلور.

6 - النضج. 7 - الوصول إلى مرحلة النضج والاستعداد من الناحية الجنسية.

قال السيد عارف بعد أن استمع إلى حديثي:

- أعتقد أن حالة اليقظة التي تتحدث عنها هي التي وردت في المعنيين الثاني والثالث، أي أننا لدى وصولنا إلى مرحلة إدراك وجودنا في الزنزانة، بعد أن كنا لا نعرف أننا داخلها، نكون قد «وصلنا إلى حالة يستطيع المرء فيها استيعاب الأمور وفهمها» و«تخلصنا من حالة الجهل».

- نعم.

- هل نستطيع القول أن قسماً كبيراً من الناس يمشي وهو نائم؟.

- نعم يمكننا قول ذلك. يطلق علم النفس على هذه الحالة مصطلح الغيبوبة trance.

- أليست الغيبوبة هي الحالة التي يمر فيها الإنسان الذي أجري له تنويم مغناطيسي؟.

- كلاسيكياً تُستخدم بهذا المعنى. ولكننا نُظهر حالة من الغيبوبة في حياتنا اليومية. فما هي الغيبوبة؟! عندما يقع أحد الأشخاص تحت تأثير شخص ما أو مؤسسة ما ويفقد القدرة على استعمال إمكانياته في البحث والتدقيق والنقد، فإننا نقول بأن هذا الشخص يعيش في حالة غيبوبة. يقول عالم النفس ويتزنهوفر weitzenhoffer: «إن حالة الغيبوبة موجودة في كل مكان ينفّذ فيه الناس الأوامر دون أن ينظروا إليها نظرة نقدية، وبهذا المعنى لا يوجد أي فرق بين التنويم المغناطيسي وحالة اليقظة فإذا قبل شخص ما كل ما يقوله شخص آخر دون بحث ودون نقد فإننا نستطيع القول أنه يمر في حالة غيبوبة، إذ لا يوجد أي فرق بين

الواقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي وبين من يتأثر بأقوال شخص ما ويطبقها بحذافيرها».

- هذا يعني أنني أمر الآن في حالة غيبوبة.

- أنت... وأنا أيضاً.

- حسناً، ومن لا يعيش هذه الحالة؟.

- المحارب.

ضحك عارف وقال:

- سيد دوغان، عذراً، يصعب عليَّ الآن القبول بأنني أعيش حالة غيبوبة.

- أفهمك جيداً.

- كيف يمكن أن تبرهن لي بأنني أعيش حالة غيبوبة؟.

- من خلال البرهنة على أنك لا تزال تعيش في زنزانة.

- وكيف ستستطيع البرهنة على أني لازلت أعيش في زنزانة.

- على اعتبار أنك تعيش حياة نكرة.

- هل أعيش الآن حياةً نكرة؟!.

- إنك تعيش حياة نكرة ككل الناس الذين لم يخلقوا توازناً بين التبعية وتحقيق الذات.

- لو لم أكن أعيش حياة نكرة كيف كنت سأعيش؟!.

- هل تذكر عندما التقيتني على باب الصالة بعد انتهاء الندوة؟ كان الانفعال والتوتر والاضطراب والسعادة والقلق بادٍ على وجهك. سألتني وقتها: يا أستاذي لديَّ سؤال فهل لي بعدة دقائق من وقتك؟!.

هزَّ السيد عارف رأسه دون أن تفارق عيناه وجهي، وكأنه يقول: «نعم أذكر».

- فكر بتلك اللحظة...

هزَّ عارف رأسه من جديد موافقاً.

- هل تذكر ما قلته لي؟

- لا أذكر ما قلته كلمة كلمة. أذكر أنني قلت: إنني أعمل معلماً وأشعر بالتعاسة.

- نعم هذا ما قلته. قلت إنك اخترت مهنة التعليم لأنك تحبها ولكنك الآن تشعر بالضياع والحمق لأنك اخترت هذه المهنة.

- نعم أذكر ذلك.

- اسمعني الآن جيداً يا سيد عارف الغالي. لو أنك شخص خلق توازناً بين التبعية وتحقيق الذات واتَّخذ قراراً حول ما يريد القيام به بإرادته الحرة واستوعب تماماً مغزى ومعنى القرار الذي اتَّخذه لما أمضيت كل هذا الوقت معي ولما دارت بيننا كل هذه الأحاديث، ولكنت الآن كمحارب، تمر في مرحلة خلق حياتك الحرة كمعلم أفضل وأكثر فاعلية وتأثيراً ولما كنت شعرت بالحاجة لأن تطلب إذناً من أحد أو تعتذر لأحد لكي تعيش هذه المرحلة. ولكنت تتطور الآن في سبيل تحقيق ذاتك كمعلم اسمه عارف أوكورِز، كما تتطور هذه الشجرة في سبيل تحقيق ذاتها. ولكن دماغك الآن مشوش. لماذا؟ لأن أصدقاءك في الزنزانة لا يزالون يرددون في أذنك قائلين: «لماذا اتَّخذت قراراً كهذا؟ هل يتَّخذ الرجل العاقل هكذا قرار؟ ونتيجة لقرارك لا تستطيع الآن مجرد التفكير بالزواج كما لا تستطيع استئجار بيت تسكن فيه» وأنت «نائم» لدرجة لا تدرك أنهم قالوا لك «لا يمكنك أن تكون عارف أوكورِز»، هذه هي حالة الغيبوبة التي تحدثت عنها.

- الآن بدأت أفهم كل ما تقوله.

- لِمَ كل هذا التأثر بما يقولونه عنك؟! لأنك تفكر بأسلوب يولي أهمية كبيرة لأن يكون تابعاً. ولأنك واحد من ملايين البشر الذين ينتظرون الرضا والقبول والمديح وكلمة مرحى لك والتقدير والمكافأة من الآخرين.

وأنا أيضاً كذلك. إن الفرق الوحيد بيني وبينك ربما هو إدراكي أكثر منك بوضعي، أي بوجودي داخل الزنزانة.

- إذن لا يوجد إنسان حر بالمعنى الحقيقي للكلمة إلا المحارب.

- هذا مؤكد.

- يا سيد دوغان إن ما تقوله تعبير خطير. إذ أنه يعني أن كل هذه الأمهات وهؤلاء الآباء والنساء والرجال والشباب والشابات الذين يشبكون أيديهم بأيدي بعض، وكذلك هذا النادل، جميعهم أي كل الناس ليسوا أحراراً!...

- إن كانوا لم يتحولوا بعد إلى محاربين، فهم كذلك فعلاً.

- هل تتمكن من معرفة فيما إذا كانوا محاربين أم لا؟!

- هل تريد سؤالي فيما إذا كنا نستطيع أن نعرف إن كانوا محاربين أم لا بمجرد النظر إليهم من الخارج؟.

- أجل.

- كلا، لا نستطيع. فلكي نعرف إن كان شخص ما محارباً أم لا، يجب معرفة عالمه الداخلي. فالذي يجعل من المحارب محارباً هو نظرته إلى ذاته وإلى مجتمعه وإلى الحياة، وكذلك فلسفة الحياة التي يتبناها، وعمله وسلوكه ضمن فلسفة الحياة هذه. فلكي نعرف فيما إذا كان شخص ما محارباً أم لا، يجب معرفة نظرته إلى الأمور وفلسفة الحياة الخاصة به، كما يجب مراقبة سلوكه، وأن ننظر إلى تطابق سلوكه مع فلسفة الحياة التي يتبناها، أي يجب النظر إلى تكامل شخصيته.

- مما فهمته أستطيع القول أن المحارب إنسان «يقظ».

- بالأحرى، المحارب إنسان «استيقظ» من نومه. إذ أن الوعي المراقِب للمحارب يتمتَّع دائماً بحيوية ويقظة، وبسبب هذا الوعي يضبط التوازن بين حاجتي التبعية وتحقيق الذات أثناء تأديته رقصة الحياة.

- المحارب إنسان خرج من زنزانته أليس كذلك؟!.

- بداية، أدرك المحارب أنه محبوس في زنزانة، ولكن هذا لا يوفر على الفور إمكانية الخروج من الزنزانة، بيد أنه بعد هذه اليقظة يبدأ المحارب بالعيش عيشة إستراتيجية، فكل كلمة ينطق بها وكل سلوك يقوم به إنما يفعل ذلك ضمن وعي رقصة الحياة التي توازن بين التبعية وتحقيق الذات. أحياناً يعود المحارب إلى زنزانته برغبة منه، ويعيش حياة طبيعية كسجين بين السجناء الموجودين في الزنزانة، لكنه يفعل ذلك بخيارٍ واعٍ لكي يحقق غاية ما. وهذا الخيار الواعي يجعله مختلفاً عن بقية السجناء الآخرين.

❖ ألا توجد للمحارب زنزانة خاصة به؟!:

كان السيد عارف يستمع باهتمام لما أقوله من جهة، ومن جهة أخرى يُبدي مقاومة ضد فكرة وجوده والآخرين داخل الزنزانة.

- أليس المحارب أيضاً موجوداً في زنزانة خاصة به؟!.

- هل توضّح ما تقوله أكثر، أعتقد أننا أمام سؤال مثير؟.

- يوجد في زنزانة البشر العاديين بشر عاديون، عندما يستيقظون يبدؤون بخلق أنفسهم كمحاربين، وعندما يبدؤون مرحلة كهذه فإنهم يطورون فلسفة حياة خاصة بهم ومختلفة عن فلسفة الحياة الخاصة بالبشر العاديين.

ماذا تعني فلسفة الحياة هذه؟! إنها منظومة من الأفكار المتأثرة بقواعد محددة ومجموعة من القيم. أليس كذلك؟! بهذا المعنى ألا يمكننا القول أن المحاربين يصنعون لأنفسهم زنزانات خاصة بهم؟!.

- سؤال جميل..

تأثرت كثيراً بالسؤال الذي طرحه السيد عارف وبإدراكه الأمور

وبطريقة تفسيره لها، وشعرت بأن رغبة تتملكني وتجتاح جوارحي بأن يبقى السيد عارف معلماً. عندما أدركت هذه الرغبة حدَّثت نفسي قائلاً: يجب أن أكون حذراً وشعرت أن السلوك الصادق يحتِّم عليَّ أن أبوح له بإعجابي بتفسيره للأمور:

- سيد عارف، لقد تأثرت كثيراً بسرعتك في إدراك الأمور وبدقتك في تفسيرها وإنني أشعر من كل قلبي بضرورة بقائك معلماً. أرجوك أن تدرك هذه الحقيقة، وأطلب منك أن تنبهني فيما إذا أتيتُ بأي سلوك من شأنه أن يدفعك ويوجهك إلى أن تبقى معلماً أو أتيتُ بأي سلوك يقنعك مهنة التعليم.

- سيد دوغان، إنني أنظر إلى رغبتك بأن تراني معلماً على أنها أمر باعث على الرضا بالنسبة لي.

- أعرف ذلك ولكن ما أريد قوله شيء آخر.

- ما تريد قوله هو أن تعمل الأسباب المنبعثة من داخلي على إقناعي بأن أبقى معلماً، أي أن أبقى معلماً بأسباب منبعثة من داخلي وليس لأنك أنت تريد ذلك. أليس كذلك؟!.

- نعم، إن رغبتي بأن أراك معلماً هي قرار أو نتيجة توصلت إليها ضمن إدراكي، وإنني أعتقد أن القرار الذي سيدفعك لأن تصبح معلماً هو قرار صائب بالنسبة لك. ولكن لا أريد أن يكون وصولي إلى هذا القرار عاملاً يؤثر على توجهاتك ويحد من تفكيرك أو يحد من حريتك أثناء الاختيار، فإذا رأيتني وصلت إلى موقف كهذا أرجو أن تنبهني. هل تعدني بذلك؟.

- نعم أعدُكَ. ابتسم وتابع قائلاً:

- أستاذي، إنني سعيد جداً بسبب اهتمامك بي وإعطائك لي هذه القيمة. ولكنني حتى الآن لم أحصل على جواب لسؤالي. فأجبته ضاحكاً:

- كنت آمل أن أنسيك السؤال أو ألهيك عنه ولكنك لم تنسَه مع الأسف.

ضحكنا... شعرت بأن صداقة حميمة ودافئة تتشكل فيما بيننا.

- ألا يوجد للمحارب زنزانة خاصة به؟ هذا هو السؤال الذي كنتَ قد طرحته. أليس كذلك؟!.

- أجل.

- واعتقدتُ بأنني سأتهرب من الإجابة عليه؟.

- لا، لا إنني أمزح.

- سأروي لك مثالاً أو حالة وبعد ذلك سأطرح عليك سؤالاً:

«الحالة هي: لنتخيَّل وجود إنساناً يمارس مهنة التعليم بملء إرادته، يداوم كل أسبوع خمسة أيام على عمل يحبه ويراه مهماً وذا معنى، ويمضي يومه مع طلابه، الذين يحترمهم، في جوٍ تعليمي طوره بالطريقة التي يريدها».

«تزوج هذا الإنسان من امرأة يحبها بعد علاقة تفاهم وقصة حب، وبالاتفاق مع زوجته أنجبا طفلين وهما يربيان طفليهما ضمن منظومة قيم يؤمنان بها وبطريقة اختاراها بملء إرادتهما. ما أن ينهي هذا الرجل دوامه في المدرسة حتى يعود، بكل شوق، إلى زوجته وأطفاله. هنا تنتهي الحالة. وأما السؤال الذي أريد طرحه فهو: هل برأيك أن هذا الشخص عبارة عن إنسان محبوس في زنزانة؟!.

- إن كانت الأبوة والأمومة عبارة عن دور اجتماعي، وإن كانت الزوجة أو الزوج عبارة عن أدوار اجتماعية - وأنت قلت بأن هذه الأدوار هي أبعادنا الاجتماعية التي تمثل جانب التبعية الموجودة في شخصيتنا - فإنني سأجيب بـ «نعم» نعم هذا المعلم أيضاً محبوس في زنزانة.

- أنا أخالفك الرأي يا سيد عارف.

- لماذا؟!.

- لكي أوضّح لك الموضوع أكثر، سأروي حالة أخرى وبعد ذلك سأطرح سؤالاً:

الحالة هي: فكِّر معي بوجود شخص لم يفضل مهنة التعليم بل فُرضت عليه قسراً ولا يزال يمارسها مُكرهاً. يداوم خمسة أيام في الأسبوع على عمل لا يحبه ولا يراه ذا معنى، ويضطر لأن يمضي يومه مع طلاب لا يحبهم ولا يقدرهم ضمن جو تعليمي لا كما يريد بل كما يريد النظام التعليمي»

لهذا الرجل زوجة لم يتزوجها عن حب وتفاهم، بل تزوجها مكرها لأن أباه وأمه اختاراها له. أنجب طفلين دون إرادة منه، إذ أنه يرى أن هذين الطفلين يشكلان عبئاً عليه، ولم يستطع أن يتفاهم مع زوجته حول موضوع تربية الأطفال، وهو مُدرك بأن ولديه يتربيان بطريقة غير راض عنها، لدرجة أن حماه وحماته بل وأخا زوجته أيضاً يتدخلون في موضوع تربية ولديه أكثر مما يتدخل هو. عندما ينتهي هذا الرجل من دوامه لا يحب العودة إلى بيته وزوجته وأطفاله. إنه لا يحب عمله ولا يحب منزله.

والسؤال الذي سأطرحه الآن: هل يوجد فرق بين هذا الشخص وبين الشخص الذي تحدثت عنه سابقاً؟!.

- ثمة فرق واضح وأكيد.

- برأيك ما هو الفرق بينهما؟.

- أحدهما يعيش حياته كما يريد والآخر يعيش حياته مُكرهاً لا كما يريد.

- ولكن حسب رأيك يجب ألاّ يوجد فرق بينهما.

- لماذا؟!

- تذكر ما قلته «إن كانت الأبوة والأمومة هي أدواراً إجتماعية وإذا

كانت الزوجة والزوج عبارة عن أدوار اجتماعية فإن كل شخص عن مجرد سجين ضمن هذه الأدوار الاجتماعية.

- نعم هذا ما قلته.

- في كلتا الحالتين اللتين تحدثت عنهما ثمة أدوار اجتماعية، فكلا الشخصين سواء أصبحا معلمين أو تزوجا برغبتيهما أو بدونهما. وفي كلتا الحالتين الأمومة والأبوة والتعليم هي أدوار اجتماعية.

- إذن، ما تريد قوله هو أن الأدوار الاجتماعية، التي يلعبها الشخص لا تحدد فيما إذا كان داخل الزنزانة أم لا. فمن المؤكد أن البشر سيلعبون أدواراً اجتماعية، وسيواصلون حياتهم ضمن هذه الأدوار الاجتماعية. أليس كذلك؟! فالمهم هنا هو هل الأدوار الاجتماعية هي التي فرضت نفسها عليهم أم هم الذين اختاروها بملء إرادتهم؟!.

- نعم هذا ما أريد قوله، عكس ذلك يفقد مصطلح «التوازن بين التبعية وتحقيق الذات» معناه. وعكس ذلك أيضاً تصبح الأسرة السعيدة، التي بناها شخصان تزوجا عن حب، داخل الزنزانة أيضاً مثلها في ذلك مثل الأسرة التي بناها شخصان تزوجا مكرهين. فإذا لم يرق مستوى تفكيرك إلى فهم الفرق بين كلا الأسرتين فإنني أدَّعي وجود أشياء هامة تعيق مستوى التفكير لديك، وبذلك تكون قد فقدت معرفة الفرق بين الزنزانة التي وُضِع فيها سجناء وبين عش الزوجية السعيد الذي تعيش فيه أسرة سعيدة.

وباختصار، كان سؤالك: «أليس المحارب أيضاً إنسان سجين في زنزانة خاصة؟!» وجوابي: «كلا، المحارب ليس سجيناً في زنزانة، لأنه يخلق حياة قائمة على خيارات اختارها بنفسه عن وعيٍ وإدراكٍ، ولهذا فهو يعيش حياته كما يريد». هكذا أجيب على سؤالك.

شعرت بالحاجة للنهوض والسير قليلاً بسبب جلوسنا لفترة طويلة.

شاركني السيد عارف رغبتي هذه فقررنا أن نمشي ونتحدَّث قليلاً. نادينا على النادل وأردت دفع الحساب فقال السيد عارف: «أرجوك يا أستاذي اسمح لي أن أدفع الحساب «تباحثنا حول الموضوع وقررنا أن يدفع الحساب كل مرة واحد منَّا، ولأنني دفعت الحساب في جلستنا الأولى فقد قررنا أن يدفع عارف حساب اليوم».

❖ محارب أم مسالم؟:

تابعنا حديثنا ونحن نسير حول الحديقة. قال السيد عارف بأن مصطلح المحارب بدأ يجذب اهتمامه فقلت له أننا تحدثنا حتى الآن عن أسس هذا المصطلح وعن بنيته التحتية، وفي المرات القادمة سنتحدث مطولاً عن خصائص المحارب وميزاته. وبعد فترة من الصمت سادت بيننا ونحن نمشي، قال السيد عارف إن مصطلح المحارب لا يريحه كثيراً فسألته قائلاً:

- لماذا يزعجك مصطلح المحارب؟.
- لأنه لا يُذكِّر بالسلام بل يُذكِّر بالحرب.
- هل سمعت في حياتك بمصطلح «مسالم»؟!.
- ليس بالكثافة التي أسمع فيها مصطلح «محارب» لكن الناس يتحدثون عن «إنسان مسالم»
- حقيقة، يجب أن يُطلق على المحارب الذي نتحدث عنه اسم «المسالم»، ولكن لكي يتحقق السلام لا بد من خوض حرب كبيرة. ولهذا السبب فإن المسالم الحقيقي لا بد أن يكون محارباً سابقاً.
- بأي معنى يجب أن يكون محارباً؟.
- لكي يصبح الشخص محارباً بالمعنى الذي تحدث عنه إ. إ. كومينغس ee. Cummings يجب أولاً أن يستيقظ ويدرك وجوده بالزنزانة،

إن إدراك الـشخص للزنزانـة الموجـود داخلـها عمـل يتطلـب الكـثير مـن الشجاعة.

- الشجاعة مطلوبة في تحول الفرد إلى إنسان مسالم أكثر مما هـي مطلوبة في تحوله إلى إنسان محارب.

- هـذا مؤكد، بيد أن المسالم الذي تتحدث عنه ليس ذات المسالم الذي نعرفه عادة بالمعنى الدارج. فعندما نقول عن شخص ما بأنه إنسان مسالم، فإننا نفهم أنه ذاك الإنسان الذي لا يتدخل في أي شيء، وحسب ما عرَّفه نصر الدين هوجة[1] في إحدى نوادره، هو الإنسان الذي يقول لكل من يراه «أنت محق» ويتلوَّن كالحرباء حسب ألوان البيئة المحيطة به.

- ولكنني لا أتحدث عن مسالم من هذا النوع.

- أعلم أنك لا تتحدث عن مسالم من هذا النوع. ولكن حتى يصبح الإنسان مسالماً من النوع الذي تتحدث عنه لا بد أولاً أن يكون محارباً حقيقياً. يبدو لي أن إعادة وضع تعريف للمحارب، ضمن هـذا المعنى، سيكون أكثر سهولة وأكثر قوة من إعادة وضع تعريف للمسالم. ولذلك اسمح لي أن نتابع حديثنا عن المحارب بالمعنى الذي أستخدمه أنا.

- كما تريد يا سيد دوغان.

- حسناً. المحارب شخص شجاع، ولكن متى تلزمه هذه الشجاعة؟.

توقفت برهة، كانت نظرة السيد عارف إلى عيني تشير إلى أنه أدرك أنني توقفت عن الكلام لألفت انتباهه إلى ما سأقوله. فتابعت حديثي قائلاً:

- تلزمه هذه الشجاعة عندما يقيم علاقة مع نفسه من جهة ومع الآخرين الذين يعيشون في بيئته من جهة أخرى.

إذ يجب على الشخص مواجهة نفسه بشجاعة لكي ينهي الحرب أو

---

[1]- نصر الدين هوجة: هو جحا في الحكايات العربية.

الصراع الذي يدور داخله. ربما لم تسمع بهذا النوع من الشجاعة، أي تلك الشجاعة الضرورية من أجل المواجهة مع الذات. إذ أن ثقافتنا لم تُظهِر ولم تُبلوِر هذا النوع من النضال الذي يقوم به الإنسان.

كنت سأتابع حديثي ولكنني توقفت حين رأيت على وجه السيد عارف علامات تشير إلى أنه يريد أن يطرح سؤلاً. فنظرت إليه ولسان حالي يقول: «إن كان لديك سؤال هيا اطرحه». فسألني قائلاً:

- قلت إنه لم يتم في ثقافتنا بلورة هذا النوع من النضال الذي يقوم به الإنسان مع ذاته. فما الذي تقصده من ذلك؟ هل تقصد أن إنساننا يناضل ضد ذاته ولكنه لا يُظهِر هذا النضال، أم أنه لا يتم تشجيع إنساننا لكي يبدي نضالاً كهذا، أيهما تقصد؟!.

- أقصد كلتا الحالتين. إن نية ثقافتنا لا تصب في جهة استقلالية الإنسان، بل تصب في جهة تبعيته للآخر وبشكل عام تبعيته لسلطة ما. ولهذا السبب فإن ثقافتنا تُظهر الجهود التي يبذلها شخص ما في سبيل نيله استقلاليته على أنها سلوكيات غير سوية، ويتحول الذين يبذلون جهوداً كهذه إلى محط سخرية المجتمع، وعندما يكون الأمر كذلك فإن الذين يفكرون بنيل استقلاليتهم لا يتلقون أي تشجيع من المجتمع.

- وضِح الأمر، شكراً لك.

- أحبذ مواصلة الحديث من النقطة التي توقفنا عندها:

عندما يبدأ الإنسان بخوض حرب داخل ذاته، يبدأ بالاهتمام بالحرب التي تجري خارجه، ولهذا فإن الشجاعة ضرورية من أجل إنهاء الحرب المتواصلة في محيطه، وبالتالي يجب أن يتعلم كيف يتوجب عليه رؤية وإدراك وتفسير الحقيقة التي يعيشها بكل شجاعة لكي يضفي تكاملاً وحباً وصدقاً على علاقته مع بيئته، وأن يتعلم كيف يعيش بشكل فعال ضمن هذه العلاقة.

- أستطيع أن أرى ضرورة أن يكون المحارب شجاعاً، فقبل كل شيء يجب أن لا يخشى المرء من معرفة من يكون. أعتقد أن هذه هي الخطوة الأولى.

- لقد قدمت أفضل تعريف للشجاعة. فالشجاعة هي «أن يواصل المرء حياته من خلال تحقيق ذاته دون خوف من نفسه، منطلقاً في ذلك من إيمانه بطاقاته الذاتية، فلو خافت الشجرة من تحقيق ذاتها ولو خجلت من ذاتها لما استطاعت استخدام كافة طاقاتها ولما تحولت إلى شجرة ضخمة ولبقيت غرسه صغيرة.

- نعم هذا ما أراه أنا أيضاً. فالأساس الحقيقي للشجاعة **يتمثل في عدم خوف المرء من نفسه.**

- إن مواجهة الإنسان لذاته دون خوف يدل على أنه مستعد للنضال الحقيقي.

- لفتت انتباهي عبارة النضال الحقيقي. هل هناك نضال مزيَّف؟!.

- آه يا سيد عارف، رجاءً انظر بعينين فاحصتين إلى من حولك، أعتقد أنك سترى ما أرى: نضال مزيَّف لأناس مزيَّفين.

- هذا يعني أنك تتحدث عن أناس لا يناضلون لأنهم مؤمنون بذلك، بل يخوضون نضالاً استعراضياً لكي يحصلوا على احترام الناس فقط.

- نعم، أتحدث عن هؤلاء.

- يبدو أننا عُدنا من جديد إلى رقصة التوازن بين التبعية وتحقيق الذات.

- نعم، أساساً إن رقصة الحياة هذه هي التي تُعرِّف بالمحارب، تجعله يواجه نفسه ويحاسبها أثناء صراعه مع ذاته لكي يتقدم نحو تحقيق ذاته كمحارب. وهي حرب ضرورية لتحقيق ذلك، وهذا هو النضال الحقيقي. ولهذا السبب اخترت كلمة «محارب».

- غريب، أعتقد أن إ. إ. كومينيغس يقصد ذلك بقوله «إنها أصعب حرب»، حسناً يا أستاذي، هل يمكننا الحديث عن هذا الصراع؟ مثلاً، كيف يعبِّر هذا النضال عن نفسه في حياتي؟!.

- أريد في لقائنا اليوم الحديث عن موضوع «اليقظة»، كنا أثناء لقائنا في حديقة كباتاش قد تحدثنا عن «البحث عن معنى». فأنا أريد في كل لقاء من لقاءاتنا أن أبحث معك عن ميزة واحدة من مزايا المحارب. وبعد الانتهاء من مناقشة الخصائص التي تجعلنا نطلق على إنسان ما اسم محارب، نستطيع وقتئذٍ مراقبة المكانة التي تحتلها هذه الخصائص في حياتك بوضوح. ما قولك في ذلك؟!.

- بالنسبة لي، أفضِّل الحديث في هذا الموضوع بشكل منسق ونظامي.

- إذن اتفقنا. لقد كان كارل يونغ عالم نفس مثير للغاية. أذكر هنا أحد أقواله. سأحاول أن أترجمها لك، يقول:

«تتأزَّم حياة من
لا يستطيع النظر إلى قلبه.
أما الذين يمتلكون الجرأة على النظر إلى قلوبهم
فإنهم يكتشفون غايات أفئدتهم.
يرى حلماً من ينظر إلى الخارج...
ويضيع في عالم من الخيال.
أما الذي ينظر إلى الداخل...
فإنه يستيقظ.. ويكتشف ذاته».

- أعجبتني جداً هذه العبارات.

- نعم، إنها عبارات ذات معنى ومغزى.

كنت قد خططت لكي نتناول اليوم في حديثنا موضوع اليقظة، وقد استطعنا فعلاً الحديث بشكل موسَّع.

نظرت إلى ساعتي فقال السيد عارف:

- يا أستاذي لاشك أن موعد ذهابك قد اقترب.

موضحاً بذلك أنه فهم ما يدور في دماغي.

- نعم يا سيد عارف لقد اقترب موعد ذهابي. أين ومتى سنلتقي الأسبوع القادم؟ سأذهب بعد أن نحدد موعد لقائنا.

- هل تفضل أن نلتقي ضمن أيام الأسبوع أم في نهايته؟.

- ما قولك بمساء يوم الأربعاء؟.

- حسناً، أين سنلتقي؟.

- أقترح أن نلتقي في مرمرة كافيه، الموجود في ساحة تكسيم. ما قولك في ذلك؟.

- موافق يا أستاذ.

- الساعة الثامنة مساء، هل يناسبك؟.

- نعم يناسبني.

تصافحنا، ثم افترقنا.



أثناء جلوسي في الباخرة المتجهة إلى بيشكتاش، رحت أراجع ما دار بيننا من أحاديث ورحت أفكر بمصطلح «إنسان نكرة». كانت الكاتبة مينا أورغان قد تحدثت في كتابها «مذكرات ديناصور» عن «الغوغائية»، ولم تستطع الكاتبة أن تمنع نفسها من الحديث عن أصول الغوغائيين أثناء حديثها عنهم، وذلك لأنها تناولتهم ووصفتهم ضمن أيديولوجية مؤمنة بها:

«الغوغائية، نتيجة طبيعية لقيام المجتمع الإستهلاكي بفرض الهيمنة ضمن بيئة اجتماعية خالية من الثقافة، وهي في نظري قبيحة كالفاشية وخطيرة منها. وربما نستطيع اعتبارها مؤشر على الديناصورية، وإنني أشعر بردة فعل عنيفة على الغوغائية في كل مجال توجد فيه وفي سلوكها وفي طريقة حديثها وفي الزي واللباس والموسيقى وفي كل مجال. وإن ردة فعلي تزداد شيئاً فسيئاً لأن بلادي وبلدان العالم الأخرى أيضاً بدأت في النصف الثاني من هذا القرن تسير نحو الغوغائية».

فكرت لحظة وتساءلت: كيف كانت مينا أورغان تُدرك مصطلح المحارب؟. بعد ذلك خطر ببالي مصطلح «الإنسان المتفوق» لنيتشة، حيث يؤكد نيتشة على عدم وضع تعريف للفردية. ويؤكد على أن المحاولات الرامية لوضع تعريف لفردية الإنسان تحد من كماله وتحجِّمه وتحرِّف حقيقة الإنسان، فالإنسان طاقة من الكمال، ومن الممكن الوصول إلى الإنسان المتفوق من خلال تطوير هذه الطاقة من الكمال. إن فكرة نيتشة هذه تعبِّر عن وجوديته وبأنه يتبع وجهة نظر فينومينولوجية.

مرَّت الباخرة من أمام منطقة حيدر باشا متجهة نحو قلعة الفتاة (كظ كلاسي). فكرت بالمواضيع التي ناقشتها مع السيد عارف فتوضحت أمامي سلسلة من الحقائق بشكل واضح وصريح: حتى يستطيع الفرد أداء رقصة الحياة ضمن حالة من التوازن بين التبعية وتحقيق الذات يجب أولاً أن يمتلك النية بأن تكون هذه الرقصة رقصة خاصة به، ويجب أن تكون هذه النية خاصة بالمحارب، فالمحارب الذي يبدأ عملاً ما بهذه النية يجب أن يمارس هذا العمل ضمن شخصية متكاملة وأن يكون مستعداً لدفع فاتورة هذا العمل الذي يقوم به، كما يجب أن يكون المحارب قوياً وكذلك العمل الذي يقوم به، وطبعاً النتيجة الطبيعية لتكامل الشخصية هي المسؤولية.

فكرت بوجوب الحديث مطولاً عن هذه المصطلحات مع السيد عارف. شعرت بأنني والسيد عارف في بداية رحلة مشوقة، نظرت من الباخرة إلى الخارج بانفعال لذيذ، كانت الجوامع القريبة من ميناء أوسكودار تبدو وكأنها أكثر جمالاً وبأنها تحمل معانٍ جديدة.



3
النـيَّـة

كانت السماء تهطل رذاذاً خفيفاً، أثناء سيري باتجاه فندق مرمرة رأيت مركز أتاتورك الثقافي على يمين الطريق المؤدي إلى غوموش سويو، وأما قبالتي فكان ينتصب فندق انترناسيونال «شيراتون سابقاً» وبعد ذلك على الجهة اليسرى كانت تمتد الأبنية على مد النظر وفوقها يمتد خليط من اللوحات الإعلانية. يوجد أمام الفندق ثمانية عشر عموداً، يرفرف على كل عمود علم إحدى الدول، العلم التركي في المقدمة وبجانبه العلم اليوناني ويتبعه أعلام فرنسا، ألمانية، اليابان، انكلترا، الولايات المتحدة الأمريكية، إلخ...

في الجهة المطلة على ساحة تكسيم، من هذه الأعمدة، عُلِّقت لوحات عديدة كُتب عليها «ممنوع الوقوف» وقد رُكنت أمامها سيارتان!!!... في السيارة الأولى يجلس سائق يدخن ويتكلم على الخليوي، وأما في السيارة الأخرى فلا يوجد أحد. وإلى الأمام قليلاً يوجد شرطي مرور ينظِّم حركة المرور عند إشارة المرور. كنت أراقب ما يدور في داخلي، أراقبه لمعرفة ما يمكنني إدراكه: «لوحات مرورية نكرة»، «شرطي مرور نكرة»... أحسست بأن عالمي الجواني مضطرباً ومشوشاً وفاقداً بعضاً من أمله. ولكن هل فقدتُ أملي؟! عُدتُ إلى رشدي مباشرة... لا لا.. لا يمكنني أن أفقد أملي.

كانت باصات النقل الخاصة تتقاطر في استانبول وراء بعضها البعض

«كوسيلة نقل نكرة» مضيفة ما يمكنها إضافته إلى جمال استانبول، من خلال دخان المازوت المتصاعد منها... بيئة فوضوية مكتظة بالسيارات والباصات والشباب والكهول والرجال والنساء والمتعلمين والأميين، أناس من كل الأشكال والألوان الذين يبدون كالسيل في هذه الفوضى. فكَّرتُ: نحن من يعرف جيداً جمالية هذه الفوضى.... كان جزء مني يراقب هذه الفوضى.

ألقيت نظرة على الأحاسيس والأفكار التي تدور داخلي: «ساحة تقسيم معقدة ومتشابكة كأدمغتنا تماماً».

عندما تدخل إلى فندق مرمرة تجد أمامك مباشرة واجهة زجاجية عُرضت فيها أطباق الشوكولا الملونة والمعجنات، وخلف هذه الواجهة عدد من الأشخاص يقدمون الخدمة للزبائن الملتفِّين حول هذه الواجهة.

إلى جوار الجدار، الموجود إلى اليمين في المكان المخصص لغير المدخنين، ثمة كرسي فارغ، ذهبت وجلست عليه. بعد فترة وجيزة وصل السيد عارف. برقت عيناه بابتسامة عندما رآني، فتقدم وجلس أمامي.

بدأ مطرٌ صيفي خفيف يهطل في الخارج... راح الناس يسيرون بسرعة وهم يمسكون بالصحف والمظلات والمعاطف والمناديل فوق رؤوسهم خشية تبللهم بالمطر. سُررت كثيراً عندما أدركت أنني والسيد عارف نجلس في ركن مريح.

على الفور تقدم منا نادل شاب أنيق بشوش الوجه مفعم بحيوية المراهقين. كان على وشك وضع لائحة المأكولات والمشروبات على الطاولة عندما بادرته قائلاً: لا داع لها. وطلبت فنجان نيسكافيه وشاركني السيد عارف الرأي في ذلك. وبعد عدة جمل متفرقة كانت مدخلاً للحديث، بدأ السيد عارف حديثه قائلاً:

- في أي موضوع سنتحدث اليوم يا أستاذي؟

كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس دقائق، الصالة مزدحمة جداً.

أذكر أنني فكرت فيما إذا كان يوجد في هذه المنطقة صالة كهذه تقدم المعجنات بهذه الجودة أم لا. أعتقد أنه يوجد بوفيه في كل فندق جيد. ولكن ما لفت انتباهي سابقاً هو عدم وجود صالة كهذه، نظيفة وراقية وفي الوقت ذاته تمتلك إطلالة على ساحة تكسيم. ثم فكرت لو أمكن لساحة تقسيم أن تعمل ضمن ثقافة فرنسية أو لو وجد في فرنسا ساحة كساحة تكسيم، إذن لكانت اكتظت بالمقاهي وبالصالات التي تقدم المعجنات والكاتو.

كانت نظرات السيد عارف تشير إلى أنه يرغب بطرح سؤال ما، ألقيت عليه نظرة مفادها «هل من سؤال تريد طرحه؟!». فقال:

- يا أستاذي، هل هناك ما يمنع أن أكتب بعض الملاحظات بين الحين والآخر؟ فلقد فكرت بأن ملاحظات كهذه تساعدني أكثر في تذكر ما نتحدث به.

- إن عدم تدوينك للملاحظات يجعلني أتحدث بأريحية أكثر، وإن عدم تدوينك للملاحظات يجعلك تستمع إلي بإصغاء أكثر، لا أريد منك كتابة أي شيء ما لم يكن ذلك ضرورياً.

- كما تريد يا أستاذي، أفهم قصدك من ذلك. لن أكتب أية ملاحظة ما لم يكن ذلك ضرورياً.

- سأروي لك الآن حادثة، وبعدها سأطرح عليك سؤالاً لأرى رأيك فيها. والحادثة المذكورة سمعتها من مدير فرع أحد المصارف، في إحدى الندوات التي قدمتها.

❖ هل أنت من صفعني؟!:

قال الشخص الذي روى الحادثة أنه كان في مدينة ترابزون في زيارة قام بها إلى أهله بمناسبة حلول العيد.

«ركبت السرفيس قاصداً زيارة بعض الأصدقاء في

اليوم الثاني من أيام العيد. كان الركاب يصعدون إلى الميكرو، الموجود في موقف السرافيس، يجلسون في مقاعدهم منتظرين امتلاء الميكرو بالركاب. جلست وبدأت قراءة الصحيفة التي بحوزتي. كان معاون السائق الشاب يتحدث بلهجة غاضبة، ولكنني لم أعره انتباهي. واصلت قراءة صحيفتي. بعد فترة وجيزة سمعت صوت صفعة قوية، وعندما التفتُ رأيت معاون السائق قد وجه صفعة قوية إلى رجل عجوز».

توقفت عند هذه النقطة وطلبت من السيد عارف أن يتوقع كيف انتهت هذه الحادثة. فقال: رد الرجل العجوز على الشاب بصفعة أو بركلة مشابهة، وتدخل بقية الركاب ووبخوا المعاون على فعلته وأوضحوا له بأنه ما كان يجب عليه أن يتصرف بهذه الطريقة مع رجل مسن كهذا. فقلت له:

- لا، لم يحدث ما قلته. توقع من جديد كيف انتهت هذه القصة.

فكر السيد عارف قليلاً وقال بأن أحد الأشخاص دافع عن الرجل العجوز وضرب المعاون الشاب.

- كلا لم يحدث هذا أيضاً. ما هي توقعاتك، ماذا فعل الرجل المسن وما الذي قاله للمعاون الشاب؟.

- لا شك بأنه أمطره بوابل من الشتائم التي يخجل المرء من ذكرها ووجه له صفعتين.

واصلت سرد القصة كما سمعتها من فم مدير فرع المصرف كما يلي:

«أغلقت صحيفتي وتأهبت، لأن أبناء منطقة كارادينيز[2] ما أن يغضبوا حتى يلجؤوا إلى سلاحهم

---

[2] - البحر الأسود (المترجم).

ولذلك عليك أن تكون متأهباً للهرب عندما يحدث أمر كهذا. ولكن ما حدث كان غريباً جداً، فلقد التفت الرجل العجوز إلى المعاون الشاب وقال له (تمكَّن المدير من تقليد لهجة الرجل العجوز لأنه من منطقة كارادينيز)

- ها ... أنت من وجَّه هذه الصفعة، من الواضح أنني أستحقها، ولكنني لا أعرف كيف استحققتها، هيا قل لي هل استحققتها ؟!»

ففي الوقت الذي كان فيه المعاون الشاب متأهباً لتلقي الركلات والصفعات من الرجل العجوز قوبل برد كهذا ففتح فمه مندهشاً وتسمر في مكانه».

- والآن ياسيد عارف سأسألك من جديد: لماذا تصرف الرجل العجوز بهذا الشكل؟.

- تحدث بلهجة متواضعة خشية أن يتعرض للضرب من قبل هذا الشاب لأنه أكثر شباباً وأكثر قوة منه.

- نعم هذه واحدة من التفسيرات. ولكن إذا دققت بأسلوب حديث العجوز ستجد أنه لا يبدو عليه أنه اتَّخذ موقفاً يدل على خضوعه أو على أنه يطلب العفو والمعذرة. فهو يفتح استجواباً واضحاً وجلياً: «قل لي كيف استحققتُ هذه الصفعة؟!»

- ربما تعامل مع هذا الشاب بلطف احتراماً للموجودين، خاصة وأن الجميع يعرفون بعضهم بما في ذلك معاون السائق.

- إذن ألا يمكننا القول أن هذا العجوز الترابزوني[3] أتى بسلوك خارج أي نمط من أنماط السلوك التي نعرفها؟!

---

[3] - نسبة إلى مدينة ترابزون الواقعة على البحر الأسود(المترجم)

- أجل يمكننا قول ذلك، لأنه فعلاً أتى بسلوك مختلف عن أنماط السلوك المألوفة.

- هذا ما أردت منك أن تدركه من خلال سردي لهذه القصة، والآن سأروي لك قصة أخرى من الكتاب الذي معي وبعدها سأطرح عليك بعض الأسئلة.

أخرجت من حقيبتي كتاب «المحارب المدرك the Awakened warrior»، وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات لمجموعة من الكتّاب، ورحت أقرأ باختصار مقالة لكاتب يدعى تيري دوبسون Terry Dobson. ولكنني قبل البدء بالقراءة قدمت المعلومة التالية: يُعد تيري دوبسون واحداً من الذين ترقوا في خبرتهم حتى وصلوا إلى مرتبة رئيس مساعدي الخبير الياباني أوشيبا Ueshiba المعروف بأنه مؤسس لعبة الآيكيدو[4] ومن أكبر خبراء فن القتال في العالم، أقام دوبسون في اليابان سنين طويلة في الفترة التي كان فيها معيداً. بعد هذا الموجز بدأت بسرد القصة:

«ذات يوم شهدت في اليابان حادثة شكلت إحدى نقاط الانعطاف الهامة التي غيّرت حياتي، ففي فترة بعد ظهر يوم ربيعي كان القطار فارغاً إلا من بعض الركاب، فقد كان يجلس في العربة عدد من النساء كنَّ قد خرجن مع أطفالهن للتسوّق، بالإضافة لبعض الأزواج المسنين. وكان القطار يقف في المحطات دون أن ينزل منه أو يصعد إليه أحد. ولكن في إحدى المحطات صعد رجل ثمل يرتدي بدلة عمل تفوح منها روائح

---

[4] - الآيكيدو: إحدى الرياضات الروحية: رياضة الدفاع عن النفس بدون أسلحة (المترجم).

كريهة، وراح يصرخ بأعلى صوته. دخل إلى العربة ماراً بالمقاعد مقعداً مقعداً، ناشراً في المكان رائحة حامضة بسبب القيء الذي جفّ على ثيابه. ثم وجّه لكمة إلى أول شخص ظهر أمامه - كان هذا الشخص امرأة تحمل طفلاً على حضنها - ولأن المرأة تراجعت قليلاً إلى الخلف فقد أصابتها لكمته على كتفها، وقذفها إلى حضن رجل مسن كان يجلس وزوجته في الطرف الآخر من العربة. ومن حسن المصادفة أن اللكمة لم تُصب الطفل الذي بحضنها. وبينما كانت إمرأة مسنة تنهض وتتأهب للهرب من هذا الرجل الثمل وجّه إليها ركلة برجله وشتمها قائلاً: «أيتها العاهرة القذرة» وحاول نزع قطعة من الحديد موجودة في منتصف العربة ورأيت وقتئذٍ يده اليمنى مضرجة بالدماء. وفي جوٍّ سيطر فيه الرعب على الجميع راحت عينا الرجل الثمل تمسحان المكان بحثاً عن أحد ليهجم عليه».

«نهضت من مكاني، وقتها كنت رجلاً طوله مائة وتسعين سنتيمتراً ووزنه مائة كيلو غراماً ويلعب كل يوم ثماني ساعات تدريبية على لعبة الآيكيدو ويمتلك ثقة عالية بنفسه. ولم أكن قد جرّبت نفسي بعدُ في أي قتال حقيقي. إذ يجب عدم استخدام الآيكيدو في شن هجوم على أحد. فلقد قال لي معلمي ذات يوم: يجب استخدام لعبة الآيكيدو، دائما، كقوة سلام. ولكن يمكن استخدامها كوسيلة قتال حقيقية إذا ما اضطر الإنسان لذلك بغية حماية شخص ما، فلعبة الآيكيدو تستخدم

لفضِّ المواجهات وليس لخلقها. هكذا كان يقول معلمي، الذي أكن له احتراماً عظيماً، لدرجة أنني أتذكر أنني بدَّلت الرصيف الذي أسير عليه أكثر من مرة كي لا أقع في مواجهة قتالية مع المتسكعين من أولاد الشوارع. ولكن كنت أتمنى في داخلي لو أجرب ما تعلمته على رجل يقمع الآخرين ويظلمهم ويهجم عليهم دون وجه حق. وها قد جاء أمامي رجل سكير عربيد يشتم الآخرين ويهجم على النساء والأطفال. فإذا لم أضع حداًله وإذا لم أعلمه قدر نفسه فإنه قد يزهق روح أحد الموجودين، لذلك أستطيع الآن سحقه بنفس مرتاحة وراضية».

«عندما رآني الرجل الثمل متجهاً نحوه نظر إلي وقال والبصاق يرذ من فمه: إن هذا الأجنبي ابن الحرام يحتاج لدرس لكي يتعلم كيف يحترم اليابانيين. وأما أنا فقد رحت أهتز على رجلي بخفة ممسكاً بقضبان الحديد الموجودة في سقف عربة القطار، ونظرت إليه نظرة مليئة بالاحتقار والاستهزاء به، فكرت بسحق هذا الرجل، صحيح أنه ضخم الجثة ولكنه ثمل وغاضب وأما أنا فقد كنت هادئاً للغاية، وكان لدي ثقة كبيرة بأنني رجل مدرَّب ويعرف ما يجب القيام به».

توقفت عند هذه النقطة ونظرت إلى السيد عارف، كان يستمع للقصة التي أرويها بكل اهتمام. عندما رأي توقفي عن الكلام نظر إلي نظرة من يريد أن يقول: لمَ توقفت عن الكلام؟. فسألته قائلاً: لو كنت تتقن لعبة الآيكيدو بشكل جيد ولو كنت مكان هذا الرجل فهل كنت ستتدخل في هذه الحادثة؟!.

- من المؤكد أنني سأتدخل، حتى أنني ما كنت لأنتظر كل هذا الوقت، بل كنت سأمسك هذا الرجل القذر من رقبته وأرميه أرضاً.

- برأيك، لِمَ حاول الكاتب إثارة غضب وغليان الرجل الثمل؟

- لأنه إذا غضب الشخص الذي أمامك فإنه سيفقد صوابه ولن يكون مقاتلاً جيداً.

- نعم، أعتقد لهذا السبب اتَّخذ الكاتب موقفاً استفزازياً لإثارة غضب الرجل.

بعد هذا الحوار تابعت قراءتي من المكان الذي توقفت عنده:

«مشى الرجل نحوي قائلاً: أيها القوَّاد سألقنك درساً ولكن إياك أن تنساه. لم أتحرك من مكاني، بل رمقته بنظرة من عيني وأرسلت له رسالة استخفاف، فتأهب لقتالي دون أن يدري ما الذي سيحل به».

«وقبل أن يهجم عليَّ بعدة ثوان ناداه أحدهم قائلاً: «هيييييه...» كان صوتاً حاداً وعالياً ولكنه يدل على أن صاحبه رجل مرح وواثق من نفسه. ناداه من جديد بصوت يرن كالجرس: «انظر ماذا وجدت..» التفتُ والرجل الثمل إلى مصدر الصوت ورأينا رجلاً مسناً صغير البنية، ربما يكون في السبعين من عمره، يرتدي رداءً نظيفاً ذا أكمام فضفاضة. لم يكن ينظر إلي مطلقاً، بل كان ينظر إلى العامل الثمل بعينين ضاحكتين وكأنه يريد أن يشاطره سراً ما.

أشار له بيده بأن «تعال إلى هنا، تعال إليَّ وتحدث معي قليلاً». ذهب العامل إلى الرجل المسن وكأنه دُمية رُبِطت بخيط، ووقف أمامه ثم رمقه بنظرة متعالية

قائلاً: «ماذا تريد مني يا مِسخ رجل ذَبُل فيه كل عضو، إن ضرطت عليك أرميك أرضاً». فكرت وقتها بأن أسحقه ما أن يحاول الهجوم على الرجل العجوز. ولكن لم يكن يبدو في عيني هذا الرجل العجوز أي خوف، بل كان يضحك وهو يسأله: «ما هو المشروب الذي تتناوله يا صديقي؟!».

«كنت أتناول مشروب الـ (ساكي) أيها العجوز ذو وجه القرد، ثم ما لك أنت بما أتناوله من مشروب؟!» فردَّ عليه العجوز: «أووه... جميل جداً، أنا أيضاً أحب الساكي كثيراً، فكل مساء نقوم أنا وزوجتي - وهي في السادسة والسبعين من عمرها - بتسخين الساكي ونجلس على الديوان، الذي بناه تلامذة جدي له في حديقة منزلنا، ونشرب الساكي رويداً رويداً، ثم نراقب غياب الشمس ونمتِّع ناظرينا بأشجار البلح الموجودة في الحديقة، لقد ذبُلت أشجار البلح قليلاً بسبب الصقيع الذي حصل في السنة الماضية. لقد قام جدُّ جدي بنصب هذه الأشجار نعم، نعم كما قلت لك إننا نمتع ناظرينا بمشاهدة أشجار البلح ونراقب غياب الشمس ونحن نتناول الساكي» كان العجوز ينظر إلى وجه الرجل الثمل وهو يتحدث معه بكل فرح وأريحية وكأنه يتحدث مع أعز أصدقائه.

بدأت أسارير الرجل الثمل تنفرج وهو يتابع التفاصيل التي يتحدث بها العجوز، وارتخت القبضات المتقلصة، وعندما انتهى العجوز من حديثه قال له

الرجل الثمل: «أنا أيضاً أحب الساكي كثيراً» وشيئاً فشيئاً تغيَّرت نبرة صوته وانخفضت حدته وفقد خشونته.

قال الرجل العجوز: «نعم، أنا واثق من أن لديك زوجة رائعة» فراح الرجل الثمل يهز رأسه بحزن ويقول: «لا، ليس لدي زوجة ولا عائلة» ثم كرر كلامه وهو يهز رأسه بما يتوافق مع حركة القطار: «ليس لدي زوجة ولا أسرة». توقف عن الكلام لحظة ثم تابع كلامه بصوت هادئ ورخيم لا يتلائم مطلقاً مع حالته التي كان عليها منذ قليل: «ليس لدي زوجة ولا بيت ولا ثياب ولا نقود ولا آلة ولا أدوات أعمل بها وليس لدي سقف أنام تحته، إنني أخجل من نفسي» صار جسد هذا الرجل الثمل الضخم البنية يهتز وهو مستمراً بالبكاء... ثمة إعلان، معلق فوق رأس الرجل الثمل، يتحدث عن وسائل الراحة المتوفرة في إحدى البلديات. فكرت بما يقوله الإعلان وبما جرى أمام عيني الآن ولم أجد في وجودهما في مكان واحد إلا لوحة ساخرة. لقد تأثرت كثيراً بهذه اللوحة الساخرة، فخجلت من نفسي وخجلت من ثيابي النظيفة ومن مبادئي ومواقفي التي تتحدث عن خلق عالم آمن يسعى من أجل تطبيق الديمقراطية، وشعرت بأنني أحقر وأكثر قذارة من هذا الرجل الثمل.

استمع العجوز لما قاله الرجل الثمل باهتمام وقال: «واه واه واه... فعلاً إن حظك سيئ جداً» ولكن عينيه المليئتين بالحماسة والسعادة لم تتغيُرا أبداً وهو يقول له: «تعال اجلس بجانبي وارو ِ لي كل شيء».

في هذه الأثناء وصل القطار إلى المحطة التي سأنزل فيها. كانت المحطة مليئة بالركاب، ما أن فُتحت الأبواب حتى هجم الركاب إلى القطار، التفتُ إلى الخلف وأنا أنزل من العربة فرأيت الرجل الثمل وقد سقط على المقعد كالكيس ووضع رأسه في حضن العجوز الذي راح يمسح رأس الثمل، المغطى بالقيء الجاف، بيديه. وكانت عيناه مفعمتان بالشفقة والاهتمام.

حين غادر القطار المحطة جلست على أحد المقاعد رغبة مني بإعادة النظر في هذه الحياة، فما حاولت النجاح فيه بواسطة عضلاتي وعظامي نجح فيه هذا الرجل العجوز بعدة جمل مفعمة بالحنان والشفقة والإدراك والفهم، وفهمت بأنني منذ هذه اللحظة بدأت أدرك المعنى الحقيقي للآيكيدو، فكما قال مؤسس هذه اللعبة: الآيكيدو هو فن التفاهم وليس وسيلة للقتال. شعرت بأنني أحمق وعدواني وسيئ، وأدركت ضرورة ممارسة الآيكيدو بمفهوم مختلف، كما فهمت أيضاً أنني لم أفهم بعد الآيكيدو، والتفاهم.

❖ كل شيء يبدأ بالنية:

التقت نظراتي مع نظرات السيد عارف. سادت فترة من الصمت، ثم أخذ كل منا رشفة من فنجان قهوته. كسرت حاجز الصمت قائلاً:

- هل ترى تشابهاً بين حادثة الرجل الترابزوني وبين هذه الحادثة؟!.

صمت السيد عارف وبعد لحظة من التفكير قال:

- بالتأكيد، فكلتا الحادثتان تسعيان إلى إقامة علاقة على خلفية من القتال والشجار، وفي كلا الحادثتين أيضاً يتم تحويل الحادثة التي يمكن أن تكون موضوع سباب وشتائم إلى مستوى أرقى وأسمى كما يتم تحويلهما إلى بيئة تعليمية لاستخلاص الدروس والعبر.

- استخدمت الآن جملة ساحرة تعتبر من مفردات فلسفة المحارب.

- صحيح؟ ماذا قلتُ؟!.

- استخدمت جملة تقول (بيئة تعليمية لاستخلاص الدروس والعبر) إذ أن هذا الموقف وهذه النظرة إلى الحياة تُعَدُ من أبرز مزايا وخصائص المحارب، فالمحارب يرى أن كل حادثة هي بمثابة فرصة للتعلم، والمحارب الحقيقي يرغب دوماً بأخذ أكبر قدر وتعلم أقصى ما يمكن تعلمه من كل حادثة.

- لماذا؟!.

- اليوم سنتناقش في هذه الـ (لماذا) والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لِمَ أصبح المحاربُ محارباً؟، وما هي خصائص النية عند المحارب؟، وما هو الفرق بين (نية المحارب) و(نية الإنسان العادي)؟ حول هذه الأسئلة كلها سيتمحور حديثنا اليوم.

- هذا يعني أن موضوع النية من المواضيع الهامة جداً.

أذكر أنني عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي ذهبت في أحد أيام شهر رمضان إلى عند جدتي وقلت لها: «لم أفطر اليوم، ولذلك أريد أن أكمل يومي هذا صائماً معكم» فضحكت وقالت: «لا يمكن، إذ حتى يكون صومك مقبولاً يجب أن تكون قد نويت قبل بزوغ الشمس على أن تصوم هذا اليوم» يومها وجدت هذا الكلام نوعاً من الهراء. والآن تقول لكي يصبح الإنسان محارباً من الضروري امتلاكه نية محددة وواضحة قبل البدء بأي شيء. خطرت حادثتي مع جدتي على ذهني فأحببت أن أرويها لك.

- إن ما رويته مثال جيد على ما نتحدث به. سأطلب منك الآن إجراء عدة مشاهدات متعلقة بهذه البيئة، والآن، الق نظرة إلى ما حولك، انتبه إلى البشر الذين تراهم ضمن هذا المحيط، هل يمكن أن تقول لي كم شخصاً يضع نظارات على عينيه؟.

- يجب أن أنظر من جديد.

- حسناً.

بدأ السيد عارف بمسح الصالة بعينيه وبإحصاء عدد الأشخاص الذين يضعون نظارات على عيونهم، ويعدّهم على أصابعه. وبينما كان يهم بالرد على سؤالي طرحت عليه سؤالاً مفاجئاً لم يكن ينتظره:

- سيد عارف، ما أردت سؤاله هو كم رجل وكم امرأة في هذه الصالة؟ فهل تستطيع إحصاء كم رجلاً وكم امرأة في الصالة؟

ابتسم السيد عارف وقال:

- سيد دوغان إنك ولا شك تلعب معي لعبة ما، فأنا نظرت إلى الصالة لأحصي عدد الأشخاص الذين يضعون نظارات على عيونهم لا لأحصي عدد الرجال والنساء.

- كلا لا ألعب معك، بل هو نوع من التدريب على التكيف، من خلال هذه الطريقة أريد أن أشرح شيئاً ما. الآن أرجوك أن تنظر إلى الصالة بغية إحصاء عدد الرجال وعدد النساء.

بدأ السيد عارف العد من جديد، وبينما كان يهم بإعطائي الرقم الذي أحصاه طرحت عليه سؤالاً جديداً:

- لو كنت تريد اختيار شخصين من الموجودين ليكونا جيراناً لك، فمن تختار من بين هؤلاء؟

- لا أعرف. فأنا لم أنظر إليهم من أجل هذه الغاية.

- نعم، هذه هي التجربة التي أردتك أن تعيشها.

- يا أستاذي أعتقد أنني فهمت ما ترمي إليه، ولكن أريد أن أتأكد أكثر، هل يمكن أن تقول لي بشكل واضح وصريح ما الذي تريدني أن أعيشه؟.

- تعد نية الإنسان أهم عامل يحدد ما الذي يستطيع هذا الإنسان أن يدركه ضمن الوسط الذي يعيش فيه، ويحدد الطريقة التي ينظِّم فيها وعيه ضمن هذا الوسط. هذا ما أردت الإشارة إليه، وهذه من أهم وأبرز الحقائق التي يعرفها المحارب.

- هل هذا يعني أن المحارب يدرك نيته دائماً في أي وسط يوجد فيه؟.

- بالتأكيد. المحارب يدرك «نيته» دائماً.

- وكيف ينجح في ذلك؟ كيف يوفر هذه الاستمرارية والديمومة لإدراكه؟.

- هنا ثمة سؤالان مختلفان عن بعضهما البعض: فسؤال: «كيف ينجح بذلك» مختلف عن سؤال «كيف يوفر استمرارية هذا الإدراك» صحيح أنهما متعلقان ببعضهما البعض ولكنهما في الأساس مختلفان. أريدك أن تدرك هذا.

- نعم أستطيع رؤية هذا الاختلاف بين السؤالين. ولهذا سأطرح السؤال الأول: «كيف يتمكن المحارب من إدراك نيته في كل وسط يوجد فيه؟».

- لكي أجيبك على هذا السؤال لابد من الحديث قليلاً عن «سيكولوجيا الذات». في أول لقاء بيننا قلتُ لك أن لديك وعياً يُراقِب، وهنا بالضبط تكمن الديمومة الحقيقية. هل تذكر ذلك؟.

- نعم، يومها طلبت مني إغلاق عينيَّ بغية إجراء تجربة تبين لي أن الشيء الذي يجعلني أرى أنني لست عبارة عن جسدي فقط أو أفكاري فقط أو أحاسيسي فقط هو في الحقيقة الوعي المستمر أو الوعي الدائم.

- نعم، أننا نطلق على هذا الوعي «أنا المراقِب» أو «الذات المراقِبة» أو «الوعي المراقِب». هناك أيضاً ثمة جانب موضوعي مكون من اللحم والعظم والمتطلبات والاحتياجات، سأطلق، خلال حديثنا اليوم، على هذا الجانب اسم «الأنا Ego».

- هل هذا الأنا مختلف عن الأنا الذي يراقِب؟!.

- نعم وهذا الفرق حساس جداً ومثير للغاية فـ «الأنا المراقِب» و«الأنا الموضوعي» المراقَب يعملان ضمن ديناميكيات مختلفة، حيث يعمل الأنا الموضوعي ضمن ديناميكية الحاجات ويدرك البيئة ضمن هذه الحاجات ويعطي أهمية لإدراك الحدود والفروقات، فالأنا الموضوعي هو الذي يوجِّه إدراكات وسلوكيات الصياد الذي يبحث عن طريدته في الغابة وإدراكات وسلوكيات سائق سيارة الأجرة في المدينة الذي يقود سيارته وهو يراقب الشارع بحثاً عن زبون فتكون الأشياء ضمن هذا النوع من الإدراك مختلفة عن بعضها وتُدرَك باختلاف واضح ومحدد، وإن هذا النوع من الإدراك يفتح المجال أمام إدراك العضوية مباشرة للأشياء التي تفيدها والتوجه نحوها.

- معنى ذلك أنك، من خلال طلبك مني أولاً إحصاء «واضعي النظارات» وبعد ذلك إحصاء «الرجال والنساء» كنت تريد أن تقول لي أن الوسط الواحد موجود على شكل وحدات مختلفة عن بعضها البعض.

- نعم، كنت أحاول توفير الإمكانية لك لكي تدرك هذه البيئة على أنها مجموعة من الأشياء المختلفة عن بعضها البعض. فـ «الأشخاص الذين يضعون النظارات» و«النساء» و«الرجال» و«الجيران» وغيرها من المفاهيم يتم إدراكها نتيجة نية أوجدها الأنا الموضوعي. وباختصار في تلك التجربة كان الأنا الموضوعي ينظم عملية إدراك الوسط أو البيئة ليلبي حاجة أوجدتُها أنا عندك.

- لم أكن أدرك أنك خلقت حاجة عندي.

- عندما سألت: «كم يوجد شخص يضع نظارة على عينيه؟» ألم تشعر بالحاجة لأن تقول لي رقماً ما؟!.

- بالتأكيد، ولكي أجيبك كان لا بد من أن أعدّ الأشخاص الذين يضعون نظارات.

- هذا ما عنيته من خلق الحاجات.

- فهمت.

- عندما يقوم الأنا الموضوعي بعملية تلبية الحاجات وحل المشكلات وحماية الذات والرد على الأسئلة فإن هناك ثمة وعي يستطيع إدراك كافة هذه العمليات ويتربع فوق كل ما يجري من عمليات.

- الوعي المراقب؟!.

- نعم الوعي المراقِب. المحارب إنسان نجح في الحفاظ على وعيه المراقب ضمن حيوية ويقظة مستمرتين، فعندما يكون الوعي الموضوعي مشغولاً بعملية البحث والتمحيص في كافة الأوساط يواصل الوعي المراقِب عمله ولكن على مستوى أعلى مستمراً في إدراكه لكل شيء، ويعطي لكل ما يجري معنىً محدداً على مستوى أعلى - غالباً ما يُطلق على المستوى الأعلى هذا مصطلح ما وراء أو ما فوق المستوى-

- هذا يعني أن المحارب يدرك دائماً أسئلة مثل «لمَ أتحدث الآن مع هذا الشخص؟» و«لمَ أنظر الآن إلى هذه المرأة؟» و«لمَ أجلس هنا وأتناول طعامي؟».

- إذا نجح بأن يكون محارباً حقيقياً، يكون الجواب: نعم.

- هذا يعني أن الشخص الذي يواصل حياته على مستويين يكون المستوى الأول لديه هو مستوى الأنا الموضوعي حيث يواصل هذا الشخص حياته ضمن هذا المستوى، ككل البشر وكأي عضو عادي من المجتمع الذي

يعيش فيه، من أجل تلبية احتياجاته، **وأما على المستوى الآخر فلا يكون هو الشخص الذي يجعل الذات الحقيقية تلهث بين كل هذه الأعمال بل هو الوعي الذي يجعل هذه الذات واعية لكل هذه الأعمال والذي يعرف ماهية كل عمل وسبب القيام به، ولكن كيف يصل إلى الوعي المراقِب؟.**

- كان هذا سؤالك الأول، فلقد طرحت عليَّ سؤالين، الأول: كيف يصل المحارب إلى الوعي المراقِب؟ والثاني: كيف يجعله يواصل عمله؟.

- فعلاً هذا ما طرحته من أسئلة.

- يبدأ المحارب عمله في الوصول إلى الوعي المراقِب من خلال النية أولاً. وأريد في حديثنا لهذا اليوم تناول الأسباب التي تجعل موضوع النية حساساً وهاماً إلى هذه الدرجة.

- هل يمكننا القول أن أهم عنصر يميِّز المحارب عن غيره من البشر العاديين هي النية الخاصة به؟!.

- مرحى لك، لقد اكتشفت أمراً هاماً، فعلاً، للمحارب هدف وغاية ونية خاصة به.

- كيف يصل المحارب إلى هذا المستوى؟.

- من خلال توفر النية لدى المرء لأن يصبح محارباً وأن يحرص على أن يعيش كمحارب. ربما يجب عليَّ توضيح هذه النقطة وهذا يتطلب حديثاً طويلاً، ولهذا اسمح لي أولاً بالذهاب إلى المرحاض.

ضحك السيد عارف وقال: «وأنا أيضاً مضطر للذهاب إلى هناك، سأذهب بعد أن تأتي» كان المرحاض الذي ذهبت إليه صغيراً جداً ولكنه نظيف. حال وصولي إلى الطاولة التي نجلس عليها توجه عارف إلى المرحاض.

لفت انتباهي رجل تجاوز السبعين من عمره، يمشي بصعوبة بخطوات بطيئة ويبدو على وجهه التعب والحزن. يرتدي طقماً رمادياً

وقميصاً أحمر ويعقد في عنقه ربطة عنق بُنيّة. وقد شبك ذراعه بذراع سيدة طويلة القامة، نحيفة، وترتدي معطفاً، وهما ويسيران بخطوات بطيئة باتجاه الباب الخارجي. ترتسم على وجه المرأة علامات التعاسة التي ترتسم عادة على وجوه الناس دائمي الشكوى والتذمر، وكأن هذه العلامات قد ارتسمت على وجهها منذ سنوات طويلة. عندما وصلا إلى محاذاة طاولتنا ضحك الرجل على أمر ما تحدثت به المرأة التي لم يطرأ أي تغيير على علامات وجهها. أدركت تماماً كم أثرت بي ضحكة هذا الرجل البريئة والطفولية. اختفت علامات الحزن والتعب عن وجهه.

❖ الحاجة إلى وجود لوحة أكبر:

- قلنا إن النية التي يأتي بها الشخص إلى وسط ما، تحدد ما الذي سيدركه ضمن هذا الوسط، وتحدد شكل وعيه له. فالأنا الموضوعي Ego يولي أهمية للإشراف والتملك. وطالما نعيش ضمن إطار الأنا الموضوعي فإننا لا نستطيع رؤية اللوحة الأكبر التي نحن جزء منها، كما لا يمكننا رؤية أي نوع من العلاقات نقيمها مع الأشياء الأخرى الموجودة ضمن هذه اللوحة. فالأنا الموضوعي Ego يعيق اكتسابنا تماهياً أكبر منه، لأنه أناني ونرجسي على الدوام ويرى الأشياء من زاوية مصالحه الخاصة.

«فما حاولتْ أن تفعله الأديان والتقاليد الصوفية يتمثل في العمل على تجاوز حدود الأنا الموضوعي هذا والوصول بنا إلى معرفة أننا جزء من واقع أكبر ومن حقيقة أكثر اتساعاً وشمولاً، وبذلك نتمكن من رؤية أنفسنا بشكل لم نرها عليه من قبل ضمن حقيقة أكبر شمولاً بدلاً من رؤيتها مختلفة ومنسلخة عن باقي البشر والمخلوقات الأخرى فاقدة القدرة على إقامة أية علاقات معها.

«وأثناء وضع الأديان لفضائل الحياة ضمن هذه الحقيقة الشاملة

والحديث عنها تستخدم مصطلحي العقاب والثواب بشكل مكثف، وبذلك نرى العديد من الأشخاص، الذين يعتبرون أنفسهم أعضاء في دين معين، يطوّرون مع هذا الدين علاقات من النوع الذي يقيمه تلامذة المدرسة الابتدائية مع معلميهم.

أشار السيد عارف بيده كمن يشعر بالحاجة لطرح سؤال ما:

- كيف ذلك؟! لم أفهم...

- أغلب تلامذة المدارس الابتدائية لا يطلبون التعلم من أجل المعلومة ذاتها، ولا يكتبون وظائفهم لأنهم يولون أهمية للمعلومة.

- حسناً، ولماذا إذن يُحضّرون واجباتهم؟!...

- يا سيد عارف أنت معلم ومن الواجب أن تعرف هذا الموضوع أكثر مني. الطفل في هذه السن يجتهد لكي يكون «تلميذاً جيداً» ولكي يحبه معلمه ويقدره ويقول له مرحى، أكثر من اجتهاده في سبيل الحصول على المعلومة.

- هذا صحيح يا سيد دوغان، أرى هذا الأمر عند تلاميذي.

- راقب عن كثب الذين يعتبرون أنفسهم متدينين والذين يتّبعون سلوكاً معيناً لكي يُظهروا أنهم متدينين جيدين، ثم استمع لما يقولونه، فإنك سترى جيداً أنهم يقيمون، بشكل جدي، علاقات متبادلة مع محاسب إلهي.

- لا شك أنك تقصد حساباتهم المتعلقة بالأعمال التي تستحق الثواب وحجم أو مقدار الثواب الذي تستحقه هذه الأعمال، وما هي الذنوب وأي نوع من العقاب تستحقه، وما الذي ستناله إذا جمّعتَ هذا القدر من الثواب وما هو نوع العقاب الذي ينتظرك في الآخرة إذا ارتكبت هذا القدر من الذنوب... وغيرها، أليس كذلك؟!

- بالتأكيد، فهذا النوع من المتدينين يظهر منهم تجار ممتازون لأنهم حصروا تفكيرهم بأكمله ضمن وعي المصلحة.

ابتسم السيد عارف، وبدأ برواية حادثة خطرت على ذهنه:

- أعرف محامياً كان يدَّعي التديُن كثيراً، فمن خلال لحيته وثيابه ومشيته وطريقة كلامه كان يريد أن يرسل للجميع رسالة مفادها «أنا رجل متديِّن». ذات يوم كان يتحدث عن شخص نعرفه كلانا كان قد أساء له، وهو لا يريد أن يفوِّت له هذه الإساءة فقال: «سأفعل معه فعلة سأجعل الحليب الذي رضعه من أمه ينسكب من منخريه»، وبعد لحظة من التفكير قال: «أعرف أنني بذلك أكون قد ارتكبت خطيئة، ولكنني بعدها سأذهب إلى الحج وسأمحو خطيئتي هذه بما يوفره لي الحج من ثواب، ولكنني أكون قد جعلت هذا الحقير يندم على ما فعله بي».

لم أنسَ هذه الحادثة أبداً، إذ لم أرَ يومها من تدين هذا الرجل سوى نوع من التجارة. لقد خطرت هذه الحادثة على ذهني عندما تطرقت إلى هذا الموضوع.

- فعلاً إنه مثال مناسب جداً وقد جاء في مكانه.

- فإذا كان الشخص الذي يدَّعي التديُن يمارس نشاطاته الدينية / عباداته وسلوكه الجيد / من أجل مكاسب في هذه الدنيا أو في الآخرة أفلا يمكننا القول إن هذا الشخص يتحرك ضمن إطار الأنا الموضوعي Ego؟!.

- هل باستطاعتك تقديم مثال على ذلك؟.

- فكِّر برجل يعطي فقيراً صدقة أو زكاة، ولنفترض أنك سألته: «لماذا أعطيت هذا الفقير هذه الصدقة أو هذه الزكاة؟!» فأجاب قائلاً: «إذا أعطيته سيُكتب لي ثواب وإذا منعت عنه أكون قد ارتكبت خطيئة»، في هذه الحالة سوف يتحول السؤال إلى صيغة أخرى مفادها: «لماذا تريد اكتساب ثواب، ولماذا تريد التهرب من ارتكاب الخطيئة؟!». والجواب الذي سيُردُّ به على هذا السؤال سيكون بجملة مسبوقة بكلمة «لأن» التي تدل بمجملها على منفعة شخصية أو مصلحة معينة مثل «لأنني أريد الذهاب إلى الجنة أو لأنني لا أريد أن يكون مصيري جهنم».

- كيف يمكن أن تصل إلى نتيجة تدل على أن هذا الإدراك أو بالأحرى أن هذا الأسلوب من التفكير ناجم عن الأنا الموضوعي؟.

- يا سيد دوغان ألم تقل أنت هذا؟.

- وماذا قلت أنا؟!.

- قلت: إن الأنا الموضوعي يتجه دائماً لتلبية الحاجات ولهذا فهو يولي أهمية كبيرة للإشراف والتملك أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد، إنك تتذكر بشكل جيد.

- ألا يمكننا القول بأن المرء يبقى ضمن الأنا الموضوعي طالما بقي ضمن إطار «الذهاب إلى الجنة» أو «عدم الذهاب إلى جهنم»؟.

ما قاله السيد عارف كان صحيحاً، ولم أكن قد فكرت في هذا الموضوع من قبل، وقد أخبرته بأنني لم أفكر في هذا الموضوع مطلقاً بيد أنني أدركته عندما تطرق إليه وبأنني متفق معه فيما قاله. وتابعت قائلاً:

- طبعاً يا سيد عارف، فنوايا المتدينين الحقيقيين مختلفة تماماً لذلك فإن مقارباتهم للحياة تكون أيضاً مختلفة عن هؤلاء الذين تحدثنا عنهم.

- هل توضح أكثر يا سيد دوغان؟.

- يوجِّه المتدين الحقيقي حياته ضمن وعي بأنه جزء ذو معنى لا يتجزأ من حقيقة أكبر ومن لوحة أكثر شمولاً واتساعاً وضمن شعور بـ «مسؤولية الخدمة التي يقدمها».

- ماذا يعني هذا؟.

- يعني...

فكرت قليلاً فوجدت أنه من المناسب توضيح هذا الموضوع بمثال مناسب:

- بينما يعيش «المتدين المزيف» ضمن مصطلح «الثواب والجنة» أثناء إعطائه صدقة للفقير، يرى «المتدين الحقيقي» أن «وجع أخي الإنسان ضمن

اللوحة الكبيرة هو وجع عائلتي بأكملها»، ويعرف أنه لا يمكن أن يكون لحياته أي معنى ما لم يقدم خدماته للحياة بأكملها. فالصدقة التي يقدمها المتدين الحقيقي مختلفة تماماً، فقد يمرر المتدين المزيف النقود على رأسه ثلاث مرات، وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة مثل «لتكن صدقة وجهي وعيني»، قبل أن يقدمها كصدقة للفقير، ويحسب، وهو يقدم هذه الصدقة، حجم المصالح التي يمكن أن تحققها له هذه الصدقة. بهذه الطريقة يفكر وبهذه الطريقة يتصرَّف.

- وكيف يعطي المتدين الحقيقي الصدقة يا أستاذي؟!.

- يتصرف المتدين الحقيقي ضمن إطار وعيه باللوحة الكبيرة فيفكر «كيف يمكن أن أقدم خدمة لهذا الإنسان؟» ولهذا عندما يرى المتدين الحقيقي متسولاً في الشارع ينادي «من مال الله» أو «لتكن صدقة وجهكم وعيونكم» يفكر بما يمكن أن يقدمه لهذا المتسول لكي يخلصه من التسول، أكثر مما يفكر بمساعدته من خلال تقديم بعض المال.

«عندما يرى طفلاً من أسرة فقيرة ويجد أن هذا الطفل ذكي ومجتهد ولديه رغبة بالتعلم فإنه يدرِّسه على نفقته الخاصة دون انتظار مقابل من أحد، فهو يرى أن تطوير هذا الطفل واحدة من مسؤولياته، لأن اللوحة الكبيرة، بالنسبة له، تعبِّر عن «حقيقة العائلة الكبيرة» التي تعتبر ساحة تأثير وتأثر بين كافة سكان الحي والمدينة والبلد وكافة البشر بل وكافة المخلوقات الذين يقيمون ضمن إطارها علاقات فيما بينهم».

«فعندما يرى قطة تبحث عن مكان مغلق، لتضع مولودها فيه، فإنه يسعى لإيجاد صندوق يؤمِّن لها الدفء والجو المناسب لوضع مولودها فيه. وإذا عثر على طيور يجدون صعوبة في العثور على الماء، فإنه يسعى لتوفير الإمكانيات التي تمكِّنهم من الشرب بسهولة.

وكذلك عندما يرى امرأة عجوزاً، لا يعرفها أبداً، تجمَّدت في مكانها

وهي خائفة لا تستطيع أن تعبُر الشارع، فإنه يمد لها يد العون دون أن يفكر بثوابٍ أو عقاب.

وباختصار يا سيد عارف، إن المتدين الحقيقي يعي تماماً أنه «مواطن مسؤول في هذا الكون»، يدرك ويعي ويفكر ضمن هذا الوعي ويمارس ما يفكر به.

- لكنني لا أجد الذين يدَّعون التدين في بيئتنا يتصرفون على هذا النحو.

- إن أغلب الذين نراهم حولنا يعطون انطباع «التديُن» الاستعراضي، إنهم يعيشون ضمن إطار وعي التبعية، ويبدو أن علاقاتهم مع الجماعات التي يعيشون بينها قد اكتسبت أهمية من الدرجة الأولى بالنسبة لهم، وكأن كل واحد منهم يرفع لافتة يقول فيها لجماعته: «انظروا إليَّ، لقد حققت كافة مظاهر التدين فهاهو سروالي ولحيتي وجلبابي وحجابي، وحتى تعابير وجهي فيها الكثير من مظاهر التدين».

- أهؤلاء هم المتدينون المزيفون؟!.

- المتدينونن الحقيقيون لا يعطون أية أهمية تُذكر لهذه المظاهر الاستعراضية، حتى أنهم يعتقدون بأن الإنسان لن يشعر بخالقه العظيم طالما أنه يعطي أهمية لهذه المظاهر. ورداً على سؤالك: نعم هؤلاء هم الذين نطلق عليهم اسم «المتدينون المزيفون».

- قلنا أثناء حديثنا أن الفكر الديني والصوفي عبارة عن عامل يساعد الإنسان في التخلص من نظرة الأنا الموضوعي المحدودة والوصول إلى لوحةٍ أكبر وأكثر شمولية وبالتالي في الوصول إلى الأنا المراقِب. لقد فهمت جيداً المثال الذي قدمته حول طبيعة إدراك المتدين الحقيقي للوحة الكبيرة. ولكن ما الذي تقصده بمصطلح الفكر الصوفي؟ وكيف يطور هذا الفكر الأنا الموضوعي؟.

- أستخدم مصطلحات الفكر الصوفي والفلسفة الصوفية والمقاربة الصوفية بالمعنى ذاته. تربطنا مع الفكر الصوفي علاقة وصداقة قوية ذات تقاليد راسخة في ثقافتنا، وإن كافة المقاربات الصوفية في العالم هي مثال واضح على الفكر الصوفي، وقد خلقت كل ثقافة وكل حضارة وكل دين الفكر الصوفي الخاص بها، ذلك لأن كل ثقافة وكل حضارة بذلت جهوداً حثيثة لكي تبلور تعريفاً واضحاً للَّوحة الكبيرة ولكي تتعرف عليها وتعيها، وهذه الجهود هي جزء لا يتجزأ من عملية إعادة خلق الإنسان من جديد وتطويره وإنضاجه.

- حسناً، ولكن ألا يفكر أصحاب الفكر الصوفي ضمن إطار منظومة العقاب والمكافأة؟!

- لا. تقول رابعة العدوية: «**يا ربي... لا أريد أن أخدمك كعامل ينتظر أجراً على خدمة قدَّمها. فأنا لا يهمني إن وضعتني في الجنة أو رميتني في النار... سأذهب، دون اعتراض، إلى المكان الذي تراه مناسباً لي، ويكفي أن أشعر بك في داخلي وألاَّ أُحرم من محبتك**».

أغمض السيد عارف عينيه، وبعد فترة من التفكير قرأ هذا المقطع الشعري:

- يقول يونس إمرة:

لا أفرح لرزق يأتيني
لا أتذمر من فاقة
أكتفي بعشقك
ولست محتاجاً إلا لك
لك أنت وحدك.

يعطي هذا الشعر المعنى ذاته. أليس كذلك؟ فعلاً هذا الموقف مختلف تماماً عن موقف المتدين المزيف.

- ما يُفهم من «طهارة القلب» في المقاربة الصوفية هو أن يضع المرء نفسه في خدمة اللوحة الكبيرة دون انتظار مقابل على ذلك، وأن يتحرك ويتصرف ضمن إطار هذا الوعي بهذه الخدمة.

- هل المحارب إنسان صوفي؟!.

- المحارب كالصوفي في إعطائه أهمية لطهارة نيته ولكن المحارب إنسان عملياتي، فقد يكتفي الصوفي بالمعرفة والمشاهدة، وأما المحارب فقد أقام حياته كلها على نقاوة نيته وطهارتها و...

توقفت عن الكلام عند هذه النقطة. نظرت إلى عيني السيد عارف، ثم تابعت كلامي بهدوء لكي أجعله يدرك أن ما أقوله شيء مهم:

-... ودائماً يعيش في عمل وسعي مستمرين.

- هل تريد أن تُفهمني أن المحارب إنسان عملي؟.

- نعم.

- هل توضّح أكثر؟.

- أريد التحدث عن موضوع العمل في حديث آخر. لنواصل اليوم حديثنا عن نية المحارب وأرجو أن تتفهم ذلك.

- بالطبع. كما قلت سابقاً، أفضّل أن نتناول المواضيع كلاً على حدة دون أن نخلط بينها.

شعر كل منا بالتعب، نادينا النادل، كان شاباً وسيماً يشعر بالسعادة وهو يقدم خدماته للزبائن. جاء إلى طاولتنا وقال: «تفضلوا يا سيدي» فطلبت ماءً وطلب السيد عارف عصير برتقال طازج.

كان بعض الزبائن يتوجهون إلى واجهة المعجنات يطلبون بعضاً منها ثم يعودون إلى طاولاتهم، والنادل يوصلها إلى المكان الذي يجلسون فيه.

توقف المطر فخرج أغلب الزبائن إلى القسم الخارجي من المقهى. على يمين طاولتنا، في قسم الحجرة الزجاجية يجلس رجل وامرأة متوسطي

العمر، يبدو أنهما أجنبيان. طلبا فنجانين من الكابتشينو. وضع الرجل سكراً فوق فقاعات الحليب في الكأس وراح يحركه، أما المرأة فقد فضَّلت شرب فنجانها دون سكر. يبدو أنهما يعيشان حالة من الإشباع ناجمة عن العيش المشترك لسنوات طوال. حالة من الروتين تسيطر على حياتهما، يجلسان صامتين كأنه لم تبق لديهما كلمات جديدة يتحدثان بها.

وعلى الطاولة التي خلفهما كانت تجلس عليها فتاة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها وإلى جانبها امرأة متوسطة العمر وأمام الفتاة يجلس والدها. كانت الفتاة تتناول طعامها وشرابها بتلذذ واضح من جهة ومن جهة أخرى كان الانفعال بادٍ عليها فلديها الكثير من الأمور التي تريد التحدث بها مع والدها بشكل خاص. وأما المرأة فقد كانت تتناول طعامها وكأنها تجلس بمفردها. الأب كان مهتماً بتناول السلطة. أما الفتاة فتواصل حديثها في كثير من الانفعال دون أن تفكر فيما إذا كان والدها يستمع لما تقوله أم لا.

❖ الصدق والإخلاص:

مرَّ وقت طويل دون أن نتكلم فيه مواصلين مراقبتنا للذين على يميننا ويسارنا ونحن نشرب ببطء ما طلبناه، بعد ذلك بدأت الكلام:

- لكي نعرف صدق إنسان ما من عدم صدقه يجب أولاً معرفة نيته، وبعبارة أخرى، يُعرَّف الإخلاص بأنه التعبير الصادق عن النية. فلننظر إلى طالب يذهب إلى المدرسة ويمضي وقتاً طويلاً فيها ولنتساءل هل هذا الطالب صادق أم لا؟ فإذا كان الباعث الحقيقي هو العلم والمعرفة نستطيع أن نجيب بنعم، أما إذا كان يذهب إلى المدرسة ويقرأ فقط لكي يكون ترتيبه الأول على الصف، أو لكي يسمع كلمة مرحى من معلمه أو لكي يحصل على الدراجة التي وُعِد بها إن نجح في صفه، فهذا يعني أنه لا يعيش الإخلاص في حياته كطالب.

- أليس من الطبيعي أن ينتظر طلاب الابتدائي كلمة تقدير من معلمهم يا سيد دوغان؟!.

- بالتأكيد، إذ ليس من المنطقي أن ننتظر من الطلاب في هذه السن الدراسة من أجل العلم والحصول على المعرفة فقط. فمن حقهم في هذه المرحلة من تطورهم انتظار التقدير من معلميهم ومن أهاليهم ومن الأكبر سناً منهم ويجب أن يُمنحوا هذا الحب والتقدير والاهتمام، وما أردت قوله أن لا يصلوا إلى حالة لا يعملوا فيها أي شيء إلا من أجل الحصول على التقدير وجذب الاهتمام فعندها ستتولد حالة عرجاء.

- وما علاقة كل هذا بحديثنا عن المحارب؟!.

- لا يمكن أن يكون المحارب محارباً إلا إذا كان صادقاً ومخلصاً. لأنه ما من أحد يستطيع معرفة المحارب الحقيقي من مظهره الخارجي. يضع الإنسان الخطوة الأولى على طريق تحوله إلى محارب فقط وفقط عندما ينذر نفسه للعيش متمسكاً بمواقف الإنسان المحارب ويعيش ويعمل وينتج لا لأنه ينتظر مديحاً أو اهتماماً أو تقديراً من أحد بل لكي يصبح لحياته معنى.

صمتُ لفترة كنت أبحث خلالها عن ما سأقوله: لا يصبح المحارب محارباً من أجل أحد، بل يفعل ما يفعله، بنيته وبقلبه، من أجل حياته فقط.

أراد السيد عارف توضيح ما أكدت عليه فقال:

- هذا يعني أن الصدق والإخلاص والأصالة تُعد من مزايا المحارب الأساسية.

- نعم وهو ليس مضطراً لإظهار ذلك لأحد، ولكنه صادق وأصيل في علاقته مع ذاته، وصادق أيضاً بنظر ذاته.

- إذن لا يبدو أنه من الممكن أن يصبح المتدين الاستعراضي محارباً، هل أفكر بشكل صحيح؟ أقصد، لا يبدو أنه من الممكن أن يتحول الذين

يرتدون السراويل ويطلقون لحاهم واللاتي يرتدين الحجاب لكي يقولوا لكل البشر «انظروا كم نحن متدينين» إلى محاربين.

- معك حق، لأن نوايا هؤلاء - من الممكن أن تكون هذه النية واعية وقد تكون مأخوذة من الآخرين عن طريق التقليد أي يشعر بها الناس بشكل تلقائي - تكون متمحورة حول الشهرة أو القوة أو المكاسب التي سيتم الحصول عليها أو القبول والرضا الذي سينالونه من قبِل الآخرين بعد أن يعرفوا أنهم متدينين، ولا يوجد أي انسجام بين نواياهم الحقيقية والنوايا التي يظهرونها. ولهذا السبب، كما قلت منذ قليل، لا يوجد أي صدق أو إخلاص في حياتهم. شخصية المحارب تبدأ من اللحظة التي يتخلى فيها عن خداع ذاته.

تنفس السيد عارف الصعداء بطريقة تدل على أنه يستمع لما أقوله بمتعة، وقال بأن حديثنا قد وضع النقاط على الحروف في عدة مواضيع لم تكن واضحة في دماغه، وشكرني على هذه الفرصة التي قدمتها له. فقلت له بأنني أنا أيضاً أعيش مرحلة اكتشاف وبأنني تعلمت الكثير من الأمور وتابعت قائلاً:

- أريد التحدث عن بعض المشاهدات التي سجَّلها المحلل النفسي الأمريكي، الذي تحدثت عنه سابقاً، آرثر ج. ديكمان، فيما يتعلق بالمرضى الذين راجعوا عيادته.

بعد أن يتحدث ديكمان عن الأزمات النفسية الواضحة التي يعيشها مرضاه وبأنهم راجعوا عيادته بغية التخلص من هذه الأزمات يتابع كلامه قائلاً:

> **«يأتي كلُ مريض ولديه أفكار خاصة تتعلق بسبل «التخلص من الأزمة» فبعضهم يعتقد أنه يفتقد للمحبة في حياته وينتظر من المعالج النفسي أن يقدم**

له الحب الذي لم يجده عند أبيه وأمه، وبعضهم الآخر يأتي متطلعاً للحصول على الأمان وبعضهم على الدعم. نادراً ما يصادف المعاج النفسي مرضى جاؤوا إلى عيادته من أجل تلقي العلاج فعلاً، ولكن إذا سألتهم فإنهم يجيبونك بأنهم ذهبوا إلى المعالج النفسي حقيقة من أجل تلقي العلاج».

«في الحقيقة إن الذين يراجعونني من أجل العلاج ينصتون بدقة إلى كلامي وإلى توجيهاتي، ويأخذون الأعمال التي أريد منهم تطبيقها على محمل الجد ويبدؤون بتطبيقها. وأما المريض الذي يقول: «أنا بحاجة إلى الحب ولكن هذا الرجل لا يستطيع تقديمه لي» فإنهم، بعد فترة من الزمن، يضعون ذريعة ما وينقطعون عن جلسات العلاج النفسي».

توقفت عن الكلام للحظة ثم نظرت إلى السيد عارف وتابعت كلامي:

«كما ترى، من أجل نجاح العلاج النفسي يجب أن يتمتع المريض بشخصية متكاملة وصادقة في علاقته مع المعالج».

- إنك تستخدم عبارة تكامل الشخصية بشكل مكثف.. وكما فهمت من خلال حديثك، تولي هذا المصطلح أهمية كبيرة.

- نعم، أولي أهمية كبيرة لهذا الموضوع، لأن تكامل الشخصية شرط أساسي لا بد منه لكي يصبح الإنسان محارباً. أريد أن أخصص حديثاً بيني وبينك لهذا الموضوع.

- لفت اهتمامك بهذا الموضوع اهتمامي، ولهذا أرغب بالاستماع، بشكل مفصل، لأفكارك المتعلقة بتكامل الشخصية.

- آمل أن يكون حديثنا قد أوصلك إلى مستوى تستطيع فيه رؤية أن نية الإنسان وبواعثه تشكل البنية الأساسية لوعيه وإدراكاته.

فكِّر برجل يريد تعلم لعبة التنس. يبحث عن مدرب يدربه على هذه اللعبة فيجده، يتحدث معه ويسأله عن الوقت الذي سيستغرقه حتى يتعلم هذه اللعبة، فيسأله مدربه عن الغاية التي تدفعه إلى تعلم لعبة التنس فيقول له: «أريد معرفة الوقت الذي ستستغرقه عملية التدريب التي تؤهلني للفوز على أصدقائي في هذه اللعبة». فيقول له المدرب: «إذا تدربت بشكل جدي لمدة ثلاث ساعات في الأسبوع فإنك تستطيع بعد سنة ونصف اللعب مع أصدقائك والفوز عليهم» وبعد ذلك تخبو رغبة هذا الرجل بتعلم لعبة التنس وترتخي كما البالون الذي يفرغ منه الهواء... لماذا؟! لأن نية الرجل ليست متركزة على تعلم لعبة التنس، بل لأنه يريد استخدام هذه اللعبة لكي يفوز على أصدقائه وليبيِّن لهم أنه متفوق عليهم. فليس هناك أي انسجام بين النية الحقيقية التي في داخله وبين سلوكه».

كنت مستغرقاً في كلامي والسيد عارف يستمع إلي باهتمام ومن اهتمامه الواضح استنتجت مدى استغراقي في الحديث وحجم الأهمية التي أعطيتها لهذا الموضوع.

طرحت على نفسي السؤال التالي: «لماذا أولي هذا الموضوع كل هذه الأهمية؟» لأن في داخلي خوف من أكون واحداً من «الذين يعيشون حياة نكرة» وربما أكون قد وجدت عارف أثناء بحثي عن رفيق لي في هذا الطريق، وقد كنت أرغب برحلة برفقته، انطلاقاً من مقولة «في الإتحاد قوة».

كان هذا حديث ذاتي، لم أجد أنه من المفيد في شيء تقاسم هذا الأمر مع عارف.

❖ الخوف من فقدان الممتلكات:

تابعت حديثي:

- لنتناول اليوم أيضاً موضوع الطمع والكرم. إن التملك، والتمسك بما تمتلكه والرغبة بزيادته يؤدي إلى الخوف.

- لم أفهم كيف يؤدي التملك إلى الخوف؟.

- يسعى المرء لأن يكون مالكاً عن طريق امتلاك الأشياء والتمسك بها أليس كذلك؟!.

- أعتقد ذلك، فليس من المنطقي أن يبذل المرء جهداً من أجل امتلاك شيء وهو يعرف أنه سيفقده.

- طبعاً أنت محق في ذلك. ولكن ماذا يعني هذا الأمر؟ إنه يعني أن أسعى للتمسك بكل شيء أمتلكه خوفاً من فقدانه، وبذلك كلما ازداد عدد الأشياء التي أمتلكها سوف يزداد بالتالي عدد الأشياء التي أخاف فقدانها. أليس كذلك؟!.

- نعم هذا صحيح، لم أفكر في ذلك مطلقاً.

- الإنسان الذي يخاف فقدان ما يمتلكه يسعى إلى زيادته، لكي يبقى لديه ما يمتلكه في حال فقد بعضاً منه.

- وبذلك يصل المرء إلى حالة من عدم الشبع لا تعرف حدوداً تؤدي به إلى السعي لتملك أكثر عدد ممكن من الأشياء. هل هذا ما تريد قوله؟!.

- نعم هذا ما أريد قوله. هناك أيضاً جانب آخر لهذا الموضوع، فلا يمكن فقدان الملك والمال الذي يمتلكه شخص ما من تلقاء ذاته ما لم تحصل حروب أو تقع كوارث. وعلى العموم إذا لم يحافظ الإنسان على ماله وملكه بشكل جيد، فإن ثمة شخص ما سيأتي ويأخذه منه.

تدخل السيد عارف قائلاً:

- إذن، هل يمكننا يا سيد دوغان أن نقول: عندما يبدأ شخص ما، يعيش حياته ضمن إطار الأنا الموضوعي، بكسب الأموال والأملاك فإنه يبدأ بالنظر إلى الناس الآخرين بعين ملؤها الخوف والحذر؟!.

- إذا كان يقيم علاقات ضمن إطار وعي الأنا والهو فإنه يقسِّم الناس في بيئته إلى قسمين ويفكر إلى أي قسم سينضم، بعد ذلك يجري تقييماً كلما التقى مع شخص آخر: فإذا التقى مع شخص ضعيف وساذج ولا حول له ولا قوة سيقول لنفسه: «هل هذا من الذين يمكن الاستيلاء على أموالهم وأملاكهم وهل سيكون لي منه فائدة؟!» يا سيد عارف لا تنسَ أنني أتحدث عن هذا الموضوع بشكل مبسط إلى أبعد حد، فالإنسان لا ينظر إلى الذي أمامه بهذه المصطلحات البسيطة، فعلى العموم ينظر إليه قائلاً: «هل يمتلك هذا الشخص جانباً ما يكون مفيداً لي أم لا؟».

أما عندما يقابل شخصاً أقوى وأكثر خبرة وأكثر علماً منه فإنه ينظر إليه قائلاً: «هل يمكن أن يلحقني ضرر من هذا الإنسان؟».

إن ما قلته حتى الآن يعتبر من أهم الوظائف الطبيعية للأنا الموضوعي Ego.

ضحك السيد عارف وتساءل قائلاً: «إذن، ينظر إلى الشخص الذي أمامه على أنه (سيدقٌ خازوقاً) أو (سيُدقُ خازوقٌ). أليس كذلك؟!.

هززت رأسي بأن نعم، جلت الوسط بعيني، ثمة امرأتان متوسطتا العمر تجلسان على الطاولة التي في الأمام، تشربان شايهما بهدوء دون أن تتكلما بأية كلمة. وعلى الطاولة التي تليهما يجلس رجل متوسط العمر يتحدث بكل حرارة مع فتاة شابة. يبدو عليهما الارتياح. حدَّثت نفسي عن المواضيع التي يناقشونها ضمن العلاقة القائمة فيما بينهما وفيما إذا كانا يشعران بالقلق أم لا؟. مسحت الصالة بنظري من جديد، ثمة مشاهد إنسانية متداخلة فيما بينها.

مـن يعلـم أي ديناميكيـات وأي تطلعـات وأي مخـاوف وأي قلـق وأي سعادة يعيشون فيها الآن، تتبرعم من جديد أو تخبو وتموت.

لم يكـن السـيد عـارف يعـرف مـا يجـول في خـاطري، كـان ينتظـر أن أكمل حديثي، قلت:

- حقيقـة إن الإنسـان الكـريم إنسـان يعـيش اللوحـة الكـبيرة بكـل تفاصيلها وتكاملها. فإذا مـا رأى أن حيـاة بقيـة البشـر مهددة بالخطر فإنـه يسعى ويبذل كل ما بوسعه ليمنع هذا الخطر. وماذا ينتظر منهم؟!.

- الشكر فقط.

- لا، الكريم لا ينتظر حتـى كلمـة شـكر مـن الآخـرين، فكـل مـا يتطلـع إليه ويأمله هو أن يكون ما قام به مفيداً، وأن يحقق الهدف المرجـو وأن ينـتج عما قام بـه نتيجـة إيجابيـة للنـاس المحتـاجين، فانتظـار الشـكر أمـر مـرتبط بالأنا الموضوعي.

«لا يمكن أن يكون الأنـا الموضـوعي كريمـاً، لأنـه يسـعى دائمـاً للتملـك بكل خوف وقلق. الأنا الموضوعي لا يحـب العطـاء وإذا مـا أعطـى شـيئاً فإنـه يأمل أن يأخذ مقابله ما هو أحسن منه.

- إذن هـي عبارة عن عملية بيع وشراء، يعطي لأنه يعرف أنه سيأخذ مقابل ذلك أكثر مما أعطاه.

- نعـم، كـرم الأنـا الموضـوعي علـى هـذا الـشكل، ومـن جهـة أخـرى إن الـشخص الـذي تجـاوز أنـاه الموضـوعي هـو الـشخص الـذي قـرر أن يعطـي ضمن وعي الأنا المراقِبْ وهذا الشخص يمتلك رؤيـة مختلفـة، إذ يـشعر بأنـه كلما أعطى كلما أصبح أكثر حرية وأكثر علماً لأنه يعـرف أن العطـاء خدمـة. والناس الذين يعيشون ضمن إطار علاقـات قيِّمـة وذات معنـى مـع الآخـرين، يعطون وهم يدركون ضرورة تبادل الخدمات فيما بينهم.

- في حالـة كهـذه هـل يمكننـا القـول بـأن الأنـا المراقِـب يـدل المـرء إلى

طريق يؤدي به إلى الحرية وإلى الوعي المتطور وإلى المعرفة، وأما الأنا الموضوعي أو الـ «Ego» فإنه يقلل من حرية المرء ويجعله أكثر خوفاً وأكثر قلقاً وأكثر أنانية؟!.

- بالتأكيد، فعندما يدخل محارب، وصل إلى مستوى الوعي المراقب، إلى وسط ما، ينظر إلى هذا الوسط بنية تقول: «ما الذي يمكن أن أتعلمه من هذا الوسط؟» و«كيف يمكن أن أقدم خدمة لهذه اللوحة الكبيرة؟» و«كيف يمكنني أن أضيف قيمة جديدة إلى هذا الوسط لأجعل حياتي أكثر قيمة وذات معنى؟» في حين ينظر إنسان، يُقاد من قبل أناه الموضوعية، إلى هذا الوسط ولسان حاله يقول: مَن مِن هؤلاء أستطيع استخدامه من أجل مصالحي الخاصة؟.

- سيد دوغان، هل قرأت كتاب «قصص خطيرة» للكاتب أحمد ألطان؟!.

- نعم قرأته، فأنا من معجبي الكاتب أحمد ألطان.

- لماذا يا أستاذي؟.

- أولاً، لأنه يملك إدراكاً قوياً وقلماً قوياً يستطيع كتابة ما يدركه بشكل جيد، وثانياً، لأنني أراه واحداً من الذين أثروا اللغة التركية. لماذا سألتني؟.

أخرج من حقيبته كتاب «حكايا خطيرة» بدأ يقلّب صفحاته من جهة ويتحدث معي من جهة أخرى:

- أقرأ هذا الكتاب أثناء ذهابي وإيابي في الباخرة، عندما تحدثنا عن التملك وعن خوف الإنسان من فقدان ما يملكه، تذكرت صفحات قرأتها في هذا الكتاب... هاااه... نعم... وجدتها ... اسمح لي أن أقرأ هذه الصفحات.

- طبعاً، ما هو رقم الصفحة؟.

أراني رقم الصفحة وكان قد أشار بقلم الرصاص على المقطع السفلي من الصفحة السادسة والعشرين.

- أنت أيضاً تشير بالقلم على الكتب أثناء القراءة؟.

- نعم، أضع الإشارات على الكتاب، وإذا لم أجد قلماً أثناء القراءة أشعر أن شيئاً ما ينقصني.

ثم شرع يقرأ ما وضع تحته خط:

- «لماذا تركتني؟!...

كان ذلك سؤالاً بسيطاً وعادياً. بيد أن كافة الأزمات التي تشهدها علاقتنا كانت قابعة خلف جواب هذا السؤال، وجواب هذا السؤال العادي كذلك بسيط وعادي لدرجة أن بساطته تنفي قدرته على الإقناع. لا يمكن للناس الذين يخافون من الذين يحبونهم أن يثقوا بالآخرين وليس من الممكن أن أشرح لحبيبتي سَوْدا سلوكي هذا الذي يبدو غريباً ومثيراً، إذ أن حبيبتي لا تفهم ذلك ولا تصدقه، ولن أستطيع أن أقول لها: «لا يمكنني البقاء معك لأنني أحبك كثيراً، وبأن الحب الذي أكنُّه لك يخيفني جداً» لأنها امرأة ولا تخاف من الحب، بل وأكثر من ذلك كلما أحبَّت تزداد جرأة وشجاعة.

بينما أنا فقد كنت أخاف. فكلما كنت أحب امرأة ويزداد ارتباطي بها، كان يتفاقم خوفي من أن أفقدها وأبقى وحيداً وأعاني المرارة من بعُدِها وكنت أتدحرج بسرعة متزايدة إلى قاع مستنقع الغيرة. ولهذا كان عدد النساء، اللاتي شاركتهم حياتي، يزداد باستمرار، لكي أنقذ نفسي من مأزق الغيرة ومن الشعور بالدونية، الذي

خلقته هذه الغيرة في داخلي ولكي أخفف، منذ البداية، من ألم يوم الهجر، الذي كان يبدو لي أمراً لا مفرً منه. وكان خوفي من الهجر، هذا الخوف الذي لم أستطع يوماً فهم سببه مع غيرة قاتلة، أخجل من الاعتراف بها حتى لنفسي، يأتي عندما أكون مع امرأة، مع علمي الأكيد بحماقة هذا الخوف. وفي النهاية يقع ما كنت أخاف منه وأُهجر من أجل رجل آخر، والأسوأ من كل هذا أنني، بالرغم من معرفتي بهذه الحقيقة، كنت ودون أدنى رغبة مني أفعل الشيء ذاته، ولم أستطع أبداً منع نفسي من فعله.

إن هذا الخوف الذي أعيشه أشبه ما يكون بنوع من الأمراض التي لا علاج لها.

بعد ذلك تابع السيد عارف قراءته من مقطع وضع تحته خطاً في الصفحة السابعة والعشرين:

«هذه أحاسيس وعواطف عاشها البشر منذ آلاف السنين، ونعرفها جيداً لدرجة أننا لا نجد أي داعٍ لتناولها في رواية، ولكن تجاربي علمتني شيئاً واحداً، ألا وهو أن أكثر الحقائق المخيفة هي تلك الحقائق البسيطة التي نعرفها لدرجة أننا لا نجد حاجة للحديث عنها».

«... لو كنت أمتلك الشجاعة والجرأة التي تجعلني أنقل لها مخاوفي لأصبحت حياتي من نوع آخر».

وضع السيد عارف يده على نقطة مثيرة للغاية، استوعبها واختارها ووضعها أمامي. إنني فخور به كثيراً.

أعربت له عن شعوري وقلت لـه: «بهذا الجمال وهذه الروعة يمكن الحديث عن إنسان أحب بأناه الموضوعي».

- لقد بيّن الكاتب أن المرأة أكثر شجاعة وأكثر وضوحاً.

وافقته على ذلك وذكّرته بالجملة الأخيرة: « ... لو كنت أمتلك الشجاعة والجرأة التي تجعلني أنقل لها مخاوفي لكانت حياتي أصبحت من نوع آخر». وأضفت قائلاً: «تبدأ الشجاعة بالتعبير عن نفسها لحظة انفلاتها من مراقبة الأنا الموضوعي، فلو استطاع البطل في هذه الرواية الحديث بشجاعة عن الحقائق، التي أدركها، من أجل اكتشاف وتعلم بعض الحقائق عن ذاته وعن الحياة وعن اللوحة الكبيرة، آخذاً بعين الاعتبار احتمال فقدان حبيبته، لكان خطا خطوة على طريق عيش حياة حرة. وأما الآن فإنه يعيش أسيراً لأناه الموضوعي الذي يعمل على استغلال المرأة ومراقبتها واستخدامها.

فقال السيد عارف:

- نعم أفهم ذلك.

❖ الوعي الذي يأتي به الإنسان إلى وسطه:

ثمة فتاتان تجلسان على الطاولة الموجودة بالقرب من العمود، إحداهن أدارت ظهرها لي، وأما الأخرى فأستطيع رؤية ملامحها، فقد كانت يدها اليسرى، التي تمسك سيكارتها، بمحاذاة وجهها، وأما يدها اليمنى، التي تمسك كأساً من مزيج الكولا والليمون، فقد أسندت مرفقها على الطاولة، وكانت ترتدي كنزة قطنية حمراء، وأما شعرها الطويل فقد كان مسترسلاً على كتفيها ومتدلياً إلى الأسفل.

وأما الفتاة، التي كانت تدير ظهرها لي فقد كان شعرها العسلي المجعد يغطي كامل كتفيها، وترتدي قميصاً أخضر فاتح وتنورة مناسبة له، وأما حقيبتها فقد كانت فوق الطاولة مسندة على العمود.

كانت هاتان الفتاتان تتحدثان عن موضوع ما بانفعال واضح، تساءلت عن السبب الذي يجعل هاتان السيدتان الشابتان تنفعلان إلى هذا الحد؟!. إنه ولا شك ذات الموضوع الذي سيجعل الفتيات الشابات تتحدثن بذات المستوى من الانفعال بعد آلاف السنين. فلقد عبّرت الأفكار العظيمة والغامضة للطبيعة عن نفسها ضمن إطار أعراف وتقاليد وقيم ومحظورات كل عصر وكل بلد وكل عرق وكل أمة ولا زالت حتى الآن تعبِّر عن نفسها.

السيد عارف أيضاً كان يراقب محيطه ويجري ملاحظاته بصمت. كسرت جدار الصمت:

- يقول سقراط: «الحياة التي لا تُعرَّف ولا تُدرس غير جديرة بأن تُعاش» وإن أول شيء يجب على الإنسان دراسته وإدراكه هو بأي نية ينظر إلى البشر الموجودين في بيئة ما وإلى الأحداث التي تجري في هذه البيئة. ويقول أفلاطون «اعرف نفسك»، وتحمل مقولة «اعرف نفسك» العديد من المعاني: اعرف ما تريد، اعرف حدودك ونقاط ضعفك، أدرِك كيف يفهمك الآخرون، وهناك العديد العديد من المعاني تحملها هذه المقولة.

يبدأ المحارب عمله، قبل كل شيء، من خلال إدراك نيته وتوجهاته وطاقاته ومطالبه. يقول العالم الهندي الأحمر دون جوان Don Juan، الذي تحدثت عنه في أحد كتبي السابقة: «تنبع قوة المحارب من طهارة نواياه».

شرد السيد عارف في أمر ما، فتوقفت عن الكلام وانتظرت منه قول شيء ما ولكنه لم ينتبه إلى أنني توقفت عن الكلام، بل قلص عينيه وركَّز على موضوع ما، بعد ذلك نظر إليَّ فرآني أراقبه فابتسم وقال بأنه توقف عند أمر ويرغب أن أوضحه له: «يبدو أن إدراك المرء ذاته ومعرفته نفسه هي نتيجة، أي أن...» صَمَتَ، حاول أن يتكلم ولكن لم تسعفه الكلمات، نظر إلي من جديد، ابتسم وقال: «إنني أعرف ما أريد قوله ولكنني لا أستطيع التعبير عما أريد» وبعد قليل من التفكير تابع قائلاً: «أعتقد أنني أستطيع

التعبير عن ما أريد من خلال تقديم المثال التالي: لنفترض وجود زوجين، رجل وامرأة، المرأة أكثر وعياً من الرجل في موضوع العلاقة بين الزوجين وفي موضوع اهتمام كل شخص بمتطلبات شريكه. ولنفترض أيضاً أن المرأة تنتظر من الرجل اهتماماً أكبر وعاطفة أقوى مما ينتظره الرجل من زوجته. ومن جديد لنفترض أن الرجل يقول لزوجته: «انطلاقاً من كوني رجلاً فأنا لا أمتلك حساسية تجاه كافة أبعاد العلاقة كالتي تمتلكينها، لأنني لم أتربَّ على ذلك، وأما أنت فتُكسبين العلاقة إدراكاً وفهماً عميقين، لأن القيام بذلك سهل عليك انطلاقاً من كونك أنثى، أما أنا فلا أستطيع القيام بهذا الأمر، فلا تنتظري مني إحساساً وعاطفة كالتي تمتلكين». فهل نستطيع التعبير عن هذا الموضوع بقولنا: الرجل يعرف نفسه ويدركها ويشاطر زوجته هذه الحقيقة، وهل يمكننا القول بأن هذا الرجل «يعرف نفسه»؟!.

فهمت ما الذي يريد السيد عارف قوله، وكان السؤال الذي طرحه في مكانه، فقلت له: إن واصلت طرح أسئلة كهذه فلن ألتقي بك بعد الآن.. فضحكنا...

- سأتناول الآن مصطلحاً أو مفهوماً هزَّني كثيراً عندما سمعته أول مرة، ربما تستغرب ما أقوله وربما لا تستغربه، فمن الممكن أن يحضر المرء إلى وسط ما وعياً أو إدراكاً بدرجات مختلفة، وإذا ما أردنا تشبيه الوعي أو الإدراك بمصباح كهربائي، فإنه يمكننا القول أننا نستطيع إضاءة وسط ما بمصباح قدرته خمساً وعشرين واط كما يمكننا إضاءته بمصباح قدرته مائة وخمسين واط، وكذلك الإنسان، يمكنه اختيار المقدار الذي يريده من الوعي أو الإدراك الذي سيحضره معه إلى وسط ما. نعم، هذا هو المصطلح أو المفهوم الذي حيرني وهزني من الأعماق.

- أي إذا عدنا إلى المثال الذي ذكرته، نستطيع القول أنه لو أراد الزوج - الفكرة الأساسية تكمن هنا: لو أراد - لكان بإمكانه زيادة قدرة

مصباحه بدلاً من أن يقول: «إن مصباحك أكثر إضاءة من مصباحي وهو يصلح لإضاءة وتنوير علاقتنا، وليس ذنبي أن مصباحي لا يُضيء كمصباحك».

- نعم الفكرة الأساسية تكمن هنا.

- حسناً ولكن لماذا ينظر الزوج بمصباح خافت إلى هذه العلاقة؟ ولماذا لا يبدل مصباحه الخافت بمصباح أكثر إنارة منه؟!.

- سأجيبك من خلال المثال التالي:

- أعرف سيدة شابة، كانت معروفة بإهمالها ونسيانها وكثيراً ما تردد قائلة: «آه... ما باليد حيلة.. إنني أنسى كثيراً» فقد كانت واثقة تمام الثقة من أنها لا تستطيع التخلص من هذا النسيان. بعد ذلك تزوَّجتْ هذه الشابة وعرف زوجها بأنها إنسانة مهملة كثيرة النسيان وتقبَّل الموضوع. ولذلك كان يجمع من ورائها ما كانت تنساه وبعد فترة أصبح لديها ولد وهو الآن في الخامسة من عمره. منذ فترة التقيت مع هذه السيدة وزوجها ومن جديد فتحنا موضوع النسيان والإهمال. فكررت السيد ما كانت تقوله دائماً «ليس باليد حيلة، أنا هكذا، ماذا أفعل؟». فقلت لها بأنني لا أصدقها لأن ما تصرِّح به لا أساس له من الصحة، فاعترضت قائلة: «يا سيد دوغان إنك تعرفني جيداً، فأنا كما تعلم أنسى كثيراً» فطرحت عليها السؤال التالي: عمر ولدك الآن خمس سنوات، فهل نسيته مرة في السيارة؟ أو هل ضاع منك عندما كنت تتسوقين من الدكان أم هل حدث ونسيتي أن تحضريه من عند الجيران الذين كنت تزورينهم؟» فقالت: «ولكن يا سيد دوغان إنه ولدي، فهل رأيت أماً تنسى ولدها؟!».

كما ترى يا سيد عارف، الأم تسلط على علاقتها مع ولدها مصباحاً بقدرة مائة وخمسين فولط، ومن كل ذلك تكسب الشعور بالمسؤولية. والحادثة التي ذكرتها أنت تتضمن سؤالاً حساساً جداً، بأي بواعث ودوافع

كان الزوج يدخل إلى علاقته وما هو مقدار المسؤولية التي كان يشعر بها فيما يخص الإدراك والوعي الذي أحضره إلى علاقته؟ فلو نظر إلى علاقته مع زوجته بالأهمية التي تنظر فيها الأم إلى علاقتها مع ولدها لازدادت درجة الإدراك الذي يحضره إلى تلك العلاقة، أي أن النية هي، من جديد، الأساس والمنطلق. والسؤال الذي يجب أن طرحه هو «ماذا تعني هذه العلاقة لي؟ ولِمَ أقيم هذه العلاقة؟ وبذلك تكون درجة الوعي والإدراك الذي سيحضره الفرد إلى البيئة متناسباً مع الجواب الذي سيرد به على مثل هذه الأسئلة.

- فعلاً، إنه مفهوم هام جداً، ولا شك بأن هذا أوضح مؤشر على الأهمية التي يعطيها الإنسان لموضوع ما.

- بالتأكيد، لنفرض أنك تقول لي بأنك ترغب برؤيتي وبالجلوس معي، وبأنك تولي أهمية كبيرة للقاء الذي يجمعنا، ولكنك في كل مرة تتأخر عشر أو خمسة عشر دقيقة، وبعدها أبدأ بالحديث ولكن عيناك تلاحقان الفتيات الجميلات الموجودات حولك، وتتحيَّن الفرص للرد على تحيات معارفك الذين يمرُّون من جوارنا. والسؤال هنا: على ماذا يدلني سلوكك هذا؟.

- يدل على عدم وجود رغبة لدي باللقاء وبالحديث معك.

- طبعاً، إن ما يدل على أن الإنسان مهتم بموضوع ما أو غير مهتم هو درجة الوعي والإدراك الذي أحضره معه إلى الوسط الذي يتحدث فيه.

- ما علاقة كل هذا بموضوع المحارب؟.

- إن علاقته بموضوع المحارب كما يلي: المحارب يعرف كيف يكتسب المسؤولية مائة بالمائة من درجة الوعي الذي يحضره إلى الوسط، وضمن نية صافية يعطي نفسه بالمطلق للموضوع الذي يهتم به، وأما إذا كان لا يهتم به فإنه لا يعطيه أية أهمية.

كان السيد عارف يستمع لما أقوله وهو يهز رأسه ببطء، بعد أن أنهيت جملتي الأخيرة رمقني بنظرة تعبِّر عن أنه استوعب كل ما قلته. بعد مرور فترة من الزمن فهمت من ملامح وجهه أنه يرغب بطرح سؤال ما، قال:

- عندما يدخل المحارب إلى وسط ما يكون واثقاً من نيته ومن صفائها، جيد أتفهَّمُ ذلك، لكن حسبما أعرف: المحارب إنسان مثلنا، يعيش في مجتمع معين وله معارف وأصدقاء وعائلة. فهل يكفي أن يعرف ما يريد؟ أليس مضطراً أيضاً لأخذ ما يريده الآخرون الذين يعيشون حوله بعين الاعتبار؟!.

- سؤالك هذا يعيدنا إلى موضوع الزنزانة، التي تحدثنا عنها سابقاً، وإلى مصطلحات التوازن بين التبعية وتحقيق الذات، ورقصة الحياة. فالمحارب اكتشف متى يقول «نعم» ومتى يقول «لا»، وهو يُدخل أقرباءه وأصدقاءه وعائلته وبيئته إلى معادلة التوازن بين هذه الـ «نعم» وهذه الـ «لا»، المحارب، شخص استند إلى كل هذه الديناميكيات واتَّخذ قراره ضمن إطار الوعي الذي أحضره معه إلى الوسط.

المحارب يُدرك القضية التالية: الشخص الذي لا يعرف أن يقول «لا» شخص ضعيف لا حول له ولا قوة، والشخص الذي لا يعرف أن يقول «لا» تكون «نعم» ـه خالية من المعنى. إن الأشخاص الذين اتَّخذوا قراراً بقيادة حياتهم يعرفون جيداً أن «نعم» و«لا»، كل واحدة منهما، عبارة عن جملة كاملة - تامة - لا يشوبها أي نقصان، فبهذه الـ «نعم» وهذه الـ «لا» يحترم المحارب حدود ذاته من جهة وحدود الناس الذين يعيشون حوله ويقيم علاقات معهم من جهة ثانية.

نظرت إلى السيد عارف بعد أن أنهيت كلامي فوجدته يستمع إلي باهتمام. كانت تغمره رغبة مغامر انفتحت أمامه أبواب عالم جديد.

- سيد عارف هل أنت راضٍ عن لقاءاتنا وعن ما نتحدث به أثناء هذه اللقاءات؟.

- طبعاً، إنني راضٍ كثيراً. فالاستماع لقصة الرجل الترابزوني لوحدها قصة رائعة وكم تمنيت لو أن آلة تصوير تلفزيونية، وُضعت في مكان سري وصوَّرت حديثنا كله وبثته على مئات الآلاف من المعلمين والمواطنين.

- المهم الآن أن يكون ما تحدثنا به هاماً وذو معنى بالنسبة لك ولي.

- أتمنى أن يكون ذو معنى بالنسبة لك يا أستاذي.

- من خلال هذه النقاشات التي دارت بيننا اتضح، بشكل تام، ما أعرفه وما لم أعرفه، ما تبنيته من أفكار وما لم أتبناه. وهذا مكسب عظيم بالنسبة لي.

- هذا يعني أن هذه الأحاديث مفيدة لك أيضاً.

- بالتأكيد.

- إذن، لنواصل لقاءاتنا.

- طبعاً سنواصلها. يوجد مقهى في منطقة أيوب تدعى بيير لوتي Pierre Loti هل ذهبت إليه؟.

- منذ سنوات عديدة. هل تريد أن نلتقي هناك؟.

- نعم، ما رأيك أن نلتقي هناك يوم السبت؟.

- في أي ساعة؟.

- الساعة الثانية.

دفعت الحساب. صافحت السيد عارف وافترقنا.

بدأت السير باتجاه صراسلفيلر مررت من جانب فرع للمصرف، كلما كنت أسير في هذه المنطقة كنت أرى امرأة غجرية تبيع الزهور حتى ساعات متأخرة من الليل. كانت تبيع زهوراً جميلة موضوعة في دلاء مليئة بالماء،

وتدخن باستمرار. تابعت سيري فمررت أمام بناية يتم تشييدها بعد أن غُطيت بستائر من الألواح الخشبية وقد تحولت الفراغات التي تُركت بين الألواح الخشبية إلى مكبٍّ للقمامة امتلأ بالأوراق والقطع البلاستيكية.

عندما نظرت إلى اليمين استطعت رؤية العديد من اللوحات الإعلانية وإلى جانبها علّقت البلدية لافتة كُتب عليها «لتحيا الجمهورية».

وصل الترامواي وانعطف نحو المكان الذي جاء منه بعد أن نزل منه كل الركاب. ثمة فندق على يساري وكنيسة للروم الأرثوذكس تتربع بين الكولبات وبائعي الشاورما والهمبرغر والموالح. كان بناء الكنيسة الحجري يتربع بشكل حضاري خلف الكولبات المحطمة والمكسرة. لا شك أن الأشجار التي أراها موجودة في حديقة الكنيسة، تُكسب هذه اللوحة منظراً طبيعياً وجميلاً.

الرصيف الذي أسير عليه يتسع بالكاد إلى شخصين يسيرا باتجاهين متعاكسين، أي أنه من الأرصفة «النكرة» الموجودة عندنا، ولهذا السبب عندما أتى شخصان باتجاهي اضطررت للنزول إلى الشارع، وكان عليَّ أن أنتظر تقديرات السائق، الذي يقود سيارته في الشارع، وعدله فإما أن أنزل عن الرصيف وأسير في الشارع أو أنسحب منتظراً عبور السيارة.

بدأ يتبلور في ذهني مفهوم «بلد الذين يعيشون حياة نكرة»، وقد زاد هذا من أهمية لقاءاتي مع السيد عارف.

واصلت سيري باتجاه البيت على الأرصفة «النكرة»...



4

صناعة المستقبل

يوم السبت، ركبت سيارة أجرة وانطلقت من منطقة جيهانغير متوجهاً إلى منطقة أيوب، ولأن السائق لا يعرف أين يقع مقهى بيرلوتي سألنا سائقاً آخر فدلنا على المكان بطريقة راقية وتمنى لنا أياماً سعيدة، ربما ابتداء حديثي معه بكلمة «يا سيدي» كان له كبير الأثر في تصرفه الراقي معنا.

وجدنا الإشارة المرورية، التي دلنا عليها السائق، ولأن هذه الإشارة لم تعزَّز بإشارات أخرى فقد اضطررنا للسؤال مرة أخرى لكي نستدل على المكان المتوجهين إليه.

يجب أن نكون ثقافتنا قد تخلصت من مقولة «أكثر من الأسئلة تجد بغداد» لأنها هي السبب الذي يجعلنا لا نشعر بالحاجة إلى وضع الإشارات الضرورية على الطرقات، وهو سبب لا شعوري، بل هو سبب ناجم عن إدراكنا وتقييمنا للأحداث ضمن ثقافة إقامة العلاقات.

تسعى «النية» الأساسية لثقافتنا دوماً إلى خلق عالم يكون الناس فيه محتاجين لبعضهم البعض، ولا يمكنك تطبيق هذه النية في بيئة كل شيء فيها واضح وصريح، أو في بيئة تعمل حسب قوانين محددة، فعدم وجود الإشارات على الطرقات يجعل الناس محتاجين لبعضهم ويكونون مضطرين لتطبيق الحكمة القائلة «أكثر من السؤال تجد بغداد».

وهنا يجب البحث عن مفهوم حساس جداً، ولكن إذا لم يرغب الشخص الذي تسأله بإعطائك الجواب على سؤالك!؟ في هذه الحالة أنت مضطر لأن تتعامل معه بشكل جيد وأن تجعله راضٍ عنك وغالباً ما تتدخل الرشوة سبيلاً لاكتساب رضا الآخر.

بينما كنت أفكر بهذه الأمور سمعت صوت السائق يقول لي: «لقد وصلنا يا سيدي» فأعطيته حسابه ونزلت من السيارة.

الطرق مبللة بسبب المطر الذي هطل صباحاً، بعد توقف المطر نشرت الشمس أشعتها على المدينة.

أثناء الدخول إلى المقهى نمرُ من تحت عريشة نُصبت ثلاثة عواميد في كل جهة من جهاتها ووضع فوق كل عمود دعاماتٍ مثلثة الشكل وفوق هذه الدعامات وضعت قطع خشبية متوسطة السماكة، وبذلك أعطيت العريشة مجالاً لكي تمد أغصانها أكثر. يوجد على العريشة الكثير من عناقيد العنب ولكنها صغيرة الحجم لا تملأ العين ولكنها تعطي للداخل إلى المقهى انطباعاً بأنه يدخل إلى مبنىً عثماني.

قُسِّمت الحديقة إلى ثلاثة أقسام بواسطة المدرجات التي زُرع داخلها وعلى جوانبها الأشجار والأزهار، وتوزعت الأصص في كل مكان، زُرع في بعضها الأزهار والورود وفي بعضها الآخر زُرعت الغراس.

الأرض مرصوفة ببلاط أرصفة وأما درجات السلم فرصفت بأحجار كبيرة الحجم. يوجد على المدرجات العليا كراسٍ صغيرة ومقاعد، وأما على المدرجات السفلى فقد اصطفت الطاولات والكراسي.

أول ما يقابلكم عند دخولكم إلى المقهى منظر بانورامي للخليج، عندما تنظر إلى الطريق المار من أمام المقهى، لأول وهلة، تظنه واحداً من المدرجات، لكن عندما تنظر بدقة ترى الناس على الطريق ذهاباً وإياباً، وبعد مرورهم من أمام المقهى ينعطفون ويتابعون طريقهم إلى الأسفل.

اصطفت الطاولات والكراسي على الطريق أيضاً فصار كأنه أحد مدرجات المقهى.

جلست على إحدى الطاولات المصطفة على الطريق، أستطيع من مكاني هذا رؤية منطقة أيوب والخليج. بعد فترة وقف السيد عارف أمامي بوجهه البشوش. الأشخاص الذين يقدمون الخدمات للزبائن في المقهى يرتدون سراويل تذكرك بالزَّي العثماني، طلب كلٌ منا كأساً من الشاي.

بعد عدة جمل ترحيبية بدأتُ الحديث قائلاً: «يا سيد عارف أحبِّذ اليوم الحديث عن موضوع صناعة المستقبل» وتابعت: «تكامل الشخصية أهم عنصر في صناعة المستقبل».

- يا أستاذي أعرف أنك تولي أهمية خاصة لهذا الموضوع.

- هل عرفت ذلك من كتبي؟.

- نعم، فلقد ذكرت في أحد كتبك العبارة التالية: «إذا بقيت كافة الشروط الاقتصادية والقانونية والسياسية في بلد ما على ما هي عليه ودخل مفهوم تكامل الشخصية إلى حياة مواطنينا كإحدى القيم الهامة المُعاشة، فإنه سيتم القضاء على سبعين بالمائة من مشاكلنا» هل أذكر العبارة بشكل جيد؟!.

- نعم، ذاكرتك جيدة جداً، وأتابع اليوم القول: لا يمكنني الآن إغفال تكامل الشخصية أثناء الحديث عن موضوع المحارب.

أحضر النادل الشاي، رأيت طفلاً يبيع الكعك عند مدخل المقهى، ففُتحت شهيتي وقمت وأحضرت كعكتين، فأعجب السيد عارف بالفكرة، ثم واصلنا حديثنا ونحن نأكل الكعك بالشاي.

❖ احترام الحقيقة عاملٌ أساسيٌ في تكامل الشخصية:

- احترام الحقيقة عامل أساسي في تكامل الشخصية. إن وعي

الحقيقة وإدراكها يفتح الطريق أمام الناس لاحترام هذه الحقيقة التي يدركونها.

- أجد فكرة «احترام الحقيقة عامل أساسي في تكامل الشخصية» فكرة جديدة بالنسبة لي يا سيد دوغان، ولم أكن أفكر مطلقاً بهذا الموضوع قبل أن أقرأ في كتبك عن تكامل الشخصية، بيد أنني لم أفكر بوجود علاقة بين احترام المرء للحقيقة وبين تكامل الشخصية.

- أجل يا سيد عارف، إذ أن كل شيء يبدأ بقبول احترام الحقيقة كقيمة قائمة بحد ذاتها.

توقفت عن الكلام، يبدو السيد عارف وكأنه يحاول تقبُل هذه الفكرة الجديدة. قضم الكعكة ونظر إليَّ وملامح وجهه تشير إلى أن الفكرة قد استقرت في دماغه فتابعت كلامي:

- عندما يولد الطفل لا يعرف ما هي الحقيقة، وبعبارة أصح، لا يكون لديه أية معلومات مسبقة عن شكل الموقف الذي سينظر من خلاله إلى إدراكاته. أثناء نمو الطفل يكون منفتحاً على تعلم كل جديد، فتبدأ مرحلة طرح الأسئلة، بشكل خاص، بين الثالثة والسابعة من العمر. أي أن الرغبة في تعلم كل شيء تتبلور بشكل جيد في هذه المرحلة من العمر.

- فعلاً يا سيد دوغان، إن الأسئلة التي يطرحها الأطفال في هذه السن كثيرة ومحيِّرة.

- نعم، وإن ذلك لأمر عظيم، فإذا نما الطفل، خلال هذه المرحلة، ضمن بيئة تحترم الحقيقة سيكون من السهل عليه تطوير موقف خاص بكيفية تناول الحقيقة ومعرفتها.

- وإذا لم ينمُ ضمن بيئة تحترم الحقيقة؟!.

- مع كل أسف، العلاقة معدومة بين العديد من البالغين، أي بين

الناس العقلاء، وبين الحقيقة، ونسوا إظهار أي احترام للحقيقة. في بيئات كهذه ستشهد علاقة الطفل مع الحقيقة مشاكل كبيرة.

- أعتقد أنه من أقسى أنواع الظلم أن لا يوضع أي اعتبار لعقل الطفل.

تابعت حديثي ضمن جو من الصداقة التي أقامها شخصان يحترق قلباهما من نفس الشيء:

- يراقب الطفل على الدوام سلوك البالغين ويحاول إعطاء معنى لهذا السلوك، فإذا كان هذا السلوك غير منسجم وغير مفسَّر ومن النوع الذي لا يتطابق فيه الفعل مع القول، يندهش الطفل ويحتار وتهتزُ أسس ثقته بنفسه وبالعالم الذي يحيط به، وهذا ما يؤدي به إلى تعلم عدم إدراك الحقيقة الموجود ضمن إطارها وإلى انخفاض درجة وعيه الذي يحضره معه إلى الوسط الذي يعيش فيه.

«يقدِّم المعالج النفسي ناثانيال براندت Nathaniel Branden، الذي أجرى العديد من الأبحاث وكتب العديد من المؤلفات حول مسؤولية الفرد واحترامه لجوهر ذاته، العديد من الأمثلة على الانخفاض الذي يتعرض له وعي الطفل. لنلق الآن نظرة على هذه الأمثلة:

> **«تُجري الأم حديثاً هاماً مع طفلها حول موضوع النزاهة، بعد ذلك يأتيهم ضيوف، وتتحدث الأم مع ضيوفها عن أمر ما، يعرف الطفل أن هذه الحادثة التي تحكيها أمه غير صحيحة، ولكن الأم تواصل كلامها وكأن ما تحكيه صحيحاً بل وتبالغ في الحديث، ينظر الطفل إلى وجه أمه بحثاً عن تفسير لعدم الانسجام الذي يراه في حديثها ولكنه لا يرى أي تغيير في ملامح وجهها سوى أنها تواصل الحديث**

بانفعال ودون أي شعور بالذنب وكأن الحادثة جرت كما ترويها بالفعل.

قاطعني السيد عارف قائلاً:

- يا سيد دوغان، ما هو عدم الانسجام الذي ينتظر الطفل تفسيراً له؟!.

- كانت الأم، قبل وصول ضيوفها، تتحدث عن أهمية النزاهة مع ولدها.

- ها... نعم، تقصد عدم الانسجام بين ما كانت تتحدث به قبل مجيء الضيوف وبين السلوك الذي تقوم به أمامهم.

- نعم. أما المثال الآخر فمن الممكن رؤيته في أي بيت يوجد فيه أب كحولي أو أم كحولية، فكّر معي بهذا الوضع الذي كثيراً ما تعيشه الأسر التي يوجد فيها شخصٌ كحوليٌ.

تجلس الأم على الطاولة وتحكي لأطفالها أمراً مفرحاً، في هذه الأثناء يدخل الأب سكراناً إلى البيت، يقف بصعوبة على رجليه. لا تعيره الأم أي انتباه ولا تلتفت إليه، بل تواصل حديثها مع أطفالها على نفس الوتيرة. لا يستطيع الأب الاستمرار في الوقوف على رجليه فيسقط على مؤخرته ويبقى مستلقياً على الأرض. بينما تستمر الأم في حديثها. ينظر الطفل إلى والده المستلقي على الأرض، وإلى أمه التي تواصل حديثها، وتتراوح حركة عينيه بين هذا وتلك، ولكن الأم، التي اعتادت على عدم التحدث عن الأمور السلبية، تواصل حديثها وكأن شيئاً لم يكن، فيتلقى الطفل من هذه البيئة رسالة مفادها: «إذا غضضت النظر عن حادثة ما فإنها تصبح وكأنها ليست حقيقة» من هنا يتعلم الطفل عدم الرؤية.

عندما يتواجد في بيئة الطفل أناس لا يقيمون علاقات واضحة وصريحة مع الحقيقة، فإن العديد من الأسئلة تبقى دون أجوبة في دماغ

الطفل، ومن أهمها سؤال يقول: «كيف سأعيش في هذا العالم؟!»، ولهذا السؤال العديد من الأسئلة الفرعية: عندما لا يفعل الناس ما يقولونه ويفعلون ما لا يقولون، كيف سأفهم الصح من الخطأ؟ وبما أنني لن أفهم مطلقاً أن ما يقال كذبٌ فكيف سأثق بالبشر؟. هل ستكون حياتي آمنة في بيئة لا يتم فيها الحديث عن الأشياء التي نراها ويتم التصرف حيالها وكأنها غير موجودة؟.

هل هناك شيء يدعى الحقيقة؟ وكيف سأفهمها ومتى سأفهم ماهية الأشياء؟ وكيف سأعيش دون أن أجيب على كل هذه الأسئلة؟.

قال السيد عارف، الذي كان يستمع إلى كل هذه الأسئلة سؤالاً سؤالاً، بلهجة من وقع تحت تأثير ما سمعه:

- إنها أسئلة هامة يا أستاذي، أعرف ذلك من خلال علاقتي مع طلابي. من المهم أن يثق الطفل بإدراكه.

- بالتأكيد يا سيد عارف. هذه الأسئلة هامة للكبار أيضاً ولكنها أكثر أهمية بالنسبة للأطفال.

«يسعى الطفل لفهم نفسه وفهم العالم الذي يعيش فيه، من خلال مشاهداته والأسئلة التي يطرحها، فلقد أعطت الطبيعة للإنسان طاقة خاصة، رائعة وكاملة: القدرة على الفهم، القدرة على التعلم، القدرة على التفكير. ومن الممكن أن يفقد الطفل، الذي يعيش في بيئة تربوية تنكر وجود الحقيقة وتفتقد للشخصية المتكاملة، هذه الطاقة وهذه القدرات مدى الحياة، ويصل إلى نتيجة مفادها «لا يوجد البتة أية أهمية للتفكير وللفهم وللإدراك» يجب أن يتمتع الإنسان بشخصية متكاملة لكي يعطي قيمة للتفكير وللإدراك وللحقيقة الموجودة في بيئته».

- لا شك أن هذا الأمر ليس منحصراً بالأسرة فقط، بل هو أيضاً موضوع يجب أن ينتبه إليه المدرسون في المدرسة.

- طبعاً، إنني أعتبر هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب أن ينتبه

إليها، بشكل خاص، المدرسون الذين نذروا أنفسهم لمهنة التعليم. فانطلاقاً من احترامهم المطلق للحقائق المدرَكة، يجب أن يعرفوا كيف يعطون فرصة للحديث عن هذه الحقائق وأن يكون باستطاعة الطفل طرح أسئلة، بالقدر الذي يريد، حول كافة المواضيع، وقد لا يمتلك الإنسان البالغ أجوبة على كافة الأسئلة، فهو ليس مضطراً لمعرفة كافة الأجوبة، بيد أنه مضطر للاستماع والإصغاء لأسئلة الطفل. ويجب أن يكون وعي المعلم قد تطور إلى المستوى الذي يؤهله لفهم ما يقوله الطفل.

بعد فترة من التوقف تابعت حديثي دون أن أغيِّر نبرة صوتي:

- «يجب أن يكون المعلم قد طوَّر وعيه هذا وألا يمتهن التعليم ما لم يحقق ذلك، نعم لهذه الدرجة الأمر مهم.

- يا أستاذي إن العديد من الأسر - وقد قدمت أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع في أحد كتبك، وتناولت هذا الموضوع، بشكل خاص، أثناء حديثك عن الحريات الخمس الأساسية - والعديد من المعلمين، والأسوأ من كل هذا، أغلب وسائل الإعلام - صحف وتلفزيون وإذاعة - في مجتمعنا، مع كل أسف، لا يقاربون الحقيقة بأي احترام. هذا ما أراه، فهل أنت معي في هذه الملاحظة؟!. أتشوق لمعرفة ذلك.

- نعم أنا متفق معك، ومع كل أسف إن عدم احترام الحقيقة هي أم السيئات ومنبع كافة الأخطاء ومصدر التخلف الذي نعيشه، ولا يمكن أن يتطور طفلنا، كموجود حقيقي، في مجتمعنا - بأسره ومعلميه ووسائل إعلامه - الذي لا يحترم الحقيقة.

❖ تطور الإنسان كموجود حقيقي:

- أستاذي، قلت موجود حقيقي فهل لك أن تفسر معنى ذلك؟.

- الإنسان عبارة عن موجود حقيقي يؤمن ويحس ويشعر ويتحرك

بما يمليه عليه عقله ويفكر ويستطيع تطبيق ما يفكر به. فإذا لم يتقبل هذا الإنسان العالم الذي يراه ويدركه فإنه لن يتطور كموجود حقيقي، فلكي يتمكن الإنسان من التفكير يجب أن يكون واعياً لما يدركه وأن يأخذ إدراكاته بالحسبان.

- أفهم ذلك، يجب أن يكون الإنسان واضحاً وصريحاً وصادقاً في موضوع إدراكاته وفي موضوع ما يراه.

- طبعاً هذا ما يجب أن يكون، ولكن البالغين في مجتمعنا، مع كل أسف، يخاطبون مخاوف الأطفال بدل أن يخاطبوا عقولهم ومفاهيمهم.

- لحظة يا أستاذي، هل يمكن أن تعيد الجملة الأخيرة؟.

- مع كل أسف غالباً ما يخاطب البالغون في مجتمعنا مخاوف الأطفال، وليس عقولهم ومفاهيمهم. هذه هي الجملة التي طلبت مني إعادتها، أليس كذلك؟!.

- نعم، نعم يا أستاذي، إنها فكرة هامة ومثيرة.

- يا سيد عارف، إني أشاركك الرأي في أهمية هذه الفكرة، ففي المكان الذي يسيطر فيه وعي الأنا والأنت يخاطب الناس فيما بينهم المخاوف التي يشعرون بها. وفي هذا السياق يأخذ الأطفال نصيبهم من ذلك.

- وعي الأنا والأنت؟...

توقف السيد عارف هنا وكرر قائلاً: «وعي الأنا والأنت»....

- سيد دوغان، ما هي العلاقة بين وعي الأنا والأنت وبين الخوف؟.

- تعتمد أسس العلاقة القائمة على أساس وعي الأنا والأنت، بشكل أساسي، على مفهوم «من هو الأقوى، ومن يجب أن يخاف ومن يجب أن يخيف؟».

- هل تفسر ذلك أكثر؟!.

- سيد عارف، اسمحوا لي أن لا أدخل في هذا الموضوع أكثر، فقد بحثت هذا الموضوع مطولاً في كتبي السابقة.

صمت لفترة محاولاً تذكر ما تحدثت به سابقاً، في هذه الأثناء، هبَّت رياح هزَّت الشجر فتساقطت قطرات الماء العالقة على الأغصان على الطاولات، اعتقدت للحظة أن المطر بدأ يهطل. تذكرت الموضوع الذي كنت أتحدث به:

- كنت أقول أن البالغين يتوجهون غالباً إلى مخاوف الأطفال ويخاطبونها، كما تعلم إن سلامة وصحة المجتمع في المستقبل يعتمد على تطوير أذهان الأطفال وقلوبهم، وعندما أقول سلامة وصحة المجتمع فإنني أقصد كافة جوانب المجتمع، أي بنية الأسرة والحياة الاقتصادية والنظام السياسي والتطبيقات القانونية والثقافة والحياة الاجتماعية وكافة الجوانب الأخرى التي يمكن أن تخطر على الذهن.

- سيد دوغان، إننا نولي الأهمية العظمى للحفظ الصم، لأنه حتى أغلب المعلمين لا يفكرون بأهمية تربية الطفل في عالم حقيقي تكون فيه الأهمية الكبرى للأفكار وللبحث عن الحقائق من خلال طرح الأسئلة، وأستطيع الاعتراف يا أستاذي بأن غالبية زملائي من المعلمين لا يعرفون الفرق بين المعلومة التي حُفِظت صمّاً وبين التفكير الذي يُنتِج المعلومة.

واصل السيد عارف حديثه وكأنه يحدث نفسه بصوت عالٍ: «لماذا لا يعرفون؟ هل هو ذنبهم أنهم لا يعرفون؟» وبعد فترة من التفكير أجاب على السؤال الذي طرحه بنفسه: «لا يعرفون لأن الذين ربُوهم أيضاً لا يعرفون» صمت من جديد وراح يحدث نفسه بصوت عالٍ: «علماً بأن المعلمين يمتلكون مكانة هامة في مجال تعليم المعلومة». توقف عن الكلام ونظر إلى وجهي كمن يريد أن يعرف فيما إذا كنت قد استوعبت ما قاله أم لا ثم أردف قائلاً: «فعلاً إنه لأمر هام جداً، أننا نحن المعلمون، وبشكل خاص

معلمو الصف، نستطيع أن نبين للأطفال قوة التفكير وقدراته، لأن هؤلاء الأطفال لا يكونون قد أخذوا قالباً أو نمطاً محدداً ولا يكونون قد اكتسوا بعدُ لحماً وعظماً».

- شكراً لك يا سيد عارف، إنه لأمر يسرني أن تكون مدركاً لأهمية التعليم إلى هذه الدرجة.

- يا أستاذي كلما توغلنا في الحديث أكثر كلما عادت إليَّ الرغبة بممارسة مهنة التعليم وازداد شوقي إليها. أريد أن أصبح معلماً جيداً وأريد تربية طلابي وتعليمهم بكل ما أملك من قوة، أشعر في داخلي بطاقة بدأت تزداد شيئاً فشيئاً.

- إنني مسرور لسماع ذلك، وأتمنى أن تكون هذه الطاقة أكثر قدرة وأكثر عمقاً.

توقفت عن الكلام وأخذت رشفة من كأس الشاي ثم تابعت حديثي قائلاً:

لا تنسَ أننا نبحث في ماهية المحارب، بعد أن تحدثنا عن بحث المحارب عن معنى، وعن يقظته وعن نيته، والآن نتحدث عن تكامل شخصيته. فلكي تتكامل شخصية المحارب يجب أن يحترم الحقائق الموجودة في داخله وفي بيئته احتراماً غير مشروط، وأن يتعرف إلى هذه الحقائق.

«احترام الحقيقة عبارة عن موقف يتعلمه الطفل، ومن الجدير ذكره، أن عقل الطفل يضطرب ويتشوش وتختلط عليه الأمور عندما لا يفي الكبار بالوعود التي يقطعونها، أو عندما لا تتطابق أقوالهم مع أفعالهم أو عندما يتكلمون حديثاً متناقضاً».

- يا أستاذي، سألني أحد الطلاب في الصف ذات مرة، لماذا يكون الأذان باللغة العربية. طفل في الصف الرابع يتشوق لمعرفة السبب الذي

يجعلنا نؤذّن باللغة العربية! فقلت له بأن النبي محمد عربي وأن القرآن باللغة العربية والمسلمون يفضلون رفع الأذان بلغة القرآن الأصلية، ولكنني كنت متوتراً أثناء حديثي مع هذا الطفل، لأن الحديث في مواضيع كهذه، في مجتمعنا، يعتبر حديثاً يتجاوز حدود الحقيقة والمنطق، ولكني أجبته على سؤاله بكل سرور لكي أعرب له عن احترامي لتفكيره وأسئلته.

«بعد أن قدّمت شرحاً لهذا الموضوع قال الطفل بكل براءة «ألا يولي الله أهمية لفهم الذين يتحدثون باللغة التركية؟!».

- ماذا كان جوابك على سؤاله هذا؟.

- قلت له يوجد تفسير للقرآن وللأذان باللغة التركية، ويمكنني أن أشرح له ذلك في وقت آخر إن كان لديه رغبة بذلك. لقد بدأ هذا الطفل بالوقوف عند مواضيع تجنب مجتمعنا مناقشتها منذ مئات السنين ودفن رأسه في الرمل كي لا يراها، ولأن هذا الطفل لم يرَ بعد اللافتة التي كُتِب عليها «الحديث عن الدين وإعمال العقل أمر خطر وممنوع» لكني أعتقد أنه فهم من ملامح وجهي ومن نبرة صوتي ومن رعشة جسدي والتوتر الذي اعتراني أنني لا أتحدث بأريحية.

- قدمت مثالاً رائعاً. عندما كانت ابنتي أيشان في الصف الأول الابتدائي في مدرسة غازي عثمان باشا الابتدائية في أنقرة، طرحت عليّ السؤال التالي: «من أكبر، الله أم أتاتورك؟». لا أعرف إن كان لديك معلومات عن حياتي يا سيد عارف. فلقد كنت يومها متزوجاً من إيميلي أم أيشان وهي أمريكية الجنسية. نظرت إيميلي بدهشة إليّ ثم إلى ابنتها. كانت أيشان جدية في سؤالها، لكن إيميلي لم تفهم كيف خطر هذا السؤال على عقل ابنتها وكيف فكرت بإجراء مقارنة كهذه. بيد أنني فهمت سؤالها بحزن شديد وقلت لها: «أتاتورك، إنسان مثلنا وقد حقق لهذا البلد أشياء هامة وكبيرة، ولأنه يحب بلده كثيراً فقد بذل جهوداً حثيثة لكي يعيش شعب هذا

البلد حياة حضارية، إن أتاتورك رجل كبير ولكن لا يوجد أي معنى لإجراء مقارنة بينه وبين الله، لأنه إنسان والآخر رب.

فقالت أيشان بكل براءة: «سأذهب غداً إلى المدرسة وأخبر معلمي بذلك، لأنه يعتقد أن أتاتورك أكبر من الله». لا شك أنها تحدثت مع معلمها. لأن أحد المعلمين شعر بضرورة أن يقول في أحد اجتماعات أولياء الأمور: «نحن نشرح للتلاميذ عن عظمة أتاتورك، ونرجو منكم في البيت تعزيز ذلك».

- نعم، لقد أصبح هذا أيضاً من المحرمات فمن الصعوبة إجراء تقييمات متوازنة وواقعية حول أتاتورك. ومع كل أسف، قبل أن يذهب أطفالنا إلى المدرسة يتعلمون عدم التفكير في مواضيع كهذه، حيث يطلعون على هذه المعلومات ويحفظونها صماً دون أن يفكروا بمعناها، وإنني أستطيع رؤية ذلك بكل وضوح عند طلابي، فالطلاب عاجزون تماماً عن إجراء أي تقييم حول المعلومات التي حفظوها من الكبار حول أتاتورك وراحوا يرددونها دون أي فهم.

نعم، نحن الكبار، من أوصلهم إلى حالة العجز هذه.

- بالتأكيد يا سيد عارف، يجب علينا، نحن المعلمون، أن نتعلم كيف يكسب الأطفال الشعور الواقعي، فالشعور الواقعي ضروري للحياة الواعية، والحياة الواعية ضرورية لتكامل الشخصية. لنتناول طريقة اكتساب الشعور الواقعي.

أنهيت كأس الشاي، فناديت النادل وطلبت كأسين من الشاي، لأن عارف أيضاً كان يريد شاياً. كانت الكعكات طازجة، منذ زمن طويل لم أتناول الكعك مع الشاي.

الجلوس في منطقة أيوب ومشاهدة منظر الخليج، كل ذلك أضفى جمالاً خاصاً على جلستنا.

جسر الخليج يبدو واضحاً أمامنا، كان يوجد مصانع كثيرة في هذه

المنطقة لكنها أزيلت جميعها، كذلك يظهر أمامنا بوضوح مبنى السجلات (الدفتردار) القديم المطلي باللون الأحمر. نُظِّفت منطقة الخليج وزُرِعت بالأشجار والأعشاب، وحاولوا تنظيف المياه ولكنهم لم ينجحوا في ذلك على ما أعتقد.

❖ الواقعية:

- سيد عارف، إني أجلس الآن أمامك وأمامك على الطاولة يوجد دفتر، وبداخله يوجد قلم، وتعرف تماماً بأن هذا الدفتر لا يمكن أن يتحول إلى شيء آخر، فإذا ما نهضتَ الآن ومشيت قليلاً في الخارج وعُدت من جديد إلى هذه الطاولة، فستكون على ثقة تامة بأنك ستجدني دوغان ولن تجدني خروفاً أو جدياً...» يطلق على هذه الحالة في الفلسفة **قانون الهوية**، وهذا يعني أن الشيء هو ذاته، هو هو، أي أن (آ) هي (آ)، وهذه هي الخطوة الأولى في المنطق إنه تعبير متعلق بالوجود.

«قانون الهوية يولد **قانون السببية**»

- هل يمكنك تكرار ما قلته يا سيد دوغان؟ ما هو قانون الهوية؟.

- يقول قانون الهوية: **الشيء هو ذاته وليس شيئاً آخر، فالكرسي كرسي والكأس كأس.**

- هذا موضوع بسيط جداً وسهل وبديهي لدرجة أن الإنسان يشك بنفسه متسائلاً: «هل من المعقول أن لا أكون قد فهمته؟». هل تحدثني الآن عن قانون السببية؟.

- أما قانون السببية فيقول: كل شيء يتصرف بما يتناسب مع طبيعته، فطبيعة هذا الشيء هي التي تحدد ما سيفعله.

- ألا يصح هذا القول إلا على الأشياء؟ أقصد، ألا تخضع الكائنات الحية لهذا القانون؟.

- طبعاً، يمكننا هنا تبديل كلمة «الشيء» بكلمة «موجود»، ويمكن أن يكون هذا الموجود إنساناً أو حيواناً أو جماداً أو شجرة أو سمة أو خاصية أو عملية، وكل فكرة، وكل إحساس يمكن أن يأخذ شكل فكرة أخرى، ويدخل ضمن هذا التصنيف كل «موجود» يمكن أن نعرِّفه على أنه طاقة.

«يمكننا اختصار شعورنا بالأمن في هذا العالم وإحساسنا بأننا نعيش في عالم ثابت ودائم، بقانون الهوية - يمكننا أن نطلق عليه مصطلح **بديهية الهوية** - ولقد احتل هذا القانون مكاناً أساسياً في كل حياتنا لدرجة أننا لا نجد حاجة للتفكير به أبداً، بيد أنه يشكل أساساً لكل شيء، فكل شيء هو ذاته، كل ما ليس هو ليس هو، ولا يمكن وجود أي شيء أساسي ومؤكد أكثر من هذا القانون.

- هل يوجد استثناء لهذا القانون؟

- عندما يهتز قانون الهوية وقانون السببية، يهتز كل شيء في عالمنا. إذ لا يمكن أن نفكر بأن الشمس لن تُشرق غداً، ونحن نفترض دوماً بأن المبنى الذي نحن فيه الآن، سيواصل غداً وجوده كما هو عليه الآن، وأن الأرض التي تحت أرجلنا لن تهتز، وأن هذه الأشجار وهذا العشب والمنازل التي أمامنا لن تغرق في مياه المحيط، وإذا ما ثبت عدم صحة افتراضاتنا الأساسية هذه - العديد منها لا نراها أو حتى لا ندركها - فإن نظرتنا إلى الحياة بأكملها ستتغيُر وسنبدأ بالعيش في عالم مختلف جداً.

- ما الذي يحدث عندما تقلب الزلازل والكوارث الطبيعية كل افتراضاتنا رأساً على عقب؟!.

- سينجم عن ذلك قلق كبير وتهتز أسس حياة الإنسان، الذي سيعاني صعوبات كبيرة في التكيف مع الحياة.

- إزالة هذا القلق أمر مهم جداً أليس كذلك يا سيد دوغان؟!.

- يجب إعادة وضع هذه الافتراضات الأساسية من جديد في مكانها

الخاص كافتراضات أساسية، وعكس ذلك، سيقع الإنسان في حالة عدم تكيف عميقة، ويتحول إلى إنسان متوتر، يصبح حالة عيادية من الناحية النفسية، وستظهر حالات نطلق عليها في علم النفس (القلق العصابي الحاد Akut anxiety neurosis).

- يا سيد دوغان قبل أن أتحدث معك لم أكن أدرك أن لديَّ افتراضات، من هو أول من أدرك وجود هذه الافتراضات لدينا؟.

- الفلاسفة هم أول من أدرك ذلك وأجروا أبحاثاً حولها، فكروا بها، ولقد قرأت الأفكار التي أخبرك الآن بها في كتب عالم النفس ناثانيال براندن Nathaniel Branden، وحسب معلوماتي، إن الذي وجهه إلى التفكير بهذا الموضوع هي آين راند Ayn Rand التي تبوأت مكاناً مرموقاً في الفلسفة في أمريكا.

بعد فترة من الصمت تابعت حديثي في الموضوع الذي بدأته:

- يا سيد عارف، ثمة مصطلحان يشكلان الأساس لكافة المصطلحات، وهذان المصطلحان هما: **الوجود والعدم**، وإذا أردنا التعبير بلغة بسيطة نستطيع القول: إما شيء أو لا شيء أبداً.

صمتُ لفترة، هناك أشخاص لديهم حساسية تجاه هذا النوع من الموضوعات الفلسفية، ولهذا كنت أتابع التعابير التي تظهر على وجه السيد عارف بشكل مستمر لأعرف فيما إذا كان يستمع لي أم لا، فوجدته مستعد دوماً للاستماع باهتمام، تابعت حديثي:

- مصطلح الوجود، هو مصطلح يشكل الأساس لكل شيء تعرفه والأساس لكامل وعيك، وهو العنصر الأساسي للوعي. به يبدأ الانتباه، وهو أول شيء يراه الرضيع وأول صوت يسمعه في اللحظة التي يفتح فيها عينيه على النور. الطفل لا يعلم ما هو الشيء الذي سمعه أو رآه، ولا يستطيع أن يطلق عليه أي اسم لأنه لا يكون قد امتلك بعد المصطلحات والمفاهيم التي

نعرفها، بل ينتبه **لوجود شيء ما**، إذ أن عملية الإدراك تتم من خلال الانتباه لشيء ما.

ومع تطور وعي الطفل، يتحول هذا الشيء الذي تم الانتباه إليه إلى وحدة لها حدود معينة وشكل معين، وكلما تطور الدماغ تتطور خصائص التقاط الأحاسيس المختلفة ودمجها، ويبدأ بتمييز الأشياء عن بعضها البعض من خلال إدراك المكان والشكل واللون والمستوى على شكل وحدات مختلفة ودمجها وتوحيدها. في هذا المستوى تتشكل المعلومة.

سألت السيد عارف فيما إذا كان لديه أي سؤال حول ما تحدثنا به حتى الآن، فقال بأنه لا يوجد أي سؤال وبأنه يستمع لما أقوله بكل متعة. فتابعت حديثي:

- لا يوجد شيء غير موجود، فعندما أقول: «لا يوجد شيء في جيبي» فهذا يعني أنه لا يوجد أي مادة في جيبي، وعندما أقول: «ثروتي صفر» فهذا يدل على أنه لا يوجد لديَّ نقود، وهذا هو الاستخدام الخاص أو التطبيقي للعدم، أما المعنى الفلسفي للعدم فإنه يعني اللاوجود أي الفراغ، اللاشيء أو الصفر.

صمتُ لفترة، لأتوقف، بكثير من التأكيد، على مصطلح العدم، ثم تابعت:

- العدم يدل على اللاوجود.

ضحك السيد عارف وقال: «يا أستاذي، إن هذا المنطق يشبه منطق ديميريل» فرددت على مزحته بقولي: «بفضل ما تسميه منطق ديميريل انظر إلى المستوى الذي وصل إليه طفل قروي».

تابعت حديثي:

- يقول قانون «أو بديهية» الهوية: الحجر حجر والطاولة طاولة والشَّعر شَعر وإذا كنت في حالة غضب فهذا يعني أنك في حالة غضب وإذا كنت تشعر بأنك فاشل فهذا يعني أنك تشعر بأنك فاشل.

في هذه الحقيقة تكمن أسس التفكير المنطقي والتفكير الواقعي، وإذا انتهكنا هذا القانون أو تجاهلناه فإن أفكارنا تفقد انسجامها وتماسكها وتضيع بنيتها المنطقية.

- إنني مسرور لسماعي حديث كهذا يا أستاذي، ولكن اسمح لي أن أسألك عن علاقة كل هذا بتكامل الشخصية. فلم أرَ أية علاقة بين ما تحدَّثت به وبين تكامل الشخصية.

- يا سيد عارف، إنني مدرك لذلك وأرجوك أن تصبر قليلاً. إننا نناقش الآن الأسس التي شُيِّد فوقها تكامل الشخصية، وفيما بعد سترى بكل وضوح وصراحة العلاقة القائمة بين ما تحدثنا عنه وبين تكامل الشخصية.

- حسناً يا أستاذي.

- **قانون التناقض** هو النتيجة الطبيعية لمبدأ الهوية، حيث يقول هذا القانون «إن (آ) لا يمكن، في آن واحد ومن بُعد واحد، أن يكون (آ) ولا (آ)، إذ لا يمكن لأي شيء، في آن واحد ومن بُعد واحد، أن يكون ذاته وشيئاً آخر في نفس الوقت.

- لم أفهم ماذا تعني بالبُعد؟.

- لا شك أنك توقفت عند كلمة البُعد ...

- نعم.

- عندما تقول: «دوغان رجلٌ كثيف الشعر» لا يمكنك أن تقول: «دوغان رجل أصلع» إذ لا يمكن من حيث البُعد المتعلق بالشعر أن أكون كثيف الشعر وأصلعاً في الوقت ذاته. ولكن إذا قلت: «دوغان رجلٌ كثيف الشعر» يمكنك وقتئذ أن تقول: «دوغان رجلٌ قصير الشعر» لأن الشعر من جهة والقصر والطول من جهة أخرى بعدان مختلفان وليسا بعداً واحداً.

- الآن فهمت.

- فإذا حصلنا على نتيجة كهذه أثناء تفكيرنا فإننا نستنتج أننا أخطأنا في مكان ما من تفكيرنا.

خطرت على ذهني ملاحظة وبعد أن فكرت هل أقدمها على سبيل المثال أم لا، تابعت حديثي وشرحت للسيد عارف:

- ذات مرة قال أحدهم يصف أحد السماسرة:

«إنه مستقيم جداً، فهو لا يكذب أبداً ما لم تكن هناك ضرورة لذلك» وفي حادثة أخرى قالت إحدى الأمهات: «إنني أكره الضرب كثيراً، فعندما يُغضِبني أطفالي أشكوهم لوالدهم وهو يتولى أمر ضربهم».

- لا شك أن هذه الأم لا تتحدث عن «الضرب»، بل تتحدث عن «القيام بفعل الضرب» ولو قالت: «إنني أكره أن أضرب أطفالي ولهذا عندما يفعلون ما يغضبني أشكوهم لوالدهم فيتولى أمر ضربهم» لما وقعت في التناقض.

- حسناً، برأيك ما هي النقطة التي لم تحضر هذه الأم درجة كافية من الوعي إليها؟.

- هل تقصد من ناحية قانوني الهوية والتناقض الذين تحدثنا عنهما؟.

- أجل من هذه الناحية.

- لم تخضع هذه الأم لقانون الهوية: فلا يمكن أن يكون «الضرب» و«القيام بفعل الضرب» شيئاً واحداً ولذلك عندما تستخدمهما في جملة واحدة المعنى نفسه تكون هذه الجملة متناقضة.

- هذا صحيح، هذا النوع من الأخطاء البريئة يؤثر على نوعية وجودة التواصل، فإذا نشأ الطفل في بيئة تمتاز بمستوىً عالٍ من الوعي المتعلق بهذا الموضوع فإنه يتعلم التفكير والكلام الدقيق والواضح والصريح. ولكن إذا نشأ في بيئة ذات وعي مضطرب فإنه يتعلم عدم الدقة، فيعيش بعقلٍ مشوشٍ ومضطرب، مثله في ذلك مثل غيره من الذين يعيشون في بيئته.

- يا سيد دوغان، إنك تتحدث عن مواضيع هامة جداً تهم بلدنا وأولادنا، إذ أن إنساننا لا ينمو في وسط واضح التفكير ومع كل أسف لا تجد أي فرق بين المعلمين في مدارسهم وبين أي شخص في الشارع، من حيث وضوح التفكير ودقته. فالطفل لا يجد فكرة واضحة، برّقة عند أمه وأبيه وعمه وو.. وعند ذهابه إلى المدرسة لا يجد هذه الفكرة الواضحة عند معلمه، وبعد فترة يتحول، كما غيره ممن يعيشون في بيئته، إلى إنسان يفتقد للدقة والوعي في تفكيره.

- لكي يتعلم الأطفال التفكير الصحيح والواضح والدقيق يجب أن يكون معلموهم أصدقاءً لهذا النمط من التفكير يستخدموه في حياتهم. إننا ولا شك متفقان حول هذه النقطة.

أريد الآن إقامة علاقة بين تكامل الشخصية وبين قانوني الهوية والتناقض اللذين تحدثت عنهما منذ قليل.

- جيد، هذا ما أنتظره.

❖ الأسس الفلسفية لتكامل الشخصية:

- إذا نظرنا إلى المخلوقات في الطبيعة فإننا سنجد أنه لا توجد لديها أية نواقص، فالطير جهَّز نفسه ليعيش كطير، ولا توجد لديه نواقص أو عيوب، وكذلك العنكبوت والنملة يمتلكان خصائص كاملة دون نواقص أو عيوب، وإذا ما أفسدت تكامل الطير، أي إذا نزعت أحد جناحيه، على سبيل المثال، فإنه لن يستطيع العيش كطير، أو إذا اقتلعت رجلي النملة فإنها ستجد صعوبة في مواصلة حياتها كنملة.

«عندما يلد الإنسان يكون أيضاً متكاملاً، كما العنكبوت والطير والنملة أي يكون مخلوقاً كاملاً.

في الحقيقة نحن لا نرى أجنحة الإنسان وأرجله الذهنية، ولكن إذا

نظرنا عن قرب إلى طفل وراقبنا بكل دقة ما يطرحه من أسئلة فإننا سنجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام طاقة ذهنية وعقلية خارقة ومتكاملة، هذه الطاقة جزء لا يتجزأ من تكامل الطفل، وإن هذه القدرات الواعية جزء لا يتجزأ من هذا المخلوق المتكامل الذي نطلق عليه اسم إنسان».

«من هنا يا سيد عارف تتبع أهمية ما تحدثنا عنه حتى الآن، ففي الأوساط التي لا تخضع لمبدأي الهوية والتناقض تُنزع الأرجل والأجنحة الذهنية للطفل دون دراية منهم بما يفعلون، ولا يمكن للطفل المنزوع الأجنحة والأرجل أن يتطور، ولا يمكن أن يتحقق كمال الإنسان.

توقفت عن الكلام هنا، كانت الجملة الأخيرة التي قلتها تعبر، بالنسبة لي، عن أهم مسألة. نظرت إلى السيد عارف لأعرف فيما إذا كان فهم ما قلته أم لا.

كانت ثمة حقيقة ماثلة أمامي، جامع أيوب والمدارس التي بجواره والمقبرة الممتدة إلى الأسفل، وكذلك هاليجي أوغلو وسوتلوجه وإلى الأمام تبدو منطقة قاسم باشا. الطريق الذي يمر أمامنا يؤدي إلى علي بي كوي، لا شك أن الأبنية التي أمامي هي ناطحات السحاب التي شُيِّدت في منطقة ماصلاك.

الحقائق الماثلة في عقلي لا تقل عن تلك التي أراها بعيني، أولها، حقيقة البدء بنزع أجنحة وأرجل أطفالنا الذهنية. كنت أرغب أن يرى السيد عارف هذه الحقائق التي أراها بعين عقلي.

فهم ما أردت قوله بشكل جيد، التقت نظراتنا...

كان السيد عارف معلماً حقيقياً، وإذا نذرت نفسي لتطويره فهذا يعني أنني أنذر نفسي لتطوير أولادنا. تابعت حديثي:

- أريد التحدث عن العلاقة القائمة بين الإدراك وبين تكامل الشخصية. كنت قد أشرت سابقاً إلى أن الشرط الأساسي لتكامل

الشخصية هو احترام الحقيقة. إذ يجب أن يمتلك الإنسان احتراماً غير مشروط للحقيقة التي يدركها. فمن غير الممكن أن يعيش الإنسان، الذي لا يحترم الحقيقة، ضمن إطار شخصية متكاملة.

الحقيقة المدرَكة مختلفة تماماً عن «الحقيقة المشوَّهة» التي يدركها المرء على هذا النحو أو ذاك بما يتناسب مع مصالحه، ما أتحدث عنه هو الحقيقة التي يدركها المرء بنية صافية، فمن الممكن استخدام تشويه الحقيقة كغطاء وستار للكذب وبذلك يظهر الشخص الذي يقول الكذب، من خلال تشويهه للحقيقة، كشخص «مزوَّر» وكأنه يعيش ضمن إطار شخصية متكاملة. أنا لا أتحدث عن حالة «تزوير» من هذا النوع.

- فعلت خيراً يا سيد دوغان بتقديمك هذا التوضيح، فلقد كنت أتساءل ماذا لو كان هذا الشيء الذي تم إدراكه على أنه الحقيقة ويُنتظر أن يكون الحقيقة وهو ليس كذلك؟.

- إننا نعمل الآن يا سيد عارف على إقامة علاقة بين الموضوعات الفلسفية التي تحدثنا عنها حتى الآن فيما يتعلق بالحقيقة وبين تكامل الشخصية. والآن نتحدث ضمن هذا الإطار عن أول شرط من شروط تكامل الشخصية وهو احترام الحقيقة الذي يُعد شرطاً أساسياً جداً.

- أفهم ذلك وأتابع حديثك براحة تامة يا سيد دوغان.

لفتت انتباهي حمامتان فوق السطح الإسمنتي لمبنىً ضخم، قريب من الساحل أي في القسم السفلي من المقبرة. كانت تلك الحمامتان تلتقطان طعامهما مما تجدانه على هذا السطح فقلت في نفسي: «إنهما تواصلان العيش بما تقتضيه حياتهما اليومية ضمن شخصية متكاملة» فلقد سعت الحياة لتحقيق ما تقتضيه حياة كل كائن.

سمعت من جديد ما قاله السيد عارف فيما يتعلق بمتابعة حديثي بكل أريحية، فتابعت كلامي:

- إذن لنكمل حديثنا، الشرط الثاني لتكامل الشخصية هو اكتساب المرء شعوراً كاملاً بالمسؤولية تجاه هذه الحقيقة المدركة.

- يا أستاذي أعتقد أنني أفهم ما تقوله، ولكن هل يمكنك تقديم مثال يسلط الضوء أكثر على هذين الشرطين؟.

- لنفترض أنك بدلاً من الإصغاء لما أقوله تهتم بأشياء أخرى، الشرط الأول يقول: «السيد عارف لا يستمع لحديثي» هذا السلوك يمثل، بالنسبة لي، حقيقة لا يمكن أن أتعامل معها وكأنها غير موجودة، وإذا ما تعاملت معها وكأنها غير موجودة فإن شخصيتي المتكاملة تكون غير موجودة. ففي حين أقول في قرارة نفسي: «السيد عارف لا يستمع إليَّ» أتابع حديثي دون أي اهتمام بسلوكك، وكأنك تستمع إليَّ بكل اهتمام. هذا مثال على الشرط الأول المتعلق باحترامي للحقيقة التي أدركها.

- نعم فهمت ذلك، إن هذا المثال يشرح موضوع احترام المرء للحقيقة التي يُدركها. ولكن يفضل المرء، أحياناً، ما يجول داخله على الذي يجري أمامه، أليس كذلك؟!.

- عندما لا تتشارك مع الذي أمامك، ما هو الوضع الذي تسعى لخلقه، من أجل نفسك ومن أجل الإنسان الذي أمامك؟ وهل ستفقد أنت والشخص الذي أمامك، بسبب تفضيلك، شيئاً من قيمك الأساسية مثل الشرف والإخلاص والمحبة والعدل؟ فإذا قدمت أجوبة واضحة وصريحة على هذه الأسئلة، أي إذا كنت واعٍ للمستقبل الذي تريد خلقه، وإذا كان «الصواب» بالنسبة لك يعني خلق هذا المستقبل الذي اخترته، فقد لا تتشارك مع الذي أمامك، وبذلك تكون مدركاً لخيارك وللسبب الذي جعلك تختار هذا السلوك دون سواه. ويصبح هذا الخيار هو حقيقتك، وتواصل حياتك متمتع بشخصية متكاملة.

- كيف يمكنني أن أبقى متمتعاً بشخصية متكاملة؟!.

- إذا كان خيارك يعبر عن حقيقة وعيك في اللحظة التي أجريت خيارك فيها، وقتها تكون ضمن شخصية متكاملة من خلال هذا الوعي. المهم هنا هو أن تعي ماذا فعلت ولماذا، أي أن تكون مدركاً «للصواب».

- هذا يعني أنه حتى الإنسان الكذّاب يعيش ضمن شخصية متكاملة؟!.

- إذا كان الإنسان الكذّاب مؤمناً بأن المستقبل الذي خلقه هو نتيجة «صحيحة» بالنسبة له وللآخر الذي أمامه يكون ضمن شخصية متكاملة من خلال هذا الصواب الذي آمن به.

- لم أفهم يا أستاذي.

- لنفترض أنك كذبت على صديقك، ونتيجة لهذه الكذبة أنقذت حياة صديقك الزوجية وبنيت أساساً متيناً لأسرة سعيدة، فالصواب هنا يكون توفير السعادة لأسرة ما. وهناك مثال آخر: لنفترض أنك كذبت على صديقك، ونتيجة لهذه الكذبة عرّضت صديقك لخسارة مادية فادحة، فإذا كنت تتحمل هذه الخسارة وتستطيع حمل أعبائها عن صديقك فهذا يعني أنك حافظت على تكامل شخصيتك، أما إذا كنت لا تتحمل مسؤولية الكذبة التي قلتها حينئذ لا يكون لديك شخصية متكاملة.

- فهمت الآن.

- إذا تابعنا المثال ذاته: يجب أن أعلم أن إدراكي لكون «السيد عارف لا يصغي لحديثي» عبارة عن إدراك أو مفهوم أو تفسير خلقته أنا، ولذلك يجب أن أكون مسؤولاً مائة بالمائة عما أدركته.

- وما الفائدة من ذلك؟!.

- إن العلاقات التي تقيمها وأنت واعٍ لهذين الشرطين تكون مختلفة عن العلاقات الأخرى.

- فهمت ذلك، سؤالي كان فقط بما يتعلق بالشرط الثاني بشكل

خاص. أقصد ما هي الفائدة من قولي: هذا ما أدركته وبالتالي أنا مسؤول مائة بالمائة عن هذه الحقيقة؟.

- يمكننا الرد على تساؤل كهذا من خلال تقديم الأمثلة، المثال الأول: افرض أنني لم أتحمل المسؤولية الكاملة عن ما أدركته، هذا يعني أنني لا أطبق الشرط الثاني:

مثال 1:

دوغان: أنت لا تصغي إليّ بل تهتم بأشياء أخرى أثناء حديثي إليك. (تم تطبيق الشرط الأول).

عارف: كلا، أنا أصغي إليك، فمن عادتي ألاّ أنظر إلى وجه من يتحدث معي لأنني إذا نظرت إلى وجه محدثي لا أفهم ما يقوله، وإنني أصغي وأفهم ما تقوله أكثر عندما أنظر حولي.

دوغان: لا يمكن، فأنا لم أرَ في حياتي رجلاً يستمع بهذه الطريقة. فالمرء ينظر إلى عينَي محدثه، وحتى إذا لم ينظر إلى عينيه، فعلى الأقل لا ينظر حوله بل ينظر أمامه. (لا يتم هنا تطبيق الشرط الثاني، فبدلاً من تحمل مسؤولية إدراكي الذاتي أحاول إقناع الآخر أن ما أدركته هو الحقيقة بعينها وبأن إدراكي معيار لا يجب الانحراف عنه - أكون واثقاً من «حقيقة» عدم إصغائك إلي وأدرك ذلك - وبذلك لا أتحمل مسؤولية إدراكي بل أحمِّلك إياها).

عارف: ولكن أنا هكذا، أنا أيضاً مثلك لم أرَ رجلاً يصغي بهذه الطريقة مثلي، لكنني بهذه الطريقة أستمع (أنت من يفسر ذلك ولأنك لا تعرفني فإنك تعطي تصرفاتي المعنى ذاته الذي تعطيه للآخرين، إذاً أنت منبع هذا التفسير).

دوغان: إنك تكذب وتحاول التستر على الوضع وتعاملني كمغفل (مصدر تفسيري أنت وليس أنا).

- هذا المثال يشبه كثيراً ما نشهده من أحاديث تجري في حياتنا اليومية: «أنت قلت»، «لا لم أقل»، «لا أنت من قال ذلك، سمعتك بأذنيَّ»، «كلا أنا لم أقل ذلك، إنك تلفِّق» يوجد في أساس هذه المشاجرات فكرة عدم تحمل المرء مسؤولية ما يدركه.

- نعم، لنرَ في المثال الثاني ماذا سيحدث إذا تم تطبيق الشرط الثاني:

المثال 2:

دوغان: أنت لا تصغي إليَّ، فأنت تهتم بما حولك أثناء حديثي (تم تطبيق الشرط الأول).

عارف: كلا، أنا أصغي إليكِ، فأنا دائماً هكذا لا أستطيع النظر إلى وجه محدثي، فإذا نظرت إلى وجهه لا أفهم ما يقوله، أما عندما أنظر حولي فإني أفهم ما تقوله بشكلٍ أفضل.

دوغان: لقد فسرتُ سلوكك هكذا لأنني لم أرَ في حياتي إنساناً يستمع بهذه الطريقة. أرغب بمواصلة الحديث معك ولأنني لم أرَ في حياتي شخصاً يستمع بطريقتك فإنني لا أعرف إذا كنت سأستطيع مواصلة الحديث معك بأريحية أم لا. إن كان اهتمامك بما حولك سيعيق مواصلة الحديث ويزعجني بإمكاننا إكماله بالمراسلة بدلاً من الحديث وجهاً لوجه (تم تطبيق الشرط الثاني متحملاً مسؤولية إدراكي).

ابتسم السيد عارف بعد أن أنهيت كلامي وقال: «أستطيع الآن رؤية الفرق بين الحالتين».

صمتنا فترة من الوقت. ثمة موضوع كنت قد فكرت فيه سابقاً فأحببت التطرق إليه باختصار:

- سيد عارف، يمكننا التحدث عن العلاقة بين تكامل الشخصية والزمن. سنناقش الآن أحد جوانب تحقق تكامل الشخصية وهو «**الآن وهنا**»،

علماً بأنه يجب ألا نتناول تكامل الشخصية من زاوية **الآن وهنا** فقط فلتكامل الشخصية أبعادٌ تتعلق بالماضي والمستقبل أيضاً، ففيما يتعلق بالماضي يمكننا الولوج إلى داخل الشخصية المتكاملة من زاوية الأعمال التي تمت في الماضي، أُطلق على هذا الموضوع عبارة «إنجاز ما لم يتم إنجازه» فعندما يتم إنجاز الأعمال العالقة مع الآخر تكون العلاقة معه قد استعادت نزاهتها.

برقت عينا السيد عارف، يبدو أنه تذكر شيئاً ما:

- ذات مرة كان أحد أصدقائي يتحدث عن علاقته مع شخص آخر فقال: «لقد تحولت صداقتنا إلى سلة مهملات» وأعتقد أنه كان يريد القول: «ازدادت في علاقتنا الأمور التي لم يتم إنجازها».

- أعتقد ذلك، فإذا ما امتنع الإنسان عن قول الحقيقة وتصرَّف وكأنها غير موجودة فإن هذه العلاقة قد تتحول فعلاً إلى سلة مهملات، ولكن قد تكون للشخصية المتكاملة علاقة مع الآن وهنا، أي يمكن أن يقول المرء ما يفكر وما يشعر به الآن ولكن هذا يتطلب جرأة وصدقاً عميقين في الشخصية، ولا يمكن لعلاقة أن تتحول إلى سلة مهملات ضمن إطار موقف كهذا. صمتُ فترة ثم تابعت: لا يمكن أن تتحول علاقات المحارب إلى سلة مهملات.

- الشخصية المتكاملة ليست مهمة بالنسبة للمحارب وحسب، بل هامة من بالنسبة لكل إنسان أليس كذلك؟!.

- طبعاً من الطبيعي أن تكون هامة بالنسبة لجميع البشر وكل مستوى من تكامل الشخصية يضيفه الشخص إلى حياته يعتبر واحداً من أهم الخصائص التي تميز المحارب عن الإنسان العادي.

- يا أستاذي، هل قلت مستوى تكامل الشخصية؟!.

- نعم، بعد قليل سأتحدث عن هذا الموضوع وسأكتفي هنا بالقول: تكامل الشخصية بُعدٌ هام للحياة يجب أن يفكر به كل إنسان.

- أفهم ذلك، فعندما نقول (آ) هي (آ) نكون قد صرَّحنا بقانون

الهوية وعندما أفكر وأشعر وأعمل انطلاقاً من كوني عارف أوكورر فإنني أكون ذاتي. وهذا أمر طبيعي فلكي يبقى الطير طيراً والنملة نملةً يجب أن يعيشوا حياتهم ضمن إطار قانون الهوية، وهذا لا يعتبر مشكلة بالنسبة للحيوانات لأن الطير لا يمكنه في أي وقت من الأوقات أن يتصرف كحيوان آخر وكذلك النملة، ولذلك إذا نظرنا إلى الطير والنملة فإننا نجد فيهم ما نعرفه عنهم.

«إذا أدركت الأشياء وفكرت وتصرفت ضمن شخصية متكاملة فإنني أعيش حياتي أنا، أي أواصل حياتي كوني عارف أكورير لا أحد آخر.

توقف السيد عارف عن الكلام ثم نظر إليَّ وقال: «يا أستاذي لقد قطعت حديثك وبدأت الحديث، هل تراني أتكلم كثيراً؟!. فأخبرته بأنني مسرور جداً بحديثه وبأنه أثبت لي من خلال حديثه أنه استوعب الموضوع جيداً وطلبت منه الاستمرار بالحديث، فتابع قائلاً:

- إذا تخلَّيت عن كوني عارف أوكورر بسبب الخوف أو من أجل تحقيق منفعة خاصة أو لأي سبب آخر وأدركت الأشياء وفكرت وتصرفت كأي شخص مزيف فهذا يعني أنني أعارض قانون التناقض أي أكون قد انتهكت قانون «لا يمكن، في الوقت ذاته، أن يكون (آ) هو (آ) ولا (آ)» أي لا يمكن أن يكون الشخص هو ذاته وأحد غيره في نفس الوقت وفي نفس البعد وهذا بدوره يعني أنني إذا تعارضت مع هذا القانون فإنني لا أعيش ضمن شخصية متكاملة، ومع مرور الوقت أبدأ بفقدان هويتي.

- عارف أوكورر، إنه تفسير رائع أهنئك عليه. يقول العالم اللاتيني ماركوس أوريلوس أنطونيوس Marcus Aurelius Antonius الذي عاش بين عامي 121و18. :

لا يوجد مصلحة أو منفعة في العالم تستحق
النكث بعهدٍ قطعته أوفقدان احترامك لذاتك

- سيد دوغان هل يمكننا القول: لا يمكن لإنسان أن يكون ذاته إلا بقدر ما يمتلك من تكامل الشخصية، والإنسان الذي لا يكون ذاته لا يمكنه امتلاك قوة تأثير بالآخرين ولهذا السبب لا يمكن أن يمتلك الإنسان قوة تأثير إلا بقدر ما يمتلك من تكامل الشخصية؟!.

- نعم يمكننا قول ما قلته فأنت الآن تتحدث عن حقيقة نفسية، فجميعنا نثق بالإنسان الصادق الصريح ونصدّق ما يقوله. فالإنسان الصادق الصريح أي الذي يمتلك شخصية متكاملة يكون أكثر فاعلية في العلاقة التي يقيمها مع شخص آخر وفي الأسرة وفي المجتمع، وأما الشخص الذي لا يمتلك شخصية متكاملة فإنه عبارة عن إنسان يقوم بتدمير قواه الذاتية.

جاء زوجان وبرفقتهما طفلة عمرها 14-21 شهراً، يحملان حقيبة صفراء اللون وجلسا على طاولة قريبة من طاولتنا ثمة ابتسامة تلوح على وجهيهما تعبر عن سعادتهما من وجودهما هنا، لأن المجيء إلى هنا، بالنسبة لهما، على ما أعتقد حدث عظيم وليس حدثاً عادياً، فقد كان على وجهيهما سعادة وابتسامة ويشعران بالإمتنان لمجيئهما إلى هنا.

سألت السيد عارف فيما إذا لاحظ سعادة هذين الزوجين فقال: «أجل إنهما سعيدان» وأضاف قائلاً: «إنها سعادة عميقة».

راحت الطفلة الصغيرة تسير بحماس على الطريق المرصوف بالحجارة، بل وكانت تركض أحياناً ولم يكن والداها يتدخلان بها بل كانا يراقبانها بكل سعادة، ترتدي الطفلة كنزة حمراء كتب عليها بأحرف كبيرة Iam Mr. Mac Big حماس الطفلة لفت انتباهنا أنا والسيد عارف، بعد ذلك انتبهت لوجود طفلة - لم أكن قد انتبهت إليها سابقاً - في السابعة أو الثامنة من عمرها ترتدي كنزة صفراء وبنطالاً أسود، تتابع الطفلة الصغيرة وتهتم بها. وقتها فهمت سبب الراحة التي يشعر بها الوالدان فلهذه الطفلة أخت كبرى وهما يثقان بها كثيراً.

❖ تكامل شخصية أم عدم لباقة:

عدنا إلى الموضوع نفسه، ابتسامة السيد عارف تدل على أن فكرة مشاكسة خطرت على ذهنه، وكأنه يقول في قرارة نفسه: هل أطرح سؤالاً أم لا؟ ثم قال:

- كيف يمكننا التمييز بين الإنسان الصادق الصريح ذي الشخصية المتكاملة وبين الإنسان الذي نقول عنه باللهجة الشعبية «غير لبق» أو «أخرق»؟.

نظر إليَّ وضحك، طبعاً ضحكت أنا أيضاً، ربما لم يدرك أهمية السؤال الذي طرحه.

- ربما طرحت سؤالك من باب المشاكسة ولكنك، في الحقيقة، طرحت سؤالاً هاماً جداً يا سيد عارف.

- لهذا السؤال معنىً هاماً بالنسبة لي.

- لنتناول أولاً معنى مصطلح «عدم اللباقة» فالإنسان غير اللبق هو الشخص الذي يتحدث دون احترام ودون أن يفكر إلى أين ستوصله كلماته ومن سيجرح بها، وهو الشخص الذي لا ينتبه لسلوكه. ويكون شخص كهذا فاقداً لأهمية وجود بُعد التبعية في شخصيته، فهو يقيم علاقاته فقط من خلال إدراكه الذاتي، ولا يرى كيف ينظر الآخرون إلى الأحداث.

«من ناحية أخرى يكون الشخص ذو الشخصية المتكاملة مشاركاً في مجتمعه ليس من خلال ما يفكر به وحسب بل من خلال إدراكه لآراء كافة الناس الذين تربطه علاقات معهم».

- يا أستاذي، أعتقد أن وضع الإنسان الأخرق لا يختلف كثيراً عن الإنسان غير اللبق.

- الإنسان الأخرق يا سيد عارف هو الإنسان عديم التفكير وفاقد العقل والأحمق، فهناك فرق هام بين «عديم اللباقة» و«الأخرق» فعديم

اللباقة يتصرف بطريقة تزعج الآخرين لأنه لا يعطيهم أهمية أما الأخرق فإنه يزعج الآخرين بما يفعله لأنه لا يمتلك العقل الكافي.

- حسناً، وما علاقة ما تحدثنا به بالشخص ذي الشخصية المتكاملة؟.

- إذا سمحت لي سنتناول هذا الموضوع تحت عنوان تكامل شخصية المحارب بدلاً من تناوله بشكل عام تحت عنوان تكامل الشخصية فقط.

- كما تريد يا أستاذي.

❖ تكامل شخصية المحارب:

- تحدثنا سابقاً عن العلاقة بين الإدراك وبين تكامل الشخصية، كما تحدثنا عن الشرطين المتعلقين بهذا الموضوع، وبحثنا الأشياء الواجب الانتباه إليها في العلاقة القائمة بين ما يدركه المرء على أنه حقيقة وبين تكامل الشخصية. الآن أريد الدخول في صلب الموضوع، وهذا ما تريده أنت، أليس كذلك؟! أي أنك لا تريد التحدث عن الفلسفة بقدر ما تريد الوقوف عند موضوع تكامل الشخصية.

- نعم هذا صحيح.

- إذاً فلنبدأ بالحديث عن المستويات الثلاثة لتكامل الشخصية.

المستوى الأول هو:

1- التطابق بين الجوهر والقول والفعل:

- يمكن اختصار المستوى الأول من هذه المستويات على الشكل التالي: «أن يقول الشخص ما يفكر به وأن يفعل ما يقوله».

الإنسان في هذا المستوى يولي اهتمامه لثلاثة أشياء:

أولاً: الحرص على إدراك عالمه الداخلي، وأفضل مثال على ذلك نراه

في وعي المحارب المستمر لنيته، فالمحارب يعي دائماً كل عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته - الغضب، السعادة، الخوف، والتطلعات، والأهم من ذلك كله النية أي لماذا يريد قول هذا الأمر ولماذا يريد القيام به -

ثانياً: الحرص على ألا يكون الكلام الذي يخرج من فمه متناقضاً مع الأفكار والأحاسيس الموجودة في عالمه الداخلي وأن يحرص على أن لا يلغي كلامه تلك الأفكار والأحاسيس أو مخادع لها أو غير مترابط معها، فإذا كان الشخص الواعي غاضباً لا يتحدث بوجه بشوش يظهره وكأنه مفعم بالسعادة، وإذا قرر الكلام فلن يكون كلامه متناقضاً مع عالمه الداخلي أو لاغياً له، بل يتحدث بطريقة إستراتيجية بما تقتضيه نيته آخذاً كل ما يدركه بعين الاعتبار.

توقفت عند هذه النقطة ونظرت إلى السيد عارف ففهم سؤالاً ارتسم على ملامح وجهي يقول: «هل شوَّشتُ لك عقلك؟». فقال:

- تقصد أنه لا يتكلم مدارياً أو حسب المثل القائل: «لا يُحرَق الكباب ولا السيخ»[5] فإن أراد الكلام فإنه يتكلم بوعي بعد أن يضع كل شيء بحسابه وإن لم يرد فإنه لا يتكلم أبداً.

- ولكنه يكون قوياً حتى بصِمْته ولا يوقع نفسه في موقف ضعف.

- نعم فهمت ذلك.

- أما الأمر الثالث الذي يحرص المحارب عليه فهو: الحرص على عدم التناقض بين كلامه وعمله وأن لا يكون عمله متناقضاً مع عالمه الداخلي.

- يا أستاذي ألا ينطبق هذا الكلام مع قول مولانا جلال الدين الرومي: «اظهر كما أنت أو كن كما تظهر».

---

[5] يقابلها بالعربية لا يموت الديب ولا يفنى الغنم.

- أجل ينطبق، بالضبط.

- ما تحدثنا به هو المستوى الأول لتكامل الشخصية أليس كذلك؟ فلقد قلت بوجود ثلاثة مستويات.

- بالتأكيد. بهذا المستوى يظهر الفرق بين المحارب وبين الإنسان العادي.

- أستطيع رؤية هذا الفرق يا سيد دوغان. ما هي مستويات تكامل الشخصية الأخرى؟!.

2- الانسجام مع المبادئ والقيم:

- المستوى الثاني لتكامل الشخصية هو: أن تكون منسجماً مع المبادئ والقيم التي تؤمن بها.

- يا أستاذي ما هو الفرق بين هذا المستوى والمستوى الأول؟.

- المستوى الأول يقول: «أن يقول الشخص ما يفكر به وأن يفعل ما يقوله» حيث يتحدث المرء حسب ذلك ويعمل بشكل منسجم مع عالمه الداخلي، وأما في المستوى الثاني فإنه يحرص على الانسجام بين عالمه الداخلي، فينومينته phenomen، وبين قيم ومبادئ محددة يؤمن بها، ولا شك ستطلب الآن مثالاً على ذلك.

- فعلاً سأطلب.

- لنفرض لديك طالبتان، الأولى اسمها زهرة والأخرى اسمها يلدز. زهرة، بنت لأسرة فقيرة، أبوها وأمها عاملان، يحرصان على تدريس ابنتهما، خاصة وأنها فتاة ذكية ومجتهدة تتابع دروسها بكل اهتمام. ولكن هذه الأسرة لا تمتلك الإمكانيات لإعطاء ابنتهما دروساً إضافية.

«أما يلدز فإنها تتحدَّر من أسرة، الأب والأم فيها من أصحاب المهن، هذه الأسرة ليست ثرية ولكنها تقرأ الكتب في البيت كثيراً وتمتلك إمكانيات

التعليم أكثر مما تمتلكه أسرة زهرة. يلدز أيضاً فتاة ذكية ومجتهدة وتتابع دروسها باهتمام ولكنها لا تمتلك الرغبة والإرادة اللتان تمتلكهما زهرة، وأنت أكثر من يعرف وضع هاتين الفتاتين عل اعتبار أنك معلمهما .

- كان لديَّ طلاب بهذه المواصفات، وقد صادفت عدداً كبيراً من الحالات المشابهة بيد أنني متشوق لمعرفة ما وراء هذا الكلام.

- تكتشف في الامتحان أن يلدز تحصل على درجات أكثر من تلك التي تحصل عليها زهرة التي تكون قد درست أكثر من يلدز. وأنت على ثقة بأن زهرة قدمت كل ما يمكن تقديمه ضمن الشروط التي تعيش فيها .

- يلدز لم تقدم كل ما يمكن تقديمه ضمن هذه الشروط التي تعيش فيها . ملاحظتي في مكانها أليس كذلك؟! أي لو أرادت يلدز لحققت أداءً أفضل من أدائها الحالي.

- أجل، لقد فهمت المثال بشكل جيد وصحيح، فلو كانت يلدز تمتلك الرغبة الموجودة عند زهرة لأظهرت أداءً أرفع مستوى.

- حسناً، فهمت، ماذا بعد .

- أنت تقيِّم أوراق الامتحانات حسب المعلومات الموجودة فيها، لأنك أثناء تقييم الامتحان عليك أن تعطي الدرجات حسب المعلومات التي تراها وتدركها في تلك الأوراق.

- المعلم مضطر لتقييم أداء الطلاب حسب المعلومات التي يقدمها كل طالب في الامتحان وبذلك يكون قد تعامل مع كافة الطلاب بشكل متساوٍ.

- وبذلك يكون المعلم قد تصرف ضمن المستوى الأول لتكامل الشخصية.

- أي أن التعامل مع الطلاب بشكل متساوي هو سلوك ينسجم مع المستوى الأول لتكامل الشخصية ولكن ماذا عن المستوى الثاني، أي ما الذي يجب على المعلم فعله عندما يكون منسجماً مع قيمه ومبادئه؟.

- يجب على المعلم المنسجم مع المستوى الثاني إعادة النظر في علاقته مع زهرة والتفكير بالسؤال التالي: «هل يمكنني إكساب حياة زهرة إمكانيات تعليمية جديدة؟».

- لماذا؟!.

- لأنه يتم إخضاع يلدز وزهرة إلى الامتحان ضمن نفس الشروط الإمتحانية بالرغم من اختلاف الشروط التي تربَّت كلٌ منهما فيها. وإنه لمن الظلم الكبير التعامل حسب مبدأ المساواة مع أناس غير متساوين.

- حسناً، باعتباري معلماً ما الذي يجب عليَّ فعله؟.

- أساساً يجب على النظام التعليمي التوجه إلى توفير هذا النوع من الإمكانات التعليمية. وهذه هي المهمة الأساسية للنظام الذي يجري التعليم فيه، ولكن ما دام النظام قاصراً في هذا الموضوع يمكن للمعلمين أن يكونوا عادلين ومنصفين حسب الإمكانيات المتاحة، أي يمكنهم خلق إمكانيات تعليمية جديدة لزهرة ولأمثالها ومثيلاتها من الطلاب والطالبات، وبفضل هذه الإمكانيات التعليمية يمكن إجراء تقييم متساوٍ بين زهرة ويلدز بعد إزالة النواقص الناجمة عن حياة زهرة السابقة.

- ولِمَ ننشغل بزهرة ومثيلاتها في زحمة أعمالنا ومشاغلنا؟.

- لستم مجبرين على فعل أي شيء، فكما قلت إنها مشكلة النظام التعليمي القائم، ولا أحد يمكنه تحميلكم المسؤولية لا من الناحية القانونية ولا من الناحية الاجتماعية، ولكن إذا كان في حياتكم مبدأ يدعى الإنصاف أو العدل وإذا كنتم تعيشون هذا المبدأ وتمارسونه في حياتكم فإنكم تنذرون أنفسكم لعمل كهذا لكي تحققوا الانسجام مع هذا المبدأ.

صمتُ فترة من الزمن، أعرف مدى حساسية وأهمية هذه النقطة، ففكرت بطريقة تمكنني من شرحها دون أن أشوِّش عقل السيد عارف الذي

همَّ بالكلام لكنه سكت عندما فهم من ملامح وجهي أنني متردد في الحديث عن أمر ما.

ما أدركته لحظتها هو: كم كانت ستنخفض جودة حديثي مع السيد عارف لو كان شخصاً متمركزاً على ذاته ويشغل ذهنه بما سيقوله دون أن يفهم الملامح التي ترتسم على وجهي؟.

كنت أرى بكل وضوح الذكاء الفطري الذي يمتلكه السيد عارف. قررت التحدث في الموضوع الذي يدور في ذهني:

- أثناء الحديث عن موضوع العدل والإنصاف غالباً ما يُفهم الموضوع بشكل خاطئ، لا أريد الآن أن يحدث شيء كهذا.

- ما هو الفهم الخاطئ الذي يمكن وقوعه يا سيد دوغان؟!.

- يبدو أنه لا يمكن اتخاذ قرار حول موضوع الإنصاف إلا بعد أخذ «الآخر» بعين الاعتبار.

- ماذا يعني هذا؟.

- قلت منذ قليل: «لِمَ ننشغل بزهرة في زحمة الأعمال والأشغال الكثيرة التي نغرق في خضمِّها؟» إنه سؤال مشروع. فبعض المعلمين يفكرون على الشكل التالي: «إذا خصصنا وقتاً لزهرة نكون قد ظلمنا أنفسنا وأسرنا وأطفالنا» أي بالنسبة لهم لا يمكن تطبيق مبدأ العدل والإنصاف من خلال سرقة الوقت المخصص لزوجاتهم وأطفالهم وإعطائه لزهرة، فلا بد أن يأخذ المرء أمرين بعين الاعتبار: نفسه ومسؤولياته.

- حسناً، ولكن هل نبذل فعلاً كل ما بوسعنا أم أننا نستسهل الأمور ونتهرَّب من العمل من خلال قولنا: «لو كان لديَّ متسع من الوقت لخصصته لي ولأولادي». من يقرر ذلك؟!.

- لو كنت تمتلك وعياً مراقِباً لعرفت أن هذا الوعي المراقِب فقط هو

من يعرف فيما إذا كنت تتصرف بإنصاف أم لا، وعندما يوجد الإنصاف والعدل يُطلق على الوعي المراقِب اسم «الضمير أو الوجدان».

- هذا يعني وجوب الإصغاء لصوت وجداننا في موضوع تخصيص الوقت لزهرة أم لا.

- أجل، ولا توجد أية قوة غير الوجدان تستطيع أن تحمّلكم مسؤولية تخصيص وقت لزهرة أو عدم تخصيصه.

- يبدو يا أستاذ دوغان أن الوجدان هو السلطة العليا التي لا يمكن للإنسان الهروب منها.

- لا تنسَ ما قلته لك: عندما يكون الوعي المراقِب في حالة مراقبة في موضوع الإنصاف نطلق على هذه العملية اسم «الوجدان»، وكن على ثقة عندما يتطور الوعي المراقِب ويبدأ بالحياة فإنه لا ينقطع لحظة عن مراقبتك، فهو الذي يقيم لك علاقة مع عالمك وهو المنظار الذي تستخدمه أثناء النظر إلى هذا العالم.

- عندما ألقي نظرة سطحية من الخارج إلى ما تقوله فإنه يبدو بسيطاً ولكن عندما أفكر بالأثر الكبير الذي ستتركه هذه الأفكار في حياتي فإنني أشعر بالدهشة والاضطراب وبالأحرى أصاب بالخوف.

- هل تشعر بالخوف؟!.

- أجل، خوف من أن هذه الأفكار ستجعلني أعيش وحيداً.

- أفهم هذا.

- هل أنا مُحق في خوفي هذا يا سيد دوغان؟.

- نعم ولا، إذ سيبتعد عنك الناس العاديون ولكن سيقترب منك الناس الذين يعطون أهمية للقيم، وكلما تخليت عن كونك إنساناً عادياً ستشعر بالوحدة بين الناس العاديين.

- ولكنني أساساً أعيش بين أناس عاديين.

- صحيح أنك تعيش بين أناس عاديين ولكنك نسيت أمراً هاماً.

- ما هو؟.

- نسيت أنك لا تعيش مع الناس الآخرين فقط، فأنت تعيش بشكل متواصل مع ذاتك، وما سيبعدك عن الآخرين هو ذاته الذي سيقربك من ذاتك، ولهذا السبب يجب على من يرغب بالبدء برحلة التحول إلى محارب اتخاذ القرار المتعلق بالأشخاص الذين يريد أن يكون رفيقهم ولهذا السبب أيضاً يكون تكامل الشخصية أمراً هاماً بالنسبة للمحارب.

«يبدأ الشعور بالوحدة الحقيقية، الذي تحدثت عنه، منذ اللحظة التي يفضّل فيها المرء علاقته مع الآخرين على علاقته مع ذاته وبعد فترة يتحول المحارب إلى إنسان عادي لا يعيش من أجل تحقيق آماله وتطلعاته بل من أجل تحقيق آمال وتطلعات الآخرين».

أغمض السيد عارف عينيه رغبة منه باستيعاب ما سمعه ثم أسند ظهره على الكرسي، يبدو أنه يراجع كل ما تحدثنا به حتى الآن، بعد فترة قصيرة بدأ كلامه بالقول:

- أطرح السؤال التالي لكي أعرف فيما إذا كنت قد حققت في شخصيتي المستوى الثاني من تكامل الشخصية: هل أفكر وأتكلم وأتصرف بشكل منصف؟!.

- نعم ولكن لا يكتفي الشخص، الذي يولي أهمية للوصول إلى المستوى الثاني من تكامل الشخصية، بالوصول إلى إدراك عالمه الداخلي وبالتفكير والتصرف بما ينسجم مع هذا العالم وحسب، بل يجب أيضاً أن يكون حريصاً على أن يكون عالمه الداخلي منسجماً مع القيم والمبادئ التي يؤمن بها.

- يا أستاذ، إن موضوع المحارب صعبٌ جداً فلقد بدأت الأمور تزداد تعقيداً.

- القدرة على العيش كمحارب نجاح عظيم، فالأمر ليس مجرد صفة يمكن للإنسان العادي الحصول عليها حالما يقبل بها لأن المحارب يبدي في المستوى الثاني من تكامل الشخصية حرصاً على إبقاء فينوميناته الذاتية وعالمه الداخلي في حالة انسجام مع القيم والمبادئ الأساسية.

- هذه القيم الأساسية التي تتحدث عنها هي ذات القيم التي تحدثت عنها في كتبك السابقة مثل المحبة والعدل والعطاء والشرف وغيرها أليس كذلك؟!.

- أجل.

- وهكذا لا يترك المحارب عالمه الداخلي وشأنه، بل يربط عالمه هذا أي أحاسيسه وأفكاره بوعيه المراقِب لكي يراقب أيَّ قيم أساسية يعكسها هذا العالم.

- أي أنه يتمسك بهذه القيم كحقائق تعيش ضمن فينوميناته phenomen، فإذا كان عالمه الداخلي خالياً من المحبة فإنه يدرك ذلك ويجري خياراً يتعلق بهذه المحبة وبفضل هذا الخيار تتحول المحبة إلى قيمة تعيش في عالمه الداخلي. ففي المثال الذي قدمته أجرى المعلم خياراً ومن خلاله تحول الإنصاف والعدل إلى قيمة تعيش في عالمه الداخلي.

- بعد فترة من الصمت أردت مواصلة حديثي من خلال مثال آخر:

- يمكننا قول الشيء ذاته فيما يخص موضوع كبرياء وشرف الإنسان. أريد هنا سرد المثال التالي: لنفترض أنني غضبت من شخص ما وكنت على وشك توجيه الشتائم له، والمستوى الأول من تكامل الشخصية يقتضي أن أعبِّر عن عالمي الداخلي بهذه الشتائم، ولكنني أدرك بأنني شخص نذر نفسه في سبيل الحفاظ على كبرياء الإنسان، وبذلك أصل إلى نتيجة مفادها أنني لا أستطيع أن أعيش قيمة المحبة مع هذا الشخص إذا شتمته.

«في هذه الحالة أتجه للحديث مع هذا الشخص بطريقة لا تجرح

كبرياءه، أي أنني أتدخل في عالمي الداخلي وفي إدراكاتي بشكل واعٍ وأختار مضمونه وأعطي الحيوية لهذه القيمة في وعيي وعندما تبدأ هذه القيمة بالعيش في فينوميناتي فإنها وبشكل طبيعي ستعبِّر عن نفسها في كلامي وفي سلوكي.

أحببت أن أتمشى قليلاً فأبديت رغبتي هذه أمام السيد عارف فوافق عليها. أخبرنا النادل بأننا سنعود وتركنا معاطفنا على الطاولة وبدأنا السير على الطريق باتجاه الشمال.

عندما يسير الإنسان على الطريق الذي يمر أمام المقهى متجهاً نحو الشمال فإن أول ما يواجهه على اليمين هي المقبرة وعلى اليسار يمتد جدار عريض ومتين. أعتقد أنه بُنيَ كجدار استنادي، غُرز منذ زمن بعيد في مكان ما من هذا الجدار صنبور ماء تحول الآن إلى صنبور جاف كُتب على يساره وعلى يمينه كتابات قديمة وإلى جواره نُصب عمود كهرباء، بعد الجدار توجد العديد من القبور أيضاً. وُضع على أول قبر موجود في الأسفل على اليمين قطعة من الخشب طُمرت بالتراب كتب عليها الرقم 2733 وإلى جوار اللوحة يوجد طير ميت، على القبرين أو الثلاثة قبور الأولى لم يُكتب أي اسم يدل على صاحبها ولم تُنصب عليها الشواهد أما بالنسبة للقبور التي في الأسفل فقد كتب على شواهدها أسماء المدفونين فيها بأحرف كبيرة.

عندما تقدمنا أكثر شاهدنا زجاجات وعلب بلاستيكية وصفائح زيت كبيرة وورق، أي رُمي هنا كل ما يمكن أن نطلق عليه كلمة قمامة لدرجة أن هذا المكان قد تحول إلى مزبلة.

ثمة وعي جمعي يطلب قراءة الفاتحة على روح المرحوم ويشيِّد هذه القبور بكل اهتمام ودقة ومن جانب آخر نجد أن الوعي ذاته قد حوَّل هذه المنطقة إلى مزبلة: هل هذان الجانبان يعبِّران عن وجهتي نظر مختلفتين؟ وما علاقة هذا الموضوع بالقيم؟!.

عندما أطلعت السيد عارف على ما أفكر به قال: «لا يمكن أن يكون هذا المكان مقبرة ومزبلة في آن واحد لأن ذلك يتناقض مع قانون الهوية». فقلت: في مجتمع لا تعيش فيه الشخصية المتكاملة كقيمة من الممكن أن يتحول هذا المكان إلى «مقبرة نكرة» و«مزبلة نكرة» في آن واحد.

لا أحد يزور هذه القبور ولو كان هناك من يزورها لما تراكمت كل هذه الأوساخ. أثناء الوفاة يتم تشييد القبور الفخمة وتوضع عليها أحجاراً من المرمر وذلك بسبب الحزن الشديد أو كحالة استعراضية أمام الآخرين. ولكن مع مرور الوقت ينقطع الناس عن زيارة هذه القبور ولا يرممها أحد فتتحول إلى مكبٍ للقمامة.

عندما ذهبنا إلى مقهى بيير لوتي pieere Loti رأينا سلسلة من الأبنية الخشبية الحديثة. علمنا فيما بعد أن القسم العلوي من الجدار الاستنادي يشكل الجبهة الخلفية أي الحدائق الخلفية لهذه الأبنية. قال رئيس العمال الذي يعمل هناك: «يتم هنا تأسيس كل شيء كمركز تجاري وسياحي، الدكاكين والمقاهي والسينما».

عدنا وجلسنا على طاولتنا، طلبت زهورات وطلب السيد عارف زجاجة كولا.

3- اتخاذ موقف:

- يا أستاذي وصلنا إلى المستوى الثالث من تكامل الشخصية، هاأنذا مستعدٌ للاستماع.

- يجد المحارب نفسه في هذا المستوى من تكامل الشخصية وقد اتَّخذ موقفاً ما، وهذا الموقف ناجم من كونه نذر نفسه في سبيل إيجاد إمكانيات مطلوب خلقها في المستقبل ومن مسؤوليته حيال العمل على استمرارية هذه الإمكانيات.

- والله لم أفهم أي كلمة مما قلته ولو أنك تكلمت باللغة الصينية لفهمت أكثر.

- لا أعرف اللغة الصينية ولكنني أستطيع شرح ما قلته باللغة الإنكليزية: Taking a stand creating apossibility and taking full responsibiliy in living that possibility.

- لم تسعفني هذه الجملة في فهم ما تريد قوله.

- أساساً لم أتوقع أنها ستساعدك في ذلك يا سيد عارف. يوجد هنا عدد من المصطلحات الهامة، لنتناولها مصطلحاً مصطلحاً.

- يا أستاذي لنبدأ اولاً من مصطلح «اتخاذ موقف» فماذا يعني أن يتخذ الإنسان موقفاً؟.

- فكّر معي بهذا المثال: يقترب موعد إجراء الانتخابات، فيقوم مسؤولو الأحزاب وبشكل خاص قادتها بإلقاء خطابات في كافة مناطق البلد المختلفة.

- هذا وضع نعرفه جيداً.

- لهذا السبب أقدمه كمثال، ولكي لا نزيد الموضوع تعقيداً سنتحدث عن حزبين: الحزب آ والحزب ب وسنطلق على قادتهما الزعيم آ والزعيم ب.

- حسناً.

- إذا كان الزعيم آ يجد نفسه ضمن موقف ما فإنه يصوغ كافة خطاباته ضمن هذا الموقف وضمن هذا الإطار يقدم توضيحاً للإمكانيات التي نذر نفسه في سبيل تحقيقها ويوضح شكل مسؤوليته عن خلق هذه الإمكانيات والشكل والزمن والأوضاع التي سيقدم فيها كشف حساب.

- مثلاً؟.

- يقدم القائد آ على سبيل المثال شرحاً عن الإمكانيات التي

سيحققها للبلد في مجال التعليم خلال عشر سنوات وما الذي سيفعله في سبيل خلق هذه الإمكانيات ويحدد السنة والشهر الذي سيقدم فيه كشف حساب بما وعد به، والأهم من هذا كله أنه يحدد بشكل واضح وصريح القيم والمبادئ التي تشكل أساس موقفه التعليمي. وفي كل عمل يقوم به سينذر نفسه في سبيل الانسجام مع هذه القيم والمبادئ والخضوع لها.

- هل يمكن أن تكون أكثر وضوحاً يا أستاذي؟!.

- يقول القائد، الذي اتَّخذته مثالاً، ما يلي:

«يعتمد مبدؤنا الأساسي في التعليم على الإيمان بأن الإنسان طاقة خلأَقة، فكل طفل يولد عبارة عن طاقة خلأَقة ليس لهذا البلد وحسب بل لكل العالم، وإن تطوير هذه الطاقة وخلق النموذج الأفضل الذي سيكونه الإنسان يعد أهم الأسس التي تقوم عليها فلسفتنا التعليمية، ولقد اتَّخذنا موقفاً نذرنا من خلاله أنفسنا في سبيل توفير الإمكانيات اللازمة لخلق نظام تعليمي في هذا البلد يعمل على تطوير أطفالنا جسداً وعقلاً وروحاً بالشكل الأمثل. هذا هو موقفنا المتعلق بمسألة التعليم».

«لقد اتَّخذنا، نحن أعضاء حزب آ، هذا الموقف ونذرنا أنفسنا في سبيل تحقيق مايلي خلال الخمس سنوات القادمة...»

«يتم تحديد المواضيع التي نذروا أنفسهم في سبيل تحقيقها، كل موضوع على حدة، ويتم تقييم الوضع الحالي وتحديد الصعوبات التي ستواجههم ووضع مقاييس لتحديد مستوى النجاحات التي سيتم تحقيقها فيقولوا: بعد انقضاء الفترة المحددة سنكون قد نجحنا في تحقيق هذا القدر فيما يتعلق بالمعلمين، وسنكون قد حققنا هذا القدر من النجاح فيما يتعلق بالتجهيزات المدرسية وحتى ذلك الوقت نكون قد حققنا هذا القدر من النجاح فيما يتعلق بالبنية التحتية والقانونية للنظام.. إلخ..».

وطبعاً التعليم ليس الموضوع الوحيد في الدولة لذا سيتوجب عليه

الحديث عن موقفه المتعلق بشؤون الدولة الأخرى وعن المبادئ والقيم التي على أساسها بنوا هذا الموقف، وبعد ذلك يتوجَّب عليه وضع التعليم ضمن الإطار العام لبرنامجه».

«يبذل الزعيم آ كل وقته وطاقاته ضمن إطار هذا الموقف».

«هل تعرف ماذا يعني أن يبذل وقته وطاقاته ضمن إطار هذا الموقف؟!».

نظر السيد عارف إليَّ وكأنه يقول «أعرف ولكن قل أنت».

- أي لا يصرف وقته وطاقاته لمهاجمة أي حزب سياسي أو أي شخصية سياسية كما لا يصرفه في السجالات الصحفية، وإذا قيل لهذا الزعيم: «يا سيدي لقد قال عنكم زعيم الحزب الفلاني كذا وكذا» فإنه يرد عليهم بقوله: «إنني كزعيم لحزب آ أتبنى هذا الموقف القائم على مجموعة من القيم والمبادئ وإننا كحزب نذرنا أنفسنا في سبيل تحقيق هذه الإمكانيات التي سيخلقها موقفنا، وإذا كان القادة الآخرون سيتناولون موقفنا هذا فإننا مستعدون للحديث معهم وللتعاون معهم، فهذه الدولة لنا جميعنا، وإن غرقت السفينة فلن يغرق جزء منها فقط، ونحن تطوعنا لقيادة هذه السفينة وسنعمل سوية لتسييرها والوصول بها إلى بر الأمان لنوفر إمكانيات جديدة ضمن هذا الموقف الذي أعلنَّا عنه وإننا نعتبر أنفسنا مسؤولين مسؤولية كاملة عن ذلك ومستعدين، كحزب ذي شخصية متكاملة، لتقديم كشف حساب بكل ما وعدنا به، وليس لدينا متسع من الوقت لنضيِّعه في ما قاله هذا وما فعله ذاك، هذا هو كل ما أريد قوله».

- حسناً، وكيف سيتحدث الزعيم ب الذي لم يتخذ موقفاً؟!.

- الزعيم ب لا يتخذ موقفاً بل يتخذ وضعية تكتيكية.

- وماذا يعني ذلك؟.

- بعد أن يلقي الزعيم ب نظرة على وجهات النظر المتعلقة

بمشاكل البلاد ثم على الوضعيات المطروحة في البلد وينذر نفسه في سبيل تحقيق إحداها فيقول: «نحن اشتراكيون أو نحن مع الرأسمال الحر أو إننا مزيج من هذا وذاك أو إننا دولتيون» ولا يمكن أن يخطر على ذهنه خلق إمكانيات جديدة أو فكرة التعبير عن القيم والمبادئ التي تبناها أثناء سعيه لتحقيق هذه الإمكانيات، وحتى إذا خطرت بباله فإنه لا يوليها أية أهمية.

«وبينما يبحث الزعيم ب عمَّن يدعم وجهة نظره يبحث الزعيم آ عمن يشاركه في تحقيق الإمكانيات التي يريد خلقها، وبينما يركز الزعيم ب على مصطلح «الآخرين» يركز الزعيم آ على مصطلح «نحن».

توقفت عند هذه النقطة ونظرت إلى السيد عارف، فهم من نظرتي أنني أريد أن أسأله «هل وضِح الأمر بعض الشيء؟» فقال:

- بدأت أفهم بشكل أفضل، أن هذا الموقف يشبه تنظيم المحارب لحياته بشكل استراتيجي معتمداً في ذلك على إدراكه المستمر لنيته.

لم أفكر بذلك مطلقاً ولكنني رأيت هذا التشابه فعلاً عندما ذكره السيد عارف.

- يا سيد عارف إنك تصمت وتصمت ولكن عندما تتكلم تصيب لب الحقيقة.

ضحك ببراءة طفل يعبِّر عن سعادته، فلقد ازداد سروره لأنه فهم ما يُقال ولأنه نال تقديراً على كلامه.

- يا سيد عارف أريد تقديم مثال آخر.

- يا أستاذي اسمح لي أن أقدم المثال بنفسي.

- حسناً.

- أريد الانطلاق من مثال يلدز وزهرة، ولنفترض أنني كمعلم اتَّخذت موقفاً يتعلق بخلق إمكانية تعليمية قوية من أجل مستقبل زهرة.

- استخدمت فكرة اتخاذ الموقف بطريقة جميلة جداً.

- شكراً. تشكل قيم المحبة والعدل أساساً لهذا الموقف، فإذا ما نذرت نفسي في سبيل تحقيق الإمكانيات التي سيخلقها هذا الموقف فإنني لن أضيِّع وقتي بالتفكير بالصعوبات والعوائق التي ستواجهني أو بالمشاجرات التافهة التي لا معنى لها، فقد يسعى والد زهرة لمنع تطوير ابنته بقوله: «وماذا ستحقق هذه البنت إن أتمّت تعليمها؟!» يجب ألاَّ أيأس بل سأبذل كل وقتي وطاقاتي في سبيل خلق الإمكانيات الكفيلة بتطوير زهرة.

- نعم، وبذلك تكون قد كرَّست نفسك لتحقيق هذا الهدف وتكون مسؤولية تحقيق هذا الهدف ذات معنى بالنسبة لك.

- أستاذ دوغان، ألا يمكن قول الشيء ذاته فيما يخص موضوع الزواج؟!.

- يمكننا تقديم أمثلة متعلقة بكافة جوانب الحياة، ولكن إذا كان لديك مثالاً حول الزواج فإنني أحب سماعه.

- ليتخذ أحد الأزواج الموقف التالي: «سنبني عشّاً يوفر الإمكانيات التي تسمح لكل منا أن يقدم الدعم والعون للآخر في جو من الحب والعدل والكبرياء».

«زوج يعيش ضمن موقف كهذا سيواصل حياته ضمن هذا الموقف مهما فعل الآخر الذي أمامه، فيفكر قائلاً: «إذا قمت بالسلوك X فهل أكون قد قمت بهذا السلوك بمحبة وعدل وهل أكون قد قدمت الدعم لزوجتي أو هل أكون قد جرحتها وحطمت قلبها أم هل أكون قد قدمت خدمة ما لها؟».

- وإذا عاملته زوجته بطريقة أخرى؟!.

- يا سيد دوغان، يتم اتخاذ الموقف بأن ينذر المرء نفسه في سبيل خلق إمكانية ما، فهمت ذلك مما قلته في هذا الموضوع، إذ أن شخصاً كهذا لا يضع شرطاً متمحوراً حول «إذا فعل الآخر ذلك» ليفعل الآخر ما يشاء

وليأت بالسلوك الذي يشاء فإن هذا لن يمنعه من القيام بما يفكر به لأنه نذر نفسه في سبيل خلق هذه الإمكانية، فالزعيم آ لا يقول، على سبيل المثال،: «لن أهاجم الزعماء الآخرين ما لم يتكلموا ضدي» بل ينذر وقته وطاقاته ضمن إطار الموقف الذي اتَّخذه، وأنا كمعلم لا أقول: «سأوفر لزهرة إمكانيات تطويرها ما لم يعترض أحد على ذلك» وفي مثال الزوج لا يقول الزوج: «سيصبح عشنا الزوجي مكاناً لقيم المحبة والعدل والشرف والكبرياء والخدمات المتبادلة إذا فعلت زوجتي كذا وكذا» بل يفعل كل ما بوسعه فيما يتعلق بعملية الخلق هذه.

– أي أنك تتحرك بمسؤولية تامة.

– نعم أتحرك بشعور كامل وتام بالمسؤولية.

– لنفترض أنني متزوج وأتحرك وأتصرف بمسؤولية كاملة ولكن زوجتي لا تشعر بمسؤولية كهذه.

– مهما يكن من أمر شعورها أو عدم شعورها بمسؤولية كهذه، فأنت مسؤول عن نيتك على اعتبار أنك اخترت هذه المرأة وفكرت بالزواج بها.

– تعني أنك تحدد نيتك على اعتبارك شخص محارب.

– نعم أنا من يحدد نيتي ويعيش ضمن صفاءها، فأنا المسؤول عن هذه النية.

– سيد عارف، أريد الآن تكرار ما قلته فيما يتعلق بالمستوى الثالث من تكامل الشخصية، ولنرَ الآن فيما إذا كانت تدل على معنى ما...

– حسناً يا أستاذي فأنا متشوق لمعرفة ذلك.

بعد فترة من الصمت ذكَّرته بما قلته سابقاً «يجد المحارب نفسه في هذا المستوى من تكامل الشخصية ضمن موقف ما وهذا الموقف ناجم عن كونه نذر نفسه في سبيل إيجاد إمكانيات مطلوب خلقها في المستقبل وعن شعوره بالمسؤولية تجاه الحفاظ على هذه الإمكانيات»

كرر السيد عارف ما قلته وتوقف عن الكلام ومن ثم قال: «حسناً يا أستاذي فهمت كل شيء ولم يعد هناك أي نقطة لم أفهمها في هذا الموضوع».

- إذاً تخلصنا من الحديث باللغة الصينية أليس كذلك؟!.

- نعم تحولت تلك الجملة إلى اللغة التركية بعد الأمثلة التي تحدثنا عنها.

- هذا بدوره يُعتبر ملاحظة هامة أليس كذلك يا سيد عارف؟!.

- فعلاً أمر مثير، فالكلمات ذاتها ومع ذلك لم أفهمها في البداية ولكنني أفهمها الآن بشكل جيد، هل سنواصل حديثنا حول هذه الملاحظة؟.

- كلا، لأن هذا الموضوع يبعدنا عن البحث في موضوع المحارب ويضعنا في اتجاهات أخرى، يمكنك أن تدونها كملاحظة مثيرة في مكان ما، وإن شئت تستطيع أن تفكر فيها لاحقاً.

- وافق على ذلك بطريقة تعبِّر عن شعوره بالإحباط. كانت شراهة السيد عارف للعلم والمعرفة تجعله رفيقاً ممتازاً لمواصلة الحديث، فجأة تولَّدت لدي رغبة في الحديث عن علم نفس اللغة ولكنني أدرت لها ظهري لكي لا أفسد صفاء النية التي شكلت أساساً للقاءاتنا.

وصلت امرأة في الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمرها إلى طاولة قريبة من المكان الذي نجلس فيه، يرافقها رجل متوسط العمر وامرأة في الثلاثين من عمرها مع طفليهما، فتاة في الثانية عشر أو الثالثة عشر وصبي في الخامسة أو السادسة من عمره. يبدو على الرجل أنه لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام والتوتر والحزن والتعاسة بادية على وجهه، إنه رجل مسؤول عن حماية أسرته ولو لم يكن مضطراً لما أحضر أسرته إلى هنا، ولكنه اضطر لمرافقتهم انطلاقاً من شعوره أنه من حقهم الخروج من البيت والمجيء إلى هنا.

تحجَّبت كلتا السيدتين بحجاب تقليدي وأما الطفلة فقد كانت ترتدي ثياباً مدرسية خاصة بطلاب المرحلة المتوسطة وقد تجمَّع شعرها عند رقبتها، الفتاة والصبي يقيمان علاقات مريحة مع أمهما وأبيهما وجدَّتهما. أدرك الرجل وجود رجلين، أنا والسيد عارف، فراح يراقبنا بطرف عينيه دون أن يُشعِرنا بذلك.

على الطاولة الموجودة على يميننا ثمة فتاة وشاب في المرحلة الجامعية، يتحدثان بحيوية وحرية ولا يبدو أنهما تعرضا لأي ضغط أو قمع، لدى كل منهما مستوىً عالٍ من الاهتمام المتبادل فيما بينهما ولهذا السبب انصبَّ اهتمام كل منهما بالآخر أكثر من اهتمامهما بمن حولهما فمن الواضح أن لديهما الكثير من الكلام يريدان التحدث به.

الطريق النازل نحو الأسفل متعرِّجٌ ومحاطٌ بالقبور من جهتيه ويبدو للناظر من فوق أنه لا وجود هنا للقبور لأن الأشجار التي لم تُقلَّم أبداً تغطي كل شيء.

يمكننا، من المكان الذي نجلس فيه، رؤية الأفق الذي تتخلله مآذن الجوامع مما يضفي روحاً صوفية على هذه اللوحة، فقد كان يظهر من هنا جامع الفاتح وجامع السليمانية وبيازيد وآيا صوفيا وأما جامع السلطان أحمد فلم يكن يظهر شيء منه سوى مناراته، من هنا أيضاً يمكننا رؤية جامع أيوب والعديد من الجوامع التي لم أستطع معرفة أسمائها وكذلك يمكن رؤية قلعة غالاتا.

أردت الذهاب إلى المرحاض فدلني النادل إليه، وبينما كنت على وشك الدخول إلى المراحيض المخصصة للنساء نبَّهني الطفل الذي يعمل هناك بقوله: «يا آبي هل تعرفون إلى أين أنتم ذاهبون؟!» فقلت له: «شكراً لك لأنك نبَّهتني، فأنا فعلاً لا أعرف إلى أين ذاهب» فضحك الطفل كمن قام بعمل هام.

❖ تكامل الشخصية في الحياة اليومية:

عندما عدت أحببت التحدث عن انعكاس تكامل الشخصية على الحياة اليومية.

- يا سيد عارف، كيف تُعبِّر الشخصية المتكاملة عن نفسها في الحياة اليومية؟ هل يمكنك التفكير بذلك من خلال الأمثلة؟!.

- بعض زملاؤنا من المعلمين، على سبيل المثال، يقولون لطلابهم إن مطالعة الكتب أمر هام جداً وأن الإنسان الذي يقرأ الكتب يتطوَّر باستمرار، ولكن هؤلاء المعلمين لا يقرؤون أبداً، فإذا كانوا يؤمنون بأن قراءة الكتب أمر جيد فيجب عليهم أولاً أن يقرؤوا.

- المعلمون في مثالك هذا يفتقدون حتى للمستوى الأول من تكامل الشخصية.

- يا أستاذ دوغان أغلب الذين أعرفهم لا يولون أهمية تُذكر لتكامل الشخصية.

- الوضع في الوسط الذي أعيش فيه ليس مختلفاً كثيراً، إننا نرى انتهاكاً مستمراً لتكامل الشخصية في كل مكان فالكذب منتشر في كل الأوساط ولهذا السبب الثقة منخفضة بين الناس، إذ أن الكذب يقتل روح البشر، وقد جعلنا هذا السم جزءاً لا يتجزأ من حياتنا

- ومن المتضرر في وسط كهذا يا أستاذي؟.

- يا سيد عارف أول المتضررين هو نحن، وهذا يعني أن الإنسان غير متكامل الشخصية أول ما يسمم نفسه، والإنسان غير متكامل الشخصية يشبه الطير الذي ينزع جناحيه والنملة التي تنزع رجليها ولذلك فالإنسان فاقد الشخصية المتكاملة غير قابل للتطور وغير قابل للنمو.

- أستطيع رؤية ذلك يا سيد دوغان، فإذا كنت شخصاً متكامل الشخصية سيكون باستطاعتي التأثير بطلابي وتشجيعهم وسأستطيع

المساهمة في عملية تطويرهم، أما إذا كنت لا أمتلك شخصية متكاملة فإن كل الجهود التي أبذلها ستكون أشبه ما تكون بالدخان الذي يتطاير في الهواء، سيضيع تأثيرها ويتبدد بعد فترة قصيرة وكأنها شيء لم يكن.

- لهذا السبب أواصل لقاءاتي مع عارف أوكورر وأناقش معه موضوع المحارب. إذ أن وقوفك أمام طلابك كمعلم متشائم وغير واثق من المهنة التي اختارها ودماغه مشوش ومضطرب سيكون ظلماً بحقك من جهة وظلماً بحق طلابك من جهة أخرى، فإذا كنت تريد أن تصبح معلماً يجب أن تقف أمام طلابك كشخص متكامل الشخصية.

جاء إلى الطاولة الموجودة على يميننا شاب وثلاث فتيات، جلس الشاب على طرف الطاولة واصطفَّت الفتيات الثلاث على يساره، يضع الشاب محبساً في إصبعه اليمنى، وعندما رأى عارف محبساً في إصبع الفتات اليمنى التي تجلس إلى جانبه قال: «وأما الباقون فقد أتوا حرّاساً عليهما». كان الشاب يتبادل الحديث مع الجميع أي أن الحديث الدائر ليس محصوراً بين الخطيبين، يبدو أن الجميع راضين عن حياتهم.

❖ أهم علاقات الإنسان هي:

... علاقته مع نفسه

عدتُ إلى موضوعنا وبدأت الكلام:

- علاقتنا مع أنفسنا تشكل أساس علاقتنا مع الآخرين، وهذا هو السبب الأساسي لأهمية تكامل الشخصية، فالأنا المراقب يمتلك القدرة على القول: «هذا هو أنا» وهذه ميزة تشبه إلى حد بعيد مزايا الاستقامة والصراحة وحب العطاء، وتقديم المساعدة. فإذا استطاع شخص ما القول: «أنا مستقيم» ويكون فعلاً مستقيماً ومتكامل الشخصية فهذا يعني أن هذا الشخص يمارس الإخلاص في حياته، والشخص الذي يقيم علاقة نزيهة

مع ذاته فإنه يقيم علاقاته مع الأشخاص الآخرين ضمن وعي النزاهة ذاته، ولهذا السبب أريد الوقوف عند هذه النقطة من جديد: **إن أهم علاقات الإنسان هي علاقته مع نفسه.**

- هل يمكنك توضيح هذه النقطة أكثر؟.

- لنفترض أنك تحدثت بشكل مناقض للحقيقة التي تعرفها لكي لا تجرح شخصاً ما، ونحن نعرف أنك عندما تتحدث بشكل مناقض للحقيقة تكون قد انتهكت قانون الهوية الذي يقول (آ) هي (آ) أي أن **الإنسان الصادق هو إنسان صادق يقول الحقيقة التي يعرفها**. ولا مبرر للقول عنه أنه «في بعض الحالات ومع بعض الأشخاص لا يقول الحقيقة» أي أن الإنسان المستقيم لا يمكن أن يكون صادقاً وكاذباً في آن واحد، فعندما تكذب تجرح إدراكك المتعلق بذاتك، أي تجرح موضوع الإخلاص في قولك: «أنا إنسان صادق» ويصعب عليك بعد ذلك النظر إلى نفسك على أنك إنسان صادق وتُصاب شخصيتك المتكاملة بشرخ كبير، وتبدأ مرحلة الشك في معرفة هوية «من أنت» وعندما يصبح الأمر كذلك تبدأ قدرتك على التأثير بالآخرين بالانخفاض.

ثمة فرق واضح بين الشخص الذي يقول بأنه سيقول الحقيقة مهما كانت الظروف وبين الشخص الذي يقول بأنه سيقول الحقيقة إذا كانت الظروف مناسبة، فكل منهما يمتلك قدرة مختلفة عن تلك التي يملكها الآخر كما يمتلك كل منهما مستوى مختلف من الطاقة التي يمتلكها الآخر وهما أيضاً مختلفان من حيث الإرادة والثبات في الموقف والعزيمة وقدرة اهتمام كل منهما بالموضوع الذي ينجزه كما أن هناك اختلافاً في قدرة كل منهما على أن ينذر نفسه في سبيل تحقيق غاية ما.

«فإذا كان الشخص الذي يقول «أنا إنسان صادق» يتمتع بشخصية متكاملة ويدرك أنه كذلك فإنه يمارس الإستقامة في كل نواحي حياته، لأن

الشخص الذي يقيم **علاقة صادقة** مع ذاته سيقيم علاقاته مع الآخرين على أرضية صلبة من وعيه بأنه صادقٌ، ولهذا السبب أعيد وأكرر وأقول: **اهم علاقات الإنسان هي علاقته مع ذاته.**

- أجل، أستطيع الآن فهم هذا الموضوع بوضوح أكثر، أي أن النتائج المتعلقة بالذات والتي يصل إليها الإنسان تشكل أساس الانسجام الموجود في علاقته مع ذاته وتشكل أساس قانون الهوية الخاص به وأساس التعريف المتعلق بـ «من أنا؟»

«كنت أقف أمام مكتبة وشهدت حديثاً جرى بين شخص، عرفت فيما بعد أنه معلم، وبين رجل، اعتقدت أنه صاحب المكتبة. كان الحديث يدور حول موضوع القرصنة على الكتب. قال المعلم: «رواتبنا منخفضة لذا نتجه لشراء الكتب الرخيصة ولأن الكتب التي تم قرصنتها رخيصة فإننا نقوم بشرائها» فقال صاحب المكتبة: «يحزنني أن أسمع منكم هذا الكلام، فأنتم معلمون ويجب أن يكون سلوككم مثالاً يُحتذى فإذا كانت النقود التي بحوزتكم لا تكفي لشراء الكتب اشتركوا مع عدد من زملائكم وزيدوا عدد الكتب الموجودة في مكتبة مدرستكم أو راسلوا دور النشر. ولكن لا تساوموا على تكامل شخصيتكم ولا تُقدّموا أعذاراً كأن تقولوا لا يوجد لدينا نقودٌ لأنكم بذلك تشجعون على انتشار السرقة في البلد، والمجتمع السارق الذي سيتشكل نتيجة ذلك سيحرقكم أنتم أيضاً. ولكن المعلم لم يأخذ عبرة مما قاله الرجل وهذا ما آلمني.

- إن عبارة «المجتمع السارق سيحرقنا جميعنا» صحيحة جداً، فقانون الهوية الخاص بشخص ما مرتبط تماماً مع احترام هذا الشخص لجوهره ولذاته.

- سيد دوغان، ما هي الأمور التي يجب على الإنسان الانتباه إليها لكي يزيد من تكامل شخصيته؟.

- يجب أن يعي دائماً أهمية الوعود التي يقطعها، ويجب أن يكون وعيه قاطعاً، حاسماً ومتيقظاً فيما يتعلق بالوفاء بوعوده.

- إذاً يجب ألا يقطع إلا الوعود التي يستطيع الوفاء بها.

- أجل هذه هي الخطوة الأولى الهامة، يجب ألا يعطي إلا الوعود التي يستطيع الوفاء بها بيد أنه من الخطأ النظر إلى تكامل الشخصية على أنها مجرد حادثة ميكانيكية، فـ «نصر الدين هوجا» يسخر من مفهوم الوعد الميكانيكي الذي يقطعه المرء ومن الوفاء به، فقد سألوه ذات مرة عن عمره فقال: «أربع وأربعون عاماً» فقالوا له: «يا هوجا، سألوك قبل خمس سنوات عن عمرك فقلت لهم أربع وأربعون عاماً فكيف حدث هذا؟» فقال: «أنا رجل، والرجل يثبت على كلامه».

«فأنا هنا لا أتحدث عن الوفاء بوعد قُطع ميكانيكياً، بل أتحدث عن الوعود التي يمكن تنفيذها والوفاء بها. ولكي يستطيع الإنسان القيام بذلك يجب أن يتعلم قول كلمة «لا» لأن قول هذه الكلمة يحتاج جرأة وشجاعة، والشخص الذي ينظم حياته على أساس من الأسئلة مثل: هل سيؤاخذني الآخرون، هل سأجرح مشاعرهم، هل سيتشكل لديهم أفكاراً سلبية حولي؟ شخص كهذا لا يمكنه قول كلمة «لا» لأنه لم يكن قد اكتشف بعد ما هو الشيء الذي يجب أن يقول له «نعم» في حياته.

- إنني أجد هذه الجملة ذات معنى؛ لم يكتشف بعد الـ «نعم» في حياته، بالنسبة لي اكتشفت «نعم» حياتي في مهنة التدريس وبعد ذلك بدأت بفقدانها شيئاً فشيئاً وأنا الآن أعيش مرحلة اكتشاف هذه الـ «نعم» من جديد.

- سيد عارف، أنا أيضاً أراك على هذه الحال، فالإنسان الذي تعلم الوفاء بوعوده هو شخص يعطي أهمية لكل وعد يقطعه. فلا يوجد لديه وعد هام وآخر قليل الأهمية وكل وعد تقطعه ولا تفي به دون وجه حق سيكون، بنظر نفسك، قد فتح جرحاً عميقاً في هوية من أنت.

- في اللغة الشعبية ثمة مثل يقول: «يجب أن يكون للإنسان قيمة» وعندما يريدون شتم إنسان يصفونه بـ «عديم القيم» فهل لهذا الموضوع علاقة بتكامل الشخصية؟!.

- نعم، القيمة كلمة مرتبطة تماماً بتكامل الشخصية فالقيم التي يمتلكها الإنسان والضمير والكبرياء والشرف والاحترام كلها مرتبطة بتكامل الشخصية.

- سيد دوغان، أنت تقيم ندوات في أماكن العمل أيضاً. أعتقد أن تكامل الشخصية مصطلح هام أيضاً في أماكن العمل.

- تكامل الشخصية مصطلح هام في كل مكان يقيم فيه الناس علاقات فيما بينهم، لاتتولد الثقة بين الناس مالم توجد الشخصيات المتكاملة، ففي الجو المفعم بالثقة تسود مصطلحات الخلق والإبداع والعمل والتعاون وخلق المستقبل بحيوية، بينما في الجو الذي يفتقد للثقة فلا يكون لدى كل فرد فيه سوى هم واحد وهو الحفاظ على مصالحه الشخصية. «فإذا ما أجريت مقارنة بين شركتين تقدمان نفس الخدمات أو تنتجان نفس السلع فستجد أن الشركة التي خلقت جواً من الثقة هي الشركة التي تبقى واقفة على رجليها على المدى الطويل، فتكامل الشخصية تتحول إلى ميزة لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للرؤساء وللإداريين الموجودين في الشركة إذ يجب في شركة كهذه أن يكون الرؤساء والإداريون جميعهم ذوي شخصيات متكاملة.

«أريد الحفاظ على حديثي معك بحيث يبقى متمحوراً عل معلمي الصف بشكل خاص، وفي الحقيقة هذه المصطلحات عبارة عن مصطلحات يمكن تطبيقها كما هي على الناس في حياتهم العملية، وهذه المصطلحات سارية المفعول أيضاً بالنسبة للزعماء الذين يقودون الأحزاب السياسية. إنني أتحدث هنا عن مفهوم يهم كل إنسان.

- كيف صرنا مجتمع يفتقر للشخصية المتكاملة إلى هذا الحد؟!.

- إن عبارة «أصبحنا مجتمعاً يفتقر للشخصية المتكاملة» تعني أننا كنا نمتلك شخصية متكاملة ومن ثم فقدناها.

- نعم هذا ما قصدته.

- لا أعتقد أننا كنا في السابق مجتمعاً يعطي أهمية لتكامل الشخصية. هل قرأت كتاب «الوجه الخفي للتاريخ: دراما إعدام 44 وزيراً - أمراء قتلى وملوك مخلوعون» للكاتب جتين ألتان؟.

- كلا لم أقرأه.

- أوصيك بقراءته، سأقرأ عليك الآن بعض المقاطع التي وضعت تحتها خطاً، يقول الكاتب في الصفحة 58 ما يلي:

إذا سألتموني الرأي أقول إن الإمبراطورية العثمانية ليست نموذجٌ يُقتدى به، بل هي نموذجاً لأخذ العبر واستخلاص الدروس، لكن جمهوريتنا، ولسبب ما، تجنَّبت دوماً إبراز هذه الحقيقة.



استمرت فترة حكم حفيد سليمان القانوني السلطان محمد الثالث لمدة ثمان سنوات من عام 1595 إلى عام 1603.

استلم الحكم من بعده ابنه أحمد الأول.

لم يعدم السلطان أحمد الأول إلا رئيسي وزراء هما درويش باشا ونصوح باشا.

يُعتبر درويش باشا الصدر الأعظم الثالث عشر بين الوزراء الذين تم إعدامهم بشكل مكثف منذ عام 1453...

يُذكر أن درويش باشا من البوسنة..

عُيِّن في بداية الأمر قائداً لحرس القصر (بوستانجي باشى) أي بلغة أخرى كبير جلادي القصر.

وشيئاً فشيئاً نال إعجاب السلطان أحمد باشا فعيَّنه وزيراً له من جهة وقائداً للقوات البحرية من جهة أخرى.

في تلك الفترة كان « لا لا محمد باشا» يشغل منصب رئيس الوزراء (الصدر الأعظم)

كانت حرب النمسا، التي بدأها فجأة سينان باشا منذ عهد مراد الثالث، مستمرة في تلك الحقبة.

فكَّر أحمد الأول وبتأثير من درويش باشا بشن حرب ضد إيران.

عارض لالا محمد باشا هذه الحرب بقوله:

- أيها السلطان المعظَّم، ثلاث عشرة سنة مرَّت ولم نستطع إنهاء حرب النمسا فأرجو أ لاً نبدأ هذه الحرب ضد إيران.

فقال له أحمد الأول:

- لا أوافق على ذلك والحرب ستبدأ وإلا ستُقتل يا باشا.

تكدَّر الصدر الأعظم فأصيب بفالج مات على أثره بعد عدة أيام.

عيَّن السلطان أحمد، درويش باشا في منصب الصدر الأعظم ليحل بذلك محل لالا محمد باشا وذلك في أيار عام 1606.

تم الاستيلاء على أموال وممتلكات لالا محمد باشا ووُزعت على الجيش وسمح السلطان بتوزيع أمواله على أولاده الذين تيتموا، بيد أن درويش باشا استولى على أمواله وترك عائلته وأولاده عراة حفاة جياعاً.



بدأ إفلاس الخزينة يزداد شيئاً فشيئاً.

بدأ الصدر الأعظم درويش باشا بجمع الفضة والمجوهرات من أثرياء اليهود بعد أن وعدهم أن يعطيهم ثمنها فيما بعد.

وصل الوضع العام إلى حالة نقم فيها الجميع، يهوداً ومسلمين، على درويش باشا، وشيئاً فشيئاً تعاظمت وانتشرت الشائعات المناهضة له.

تقول إحدى هذه الشائعات أنه كان يحفر نفقاً من مكان إقامته في ديمير كابي إلى القصر، وأنه في ليلة ما سيعبر هذا النفق الموجود تحت الأرض ليشن هجوماً على القصر ويخلع السلطان أحمد الأول، وقد اتفق مع الجيش الانكشاري حول هذا الموضوع.

نقل أعداء درويش باشا هذه الشائعات إلى السلطان وحرضوه عليه لدرجة أن السلطان أحمد الثاني لم يجد أي داعٍ للبحث في صحة أو عدم صحة هذه الشائعات وأمر بقتل درويش باشا.

فدعاه إلى القصر.

ومـا أن دخـل درويـش باشـا صـالـة مدرِّسـي أبنـاء الـسلطان حتـى هجـم عليـه الخـدم الأغـرار وقتلـوه في كانون الأول سنة 1606.

لم يستمر في منصب الصدر الأعظم سوى سبعة أشهر تقريباً.

لا شـك أنـه نـال مـا نالـه بـسبب مـا فعلـه بالـصدر الأعظم لالا محمد باشا وبأبنائه اليتـامى الـذين تـركهم حفاة عراة وجياعاً...

- نـرى في الفـصل الـذي قرأتـه كيـف تم القـضاء علـى أرواح النـاس والاستيلاء على ممتلكاتهم بشكل كيفي اعتماداً على النميمة والغضب الآني وفي الكتـاب أمثلـة كثيرة مـشابهة لدرجـة لا يمكـن الـتفكير عنـدها بـأن هـذا النوع من المواقف الكيفية كان محـصوراً بعـدة سـلاطين أو عـدد محـدود مـن الإداريين رفيعي المستوى.

كم هو مؤلم التفكير بأن تكامل الشخصية، الـذي يُعـد دعامـة ثقافتنـا المجتمعية قد أضحت كلاماً دون تطبيـق فمـن النـادر العثـور علـى شخـصية متكاملة، قولاً وممارسة، علـى أرض الواقـع. ولهـذا الـسبب لا أرى أن الوضـع الذي نعيشه الآن يدعو للحيرة والدهشة، بل أعتقد أن الجيل الجديد يعطـي مفهوم تكامل الشخصية قيمة أكثر مـن تلـك الـتي كـان يعطيهـا إياهـا الجيـل القديم.

- يا أستاذي إنه يؤلمني خلو الماضي من القيم إلى هذه الدرجة.

- أنا أيضاً يؤلمني ذلك، ولكن عدم رؤية الحقيقة أكثر إيلاماً. في عالم التجارة، كانت تُطلق صـفة «ذكـي» أو «يقـظ» علـى كل مـن يـتقن فـن التبـادل التجاري وكان إطلاق صفة كهذه أمراً يدعو للفخـر والاعتزاز، كم شخـصاً في مجتمعنا يقبل بجملة «التجار أناس ثقـة وشـرفاء» علـى أنهـا جملـة تُعبِّـر عـن

حقيقة مجتمعنا؟! بالنسبة لي أراهم قلة، ولكن هذه القناعة بدأت تتغيَّر شيئاً فشيئاً مع السلوك والتصرفات الواعية والمنسجمة والمتماسكة للجيل الجديد من رجال الأعمال.

- هل يمكننا تصنيف كافة رجال أعمال الجيل الجديد ضمن مجموعة الشرفاء والواعين والمتماسكين؟.

- من غير الممكن إطلاق حكم كهذا دون أن أعرفهم جيداً. ولكن أغلب الذين عرفتهم، بسبب الندوات التي أقيمها، أناس يعطون قيمة وأهمية لتكامل الشخصية في حياتهم وضمن أسرهم وأماكن عملهم، فهؤلاء يدركون تماماً، كما يدرك أرباب العمل في الدول المتقدمة، أهمية قيم الثقافة المؤسساتية، وإنني أرى ذلك تطوراً سليماً من أجل المجتمعات المعاصرة.

- ما رأيك يا سيد دوغان أن أترك مهنة التعليم وأدخل عالم التجارة؟!.

أضحكنا اقتراح السيد عارف.

- يا سيد عارف إن كنت ترغب من أعماق فؤادك بالدخول إلى عالم التجارة والبدء بحياة جديدة هناك فإنني أقابل دخولك هذا بكل احترام.

لقد شُنَّ هجوم قاسٍ ولفترة طويلة على عالم العمل من قِبل النخبة في بلدنا، ولكنني أؤمن بأن رجل الأعمال الذي يمتلك شخصية المحارب سيتمكن من تقديم خدمات جمة لمجتمعه، وقد بدأت هذه الشريحة من رجال الأعمال بإظهار تأثيرها على المجتمع إلى درجة لا يمكن التقليل من أهميتها.

«ولقد تحدثنا سوية عن أن المعلمين طاقة كامنة جبارة للمساهمة في تطوير بلدنا، وعن ضرورة وجود معلمين واعين، معلمين محاربين ينذرون أنفسهم من أجل تربية أطفالنا تربية سليمة والعمل على تطويرهم وأنت مدرك لهذا الأمر.

تبادلنا فيما بيننا نظرات من يعرف أن ما نقوله كلانا هو شيء واحد. بعد فترة من الصمت قال السيد عارف:

- سيد دوغان هناك مثل يقول: «تفوح رائحة السمك من رأسه» فلقد قام المدير العام لإحدى الشركات التي يعمل فيها صديق لي بإعداد تقرير حرَّف من خلاله حقيقة المعطيات التي قُدمت له بغية رسم جدول لسنةٍ أكثر ربحاً وقدمه لصاحب الشركة الذي أبدى إعجابه بأدائه، ولكن مع مرور الوقت بدأت تظهر حقائق لا تتناسب مع المعطيات المقدمة في التقرير فراح المدير العام يُحمِّل العاملين معه مسؤولية فشله وأخطائه. وبعد ثمانية أشهر ترك خمسة من أفضل الموظفين الذين كانوا يعملون إلى جانب المدير العام في الشركة عملهم وراحوا يعملون في شركة منافسة، وهكذا نجد أن عدم تمتع المدير العام بشخصية متكاملة كلَّفت الشركة والعاملين فيها والمدير العام ذاته وصاحب الشركة ثمناً باهظاً.

- لمن يفهم ذلك.

- ماذا يا سيدي؟!.

- أقصد لمن يفهم، أي إن إدراك الضرر الناجم عن فقدان الشخصية المتكاملة للمدير العام أمر يحتاج مقداراً كبيراً من الوعي، ولأن معظم السلاطين العثمانيين كانوا يفتقدون هذا الوعي فقد انهارت تلك الإمبراطورية العظمى وتحولت إلى دمية في أيدي دول العالم حتى أطلقوا عليها لقب «الرجل المريض».

- برأيك، هل يمتلك الناس الوعي الكافي الذي يسمح لهم بإدراك الضرر الناجم عن فقدان تكامل الشخصية؟!.

- معظمهم لا يملكون هذا الوعي ويجب ألا ننسى الحقيقة التي تقول: «إذا كان الحوض موبوءاً فإن السمك الموجود فيه سيُصاب بالمرض عاجلاً أم آجلاً».

- نعم أذكر أنك استشهدت بهذا القول عندما كنا نناقش موضوع القيم.

- عندما تطرقت الكاتبة مينا أورغان في كتابها «مذكرات ديناصور» إلى موضوع علاقتها بالكحول تحدثت عن السبب الذي يجعلها حذرة دائماً فيما يتعلق بالكحول بقولها: «هكذا نشأت» تقول مينا أورغان:

«رأيت في أيام الشباب الحالة التي كان يصل إليها أذكى الأذكياء والمبدعون وأفضل الكتاب والشعراء والفنانون عندما يسكرون ولأنني أحببت هؤلاء وأعجبت بهم أيما إعجاب فقد كنت أنظر إليهم نظرات ملؤها الشفقة والرحمة بل كنت أراقبهم بقلب يعتصره الألم. وبذلك دخل الخوف إلى قلبي وصرت أقول لنفسي: «حذار من الوقوع في حالة كهذه».

- سيد دوغان، علام يدل هذا الكلام؟ أقصد ما هي العلاقة بين الفقرة التي قرأتها الآن للكاتبة مينا أورغان وبين الموضوع الذي نتحدث عنه؟!.

- لا تنسَ أن مينا أورغان قالت: «أذكى أذكياء تلك الأيام بالإضافة للمبدعين والشعراء والفنانين» وهؤلاء كما تعلم هم بؤبؤ عين الوطن وكانوا عندما يسكرون يصلون إلى حالة تستدعي الشفقة.

- ماذا يعني ذلك؟.

- أي لا يمكن أن تكون علاقة الإنسان، المتمتع بشخصية متكاملة، مع تناول الكحول علاقة سيئة إذ أن إنساناً كهذا يشرب قليلاً فينتشي ويصبح أكثر سعادة بل ويصبح محبوباً أكثر ولكنه لا يمكن أن يقع في حالة تُسيء له أمام الآخرين الموجودين معه.

- هل هناك علاقة بين السكر وبين الإنسان المحارب، وبالأحرى هل هناك علاقة بين السكر وبين تكامل الشخصية؟.

- طبعاً، وأي علاقة.

- أي علاقة؟!.

- ما هو الوعي الذي يحضره المرء إلى الوسط أثناء تناوله الكحول؟ وما هي المسؤولية التي يتحملها تجاه هذا الوعي؟ وما هي النتائج التي سيحصل عليها إن شرب هذا القدر من الكحول أو ذاك؟ وما هي مسؤوليته تجاه النتائج التي أوصل نفسه إليها؟ فالإنسان الذي يصل إلى مرحلة من السكر تسيء إليه لا يمتلك في شخصيته أي جانب يمكن أن ينسجم مع هذا النوع من الوعي وهذا النوع من المسؤولية.

- وكان لهؤلاء في عصر ما من عصور ثقافتنا موقع بؤبؤ العين في بلدنا.

- الأمر هكذا على ما يبدو.

- لا أرى أن مصطلح تكامل الشخصية بالنسبة لمعظمنا من المصطلحات التي عرفناها وفهمناها جيداً ومارسناها في حياتنا العملية وأقمنا معها علاقة صداقة متينة كما أننا لم نستطع تحويل هذا المصطلح إلى جزء لا يتجزأ من حياتنا، إنه من المصطلحات التي يجب الانتباه إليه جيداً وأن ندخله إلى وعينا بشكل جيد كمن يريد تعلم شيئاً جديداً.

- نعم ولهذا السبب أولي أهمية كبيرة لمصطلح المحارب وأستطيع بكل شعور بالارتياح الوصول إلى التعميم التالي: لن يتحول مجتمعنا إلى مجتمع حضاري ومتطور ما لم يأخذ مصطلح تكامل الشخصية مكانته كقيمة في حياة كل شخص يعيش في هذا البلد.

- حسناً، ولكن ما هو المقياس الذي سيبيِّن لنا أن مجتمعنا أصبح مجتمعاً حضارياً ومتطوراً؟!.

- نستطيع قياس ذلك بكل سهولة.

- كيف؟.

- من خلال القضاء على الرشوة في البلد وعدم تعيين أحد أو ترقيته لمجرد كونه من معارفنا وتطبيق القوانين والقواعد بما فيها قوانين السير كما هو مخطط لها، والأبسط من كل ذلك أن يقف الناس في الطابور في الأماكن المزدحمة من تلقاء أنفسهم دون أن يحمل أحد عليهم عصاً أو سوطاً ودون ممارسة أي تخويف أو ترهيب، وأما عندما يوجد من لا يريد الدخول في الطابور فيجب أن يقوم الآخرون بالتدخل لكي لا يجرؤ أحد على مخالفة قواعد المجتمع. «وباختصار، يتم القضاء على «الحياة النكرة» ونبدأ حياتنا كبشر حقيقيين فتُزال الأرصفة النكرة وتوضع مكانها أرصفة حقيقية وبدلاً من الآباء والأمهات «المزيفين» يكون هناك آباء وأمهات حقيقيون يمتلكون وعي الأبوة والأمومة، ويمضي عهد السياسيين «المزيفين» لننتخب بدلاً منهم قادة نذروا أنفسهم، بالفعل، في سبيل خدمة المجتمع، قادة يحترمون الوعد الذي قطعوه ويفون به، فعندما تتكامل الشخصية يتحقق كل ما قلناه بشكل طبيعي وتلقائي في حياة المجتمع.

- هل يُعتبر تكامل الشخصية علاجاً للداء الذي نعاني منه؟ أقصد هل تريد القول أن إضافة مصطلح تكامل الشخصية إلى حياتنا بشكل فعلي سيزيل كافة الحواجز التي تقف عائقاً أمام تطور مجتمعنا؟.

- كما تعلم تحدثت مطولاً عن موضوع القيم في أحد كتبي، إن تكامل الشخصية شرط ضروري ولكنه ليس شرطاً كافياً، فلكي يكون لتكامل الشخصية معنى يجب أن تتغلغل القيم الكونية في ثقافة مجتمعنا وتصبح صناعة المستقبل أمراً ممكناً من خلال إحياء هذه القيم والعمل على استمرارها.

ثمة رجل طويل القامة أشقر قليل الشعر يسير وإلى جانبه امرأة في الأربعين من عمرها بنية الشعر ترتدي ثياباً ملونة وإلى جانبهما تسير

طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها جدلت شعرها وأصبحت أشبه ما تكون بفتاة غجرية كانت هذه الطفلة تنط وتقفز في مكانها ثم تسلقت الجدار، لم يقل لها الكبار شيئاً، كان الوالد منشغلاً بالتقاط الصور بواسطة آلة تصوير فيديو. إلى جانبهم رجل مربوع القامة في الستين من عمره يتحدث معهما ومع الطفلة، كانت الأم بشكل خاص تتحدث مع الطفلة بشكل متواصل كما تتحدث صديقتان تربطهما ببعضهما البعض علاقات متينة بعد مضي فترة من الزمن سمعتهم يتحدثون باللغة الألمانية.

مرت سيدة شقراء شابة ذات عينين خضراوين طويلة القامة تضع حجاباً على رأسها وترتدي معطفاً طويلاً. كل شيء فيها يدل على أنها تولي في لباسها أهمية كبيرة للموضة، إذ أنها ترتدي ثياباً من أجمل ما أبدعه عالم الأزياء الذي يبدي حرصاً على البقاء ضمن الإطار الديني.

وصلنا إلى نهاية اللقاء فطلبنا من النادل كأسين من الشاي ورحنا نراقب مناظر الناس والخليج دون أن نتفوه بأية كلمة، قررنا أن يكون لقاؤنا السبت القادم في الساعة الثانية بعد الظهر، ولكن هذه المرة سيكون لقاءنا في منطقة أورطا كوي. دفع السيد عارف الحساب لأنني كنت قد دفعته في المرة السابقة ثم ركبنا سيارة أجرة سوية واتجهنا إلى منطقة قباطاش.

بعد مغادرتنا ساحة أيوب مرت السيارة في طريق انفجر فيه الصرف الصحي، وكان الطريق ضيقاً وتسيل فيه مياه قذرة فاحت الروائح منها وعبقت في كل مكان، كانت السيارات تعطي كل واحدة منها الدور بالعبور للأخرى بسبب ضيق الطريق، وإلى الأمام قليلاً كانت تقف شاحنة أمام دكان خضرجي تفرّغ ما تحمله من بطيخ، وفي الشاحنة شاب

يرمي البطيخ إلى صاحب المحل عندما تسمح السيارات بذلك وكلاهما يدرك أن ما يقومان به عمل خطير ومع ذلك ترتسم ابتسامة على شفتيهما، فكما يبدو أنهما تقبلا خطورة العمل الذي يقومان به وحرصا على ألا يفكرا بذلك، يقومان بعملهما بكل حيوية.

قلت في نفسي: إن هذا أكبر دليل على إمكانية أن يكون الإنسان سعيداً في كل بيئة يعيش فيها.

5
القـوّة

ترجلت من السيارة أمام شعبة أحد المصارف في منطقة أورطا كوي، وبينما كنت أهم بعبور الشارع وجدت السيد عارف منتصباً أمامي، تصافحنا ودخلنا سوية في زقاق جسر مجيدية. اصطفت على طول الشارع هنا المقاهي والمحلات التي تبيع التقليديات كالأقراط والقلادات والخواتم والأساور. معظم الذين يسيرون في الشارع في سن الشباب ذكوراً وإناثاً، أما الأزقة الفرعية فقد غصَّت بمشاغل الفضيات والخشب وبين هذه المحلات العديد من المقاهي التي وزعت بعضاً من كراسيها في الزقاق.

كان عدد المحلات يقل والزحام يخف كلما سرنا باتجاه جامع أورطا كوي. قلت للسيد عارف بأنه أطلق على محلات بيع الخواتم والأقراط والأساور اسم محلات «الأنتيكا» وأضفت قائلاً: «أراقب نفسي فلا أجد لدي أي اهتمام ولو بمقدار ذرة بأشياء الزينة المعروضة في هذه المحلات» فقال بأنه هو أيضاً لا يهتم بذلك، فتساءلنا ضاحكين فيما إذا كنا نعاني من عطب ما، فقال: «يا أستاذي إنَّ السيدات الشابات هنّ أكثر من يهتم بأمور كهذه». وفعلاً هذه هي الحقيقة إذ أن أغلب الذين يقفون أمام هذه المحلات هن السيدات وأما إذا وجد إلى جانبهن بعض الشباب فقد كانوا

يقفون أمام تلك المحلات كرمى لتلك السيدات وهم ينظرون إلى الواجهات بلا أي اهتمام. تابعنا طريقنا...

على اليمين ثمة فتاة تجلس خلف واجهة مكونة من طاولة وعدد من الكراسي وتضع وشماً على ساعدها، مررنا من أمام الجامع كانت أبوابه مفتوحة، وضِعت المقاعد داخل الحرم وخارجه، لا شك أنها وضِعت لكي يجلس عليها الكهول ويتفرجون على البحر.

إلى الأمام ثمة صنابير ماء غُرزت في جدار عليه لوحة نظيفة لامعة كتب عليه كلام بالأحرف العربية، وطبعاً لم أفهم كما لم يفهم السيد عارف ما هو مكتوب، شُدَّت بعض هذه الصنابير بقطع من القماش بينما ينسكب الماء من الصنابير الأخرى.

توزعت حدائق الشاي والمطاعم على قسم كبير من الساحة. تابعنا سيرنا، البحر عن يسارنا وحدائق الشاي عن يميننا، طوّقت أشجار الأكاسيا الضخمة بالعديد من المقاعد الخشبية، رُمي في المنطقة الترابية الفاصلة بين جذع الشجرة والمقاعد الخشبية أوراق صحف وكؤوس بلاستيكية وعلب ألمنيوم.

اتجهنا نحو طاولة فارغة في إحدى حدائق الشاي، دلّنا النادل إلى المكان فجلسنا على كرسيين موضوعين حول إحدى الطاولات وطلبنا كأسين من الشاي.

بعد عدة جمل متفرقة شكلت مدخلاً للحديث أعربتُ عن رغبتي بالدخول في صلب الموضوع فوراً، فعدَّل السيد عارف جلسته استعداداً للإصغاء، فسألته عن الفرق بين الإنسان الذي يقول: «أنا إنسان قوي ولدي القوة والقدرة» وبين الذي يقول: «أنا إنسان ضعيف ولا أمتلك القوة والقدرة»!؟. فقال:

- الأول يرى نفسه قوياً بينما يرى الآخر نفسه ضعيفاً.

ضحكت لأن ما قدَّمه السيد عارف كان جواباً بسيطاً ومباشراً، فتابعت طرح سؤالي بطريقة أخرى:

- ما هو الفرق بين الذي يرى نفسه قوياً وبين الذي يرى نفسه ضعيفاً؟ لا شك أنك تريدني طرح السؤال على هذا الشكل..

- الإنسان الذي يرى نفسه قوياً يعتقد أنه يمتلك القدرة التي تؤهله على القيام بأي شيء يريده وأما الذي يرى نفسه ضعيفاً فإنه يعتقد أنه لا يمتلك القدرة على فعل ما يريده.

بعد فترة من التفكير طرح السؤال التالي:

- يا سيد دوغان أعتقد أننا سنتحدث اليوم عن موضوع «القوة» لأننا نبحث الآن بشكل عام في موضوع القوة والضعف، ولكن ألا يتغيُر إحساس الإنسان بالقوة والضعف من موضوع إلى آخر ومن وضع إلى آخر؟!.

- إنها ملاحظة قيٌمة، سأسألك الآن هذا السؤال: تذكر معي يوم بدأنا لقاءاتنا وأحاديثنا، هل كنت، كمعلم، تشعر بالقوة وقتها أم أنك الآن صرت تشعر بهذه القوة؟.

- تسألني كمعلم أليس كذلك؟.

- أجل كمعلم، كم كنت وقتها تشعر بالقوة؟.

- لم أكن أشعر أنني قوي.

- والآن ما هو شعورك.

- أشعر أنني أكثر قوة.

- لماذا؟.

- في تلك الأيام لم أكن أشعر بالقوة لأن اختياري لمهنة التعليم جعلني أتساءل فيما إذا كان اختياري خاطئاً أم لا .

- من الأصح أن تقولوا: «دُفعت إلى هذا النوع من الأسئلة.

- هذا صحيح، بدأت بعد ذلك أشعر بالحماقة بسبب اختياري هذه المهنة.

- لأن بعض زملائك المعلمين الذين حولك وقسم من المعلمين الأكثر خبرة منك لم يكونوا يفكروا بطريقتك ويصفون طريقة تفكيرك بالتفكير الخاطئ.

- ولهذا بدأت أنظر إلى نفسي على أنني إنسان ينقصه العقل.

- حسناً، ولماذا تشعر الآن بالقوة؟.

- لأنني بدأت أقيِّم مهنة التعليم وأقيِّم طلابي ضمن إطار أسئلة مفادها: من أنا؟ وما معنى حياتي؟ وما الذي أرغب بتحقيقه في حياتي؟ فلقد شكلت النقاشات التي دارت بيننا إطاراً للتقييمات التي أجريها، ورأيت أنني اخترت المهنة الصحيحة بالنسبة لي ولا يمكنني أن أكون سعيداً إلا بها، فأنا الآن لا أقيِّم مهنتي حسبما يراها الآخرون بل حسبما أفكر أنا.

أحضر النادل الشاي ووضع قائمة الحساب تحت المنفضة وذهب إلى طاولة أخرى، أخذت رشفة من كأسي وكذلك السيد عارف ثم تابعنا حديثنا:

- حسناً يا سيد عارف والآن لدي سؤال آخر: تحدثنا حتى الآن حول فيما إذا كنت «كمعلم» تشعر بأنك قويٌ أم لا، والآن أطرح عليك ذات الأسئلة ولكن ليس كمعلم بل كإنسان، أي سأسألك ذات الأسئلة بشكل عام، تذكَّر الآن يوم بدأنا أول حديث لنا، استدعِ تلك الأيام إلى ذاكرتك هل كنت وقتها «كإنسان» تشعر بالقوة أم أنك تشعر الآن بهذه القوة؟.

- الآن طبعاً.

- إذن شعور القوة هذا ليس خاصاً بمهنتك كمعلم بل تشعر بها كفرد، كإنسان أيضاً.

- أجل.

- حسناً وكيف تفسر ذلك؟.

- كنت في السابق أسمح للقوى الخارجية وللناس الآخرين باتخاذ القرارات الخاصة بحياتي وكنت أفكر قائلاً: «هؤلاء معلمون أكثر خبرة وتجربة مني ويعرفون ما يقولون وأما أنا فلا أمتلك التجارب التي يمتلكونها، إنني إنسان ساذج وبسيط ولن أعرف أكثر مما يعرفون» ولكن مع بدء نقاشاتي معك تغيَّرتُ شيئاً فشيئاً وبتُ أنظر إلى القرارات التي اتَّخذتها على أنها قرارات صحيحة فعادت إليَّ ثقتي بنفسي ولهذا السبب صرت أشعر أنني أكثر قوة.

- سأعود الآن إلى السؤال الذي طرحته عليك في البداية: «ما هو الفرق بين الإنسان الذي يقول: أنا إنسان قوي وأمتلك القوة والقدرة وبين إنسان يقول: أنا إنسان ضعيف وتنقصني القوة والقدرة؟!».

ابتسم السيد عارف وقال: «السؤال ذاته ولكن إدراكي له قد تغيَّر» وأضاف قائلاً:

- أعتقد بأنه يوجد مقياس لمعرفة فيما إذا كان الإنسان يدير حياته بنفسه أم لا فمن يقول: «أنا إنسان قوي» هو إنسان يمسك مقود حياته بيديه ويعيش ضمن شعور مفاده «أفكر، أريد، أعمل» أما الذي يقول: «أنا ضعيف ولا أملك القوة» فهو شخص أعطى مقود حياته للآخرين ويعيش ضمن شعور مفاده «أفكر إن سمحوا لي، أريد إن سمحوا لي، أعمل إن سمحوا لي».

- منذ قليل قلت لي: «يا سيد دوغان إننا نبحث في موضوع القوة والضعف، وإن شعور الإنسان بالقوة أو بالضعف يتغيَّر من موضوع إلى موضوع ومن وضع إلى وضع، أليس كذلك؟!».

- نعم أذكر أنني قلت ذلك.

- هل وجدت الآن جواباً على سؤالك؟.

- نعم وجدت، ولا زلت أرى سؤالي صحيحاً ومشروعاً، فشعور الإنسان بالقوة أو بالضعف يتغيُر من موضوع إلى آخر ومن وضع إلى آخر، وعندما يشعر الإنسان أن مقود حياته بيديه فإنه سيشعر بالقوة أكثر في أي موضوع وفي أي وضع كان.

- هل تستطيع تقديم مثال على ذلك؟.

- أمي، على سبيل المثال، تجد راحتها في المطبخ وهذا ما يجعلها تشعر فيه بالقوة، فهي على ثقة تامة بأنها تستطيع طهي ما تريد من طعام، ولكن عندما يُطرح حديث يتعلق بعمل أبي فإنها لا تتدخل ولا تدلي برأيها فيه. كذلك عندما نذهب إلى بيت جدي لا تشعر أمي بالقوة في مطبخ جدي لأنه ينبهها دائما إلى ما يجب عليها القيام به.

- حقيقة هذه الأمثلة واضحة وصريحة وتفسر ما تحدثنا به، ولكن ألا يوجد أناس يثقون بأنفسهم ويشعرون بالقوة بشكل عام؟ فوالدتك على سبيل المثال لا تتدخل في المواضيع التي تخص عمل والدك ولا تدلي برأيها فيها وتقف بعيداً عن هكذا مواضيع لأنها ربما ليس لديها معلومات أو خبرة في هذه المواضيع وربما لأنها لا تهتم بها، ولكنني أستطيع الآن أن أتخيل وجود نوعين من النساء، الأول من النوع الذي يقول: «أفعل إذا اضطررت لذلك وإذا كان ثمة عمل لا بد من إنجازه» والآخر من النوع الذي يقول: «لا يمكنني فعل أي شيء لأنني لا أمتلك المقدرة على إنجاز أي عمل، ليبعد الله عني أموراً كهذه». هل يمكننا إذن التفكير بوجود أناس يشعرون بالقوة بشكل عام وأناس يشعرون بالضعف بشكل عام؟

- طبعاً يمكننا التفكير بذلك، يوجد الكثير من البشر من هذا النوع ولكن هذا لا يدل على خطأ الملاحظة التي تقول يتغيَّر شعور الإنسان بالقوة حسب الموضوع والوضع.

- كلا لا يدل، وأنا أفكر مثلك تماماً فهناك بعض الناس اختاروا

الجلوس على المدرجات والتفرج على حياتهم وهؤلاء يتابعون حياتهم ويتفرجون عليها من بعيد ولسان حالهم يقول: أبي اختار لي هذه المهنة، أمي نصحتني بأن أتزوج من هذه الفتاة، جاري قال بأن هذه السيارة تناسبني أكثر، اقترحوا علينا أن نُدلي بأصواتنا لهذا الحزب. فلقد تم التخطيط لحياة هؤلاء من الخارج وما عليهم إلا أن يلعبوا الدور المخصص لهم وإنجاز ما يُطلب منهم، إنني أطلق على حياة كهذه اسم «حياة من الدرجة الثانية».

- أليست هي التي أطلقنا عليها من قبل مصطلح «حياة نكرة»؟!.

- نعم هي بعينها، يصعب على الذين يجلسون على المدرجات ويتفرجون على حياتهم أن يشعروا بالقوة.

- لأن شخصاً آخر يجلس خلف مقود حياتهم.

- نعم هناك شخص آخر يجلس خلف مقود حياتهم. ولكن إذا تخلينا عن كوننا متفرجين على المدرجات ونزلنا إلى الملعب لنشارك كلاعبين وإذا ما بدأنا باتخاذ القرارات المتعلقة بالأعمال التي ننجزها في حياتنا.

أكمل السيد عارف العبارة التي قلتها...

- أي إذا جلسنا خلف المقود.

- أجل. إذا جلسنا خلف المقود ستصبح هذه الحياة خاصة بنا وسنشعر وقتئذٍ بالقوة. طبعاً يوجد العديد من الأشخاص يعتقدون أنهم يجلسون خلف المقود ولكنهم إذا دققوا النظر فسيجدون أن شخصاً آخر يجلس خلف مقود حياتهم ويوجههم.

- لم أفهم، كيف يحدث أمر كهذا؟!.

- الدعايات والإعلانات وغسيل الدماغ وتقنيات التأثير تُستخدم جميعها من أجل هذا الغرض.

- ألا يقع التنويم المغناطيسي ضمن هذه المجموعة؟.

- أجل. مثالك رائع. لقد نسيت، تتذكر أننا تحدثنا سابقاً حول موضوع التنويم المغناطيسي والغيبوبة؟.

- تحدثنا يومها عن التنويم المغناطيسي الذي تخلقه الثقافة أيضاً.

- جيد أنك تذكر هذا الموضوع، فمن المفيد جداً أن نتحدث قليلاً حول موضوع الثقافة، فكما يعيش السمك في المحيط نعيش نحن في محيط ثقافتنا، وهنا في محيط الثقافة ثمة العديد من الرسائل الفلسفية والمعتقدات والفرضيات تُعطى وتُعلَّم لنا في زمن محدد دون أن ندرك ذلك، فلا المعلم يدرك ذلك ولا المتعلم، ولأن الأمر كذلك يصعب إدراك وجود هذه المعتقدات والفرضيات والرسائل الفلسفية التي تتسرب إلينا من الثقافة، إنها عبارة عن معلومات من نوع «اللاشعور الثقافي أو الثقافة اللاشعورية».

«فمسألة الشرف الموجودة لدينا، وشكل العلاقة التي يجب أن تكون بين الزوجين، أيُ العلاقات سيئة وأيها جيدة، وعلاقة الطفل بوالديه والعديد من المواضيع الأخرى جميعها معلومات سُرِّبت إلينا وعُلِّمناها من قبل الثقافة ونمارسها دون إدراك منا، أما المحارب فإنه، من خلال وعيه المراقِب الذي طوره، إنسان يستطيع مراقبة المعلومات والمعتقدات والقيم الآتيةَ إليه من الثقافة».

«طبعاً لا ينتهي الأمر عند هذه النقطة، فبعد أن يراقب المحارب مصدر هذه المعتقدات والقيم والمعلومات يواجه خياراً بين أن يقبل هذه المعلومات كما هي أو يطور معتقدات وقيماً ومعلومات خاصة به».

«يبدأ المحارب بتشكيل نسيج حياته ضمن وعيه بوجود رقصة الحياة بين التبعية وتحقيق الذات، وأما الإنسان العادي الجامد، المزيف، النكرة فإنه يقبل المعتقدات والقيم والمعلومات التي يقدمها الآخرون على الفور لأنه لا يمتلك معتقدات وقيم ومعلومات خاصة به تؤهله لأن يقول: «هذا هو أنا».

«فالإنسان بأمسّ الحاجة إلى وجود هذه المعتقدات والمعلومات لكي يكون موجوداً. أي أن الذين يقودون حياته ويوجهونها هم الآخرون وبعبارة أكثر عمومية إن من يوجه حياته ويديرها هو المجتمع بكل ما فيه من معتقدات وقيم، والفرد هنا لا يضيف أي شيء نابع من ذاته أي كما يقول المثل: «مات في السادسة عشر من عمره ودُفن في الستين» إنها حياة تُعاش ضمن مفهوم التبعية الكاملة، والذين يعيشونها ينتظرون دائماً من الآخرين إعطاء معنى لحياتهم، فلا يوجد بالنسبة لهؤلاء أي حقيقة أو أي واقع سوى ما يدركه الآخرون وما يقوله هؤلاء هو الذي يحدد الحقيقة.

«لأن المحارب طوّر وعيه المراقب فإنه يستطيع أن يدرك الحقيقة التي يراها ويؤمن بها الناس الآخرون، كما يستطيع، فيما وراء ذلك، أن يدرك أيضاً بعينيه الحقيقة التي تقع وراء ذلك. إنه موجود في مكان أبعد مما تقدمه الثقافة له. فالمحارب إنسان يستطيع أن يقول «أنا موجود» بشكل واعٍ. من هنا يستمد قوته».

- ألا يحتاج الإنسان العادي، الجامد إلى الشعور بالقوة؟!.

- طبعاً يحتاج، إنه يفعل كل ما يفعله بغية الحصول على تقدير الآخرين ورضاهم، ويشعر بالقوة طالما يسمع من الآخرين كلمة «مرحى لك»، ولكنه في مكان ما من حياته يشعر بالخوف حتى وهو يسمع كلمة مرحى، فهو يخاف من «ماذا لو توقف الآخرون عن قول كلمة مرحى» ولهذا فهو كلما أنجز عملاً ما يولي الأهمية الكبيرة للنتائج: «انظر لقد نلت مرتبة جيد جداً»، «انظر لقد سجلّت هدفين في المباراة»، «انظر لقد افتتحت دكاناً لولدي».

«لا يولي إنسان كهذا أهمية للعمل، فالعمل بالنسبة له عبارة عن أمر يراقبه ويعرفه فقط»

«ولهذا السبب فإن شخصاً كهذا لا يفكر ولا يقول: «نلت مرتبة جيد

جداً، لكن الأهم في هذا الموضوع أنني تعلمت معلومات جديدة بكل متعة وسرور ولقد فتح هذا الدرس أمامي آفاقاً واسعة».

«لم أسجل أي هدف في المباراة، بيد أن هذه المباراة جعلتنا نعيش ساعتين من المتعة مع الأصدقاء فلقد أمضينا وقتاً جميلاً».

«افتتحت لولدي دكاناً ولكنه أفلس بعد ثلاثة أشهر، ولكن خلال هذه الأشهر الثلاثة استخلص ولدي دروساً وتعلم أشياءً ما كان له أن يتعلمها في مكان آخر، فقد نضج وتعلم أصول التجارة وأهمية العلاقات مع الآخرين».

- إنه مثال يشبه شعوري بالحماقة جراء القرار الذي اتَّخذته في موضوع مهنة التعليم، فلقد صرت أعيش كأي إنسان عادي وجامد، لأنني بدأت أنظر إلى مهنة التعليم بعيون الآخرين، وصرت أنظر إلى مهنة التعليم انطلاقاً من النتائج التي لها المعنى الذي يراه الآخرون. ما هو الراتب الذي سأتقاضاه، هل سأكون محترماً بالنسبة للآخرين، هل سيرضى أبي وأمي عن هذه المهنة إلخ... ولكنني استبعدت من حساباتي كل ما يمكن أن تقدمه لي عملية التعليم وصرت أنظر إلى البريق والإشراقة التي أراها في عيون الأطفال وإلى ملامح وجوههم عندما يفهمون مسألة ما وتركيزهم على موضوع ما لأنه يجذب انتباههم وإلى الجهود التي يبذلونها، بدأت أنظر إلى كل هذه الأمور على أنها أشياء لا معنى لها.

«وأما الآن فإنني أنظر إلى هذه الأمور على أنها تعطي معنىً كبيراً لحياتي».

- قدمت مثالاً رائعاً.

- إذن يا أستاذي هل يمكننا القول: يشعر الإنسان بالقوة إذا أدرك وجود قوة لديه تسمح له بفعل ما يريد لأنه يرغب بفعله، بعد أن يستوعب المعنى المتعلق بماذا ولماذا يريد أن يفعل ضمن إطار وعيه لنواياه؟!.

- نعم نستطيع:

«النية موجودة.

«المعنى موجود.

«الرغبة بالعمل موجودة.

«إذن القوة التي تسمح بالعمل موجودة...

«إنسان كهذا يشعر بالقوة. ولكنني أريد هنا لفت انتباهك إلى نقطة هامة.

- ما هي هذه النقطة يا أستاذي؟.

❖ عندما يصبح الخوف مصدراً للقوة:

أخذت رشفة من كأس الشاي، بدأ حديثنا يدخل مرحلة جديدة، ولقد شعر السيد عارف بذلك.

لفت انتباهي وجود صنبور ماء نُقش فوقه رمز عثماني، أدركت قذارة المكان الذي يوجد فيه الصنبور، ومن جديد لا يوجد إلى جانب هذا الرمز المكتوب بالأحرف والأرقام العربية أي ترجمة أو تفسير له باللغة التركية، فخطر على ذهني السؤال التالي: هل تم بسلوك واعٍ منع الأتراك الذين لا يعرفون الأحرف العربية من فهم ما هو مكتوب على هذا الصنبور؟!. الغريب في الأمر أن الذي أنشأ هذا السبيل فكّر بالطيور حيث وضع لها وعاءً من أصل البناء لكي تأتي إليه وتشرب، غير أن الذي أتى فيما بعد ورممه لم يفكر بالذين سيأتون إلى هنا وينظرون إلى هذا الصنبور ويفهمون ما هو مكتوب عليه.

وبما أن موضوع حديثنا اليوم عن «القوة» فقد فكرت بإحساس المواطن العادي الذي يأتي إلى هنا ويريد معرفة من أنشأ هذا السبيل ومتى أنشأه، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل خطط أناس معينون من أجل سلب مواطننا الإحساس بالأهمية والقوة؟ أم أن إنساننا هو بذاته من خلق هذا

الوضع لكي يتهرب من مسؤولية كونه إنساناً؟ أطلعت السيد عارف على ما كنت أفكر به فاعتقد أنني أقدم جواباً على سؤاله ثم استوعب أننا أخذنا استراحة ذهنية وسألني قائلاً: هل سنتحدث عن مفهوم المسؤولية؟ «فقلت: إن شئت يمكننا تناول هذا الموضوع في لقائنا القادم» فهز رأسه موافقاً.

لفت انتباهي مرسى السفن الذي تنطلق منه الرحلات البحرية في المضيق، لا يوجد الآن كما يبدو أحد يريد القيام بجولة في المضيق فالمرسى فارغ تماماً وأغلب الذين يتجولون في الساحة من الشباب، إناثاً وذكوراً وفي بعض الأماكن توجد عائلات مع أولادهم، معظم الأهالي يمسكون بأيدي أطفالهم، ولكن السعادة تبدو على وجوه الأطفال الذين تركهم أهلهم أحراراً دون أن يمسكوا بهم، يركضون ويلعبون في كل مكان.

أخذت رشفة أخرى من فنجان الشاي ثم تابعت البحث في الموضوع الذي بدأت به فقلت:

- نعم، أريد لفت انتباهك إلى موضوع هام، عندما يريد الإنسان الجامد الشعور بالقوة فإنه ينطلق من تعلم ما يجعله قوياً في عيون الآخرين ويطبِّق ما تعلمه.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- هل سمعت بمن يُطلق عليهم اسم «رجَّال» الذي يضرب زوجته في الأسابيع الأولى من زواجهما؟!.

- نعم سمعت، بل أعرف رجالاً متعلِّمين يفكرون بطريقة مفادها: «لا تعط وجهاً لزوجتك، فإن أعطيتها وجهاً طالبتك ببطانة».

- حسناً، كيف يتعامل معظم المعلمين مع طلابهم في المدرسة التي تعلِّم فيها، بوجه عبوس أم بوجه بشوش؟.

- معظمهم يتعاملون بوجه عبوس، لأنهم يخشون إن تعاملوا معهم بوجه بشوش أن يفسدوا قواعد الانضباط ويُثيروا الشغب في الصف.

- حسناً، وهل يتعامل الإداريون في المدرسة بوجه عبوس أم بوجه بشوش؟!.

- يتعامل معظمهم بوجه عبوس، بل وأستطيع القول أن الأكثر عبوساً هو الأرفع مستوى فهناك تناسب طردي بين رفعة الموقع وبين الوجه العبوس.

- جيد، ولكن ما السبب الذي يجعل معظم الإداريين عبوسي الوجه، هل لديك فكرة حول هذا الموضوع؟!.

- طبعاً، ذلك لأنهم يعتقدون بأنهم إذا لم يعبسوا فلن يستطيعوا الحفاظ على انضباط مرؤوسيهم من المعلمين.

- هل سمعت بالمثل القائل: «الأب العاقل هو الأب الذي يقبّل ولده أثناء نومه»؟.

- نعم سمعت به، أعتقد أن ثمة خوف ما وراء هذه الأمثلة التي تقدمها.

- هذا صحيح، يوجد خلف كافة الأمثلة التي قدمتها خوف هو مصدر القوة التي يحاول المرء خلقها، إذ تنبع قوة الشخص من خوف الناس منه.

- يا له من وضع مثير للدهشة، صاحب السلطة خائف والواقع تحت سلطته خائف أيضاً.

- صاحب السلطة يخشى أن يكون ضعيفاً في عيون الناس الذين يمارس سلطته عليهم. هل هذا ما تقصده؟.

- نعم هذا ما أقصده، ثمة وضع نعيشه جميعنا؛ كل إنسان يخاف من الآخر.

- هذا صحيح، العديد من الثقافات في العالم ترى الخوف مصدراً طبيعياً للقوة، حيث يعتبر هذا الخوف بالنسبة لأعضاء هذه الثقافات جزءاً طبيعياً من الحياة لدرجة أنهم يمدحون هذا الخوف ويقدّرونه.

- «من لا يضرب ابنته يندم» هل هذا القول هو أحد تجليات هذه الظاهرة؟.

- هناك مثل آخر يقول: «تنبت الورود في المكان الذي يستخدم المعلم الضرب فيه».

- «الضرب من الجنة».

- أشد أنواع الخوف هو الخوف من الله، عندما كنت في كاليفورنيا كنت أذهب في أوقات الظهر إلى محل قريب من الجامعة التي أعمل فيها مقسَّم إلى قسمين: مطعم وبقالية يديره شخص أردني. أتناول في هذا المحل الشاورما وأشتري جبنة وزيتون وغيرها مما أحتاجه من أشياء، كان صاحب هذا المحل رجل أردني بشوش الوجه كان قد علق لوحة على الجدار مكتوب عليها عبارات باللغة العربية، فسألته عما هو مكتوب في اللوحة فقال: «إنها عبارة باللغة العربية» ولما سألته عن معناها، قرأها بالعربية ثم ترجمها إلى الإنكليزية: «رأس الحكمة مخافة الله».

أذكر يومها أنني فكرت كثيراً بهذه الجملة، وكنت قد سمعت في الوسط، الذي نشأت وتربيت فيه، عبارات كثيرة كان يرددها الناس منها: «يجب أن يخاف الإنسان من الله، والذي لا يخاف من الله يفعل كل السيئات» ولم أسمع في الوسط الذي تربيت فيه أي عبارات تتحدث عن محبة الله، ولم يكن القصد من محبة الله سوى أن الله أحب رسوله وبسبب هذه المحبة خلق الكون.

لقد أخذ الخوف، الذي يعد امتداداً لثقافة تلك البيئة، شكل لوحة عُلقت أمامي كنصب تذكاري، فمحبة الله لا توصل إلى المعرفة بل الذي يوصل إلى المعرفة والحكمة هو مخافة الله. أذكر أنني يومها بعثت رسالة إلى أحد إخوتي الأكبر سناً مني وسألته فيها: «لماذا الخوف من الله وليس محبة الله؟!» فقال لي أخي، الذي كان قد تقاعد من التدريس حيث كان معلماً في

مدرسة ابتدائية وتفرغ تماماً للدين: «ألست مسلماً؟! ألا تقرأ القرآن؟! فالقرآن يبحث في موضوع الخوف من الله ثمان وعشرين مرَّة بينما لا يبحث موضوع المحبة إلا مرَّتين».

لا أعرف من الذي أجرى بحثاً حول هذا الموضوع وقام بعملية الإحصاء والعد هذه في القرآن، وربما يكون أخي قد سمع بهذه المعلومة من خلال الأحاديث المتداولة.

ولن يكون موقفي سليماً وعلمياً وصادقاً إن اعتمدت على المعلومة التي قالها أخي وقلت: «القرآن يؤكد على الخوف» بيد أن هذه الرسالة وصلت إلي لتفتح عيني إلى هذه النقطة الهامة. حقيقة، إن العلاقة التقليدية بين البشر قائمة على أرضية من الخوف، أي عندما يلتقي شخصان عاديان، أتحدث هنا عن الذكور بشكل خاص، ما أن ينظرا إلى بعضهما حتى يتساءلان: «**من الذي سيخاف من الآخر أنا أم أنت؟!**» كما أن حادثة من سيدوس على رجل من أثناء عقد القران تعتبر من الحوادث الهامة لأنها ستحدد من سيخاف ومن سيخيف في هذا الزواج. فالانضباط موجوداً في الأوساط التي حُدِّد فيها من سيخاف ومن سيخيف، هذا هو مفهومنا عن الانضباط، فالأب أو الأم أو الجد وحتى الجدة أو أي شخص بيده السلطة يجب أن يكون وجهه عبوساً لكي يحافظ على الانضباط في البيت وعكس ذلك لن يخاف الآخرون. ولكي يتحقق الانضباط في الصف يجب أن يكون وجه المعلم عبوساً وعكس ذلك لن يتحقق الانضباط في الصف، كذلك يجب أن يكون وجه الإداريين عبوساً أمام المعلمين وعكس ذلك سيتأخر المعلمون عن دوامهم وسيخلقون أعذاراً من هنا وهناك لكي يعرقلوا حسن سير العمل. وفي أماكن العمل يجب أن تكون وجوه الإداريين عبوسة وإلا سيبدأ المرؤوسون بعرقلة سير العمل.

وكذلك طبعاً، يجب أن يكون وجه الدولة، التي خلقها مجتمع يمتلك ثقافة كهذه، عبوساً أمام مواطنيها وعكس ذلك سيصبح المواطن مشاكساً

ويبدأ بالاعتراض فيقول: «لن أدفع الضرائب» و«لا أريد تأدية الخدمة الإلزامية» وبذلك يتم القضاء على الانضباط.

- حسناً، هل نمتلك قوة أخرى من شأنها حماية الانضباط، قوة غير التخويف؟ أفكر ولكنني لا أتذكر.

❖ المصدر الحقيقي للانضباط:

- والآن سأطرح عليك السؤال التالي: هل يتوفر عنصر الانضباط في العلاقة القائمة بيني وبينك؟!.

- لا، لا يتوفر.

- هل أنت واثق من ذلك؟.

- بالتأكيد.

- إذاً، هل من الممكن ألا تأتي في الوقت المحدد إلى هذا اللقاء الذي يجمعنا، وعندما يخطر على ذهنك أي شيء تقطع الحديث وتقول: «كفى، سنكتفي اليوم بهذا القدر؟!».

- لا، لا أستطيع.

- إذاً الانضباط موجود في علاقتنا.

- ولكنه انضباط لا ينبع من الخوف بل نابع من الاحترام المتبادل فيما بيننا.

- حسناً، عدم وجود الخوف فيما بيننا هل يدل على ضعف أو على سطحية الانضباط الموجود في علاقتنا؟!.

- كلا. قلت منذ قليل أن الانضباط الموجود في علاقتنا مصدره الاحترام المتبادل فيما بيننا، وفي الحقيقة هذا الكلام ليس صحيحاً بالكامل، إذ أن المعلومات التي سأحصل عليها خلال لقائي معك لا تقل أهمية عن الاحترام المتبادل فيما بيننا، وكذلك وجهات النظر التي سأطلع

عليها لا تقل أهمية عن المعلومات. ولأنني لا أريد أن أفوّت كل هذه الفرص أحضر إلى هنا في الوقت المحدد.

- سأروي لك حادثة شاهدتها يوم أمس في بشيكتاش وبعدها سنجري نقاشاً حولها.

- كلّي آذان صاغية.

- جئت من منطقة أوسكودار بواسطة الفلوكا، وبعد خروجي من الميناء سرت على قدميَّ حتى وصلت إلى الشارع الذي توجد فيه إشارة المرور. كان ظهري نحو البحر ووجهي باتجاه شارع بربروس.

احتشد الناس عند إشارة المرور حتى أضاءت الخضراء فسار المشاة المحتشدين على طرفي الشارع كلٌ بالاتجاه الذي أمامه. لفتت انتباهي سيدة قادمة نحوي، ترتدي الزي الذي ترتديه النساء اللاتي يقطنَّ في البلدات، ترتدي معطفاً طويلاً وتضع حجاباً على رأسها، وتمسك بيدها طفلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها.

عندما وصلتا إلى محاذاتي خاطبت الأم طفلتها قائلة: «ماذا فعلتِ، هل أوقعتِ ما كان بيدكِ؟!». فنظرت الطفلة إلى أمها بعين ملؤها الدهشة والخوف.

استدارت المرأة دون أن تتفوه بأية كلمة وواصلت سيرها بكل بطء في الاتجاه الذي جاءت منه وهي تنظر في الأرض مواصلة إحكام قبضتها على يد الطفلة. فمشيت وأنا أنظر إلى الأرض متسائلاً: «ما الذي سقط من يد هذه الطفلة الصغيرة؟!».

في هذه الأثناء مرَّ من جانبنا شاب في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره يمشي مترنحاً، وما أن تجاوزنا حتى انحنى على الأرض والتقط قطعة من الكعك ووضعها في مكان عالٍ مليء بالعشب لا يمكن أن تطأه أرجل المشاة ثم تابع طريقه.

عندما رأته المرأة قالت: «هاه» ثم استدارت من جديد وتابعت طريقها إلى المكان الذي تريد الذهاب إليه ممسكة الطفلة بيدها.

توقفت عن الكلام ونظرت إلى السيد عارف.

رأيته يهز رأسه مبتسماً. من المؤكد أنه فهم ما حدث واختصر ما أدركه من الحادثة بقوله:

- الإنسان لا يدوس على النعمة يا أستاذي.

- سيد عارف، سأطرح عليك بعض الأسئلة: أولاً، لو لم يكن أحد موجوداً حول هذا المراهق، أقصد هذا الشاب الذي انحنى والتقط قطعة الكعك ووضعها فوق العشب، فهل كان سيتصرَّف بالطريقة ذاتها؟!.

- بالتأكيد، ولو أن هذا الشاب لم ينتبه لوجود قطعة الكعك على الأرض ولم يلتقطها لأسرع أي شخص آخر لالتقاطها.

- طبعاً لم يفعل ذلك كنوع من الاستعراض أو لكي ينال تقدير من حوله من الأشخاص، بل فعل ما فعله «لأن هذا هو السلوك الصحيح» أليس كذلك؟.

- نعم.

- حسناً، وهل كانت هذه المرأة ستعود من منتصف الطريق لتبحث عن قطعة الكعك؟.

- لو لم يوجد أي شخص حول هذه المرأة فهل كانت ستعود أدراجها وتبحث عن قطعة الكعك؟ هل هذا ما تريد سؤاله؟.

- نعم هذا ما أريد سؤاله.

- نعم، كانت ستبحث عن قطعة الكعك حتى ولو لم يوجد حولها أي إنسان ودون انتظار تقدير أو نظرة إعجاب من أحد ودون أن تنظر إلى ما سيقوله الناس، بل تفعل ذلك لأنها ترغب بفعله من صميم قلبها.

- معنى ذلك أنك تريد القول: لا يمكن لأي شخص نشأ وترعرع في أجواء ثقافتنا هذه أن يدوس بقصد على النعمة في الشارع.

- أجل هذا ما أريد قوله.

- هل يمكنني أن أثق بأنه لا يمكن لأي مواطن عادي أن يدوس، قاصداً، على النعمة كما أثق بأنك ستأتي إلى لقائنا في الموعد المحدد؟.

- طبعاً.

- تأتي أنت إلى هذا اللقاء في الوقت الذي وعدت به لكي تحقق أشياء لها قيمة بالنسبة لك، أليس كذلك؟.

- أجل، كذلك.

- ولأن مواطننا العادي لا يريد أن تطأ قدماه على شيء أعطاه قيمة يقوم بالتقاطه عن الأرض ويضعه في مكان لا تطأه قدم إنسان، وفي كلا الحالتين يتم الحفاظ على أشياء تم إعطائها قيمة ما.

- أي يمكننا تحقيق الانضباط مع أشياء أعطيناها قيمة ما. فالانضباط ليس أمراً لا يمكن تطبيقه إلاّ بالترهيب والتخويف، أهذا ما تريد قوله؟!.

- لن أكتفي بالقول بل سأعمل على إظهار ذلك بالفعل.

- ولكن يا سيد دوغان ألا يوجد في أساس عدم الدوس على النعمة خوف من ارتكاب الذنب وبالتالي خوف من الدخول إلى جهنم؟.

- بالنسبة لي ربما يكون الأمر كذلك من حيث الجذور، ولكن الكثير من الناس الآن لا يدوسون على الخبز لأنهم يعطونه قيمة ما. فأنا، على سبيل المثال، لا أعتبر نفسي متديّناً كلاسيكياً ولا أذكر أنني فعلت أي شيء طمعاً في ثواب أو خوف من عقاب، ولكنني قطعاً لا أدوس على قطعة من الخبز.

- لماذا؟.

- هل تستطيع أن تدوس أنت؟!.

- كلا لا أستطيع، ولكنك عشت أنت فترة طويلة خارج البلاد، وربما

تكون قد تخلصت بعض الشيء من تأثير ثقافتنا التقليدية، وإنني لأعجب كيف لا تستطيع حتى الآن أن تدوس على قطعة من الخبز.

- النعمة لا تُداس، إنها قيمة جميلة كما الشعر، وإنني لأرى الكثير من الأشياء ضمن هذه القيمة التي تقول: «النعمة لا تُداس» ولأقل لك بعض هذه الأشياء: أرى فيها احتراماً للحياة، إذ أننا مجتمع عرف القحط والبؤس والفقر، ولذلك لدينا احترام للحياة وللخبز وللتعاون وكذلك نحترم عملية الخلق التي تقوم الطبيعة بها، ونتعاطف مع الإنسان الجائع ونحترم جوعه... النعمة لا تُداس، يالها من قيمة جميلة أرجو ألاَّ نفقدها في أي وقت من الأوقات.

- لم أكن أرى هذه القيمة التي تشكل أساس سلوكك هذا ولكن بعد أن تحدثت عنها بتُ أراها جيداً. سلوك كهذا يجيِّش عواطفي أنا أيضاً. ولكنني أفكر فيما إذا كان وراء هذا السلوك خوف من ارتكاب ذنب أم لا.

- حسناً، لنفترض أن شخصاً يمسك علم تركيا بيده ثم ودون قصد منه سقط هذا العلم من يده على الأرض. فبرأيك إذا رأى أي مواطن عادي هذا العلم على الأرض هل سيلتقطه ويرفعه أم يقول: وما دخلي أنا ويتابع طريقه؟.

- طبعاً يرفعه.

- هل يرفعه عن الأرض بسبب الخوف؟.

- لا، بل لأن لهذا العلم قيمة عند هذا الشخص، فهذا العلم يمثل أمة ينتمي إليها هذا المواطن ولهذا يرفعه عن الأرض.

- جيد. ما أريد أن أبيِّنه لك هو: لا يفعل الناس ما يفعلونه بسبب الخوف وحسب، بل لأنهم يريدون فعل ذلك بغية حماية وتعظيم ما يرونه ذا قيمة كبيرة. هل توافقني الرأي؟.

- طبعاً أوافقك الرأي. انظر إلى سلوك الأم فيما يتعلق بحماية

ولدها، إنها تتصرف عل هذا النحو لا لأنها تخاف من أحد بل لأنها تحب ابنها وتعطيه قيمة كبيرة.

- هذا يعني أنه لا داعٍ لتخويف الناس من أجل تحقيق الانضباط في وسط ما، فوجود أشياء ذات قيمة تنظم سلوك الناس في وسط ما كفيل بأن يحقق الانضباط في هذا الوسط.

- أجل، الآن عرفت علاقة هذا الأمر بالقوة، فليس الخوف وحده ما يشكل أساساً للقوة، فهناك أيضاً قوة نابعة من وجود هذه القيم. هذا ما تريد قوله.

- نعم هذا ما أريد قوله. أضف إلى أن القوة النابعة من القيم قوة لا تقمع الإنسان ولا تذلّه، بل تعظّم الإنسان وتسمو به عالياً.

- وما علاقة هذا الأمر بالمحارب؟!.

- القوة التي تتمتع بها حياة المحارب ليست نابعة من الخوف، فالمحارب، شخص نذر نفسه من أجل المستقبل الذي يحمل الكثير من المعاني بالنسبة له. حيث أسس هذا المستقبل على بعض القيم الأساسية. إن قوة المحارب نابعة من كونه نذر نفسه لهذا المستقبل ولهذه القيم الأساسية التي تشكل الأساس المتين لهذا المستقبل.

- أرى هذا الكلام صحيحاً عندما تقوله أنت، ولكنني لا أراه مجسَّداً في أي مكان، أي أنني أعيش انفعالاً جميلاً عندما أسمع هذا الكلام منك لدرجة أن الدموع تكاد تنهمر من عينيّ، ولكن أفكاري تتشتت حين أتساءل أين حياتنا من هذا الكلام.

- هل تريد تجسيداً لما تحدَّثت عنه سابقاً؟.

- أجل.

- إذن لنأخذ حياتك التي تعيشها مثالاً على ذلك، ما رأيك، هل نكون قد جسَّدنا كلامنا إذا أخذنا حياتك مثالاً لنا؟!.

❖ مستقبل أساسه القيم:

ابتسم السيد عارف ابتسامة خجولة:

- تكون قد فعلت خيراً يا سيد دوغان.

- ماذا قلنا: «القوة الموجودة في حياة المحارب غير نابعة من الخوف، فالمحارب إنسان نذر نفسه في سبيل المستقبل، وهذا المستقبل يحمل، بالنسبة له، الكثير من القيم والمعاني. وقد تم بناء هذا المستقبل على بعض القيم الأساسية. إن قوة المحارب نابعة من كونه نذر نفسه في سبيل تحقيق هذا المستقبل وهذه القيم الأساسية التي تشكل الأساس المتين لهذا المستقبل. أهذا ما قلناه؟!.

- أجل.

- لنفترض أنك قررت أن تصبح معلماً ضمن إطار موقف المحارب. في هذه الحالة لن تنظر إلى ما سيقوله الناس ولن تنتظر تقديراً أو احتراماً من أحد لأنك وقتها ستمارس مهنة التعليم انطلاقاً من كونك نذرت نفسك في سبيل تحقيق المستقبل. كيف تريد ممارسة مهنة التعليم، كإنسان نذر نفسه من أجل المستقبل؟.

- كيف أريد ممارسة مهنة التعليم كإنسان نذر نفسه من أجل المستقبل؟!. لم أفهم شيئاً. هل لك أن تفسّر لي هذا السؤال قليلاً؟.

- إذا اخترت مهنة التعليم عن طيب خاطر ومارستها بكل طواعية وحققت منها كل ما تريده دون أن يمنعك أحد؛ فما الذي كنت تريد النجاح فيه كمعلمٍ في نهاية الجهود التي ستبذلها؟.

- إنني أضمر أمرين اثنين أرغب بتحقيقهما، أولهما يتعلق بطلابي الذين سأدرّسهم، فقد كنت أرغب بتطوير طلابي والوصول بهم إلى أعلى مستوى يمكن الوصول إليه، وأرغب أن يجدوا لديَّ ما لم يجدوه عند

أسرهم من حوافز للتطور، كما كنت أريد أن أزرع لهم أجنحة ليرفرفوا بها ويحلقوا في الفضاء، هذا أول ما يخطر على ذهني كمعلم.

- والأمر الثاني؟!.

- أرغب بنقل هذه الرغبة أو هذا الهدف أو هذا الحماس أو سمِّها ما شئت لزملائي المعلمين، كما كنت أرغب أن يفهم زملائي المعلمون مدى قُدسية التعليم وأن ينذروا أنفسهم في سبيل تطوير طلابهم.

- سيد عارف، إنك تعبِّر عن المستقبل الذي نذرت نفسك في سبيله كما يلي: «**العمل مع زملائي الآخرين من أجل خلق جوٍّ تعليمي يطور كافة الطاقات التي يمتلكها طلابنا**» هل يحمل هذا المستقبل معنى ما بالنسبة لك؟!.

- يحمل الكثير من المعاني.

- أهو مستقبل يستحق النضال وبذل الجهد لأجله؟.

- بالتأكيد.

- هلاَّ صرَّحت عن بعض القيم الموجودة في أساس هذا المستقبل ذا المعنى؟!.

صمت السيد عارف، نظر إليَّ ثم نظر أمامه وراح يفكر ثم قال:

- لا توجد الآن في ذهني أية قيمة.

- في الحقيقة أنت تعيش الآن هذه القيم بقوة ولكن وعيك لم يعتد بعد على تأمل ومراقبة هذه القيم.

- هل أعيش الآن قيماً قوية؟!.

- أجل.

- لكني غير مدرك لها.

- أنت من قال بأن المستقبل الذي تحدَّثت عنه يحتاج للكثير من الجهد والكفاح، أليس كذلك؟.

- أجل هذا ما قلته. فعلاً إنه ليس بالأمر السهل إذ أنه يحتاج للكثير من الكفاح.

- حسناً، ولكن لماذا تريد القيام بهذا العمل الصعب ولماذا تريد خلق هذا المستقبل الذي يصعب تحقيقه؟.

لم يُجِب، بل نظر إليَّ نظرة العارف الذي وجد بنفسه أجوبة على كافة الأسئلة التي خطرت على ذهنه.

ابتسم، وبعد ذلك أدمعت عيناه فلم ينطق بأية كلمة بل نظر إلى الأفق بصمت.

أنا أيضاً لم أتكلم، بل انتظرت حديثه بصمت.

بعد فترة وجيزة، أغمض عينيه فانهمرت دمعتان من عينيه، حنى رأسه إلى الأمام وراح يتحدث بصوت منخفض بالكاد استطعت سماعه:

- أطفالنا أيضاً، كما الأطفال في الدول المتقدمة، يستحقون أن يكونوا سعداء وأن يتطوروا ويستخدموا العقل الذي وهبهم الله إياه. إننا، نحن الكبار، نقصُ أجنحة أطفالنا ونقلمهم ونمنع تطورهم. إنني أنذر نفسي في سبيل مستقبل كهذا لأني أحب الأطفال كثيراً وأتمنى أن يتطوروا.

- ثمة قيمتان أساسيتان وراء ما قلته: القيمة الأولى هي المحبة، محبة كبيرة وواسعة كالمحيط، محبة لا تنضب تكفي كافة الأطفال.

- هل المحبة قيمة؟!.

- الخوف قيمة والمحبة قيمة، أنت اخترت المحبة كقيمة.

- هل يمكن لأحد أن يختار الخوف ليصبح واحدة من القيم التي يؤمن بها؟!.

- في إحدى الندوات التي قدمتها في مدينة غازي عنتاب دنت مني معلمة صف وشكرتني على حديثي وتمنت لو يستمع كافة المعلمين لما تحدثت به في الندوة ثم ذكرت إحدى الحوادث التي أحزنتها حزناً شديداً،

إذ قالت لها معلمة صف في المدرسة الابتدائية بأن وضعها المادي ممتاز وبأن زوجها يكسب الكثير من النقود وبأنها اختارت مهنة التعليم لأنها تجد فيها كل المتعة وأضافت قائلة: «إنني أجد متعة في ضرب الأطفال وتخويفهم»

– يا لها من حالة مؤلمة جداً.

– أجل، في الحقيقة هي حالة مؤلمة يا سيد عارف، أعرف معلمة أعطت قلبها للتعليم ونذرت نفسها في سبيل تطوير طلابها، وهي الآن معلمة خبيرة اقتربت من سن التقاعد. منذ فترة كنت أتحدث معها فروت لي الحادثة التالية التي جرت معها:

«في السنين الأولى التي بدأت فيها عملي في سلك التدريس دخلت إحدى المعلمات، زوجة مدير مدرستنا، إلى غرفة المعلمين وهي تعرج، فسألها عدد من المعلمين الموجودين في الغرفة المزدحمة: «خير إن شاء الله، الحمد لله على سلامتك» فأشارت إلى أصابع رجلها وقالت: «لا شيء مهم» وتابعت قائلة: «أصبت رجلي عندما كنت أضرب أحد التلاميذ (كان حرياً بها أن تقول عندما كنت أرفس)» أحسست وقتها بخنجر ينغرس في قلبي كأنني استفرغت كل ما في داخلي». (6)

– مع كل أسف يا أستاذي، أنا أيضاً أعرف الكثير من المعلمين في مدرستي يضربون طلابهم، والأسوأ من هذا أن بعض الآباء والأمهات يعتبرونهم نموذجاً للمعلمين الجيدين.

– لأن هؤلاء الآباء والأمهات من جهة وهذا النوع من المعلمين من جهة أخرى جميعهم يتفقون حول قيمة أساسية مشتركة ولا أعتقد سيصعب عليك معرفتها.

---

(6) قالت لي هذه المعلمة القديرة أن هذه الحادثة جرت قبل اثنين وثلاثين عاماً وأكدت بشكل خاص أنها لم تصادف حوادث من هذا النوع منذ زمن بعيد.

- الخوف؟!.

- بالتأكيد. إن الأهالي والمعلمين يريدون الحفاظ على الخوف كقيمة يؤمنون بها ويعيشونها. وبهذا المعنى فإن معظم المعلمين الذين يضربون طلابهم يعتقدون أنهم بضربهم هذا يفعلون خيراً من أجل مستقبل أطفالهم ومن أجل تعليمهم، ولهذا السبب لن يكون من الصواب وصف هؤلاء المعلمين بذوي النوايا السيئة أو بأنهم يريدون إلحاق الضرر بالأطفال.

- تقصد أن هؤلاء المعلمين ذوي نوايا حسنة ولكن معلوماتهم الأساسية ناقصة فيما يخص موضوع تربية الأطفال. هل هذا ما تريد قوله؟.

- أجل، حقيقة هذا ما أريد قوله. فإذا ما قُدِّمت معلومات صحيحة لهذه الشريحة من زملائك المعلمين فإنهم سيُغيِّرون سلوكهم نحو الأفضل ويضعونه في الاتجاه الصحيح، ففي اللحظة التي يطوِّرون فيها قيمة المحبة، على سبيل المثال، بدلاً من قيمة الخوف سيتغيُر سلوكهم. وإن عدد معلمينا الذين يتعاملون مع طلابهم بمحبة ليس قليلاً. ومن هؤلاء معلمتي المحبوبة معزز هانم التي درَّستني في الابتدائية. ففي أول يوم بدأت فيه الدوام في الابتدائية دخلت معلمة شابَّة إلى الصف بوجهٍ بشوش، تعرَّفتْ على أسمائنا جميعنا وعلمتنا أغنية وقالت لنا: «مرحى لكم يا أولادي، أداؤكم كان جميلاً» وعندما انتهى الدرس الأخير ركضت إلى البيت، أذكر وأنا في طريقي إلى البيت صرخت بأعلى صوتي: «أنا أحب مُدرِّستي، أنا أحب مُدرِّستي».

صمت السيد عارف فترة من الزمن، كان واضحاً أنه يفكر بما قلته. ثم بدأ حديثه قائلاً:

- قلت أن وراء ما قلته ثمة قيمتان أساسيتان؛ فهمت أن الأولى هي المحبة، وما هي الثانية؟!.

- الثانية هي التغيير؛ فعندما يكون التغيير متمحوراً حول ذاتك فإنه يتحقق بتطويرك وعندما يكون متمحوراً حول طلابك وزملائك فإنه يتحقق

بتطويرهم، هل تفكر بأنك نذرت نفسك في سبيل تحقيق مستقبل قائم على المحبة والتغيير؟.

- أجل أفكر.

- في هذه الحالة سيشكل هذا المستقبل منبعاً لقوتك، فقوتك نابعة من كونك نذرت نفسك في سبيل هذا المستقبل.

- عندما تواجهني صعوبات أثناء كفاحي يجب أن أواصل هذا الكفاح وأنا أفكر بالمستقبل. هذا ما تريد قوله أليس كذلك؟.

- نعم هذا ما أقصده وكذلك أقصد الانضباط الذي ستضيفه إلى حياتك.

- الانضباط الذي سأضيفه إلى حياتي؟!.

- أجل، إذ أن هذا المستقبل سيوفر لك إمكانية قراءة الكتب بشكل منضبط، وسيؤمن إمكانية إعطاء ذاتك بالكامل لعملك وسيضفي نوعاً من الجدية على حياتك مع أصدقائك وسيجعلك أكثر حرصاً على إنجاز ما تريد إنجازه على أكمل وجه ولكي تقوم بكل هذا يجب أن يتوفر الانضباط في حياتك.

- فهمت. يمكنني أيضاً تحقيق هذا الانضباط دون أي خوف.

- الانضباط الناجم عن الخوف يزول بزوال الخوف، لكن الانضباط النابع من داخل الشخص لا يزول، بل يستمر طالما أن هذا الشخص ينذر نفسه في سبيل المستقبل.

خطر على ذهني سؤال سأطرحه الآن: تحدثنا حتى الآن عن إحساسين أو انفعالين هما المحبة والخوف.

ولكن لا يزال هناك العديد من الإحساسات الأخرى مثل العناد والحقد والانتقام والمنافسة والقلق والطمع وغيرها الكثير. هل يمكن لهذه الأحاسيس أن تكون أيضاً مصدراً للقوة؟.

- طبعاً. ولكن في الحقيقة كل هذه الأحاسيس التي ذكرتها عبارة عن أحاسيس نابعة من الأنا الموضوعي Ego للإنسان وإذا ما نظرت إلى هذه الأحاسيس عن قرب فإنك ستجد أن عامل الخوف يقف وراءها جميعها.

- كيف يكون الخوف وراء العناد؟!.

- هل عاندت يوماً؟.

- أجل، في كثير من المرات عاندت كثيراً.

- عندما كنت تعاند كان ثمة موضوع أو شيء تريد الحصول عليه أو كنت تعاند لإظهار أنك على حق في موضوع ما.

- هذا صحيح.

- عندما تجد نفسك في وضع تقول فيه: «لا بد أن أحصل على كذا»، «لا بد أن أمتلك كذا» اعرف وقتها أن في جانب ما من جوانب شخصيتك ثمة خوف من عدم الحصول على ما تريد أو من عدم امتلاكه. وأنك تعاند بسبب هذا الخوف وستجد النتيجة ذاتها عندما تتأمل أحاسيسك السلبية الأخرى مثل الانتقام أو الغضب.

رغبت بالنهوض والتمشي قليلاً فطلبنا النادل ودفعنا الحساب. رأينا في طرف الساحة رجلاً يبيع الكتب فقررنا الذهاب إليه. ثمة واجهات صنعتها البلدية على شكل صناديق ضخمة إذا كانت مغلقة وعندما تُفتح توضع فيها الكتب للعرض.

لفت انتباهنا العدد الضخم للطيور التي تسير على الأرض، وإلى الأمام قليلاً رجل مسن يبيع الحبوب التي تُقدَّم للطيور، والأطفال الذين يمسكون النقود بأيديهم ينتظرون دورهم بهيجان شديد لكي يشتروا الطعام للطيور وكأنهم يقومون بعمل هام جداً. ثمة طفل واقف وهو يحمل طعام الطيور، قلت للسيد عارف: «انظر إلى هذا الطفل، يقف ولا يرمي الطعام للطيور، هل لديك فكرة حول ذلك؟» فقال: «عدد كبير من الأطفال رموا

الآن الطعام والطيور مشغولة الآن بالتقاطها، وهذا الطفل ينتظر حتى تنتهي الطيور من الطعام الذي قُدِّم لها لكي تكون مستعدة لالتقاط الحبوب التي سيرميها لها». قيَّمت هذا السلوك كما يلي: يريد هذا الطفل أن يلفت انتباه الطيور من خلال رمي الحبوب لها، ولكنه لم يتمكن من خلق الجو أو الوسط الذي يريده لأن الأطفال الآخرون يشترون الحبوب ويضعونها فوراً أمام الطيور، ولهذا بدأ يستاء من الأطفال الآخرين الذين يرمون الطعام للطيور دون انتظار وبدون أدنى تفكير.

طرحت ملاحظاتي أمام السيد عارف قائلاً: «يمكننا القول أن **الوعي الذي أحضره** هذا الطفل إلى الوسط مختلف عن وعي الأطفال الآخرين، أليس كذلك؟» فهز السيد عارف رأسه موافقاً. أردفت قائلاً: «يتحدَّر هذا الطفل من عائلة سليمة، فوالده ووالدته يستمعان له ولذلك فهو يعيش حياة ذات معنى أكثر من الأطفال الآخرين الذين يرمون الطعام دون أدنى تفكير». فنظر إليَّ بدهشة وسألني: «كيف عرفت ذلك يا سيد دوغان؟!». فقلت: «يا سيد عارف يطرح هذا الطفل، من زاوية الوعي الذي أحضره إلى الوسط، قيمة متعلقة بالعلاقة القائمة بينه وبين الطيور، فوعي هذا الطفل يسبق وعي بقية الأطفال بمسافة كبيرة، ويبيِّن هذا الوعي أن الطاقة الموجودة لدى هذا الطفل متطوِّرة جداً وهذا يعني أن والده ووالدته لم يبالغوا في تقليمه رغبة منهم أن لا يبقى صغيراً كشجرة البونزائي، فلقد تحدثا معه كثيراً والأهم من هذا أنهما استمعا له عندما كان يتكلم، فأنا أستطيع رؤية ذلك بوضوح. إنك تستمع لما أقوله بكثير من الدهشة لأنك حتى اللحظة لم تتمكن من النظر إلى هذا الطفل بعين بصيرة، بل تكتفي بمراقبته والتفرج عليه. قريباً سيصبح هذا الأمر واضحاً بالنسبة لك أيضاً.

فابتسم السيد عارف وهو ينظر إليه ولسان حاله يقول: «إن شاء الله»

مشينا قليلاً. ثمة فتاتان شابتان تجلسان تحت شجرة على مقعد خشبي وتأكلان قطعتين من الهمبرغر. قطة صغيرة عمرها حوالي أربعة أشهر شمّت رائحة الهمبرغر فاتجهت نحوهما رأت إحدى الفتاتان، وعمرها حوالي السابعة عشر أو الثامنة عشر، القطة فقفزت من مكانها بخوف وصرخت: «ليأخذوا هذه القطة من هنا إنني أخاف كثيراً» ثم ابتعدت عن المكان، وأما الفتاة الأخرى فقد رمت أكياس الهمبرغر على الأرض ومشت مسرعة باتجاه الجامع. سألت السيد عارف قائلاً: «هل رأيت؟!» فقال: «إنهما تخافان من القطة» فقلت: «ألاحظ انتشار هذا النوع من الخوف غير الواقعي» فضحك وقال: «يا سيد دوغان، إن مجتمعنا مليء بأشياء غير واقعية من هذا النوع» كانت نكتة لطيفة فربت على كتفه تعبيراً عن تقديري له.

❖ ثلاثة أنواع من القوة:

جلسنا على المقعد الذي كانت تجلس عليه الفتاتان، واستطعنا مواصلة الحديث بأريحية لأننا لا نخاف من القطة.

- أجرى مفكر يدعى إنجلس آرين Angeles Arrien دراسة حول مصطلح القوة في الميثولوجيا Mythologie وفي الأساطير، واكتشف أن الميثولوجيا تناولت ثلاثة أنواع من القوة وهي: قوة الشخصية وقوة التواصل والقوة الناجمة عن المستقبل الذي ينذر المرء نفسه في سبيل تحقيقه. (7)

«قوة الشخصية: وتتعلق بكيفية إثبات الناس وجودهم في الوسط الذي يعيشون فيه.

«فالبعض يطرح وجوداً مسحوقاً مقموعاً من خلال مواقفه ووجهات نظره.

---

(7) من كتاب «the Awakened warrior» «المحارب المدرك» الذي أعده Rick Fields ص: 1. 112-9

«والبعض الآخر يطرح وجوداً قامعاً للآخرين ومزعجاً لهم من خلال مواقفه ووجهات نظره.

«وثالث يعبِّر عن وجوده في وسط ما بطريقة معينة فيطرح وجوداً يوحي للآخرين أنهم أصحاب قيم وكبرياء.

أخذ السيد عارف نفساً بطريقة تدل على أنه يرغب بطرح سؤال ما، فصمتُّ:

- سيد دوغان، عندما أدخل إلى الصف تتملكني رغبة بأن أكون من النوع الأخير الذي تحدثت عنه. إذ يجب أن يكون مجرَّد وجودي في الصف ودون أن أتفوَّه بأية كلمة كفيلاً بأن يجعل طلابي أصحاب قيم وكبرياء.

- وهذا ما سيحصل يا سيد عارف، كأنني أرى ذلك قريباً جداً، هناك بعض الأشخاص يشعر الذين يلتقون بهم أنهم مهمين وأصحاب قيم دون أن يفتحوا فمهم ويتفوَّهوا بأي كلمة، وهذه القوة نابعة من امتلاك أشخاص كهؤلاء شخصية متكاملة، فنظرة الشخص الذي يمتلك مستوىً عالٍ من تكامل الشخصية، وطريقة جلوسه ومواقفه تدل على قوة خاصة به كما أن نظرة هذا الشخص وكلامه ووجوده يجعل الناس الآخرين الموجودين في وسطه ذوي قيم وكبرياء.

- سيد دوغان، هل تتطور هذه القوة بشكل طبيعي لدى الإنسان متكامل الشخصية ضمن إطار الوجود الذي يبنيه هذا الإنسان مع الزمن؟.

- طبعاً، ولقد انتبهت سابقاً إلى هذه النقطة، فأنت من استخدم عبارة «لا يمتلك الإنسان قوة إلا بقدر ما يمتلك من تكامل الشخصية».

- أجل.

- ستجد الأمر ذاته في أنواع القوة الأخرى، فقوة الشخص تنبع من تكامل شخصيته.

- هل ستتحدث عن أنواع القوة الأخرى؟.

– طبعاً. **قوة التواصل**: تنبع من معرفة الشخص مع من وماذا ومتى وكيف يتكلم. وهذه القوة تتعلق بمقدار الوعي الذي سيحضره الشخص إلى الوسط الذي يعيش فيه.

«ليس من السهل على الإنسان معرفة مع من وماذا ومتى وكيف يتكلم ولا ينجح الإنسان في تحقيق ذلك بسهولة.

– هل يمكننا تناول هذه الأسئلة كلاً على حدة؟!.

– ممكن. لنتناولها، لكي يجيب المرء على سؤال «مع من سأتحدث؟» يجب أن يمتلك توقُّداً ذهنياً يؤهله لكي يدرك كل الناس الموجودين في بيئته، أي يجب أن يراقب بواسطة وعيه المراقِب وليس بواسطة أناه الموضوعية Ego.

ولكي يجيب على سؤال «عن ماذا أتكلم؟» يجب أن يكون مدركاً لنيته ومطالبه ورغباته ووضعه وقيمه وأن يكون قادراً على الإطلاع عليها جميعها.

ولكي يجيب على سؤال «متى أتكلم؟» يجب أن يكون واعياً للوحة الكبيرة، إذ أن وعي اللوحة الكبيرة يجلب معه معرفة تتعلق بزمن البوح بالمعلومة وقبل أي سبب وبعد أي سبب تأتي.

ولكي يجيب على سؤال «كيف سأتكلم؟» يجب أن يكون قد وجد أجوبة على أسئلة «مع من وعن ماذا ومتى» سيتكلم، التي ذكرناها سابقاً.

«ولكن الأهم من كل ذلك هو: هل الكلام الذي قاله خرج من فمه وحسب أم أنه عبَّر عنه بكل وجوده، **فالرسالة الأهم هي الإنسان ذاته**».

«ولهذا السبب فإن تكامل الشخصية هو من يقف وراء هذه القوة، فقد عبَّر أحد الحكماء عن هذه الحقيقة بقوله «**راح يصرخ بصوت عالٍ لدرجة أنني لم أستطع سماعه**»

أشار السيد عارف بيده وكأنه يطلب مني التوقف عن الكلام، ثم أخرج من حقيبة اليد الصغيرة قلماً وورقة وقال:

- يا سيد دوغان أرجو أن تتمهل قليلاً، تتكلم عن مفاهيم هامة جداً، أريد كتابة بعض الملاحظات فلقد أثَّرت بي جملة «الرسالة الأهم هي الإنسان ذاته» إذ أنني أريد الوقوف عندها، لأنها برهنت لي على ضرورة التحول إلى إنسان محارب.

- كيف ذلك يا سيد عارف؟ أقصد كيف برهنت لك على ضرورة التحول إلى إنسان محارب؟!.

- إذا سألني أحدهم: «لماذا تريد أن تصبح معلماً محارباً؟» سأقول له: «لأن الرسالة الأهم هي الإنسان ذاته ولهذا أريد أن أصبح معلماً محارباً».

- أفهمك فلقد اكتشفت المصدر الحقيقي للقوة.

توقفت عن الكلام ثم ارتسمتْ على وجهي ابتسامة وأنا أقول له: «يمكننا إنهاء لقاءاتنا عند هذه النقطة، فبعد هذا الاكتشاف بات بإمكانك اكتشاف ما تبقى بنفسك»».

أدرك السيد عارف أنني أمزح فقال لي: «هل هذا ممكن يا أستاذي، فأنا أشعر أنه لا يزال هناك العديد من النقاط تستوجب الاكتشاف، ولن أفوِّت هذه الفرصة بسهولة».

تابعت حديثي من النقطة التي توقفت عندها:

- من أجل إلقاء الضوء على **القوة الناجمة عن المستقبل الذي نذرت نفسك في سبيل تحقيقه** يمكننا الاعتماد على المثال الذي ذكرته أنت سابقاً والذي يتعلق بالمستقبل الذي نذرت نفسك لأجله، فلقد قلت وقتها: «أضمر أمرين في داخلي، أولهما: الوصول بطلابي إلى أفضل مستوى يمكن الوصول إليه من خلال تطويرهم وأن يجدوا عندي الرغبة في التغيير التي لم يجدوها عند آبائهم وأمهاتهم وأن أوفِّر لهم كافة الإمكانيات لكي تبزغ لهم أجنحة يحلِّقون بها عالياً في الفضاء وأما الأمر الثاني فهو أن ينظر زملاؤك المعلمون إلى طلابهم كما تنظر أنت.

هز السيد عارف رأسه وكأنه يقول: هذا صحيح.

مرَّت القطة الصغيرة من أمامنا وتمددت في مكان مشمس معرِّضة بطنها لأشعة الشمس، تابعت حديثي:

- ستكون قوتك بحجم إيمانك بهذين الهدفين اللذين وهبتهما فؤادك وبقدر ما تمتلك من تكامل في الشخصية، حيث ستنبع هذه القوة من العمل الذي تنجزه ضمن شعورك بالمسؤولية. من هذه النقطة بالذات يأتي المصدر الأكبر للقوة التي يتمتع بها القادة العظماء الذين تركوا بصماتهم في هذا العالم، فإذا درست حياة أتاتورك وأعماله بدقة وتأنٍّ فإنك ستجد أنه نذر نفسه في سبيل مستقبل الجمهورية التركية. كل ما فعله وما أنجزه كان متكاملاً مع هذا المستقبل، وبفضل ذلك حوَّل مجتمعاً مريضاً ومنهاراً إلى أمة حيَّةٍ جديدة لها كبرياءها وشرفها ونجاحاتها وجعلها أمة مفعمة بالحماس، وإذا ما درست حياة غاندي فستجد أن هذه القوة الناجمة عن المستقبل الذي نذر نفسه في سبيل تحقيقه هي التي تقف وراء النجاحات التي حققها.

بعد أن استمع السيد عارف إلى حديثي قال: «حسبما فهمت، المحارب شخص يمتلك هذه الأنواع الثلاثة من القوة». فقلت: «هذا أمر طبيعي» وأردفت قائلاً:

- عندما نقول قوة المحارب فإننا ندرك مباشرة هذه الأنواع الثلاثة من القوة مجتمعة مع بعضها البعض، فالمحارب بمزاياه الشخصية هذه قوي كالصخرة يعيش ضمن تكامل حي قادراً على إدراك أجواء التواصل وإدراك عالمه الداخلي لأنه استطاع الوصول إلى الوعي المراقِب فقد نذر قلبه وعقله في سبيل مستقبل ما ومَحوَر كامل حياته حول هذا المستقبل.

- الآن بتُّ أفهم بشكل جيد ما تحدثنا به سابقاً حول لماذا يُقال «نعم» ولماذا يُقال «لا».

- المحارب يعي جيداً لماذا يقول «نعم» ولماذا يقول «لا» أهذا ما تقصده؟!.

- أجل.

- ذهن المحارب صافٍ ومتوقِّد في موضوع الـ «نعم» والـ «لا».

قال السيد عارف بأنه يريد إلقاء نظرة على الكتب الموجودة في المكتبة، فاقترحت أن نتناول طعامنا بعد الانتهاء من الكتب لأنني بدأت أشعر بالجوع قليلاً.

بعد النظر إلى الكتب باهتمام بالغ اتجهنا إلى الأزقة الخلفية، أحببت تناول البطاطا المشوية بينما فضَّل السيد عارف تناول سندويشة، أخذنا ما نريد من مأكولات ومشروبات وجلسنا عل مقعد تحت شجرة مطلة على البحر. نتناول طعامنا من جهة ونواصل حديثنا من جهة أخرى.

أخبرت السيد عارف أن للقوة أبعاداً فلسفية: «سيد عارف، هل تريدنا أن نتحدث عن الأبعاد الفلسفية للقوة؟».

في حديقة الشاي التي خلفنا ثمة شابان في سن المراهقة، في العشرين أو الواحد والعشرين من عمرهما، يجلسان على إحدى الطاولات وقد شمَّرا عن ساعدَيّهما وتبدو ملامح الانزعاج على وجهيهما، ينظران إلى الأفق بوجه عبوس وكأنهما لا يدركان ما يجري حولهما «هكذا يجلس الرجل الحقيقي وهذه هي الملامح التي يجب أن تُرسم على وجهه، فهو ليس كالنساء اللاتي لا تعرف ألسنتهن التوقف عن الكلام».

أحسست أن هذين الشابين لا يعيشان في بيئتهما الطبيعية، وربما هما صامتان لأنهما لا يشعران بأنهما يعيشان في بيئتهما الطبيعية.

أخبرت السيد عارف بوجود هذين الشابين فقال: لقد ألفت وجود هذا النوع من الوجوه العبوسة. وأضاف: «يا سيد دوغان هؤلاء الناس لا

يدركون أن وجوههم عبوسة فبالنسبة لهم ملامح الوجه هذه هي الملامح اليومية التي لا تفارقهم».

❖ الأسس الفلسفية للقوة:

يبدو على السيد عارف أنه يريد العودة سريعاً إلى موضوعنا، فبدأنا حديثنا حول الأبعاد الفلسفية لمفهوم القوة.

- لمفهوم القوة أيضاً أبعادٌ فلسفية.

تحدث أحد الفلاسفة السفسطائيين ويدعى ثراسيماكوس Thrasymachus حول طبيعة النظام الاجتماعي فقال: «الأشخاص الأكثر قوة هم الذين يحددون النظام الاجتماعي» وعلى العموم هؤلاء الأشخاص الأقوياء الذين يحددون النظام الاجتماعي لا يكونون من فئة الناس الذين يفكرون بمصالح المجتمع.

كان السيد عارف يهز رأسه حين كنت أنطق بهذه العبارات، يبدو أنه يفكر في هذا الموضوع كما يفكر الفيلسوف، فتابعت حديثي وأنا مطمئن في موضوع معرفة موقف السيد عارف:

- ولهذا السبب، يقول الفيلسوف ثراسيماكوس، حول مفهوم العدالة ما يلي: «العدالة ليست إلا تعبيراً عن مصالح القوي» وهذا يعني أن القوي هو الذي يحدد مضمون العدالة.

- لا يمكن للمرء أن يصدِّق أن هؤلاء الناس قد فكروا وتحدثوا قبل ألفي عام عن هذا الموضوع.

- أجل، من هنا تنبع جاذبية دراسة تاريخ الفلسفة، إذا أحببنا مواصلة الحديث حول موضوعنا نستطيع القول: لقد أثرت بك وجهة نظر ثراسيماكوس كثيراً وقد فهمت ذلك من حركة رأسك وأنت تستمع لما أقوله. إن وجهة النظر هذه مؤثرة من جهة ومزعجة من جهة أخرى، الجانب

المزعج يتمثل في كون الذي يضع القواعد هم الأقوياء، فقد وضعوا القواعد وسنّوا القوانين التي تحمي مصالحهم الشخصية، ولا يمكن لهذه القواعد والقوانين أن تحمي مصالح الضعفاء.

- يا أستاذي، ألم يقل كارل ماركس الفكرة ذاتها؟!.

- إن النظام الذي أرسى قواعده كارل ماركس يشمل أبعاداً عديدة مثل البنية التحتية والبنية الفوقية وغيرها. لكنني أعتقد أنه متفق مع ثراسيماكوس حول أن القوي هو الذي يحكم دائماً وهو الذي يحدد من هو المحق.

«ولأن الضعفاء لا يملكون القوة التي تمكّنهم من وضع القوانين فإنهم لا يجدون الإمكانيات التي تحمي مصالحهم، بهذه الطريقة ولهذا السبب تم تهميشهم، فإذا ما أرادوا أن يصبحوا أقوياء فسيجدون أنفسهم مضطرين لانتهاك القوانين، فحسب ثراسيماكوس لا يوجد أي شيء يدعى «الإنصاف»، فالإنصاف أو العدل اسم يُطلق على الوضع الذي يحمي مصالح القوي. ثمة عبارة لا أعرف قائلها تقول: «الحق ملك القوي» أو «القوي دائماً على حق» وهذه الفكرة تشكل أساس فكرة ثراسيماكوس.

«يقول ثراسيماكوس: الإنصاف أو العدل عبارة عن مصطلح دِرج بقوة بين فئات الشعب لأن الناس يريدون نظاماً ما ويطلبون الوضوح، وأثناء توارث مصطلح العدل من جيل إلى جيل يُنسى أنه أنشئ من أجل حماية مصالح القوي ويتم تعليم هذا المصطلح للأجيال الجديدة دون إدراك معناه الحقيقي.

- إني متشوق من جديد لمعرفة الفترة الزمنية التي كُتِبتْ فيها هذه الأفكار ومتى فكروا وتحدثوا بها.

- كُتِبتْ هذه الأفكار قبل 25.. عام.

- إنه لأمر مثير ومدهش فعلاً أن يكونوا في تلك الأيام الموغلة في

القدم قد فكروا بمواضيع وناقشوا قضايا لم يتمكن معظم الناس الذين يعيشون الآن التفكير بها. حسناً ولكن ما هو الحل بنظر ثراسيماكوس؟! أي هل للمجتمعات نصيب في أن يتخلصوا من سلطة القوي؟.

- يكمن الحل حسب وجهة نظر ثراسيماكوس في توعية الفرد، وكلما ازداد عدد الأفراد الواعيين يصبح تفكير المجتمع أكثر وعياً وبالتالي يصبح سلوكه أكثر وعياً.

- لا أعلم فيما إذا كنت أفهمك جيداً أم لا ولكني أرى أنك تقول اليوم الشيء ذاته. إذ تؤكد دائماً على أنه عندما ينضج وعي الفرد ويزداد ثراءً يتغيَّر إدراكه للأمور، والإنسان الذي يمتلك وعياً غنياً يتخلى عن التفكير النمطي والآلي ويصبح تفكيره متعدد الأبعاد، ويصبح سلوكه مبنياً على تخطيط متطور، كما تقولون أن إثراء وعي الفرد سيؤدي إلى تغيير إدراكاته وتغيير إدراكاته سيؤدي إلى تغيير طريقة تفكيره وتغيير طريقة تفكيره سيؤدي إلى تغيير طريقة عمله فيما ينجزه من أعمال.

- أجل هذا ما أقوله، عندما كنت أؤكد على هذه النقاط لم أكن قد عرفت عن ثراسيماكوس أي شيء، ولكن كما يبدو طريق العقل واحد، ولقد تطور مصطلح المحارب ضمن منظومتي الفكرية وازدادت لدي أهمية الفرد المحارب عندما تعرَّفت على أفكار المفكرين الآخرين. خذ ماكيافيللي على سبيل المثال:

«نيقولو ماكيافيللي، فيلسوف إيطالي تمحور تفكيره وكتاباته حول الموضوعات السياسية، عندما كانت الفوضى تعمُ إيطاليا قدَّم الدعم للحكومة الجمهورية التي قامت بإبعاد عائلة الميديين الإيطالية الغنية والقوية عن السلطة، وبعد فترة من الزمن عادت عائلة الميديين إلى السلطة فاعتقلت ماكيافيللي ورمته في السجن ومارست عليه أقسى أنواع الضغط في سجنه.

بعد خروجه من السجن قرر مزاولة السياسة من جديد ولكن هذه المرَّة شغَّل عقلة وبدأ بتسوية علاقاته مع عائلة الميديين، وقد أراد تحقيق هذا الأمر من خلال تأليف كتاب «الأمير»، وقد تحولت الأفكار التي طرحها في هذا الكتاب إلى أسلوب في التفكير أُطلق عليه اسم الماكيافيللية.

يُعرِّف علي بوسكوللو أوغلو الماكيافيللية في قاموسه «أركاداش» كما يلي: «هي اتجاه سياسي يعتمد على أساس استخدام كافة الطرق والوسائل والأساليب، حتى وإن كانت تتنافى مع الأخلاق والأعراف من أجل الوصول إلى غاية في السياسة أو في إدارة الدولة».

- لقد سمعت بهذا التعريف الذي يخص الماكيافيللية، وقد أنتج هذا الأسلوب في التفكير عبارة تقول: «الغاية تبرر الوسيلة» أليس كذلك؟.

- أجل. وكما ترى إن إدراك القوة واستخدامها ضمن هذا النمط من التفكير مختلف عن إدراك المحارب للقوة واستخدامه لها.

- أستطيع رؤية هذا الفرق بوضوح. فالماكيافيللية تُبيح استخدام كل شخص وكل وسيلة بغية الوصول إلى الهدف.

- يجب على المحارب أن يختار هدفه بحيث يكون مضمون وشكل ومسار الجهود التي سيبذلها من أجل تحقيقه منسجمة مع الهدف ذاته. فيجب عليك، ضمن هذا الإطار، أن تسلك طريقاً بحيث تكون منسجماً مع قيمتي «المحبة» و«التغيير» أثناء قيامك بخلق إمكانيات التعليم والتغيير لطلابك ولزملائك المعلمين. هذا هو الطريق الذي يسلكه المحارب. يقول ماكيافيللي: «اكذب إن اقتضى الأمر واستخدم التعذيب والترهيب والضغط والإكراه والإجبار والعقاب إن اقتضى الأمر، يمكنك القيام بأي عمل وقول أي شيء تراه مناسباً من أجل تحقيق هدفك وغايتك».

- ما تقوله يذكّرني بنقاش دار بين صديقين لي يعملان في مجال التسويق. «ولي» و«نامق» صديقان لي يعملان كمندوبي مبيعات في شركتين مختلفتين. «ولي» منسجم تماماً مع الموقف الماكيافيللي، ويؤكد على أن كل الوسائل مباحة من أجل تحقيق أكبر قدر من المبيعات. وأما «نامق» فيؤكد على أن بيع السلع هو البداية ولكن الأهم من ذلك هو إقامة علاقة تجعل الزبون ممتناً على الدوام. ويقول: «العلاقة القائمة على الكذب لا يمكن أن تستمر بشكل سليم، والأهم من بيع السلعة هو تلبية احتياجات الزبون بالطريقة التي يريدها». وأما «ولي» فيقول في هذا الموضوع: «إذا لم تضلل الزبون وتخدعه فلن يتمكن من اتخاذ قرار بسهولة ولن يشتري بضاعتك». برأيك أيهما على حق يا سيد دوغان؟!.

- هذا سؤال لا مبرر له، فأنت تعرف طريقة تفكيري، ولكن المهم هنا هو البحث عن جواب للسؤال التالي: من هو الذي سيحقق النجاح على المدى الطويل؟!.

- بالنسبة لـ «ولي» ساءت العلاقة بينه وبين الشركة التي كان يعمل بها وهو الآن يبحث عن عمل جديد، وأما «نامق» فقد أصبح مديراً للقسم الذي دخل إليه كمندوب مبيعات، وقد كلفته الشركة بتدريب وتأهيل العناصر الجدد في الشركة.

- سيد عارف، يجب هنا التمييز بين العلاقات طويلة الأجل وبين العلاقات قصيرة الأجل، فالنزعة الماكيافيللية في العلاقات طويلة الأجل لا يمكن أن تؤدي إلى نتائج إيجابية.

- يا أستاذي إنك تتحدث بثقة تامة.

- أريد أن أطرح عليك السؤال التالي: إن اكتشفت أن شخصاً ما يستغلّك من أجل تحقيق غاياته فهل من الممكن أن تثق بهذا الشخص في يوم من الأيام؟!.

- كلا.

- لا يمكن الوصول إلى نتائج إيجابية في مكان لا يثق فيه الناس ببعضهم. إلى هذه الدرجة الأمر بسيط.

- صحيح.

- الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز Tomas Hobbes واحد من المفكرين الذين تناولوا موضوع القوة وكتبوا عنه. يشبِّه هوبز المجتمع في كتابه «ليفياثان» Leviathan أو التنِّين بوحشٍ يدعى ليفياثان. لا يمكن التكهن بما سيفعله هذا الوحش إذ يمكن انتظار خطره في كل لحظة، ولكي تتم السيطرة على المجتمع الذي يشبه هذا الوحش ولكي يتم إقامة النظام يجب أن تكون قوة الملك مطلقة. ويجب على المجتمع تقديم الطاعة المطلقة لهذا الملك حتى وإن كان ظالماً وطاغية وذلك من أجل الحفاظ على سلامة المجتمع، وعكس ذلك سيتحول الناس في هذا المجتمع إلى قطيع يسرق وينهب بعضه بعضاً ويطمع كل واحد فيه بمال وروح وعرض الآخر ويحاول كل واحد فيه قتل الآخر، وحتى إذا حكمهم الملك فإنهم سيستمرون بقتل وتقطيع أوصال بعضهم البعض.

- لا شك أن هذه النظرة تحتل مكاناً أساسياً في نظرة الدولة إلى المواطنين على أنهم أتباع، من حيث العلاقة القائمة بين الدولة والمواطنين.

- نعم وكأن هوبز يقول لا يمكن للزعيم غير الظالم أن يكون زعيماً جيداً، وبذلك يكون قد قدم أجوبة على الانتقادات التي تحدث عنها الكاتب جتين ألتان فيما يتعلق بتاريخ العثمانيين.

- هل يمكنك توضيح ذلك يا سيد دوغان؟.

أخرجت من حقيبتي كتاباً بعنوان «الوجه الخفي للتاريخ» للكاتب جتين ألتان وشرعت أقرأ من الصفحة 177:

«يتحدث البروفيسور اسماعيل حقي أوزون

تشارتشلي عن استلام محمد الثاني العرش للمرة الثالثة كما يلي:

عندما اعتلى محمد الثاني العرش في 18 شباط 1451 للمرة الثالثة في إديرنة كان عمره بين تسعة عشر وعشرين عاماً.

عندما توفي السلطان مراد كان له ولد آخر غير محمد يدعى أحمد من زوجته خديجة سلطان حفيدة اسفنديار بيك وكان لا يزال يرضع الحليب.

...وقد تم خنق هذا الطفل بموجب أمر من السلطان الجديد الذي أتى بسرعة إلى إديرنة...

«حتى أوزون تشارتشلي وهو العالم الكبير والجاد يحاول التخفيف من أهمية قيام محمد الثاني بإصدار أمر يقضي بقتل أخيه وهو لا يزال في سن الرضاعة بتقديم تبريرات مثل «هكذا اقتضت نزعته»

فما هي هذه النزعة؟!.

بعد هذه الحادثة بسبع وعشرين عاماً يسن محمد الفاتح قانونه المشهور، وبذلك ومن خلال أمر أصدره يقضي بقتل أخيه الرضيع يكون قد بدأ بنفسه بتطبيق هذه النزعة وهذا الميل.



وأما اسماعيل حامي دانيشماند فإنه يروي الحادثة ذاتها كما يلي:

«أحمد الصغير هو الولد الأصغر سناً بين أولاد مراد الثاني وكان لا يزال في القماط، وحالما يأتي الفاتح من مانيسا إلى إديرنة يأمر بخنق أخيه الصغير هذا الذي يعتبره غريمه ومنافسه المقبل على السلطة ويرسل نعشه مع جنازة والده إلى بورصة.

من أجل الإطلاع على الحوادث المتعلقة بعرف قتل العم والابن والأخ في التاريخ العثماني راجعوا حوادث عثمان غازي ومراد الأول وصافجي بيك وبيازيد الأول. لقد اتَّخذ هذا النوع من الإعدام السياسي، ابتداءً من عهد الفاتح، شكلاً قانونياً. ولكي يتم منع الاقتتال على السلطة بين الأمراء نص القانون العثماني على المادة التالية: أجازت غالبية العلماء للسلطان المتولي للعرش أن يقدم على قتل أشقائه من أجل المصلحة العليا ولكي ييسر أمور السلطنة.

- يا سيد دوغان في هذه الأحداث ثمة وجود لأفكار هوبز وماكيافيللي في آن واحد.

- معك حق. أتعرف ما هو المثير هنا؟! توماس هوبز، مفكر إنكليزي عاش بين عامي 1588- 1679، وقبل ذلك بسنوات، أي في عام 1215 صدر قانون في إنكلترا يدعى الميثاق الأعظم للحريات Magna carta Libertatum، وإذا سمحت لي أريد قراءة ما كتبه جتين ألتان حول هذا الموضوع. فقد كتب في الصفحة 186 من كتاب «الوجه الخفي للتاريخ» ما يلي:

«أتعرفون الجانب المحزن في الموضوع؟!.

في عام 1215 - أي قبل تأسيس الدولة العثمانية بخمس وثمانين عاماً- تم ضمان حقوق الفرد وصون

حرياته في إنكلترا من خلال قانون يدعى الميثاق الأعظم للحريات Manga cara Libertatum.

ينص هذا القانون الأساسي على ما يلي:

المادة 39 تنص على: عدم جواز القبض على شخص أو حبسه أو تجريده من حريته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه إلا بحكم قضائي طبقاً للقانون أو تعرضه للضرر ما لم يكن محكوماً بحكم نافذ حسبما تقتضيه قوانين الدولة، وكما أننا «الملك» لن نعتدي عليه أبداً، كذلك لن نسمح لأحدٍ بالاعتداء عليه.

وأما السلطان محمد الثاني فإنه يقوم بعد 262 عاماً، أي بين عامي 1477 و148. بإصدار قرارٍ يبيح للأمير الذي سيصبح سلطاناً قتل أخوته.



- لا أعتقد أننا فكرنا بالقدر الكافي حول هذا الموضوع يا سيد دوغان. علماً بأنه يتوجب على كل من آمن بقيم الجمهورية أن يقرأ هذه الأحداث، وأن يفكر بها ويقيِّمها دون أفكار مسبقة وأن يلقي الضوء عليها بغية كشف الحقائق. ولقد خطا جتين ألتان خطوة هامة في هذا المجال من خلال الكتاب الذي بين يدينا.

- يا سيد عارف يتحدث جتين ألتان في كتابه هذا بشكل مطوَّلٍ عن «وعي التاريخ» ويتألم من فقداننا لما يُسمى وعي خاص بالتاريخ، وفي هذه النقطة أعتقد أننا مدينون له بالشكر. فلقد ألَّف هذا الكتاب ضمن إطار موقف المحارب الحقيقي منطلقاً في ذلك من احترامه للحقيقة المجردة.

ولكن يجب ألا نغفل موضوعنا الأساسي الذي نتحدث عنه. فقد كنا نتحدث عن مصطلح القوة.

يقول هوبز: «يمكن للملوك اتخاذ وتطبيق القرارات الجائرة والظالمة من أجل حماية المصلحة العليا للمجتمع».

فما رأيك بهذا الموضوع؟!.

- أقول بأنه مخطئ.

- لماذا؟.

- لأنه مخطئ.

- هذا الجواب لا يرضي إنساناً يريد تطوير نفسه.

- لماذا يا سيد دوغان؟!.

- لأن الإدراك حدث ديناميكي وخاص بكل فرد. أوقف كافة المارين في الشارع واطرح عليهم السؤال التالي: «هل تعتبرون قيام الأمير الذي سيصبح سلطاناً بقتل أخوته الأمراء من أجل المنفعة العليا للدولة العثمانية سلوكاً صحيحاً أم خاطئاً؟» وأنا على ثقة تامة بأن معظمهم سيقول لك: «إنه سلوك صحيح».

- ربما تكون على حق.

- إذن، سأجدِّد سؤالي: ما هوَ رأيك بهذا الموضوع؟.

- إن اتفاق معظم الناس على صحة هذا السلوك لن يؤثر على رأيي بأنه خاطئ. ولست بالمستوى الثقافي الذي يؤهِّلني لأن أفسر لماذا أرى هذا السلوك خاطئاً، إنني ومع إقراري بذلك لا زلت أرى أنه من الخطأ إقدام من يريد استلام السلطة عل قتل أخوته، بل إن إقدامه على أمر كهذا يُعتبر بالنسبة لي خطأ فادحاً.

- جيد، الآن صرت مفكراً صادقاً... صرت مفكراً ضمن إطار موقف الطالب.

- حسناً يا سيد دوغان، بالنسبة لك هل هو سلوك صحيح أم خاطئ؟!.

- بدلاً من الجواب بصحيح أو خاطئ أرى أنه من الأفضل لو نقف عند السؤال التالي: أي وعي سلطوي ستنشئه فلسفة سلطة كهذه وأي مجتمع ستقيم وأي مستقبل ستخلق؟.

- حسناً، لأطرح السؤال على الشكل التالي: أي وعيي بالسلطة سيتم تشكيله ضمن مقاربة هوبز؟!.

- جواب سؤالك هذا أيضاً موجود في كتاب جتين ألتان الصفحة 37:

«إن تاريخ الإمبراطورية العثماني لا يشبه حكايات ملوك الجن التي يُنسج حولها خيالات وردية...

فإن كنت الوزير الأعظم للسلطان يافوز سليم فإنك ستشعر بوجود شبح جلاد مع كل نَفَس تأخذه.

وحتى إذا كنت أحد أمراء السلطان بيازيد الثاني فإنك لن تجد إمكانية للهرب من سيف الجلاد حتى وإن لوّنت لحيتك باللون الأبيض ووضعت على رأسك قبعة من جلد الجدي وطرت من أحد الأبواب الخلفية للقصر أو اختبأت في مغارة.

وحتى إذا كنت السلطان محمد الفاتح ذاته، فإن طريقة موتك ستبقى سراً ولن يعرف أحدٌ فيما إذا كنت قد مت لأن ساعة أجلك قد حانت أم لأنه وُضِع لك السم في طعامك قبل أن يصل عمرك إلى الخمسين.

امبراطورية كبيرة ومترامية الأطراف لكنها لا تضمن حياة أحد كائناً من كان: وزيراً أم أميراً أم سلطاناً.

نـزاع علـى الـسلطة لا ينتـهي، نـزاع دمـوي، نـزاع أسود ملـيء بالمؤامرات...

❖ ❖ ❖

- هـذا هـو وعـي الـسلطة الـذي يمكـن أن ينـشأ عـن فلـسفة سـلطة كفلـسفة هـوبز، إنـه جـوٌ سـلطوي لا يمكـن لأحـد فيـه أن يـأمن حياتـه وكـل شـخص فيـه يرتـاب مـن الآخـر، في جـوٍّ كهـذا يمكـن للمـرء أن ينتظـر في كـل لحظـة طعنـة خنجـر في الظهـر. فـإن كنـت ترغـب بحيـاة كهـذه فهـذا الـوعي الـسلطوي سـيؤمنها لـك. ولـذلك قبـل الـسؤال عـن «صـحة» أو «خطـأ» هـذا الـسلوك، يجـب أولاً الـسؤال عـن المـستقبل. فمـا هـو المـستقبل الـذي سـتنذر نفسك في سبيل تحقيقه وما هي الأجواء التي تخدم هذا المستقبل؟!.

- إذاً أستطيع أن أقول «خطأ» إن كنت أريد نظاماً مفعماً بالأمان.

- نعم. لأن هوبز وماكيافيللي وأمثالهما لا يمكن أن يخلقوا ما نـسميه اليوم النظام الديمقراطي ولهذا السبب أشاركك الرأي في قولـك بخطـأ هـذا النظام.

- أفهـم الآن مـا تريـد قولـه يـا سـيد دوغـان. فأنـت تريـد مـني رؤيـة المشاكل وتناولها بشكل واعٍ والحديث بعد معرفة النتائج.

- أشكرك لأنك رأيت ذلك وقبلته.

سـادت فـترة مـن الـصمت. خطـر علـى ذهـني أمـرٌ مـضحكٌ لا أعـرف كيف خطر، وبعد فترة من التفكير قلت له ضاحكاً:

- ليتنا نـرى هذا الجـو المفعـم بالتـسامح الـذي يـسود حـديثنا موجـوداً عند المشاركين في الندوات التلفزيونية.

- ليتنا نراه.

- أتعـرف اللوحـة الـتي أرسمهـا في خيـالي عنـدما أرى هـؤلاء وهـم يتحدثون في وقت واحد دون أن يستمع أحدهم للآخر؟!.

- لا، لا أعرف شكل هذه اللوحة.

- أرى مكان كل واحد منهم نوعاً من أنواع الكلاب الـتي تـشبهه وكلها تنبح على بعضها في لحظة واحدة.

- يا لها من لوحة مضحكة يا أستاذي.

- هل رأيت مجموعة مـن الكـلاب ينـبح كل واحـد فيهـا حسب دوره؟! حين ينبح أحدهم يصمت الآخر منتظراً دوره وهو يستمع لنباح زميله، وبعد أن ينـهي الأول نباحـه يـصمت ويـستمع لنبـاح الثـاني بكـل احـترام دون أن يقاطعه.

- فعلاً إنه لأمر مضحك.

- ما لم أستطع فهمه هو من يستمع لهذا النوع من النابحين؟.

- ربما يكون الذين يشاهدونهم ينبحون أمام شاشات التلفاز مثلهم.

- لحظـة، لقـد أحببـت هـذه اللقطـة: يقـوم مقـدم البرنـامج بتقـديم البرنامج والتعريف بضيوفه كما يلي: أحبائي المشاهدين، تستضيف ندوتنا عدداً من أفضل النابحين، وإننا على ثقة بأنكم ستستمتعون وأنتم تشاركوننا النباح أمام شاشة التلفاز. أهلاً بكم مع برنامج أفضل النابحين في البلد!...

ألقيـت نظـرة حـولي فوجـدت الـشابَّين ذوي الـوجهين العبوسـين قـد غادرا المكان ورأيت طفلة صغيرة تلاحق قطة تريد الإمساك بها، فحذَّرتها أمها قائلةً: «لا تقتربي منها ستعضُّكِ» فتوقفت الطفلة على الفور. تبادلنا أنا والسيد عارف النظرات فيما بيننا؛ فها نحن الآن نشاهد مثالاً ممتازاً على التعليم والتعلم المعتمد على تخويف الأطفال، وقد رأينا منذ قليل نتائج هذا النوع من التعليم في سلوك الفتاتين اللتين كانتا تهربان من قطة عمرها ثلاثة أو أربعة أشهر. أحزنني هذا المنظر الذي رأيته، أمْ استحقت أن توضع

الجنة تحت قدميها، مستمرة بتربية أولادها دون أن تشعر بهذا الضرر الذي تُلحقه بهم. عفواً، أخطأت حين قلت تربي أطفالها وكان من الأصح أن أقول تقوم بتقليم أطفالها.

- كان السيد عارف يعرف ماذا أراقب وبماذا أفكر، لأننا كنَّا دائماً على علم بما يراقب كلٌ منا وبماذا يفكر.

- عدت إلى موضوع الأبعاد الفلسفية للقوة:

- ربما يُعتبر المفكر الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucoult من أكثر فلاسفة ما بعد الحداثة تأثيراً. فلقد اهتم بالبنيوية من خلال دراسة العلاقة البنيوية بين اللغة والمعلومة، فيما بعد تحدث عن أفكاره المتعلقة بموضوع القوة، فقد كان مؤرخاً وفيلسوفاً وأطلق على بحثه مصطلح «أركيولوجيا المعلومة أو حفريات المعلومة»، ودرس الكتابات القديمة ليعرف كيف تم إنشاء المعلومة في التاريخ.

«درس العلاقة بين اللغة والحقيقة في عصور وفي حقب مختلفة ورأى أن هذه العلاقة لم توجد بشكل واضح بل كانت مبطَّنة وافتراضية وقد اعتُقد في عصر النهضة أن الحقيقة كانت مختبئة بين الكلمات وبعد ذلك أي في القرن السابع عشر بدأ الناس يعتقدون أن الكلمات لم تكن تخفي الحقيقة بل كانت تشير إليها».

«يقول فوكو: إن بنية الفكرة لا تعكس بنية ذهن الإنسان. وهو بقوله هذا يرد على العلماء من أمثال عالم السلالات (أنثروبولوجيا) كلود ليفي شتراوس الذين قالوا أن الإنسان يملك بنية للفكر وأن هذه البنية تجد انعكاساً لها في أساطير المجتمع؛ إذاً فوكو كان يعلم بوجود علماء يفكرون بهذه الطريقة ولكنه يقول بأنهم مخطئون في رأيهم هذا.

«يقول فوكو: إن بنية الفكر عند الإنسان تعكس علاقات القوة الموجودة في المجتمع. ويؤكد على أنه «في كل مكان توجد فيه المعلومة

ستجدون قوة تبذل جهوداً حثيثة للتعبير عن نفسها؛ وللقوة التي تفرزها المعلومة جانب قمعي وبطشي توجِّه الناس، من خلاله، إلى اتخاذ سلوك معيَّن».

«يُشير فوكو إلى أن العلوم الوضعية في عصر النهضة بذلت الكثير من الجهود بغية السيطرة على العالم بعد أن فرزت المعلومات إلى معلومات «صحيحة» ومعلومات «خاطئة»، فالقوي الذي ينتج المعلومة يحدد أيَّ المعلومات صحيحة وأيها خاطئة أي يفرض قبول بعض المعلومات ورفض بعضها الآخر؛ وبذلك تسيطر القوة بواسطة المعلومة على فكر وسلوك البشر.

- القوة التي يتحدث عنها فوكو هل هي ذات القوة التي تحدث عنها هيغل وماركس؟!.

- تحدث هيغل وماركس عن القوة وحدَّداها بشكل واضحٍ وصريح، وأما فوكو فإنه يتحدث بشكل أكثر شمولاً عن قوة ثقافية تؤثر على كامل المجتمع ولكننا لا نلمس وجودها بشكل واضحٍ وصريح.

- سيد دوغان هل سنتناول هيغل وماركس بالنقاش؟.

- أحبِّذ الحديث عن هيغل وماركس أثناء تناول موضوع التغيُّر.

- طبعاً، فقط أردت معرفة ذلك.

يأخذ فوكو مثالاً من عصر التنوير في أورية لكي يوضِّح كيف تسيطر المعلومة على سلوك الإنسان.

أعطى عصر النهضة مركز الصدارة والأولية لعقل الإنسان وحريته من جهة، ومن جهة أخرى بدأ بوضع من أسماهم «مجانين» في «مشفى المجانين» وأغلق الأبواب عليهم. كانت الحرية والعقل قيمتان هامتان ولكن إذا وجِد شخصٌ لا ينسجم مع قيم «الحرية والعقل» التي حددها الأطباء والفلاسفة والعلماء فيجب وضع هذا الشخص وأمثاله في مؤسسات خاصة

وحبسهم فيها وبذلك تم استخدام الذين في السجن من أجل تعريف الذين خارجه بأهمية العقل.

«فإذا لم تضع أحداً في مشفى المجانين فلن يكون هناك أي معنى للعقل والمنطق والحرية. لأن هذه المصطلحات تكتسب معنى من خلال مقارنتها مع أضدادها. ومن خلال إجراء مقارنة بين الناس وبين أضدادهم يتحول هذا الضد إلى «آخر» أدنى مستوىً منهم وغير سوي وغريب الأطوار. يُطلق على هذه العملية اسم «خلق المختلف أو خلق الآخر»، والإنسان الذي يستخدم عملية «خلق الآخر» ينظر إلى الإنسان الذي حوَّله إلى آخر نظرة دونية ليعرِّف نفسه، من خلاله، بأنه إنسان سوي.

يؤكد فوكو على عدم وجود فرق فطري كبير بين البشر وعلى أنهم متساوون من حيث الولادة، ولكنهم يتمايزون عن بعضهم شيئاً فشيئاً من خلال عملية «خلق الآخر» هذه، فالرجال يعرِّفون أنفسهم من خلال اعتبار النساء جنساً آخر والذين يعيشون حياة جنسية طبيعية يعرِّفون أنفسهم من خلال تحويل الجنسيين المثليين إلى آخر وكذلك يفعل المسيحيون واليهود والمسلمون حين يحول المنتمون إلى كل ديانة المنتمين إلى الديانات الأخرى إلى «آخر».

- إنها عملية قوية وصعبة يا سيد دوغان.

- عملية خلق الآخر؟!.

- أجل. إنها قوية جداً، ودائماً نلجأ إليها. حسناً ولكن ما علاقة ما تحدثنا به حول عملية خلق الآخر وبين موضوع القوة، هل هي على شكل «أصبح قوياً من خلال تحويل من لا يشبهني إلى «آخر»؟!.

- أجل، هذا التعبير البسيط لها. فلكي أعبِّر عن قوتي أقوم بإظهار تمايزي عنك، وهذا التمايز يكون من النوع الذي يُظهرني «متفوقاً» ويُظهرك «دوناً».

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- عندما أقول «أنا رجل» هل يدل هذا في مجتمعنا على أنني متفوق على النساء أم أدنى منهم؟!.

- حسناً لقد فهمت. ولكن ما علاقة ذلك بموضوع المحارب؟!.

- بفضل وعيه المراقب يكتشف المحارب عملية «خلق الآخر» مباشرة ويوقفها؛ فعملية «خلق الآخر» هذه من إفرازات الأنا الموضوعي وهي عملية ناجمة عن تبعية الفرد وعن المجتمع وعن الثقافة التي يعيش هذا الفرد فيها. ولهذا السبب فإن عملية «خلق الآخر» قائمة على قاعدة من الخوف.

- أرى أن علاقة الـ «أنا» والـ «أنت» موجودة في كافة علاقات القوة القائمة على الخوف والتي تحدثنا عنها حتى الآن.

- هذا هو شكل العلاقات القائمة على التمييز وعلى خلق المختلف والمشكّلة ضمن وعي «من الأقوى أنا أم أنت؟» أليس كذلك.

- هذا ما يبدو لي.

- مرحى لك. يمكننا تناول كل ما تحدثنا عنه ضمن إطار وعي الأنا - الأنت - النحن. وعندما تنذر نفسك من أجل مستقبل أساسه القيم ستجد أنك تولي الأهمية للطاقات أكثر من التمايزات وللمستقبل أكثر من الماضي، أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد.

- لا يمكنك إنشاء نظام أساسه القيم ضمن ثقافة أساسها الخوف، والنظام القائم على قوة من النوع الذي تحدث عنه ماكيافيللي وهوبز سيكون نظاماً أساسه الخوف.

- هل هذا يعني أنه إذا لم يتم تغيير أساس الثقافة فلن يكون المستقبل الذي سيتم خلقه مستقبلاً قائماً على القيم؟.

- اختلطت الكلمات ببعضها من شدة الازدحام. هل تشوَّش عقلك؟!.

- نعم لقد تشوَّش. كيف عرفت؟.

- لأنك طرحت سؤالاً فيه من الكلام أكثر مما فيه من الأفكار.

- ضحكنا. نظر السيد عارف إليَّ كأنه يقول «حسناً. ماذا سنفعل إذاً؟!.

تابعت حديثي:

- من المستحيل إنشاء عائلة أو تأسيس شركة أو إقامة نظام إذا تُركت الثقافة على ما هي عليه وتم التفكير بمعزل عن هذه الثقافة. هذه جملة أكثر بساطة أليس كذلك؟!.

- أجل، إنها أكثر بساطة. ولكن ماذا عليَّ أن أفعل إن كنت أرغب بخلق مستقبل جديد؟ فلقد بدا لي أنني لن أستطيع فعل أي شيء إن لم تتغيَّر الثقافة وما عليَّ إلاَّ الانتظار.

- ربما يزول خوفك هذا إذا أعطينا أمثلة أكثر تجسيداً. ما أردت قوله هو: أنك لن تحقق المستقبل الذي نذرت نفسك لأجله أبداً وأبداً إذا طلبت من تلاميذك أن يخافوا منك أو إذا خفت من زملائك المعلمين.

- أعرف جيداً ضرورة تمتُّعي بشخصية متكاملة من أجل المستقبل الذي نذرت نفسي في سبيل تحقيقه. فلقد قلت بأنه ثمة قيمتان تشكلان أساس المستقبل الذي أرغب بخلقه هما المحبة والتطوير، وأعرف ضرورة خلق هذا المستقبل اعتماداً على القوة التي سأستمدها من هذين الأساسين وليس اعتماداً على الخوف.

- حسناً يا سيد عارف، إذاً أنت بهذا المعنى لست مسؤولاً عن تغيير المجتمع بأكمله، فأنت مسؤول فقط عن سلوكك وعن تصرفاتك. إنك واعٍ لضرورة بقائك ضمن المدى المجدي لمسدسك.

- ولكن سلوكي وتصرفاتي سيؤثران على البلد بأكمله.

- طبعاً، ثم هناك سبب أساسي وراء توجهك هذا ألا وهو خلق مستقبل أكثر قوة وأكثر سلامة وأكثر سعادة لهذا البلد، فمن الطبيعي أن تكون مدركاً لهذا الوضع.

- هذا يعني أن وضعي ونيَّتي التي تشكل أساس هذا الوضع هما من يوجِّهني وليست القيم الحالية للثقافة.

- أجل، وهنا النقطة الحساسة في الموضوع. **يستمد المحارب قوته من المستقبل الذي نذر نفسه في سبيل تحقيقه**، بداية يخلق هذا المستقبل ضمن إطار نيته الصافية وبعد ذلك يبدأ مرحلة التنفيذ مزوداً بالقوة التي استمدها من هذا الصفاء.

- هل تقصد بصفاء نيته عدم وجود الخوف لديه؟!.

- ينجم عدم خوفه من عدم وجود أية مصلحة أنانية نابعة من الأنا الموضوعي، من المستقبل الذي يريد خلقه.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- من جديد سآخذ منك مثالاً: إذا كنت تنتظر من المستقبل، الذي نذرت نفسك في سبيل تحقيقه، مالاً أو مركزاً أو شهرة أو أي مصلحة أنانية أخرى فإن «نتيجة» العمل الذي تقوم به ستأخذ الأهمية والأولوية، وسيبدأ الخوف لديك ولسان حالك يقول: «هل سأفشل بما أقوم به؟» وأما إذا كانت نيتك صافية فسيصبح كل ما تتطلع إليه هو بذل كل ما بوسعك لإنجاز الأفضل، وطالما أنك تبذل كل ما بوسعك لإنجاز أفضل ما يمكن إنجازه في سبيل تأمين إمكانيات كفيلة بتطوير طلابك فإنك لن تخاف من أي شيء مهما كانت النتائج.

- نلف وندور ونعود إلى النية. ولهذا السبب على ما يبدو بحثت موضوع النية منذ البداية.

- القرارات التي تُتَّخذ بصفاء نية هي أهم مصادر قوة المحارب.

❖ قوة الذهن:

كنا على وشك الانتهاء من حديثنا. لأنني بدأت أشعر بالتعب وأما السيد عارف فقد كان ينظر إلى عينيَّ بكل انتباه وحيوية. نهضت مقترحاً السير باتجاه الجامع. فبدأنا السير والحديث معاً.

- توفُّر صفاء النية للمحارب القدرة على التركيز على المستقبل والتمحور حوله، فالمحارب لا يريد أي شيء سوى التفكير بالمستقبل الذي نذر نفسه في سبيل تحقيقه، ينسِج أحلامه المتعلقة بذلك ويوجِّه كل طاقاته وعمله من أجل تحقيق هذه الأحلام وهذا الهدف.

- يصبح التركيز قوياً في هذه الحالة ويكون لهذا التركيز أثر كبير في نجاح المحارب.

- لذهن المحارب قوة لا يُستهان بها يا سيد عارف وقد تحدثت عن ذهن الإنسان عندما كنا نناقش موضوع الغيبوبة - التنويم المغنطيسي. أريد الآن العودة إلى هذا الموضوع من خلال المثال التالي:

يقدم الكاتب الأمريكي دينيز وايتلي Denis Waitley في كتابه Empires of the Mind المثال التالي، سأقرؤه عليك كما أورده:

«هذه قصة عامل في مصلحة السكك الحديدية يدعى نايك، نايك عامل قوي سليم البنية يعمل في ساحة التشغيل، علاقته جيدة مع أصدقائه وينجز عمله بشكل جيد... وهو شخص صادق ومحل ثقة ولكنه متشائم جداً وينتظر في كل لحظة حدوث أسوأ ما يمكن توقعه ويخاف من وقوع المصائب على رأسه في كل لحظة. ذات يوم صيفي يتم إنهاء الدوام وصرف عمال القطار قبل الوقت الأصلي بساعة بسبب عيد ميلاد رئيس العمال. يأتي نايك إلى المحطة من أجل تصليح

إحدى الآلات ويدخل عربة التبريد الموجودة في ساحة التشغيل فيُغلق الباب عليه بالخطأ من الداخل ويجد نفسه محبوساً في عربة التبريد. يعتقد بقية العمال أن نايك خرج من المحطة قبلهم. يبدأ نايك بركل الباب برجله ثم يصرخ بأعلى صوته ولكن لا أحد يسمعه وحتى الذين يسمعونه لا يعيرون انتباهاً له في جوٍ مليءٍ بالضجيج والأصوات.

يشعر نايك هنا بالخوف من أن يموت متجمداً في هذا المكان ويفكر قائلاً: «إذا لم أتمكن من الخروج من هنا فإنني سأتجمد وأموت ثم يدخل في صندوق من الورق المقوى ممزق من منتصفه ويبدأ بالارتجاف من شدة البرد، فيمسك ورقة وقلماً ويكتب لزوجته وعائلته آخر ما كان يفكر به: «الجوُ بارد جداً هنا لقد بدأ جسدي يفقد الإحساس وإن استطعت النوم فقد تكون هذه آخر كلماتي.

في اليوم التالي يفتح العمال باب عربة التبريد فيعثرون على جثة نايك المتجمدة، وقد تبين بعد تشريح الجثة أن نايك مات متجمداً، ولكن المثير في هذه الحادثة والذي جعل منها حادثة غير عادية وغير طبيعية هو أن محرك التبريد في العربة كان معطلاً وأن درجة الحرارة كانت 18 درجة مئوية، وكان في العربة مقدار كافٍ من الهواء. إن خوف نايك جعله يكتب مصيره بنفسه.

- هذا يعني أن نايك كان قد أشرط نفسه بأنه سيتجمد.

- بالتأكيد. وبالتالي يمكنك رؤية القوة التي يمتلكها الذهن، أليس كذلك؟!.

- أمر مدهش فعلاً، لا شك أنك أجريت أبحاثاً حول هذا الموضوع.

- أجل، ثمة عدد كبير من الدراسات حول هذا الموضوع، ولكنني لم أطلع عليها كلها، بيد أنني أستطيع القول: بأن العديد من الأطباء يُقرُّون بتأثير الذهن على الإنسان في المرض وفي الشفاء من المرض. فالدماغ يؤثر على الغدد المفرزة مما يؤدي إلى ظهور أمراض مختلفة أو يؤدي إلى الشفاء من المرض. ولا أريد هنا الدخول في تفاصيل هذا الموضوع لأنه يحتاج إلى بحث خاص مستقل عن موضوعنا.

- ولكني أستطيع رؤية علاقته مع موضوع المحارب، فالمحارب فدائي ضحى بنفسه في سبيل خلق المستقبل بنية خالصة. فهو يخلق عالماً في ذهنه وهذا العالم بالنسبة له عبارة عن حقيقة ذات معنى، وطبعاً يشكل هذا له مصدراً كبيراً للحماسة والطاقة.

- لا أستطيع تقديم تعبير أجمل مما قلته يا سيد عارف.

واصلنا سيرنا من أمام الجامع باتجاه الطريق الرئيسي، قال السيد عارف بأنه يريد الذهاب إلى بشكتاش فتركته هناك وتابعت طريقي بواسطة سيارة أجرة إلى جيهانغير.

اتفقنا على أن يكون لقاؤنا التالي في الساعة الثانية من يوم السبت القادم في مقهى مدرسة تشورلولو باشا الموجودة على الجانب الأيسر من الطريق المتجه من جامع السلطان أحمد إلى بيازيد، وسنتناول في لقائنا موضوع المسؤولية.

6
المســؤولية

التقيت والسيد عارف في منطقة تشامبرلي تاش ومن هنا ذهبنا سيراً على الأقدام إلى منطقة بيازيد، ثم دخلنا إلى مدرسة تشورلولو باشا الموجودة على يميننا. ثمة بائع يانصيب يقف على الجهة اليمنى لمدخل هذه المدرسة على الزاوية بين طريق الترامواي وشارع شاحذي السكاكين، وأما على الجانب الآخر من باب الحديقة فيقف ماسح أحذية.

لفت انتباهي ونحن ندخل وجود لوحات إعلانية بلاستيكية معلقة على كلا الجانبين مكتوب عليها باللغة الإنكليزية لجذب السياح وهي عبارة عن إعلانات عن السجاد والبسط، كان بعض هذه اللوحات مشققاً وبعضها الآخر مخلوعاً، إنها مهملة إلى أبعد حد ووسخة ويغطيها الغبار. تحت هذه اللوحات توجد لوحة مكتوب عليها «حديقة وصالة إرينلر للشاي والنرجيلة».

أول ما يلفت انتباه الداخل إلى هنا هو المواقد الصغيرة المنتشرة على الأرض على الجهة اليسرى، وُضع في هذه المواقد فحمٌ تلتهب النار فيه وهناك قسم من الفحم وُضِع حديثاً وقسم ثالث احترق بالكامل وتحول إلى كتلة حمراء من اللهب. على يمين ويسار المدخل يوجد عدد من القبور فُصلت عن المدخل بسياج حديدي وكأن هذا الطريق قد شُقَّ بين القبور، كانت القضبان الحديدية صدئة وقد رُميت الأوراق والأوساخ إلى جانبها

حتى تحول هذا المكان إلى ما يُشبه المزبلة. كأن الغبار والأوساخ قد تداخل مع السياج الحديدي. لم تكن الفيء تفارق المدخل المغطى ولهذا السبب عرّشت الطحالب على الجدران... ثمة رائحة للطحالب تفوح في كل مكان...

عندما ينتهي المدخل تصادف أمامك بيت الشاي، وواجهة زجاجية تحتوي على كافة أدوات النرجيلة من خراطيم وزجاجات وغيرها، فهذا المكان يحاول الحفاظ على ثقافة النرجيلة وجذب كل محبيها إلى هنا. ثمة رجل يطلي الغرفة المجاورة لغرفة الجلوس الكبيرة الموجودة في حديقة الشاي، وبين الفينة والأخرى يأخذ قسطاً من الراحة ويأخذ نفساً من النرجيلة، لأول مرة أرى رجلاً يطلي الجدران ويشرب النرجيلة في وقت واحد. نظرت إلى السيد عارف فوجدت حاله كحالي من هذه الناحية وكأننا أمام مفاجأة سارّة.

محلات بيع السجاد والبسط تحيط بالفناء من كل الجهات، لا أعتقد أن هناك أي فرق بين هذه المخازن الصغيرة كما لا أعتقد بوجود أي تنافس فيما بينها. ثمة واجهة لبيع بطاقات عليها صور لمدينة استانبول، انتشرت المقاعد والكراسي البلاستيكية في الفناء، مقاعد أثرية سُترت بسجاد فاخر وإلى جانبها كراسٍ بلاستيكية من أرخص الأنواع.

جلسنا في مكان قريب من مدخل الفناء، المكان يغص بالشبان والكهول، المواطنين والسياح الأجانب. كما أن سكان استانبول يترددون إلى هذا المكان وهذا يظهر من إلقائهم التحيات يميناً ويساراً ومن الأريحية البادية على عيونهم وهم يراقبون المكان.

يبدو أن هذا المكان يعطي امتيازات لشاربي النرجيلة. ولذلك يبدو أن هؤلاء يعتبرون أنفسهم النخبة هنا، وكأنه كُتب في مكان غير منظور على كل الطاولات عبارة «هذا مكان لشاربي النرجيلة».

❖ حكيم من الهنود الحمر:

طلبت كأساً من الزهورات بينما طلب السيد عارف كأساً من شاي التفاح.

دخلت إلى الموضوع بقولي: «تحدثت معك سابقاً عن دون جوان Don Juan أليس كذلك؟!» فسألني: «هل تقصد الحكيم الهندي الأحمر؟!».

- أجل.

- نعم تحدثت معي حول هذا الشخص، قلت يومها بأن شخصاً يدعى كارلوس كاستانادا Carlos castanede تعرَّف عليه عندما كان يحضِّر رسالة دكتوراه فألَّف حوله تسعة كتب.

- أريد بين الحين والآخر قراءة بعض الأجزاء من كتابه لأنني أعتقد أنها ستساعدنا في فهم المواضيع التي نتناولها بشكل أفضل.

- تفعل خيراً، فأنا متشوق لهذا الموضوع.

أخرجت كتاب Journey to Ixtlan للكاتب كارلوس كاستانادا وفتحت على صفحة كنت قد وضعت إشارة عليها وشرعت أقرأ وأترجم له ما أقرأه. ولكن قبل أن أبدأ قال السيد عارف: «أعتقد أن هذا الكتاب مترجم إلى اللغة التركية» فقلت له: «توجد ترجمة لهذه السلسلة من الكتب ولكنني أستخدم هذه النسخ من الكتب لأنني قرأتها باللغة الإنكليزية ووضعت إشارات عليها عندما كنت في كاليفورنيا. وشرعت أقرأ على السيد عارف المقاطع التي وضعت خطاً تحتها، ولكنني وجدت أنه من المناسب تقديم بعض المعلومات عن علاقة كارلوس بـ دون جوان قبل قراءة هذه المقاطع.

- احتلت هذه المشاهدات وعلاقات التأثير والتأثر مكاناً لها في الزيارة التي قام بها كارلوس إلى القرية التي يسكن فيها دون جوان، تلك القرية الواقعة في شمال المكسيك.

قاطعني السيد عارف وسألني: «يا أستاذي ألم يكن موضوعنا حول

المسؤولية؟» فقلت له: «نعم. موضوعنا اليوم حول المسؤولية» وتابعت من النقطة التي توقفت عندها:

- اختار كارلوس موضوع «استخدام الهنود الحمر للأعشاب في الطب» لنيل درجة الدكتوراه. وكان يتردد على زيارة دون جوان من أجل جمع المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع واستخدامها في أطروحته، بينما كان دون جوان يسعى لتربية كارلوس كشخص محارب ولكن كارلوس لم يكن واعياً لما يجري. فقد أعدَّ دون جوان برنامجاً تدريبياً محدداً لتأهيل كارلوس كمحارب. وتحتل كافة هذه الأحاديث والتأثيرات مكاناً لها كجزء لا يتجزأ من هذا البرنامج، علماً أن كارلوس حتى اللحظة لم يكن يدري بأن له مكاناً في برنامجٍ كهذا.

«يجب الاستماع إلى التواصل والتفاعل الذي جرى فيما بينهما ضمن هذا الإطار:

«سحب حصيراً وتمدد عليه ثم وضع شيئاً يشبه الكيس تحت رأسه وسوّى جلسته جيداً وبدأ حديثه قائلاً: إن كنت تريد الحصول على معلومات أكثر حول النباتات عليك القيام بشيء آخر.

فهمت عندما رأيتك أول مرة انك لا تشعر بالمسؤولية حيال الأشياء التي تقوم بها، «هذه حالتك عندما رأيتك أول مرة وهذه هي حالتك الآن» كان يقول لي هذا الكلمات ببطءٍ شديدٍ رغبة منه في أن أفهمها وأستوعبها جيداً «كل ماً قلته لي في كراج الباصات كان كذباًوأنت تعلم ذلك، فلماذا كذبت عليَّ؟»

فقلت له إن هدفي الحقيقي هو العثور على شخص يقدم لي المساعدة ويزودني بالمعلومات الضرورية

للبحث الذي أقوم به.

ابتسم دون جوان وراح يدندن لحناً مكسيكياً.

«إذا قرر الإنسان فعل شيء ما يجب عليه الاستمرار فيه حتى النهاية، شريطة أن يتحمل مسؤولية هذا الشيء الذي يقوم به، وليفعل بعد ذلك ما يشاء فعله، ولكن أولاً يجب أن يعرف لماذا يقوم بهذا العمل وبعد ذلك يجب استخدام كل ما يملكه من قوة لإنجاز هذا العمل دون تردد ودون أدنى شك.

نظر إلي، كان يتفحصني بعينيه لم يخطر على ذهني أي شيء لأقوله، وبعد ذلك، ومن أجل الاعتراض فقط، قلت له: «هذا غير ممكن» فسألني عن سبب عدم إمكانية ذلك فقلت له: عندما يقرر الناس فعل شيءٍ ما ربما يقررون فعله اعتقاداً منهم أنه سهلاً ولكن عندما يحين وقت التطبيق لا بد من دخول الشك إلى قلب الإنسان وبعد ذلك من غير الممكن ألاَّ يشعر بالندم فردَّ بلهجة إنسان يعرف جيداً ما يريد ويؤمن بصدق ما يقوله قائلاً: طبعاً ضمن حدود الإمكانيات» وأردف قائلاً: انظر إلي هاأنذا ليس لدي أي شك أو ندم وكل ما أفعله أعتبره قراري ومسؤوليتي. إن أبسط ما يمكن أن أفعله هو إخراجك في نزهة إلى الريف وقد تنتهي بي هذه الرغبة إلى الموت، فالموت يلاحقني ويكمن لي دائماً، ولهذا السبب لا يوجد في حياتي أي مكان للشك أو للندم. فإذا كان إخراجي لك في نزهة سيؤدي بي إلى الموت فسأكون مستعداً للموت دون أدنى تردد.

ولكنك أنت تتصرف وكأنك إنسان خالد والخلود قد يلغي قرارات الإنسان وقد يشعره بالندم، وفي عالم يمارس فيه الموت مهنة الصيد لا يمكن أن يكون فيه وقت للشك والندم، الوقت الذي فيه يكفي فقط لاتخاذ القرارات.

فقلت له لا يمكن أن يكون هذا العالم المفعم بالصدق والإخلاص هو العالم الحقيقي، والقول بضرورة أن يكون كل سلوك يقوم به الإنسان سلوكاً مثالياً والتصرف بشكلٍ مثالي لهو كلام اعتباطي لا يمكن أن يكون بينه وبين الحياة الحقيقية أية علاقة.

أحضر النادل ما طلبناه ثم تركهم على الطاولة وغادر. كانت تفوح من الزهورات رائحة طيبة، أخذت رشفة وتابعت القراءة:

رويت له حكاية والدي. فقد كان والدي يقدم إليَّ نصائح لا تنتهي ولا تنضب: العقل السليم في الجسم السليم، يجب على الشباب تطوير أنفسهم من خلال مواجهة الصعاب وممارسة الرياضة... وغيرها الكثير من الحِكم والمواعظ، عندما كنت في الثامنة من عمري كان والدي لا يزال شاباً في السابعة والعشرين من عمره، وعندما كانت المدرسة، التي يعمل فيها تغلق أبوابها في الصيف كان يصطحبني معه إلى بيت جدي في المزرعة لكي يبقى معي شهراً بأكمله. كان هذا الشهر يمضي وكأنه جهنم بالنسبة لي، ولأن إحدى سلوكيات والدي كانت متعلقة بالموضوع الذي دار بيني وبين دون جوان فقد شرحته له.

حالما كان يصل والدي إلى المزرعة كان يؤكد على خروجي معه في مسير طويل. كنا نتحدث كثيراً أثناء سيرنا ونضع خططاً كثيرة. إحدى هذه الخطط كانت تتضمن الذهاب إلى السباحة كل يوم في الساعة السادسة صباحاً. فيقوم كل مساءٍ بضبط ساعة التنبيه على الخامسة والنصف صباحاً، حسب الخطة يجب أن نستيقظ باكراً لكي نكون الساعة السادسة في الماء. وعندما كان المنبه يرن في الصباح ينهض والدي من نومه يضع نظارته على عينيه ثم يقف إلى جانب النافذة وينظر إلى الخارج. لقد حفظت عن ظهر قلب ما كان يردده دائماً وهو يحدث نفسه: «همّ م م م... اليوم غائم جزئياً، انظر إليّ سأعود للنوم، سأنام خمس دقائق أخرى فقط، هل فهمت؟!. ليس أكثر من خمس دقائق، سأريح جفنيّ قليلاً وبعد ذلك سأنهض. ولكنه كان في كل يوم يواصل نومه أحياناً حتى العاشرة وأحياناً كان ينام حتى فترة الظهيرة.

قلت لـ دون جوان أكثر ما كان يُغضبني هو تكراره للجمل ذاتها كل يوم بإصرار مخادع، وكل يوم كان يقوم بالحركات ذاتها. أذكر أنني ذات يوم رفضت ضبط الساعة فغضب مني كثيراً.

بدأ دون جوان حديثه بأسلوب يُظهر انحيازه إلى والدي فقال: لم يكن تصميمه مخادعاً ولكن المسكين لم يكن يعرف كيف ينقذ نفسه من السرير، هذا هو كل الموضوع.

فقلت: مهما يكن فأنا لا أثق بتصميم كهذا ليس له أية صلة بالواقع. فابتسم ابتسامة غامضة وسألني: وكيف يكون التصميم الحقيقي برأيك؟. فأجبت قائلاً: لو أن والدي قبِل بفكرة عدم تمكنه من الذهاب إلى السباحة في الساعة السادسة صباحاً ولو أنه اتخذ قراره بأن نذهب في الساعة الثالثة بعد الظهر لكان تصميمه أكثر واقعية.

فقال دون جوان بلهجة إنسان يقول شيئاً هاماً جداً: القرارات التي تتخذها تزهق روح الإنسان.

شعرت بأن صوته مفعم بالحزن. صمتنا لفترة طويلة. زال غضبي ثم فكرت بوالدي.

بدأ دون جوان حديثه بالقول: لم يكن والدك يرغب بالسباحة في الساعة الثالثة بعد الظهر، ألم تفهم ذلك؟!.

أرعبتني كلماته.

قلت كان أبي إنساناً ضعيفاً وكذلك أعماله، المتعلقة بعالمه المثالي التي لم يستطع تطبيقها أبداً، كانت ضعيفة.

قلت هذه العبارة بنبرة صوت عالية أشبه ما تكون بالصراخ.

لم يتفوّه دون جوان بأية كلمة، بل كان يهز رأسه بشكل إيقاعي، أحسست بحزن يسري في جسدي وقد خلق التفكير بوالدي إحساساً شمل ذاتي بأكملها.

خاطبني بصوتٍ لامبالٍ قائلاً:

«كنت تظن نفسك أقوى منه أليس كذلك؟!.

فقلت له بأنني أقوى من والدي وشرحت له ما

كنت أعانيه بسببه ولكنه لم يسمح لي بمواصلة الحديث فقاطعني قائلاً:

- هل تصرَّف يوماً بطريقة تسيء لك؟ هل قدَّم اية إساءة لك؟.

- لا..

- هل أزعجك او عاقبك لسبب بسيط وغير هام؟.

- لا..

- هل فعل ما فعله بغية تقديم المساعدة لك ومن أجلك؟.

- نعم..

- إذن أين علَّته؟.

بدأت من جديد حديثي بطريقة أشبه ما تكون بالصراخ قائلاً: لقد كان إنساناً ضعيفاً. وفي منتصف الجملة انتبهت إلى نبرة صوتي المرتفعة، فعملت على خفضها. أدهشني قيام دون جوان باستجوابي.

- لِمَ تفعل بي كل هذا؟ كان من المفروض أن يكون حديثنا عن الأعشاب.

أحسست بالتشاؤم وبأن غضبي بدأ يزداد فقلت له ليس من حقك محاسبتي على سلوكي أو تقديم النصائح لي.

فراح يقهقه ثم قال:

- عندما تغضب تشعر بأنك متفوق أليس كذلك؟!

كان ما قاله صحيحاً، إذ أنني أشعر انني متفوق

وأنني على حق عندما أغضب. ثم طلبت منه ألا نتحدث عن والدي، شعرت أنني تفوّهت بهذه الجملة كي أشعر بالسعادة. ثم طلبت منه أن نتحدث عن الأعشاب، فأصرَّ على موقفه قائلاً:

- لا، بل سنتحدث عن والدك. فهذا هو الموضوع الذي سنبدأ منه. فإن كنت تشعر أنك أقوى من والدك فلماذا لم تستيقظ كل يوم في الساعة السادسة صباحاً وتذهب بمفردك إلى السباحة؟!.

فقلت له بأنني لا أصدِّق أذنيَّ وبأنه يجب ألا يطرح عليَّ سؤالاً كهذا لأن فكرة السباحة في الساعة السادسة صباحاً كانت فكرة والدي وليست فكرتي. فردَّ عليَّ على الفور قائلاً: بل أصبحت فكرتك منذ اللحظة التي قبلت فيها فكرة والدك. فقلت: لم أقبل يوماً بهذه الفكرة وكنت أعرف جيداً أن والدي لن يلتزم بالقرارات التي يتخذها. فسألني دون جوان: لماذا لم تنقل قناعتك هذه لوالدك؟ فحاولت توضيح سبب ذلك بالقول: لا يمكن للإنسان أن يتكلم شيئاً كهذا مع والده. فقال: لماذا لا يمكنه التحدث بأمرٍ كهذا؟!. فقلت: لا يمكن حدوث أمر كهذا في منزلنا، هذا كل ما في الموضوع. فأصدر حكمه عليَّ بصوت جهوري أشبه ما يكون بصوت القاضي قائلاً: ولكنك فعلت في ذاك البيت أموراً وأشياءً أسوأ بكثير من هذا التصرف، والشيء الوحيد الذي لم تفعله هو أنك لم تنتفض وتضئ ذاتك.

كان في صوته قوة تسحقني وتوقظ أصداءً عالية

في ذهني فانهارت كل وسائل الدفاع التي أمتلكها. لم أكن أستطيع مناقشته فتجنبت الرد عليه وانشغلت بكتابة بعض الملاحظات.

وفي النهاية قدمت تصريحاً ضعيفاً حيث قلت: خلال حياتي تعرفت على أناس كثيرين يشبهون والدي فهم أيضاً يضعون خططاً ويشركوني بخططهم وفي النهاية لا يحققون أي شيء ولا ينفذون هذه الخطط وأجد نفسي دائماً في الفراغ.

رخَّم صوته وقال: «إنك تشكو وتتذمر فكل حياتك تمضي بالتذمر والشكوى، لأنك لا تتحمل مسؤولية القرارات التي تتخذها، فلو تحملت مسؤولية القرار الذي وافقت والدك عليه والمتعلق بالسباحة كل يوم في الساعة السادسة صباحاً لكنت ذهبت وسبحت، حتى لو اقتضى الأمر ذهابك بمفردك، أو كنت قلت لتذهب هذه الخطط إلى الجحيم من اللحظة التي اكتشفت فيها أن والدك لا يلتزم بقراره وبأن الأمر مجرد لعبة يقوم بها. ولأنك لم تفعل ذلك فأنت ضعيف مثل والدك.

«إن قبول الإنسان بتحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها يعني استعداده للموت في سبيل هذه القرارات.

فقلت له: لحظة، إنك تأخذ الأمور وتعكسها...

لكنه لم يتركني أكمل حديثي فقد كنت أريد أن أقول له: «لقد اتَّخذت من والدي مثالاً وحسب. إذ لا يوجد رجل عاقل يكون مستعداً للموت في سبيل أمر سخيف كالسباحة في الساعة السادسة صباحاً. وتابع

قائلاً: ليس مهماً ما هو القرار الذي تتخذه، فلا يوجد شيء أهم أو أقل أهمية من شيء آخر. ألا ترى ذلك؟ في عالم يعمل الموت فيه صياداً لا يوجد قرارات صغيرة وقرارات كبيرة، وكل ما في الأمر أن هناك قرارات نتخذها ونحن نعي أننا نقف وجهاً لوجه أمام حتمية الموت.

لم أتفوَّه بأية كلمة. مضت ساعة كاملة، كان مستلقياً على الحصير دون أدنى حركة ولكنه كان يقظاً.

سألته قائلاً: لماذا تقول لي كل هذه الأمور يا دون جوان؟ ولِمَ تفعل معي كل هذا؟

فقال: أنت الذي أتيت إلى عندي. لا.. لا، هذا غير صحيح بل أنت جُلِبت إلى عندي وأنا وضعت عليك لمسات خاصة.

- عفواً لم أفهم.

- أنت أيضاً لو سبحت كنت وضعت لمسات خاصة من أجل والدك ولكنك لم تفعل، ربما لأنك كنت صغيراً، أنا عشت أكثر منك وليس لدي ما ينتظرني كما لا يوجد لديَّ أية أمور معلقة كما أنني لست على عجلة من أمري ولهذا أستطيع وضع لمسات خاصة ومناسبة لك.

أستطيع رؤية الانتباه الكبير الذي يعيرني إيَّاه السيد عارف أثناء القراءة.

- من خلال ما قرأته عليك، ما هو المفهوم الأساسي الذي يصرُّ دون جوان على الوقوف عنده برأيك؟.

صمت السيد عارف فترة، كان واضحاً أنه يعيد النظر بكل الحكاية. أخذ رشفة من كأس الشاي ثم بدأ حديثه قائلاً:

- شعرت بوجود أكثر من مفهوم في المقطع الذي قرأته. أول هذه المفاهيم هو المسؤولية، أي أن يعيش المرء وهو يشعر بمسؤوليته عن كافة القرارات التي يتخذها، هذا هو المفهوم الأساسي الذي يحاول دون جوان الوقوف عنده. وقف أيضاً باهتمام عند وعي الموت، فلقد أكد على أن الشعور بالمسؤولية أمر لا بد منه لأن الموت قريب منا .. بجانبنا، وبأن حياتنا لن تدوم إلى ما لانهاية بل هي محدودة. قلت وعي الموت هو المفهوم الثاني، أما المفهوم الثالث فهو أنه لا يوجد أي قرار أكثر أهمية أو أقل أهمية من قرار آخر، وأكد على أهمية اتخاذ القرارات بعد التفكير بها والتعامل معها بجدية وبعدم التراجع عن القرارات التي تم اتخاذها.

❖ الأسئلة التي تخطر على الذهن

فيما يتعلق بمفهوم المسؤولية:

بعد أن أنهى السيد عارف كلامه نظر إلى وجهي كأنه يسألني: «هل ما قلته صحيح»

- حقيقة لقد استمعت بشكل ممتاز يا سيد عارف. سنقف خلال حديثنا اليوم عند موضوع المسؤولية، وأما موضوع وعي الموت فسنقف عنده في حديثنا القادم.

تتمحور نظرة المحارب الأساسية حول أهمية كافة القرارات التي يتخذها، وسنتطرق إلى هذا الموضوع كلما مرَّ معنا.

أخذت عدة رشفات من كأس الزهورات ثم نظرت حولي... أقيمت أماكن للجلوس حول نافورة جافة في وسط الفناء وتم تحويلها إلى جزء من المقهى.

ثمة رجل، من المحتمل أن يكون من مدينة غازي عنتاب، ذو سحنة سمراء داكنة في الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره، شعره أبيض

ولحيته بيضاء لم تُحلق منذ ثلاثة أو أربعة أيام ويرتدي قميصاً أبيض بأكمام طويلة. يجلس على إحدى الطاولات الموجودة حول النافورة ووجهه متجه نحوي. في الحقيقة لا يمكن إطلاق اسم طاولة على هذا الشيء الذي يتوسط الكراسي. فهو عبارة عن أربعة أرجل وُضع عليها لوح من الخشب وعندما يجلس المرء على كرسي منخفض فإن هذه المسماة طاولة لا تصل إلى مستوى ركبتيه.

إنني موجود الآن في مكان تاريخي في استانبول وأتجاذب أطراف الحديث مع السيد عارف في موضوع لفت انتباهي. ثمة سعادة تغمرني وشعور بالامتنان يسري في جسدي لكوني أقوم بعمل كهذا.

طرحت سؤالاً على السيد عارف:

- ما هي المسؤولية برأيك؟ وكيف تعرِّف المسؤولية؟.

- المسؤولية تعني استعداد المرء لدفع فاتورة كل أمر يأخذه على عاتقه، ويمكن أن يكون هذا الأمر عمل أو قرار أو عملية أو ممارسة.

- إنني أقبل بهذا التعريف، إذ أن هذا الكلام يعني أن ثمة أساس للمسؤولية يتضمن الاستعداد لدفع الفاتورة وطبعاً شعور الاستعداد لدفع الفاتورة نجم عن وجود افتراض أساسي ويمكن أن يتضمن هذا الافتراض ما يلي: «أنا من يوجِّه كل ما يجري في حياتي وأنا من يؤثر بها».

- يبدو لي أن لهذا الافتراض علاقة بتكامل الشخصية.

- طبعاً توجد علاقة كهذه، فتكامل الشخصية في الحقيقة هو نوع من أنواع المسؤولية، أي أن تكامل الشخصية يظهر عندما يكون الشخص مستعداً لدفع الفاتورة ضمن جو من الانسجام بين أفكاره وأحاسيسه وعمله.

«إذ أن انسجام الأفكار والأحاسيس والأعمال مرتبط بي أنا وليس بإنسان آخر أو بالشروط الموجودة خارجي. فالقوة التي تفرض الانسجام

بين أفكاري وأحاسيسي وأعمالي موجودة لديّ والذي سيدفع الفاتورة هو أنا، وهذا ما يعطي لمسؤولية معنى.

- لا يمكن أن تتكامل الشخصية دون مسؤولية، هل أستطيع أن أقول بأنني أدركت المعنى بشكل جيد؟!

- كلا، ليس هذا ما أقصده، فالمسؤولية مفهوم أكثر شمولاً ولهذا السبب أريد مناقشة هذا المفهوم بكل عمق.

«عندما أفكر بموضوع المسؤولية يخطر على ذهني عدد من الأسئلة سأوردها هنا وبعد ذلك سنتناول هذه الأسئلة كل على حدة:

❖ ما معنى أن يتحمل الإنسان مسؤولية عمل ما؟ أي ما هو الفرق بين إنسان يتحمل مسؤولية العمل الذي يقوم به وبين إنسان لا يتحمل مسؤولية العمل الذي يقوم به؟

❖ عندما أقول: «أتحمل مسؤولية خياراتي وقراراتي» أي فرق يكون بيني وبين الإنسان الذي لا يتحمل مسؤولية خياراته وقراراته؟.

❖ ماذا أعني بقولي: «أنا مسؤول عن **مستوى الوعي الذي أحضره إلى الوسط**؟.»

❖ ثمة أسئلة فرعية للسؤال الأخير الذي طرحته، يعبّر أحد هذه الأسئلة الفرعية عن نفسه على الشكل التالي: ما هو نوع الوعي الذي أكون مسؤولاً عن إحضاره إلى الأوساط المختلفة؟ مثلاً: ما هي نيتي في هذا الوسط وما الذي أريد النجاح فيه؟ ما هو شعوري «**الآن وهنا**» وما هي احساساتي وعواطفي الحقيقية؟ هل أمتلك الطاقة الكافية في هذا الوسط وهل أرغب بالقيام بإنجاز الأعمال المتوقع مني إنجازها؟ هل لدي رغبة ببذل كل ما بوسعي لكي أنجز ما أريد إنجازه على أكمل وجه وعلى أحسن حال؟.

❖ معرفة الأمور التي أكون مسؤولاً عنها ألا تقتضي معرفة الأمور التي لست مسؤولاً عنها؟.

❖ اعتماداً على المنطق ذاته: معرفة الأمور التي سأنتبه إليها ومقدار انتباهي لها ألا تقتضي وجود مسؤولية تجاه هذه الأشياء التي سأنتبه إليها والتي سأوليها اهتمامي.

هذه هي الأسئلة التي تخطر على ذهني حول هذا الموضوع يا سيد عارف، فهل لديك أسئلة تخطر على ذهنك؟.

- طبعاً يوجد. إذ ما معنى أن يقول شخص ما «أنا إنسان مسؤول» فهل يريد أن يقول أنه لا يتأثر بالأحداث الخارجية؟ وأنه هو فقط من يوجِّه حياته ولا يوجد أحد آخر يوجهها.

- إنه سؤال في مكانه.

- أي هل يرى الإنسان الذي يقول: «أنا إنسان مسؤول» الناس الآخرين على أنهم مجرَّد زينة لا ضرورة لها في حياته، أم ينظر إليهم انطلاقاً من فكرة مفادها: «يمكنني فعل أي شيء حتى دون وجود هؤلاء الناس في حياتي».

- كما قلت لك إنه سؤال جميل ومناسب. عندما ننتهي من نقاشنا في موضوع المسؤولية هذا يجب أن نتمكن من الإجابة على هذه الأسئلة بسهولة.

على الطاولة التي على يسارنا يجلس خمسة شبان، كأنهم يعملون، يراجعون أوراقاً تشبه الفواتير موجودة أمامهم. أحد هؤلاء الشبان يرتدي قميصاً مزركشاً وتحته شورت أسود. يدير ظهره نحوي ولهذا لم أرَ منه سوى شعره الطويل الذي جمعه فوق رقبته.

يتحدث مع أصدقائه ويضرب رجليه على الأرض بإيقاعات منتظمة. لا شك أن اللحن الذي يضرب رجليه على إيقاعه هو ذات اللحن الذي يدور في رأسه، لأنه لا توجد أي علاقة بين اللحن الذي يُعزف في الصالة وبين الإيقاع الذي يعزفه بحركة رجليه. قال أحد هؤلاء الشبان مخاطباً النادل

الذي مرَّ من أمامه «احضر لي زجاجة كازوز» تابع النادل سيره ولم يعطي أي دليل على أنه سمع أم لا. شاب آخر من الطاولة نفسها نادى على النادل الذي كان يتابع سيره: «أنا أيضاً أريد زجاجة كازوز» شاب ثالث أيضاً من الطاولة نفسها قال دون أن ينظر إلى النادل «أنا أريد شاياً» بعد ذلك خرج النادل إلى مكان ما ولم أعد أراه. بعد قليل جاء النادل وهو يحمل زجاجتي كازوز وكأساً من الشاي. لم يكن التواصل القائم بين النادل والشبان ظاهراً للعيان، ولكن من الواضح أنه كان موجوداً.

تابعت رشف الزهورات بكل متعة. نظرت إلى السيد عارف كأنني أقول له: «هل نكمل حديثنا؟! فأجاب موافقاً بحركة من عينيه.

❖ ما معنى تحمُّل المسؤلية؟!:

- بداية، دعنا نتناول السؤال الأول. وإذا خطر على ذهننا أسئلة أخرى سنضيفها إلى قائمة الأسئلة ونناقشها.

❖ السؤال الأول: ما معنى أن يتحمل المرء مسؤولية عمله؟ أي ما الفرق بين إنسان يتحمل مسؤولية عمله وآخر لا يتحمل مسؤولية عمله؟.

- يا سيد دوغان، يُفهم من الأحاديث التي دارت بين دون جوان وكارلوس أن الشخص الذي يتحمل المسؤولية يتخذ قراره وينفذه بدلاً من التذمر والشكوى. أرى الفرق الأساسي في هذه النقطة.

- أنا أريد أن أبحث الوضع السابق على تحمل المسؤولية، ما هو الشيء الذي يجعل الإنسان يسعى لتحمل المسؤولية وما هو الشيء الذي يجعله يبتعد عنها؟!.

أي لنفترض وجود شخص يدعى أحمد، وفعلاً يريد تحمل مسؤوليته عن حياته، هذه هي نيته فعلاً، أفلا توجد شروط أولية سابقة على تحوُله إلى إنسان مسؤول؟.

- حتى الآن لم أستطع فهم ما تريد قوله.

- إن كان جاهلاً، على سبيل المثال، وليس لديه أي اهتمام بموضوع محدد، أي إذا كان لا يمتلك أية معلومات فهل يمكن أن نعتبره مسؤولاً عن موضوع لا يعرف عنه أي شيء؟!.

- طبعاً لا يمكن. فشخص بهذا الجهل قد لا يعرف حتى أنه جاهل هذا الموضوع ولهذا السبب أقول لا يمكن أن اعتباره مسؤولاً عن موضوع لا يدركه أبداً.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- بالتأكيد. فأنا لم أكن أعرف أهمية الاستماع قبل قراءة كتبك، ولم أكن أمتلك أية معلومة حول الاستماع، فلم أكن أفهم معنى الاستماع أثناء حديثي مع زملائي أو أثناء تواصلي مع طلابي في الصف. من المحتمل أنني كنت أخطأت كثيراً في هذا الموضوع، ليس من المحتمل، بل من المؤكد أنه كانت لي أخطائي المستمرة في هذا الموضوع.

- جيد إنه مثال ممتاز سؤالي الآن: هل يمكن أن نحمِّل الإنسان مسؤولية الأخطاء التي اقترفها، دون علم منه، في مواضيع يجهلها وليس لديه أية فكرة عنها؟!.

- وكيف له أن يكون مسؤولاً عن ذلك؟ فهو لا يعرف حتى أنه ارتكب خطأً ولذلك يجب ألا يكون مسؤولاً عن ذلك.

- إذن....

- إذن حتى يكون الإنسان مسؤولاً يجب أولاً أن يمتلك وعياً، إدراكاً متعلقاً بالشيء المسؤول عنه.

- أجل، الإدراك أهم الشروط الأساسية، فأنا أرى أنه من الخطأ تحميل الإنسان مسؤولية أمر ما إذا كان غير منتبه له أو إذا كان يجهله. وأعتقد يا سيد عارف بإمكانية إجراء نقاشات مثيرة حول هذا الموضوع،

فيجب على المؤسسة التي تسن القوانين، على سبيل المثال، ألاَّ تكتفي بسن القوانين وألاَّ تكتفي بصياغة القانون بل يجب أن توعِّي الناس الذين سيطبَّق عليهم هذا القانون وأن تهتم بإعطائهم معلومات حول هذا الموضوع. ففي النظام الذي ينظر إلى مواطنيه ضمن إطار «الوعي الجماعي أو وعي الـ«نحن»» يتم متابعة تثقيف الناس فيما يتعلق بالقوانين الجديدة بكل اهتمام، بيد أن النظام الذي يفكر ضمن إطار مقولة مفادها: «وما دخلي أنا، ليتعلموا إن شاؤوا التعلم وما عليَّ أنا سوى فرض العقوبة إذا لم يقوموا بمسؤولياتهم، وما أن أفرض العقوبة عليهم حتى يعودوا إلى رشدهم» نظام كهذا لا يبدي أي اهتمام بتثقيف مواطنيه. ولكن علينا عدم الدخول في نقاشات كهذه لأنني أخشى الابتعاد عن موضوعنا الأساسي.

- ما فهمته الآن هو: لكي يكون الإنسان مسؤولاً عن أمر ما يجب أن يمتلك وعياً وإدراكاً حول هذا الموضوع الذي سيكون مسؤولاً عنه.

- أجل. يجب أن نتمكن من القول: «فعل هذا عن معرفة» أو «لم يفعل هذا عن معرفة».

- إذن يجب أن نفترض، ونحن نجيب على سؤال «**ما هو الفرق بين الإنسان الذي يتحمل المسؤولية والإنسان الذي لا يتحمل المسؤولية؟**» أن كلا الشخصين «يدركان» الموضوع الذي سيتحملان مسؤوليته و«**لديهم معلومات عنه**» أليس كذلك؟!.

- أجل، يجب أن يتوفر هذا الشرط لدى كلا الشخصين، وعكس ذلك نكون قد حرمناهما من الأساس اللازم لتحملهما المسؤولية.

- ولكنني لا أرى أن هذا يكفي.

- هل تريد القول أن شرط توفر «الإدراك» و«المعرفة» لا يكفي؟!.

- أجل، هناك شيء ناقص. إذ أعتقد أنه لكي نتمكن من تحميل

إنسان ما مسؤولية عمل ما «يجب أن تتوفر له حرية الاختيار». هل تريد مني مثالاً على ذلك؟.

- أعتقد أنني فهمت ما تقصده، ولكن إن سمحت لي أنا أريد أن أقدم المثال على هذه النقطة. لنفترض تم اكتشاف أسلوب تعليمي متطور لتسريع عملية التطوير الذهني للطلاب في الصف ولكنني لا أعرف عن هذا الأسلوب أي شيء ولهذا السبب لم أتمكن من تطبيقه أبداً. طبعاً عندما أقول لا أعرف عنه أي شيء فإنني أقصد أنني لا أعرف ضمن شروط أي معلم عادي في تركيا، أي مثلي في ذلك مثل كافة المعلمين في تركيا، أي أنه لم تصلني أية معلومات حول هذا الأسلوب لا بالوسائل الرسمية ولا عن طريق الأقنية الخاصة. في حالة كهذه من الخطأ أن يأتي أحدهم ويصفني بأنني معلم غير مسؤول بقوله: «لماذا لا تطبق هذا الأسلوب الجديد، ألا تريد تطوير طلابك؟».

- أجل، ولكن هذا المثال متعلق بالإدراك والمعرفة ولا يتضمن أي شيء يتعلق بحرية الاختيار.

- سأتحدث عن هذه النقطة أيضاً. لنفترض من جديد أنني، بوسائلي وبجهودي الخاصة، تعلمت هذا الأسلوب التعليمي الذي يسرِّع عملية التطور الذهني للطلاب ووصلت في هذا الأسلوب إلى مستوىً يؤهلني لأن أطبقه، ولكن لكي أطبق هذا الأسلوب لا بد من الحصول على موافقة النظام. ولنفترض، لسبب أو لآخر، لم يرَ هذا النظام أن هذا الأسلوب مناسب وبالتالي لن أتمكن من تطبيقه. ففي هذه الحالة مع معرفتي بالنظام لا أطبق هذا الأسلوب لأنني لست حراً في تطبيقه.

- جيد، هذا ما أردت قوله، أي حتى نستطيع تحميل شخص ما مسؤولية القيام بعمل ما يجب أن يتوفر لهذا الشخص شرطين، الأول: الإدراك والمعلومة والمهارة. والثاني: حرية الاختيار.

«يا سيد عارف، من الطبيعي أن تبذل جهوداً حثيثة بشكل استراتيجي وبما تسمح إمكانياتك بغية الحصول على موافقة بوضع هذا الأسلوب حيز التنفيذ بما يخدم مصالح الطلاب. في الحقيقة إن روح المحارب تعبِّر عن نفسها في هذه النقطة، ولقد بحثنا هذه النقطة تحت عنوان «صناعة المستقبل» ولهذا لا داعِ لذكرها هنا.

ما أردنا بحثه أنا والسيد عارف في هذه النقطة هو: «**ما معنى أن يتحمل إنسان ما مسؤولية القيام بعمل ما؟ أو ما الفرق بين إنسان يتحمل مسؤولية القيام بعمل ما وإنسان لا يتحمل مسؤولية القيام بعمل ما**» ولقد طرحنا هذا السؤال لكي نميز بين من يعرف موضوعاً ما ويدركه ويمتلك حرية القيام بما يريد فعله عن من لا يعرف ولا يمتلك الحرية.

- من يتحمل المسؤولية يدفع فاتورتها ويتحمل تبعاتها، إذ أن شخص كهذا يتبنى الموضوع ضمن حدود وعيه وضمن حدود قوته وضمن حدود العمل الذي يقوم به، ففي هذه النقطة ثمة إنسان يتبنى حياته بالكامل.

- أفهم هذا. الإنسان الذي لا يتحمل المسؤولية لا يمكنه تبنِّي أي موضوع مهما كان. فهو يترك هذا الموضوع خارج حدود وعيه وخارج حدود قوته وخارج حدود العمل الذي يقوم به.

«إن ما قلناه يا سيد دوغان يبدو وكأنه عبارة عن بعض الكلمات البريئة ولكن، في الحقيقة، ما قلناه يتضمن مفاهيم من شأنها خلق تغيُرات كبيرة في حياة الإنسان. لقد أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، إذ كثيراً ما أرى محاولات التهرب من المسؤولية. فالأستاذ الجامعي يرى أن سبب المشاكل التي يعاني منها الطالب كامن في كونه لم يتلقى تعليماً جيداً في المرحلة الثانوية والمعلم في المرحلة الثانوية يحمِّل مسؤولية انخفاض مستوى التعليم لمدرسي المرحلة الإعدادية الذين بدورهم يحمِّلون المسؤولية لمدرسي

المرحلة الابتدائية وهؤلاء يحمّلون المسؤولية للأسرة وطبعاً الأسرة تحمّل المسؤولية للدولة وتراها سبباً في هذا التقصير.

صمتنا لفترة، فقد كان لديَّ ما أقوله حول موضوع الحرية والمسؤولية فعدت إلى الحديث عن هذا الموضوع:

- يمكن النظر إلى الحرية والمسؤولية من زاوية أخرى.

- لا شك أن هناك رؤية أبعد من الفكرة التي تقول: «عدم وجود الحرية يعني عدم وجود المسؤولية».

- أجل.

- كيف.

- لا يمكن للحرية أن تعيش إلا على أساس متين من المسؤولية، فمن دون المسؤولية لا يمكن أن تعيش الحرية. فالمسؤولية هي النصف الآخر للحرية، أي أن الحرية والمسؤولية مفهومان مضطران دائما للعمل مع بعضهما يداً بيد.

- أي تريد أن تقول لا توجد الحرية في مكان لا توجد فيه المسؤولية كما لا توجد المسؤولية في مكان لا توجد فيه الحرية.

- أجل، إن أحد أهم المسائل الكامنة وراء أساس المشاكل التي يعيشها مجتمعنا اليوم هو أن إنساننا يطالب بحرية ناضجة بينما يعيش مسؤولية لا زالت في مرحلة الطفولة.

- يا لها من عبارة مثيرة: **المطالبة بحرية ناضجة والاستمرار بتحمل مسؤولية لا زالت في مرحلة الطفولة**. هل يمكن أن توضح هذه العبارة أكثر يا سيد دوغان؟.

- طبعاً. هل كانت حدود حريتك واسعة إلى هذا الحد عندما كنت في مرحلة الطفولة؟ فمثلاً هل كان بإمكانك قطع تذكرة والذهاب إلى أنقرة وقت تشاء؟ وهل كان بإمكانك تحديد موعد مع أصدقائك والذهاب إلى

السينما مساءً كلما رغبت بذلك؟ ويمكن الحديث عن أمثلة عديدة حول هذه النقطة. هذه الحرية لم تكن متوفرة لديك في طفولتك ولكنها الآن متوفرة أليس كذلك؟!.

- أجل.

- ولكن لم يكن يُنتظر منك وقتها أن تشتري ثيابك وأحذيتك وكتبك، ولم تكن هذه الأمور ضمن مسؤولياتك، ثمة علاقة مباشرة بين هذين المصطلحين فكلما ازدادت الحرية تزداد المسؤولية.

- أستطيع رؤية ذلك.

- يعتبر وعي المسؤولية أفضل مؤشر للدلالة على المستوى الذي وصل إليه الشخص في عملية النضج.

فكِّر بوجود شخصين حدث شجار بينهما، يتخاصمان وينفران من بعضهما، في حالة كهذه يُنتظر من البالغين البحث عن حلول للمشكلة التي بينهما من خلال مناقشتها، ولذلك نقول لشخصين دبَّ الخلاف بينهما: «هيا، لا تتصرَّفوا كالأطفال، حلُّوا هذه المشكلة التي بينكما من خلال مناقشتها».

فإذا وصلت فتاة ما إلى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها ولازالت تترك أهم قرارات حياتها لأمها لكي تتخذها بدلاً عنها، نقول عنها: «لا تزال مرتبطة بأمها كالطفلة» لأنها لا تتحمل مسؤولية حياتها بل تحمِّلها لأمها. وفي البيت يحمِّل الرجل زوجته مسؤولية سوء المعيشة وسوء العلاقة بينهما لكنه لا يتحمل نصيبه من هذه المسؤولية في أي وقت من الأوقات، نقول عن شخص كهذا: «لم يصبح رجلاً بعد» (بمعنى لم يتخلص من كونه طفلاً) وفي التركية نقول عن شخص ما «أصبح رجلاً» للتعبير عن هذا النضج، وكذلك هناك جوانب جميلة في ثقافتنا التقليدية، من هذه الجوانب تلك المفاهيم التي تؤكد على أن الشاب الذي يذهب إلى

الجندية يصبح رجلاً ويعود رجلاً. وكذلك مقولة «لا تزوج ابنتك من رجل لم يذهب إلى الجيش».

أحسست بالظمأ فلوّحت للنادل بيدي بغية لفت انتباهه وطلبت كأسين من الماء.

ألقيت نظرة إلى المحيط كان أغلب الموجودين من الذكور. كانت وجوه الموجودين، عموماً، ساكنة ومتعبة ويائسة ومتشائمة لدرجة أنه يمكن لأي عالم نفس أن يقول بأن الملامح المرتسمة على هذه الوجوه تدل على أن هؤلاء الناس يعيشون حالةاكتئاب. فهل هذه الملامح هي التعبير الطبيعي للرجال في بلدنا؟. أيُ انفعالٍ ستعيش وأيُ سعادة ستشعر بها هذه الوجوه التي لا ينتظر أصحابها أي شيء من هذه الحياة لأنهم اقتنعوا بمصيرهم ويؤكدون دائماً على أن كل شيء سيبقى على حاله إلى أبد الآبدين.

أثناء حديثنا عن المسؤولية بدت لي ملامح هذه الوجوه ذات معنى أكثر. عجباً، هل يتحمل هؤلاء الأشخاص مسؤولية سعادتهم؟ ثم فكرت بالأوساط التي نشؤوا فيها: هل يشعر الآباء والأمهات والمعلمون الذين ربُوا هؤلاء الناس بالمسؤولية تجاه حياتهم؟!.

تابعت حديثي مع السيد عارف:

- لكي يتم تطوير الشعور بالمسؤولية لا بد للإنسان أن ينشأ في بيئة تمكّنه من الإحساس بهذه المسؤولية. وإذا لم توفر هذه البيئة للفرد فرصة الاختيار وتحمل المسؤولية حيال النتائج الناجمة عن هذا الاختيار فإنه لن يتطور عنده الإحساس بالمسؤولية ولهذا السبب لا يمكن أن يصل الأطفال إلى مستوى النضج في الأسر التي لا توفر لأطفالها إمكانية التعبير عن أفكارهم وإمكانية تطبيق هذه الأفكار.

- يا سيد دوغان لقد قرأت كتبك ولهذا فإنني أفهم كل ما تريد قوله.

ولكن ثمة سؤال أريد طرحه عليك: على أي صعيد يطلب المواطن حرية ناضجة ولكنه يبقى ضمن إطار مسؤولية الأطفال؟.

- يطالب المواطن بحياة مؤسساتية حديثة، معاصرة، حيوية وخالية من الرشوة، ويطالب بمدارس متطورة ونظيفة وببرامج تعليمية متطورة وفعالة، كما يطالب بأن تكون المدينة التي يعيش فيها نظيفة وأن يتواجد فيها أرصفة نظيفة وحدائق للأطفال وصالات للتسلية ويطالب ويطالب... إنه باختصار يطالب بمدينة حضارية وحديثة تتوفر فيها كافة الشروط الإنسانية.

- هل من الواجب على المواطن ألا يطالب بأي شيء يا سيد دوغان؟! هل يجب على هذا الشعب المسحوق الذي تعرض للقمع لسنوات طويلة ألا يبدأ بالمطالبة؟!.

- تابع يا سيد عارف تابع، بل أنا سأتابع عنك: «ألا يجب أن ينتهي العهد الذي يُطلب فيه من هذه الأمة أن تكتفي بلقمة تسد فيها رمقها وقطعة قماش تسترها؟ فما الذي ينقص هذا المواطن لكي يبقى أقل قيمة من مواطني الدول الأخرى؟ هل تجد أن هذه المطالب كثيرة على شعب كهذا يا سيد دوغان؟! متى سيخرج شخص ما ويقول لهذا الشعب: أنت تستحق كل خير وتستحق حياة تليق بك؟!.

- لا نريد أن نبالغ، ولكن ألا يحق لي أن أتساءل، هل يجب على هذا المواطن ألا يطالب بشيء؟!.

- ليطالب بكل شيء يريده ولكن بعد أن يشعر بمسؤوليته تجاهه، وقتها يكون قد طالب ضمن موقف ناضج.

- وهل يطالب مواطنونا بما يريدون ضمن مواقف الأطفال؟.

- أكثر من موقف الأطفال، من الأصح القول بأنهم لا يطالبون بشيء وهم يشعرون بمسؤوليتهم تجاهه.

- هل يمكنك تقديم مثال على هذه النقطة؟.

- طبعاً. لنلقي نظرة على ما قلته أنا، قلت: «يطالب بمجتمع مؤسساتي معاصر، حديث، حيوي وخالٍ من الرشوة». ولا يمكن لهذا المجتمع أن يتحقق إلا عن طريق دَمَقرطة الآليات السياسية ومن خلال انعكاس إرادة الشعب على آلية عمل النظام. هل تعرف يا سيد عارف بأنني عشت في الولايات المتحدة الأمريكية كطالب وكعضو هيئة تدريسية لمدة ثلاث وعشرين عاماً تسنَّى لي خلالها وبشكل خاص عندما كنت أعيش في كاليفورنيا فرصة مراقبة المشاركة السياسية للمواطن الأمريكي ومقارنتها بالمشاركة السياسية للمواطن في تركيا. وقد استنتجت من مشاهداتي أن المواطنين في بلدنا ليس لديهم مشاركة سياسية فعالة كما المواطنين في أمريكا. طبعاً لا أقصد هنا مشاهدة الأحاديث السياسية التي يبثها التلفزيون والاستماع إليها بل أقصد العمل السياسي الحقيقي من خلال المشاركة كعضو في منظمة سياسية والعمل على دعم السياسيين الذين يعكسون قيمه ويعرف بأنهم صادقين في التزامهم بهذه القيم.

- معك حق فمعظم الذين يهتمون بالسياسة في أيامنا هذه يمارسون نشاطاتهم بما يحقق مصالحهم الشخصية.

- الجميع في هذا البلد يتذمرون كما الكورس من أن السياسيين غير شرفاء وغير صادقين، والآن أريد أن أسأل من المسؤول عن كون هؤلاء السياسيين غير صادقين؟ هل نزل هؤلاء السياسيين من السماء بالسلال على أنقرة، ألا نتحمل نحن، على اعتبارنا ناخبين مسؤولية ما في هذا الموضوع؟.

- أجل، إن مواطننا التركي وبشكل خاص المثقفين لا يهتمون بالسياسة ضمن شعور بالمسؤولية، فجميعهم مراقبون وسلبيون ومتذمرون.

- قلت أيضاً: يطالبون بمدارس نوعية ومتطورة ونظيفة وببرامج

تعليمية متطورة وفعالة. ولنتساءل الآن: كم منظمة مجتمع مدني تتابع نوعية المدارس وجودتها، وكم مؤسسة أهلية تضم أولياء الأمور تضغط بطريقة أو بأخرى على الحكومة وعلى إدارة المدرسة؟! التذمر متوفر بكثرة ولكن العمل ضمن شعور بالمسؤولية أو ضمن شخصية متكاملة إما قليل أو معدوم. هل توافقني على ذلك؟.

- أجل أوافقك. يمكننا أيضاً الحديث عن أمثلة لا حدود لها فيما يخص مطالبة المواطن بأن تكون المدينة التي يعيش فيها نظيفة وأن يتوفر فيها أرصفة وحدائق للأطفال وصالات للتسلية.

- جيد. هذا يعني أنك تقبل بوجود علاقة بين الحرية والمسؤولية الشخصية.

- بالنسبة لي لدي حالة أكثر اتساعاً، إذ أنني أرى وجود علاقة عامة بين الشروط الحياتية التي يعيش الفرد ضمنها وبين المسؤولية الشخصية. ما قلته يعتبر تقييماً من مستوى أرقى، في الحقيقة ثمة أربعة مواضيع مرتبطة فيما بينها بعلاقات وثيقة: الأول: إمكانية الاختيار. والثاني: الحرية. والثالث: المسؤولية. والرابع: تكامل الشخصية.

كرر السيد عارف ما قلته وسألني فيما إذا كان من المناسب أن يطلب مني تجسيد ما قلته من خلال بعض الأمثلة، فرويت له القصة التالية لكي أشجعه على طرح الأسئلة أكثر:

❖ فرنون؛ هل طرحت اليوم على معلمك سؤالاً جيداً؟!.

- سمعت هذه القصة من ابنتي إليف:

«نال بروفيسور أمريكي يدعى فرنون، مختص بالفيزيولوجيا، جائزة نوبل.

طرح عليه أحد الطلبة في المحاضرة الأولى بعد استلامه الجائزة

السؤال التالي: يوجد في هذا البلد أكثر من ثلاثة آلاف عالم في مجال الفيزيولوجيا، فلِمَ تم اختيارك من بين كل هذا العدد الضخم من العلماء لتنال هذه الجائزة؟ وما الذي يميزك عن بقية العلماء الآخرين؟!.

ارتسمت ابتسامة على وجه البروفيسور وأجاب قائلاً: إنني مدين بكل شيء لوالدتي، إذ أن الأمهات الأخريات يستقبلن أطفالهن فور عودتهم من المدرسة بالسؤال التالي: «هل قدمت أجوبة جيدة على أسئلة معلمك؟». بينما كانت أمي تسألني: «يا فرنون؛ هل طرحت اليوم على معلمك سؤالاً جيداً؟!». لِمَ استحقيت جائزة نوبل وما هي الميزة التي جعلتني مختلفاً عن الآخرين هذا ما تسألونه أليس كذلك؟! الميزة التي تجعلني مختلفاً عن الآخرين هي أنني أطرح الأسئلة التي لا يطرحها الآخرون وأواصل السؤال دائماً.

ولهذا السبب يا سيد عارف سأنزعج كثيراً إن تراجعت عن طرح الأسئلة التي تشغل عقلك وإن سروري سيزداد طالما أنك مستمر بطرح أسئلتك.

❖ السؤال الأكثر تجسيداً:

- أوه... لقد ارتحت كثيراً، أستطيع الآن طرح الأسئلة بكل أريحية، قلت بأن هناك علاقة وثيقة بين الاختيار والحرية والمسؤولية وتكامل الشخصية، فهل يمكنك تقديم مثال يبين هذه العلاقة أو هذه الرابطة؟!.

- المثال الأكثر تجسيداً قد نأخذه من حياتك التي تعيشها، أيُ جانب من حياتك تريدنا تناوله؟ لنأخذ، على سبيل المثال، قرارك بممارسة مهنة التعليم. هل كان لديك الحق بأن تقرر اختيار مهنة التعليم؟.

- يعني أنت تتحدث عن اختيار يكون على شكل أن أصبح معلماً إن شئت أو ألاّ أصبح معلماً إن لم يكن لديَّ رغبة بذلك؟.

- أجل، هل كنت بوضعٍ يسمح لك بأن تقرر ممارسة التعليم أو عدم ممارستها؟.

- نعم كان وضعي يسمح بذلك.

- إذن والحالة هذه تستطيع القول: «قررت أن أصبح معلماً بملء إرادتي الحرة».

- نعم أستطيع ذلك.

- حسناً لنفترض الآن أن أحداً ما، والدك أو والدتك أو أية قوة أخرى، أجبرتك على اختيار هذه المهنة دون أن تكون لديك الرغبة في ذلك، في حالة كهذه هل يمكنك القول: «قررت أن أصبح معلماً بإرادة حرة»؟.

- طبعاً لا.

- إذن كما ترى تتوفر الحرية حين يتوفر الاختيار وعندما لا يوجد اختيار لا توجد حرية.

- أستطيع رؤية ذلك، أي أرى وجود علاقة رياضية بين الاختيار والحرية. فأنا حر بقدر عدد الخيارات الموجودة لديَّ. هل يمكنك الحديث عن علاقة ذلك بالمسؤولية؟.

- لنفترض الآن وجود شخصين، ولنفترض أن الأول - ليكن اسمه أوزغور- اختار مهنة التعليم بمحض إرادته. والآخر - ليكن اسمه إسير[8] - دُفع إلى مهنة التعليم رغماً عنه.

«ماذا ستقول بحق أوزغور إذا بدأ بالتذمر من مهنة التعليم وإذا أشار إلى عدد كبير من السلبيات لهذه المهنة وبأنه لا يرى أي مستقبل لهذه المهنة؟!.

وهل تعتبر وضعه المتذمر من هذه المهنة أمراً طبيعياً؟ أم أنك ستقول

---

(8) - أوزغور: اسم علم يعني باللغة التركية: حُر، واسم إسير يعني سجين أو أسير

له: «لِمَ اخترت هذه المهنة ما دمت ترى فيها كل هذه العيوب وكل هذه الجوانب السلبية التي تخلق هذه الحالة من التذمر؟.

- بالتأكيد سأقول هذا، لأنه لا معنى لتذمره المتعلق بمهنة التعليم لأنه هو الذي اختارها بمحض إرادته.

- ولكن إذا تذمر إسير من هذه المهنة فإنك لن ترى أن تذمره لا معنى له، أليس كذلك؟!.

- طبعاً لن أرى، إذ أنه دُفع إلى مهنة التعليم رغماً عنه، وإنني أفسِّر وضعه على النحو التالي: يتذمر من مهنة التعليم لأنه دُفع إليها رغماً عنه.

- عندما يتذمر أوزغور فإن تذمره يدل على أنه لم يتحمل مسؤولية خياراته، بيد أن ذلك غير صحيح بالنسبة لـ إسير، لأنه لا يتحمل مسؤولية كونه معلم بل يتحملها مَنْ دفعه إلى هذه المهنة رغماً عنه..

- نعم من هنا يتبين مرة أخرى أن المسؤولية تنجم عن الاختيار الواعي الذي يقوم به الفرد.

- بالتأكيد، لأننا نطلق مصطلح الحرية على إمكانية قيام الإنسان باختيار شيء ما من بين عدد من الأشياء. وابتداء من اللحظة التي يقوم بها الإنسان باستخدام حريته من خلال الاختيار يكون قد بدأ بتحمل مسؤولية هذا الخيار.

- عندما يقرر شخص ما أن يصبح معلماً فإننا ننتظر منه أن يجري دراسة عن الوضع الحالي للمعلمين وعن الأسباب التي جعلته يرغب بهذه المهنة وكيف يريد ممارستها وما الذي يريد تحقيقه من خلال ممارستها. ولهذا السبب يجب أن يجري دراسة مستفيضة عن هذا الموضوع، وبعد أن يتخذ قراراً بذلك يجب أن يشمِّر عن ساعديه ويعمل بكل قوته بدلاً من التذمر والشكوى.

صمت السيد عارف ونظر إليّ فانتبه إلى أنني استمعت إليه باهتمام فتابع كلامه:

- فإذا ضيّع شخص كهذا وقته بالتذمر والشكوى بدلاً من العمل والجد فهذا يعني أنه يتصرف دون أدنى شعور بالمسؤولية.

- يا سيد عارف، أنا لا أستطيع التحدث بهذه القوة وهذه الدقة. هل يمكنك الآن رؤية العلاقة بين الاختيار والحرية والمسؤولية؟.

- بكل وضوح.

- ليس من السهولة القول بأن إسير يتصرف بلا مسؤولية ولكن التذمر والشكوى ليست من حق أوزغور.

- نعم أستطيع فهم ذلك. لم يبق علينا سوى رؤية العلاقة التي تربط هذه المصطلحات الثلاثة التي تحدثت عنها بتكامل الشخصية.

- يمكننا تعريف تكامل الشخصية على أنها «الانسجام بين جوهر الإنسان وبين أقواله وأفعاله»، لنعد الآن إلى الشخصين اللذين اتَّخذناهما مثالاً لنا:

«إذا كان أوزغور يقول بأنه اختار مهنة التعليم بسبب رغبة داخلية لديه وبإرادة محضة، وإذا كان يقوم بعمله كمعلم جيد وناجح فهذا يعني أنه لا يوجد في شخصيته المتكاملة أي عائق، وبذلك سنرى أمامنا إنساناً أجرى اختياره بكل حرية ويعمل ضمن شخصية متكاملة وهو يعي المسؤوليات الواقعة على عاتقه فيما يخص موضوع اختياره.

أما إذا بدأ هذا الشخص بالتذمر والشكوى فإنه يبدأ بعرقلة تكامل شخصيته، فإما أنه لم يجرِ خياراً نابعاً من داخله أو أنه لا يعي الكلام الذي يتفوَّه به، أو أنه لا يمتلك القدرة والقوة التي تؤهله لممارسة عمله كمعلم، المهم أنه تمت عرقلة تكامل شخصيته بغض النظر عن الأسباب، وكما قلنا سابقاً لا يمكن الوثوق بشخص كهذا.

- وبذلك يا سيد دوغان تكون قد سحبت من يدي الحق بالتذمر من مهنة التعليم.

- إن كنت قد قمت باختيار مهنة التعليم بشكل قطعي فإن جوابي سيكون: نعم، أما إذا كنت لا تزال في مرحلة الدراسة والبحث ولم تتخذ قرارك بعد فإن الأمر مختلف.

- اخترت... اخترت أن أكون معلماً، نعم لقد اخترت ذلك بشكل قطعي، ولن تسمع مني بعد الآن أي تذمر أو شكوى فيما يخص كوني معلماً.

- يمكنك أن تتذمر وتشكو قدر ما تريد ولكن تذمرك يعني وجود مشكلة ما في موضوع المسؤولية لديك. بالإضافة لذلك يجب أن تعرف وقتئذٍ أن هناك عراقيل وعوائق كثيرة تقف أمام تكامل شخصيتك.

دخلت امرأة ورجل من الباب الذي دخلنا منه إلى المقهى. جمّعت المرأة التي ترتدي كنزة وتحتها تنورة طويلة، شعرها وقمطته وراء رأسها، وأما الرجل فهو متوسط العمر ويرتدي ثياباً صيفية؛ قميص نصف كم وبنطال من الكتان، يبدو عليه أنه يهتم بالمرأة كثيراً. أشعر أن لديهما حيوية شابين بدأا الغزل حديثاً. جلس الرجل بطريقة تجعل جسده يلامس جسد المرأة بشكل خفيف، يبدو عمر الرجل ثمان وثلاثين أو أربعين عاماً وأما المرأة فلها من العمر اثنين وثلاثين إلى أربعة وثلاثين عاماً. كأن هذه المرأة تعمل في هذه المنطقة كصاحبة محل أو أنها تعمل في مهنة أخرى، إذ أنها تشعر بأريحية في هذه الأجواء وذلك واضح من نظراتها وجلستها وتصرفاتها ومن التصرف بحرية بالرغم من لباسها المحافظ كما أن سلوكها لا يعبّر عن أي إحساس بالقمع، وهي تدرك اهتمام الرجل بها؛ لا تبتعد عنه ولا تقترب منه كأنها أتقنت فن اللعبة جيداً.

جاء الماء الذي طلبناه، أفضل مشروب في العالم هو الماء، أنا أحب الماء البارد لكن عارف لا يحبه بارداً.

❖ الفرق بين الذي يتحمل المسؤولية والذي لا يتحمل المسؤولية:

قلت للسيد عارف بأنني سأنتقل إلى السؤال الثاني. فقال: «كما تريد يا أستاذ» فبدأت حديثي متسائلاً:

- هل تتذكر ما هو السؤال الثاني؟.

- كلا، هل يمكن أن تذكرني به؟.

- بالتأكيد. السؤال الثاني هو:

❖ السؤال الثاني: عندما أقول: «إنني أتحمل مسؤولية خياراتي وقراراتي» فما هو الفرق، والحالة هذه، بيني وبين الإنسان الذي لا يتحمل مسؤولية خياراته وقراراته؟.

هذا هو السؤال.

- أعتقد أن هذا السؤال قد وجد جوابه في المواضيع التي تحدثنا عنها حتى الآن.

- حسناً، هل يمكنك الحديث عن ذلك باختصار؟.

- طبعاً، طبعاً. سأختصر: «عندما يقول شخص ما: إنني أتحمل مسؤولية خياراتي وقراراتي» يكون قد عبّر عن النقاط التالية:

❖ أولاً: عندما اتّخذ قراراً ما فإنني أولي اهتماماً للنقاط التي أعرفها والتي لا أعرفها حول هذا الموضوع. أي أنني أتحمل مسؤولية الوعي الذي أحضره إلى الوسط.

❖ ثانياً: أؤمن بامتلاك حرية تحويل الوعي الذي أحضرته إلى الوسط إلى عمل وممارسة.

❖ ثالثاً: أؤمن بامتلاكي القوة والمقدرة على تحويل الوعي الذي أحضرته إلى الوسط إلى عمل وممارسة.

❖ أؤمن بأنني مدرك إدراكاً واقعياً لكل ما يتعلق بحدودي المتعلقة بما سأفعله وحجم هذا الفعل وكيفية وزمن القيام بهذا الفعل.

❖ أؤمن بضرورة امتلاكي الشخصية المتكاملة من أجل خلق مستقبل يمكّنني من القول: «هذه حياتي أنا».

- هذا يعني أنك تقول بأن من لا يتحمل المسؤولية يفتقد لهذه الأبعاد الخمسة.

- لا أقول أن هذه الأبعاد الخمسة غير موجودة وحسب بل أقول إن وعي هذه الأبعاد الخمسة غير متبلور. فلقد وجدت صعوبة في فهم مصطلح «تحمُل الفرد مسؤولية الوعي الذي يحضره إلى الوسط» عندما سمعت به لأول مرة علماً بأن نواة المسؤولية وجوهرها ينطلق منه، وإنني أرى أن مجرد فهم هذا المصطلح واستيعابه بشكل جيد يُعتبر خطوة هامة على طريق التطور والنمو في حين أن هذا المصطلح لم يتطور عند الفرد الذي لا يتحمل المسؤولية.

صمت السيد عارف لفترة من الزمن ثم طلب مني توضيح عبارة «تحمل الفرد مسؤولية الوعي الذي يحضره إلى الوسط». فعملت على توضيحه قائلاً:

- عندما يتحدث بعض الأشخاص عن موضوع ما يرددون عبارات مثل «لم أدرك ذلك» أو «لم أنتبه إلى ذلك» أو «غفلت عن هذه النقطة» أو «لم أتوقف عند هذه النقطة» وغيرها من العبارات المشابهة لكي يخففوا من مسؤوليتهم حيال هذه المواضيع التي يتحدثون عنها أو يعملون على التهرب من المسؤولية بأكملها.

«ولكن عندما يتحمل الإنسان مسؤولية الوعي الذي يحضره إلى الوسط يكون قد قطع الطريق أمام أعذار كهذه، فالإنسان مسؤول عن الحفاظ على إدراكه وانتباهه على أعلى مستوى، طبعاً أتحدث عن الإنسان

الذي يتحمل المسؤولية وليس عن إنسان عادي يتصرف ويعيش حياته كيفما اتفق وبشكل عشوائي»

- أريد ترسيخ هذا المفهوم في ذهني بشكل جيد فلدي رغبة في أن أعلمه لطلابي في المستقبل.

- الوعي الذي يتم إحضاره إلى الوسط هام جداً لأنه يشكل الأساس الذي تقوم عليه عملية الإدراك لدينا، ولقد سررت كثيراً لأنك أدركت ذلك يا سيد عارف، وإذا ما تحدثت مع طلابك عن هذا المفهوم تكون قد قدمت إسهاماً كبيراً وإيجابياً في حياتهم.

- أشاركك الرأي يا سيد دوغان. حقيقة، إن الإنسان الذي لا يتحمل مسؤولية حياته لن يتمكن من معرفة فيما إذا كان حراً أم لا، لأنه لم يحضّر الوعي الكافي إلى هذا الموضوع. عند شخص كهذا، على ما أعتقد، تكون السيادة لعنصر التبعية، ولكن الإنسان الذي لا يتحمل مسؤولية حياته لا يمكنه إدراك هذا الأمر.

- شيء جميل ياسيد عارف أنك وظّفت رقصة التبعية وتحقيق الذات بشكل رائع في هذا الموضوع، وفي الوقت ذاته نستطيع القول بأن الإنسان الذي لا يتحمل المسؤولية لا يؤمن بأنه يمتلك القدرة على توجيه حياته وقيادتها، بل ويرى نفسه ضعيفاً مسلوب القدرة والإرادة. طبعاً هذا أمر طبيعي بالنسبة للإنسان الذي يرى نفسه وحياته تدوران في فلك التبعية، وأما الذي يوجّه حياة شخص كهذا فهي القرارات التي يتخذها الناس الآخرون. هذا ما اعتاد عليه وهذا ما يعرفه.

- لقد توضحت الآن يا أستاذي كافة المفاهيم والمصطلحات التي تحدثنا عنها حتى الآن.

- إحدى هذه المصطلحات هو مصطلح المسؤولية، فالشخص الذي لا يتحمل المسؤولية هو الشخص الذي لم تتبلور لديه حدوده المتعلقة بماذا

سيفعل ومتى وكيف سيفعل وبحجم ما سيفعله، وأكثر من ذلك إنه لا يهتم بموضوع عدم تبلور الحدود لديه ومن جديد نرى أن عنصر التبعية هو الذي يقف وراء هذا الموضوع.

- ثمة علاقة بين ما تحدثنا عنه وبين تكامل الشخصية أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد. إذ لا معنى لتكامل الشخصية عند إنسان لم يتطور لديه مفهوم الشعور بالمسؤولية، فلقد انقطعت علاقة إنسان كهذا مع ذاته لأن أساس حياته قائم على تحقيق تطلعات الآخرين ورغباتهم ولأنه لا يسعى لتحقيق حياة يستطيع أن يقول فيها: «هذه حياتي أنا وليست حياة أحد غيري» ولهذا السبب لا يوجد عند هذا الشخص أي معنى لموضوع الانسجام بين جوهره وقوله وفعله.

أنظر حولي فأرى العديد من الأشخاص وأدرك أمراً ما: كل هذا العدد الضخم من البشر يأتي ليجلس هنا، نعم يأتون لمجرد الجلوس، إنهم يضيّعون وقتهم دون إنتاج أي شيء.

لم يحدث معي هذا الأمر سابقاً، فمن جهة أرى أنني أنظر إليهم بدهشة متسائلاً: «كيف يمكنهم فعل ذلك، كيف يمكنهم أن يكونوا لا مبالين إلى هذا الحد؟» ومن جهة أخرى يحزُّ في نفسي هذا السلوك وأتساءل: «كيف يستطيع هؤلاء رمي حياتهم بكل هذا الفتور وبكل هذه السهولة في سلة المهملات؟».

جهة أخرى في داخلي تشعر بالغبطة حيال هؤلاء الناس، الجلوس كشجرة أو كحجر أو كعشب والنظر ذات اليمين وذات اليسار ومواصلة حياتهم بهذه الطريقة. ما الذي كان يمكن لهؤلاء الناس القيام به من أجل حياتهم خلال هذا الوقت الذي يضيّعونه هنا؟! وما هي الأشياء التي بقيت ناقصة لم تكتمل في مجتمعهم وفي عائلاتهم وفي حياتهم لأنهم لم ينجزوا الأعمال التي كان يتوجب عليهم إنجازها؟ لا يبدو أن أحداً من هؤلاء مدركٌ

لهذه النقطة، ثم هل يعلمون أن الشيء الذي نطلق عليه اسم الحياة هو الزمن وبأن الزمن هو الكنز الحقيقي؟!!.

ربما يعلمون ذلك وقد يقولون لي: «لهذا السبب نحن نجلس هنا ونمضي وقتاً مع بعضنا، هذه هي الحياة الحقيقية»، يمكن أن تُصرف ملايين بل مليارات وترليارات الساعات في اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة...

يجلس أمامي رجلان يدخنان النرجيلة، يرتدي أحدهما قميصاً أزرق فاتح وأما الآخر فيرتدي قميصاً أخضر فاتحاً، كرش الذي يرتدي قميصاً أزرق أكبر من كرش الآخر. عندما رآني السيد عارف أنظر إلى هذين الرجلين قال: «الأتراك بدينون أليس كذلك» فقلت: «ليسوا بدينين بقدر بدانة الأمريكيين» فدهش السيد عارف وقال: «كنت أعتقد أن الأمريكيين أكثر نحولاً وأكثر اعتناء بصحتهم» فقلت له بأن كل عام يزداد عدد الأشخاص البدينين في أمريكا والآن أصبح أغلب الأمريكيين رجالاً ونساءً يعانون من البدانة. فقال: وما سبب البدانة التي يعانون منها؟ فقلت: يكمن سبب بدانتهم في أنهم لا يمارسون رياضة المشي ويحصلون بسهولة على المواد الغذائية الغنية بالسعرات الحرارية بسبب رخصها وهم على العموم يمارسون عملهم وهم جالسين ويتنقلون من مكان إلى آخر بواسطة السيارات «وأضفت كنوع من الدعابة: وطبعاً رجل الأعمال الأمريكي يجد في ذلك فرصة كبيرة لكسب المال من خلال برامج التنحيف وافتتاح صالات الرياضية وبيع حبوب التنحيف». فضحكنا.

❖ مستوى الوعي المحضّر إلى الوسط ووعي الحدود:

راح السيد عارف يشرب من كأس الماء بعد أن أصبح فاتراً. سألته: «ما رأيك أن نتناول السؤال التالي؟» فقال: «سنتناوله ولكن اسمح لي أولاً بخمس دقائق فقط»، وذهب إلى المرحاض.

قال، بعد عودته: «يمكننا الآن العودة إلى موضوعنا، ما هو السؤال الذي سنتناوله؟». فقلت: سؤالنا هو: «ما معنى مستوى الوعي المحضَّر إلى الوسط في الأوضاع المختلفة. وأردفت قائلاً: يتشكل «مستوى الوعي المحضَّر إلى الوسط» من خلال قيام الفرد بطرح السؤال التالي على نفسه:

❖ **السؤال الثالث: «ما هي المفاهيم التي أحضرها / الآن وهنا/ إلى الوسط؟»**

«ويمكن أن يتفرَّع عن هذا السؤال العام مجموعة من الأسئلة الفرعية:

❖ ما هي نيتي؟.

❖ ما هي الأشياء التي يستحضرها عالمي الداخلي(الآن وهنا)؟.

❖ أين هي طاقاتي؟.

❖ هل أحضر (الآن وهنا) كافة المفاهيم الموجودة لديَّ؟.

«مسؤوليتي عن مستوى الوعي المستحضر إلى الوسط تعني أنني أحضر إلى الوسط بعد أن طرحت هذه الأسئلة على نفسي ووجدت أجوبة لها.

قال السيد عارف: «إن مستوى الوعي المُحضَّر إلى الوسط عبارة عن مفهوم هام جداً».

تابعت حديثي قائلاً:

- إنه لنجاح عظيم أن أستطيع تذكر مسؤوليتي عن الوعي الذي أحضره إلى الوسط عندما أبدأ بعملٍ ما أو عندما أنتقي صديقاً ما أو عندما أقيم علاقات مع الناس أو عندما أكون سعيداً أو قلقاً أو متوتراً. فالأساس الحقيقي للمسؤولية قائم على مستوى الوعي الذي يحضره الإنسان إلى الوسط.

- إن استطعت تطوير طلابي بما يتعلق بهذا المستوى أكون قد قدمت لهم فائدة عظيمة.

❖ بالتأكيد. لنتناول الآن السؤال التالي:

❖ ألا تقتضي معرفتي بالأشياء التي أكون مسؤولاً عنها معرفة الأشياء التي لا أكون مسؤولاً عنها؟..

– سيد دوغان، لا شك أن الموضوع الواجب الوقوف عنده الآن يتعلق بمصطلح الحدود.

– نعم، يتعلق بمصطلح الحدود، طبعاً يشير مصطلح الحدود إلى الأشياء الموجودة في الداخل كما يشير إلى الأشياء الموجودة في الخارج، فمصطلح حدود تركيا على سبيل المثال يشير في الوقت ذاته إلى المناطق الموجودة ضمن تركيا من جهة وإلى المناطق الواقعة خارجها من جهة أخرى. فإذا ما تحمَّل الإنسان مسؤولية موضوع واقع خارج حدوده يكون قد أتى بسلوك غير مسؤول تجاه ذاته، فالأم التي تهمل صحة أطفالها لأنها تعتني بأطفال الجيران، على سبيل المثال، لا يمكن اعتبارها مثالاً للأم المسؤولة.

«مصطلح الحدود مصطلح هام جداً يتمتع بعمق فلسفي، وقد تناول الدكتور هنري كلود Dr. Henry Cloud والدكتور جون تونسيند Dr. John Townsend هذا المصطلح بكثير من التفصيل في كتابهما «الحدود» وإنني أوصيك بقراءة هذا الكتاب يا سيد عارف.

– هل يمكنني العثور عليه في المكتبات؟.

– بالتأكيد. فطبعته ليست قديمة.

– حسناً.

– أريد هنا التطرق إلى عدة مواضيع، فكما تعلم نناقش الآن موضوع حدود المسؤولية، وأول سؤال يخطر على الذهن هو:

❖ كيف سأعرف المواضيع التي يجب أن أكون مسؤولاً عنها؟ وهل هناك من سيدلّني عليها أم أنا من سيقرر ذلك؟. والسؤال الآخر:

❖ إذا وُجِد من سيدلني على الأشياء التي يجب أن أكون مسؤولاً عنها فأي سلطة ستخولّه قول ذلك؟.

بعد أن طرحت هذين السؤالين تساءل السيد عارف قائلاً:

- يا سيد دوغان، كيف سيعرف المحارب الأشياء التي يعتبر مسؤولاً عنها؟.

- يقرر المحارب هذا الأمر بشكل استراتيجي ضمن إطار نواياه الصافية ووعيه للمستقبل الذي يرغب بخلقه.

- من جديد استخدمت كلمات تطرب لها الأذن، ولكن كيف يمكن أن تتجسد هذه المهمات في الحياة، على أرض الواقع؟ لا أستطيع استيعاب ذلك. فمثلاً، كيف يمكنني تطبيق هذا الأمر على حياتي؟!.

- بداية يا سيد عارف يجب أن نقرر ما هي نيتك.

- يا سيد دوغان لقد ذكرت ذلك سابقاً. أريد أن أصبح معلماً جيداً ولدي هدفان أساسيان: يتعلق الأول بتوفير الإمكانيات اللازمة لتطوير طلابي والوصول بهم إلى أفضل مستوىً يمكنهم الوصول إليه. والثاني مساعدة زملائي المعلمين لكي يمارسوا مهنة التعليم على أفضل شكل.

- حسناً. يجب أن تكون هذه النية دليلك في حياتك، وأن تحدد الأشياء التي ستوليها اهتمامك وفي الوقت ذاته أن تحدد الأشياء التي يجب ألاً تهتم بها، يجب أن تكون نيتك بمثابة البوصلة التي توجه حسبها حياتك. ولذلك يجب أن تضع خططاً استراتيجيةً لكافة طاقاتك ولكل وقتك ضمن إطار وعيك بهذه النية.

«والآن لنجب على الأسئلة التالية مع الحفاظ على استمرار وجود هذه النية في عقلك: كيف سأعرف الأشياء التي أكون مسؤول عنها؟ هل سيطلعني أحد عليها أم سأقررها بنفسي؟ والذي سيطلعني عليها، استناداً إلى أي سلطة سيقوم بذلك؟.

يجب أن تهتم بكل ما من شأنه توفير الامكانيات اللازمة لتطوير طلابك وزملائك المعلمين. فإذا كانت الأشياء التي ستقوم بها من الأشياء التي يمكنك القِيام بها بشكل مباشر، أي إذا كانت واقعة ضمن المدى المجدي لسلاحك، فستكون مسؤولاً عنها مسؤولية مباشرة، أما إذا كانت من الأشياء التي يمكنك التأثير بها بطريقة غير مباشرة فإن مسؤوليتك عنها تكون مسؤولية غير مباشرة.

- قرأت في أحد كتبك العبارة التالية: «**ياربِّي هبني القوة والشجاعة التي تساعدني على تغيير الأشياء التي يمكن تغيُرها وهبني النضج الذي يساعدني على تقبل الأشياء، التي من غير الممكن تغييرها، كما هي، وهبني يا ربِّي المعرفة التي تساعدني على التمييز بين الحالتين**». إن هذه العبارة تلخص بحق كل ما تحدثنا به الآن. فالمحارب يعرف الأشياء التي يريد تغييرها ضمن إطار نواياه الصافية ويعطيها ذاته ووقته ضمن إطار قوته.

- ملاحظتك في مكانها يا سيد عارف، في الحقيقة إن ما تحدثنا به يجيب على السؤال الآخر.

- أي سؤال؟!

- ألا تقتضي معرفة الأشياء التي سأنتبه إليها ومقدار انتباهي لها معرفة الأشياء التي لن أنتبه إليها ولن أعطيها انتباهي؟.

- ها .. نعم! يدل هذا السؤال على الأشياء التي سأنتبه إليها ومقدار انتباهي لها. أي يبحث في مقدار توجيه انتباهي وطاقاتي إلى شيء ما وضمن أي حدود يمكنني توجيه ذلك. وهنا على ما أعتقد ثمة مسؤولية عن وعي الأولويات.

- طبعاً. السؤال السابق يحدد الأشياء التي سأنتبه إليها أي يُعِدُّ قائمة بالأشياء التي سأنتبه إليها بينما يركّز هذا السؤال على «تحديد أولويات» العناصر التي تحتل مكاناً في هذه القائمة.

- بالنسبة لوضعي يبحث هذان السؤالان في الأشياء التي سأعطيها الأولوية من بين الأشياء التي سأقوم بها خلال سعيي لخلق إمكانية تطوير طلابي وزملائي المعلمين.

- عندما تقدم الأمثلة الواقعية الخاصة بك تبدو أجمل.

- طبعاً لأنها تبين لك أنني فهمت ما تقصد.

- وفي الوقت ذاته أشعر أن الوقت الذي نمضيه يثمر نتائج جيدة.

❖ هل هناك حاجة لأي إنسان آخر؟:

- هل بقي لدينا أي سؤال آخر؟.

- نعم. السؤال الآخر أضفته أنت بنفسك إلى قائمة الأسئلة التي أردنا الإجابة عليها.

❖ السؤال: عندما يقول شخص ما: «أنا إنسان مسؤول» ما الذي يعنيه قوله هذا؟ هل يريد القول بأنه لا يتأثر بالأحداث الخارجية وبأنه لا أحد يوجّه حياته غيره؟. أي هل ينظر الإنسان الذي يقول: «أنا مسؤول عن حياتي» إلى الناس الآخرين على أنهم «رتوش تجميلية» في حياته ولا حاجة له بهم ويقول: «أنا أفعل كل ما أريد ولا حاجة لي بهؤلاء الناس؟!.

- لقد طرحتُ سؤالاً جيداً.

- وأنا أيضاً أقول ذلك. حقاً إنه سؤالٌ ذو معنى. هل تريد الإجابة عليه؟!.

- لو كنت أعرف الجواب لما طرحت السؤال.

- ربما لم تكن تعرف الجواب عندما طرحت هذا السؤال، ولا شك أنك اكتسبت أفكاراً جديدةً من خلال الأحاديث التي دارت بيننا.. لذلك سألتك فيما إذا كنت تريد الإجابة.

- لا، لا أعرف الجواب. ما أعرفه أن هذا السؤال مهم جداً.

- حسناً، سأتناول السؤال بما أعرفه من معلومات.

«كنا تحدثنا عن حاجتين لدى الفرد، أطلقنا على إحداهما مصطلح «التبعية» وعلى الأخرى مصطلح «تحقيق الذات» يولد الفرد مزوداً بهاتين الحاجتين. هذا الأمر حقيقة واقعة كما الجاذبية الأرضية لا يمكن إنكارها. فالإنسان في كل زمان ومكان عبارة عن مخلوق تابع من جهة ويسعى لتحقيق ذاته من جهة أخرى. إلى الآن كل شيء واضح. أليس كذلك؟!.

- نعم. لقد تحدثنا عن هذا الموضوع سابقاً. وربما يكون سؤالي حول الطريقة التي يتمكن المحارب من خلالها الموازنة بين التبعية وتحقيق الذات.

- قبل التطرق إلى موضوع المحارب لنتناول أي إنسان يقول: «أنا إنسان مسؤول عن تصرفاتي» فإذا كان هذا الشخص يقول: «أنا لا أتأثر بالأحداث الخارجية ولا أحد يوجِّه حياتي غيري» يكون عبارة عن إنسان لم يطور بَعدُ وعياً بخصوص التبعية ويكون قد انسلخ عن حقائق الحياة.

«لأن التبعية وتحقيق الذات عبارة عن حاجتين أساسيتين تشكلان حقيقة تمارس تأثيرها على حياتنا دائماً كما الجاذبية الأرضية، أدركنا ذلك أم لم ندركه».

«ولهذا السبب إذا كان الشخص الذي يقول: «أنا إنسان مسؤول عن حياتي» ينظر إلى الآخرين على أنهم «رتوش تجميلية» لا حاجة له بهم فهذا يعني أنه يعاني من وجود ثغرة هامة في إدراكه لحقيقة حياته».

«فالإنسان الذي يقول: «أنا مسؤول» يعلم جيداً وقبل كل شيء أنه مسؤول عن الحقائق التي يعيشها، فشخص كهذا عبارة عن إنسان وصل إلى مستوى من الوعي الذي يمكِّنه من تحقيق التوازن في حياته بين التبعية وتحقيق الذات.

- حسناً، وكيف يحقق المحارب هذا التوازن في حياته؟.

- يدرك المحارب أن علاقته مع اللوحة الكبيرة ناجمة عن بُعد التبعية في حياته، فالمحارب يعي تماماً أنه تابع لعائلته ولشركته ولأمته وللإنسانية ولعالم الكائنات الحية ولعالم الوجود وبأنه تابع للكون بشكل عام. فالعائلة التي يعيش بين أفرادها والشركة التي يعمل بها والأمة التي ينتمي إليها والإنسانية، كلها مفاهيم هامة وذات معنى في حياة المحارب، وأثناء بحث المحارب عن معنى لحياته وأثناء التعريف بصفاء ونقاء نيته لا يضع هذه المفاهيم جانباً.

- هذا يعني أن موقعي ووضعي في مهنة التعليم على سبيل المثال ليس لهما أي معنى بمعزل عن الطلاب.

- فعلاً لا معنى لك كمعلم دون هؤلاء. ولكن انتبه؛ إن الذي يقرر ذلك هو أنت أي عارف أوكورِرْ وليس أي أحد آخر. إذ أن قرار كهذا هو قرار شخصي وخاص وفردي وليس قرار أمك أو أبيك أو قرار وزارة أو لجنة ما، ولكنه في الوقت ذاته قرار متعلق بتبعيتك.

- جيد، لقد فهمت هذه النقطة وأستطيع رؤية هذه الحقيقة بكل وضوح. فالمسؤولية مفهوم حساس وأساسي، كما أستطيع أن أرى أن المسؤولية هي أحد أهم اللبنات الأساسية التي تجعل من المحارب محارباً. هل لدينا سؤال آخر حول المسؤولية يا سيد دوغان؟!.

- لحظة لأنظر في دفتر الملاحظات.

نظرت إلى دفتر الملاحظات فلم أجد أنني دونت أي سؤال آخر حول المسؤولية. فأخبرت السيد عارف بأنه لم يبق لدينا أي سؤال.

أخذ السيد عارف رشفة من كأس الماء ثم تراجع قليلاً ونظر إلى ما حوله. جاء دوري بالذهاب إلى المرحاض. عندما عدت قال السيد عارف: «لقد عُلّقت بطاقة على كل شجرة من هذه الأشجار»، نهض وقرأ ما كُتب على إحدى هذه البطاقات وقال: «رقم الشجرة التي على يميني هو 4281

وقد كُتب على اللوحة المعلقة عليها «لنحافظ على أشجارنا ولنتركها إرثاً لأولادنا» دققت النظر أكثر؛ فعلاً ثمة بطاقة على شجرة التين وأخرى على شجرة الجوز.

أغصان شجرة الجوز التي أمامي لم تنمُ كثيراً ومع ذلك فهي تحمل العديد من ثمرات الجوز ولكنها صغيرة وغير نامية ولم يبق ورق كثير في قمة الشجرة. ذكَّرتني شجرة الجوز هذه ببطل رواية «أيام الثلاثاء مع مور» /Tuesdays with Morrie/ أعتقد أن البروفيسور الذي يدعى مور أصيب بمرض يدعى ASL أصابه بداية برجليه ثم وصل إلى رئتيه ثم أصاب عضلاته بفالج ومن ثم قضى على حياته. أعتقد أن اليباس أصاب هذه الشجرة أيضاً من أسفلها وهو ينتشر إلى الأعلى.

جاء عصفور لكنه لم يتخذ قراراً حاسماً فيما يتعلق بالغصن الذي سيحط عليه، حلَّق قليلاً فوق الأغصان ثم حط على غصن رفيع كان يهتز ببطء بتأثير الرياح وقد زاد اهتزازه بعد أن حط العصفور عليه. كان المنظر أشبه ما يكون بأرجوحة تهتز في جوٍ طبيعي لفترة من الزمن.

❖ السعادة

لاحت ابتسامة على وجه السيد عارف وهو يسألني: «هل هناك علاقة بين السعادة والمسؤولية؟!»

فسألته كيف خطر هذا السؤال على ذهنه فقال: «أعلم أن السعادة مصطلح هام بالنسبة لأي إنسان، وها قد علمت أن المسؤولية أيضاً مصطلح هام جداً وما يشغل تفكيري الآن هو ما مدى مسؤولية الإنسان عن سعادته؟!».

- كنت أتحدث قبل فترة من الزمن مع أحد الأصدقاء، وهو يعيش الآن زواجه الثاني، وقد أخبرني بأن هناك فرق كبير بين زوجته الأولى وزوجته الثانية.

- وما هو هذا الفرق؟!.

- زوجته الأولى تتأثر بالأحداث بسرعة فتغضب أو تحزن على الفور بينما تنجح زوجته الثانية في الحفاظ على سعادتها في أوجها مهما كانت الأحداث.

- وكيف تنجح بذلك؟!.

- تؤمن بأن السعادة خيار، وتقول لزوجها: «لقد نذرت نفسي لكي أبقى سعيدة ودرَّبت نفسي على ذلك»

عندما كان يحدثني عن زوجته أخبرني قائلاً: «كانت كل ليلة قبل أن تنام تفكر بكل ما هو جيد وجميل في حياتها، ثم تردد عبارات الشكر من أجل كل واحدة من هذه الأشياء الجميلة، فآخر ما كانت تفعله كل يوم هو التفكير بالأشياء الجميلة في حياتها.

- ياله من رجل محظوظ.

- ليس الرجل وحسب بل الأسرة بأكملها محظوظة. فكر بالأطفال الذين سينشؤون في كنف هذه الأسرة؛ سيكبرون وهم يلاحظون أن السعادة ليس لها علاقة بالأحداث الخارجية بقدر علاقتها بنظرتنا إلى هذه الأحداث وبالمعنى الذي تعطيه لهذه الأحداث.

- الأهم من ذلك أن الأطفال سيتعلمون تحمل مسؤولية المعنى الذي يعطونه للأحداث، يا لقلة الناس الذين يمتلكون هذا الوعي في بيئتنا.

- إنهم نادرون في الوسط الذي أعيش فيه أيضاً... تلاحظ الفرق أليس كذلك؟!.. أقصد الفرق بين النموذجين: الأول: ينتهج فلسفة حياة تؤمن بأن الأحداث تُسعد الإنسان، وبأن مصدر السعادة موجود خارج الإنسان ويمكن للأحداث الخارجية وكل ما يُفعل وكل ما يُقال وكل ما يُشترى وكل ما يُباع أن يُسعد الإنسان كما يمكن أن يجعله تعيساً.

- أعترف لك يا أستاذي أنني حتى هذه اللحظة لم أفكر إلاَّ بهذه

الطريقة، ولم يخطر بذهني يوما مجرد وجود أسلوب تفكير مختلف عن هذا، ولكن كما قلت منذ قليل لأول مرة أرى السعادة والمسؤولية تجتمعان في بوتقة واحدة.

- لا تتأسف يا سيد عارف، فلقد أمضيت فترة طويلة من حياتي كنت أفكر خلالها كما تفكر أنت الآن.

توقفت عن الكلام لفترة لكي يدرك أنني أريد منه استيعاب ما سأقوله. ثم تابعت كلامي:

- لِمَ نحن كذلك؟! لأننا لم نرَ في وسطنا نوعاً آخر أو أسلوب تفكير آخر.

فأنا وأنت لم نرَ في حياتنا إنساناً يفكر كما تفكر زوجة صديقي ويعبِّر عن ذلك بالقول: «السعادة خياري وقراري أنا، فمصدر السعادة موجود في وعيي وليس نابعاً من الأحداث الخارجية.

- ألا يوجد أي تأثير للأحداث الخارجية على سعادتنا يا سيد دوغان؟!.

- من الطبيعي أن يكون لها تأثير. فالإنسان الذي يفقد إنساناً قريباً منه سيدخل في فترة من الحزن مهما كانت قدرته على نذر نفسه من أجل السعادة عالية، ولكن إنساناً كهذا، مع مرور الزمن سيضع حزنه هذا ضمن إطار واقعي.

شعرت أن شيئاً ما سبب لي انزعاجاً وضيقاً. وقد فهم السيد عارف ذلك من تغيُّر ملامح وجهي فصمت لكي يعطيني فرصة للتعبير عن ذلك. بعد فترة من الصمت أخبرت السيد عارف بأنني أشعر بضيق وانزعاج في داخلي. فقال:

- أدركت ذلك من ملامح وجهك وفهمت أن شيئاً ما أزعجك ولكنني لم أعرف ما هو هذا الشيء.

- وأنا أيضاً لم أستطع معرفته. فعندما طرحتَ سؤالك المتعلق بمدى تأثير الأحداث الخارجية على سعادتنا استخدمتُ عبارة مثل: «الإنسان الذي نذر نفسه من أجل سعادته» ومن لحظتها شعرت بهذا الضيق والانزعاج.

راح السيد عارف يردد: «إنسان نذر نفسه من أجل سعادته»، «إنسان نذر نفسه من أجل سعادته» ثم سألني:

- هل هذه العبارة هي التي أزعجتك؟!

- أعتقد ذلك.

- لماذا؟!

- لأنها قد تكون تعبيراً عن موقف إنسان متحجِّر، كمن نذر نفسه لأن يكون من أنصار فريق بشيكتاش لكرة القدم.

- ولماذا يزعجك هذا الموقف؟!.

- أستطيع أن أفكر بهذا الوضع على الشكل التالي: تسأل رجلاً ما أو امرأةً ما لماذا أنتَ سعيد أو لماذا أنت سعيدة؟ فيأتيك الجواب: «لأنني نذرت نفسي لأن أكون سعيداً، ولا يمكن لأَي أحد أو لأي شيء أن يجعلني تعيساً» شخصٌ كهذا لا يختلف أبداً عن الشخص الذي تسأله لماذا تشجع فريق بشيكتاش؟! فيجيبك: لأنني نذرت نفسي لأن أكون من أنصار بشيكتاش ولا يمكن لأحد أو لأي شيء أن يمنعني من أن أكون كذلك». لأن كلا الشخصين متحجِّرين وأعطيا أجوبة جوفاء وفارغة من المضمون.

- أي جواب لا تراه فارغاً من المعنى حين تسأل: «لماذا أنتِ سعيدةٌ يا سيدتي؟».

- أعتقد أن ما أبحث عنه يكمن في الفرق بين سعادة المحارب وسعادة الإنسان العادي المتخشب والمتحجر.

- أحاول على ما يبدو تطوير مفهوم جديد: سعادة المحارب وسعادة

الإنسان العادي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كانت سعادة زوجة صديقك من نوع سعادة المحارب أم من نوع سعادة الإنسان العادي؟!.

- لا أعلم، لأنني الآن فقط بدأت أفكر بشيء يدعى سعادة المحارب وشيء آخر يدعى سعادة الإنسان العادي، فعندما تحدث صديقي عن زوجته لم أستمع إليه بهذا الوعي.

- لقد أزعجتك فكرة أن يكون الإنسان سعيداً لمجرد أنه نذر نفسه لأن يكون سعيداً. والآن أدركت هذه الحقيقة وأدركت أيضاً أن سعادة المحارب سعادة حقيقية وأما النوع الآخر من السعادة فهو أشبه ما يكون بالإنسان الذي نذر نفسه لأن يكون من مشجعي أحد النوادي الرياضية.

- نعم، نعم، يجب أن أكتشف الآن ما الذي قصدته بسعادة المحارب.

- إن اكتشفنا معنى سعادة المحارب هل سنكون قد عرفنا سعادة الإنسان العادي؟!.

- غالباً نعم. إذ من خلال المقارنة بين الضدين: «جيد» و«سيئ» نستطيع تعريف إحداها إذا كنا نعرف الأخرى.

- إذاً لنعرِّف سعادة المحارب.

- سأحاول الآن، لأنها ليست من المصطلحات التي ألِفتها سابقاً «سعادة المحارب» من المصطلحات التي سنعمل على تطويرها وتفسيرها سوية.

- حسناً إنني أستمع.

- لنسأل بداية من هو المحارب؟ لنلقِ نظرة على ما تحدثنا به حتى الآن.

«المحارب شخص يعيش حالة البحث عن معنى، ولكن ماذا نعني بقولنا حالة البحث عن معنى؟ يعني البحث عن أجوبة تتعلق بكل عمل نقوم به: أين، وماذا، ولماذا، وكيف قمنا بهذا العمل؟. وهذا يعني أن المحارب

شخص اكتشف نيته أثناء هذا البحث واكتشف نقاءها ويواصل صياغة المستقبل الذي نذر نفسه في سبيل خلقه ضمن إطار نيته الصافية»

«إنه شخص يرى نفسه مسؤولاً عن تحقيق هذا المستقبل ضمن إطار شخصيته المتكاملة، بيد أنه ليس منسلخاً عن العالم وعن الكون الذي يعيش فيه، بل تربطه به رابطة عضوية. إنه شخص وجد لحياته معنى على اعتباره جزءاً من كلٍ كبير.

«فإذا ما سألت المحارب: «لماذا أنت من مشجعي فريق بشكتاش؟» فإنه يعطيك جواباً ضمن إطار هذا الكل الذي ينتمي إليه، وفي الوقت ذاته إذا سألته: «لماذا أنت سعيد؟» فإنه يجيبك ضمن إطار هذا الكل. أي أن سعادة المحارب تحتل لها مكاناً ضمن هذا العالم، إنها سعادة ذات معنى أقامت تواصلاً مع كل شيء ضمن شبكة العلاقات، بينما سعادة الإنسان العادي فهي مسلوخة عن الكل، إنها سعادة تابعة، إذ أنه يتبنى مقاربة تقول: «إذا لم يكن x موجوداً لا أستطيع أن أكون سعيداً» فإذا كان نادي بشيكتاش غير موجود فإن كلية العالم لا تهمه ولا تجعله سعيداً.

- لا يمكن أن يكون المحارب سعيداً لمجرد السعادة.

- هل استطعت أن أوضح لك الموضوع من خلال ما قلته؟.

- بالتأكيد. فلقد احتل مكاناً له ضمن اللوحة الكبيرة لأنه صاغ كل كلمة من كلماته وقام بكل فعل من أفعاله بصفاء نية. ولهذا فلكل كلمة ينطق بها ولكل فعل يقوم به علاقة مع هذه اللوحة الكبيرة، وهذا ما يجعل حياة المحارب بمجملها ذات معنى، ولن يكون من الصعب اكتشاف أن الحياة المفعمة بالمعنى ستكون حياة مفعمة بالسعادة.

- انطلقنا يا سيد عارف من حالة الضيق التي شعرت بها فوصلنا إلى توضيحات هامة. أشكرك على حسن استماعك وعلى المستوى الرفيع لتواصلك.

- العفو يا سيد دوغان. إن ثقتي بنفسي تزداد أكثر كلما سمعت منك كلمات كهذه.

❖ العيب دائماً في الرجال:

عندما وصلنا إلى هذه النقطة قرأت على السيد عارف بعضاً من مشاهدات عالم النفس الأمريكي ناثانيال براندن Nathaniel Branden المتعلقة بامرأة جاءت إلى العيادة النفسية:

أعطى عالم النفس المذكور لهذه المرأة اسم «أليسا».

لقد خانت أليسا هذه زوجها عدة مرات ولم تستطع الحفاظ على صدقها معه، والآن عرف زوجها بهذا الموضوع ودخلت حياتهما مرحلة الخطر. هكذا بدأت قصتها في العيادة النفسية. كل العلاقات الجنسية التي أقامتها مع الرجال حدثت وهي ثملة.

وعندما قيل لها: «ربما تكوني قد شربتِ إلى درجة السكر لكي تتهربي من مسؤولية ما تقومين به» قالت: «يجب أن يكون من حق المرأة أن تشرب قليلاً إن رغبت بذلك وأن يكون من حقها أيضاً أن يكون لها علاقات عاطفية، غير أن الرجال يريدون امتلاكها قسراً، ولا يصغون لـ«لاءاتها» ولا يولون رفضها أي اهتمام».

وعندما طلب المعالج النفسي منها أن تتذكّر فيما إذا كانت قد تصرّفت بطريقة تشجع الرجال على فعل ما فعلوه، ثارت بوجهه وقالت: «هل تريد إلقاء التهمة عليّ؟!».

في نهاية هذه الحوارات ألقت المرأة كامل مسؤولية علاقاتها الجنسية على الرجال ولم تشعر بالحاجة لتحمل مسؤولية أي سلوك قامت به، وبعبارة أكثر دقة لا تريد أن تفكر مجرد تفكير بأنها مسؤولة عن ما قامت به. وعندما قال لها المعالج إن هناك احتمال أن تكون هي

أيضاً مسؤولة عن العلاقات الجنسية التي أقامتها استشاطت غضباً وراحت تدافع عن نفسها.

يلخص الكاتب هذه الحالة كما يلي: ترى أليسا أن المسؤول الوحيد عن كل هذه المشكلة هم الرجال الذين كانوا في الحفلة؛ الرجال المعتدون الذين لا يستطيعون ردع أنفسهم. تقول: «طبعاً أريد إنقاذ حياتنا الزوجية، وطبعاً أحب زوجي كثيراً وأنا تعيسة جداً لأنني سببت له هذا الحزن وهذا الألم» ولكنها لا تريد البتة تحمُل مسؤولية أخطائها.

وعندما بدأ المعالج باستخدام تقنيات وأساليب نفسية بغية الغوص في الأعماق، رفضت أليسا تطبيق هذه الأساليب بحجة أنها أساليب «اصطناعية» وغادرت العيادة النفسية بعد إصرارها على ذلك.

يقول المعالج النفسي: «**لقد أقنعت أليسا نفسها بأنها مظلومة وعاجزة ومغلوبة على أمرها، وتصر على عدم تحمل مسؤولية العلاقات الجنسية التي أقامتها تحت تأثير الخمرة، متمسكة بعبارة «ما باليد حيلة، إنني امرأة مغلوب على أمرها» كغريق في المحيط يتمسك بطوق نجاة ولكن هذا الطوق هو ذاته الذي سيغرقها في محيط الحياة**»[9]

- يا سيد دوغان، هل يمكن أن ينجح المعالج النفسي في علاجه ما لم تتعلم هذه المرأة التي تُدعى أليسا تحمُل مسؤولية تصرفاتها.

- لا يمكن. إذ أن الخطوة الأولى التي يجب على هذه المرأة القيام بها هي تحمُل مسؤولية الوعي الذي أحضرته إلى الوسط، وبعد هذه الخطوة فقط يبدأ التواصل ذو المعنى بين المعالج والمرأة.

- حسناً وما هو موقف زوجها؟.

- لا أعلم، لا يتحدث براندن في كتابه عن موقف زوجها أو عن السلوك الذي قام به.

---

(9) Nathaniel Branden; Taking Responsibility .

- برأيك ما هو الموقف الصحيح الذي كان يتوجب على زوجها القيام به؟.

توقفت عن الكلام ونظرت إلى السيد عارف وضحكت. فنظر إليَّ وقال مبتسماً: «هل قلت ما يُضحك يا أستاذي؟!». أردت أن يلاحظ أي وعي أحضر إلى الوسط، فدار بيننا الحديث التالي:

- إنني متشوق لمعرفة موقف زوجها وبماذا كان يفكر.

- لماذا؟!.

- متشوق وحسب.

- اتَّخذ موقف المحارب وفكِّر بأنك تعيش حياة استراتيجية. فالمحارب لا يقول: «متشوق وحسب» لأنه دائماً يعي نيته، والآن، لماذا تشوَّقت لمعرفة ما الذي فكَّر به زوج هذه المرأة؟.

- لأنني غضبت من الرجل ومن زوجته معاً.

- أفهم ما تعنيه، بل توقعت ذلك.

- لو كانت هذه المرأة زوجتي لما أبقيتها كذلك لحظة واحدة، لأنني أنطلق من مبدأ يقول: لا يمكن لأي رجل شريف أن يبقى متزوجاً من امرأة تمارس الجنس مع رجل آخر بعد كل سهرة تشرب فيها قليلاً من الخمرة.

- هل يمكن أن تكون نيتك الأساسية الكامنة في طرحك لهذا السؤال هي التي جعلتك تعبِّر بهذه الطريقة؟! إذ أن رجلاً يواصل علاقته الزوجية مع امرأة غير مسؤولة كهذه المرأة يعاني من نقص ما في مفهومه الأسري وفي مفهومه الذكوري وفي مفهومه عن الشرف، فالمشكلة ليست نابعة من المرأة وحسب.

- حقاً هذا ما أريد قوله.

- ألم تشعر في الوقت ذاته بالغضب من هذا الشخص؟.

- نعم غضبت، بل غضبت منه كثيراً.

- حسناً، فهمت شكراً لك.

- ولكنني أنا لم أفهم، فلا زلت أشعر أنني أعيش أجواء هذه الحادثة، ولم أفهم ما تريد قوله.

- ليس مهماً ما أردت قوله، بل المهم هو أنني كنت أرغب بأن تدرك نيتك، فلقد شعرت بالغضب تجاه هذا الرجل الذي يواصل حياته كزوج لهذه المرأة، ولكنك لم تكن تدرك هذا الغضب، أو أنك فكرت بأنه من غير المناسب التعبير عن هذا الغضب بشكل مباشر وعبَّرت عن هذا الموضوع من خلال طرح سؤال مفاده: «برأيك ما هو السلوك الصحيح الذي كان يتوجب على هذا الزوج القيام به؟».

- صحيح، هذا ما فعلته. حسناً وكيف يتصرف المحارب في وضع كهذا؟.

- لو كنت تمتلك وعي إنسان محارب فعلاً:

❖ لكان بإمكانك إدراك الانزعاج الذي شعرت به تجاه زوج تلك المرأة.

❖ وكنت استطعت اكتشاف شعورك بالغضب الناجم عن انتهاك القيم الأساسية لما نطلق عليه «كبرياء الرجل أو شرفه أو ضميره» التي تعد جزءاً لا يتجزأ من هوية الذكورة التي تؤمن بها في أعماقك.

❖ ولكنت أدركت أن هذه القيم الأساسية التي تؤمن بها مكتسبة من الثقافة التركية وبأن نظرة الرجل الأمريكي إلى هذه القيم قد تكون مختلفة تماماً.

❖ وربما كان خطر على ذهنك الاحتمال التالي: ربما يعبِّر هذا الرجل عن حبه لزوجته وعن كبريائه الذكوري وعن شرفه من خلال تقديم الدعم والعون لها والبقاء بقربها في أيامها الصعبة بغية تطويرها.

❖ عندما يخطر على ذهنك احتمال كهذا ستدرك حجم مسؤولية

الحكم على البشر دون معرفة سابقة بهم، وستفضل، كمحارب صادق، فهم الآخرين بدل إصدار الحكم عليهم.

- يا للعجب!!..

- ولماذا العجب؟!.

- ليس من السهل أن يصبح الإنسان محارباً، إذ أن وضعاً كهذا يقتضي وجود قدر كبير من الوعي.

- إن نذرت نفسك في سبيل تطوير وعيك فإنه سيتطور مع الزمن.

- ولكن بداية يجب أن يتحمل المرء مسؤولية تطوير وعيه أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد.

دخل رجل من الباب المؤدي إلى الزقاق الضيق والموجود بجانب المراحيض، مشية هذا الرجل ووقفته وشكله وكل شيء فيه يقول: «أنا بطل شجاع» وجهه عبوس ولكنه لا يدرك ذلك، فقد استقر هذا العبوس على وجهه لدرجة أنه أصبح جزءً لا يتجزأ عن وجوده الطبيعي. وقفته وعلامات وجهه وجميع حركاته تحولت إلى جزء خاص به، كان يمشي مترنحاً، نظر ذات اليمين وذات الشمال ومن ثم خرج من الباب الآخر باتجاه الطريق الرئيسي.

شربت والسيد عارف ماءً ثم جلسنا برهة صامتين ومن ثم تمشينا باتجاه السلطان أحمد، قررنا الالتقاء الأسبوع القادم في السلطان أحمد. فلقد سمع السيد عارف بمكان يدعى المدرسة الجعفرية، فاقترح الذهاب إلى هناك وقبلت اقتراحه، فسألني: ما هو الموضوع الذي سنناقشه؟ «فأجبته مبتسماً: «وعي الموت» فقال: المدرسى الجعفرية مكان مناسب جداً لموضوع كهذا.

افترقنا بعد أن أخبرني السيد عارف بأنه سيذهب إلى أحد أصدقائه في منطقة لالالي.

7
وعي الموت

التقيت مع السيد عارف أمام متحف آيا صوفيا، تركنا المتحف على يميننا وتقدمنا إلى الأمام ثم دخلنا زقاق جعفرية وبعدها ظهرت أمامنا المدرسة الجعفرية على اليسار.

تقدمنا قليلاً دخلنا زقاقاً ضيقاً يسمى صوغوك كويو ومشينا في طريق حجري نازل محصور بين جدار قديم على اليسار وجدار مطلي باللون الأبيض على اليمين، ثمة رائحة رطوبة كثيفة تفوح في المكان، وجدنا أمامنا لوحة كبيرة مكتوب عليها «وقف خدمة الثقافة التركية- مدرسة جعفر آغا- مركز الفنون التطبيقية» ما أن تدخل حتى يلفت انتباهك مجموعة من الورود والأزهار. الفناء المحاط بمجموعة من الغرف لا يختلف عن الفناء الموجود في أي مدرسة وقد وُضع فيه عدد من الطاولات والكراسي.

بينما كنت والسيد عارف نتمشى ونشاهد الغرف تقدم نادل شاب منا وأعطانا منشوراً يعتقد أنه سيساعدنا كثيراً. على غلاف المنشور، الذي تشكل من طي ورقة كبيرة ثلاث مرات، صورة للمدخل كُتب فوقها اسم الوقف، وفي القسم العلوي للوجه الخلفي للغلاف وُضعت صورتان؛ الأولى لباب تم ترميمه وفوق الباب وخلفه كُتبت عبارات بالأحرف العربية - لا

يوجد أي معلومة مفيدة لمن لا يجيد قراءة التركية بالأحرف القديمة- وأما في القسم السفلي من الصفحة فتوجد صورة للفناء الذي تحول إلى مقهى، وأما بقية المنشور فقد خصص لمعلومات تاريخية خاصة بهذه المدرسة.

سألت النادل قبل أن نجلس قائلاً: هل يوجد لديكم شوربة عدس؟ «وطلبت أن يحضر لي صحن شوربة، بينما طلب السيد عارف فنجان قهوة تركية سكر وسط، ثم جلسنا على طاولة قريبة من الجدار الموجود على يمين المدخل. وضعت قطع قماش مطرزة ذات شرائط حمراء وبيضاء فوق الفناء بغية حمايته من الشمس والمطر، وانتشرت الطاولات في الفناء تاركين مسافات كبيرة بينها.

❖ ما الذي تشعر به؟:

- ما هو موضوعنا لهذا اليوم يا سيد دوغان؟.

- قبل أن ندخل في صلب الموضوع أريد منك إلقاء نظرة حولك.

- إنني أنظر حولي وأرى بشراً وأشياءً أي أرى حركة حولي. هل تطلب مني النظر إلى شيء محدد؟.

- هل لفت انتباهك أي شيء؟.

- ابتسامة تلك الفتاة الشابة تملؤني بالدفء، إنني أشعر بذلك، إن لها وجهاً طاهراً وابتسامة دافئة وصادقة لدرجة أن عيناي تتجهان إليها من تلقاء ذاتهما.

- لا شك أنك تقصد تلك الفتاة ذات الأربعة عشر أو الخمسة عشر ربيعاً. أليس كذلك؟!.

- أجل.

- لقد لفتت انتباهي أيضاً. الآن، أريدك أن تلقي على تلك الفتاة نظرتين مختلفتين، افرض أن هذه الفتاة ستأتي كل يوم إلى هنا في هذه

الساعة بالذات، فإذا ما جئت في أي شهر من السنة أو في أي يوم من الشهر فستتمكن من رؤيتها وتتأمل وجهها البشوش. هيا انظر إليها الآن انطلاقاً من هذه الفرضية.

- حسناً سأنظر إليها انطلاقاً من هذه الفرضية، سأنظر إليها انطلاقاً من أنني سأتمكن من رؤية هذا الوجه البشوش كل يوم.

- احتفظ في عقلك بكل ما تشعر به وأنت تنظر إليها .

- حسناً.

صمتُ فترة من الزمن. أغلق السيد عارف عينيه محاولاً استيعاب ما شعر به بشكل جيد. وبعد أن أعطيته وقتاً كافياً لتأمل أحاسيسه تابعت كلامي:

- الآن أريدك النظر إلى الفتاة ذاتها بطريقة أخرى. أنت الآن تعلم بأن هذه الفتاة مصابة بمرض قاتل ولم يبق لهذه الفتاة، التي تضحك برقة وحيوية، من العمر إلا أسبوعاً واحداً ولم يخبرها أحد بحقيقة مرضها وبالتالي هي لا تعرف بأنها ستموت ولكنك أنت تعرف هذه الحقيقة. انظر إليها الآن.

- بدأت أشعر بالضيق يا سيد دوغان، أطلب من الله ألا تصاب بمرض كهذا، فلا تزال شابة مفعمة بالحيوية والنشاط.

- ومع ذلك انظر إليها وكأنك تعرف بأنها ستموت.

- حسناً، إنني أنظر إليها انطلاقاً من هذه الفكرة. لقد امتلأ قلبي بالحزن.

- هل هناك فرق بين شعورك عندما نظرت إليها على أنها «فتاة يمكنك رؤيتها كل يوم» وبين شعورك عندما نظرت إليها على أنها «فتاة ستموت بعد أسبوع»؟!.

- وأيُ فرق!! في النظرة الأولى كنت سطحياً وأما الآن فإنني أنظر

إليها بعمق أكثر. الآن أدركت هذه الفتاة بكل ما في الكلمة من معنى. إنني أدرك وجودها بأكمله بل أدرك أنني رأيت كل سلوك قامت به وكل حركة أتت بها بأدق التفاصيل. إنني مدرك لأحاسيسي ومدرك لهذه اللحظة.

هنا أغمض السيد عارف عينيه ثم نظر إلي وتابع كلامه بانفعال كمن اكتشف شيئاً هاماً:

- نعم وربما الأهم من كل شيء هو إدراكي بأنني موجود (الآن وهنا) وبأنني أعيش في لحظة لا يمكن أن تتكرر أبداً.

- أيُ إدراك كان أكثر غنىً؟.

- الثاني.

- في أيهما كانت أحاسيسك أكثر تركيزاً؟.

- في الثاني.

- وفي أي إدراك تستحق هذه الفتاة الانتباه إليها والنظر إليها والتفكير بها؟.

- أيضاً في الإدراك الثاني.

- حسناً ولكن لماذا؟!.

- لأنني أدركت أنني لن أراها ثانية، وأدركت أنني لن أعيش هذه اللحظة مرة ثانية فلقد تبلورت اللحظة التي أعيشها وظهرت «فرادتها».

أحضر النادل القهوة والشوربة فقال السيد عارف: «وصول القهوة أفسد مشاعري وفجأة أحسست بأنني إنسان حقير» فلقد ألمَّ بي أنا أيضاً إحساس غريب جرَّاء انشغالنا بالقهوة والشوربة أثناء الحديث عن أحاسيس مرهفة كتلك التي كنا نتحدث عنها؛ كان إحساسنا بهذه النقطة مشتركاً.

صمتنا حتى انتهيت من تناول الشوربة، ثم تابعت الحديث:

- لقد عشت في خيالي التجربة ذاتها ولكن معك هذه المرة، فأنا أيضاً عشت ذات الأحاسيس التي عبَّرتَ عنها.

- ولكن هل تعلم ما الذي جرى لي يا سيد دوغان؟.

- ما الذي جرى؟!.

- لم أعد أستطيع إبعاد نظري عن هذه الفتاة لأنني بدأت بالفعل أفكر بأنني لن أعيش هذه اللحظة مرة أخرى.

- نعم أفهمك، أساساً هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟! أي أن هذه اللحظة خاصة ومتميزة وفريدة ولا يمكن أن تتكرر. فأنا وأنت لن نلتقي في هذا الكون مرَّة أخرى ولن نلتقي في هذه البيئة وضمن هذه الأحداث وهذه المؤثرات. وهذه الفتاة على سبيل المثال لن نراها في محيطنا، وهذا هو وعي تميُّز وفرادة الآن وهنا.

- أفهم ذلك، أساساً كل لحظة في حياتي متميزة وفريدة، ولكنني لم أكن أعي ذلك وقد وعيت هذه النقطة عندما نظرت إلى هذه الفتاة نظرتين مختلفتين.

التقت نظرات السيد عارف مع نظراتي، فلقد أدرك أن هذا هو الهدف الذي أردت الوصول إليه.

الفتاة التي كنا نراقبها كانت تجلس ضمن مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص، هي وثلاث فتيات في العشرين من عمرهن وشابين بنفس العمر، يبدو أن هذه الفتاة تضفي سروراً وبهجة على هذه المجموعة، فلقد كانت تلامس روح كل شخص في هذه المجموعة وكأنها باقة ورد نُثرت على الطاولة.

❖ الشعور بالندم:

- كنت تتحدث عن حالة الوصول إلى الوعي يا سيد عارف. قد لا يتم الوصول إلى حالة الوعي دائماً، ولكن أحياناً وبين الفينة والأخرى يتم الوصول إليه بيد أن هذا الوصول قد يتأخر قليلاً.

«يروي أحد المعالجين النفسيين قصة بروفيسور في التاريخ في السابعة والأربعين من عمره:

أتى إليَّ لكي يتحدث عن علاقته بزوجته، فهو يعتقد بأنه كثيراً ما يسيء ويطرق مختلفة لزوجته بالرغم من أنه يحبها كثيراً. فقد أوضح بأنه عندما تتحدث زوجته معه حول موضوع هام يتعلق بهما ينشغل كثيراً ويستمع إليها دون أن يعيرها أي اهتمام ولا يعطيها أية أجوبة شافية، وعندما تطلب زوجته منه طلباً ما ينظر إليها مبتسماً ولكنه يغير الموضوع فوراً ويتحدث عن أمور أخرى كما لا يلبي مطالبها وإذا لم تتفق معه بالرأي فإنه يهملها ولا يعير أي انتباه لرأيها بل ينتقل إلى موضوع آخر ويتابع حديثه، وعندما تقول له: «إنك تجرحني بحديثك هذا» لا يوليها أي اهتمام ولا يعتذر منها ويمرر الموضوع لكي يطويه النسيان وبعد فترة من الزمن ينسى كل شيء.

اعترف بروفيسور التاريخ بأنه يحب زوجته كثيراً. إنه كريم ومعطاء عندما يروق له كما يقدم العون والدعم لزوجته، إنه يحبها قولاً بيد أنه لا يترجم هذا الحب إلى سلوك واقعي، وكأن المرأة التي يحبها في عقله مختلفة عن المرأة التي يعيش معها في الواقع، وكأن زوجته لا تحتل مكاناً في حياته ولا تقاسمه حياته.

بعد فترة من الزمن مرضت زوجته وماتت، وبذلك خرجت هذه المرأة من حياة البروفيسور نهائياً. وعندما وقف البروفيسور أمام قبر زوجته أدرك أنه لم يكن مع

زوجته عندما كانت على قيد الحياة، فقد كان يضعها دائما في مخيلته، في مكان ما من دماغه، واكتشف أنه كان قد أخرج زوجته من حياته ودفنها في مكان ما قبل أن يدفنها في التراب بزمن بعيد.

فما لم تحققه المحبة حققه الموت، إذ أخرجه الموت من العالم الذي كان قد دفن نفسه فيه وجعله يقيم علاقات مع الواقع. [10]

- هذا هو موضوعنا لهذا اليوم أليس كذلك يا سيد دوغان؟!.
- أجل، موضوعنا لهذا اليوم هو «وعي الموت»
- إنه وعي يتوجب على المحارب امتلاكه أليس كذلك؟!.
- يعتبر هذا الوعي أحد الخطوات الأولى التي تُحوِّل الإنسان العادي إلى محارب.
- ألا يمتلك الإنسان العادي وعي الموت؟.
- وعي الإنسان العادي بالموت يشبه الحب الذي يكنُّه بروفيسور التاريخ، الذي روينا قصته منذ قليل، لزوجته.
- أي أنه وعي بالاسم فقط.
- نعم إنه وعي بالاسم فقط، وعي بقي، وخاصة في ثقافتنا، ضمن حدود العبارات والكلام فقط مثل: «هل تستحق هذه الدنيا الفانية القيام بكذا؟» و«على كل حال، الموت، مصيرنا جميعاً» و«مال الدنيا يبقى في الدنيا».
- هل تقصد أن الذين يرددون هذه العبارات لم يستوعبوا معناها بشكل حقيقي؟.

---

(10) Nathaniel Braden: The Art of living conaciouly 11-2

- نعم هذا ما أقصده، فالإنسان العادي لم يستوعب بشكل جيد أن هذه الحياة مؤقتة ولها نهاية وبأن الموت قد يضع حداً لهذه الحياة في أي لحظة وفي أي مكان، فهو لا يعي حتى الآن أن هذه الحياة محدودة.

- والمحارب؟!.

- المحارب يعي الموت جيداً. تتذكر ولا شك الأمثلة التي قدمناها سابقاً من حديث دون جوان مع كارلوس، فحسب دون جوان وعي الإنسان للموت يشكل أساساً لتحمله مسؤولية حياته. فقد قال:

«وأما أنت، فإنك تتصرف وكأنك إنسان خالد، فقد يلغي الإنسان الخالد قراراته وقد يشعر بالشك وقد يشعر بالندم. في عالم يسعى الموت فيه لحصد الأرواح لا وقت فيه للشك أو للندم، الوقت هنا فقط لاتخاذ القرارات.»

- نعم أذكر.

- لقد أولى الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر Martin Heidgger اهتماماً، كما دون جوان، لموضوع وعي الموت. ويمكننا اختصار فكرة هيدجر كما يلي:

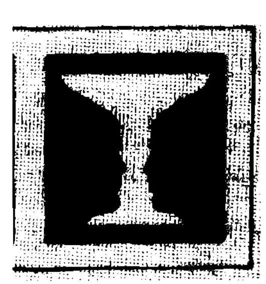
«إن كون الحياة محدودة ينقذني من سلاسل الماضي ويطلق يديَّ نحو المستقبل، فإذا ما اقتنعت بأن الموت قد يأتي في كل لحظة وفي كل مكان فإنني سأتخلص من كسلي المتعلق بـ«الآن وهنا» والناجم عن أنانيتي. فمن خلال وعيي بأنني سأبقى في هذه الدنيا فترة قصيرة، أرى أنه لا سبيل لدي إلا البدء فوراً، الآن وهنا، بكل ما أريد القيام به في هذه الحياة، ولكن ما الذي أفعله عموماً؟ أؤجل الحياة الحقيقية، إلى زمن ما

في المستقبل وواصل كسلي المتعلق بـ «الآن وهنا» الذي يصبح الطريق الوحيد الذي أمامي»[11]

- هل يمكن اعتبار الحديث عن الموت بالاسم فقط والوعي بأن الحياة يمكن أن تنتهي في أي لحظة أساساً للفرق بين الإنسان المحارب والإنسان العادي؟!.

❖ علاقة الشكل والأرضية:

- عندما ندَّعي ذلك يبدو وكأننا نقول: يوجد فرق واحد فقط بين المحارب والإنسان العادي وهذا الفرق هو وعي الموت، وهذا ليس صحيحاً، الصحيح هو القول بأن هناك العديد من الفروق بين المحارب والإنسان العادي وأحد أهم هذه الفروق هو وعي الموت عند المحارب، فالمحارب ينظم عمله ضمن إطار هذا الوعي. المحارب لا يتحدث عن الموت ولكنه في الوقت ذاته لا ينساه، يقيم كل فكرة يتحدث بها وكل كلمة يلفظها وكل عمل يقوم به على هذه الأرضية.



- هل تتحدث عن العلاقة بين الشكل والأرضية في عملية الإدراك؟!.

- هل تتذكر عندما يتم الحديث عن الإدراك تُعرض لوحة من الممكن إدراكها على أنها مزهرية(فازا) من جهة وعلى أنها وجهين متقابلين من جهة أخرى؟.

- نعم أذكر.

- العامل الأساسي الذي يحدد الشكل فيما إذا كان مزهرية أو

---

(11) Brad Blanton: Radical Honesty244-5

وجهين متقابلين هو تحديد الأرضية والشكل في اللوحة، أي أيهما الشكل وأيهما الأرضية. فإذا قبلت اللون الأبيض على أنه أرضية فإنك تدرك شيئاً وأما إذا قبلت اللون الأسود على أنه هو الأرضية فستدرك شيئاً آخر.

- يعطي الإنسان العادي لحياته اليومية معنى من خلال قبوله أن الأرضية هي حياته الخالدة التي لا تنتهي بينما يعطي المحارب لحياته اليومية معنى من خلال قبوله أن الأرضية هي وعي الموت الذي قد يأتي في كل لحظة.

- بالتأكيد. لا يتم في ثقافتنا عموما الحديث كثيراً عن الموت ولكننا أكثر انفتاحاً ووضوحاً مقارنة بالثقافة الأمريكية. فموقف شعبنا أكثر واقعية فيما يخص موضوع الموت، ولكن الحديث عن الموت من جهة وانتهاج موقف واقعي منه من جهة أخرى قد لا يؤديان إلى تطوير وعي الموت. ميزة المحارب تكمن في هذا الوعي.

- هل تحدث دون جوان مع كارلوس أي حديث آخر عن الموت باستثناء ما ذكرناه سابقاً؟.

- طبعاً تحدث، ولقد جئت جاهزاً لهذا الموضوع لأنني أعلم أننا سنتحدث اليوم عن وعي الموت.

أنهيت صحن الشوربة ولم تبق لدي شهية للطعام، فقال النادل: «هل انتهيتم من طعامكم يا سيدي؟» فهززت رأسي بأن: نعم.

❖ دون جوان مع كارلوس

أخرجت من حقيبتي الكتب التي ألّفها كارلوس كاستانادا، ورحت أقرأ على مسامع السيد عارف المقاطع التي وضعت خطاً تحتها:

«تحدث كارلوس ذات مرة عن أن دماغه مشوش ولا يعرف كيف سيتخذ قراراً، فدار بينه وبين دون جوان الحديث التالي:

- عندما يضطرب ويتشوش دماغ المحارب يفكر بموته.

رداً على هذه العبارة قال كارلوس:

- ولكن يا دون جوان، إن تفكير الإنسان بموته أصعب بكثير! فالموت بالنسبة للعديد من الناس شيء غامض وبعيد ومعظمنا لا يفكر بموته.

- ولماذا علينا ألا نفكر بالموت؟!.

- ولماذا علينا أن نفكر به؟!!. فقال دون جوان:

- ببساطة لأن فكرة الموت هي الشيء الوحيد التي تنظم روح الإنسان وتبعدها عن الفوضى.



طُرح مصطلح الموت من جديد عندما كان دون جوان وكارلوس يتمشيان في جبال المكسيك، فقال دون جوان:

«من يريد أن يصبح محارباً عليه قبل كل شيء أن يصل إلى وعي الموت، عندما يفكر الإنسان العادي بموته يصل إلى حالة لا يفكر فيها بأي شيء في العالم إلا بنفسه، ينام ويصحو وهو يفكر بنفسه وبذلك يُصاب بنوع من الشلل. وأما عندما يصل المحارب إلى وعي الموت فإنه يتعلم ألا يهتم به وبذلك بدلاً من أن يفكر بنفسه بشكل مستمر يتعلم أنه لا يختلف عن أي مخلوق في هذا العالم».

الشيء الوحيد الذي سيقوم به الشخص الذي تعلم كيف يكون حيادياً هو تطبيق القرارات التي اتَّخذها بشكل واعٍ على اعتباره إنساناً

وصل إلى حالة وعي الموت. يجري خياراته بشكلٍ واعٍ ويعرف تماماً أنه هو وليس أحداً آخر من يتحمل مسؤولية هذه الخيارات، وبعد أن يتخذ قراره يدرك أن السهم قد انطلق من القوس فلا تراجع ولا ندم، وبذلك يعيش المحارب وجهاً لوجه، ضمن هذه الحياة الاستراتيجية، مع القرارات التي اتَّخذها ومع الأعمال التي سينجزها.

❖ الوعي المستحضر إلى الوسط:

قال السيد عارف: «ليس من السهولة أن يصبح الإنسان محارباً»، فهززت رأسي بصمتٍ. شرد السيد عارف بأفكاره فذهبت إلى دورات المياه لكي لا أقطع عليه سلسلة أفكاره. عندما عدت كان لا يزال شارداً.

بدأ حديثه قائلاً: «هل تعلم يا سيد دوغان أن أكثر ما يثير تفكيري هو قدرة الإنسان على اتخاذ القرارات بشكل واعٍ وانتقاله إلى مرحلة التنفيذ والعمل بكل قواه دون أن يكون لديه أدنى شعور بالندم جرّاء اتخاذه لهذه القرارات. هنا بالذات تكمن نقاط ضعفي.

- تقصد أنك تندم وتغيِّر قراراتك كثيراً. أليس كذلك؟!.

- أجل، وحدث الأمر نفسه عندما قررت أن أصبح معلماً. تتذكر ولا شك أول ما تحدثت معك حول هذه النقطة فلقد بدأت أشعر بالندم منذ أن اتَّخذت قراراً بأن أصبح معلماً.

- نعم أذكر يا سيد عارف. كثيراً ما يحدث معي الأمر ذاته، وإن تكرار شعوري بالندم لهو مؤشر على أنني لا زلت بعيداً عن نقطة التحول إلى إنسان محارب.

- أأنت أيضاً تشعر بالندم حيال القرارات التي تتخذها؟.

- أجل، سابقاً كنت أشعر بالندم أكثر، وأما الآن فقد انخفض عدد المرات، لكنني لا زلت أتخذ القرارات التي أشعر معها بالندم.

- ولماذا يحدث معنا هذا؟.

- تقصد لماذا نشعر بالندم؟.

- نعم، لماذا نتخذ القرارات وبعد ذلك نشعر بالندم؟.

- عندما أتأمل نفسي أرى أن السبب الأساسي كامن في النواقص التي يعاني منها الوعي الذي أحضره إلى الوسط.

- هل يمكنك توضيح هذه النقطة أكثر؟.

- عندما اتَّخذ قراراً ما فإنني اتَّخذه بسرعة دون التفكير بعمق ودون إجراء ملاحظات دقيقة حول الموضوع الذي ساتَّخذ قراراً بشأنه.

- حسناً وما هو سبب ذلك؟.

- يكمن سبب ذلك في عدم امتلاكي وعياً حول الماهية الحقيقية لنيتي في الموضوع الذي اتَّخذ قراراً خاصاً به. فكثيراً ما أقوم بإنجاز أعمال وفي أعماق نفسي لا تعني لي أي شيء ولكنني أقوم بها لكي أرضي الآخرين. وعندما أبدأ باستيعاب أن ما قمت به لا معنى له أشعر بالندم.

- وما هو الحل يا سيد دوغان؟! فلقد مرَّ عليَّ كثير من الأوقات شعرت، كما تشعر، بالندم، ولطالما شعرت بالندم حيال أشياء قمت بها بالرغم من أنني لم أكن في حقيقة الأمر أمتلك أدنى رغبة في القيام بها.

- أعتقد أن أكثر من تسع وتسعين بالمائة من الموجودين هنا يعانون من المشكلة ذاتها.

عندما قلت ذلك نظرنا حولنا، ثمة شخص يجلس مع مجموعة على الطاولة التي أمامنا، عرفه السيد عارف، فقد كان يمثل دور فنان في فن التعريق في مسلسل «بيت الأب» الذي كان يُعرض أيام الجمعة، قال بأنه الرجل الذي يجلس على الطاولة ويضع نظارة على عينيه. وقال: «لا أعلم فيما إذا كان خبيراً فعلاً في فن التعريق أم أن دوره في المسلسل كان يتطلَب ذلك.

فسألته: ما هو فن التعريق؟ فقال: تعصر الألوان في الماء ثم تؤخذ الحزم اللونية المتشكلة على سطح الماء وتوضع على الورق.

تابعنا النظر حولنا فرأينا شاباً وفتاةً يدخلان إلى فناء المدرسة ويجلسان على إحدى الطاولات الموجودة هناك. ترتدي الفتاة كنزة حمراء وبنطالاً من الكتان وتبدي اهتماماً بالشاب أكثر مما يهتم هو بها. يبدو أن لديها الكثير من الكلام تريد أن تتحدث به ولكن يبدو على الشاب عدم المبالات، بيد أنه لم يكن سلبياً، كان يحافظ على هدوئه. كانت الفتاة تتحدث عن أمر ما والابتسامة على وجهها وعيناها تلمعان بحيوية. وأما الشاب فقد كان بين الفينة والأخرى يردُ بعدة كلمات.

بينما كان نادل متوسط بالعمر يمر من جانبنا سمعنا ضجيجاً خارج المدرسة، سُمعت جلبة تدل على أن أربعة أو خمسة شبان يتشاجرون، وإذا بالنادل يقول: «هاه، يبدو أننا أحرزنا هدفاً» فسألت النادل بطريقة لا شعورية: «هل توجد مباراة اليوم؟». فأجاب: «توجد اليوم مباراة قومية بالنسبة لنا».

أدلى النادل بهذه المعلومة بطريقة تدل على أنه كان ينتظر منا أن تكون هذه المعلومة من البديهيات الواجب علينا معرفتها. ولما لم يجد عندنا ما ينتظره قال: «أي نوع من الرجال أنتم؟» وعندما سألته: «حسناً وما هو الوضع الآن؟». قال: «إذا ربحنا هذه المباراة سنتأهل إلى مباريات كأس أوربا» ثم مشى مشية رجل قدَّم معلومات هامة، متجهاً إلى المكان الذي يُحضِّر فيه الشاي.

تتواصل الحياة حولنا بشكل عادي، ومن جهة أخرى كانت هذه الأشياء التي أدركها على أنها أمور عادية تبدو مبهمة ومعقدة ومتعددة الأبعاد لدرجة يصعب على المرء فهمها. ونحن نحاول فهمها وتفسيرها.

تابعنا حديثنا حول سؤال السيد عارف «ولكن لماذا؟»

- لأن عنصر التبعية هو العنصر السائد في رقصة التبعية وتحقيق الذات.

- ولماذا يكون هذا العنصر هو السائد؟ لماذا يكون عنصر التبعية هو السائد لدى أغلبية الناس وليس عنصر تحقيق الذات؟.

- أنا أتحدث فيما يخص مجتمعنا، فنحن ربينا وكبرنا على مقولة: «ما الذي سيقوله الآخرون عنا؟».

- فعلاً، من أكثر العبارات التي نسمعها وتتردد كثيراً في مجتمعنا عبارة «حذار أن يرانا الآخرون سيكون عيباً بحقنا» حسناً ولكن معرفتنا لهذا الموضوع بمفردها ألا تكفي لحل مشكلتنا؟.

- فكِّر معي بإنسان أمضى حياته وهو يقول: «ما الذي سيقوله الآخرون عني؟» وضمن هذا الإطار اختار مهنة له وتزوج وربى أولاده وأصبح له جيران وأصدقاء. ليس من السهل عليه تغيير كل هذا بلحظة واحدة.

- هل يصعب، والحالة هذه، أن يخرج محارب من مجتمعنا؟!.

- إذا كنت تطرح سؤالك هذا مقارنة مع أمريكا فسيكون جوابي «لا».

- ولكنهم لا يولون عنصر التبعية الأهمية التي نوليها نحن.

- هذا صحيح فهم لا يولون عنصر التبعية الأهمية التي نوليها نحن، غير أنه في تلك الثقافة ثمة نوع آخر من عدم التوازن. إذ أن عنصر تحقيق الذات هو السائد في تلك الثقافة، وهذا ما يؤدي إلى بروز حالة من عدم التوازن في رقصة التبعية وتحقيق الذات. ولهذا السبب عندما يريد أحدهم التحول إلى محارب سيتوجب عليه الدخول في صراعٍ أكثر شراسة من صراعنا مع الأنا الموضوعي Ego.

- أفهم ذلك.

- ولكن سواء كان أمريكياً أو تركياً إذا أراد شخص ما ألا يشعر بالندم حيال القرارات التي يتخذها سيتوجب عليه القيام بالشيء ذاته.

توقفت عند هذه النقطة ونظرت إلى وجه السيد عارف فوجدته صامتاً لم يطرح أي سؤال بل ينتظر مني مواصلة الحديث.

تابعت حديثي بعد فترة من الصمت:

- سواء كان أمريكياً أو تركياً، يتوجب على الشخص الذي لا يريد الشعور بالندم حيال القرارات التي يتخذها أن يأتي إلى الوسط مزوَّداً بمستوىً عالٍ من الوعي، وأن يتخذ قراره وهو يعي أن حياته قد تنتهي في أي لحظة وأن يكون واعياً لرقصة التبعية وتحقيق الذات وواثقاً من نقاء نيته وصفائها ضمن إطار هذا المستوى العالي من الوعي.

- أي يجب أن يتخذ قراره بعد أن يمتلك وعياً حول كافة المواضيع التي تحدثنا بها حتى الآن. وقتئذٍ لن يشعر بالندم.

- أجل.

خرجت فتاة من أحد المشاغل، أثناء توجهها إلى الباب الخارجي حرصت على أن تمر من أمام طاولتنا ثم مرت من أمامنا وهي تنظر إلى وجهي وعلى وجهها تعبير يدل على أنها تتساءل: «هل هذا هو؟».

كان السيد عارف ينظر إلى الفتاة التي ترتدي كنزة حمراء وتتحدث بحيوية فسألته قائلاً: «ألا ترغب أن تكون لديك صديقة تنظر إليك بعينين ملؤهما الحيوية كهذه الفتاة؟». ضحك وقال: «وأنا أيضاً كنت أفكر الآن بهذا الأمر، فثمة جانب من شخصيتي يرغب بأن تكون في حياتي فتاة كهذه تتحدث مثلها بكلمات مفعمة بالحيوية، أنا مدرك لهذا، ولكن ثمة جانب آخر يخاف أن تكون في حياتي فتاة كهذه.» نظرنا إلى هذه الفتاة وإلى الشاب الذي معها، أعلم جيداً ما الذي يريد السيد عارف أن يقوله.

ولكي لا أشتت أفكاري خبأت في نفسي ما دار في ذهني حول هذا الموضوع ولسان حالي يقول: «سنتحدث في هذا الموضوع في وقت آخر».

رغبت بالعودة إلى الموضوع الذي كنا نتحدث به.

❖ **أجمل ما قيل في الشعر:**

- أجمل من يعبِّر عن وعي الموت هم الشعراء، فعلى لسان هؤلاء تصبح الفراسة أكثر حيوية ومن خلال الكلمات يخلق الشعراء إمكانية التواصل فيما وراء اللغة والكلام.

- ما قلته غريب جداً يا سيد دوغان: «خلق إمكانية التواصل فيما وراء اللغة والكلام من خلال الكلمات».

- لا يمكن لأحد القيام بذلك إلاَّ الشعر يا سيد عارف. قرأتَ كتاب «مذكرات ديناصور» للكاتبة «مينا أورغان» أليس كذلك؟.

- نعم قرأته.

- ثمة نقطة هامة في الكتاب لا أعلم فيما إذا كانت قد لفتت انتباهك أم لا، فعندما كانت مينا أورغان تتحدث عن موضوع الموت كثيراً ما كانت تلجأ إلى الشعر.

- كلا لم تلفت انتباهي، سأعيد قراءة الكتاب عندما أعود إلى البيت.

- أما أنا فقد أتيت إلى هنا محضِّراً كل ما يلزم.

أخرجتُ الكتاب من حقيبتي وعرضتُ عليه المقاطع التي وضعتُ تحتها خطاً مسبقاً، وفعلاً كانت توجد تسع عشرة قصيدة بأحجام مختلفة موزَّعة من الصفحة الحادية والستين وحتى الصفحة الخامسة والسبعين.

سألني السيد عارف: «هل هذه الأشعار من تأليف الكاتبة؟» فقلت: «نعم إنها من أشعارها فمينا أورغان من الكاتبات اللاتي يتحدثن عن نعمة الشيخوخة ولكنها تعترف أن للشيخوخة كوارثها أيضاً حين تقول: «من أكثر هذه الكوارث رعباً هو موت من نحب». وتتابع قائلة: «يموت أقرب الأصدقاء ويموت شبان في ريعان شبابهم، ويموت الأبن الذي ولدته».

- أيُّ القصائد أعجبتك أكثر من غيرها؟!.

- كل واحدة منها كُتبت في سياق مختلف عن الأخرى، ولهذا السبب لكل واحدة منها قيمتها وأهميتها حسب السياق الذي أتت ضمنه. ولكن القصائد التي تبدأ من الصفحة واحد وسبعين وتستمر حتى الصفحة التالية وجدتها من أكثر القصائد عمقاً وشدة في التأثير. سأقرأ عليك بعض هذه القصائد:

كلما مرَّت الساعات...

في الليالي التي يجافيها النعاس.. ينتابه نوع من الحزن ناجم عن كونه سيموت قريباً:

كم شمساً ستشرق.. ولن تراها

ولن تداعب وجهك أمطار الصيف...

ولن تنهش قطع البطيخ بعد الآن...

ولن تفوح روائح الليلك من أجلك

عندما يحل الليل...

أنت ورقة يابسة

ستمتزج بالتراب..

«بعد ذلك تشرق الشمس، وتتغلب غريزة حب الحياة عند الشيخ على الموت:

من كهف الموت

خرج إلى ضوء النهار...

يا لجمال هذه الشمس

يا لجمال ذاك الطفل الذي يركض على الشاطئ

ويا لجمال هؤلاء العشاق الذين يحطون على الصخور كما النوارس..

ويا لجمال ذاك الزورق الأبيض يشق عباب البحر

ويا لجمال ألا يكون الإنسان جثة بلا هويةً في
«قاراجاأحمد».

استمع السيد عارف إلى ما قرأته من شعر وقال مبتسماً: «فعلاً للشعر قدرة مختلفة، أن تعيش وأن تعي تماماً أنك تعيش وأن تعيش وأنت تعرف حقيقة ما تعيشه» صمت ثم نظر حوله وقال: «لديَّ فضول لمعرفة كم شخصاً من الموجودين هنا يدرك أنه يعيش وكم شخصاً يدرك الآن أن حياته عبارة عن معجزة». لم أجب فكلانا يعرف الجواب. بقينا لفترة من الزمن صامتين، بعدها واصلت القراءة من الكتاب:

أساساً غريزة حب الحياة لديه مستعدة دائماً
للانتفاض:
حسناً، انتهى كل شيء... يقول
ويقول: لقد تراجعت...
ويقول: البئر المظلم فتح غطاءه
ها هو ينتظرني...
فجأة.. يرى...
فرخ ضفدع أخضر يقفز بفرحٍ... في حوض حمَّام
في غرفة... في فندق وسخ..
فيتراجع عن التراجع...»

صمتنا لفترة بغية استيعاب هذا المقطع الشعري. قلت للسيد عارف: «لقد هزتني هذه الأشعار» وأردفت قائلاً: «ما يؤثر بي على وجه الخصوص هي الأشعار التي تحتوي بين طياتها على الحياة والموت في آن واحد ومثال على ذلك ما مرَّ في الصفحة الثالثة والسبعين» وتابعت القراءة:

... وبدأ يحب كل ما حوله.. مثلاً
بدأ يحب الشجرة التي تهزَّها الرياح:

كلما كان الموت يدنو منه أكثر...
كان حبه يزداد لهذه الشجرة المجنونة
وكلما كان حبه يزداد...
كانت الشجرة تُصاب بالجنون التام...
وكأن الموت أيضاً.. يبتعد عنه قليلاً...»

صمتنا لفترة أيضاً. قال السيد عارف: «غمرني حزن عميق» وبعد قليل تابع كلامه: «أعتقد بأن فكرة الموت تغمر العديد من الناس بالحزن، ولكن يبدو أن هذا الحزن مفعم بالحماس، إنه الطاقة الكامنة لحماس اكتشاف أنه يعيش الآن وهنا دون أن يفقد وعي الموت. أعتقد أنه من الضروري تذوق طعم حزن الموت لكي يتمكن من رؤية فرخ ضفدع أخضر صغير يقفز بفرح.

على الطاولة التي على يسارنا يجلس شاب وفتاة يتحدثان بأريحية واضحة، لا يبدو على علاقتهما أي توتر ويبدو أنهما يعرفان بعضهما منذ زمن طويل لدرجة أنه تشكلت بينهما علاقة متينة.

الشاب يضع نظارات على عينيه، إنه يذكرني بابن أختي سامي. كان يسند مرفقيه على الطاولة حين يتحدث مع الفتاة، وعندما يجلس بهذه الطريقة تتشكل حدبة على ظهره. أدركت أمراً هاماً وهو: لم أكن أرى هذا النوع من الحدبات، التي كثيراً ما أراها في تركيا، عندما كنت في كاليفورنيا إلا لدى الطلاب الأجانب. ولكن كيف تتشكل هذه الحدبة المنتشرة جداً في تركيا؟! خطر هذا السؤال على ذهني فطرحته على السيد عارف، ثم تساءلنا قائلين: هل يمكن أن يكون سبب ذلك هو الخجل الذي يصيب أطفالنا في مرحلة النمو؟!.

تحدث السيد عارف عن نظرته الخاصة لهذا الموضوع فقال: «لا شك أن الطفل الذي نشأ في جو ثقافي تسود فيه علاقات الخوف قد

تعرَّض للقمع في مواضيع عديدة منها رفع رأسه والجلوس منتصباً والمشي منتصباً ومع مرور الزمن صار هذا القمع يعبِّر عن نفسه في طريقة الجلوس وفي المشي».

كنت أفكر كما يفكر السيد عارف في هذا الموضوع، فقلت: «إن (نية الثقافة) التي تحدث عنها هوسرل Husserl تعمل على صياغة كل عضوية تعيش ضمن أجواء هذه الثقافة.

تابعت حديثي مع السيد عارف حول ما قاله دون جوان حول وعي الموت:

❖ تعاليم دون جوان:

خرج دون جوان وكارلوس في نزهة في الأرياف.

توقفا في مكان ما لأخذ قسط من الراحة فدار بينهما الحديث التالي:

أكد دون جوان على ضرورة تغيُّر كارلوس فقال له كارلوس بأنه يتغيُّر شيئاً فشيئاً، ويحتاج لبعض الوقت لكي يكمل عملية التغيير. فقال دون جوان: «ما أتحدث عنه هو التغيُّر الفوري» مشيراً إلى لب المشكلة بقوله: «أساس المشكلة يكمن في اعتقادك بوجود متسعٌ من الوقت حسب ما تطلب وتشتهي».

يصرُ كارلوس على فكرته: «نعم توجد ديمومة في هذه الدنيا، وثمة انسجام يمكننا معرفته وتوقعه بشكل مسبق».

فقال دون جوان: «إن فكرة الديمومة التي تتحدث عنها تجعلك اكثر تردداً وأكثر خوفاً، والعمل الذي تقوم

به ضمن فكرة وعي الديمومة سيكون عمل إنسان متردد وخائف، ولن يكون لهذا العمل الموقف المؤثر والقوة والقدرة التي يملكها إنسان يشن آخر حرب له في هذه الدنيا. أي أن الديمومة والانسجام اللتين استطعت معرفتهما سابقاً لن يجعلاك قوياً ولا سعيداً».

بعد فترة يتساءل كارلوس: «هل من السيئ جداً أن يكون الإنسان متردداً؟» فيرد عليه دون جوان بقوله: «كلا، إن كنت إنساناً خالداً فإنه بإمكانك أن تكون متردداً وخائفاً قدر ما تشاء، أما إذا كنت تعيش في عالم فانٍ فليس أمامك أي مجال للتردد أو للخوف فالتردد ينبع أساساً من ارتباطك بشيء ما في دماغك وحسب، ولكن هذه الدنيا الغامضة التي تبعث على الخشوع ستفتح فمها لك، كما فتحته لغيرك ستفتحه لك أيضاً، ولكنك ستفهم وقتئذٍ أن هذه الديمومة التي تقول بأنها أكيدة لن تكون أكيدة لهذا الحد، فالتردد والخوف يعيقنا نحن البشر من فعل ما يجب علينا فعله.

فعبَّر كارلوس عن الفكرة التي تشغله قائلاً: «لا أرى من الطبيعي أن يعيش الإنسان وهو يفكر بالموت بشكل مستمر» فرد عليه دون جوان بصوتٍ جدّيٍ قائلاً: «الموت ينتظرنا، وربما تكون هذه اللحظة التي نعيشها هي آخر حرب نخوضها في هذه الحياة» وأردف قائلاً: «أنا أسميها حرباً لأنها عبارة عن صراع، ربما ينتقل العديد من البشر من عملية إلى أخرى دون الدخول في أي صراع من أي نوع، بيد أن المحارب يدرس كل عملية

يقوم بها بدقة متناهية لأنها قد تكون آخر عملية له في هذه الدنيا

... المحارب يظهر الاحترام اللازم لآخر حرب له في هذه الدنيا ولهذا السبب يجب أن تكون هذه الحرب الأخيرة تتويجاً لآخر ما يمكنه فعله. وبذلك يصبح أكثر سعادة ويزول الخوف من قلبه.

يبدي كارلوس موافقته على كل ما قاله دون جوان ولكنه يؤكد على أنه يصعب عليه تقبُّله ومن الصعب عليه العيش بهذه الطريقة. ينظر دون جوان إلى كارلوس ويقول: «إن إقناعك لنفسك بهذا الأمر سيستغرق سنيناً طويلة، وبعد أن تقتنع ستحتاج سنيناً طويلة أخرى لكي تتحرك حسب هذه القناعة الجديدة، أتمنى أن يكون لديك الوقت الكافي واللازم لذلك» يعبِّر كارلوس عن الإحساس الذي يخالجه بقوله: «إنك تخيفني عندما تتحدث بهذه الطريقة». يحدِّق دون جوان بوجه كارلوس وعلى وجهه تعابير جدية ويقول له: «قلت لك سابقاً بأن هذه الحياة غامضة ومليئة بالأسرار ولا يمكن معرفة القوى التي توجِّه البشر، إنه لأمر مخيف، ولكن التعرف إلى عظمتها أمر يستحق بذل كافة الجهود الممكنة».

بعد ذلك يطلب دون جوان من كارلوس نصب شرك واصطياد أرنب وسلخه وطبخه قبل أن يحل الظلام.

ولأن دون جوان كان قد علَّم كارلوس كيفية نصب الشراك فقد قام كارلوس بنصب شرك واصطياد أرنب

خلال فترة وجيزة. عندما رأى دون جوان الأرنب وقد دخل إلى الشرك طلب من كارلوس أن يقتله، فيمد كارلوس يده إلى الشرك ويمسك الأرنب من أذنيه، وبينما كان يخرجه من الشرك أصيب بالدهشة لأنه اكتشف بأنه لا يعرف كيف سيقتل الأرنب فدون جوان علمه كيف ينصب الشرك ولكنه لم يعلمه كيف يقتل الأرنب بعد اصطياده.

يترك الأرنب من يده ويقول لدون جوان: «لا أستطيع قتله».

فيسأله دون جوان: «ولماذا؟!».

«فيقول له: «لأنني لم أقتل أرنباً من قبل».

فيقول دون جوان: «ولكنك اصطدت سابقاً مئات العصافير والحيوانات الأخرى».

«قتلت تلك الحيوانات بواسطة البندقية، ولكنني حتى اليوم لم يسبق لي أن قتلت حيواناً بيدي».

«وما الفرق؟ فلقد دنا أجل هذا الأرنب».

ينطق دون جوان هذه العبارة بلهجة إنسان متأكد من أن أجل الأرنب قد اقترب فعلاً».

لنستمع الآن إلى تتمة القصة من فم كارلوس:

أمرني دون جوان بعينين مليئتين بالتوحش قائلاً: «اقتله»

فقلت: «لن أقتله».

أكد بصوت عالٍ على ضرورة قتل الأرنب وقال بأنه جاءت نهاية تجوُل هذا الأرنب وقفزه بحرية في هذه

الصحراء الجميلة وقال بأنه ليس من حقي المماطلة لأن الروح التي توجّه الأرانب وتتحكم بها هي التي وجّهت هذا الأرنب عند المساء إلى الشرك الذي نصبته.

سلسلة من الأفكار والمشاعر والأحاسيس راحت تجول في رأسي وكأنها كانت تنتظرني لتتعب دماغي، استوعبت جيداً تراجيديا الأرنب الذي وقع في الشرك الذي نصبته، وخلال بضع ثوان مرّت في ذهني بسرعة عجيبة كافة اللحظات المشابهة التي مرّت عليّ في حياتي وكان وضعي وقتئذٍ يشبه وضع الأرنب الآن.

نظرت إلى الأرنب فبادلني النظرات ثم انزوى في زاوية القفص وتقلّص حجمه، كان صامتاً ودون أدنى حركة. التقت نظراتنا من جديد، رأيت في نظراته يأساً صامتاً وشعرت من أعماقي بأن يأسه هذا هو يأسي أنا.

قلت بصوت عالٍ: «ليذهب كل شيء إلى الجحيم لن أقتل أحداً وسأعطي هذا الأرنب حريته» ثم بدأت أرتجف، كانت يداي ترتجفان عندما كنت أحاول الإمساك به، حاولت من جديد ولكنني لم أنجح. بدأ رأسي يدور وغشيت عيناي فركلت القفص برجلي، كان هدفي تحطيم القفص وتحرير الأرنب، بيد أن القفص كان متيناً أكثر مما كنت أتوقع، فلقد كنت أتوقع أن يتحول هذا القفص إلى قطع صغيرة تحت رجلي ولكنه خيّب ظني. تحوّل شعوري بالإحباط إلى يأس لا يمكن تحمّله، ضربت طرف القفص برجلي اليمنى بكل ما أُوتيت من قوة فتحطمت العصي التي استخدمتها في

صنع هذا القفص، ثم أخرجت الأرنب منه فشعرت بالراحة بعض الوقت، ولكن هذه الراحة لم تستمر طويلاً فقد كان الأرنب يتدلى بين يديَّ دون أدنى حركة، فقد كان ميتاً.

حِرت، لم أعرف ما الذي عليَّ فعله. انشغلت بمعرفة كيف مات الأرنب ورحت أبحث عن السبب. التفتُ إلى دون جوان. كانت عيناه تحدقان بي. ارتعد جسدي بقوة.

جلست بين الأحجار كان رأسي يؤلمني كثيراً، وضع دون جوان يده على رأسي وطلب مني أن أسلخ الأرنب وأطبخه قبل أن يحلَّ الظلام.

أحسست باضطراب في معدتي، وأما هو فقد راح يتحدث معي بكل صبر كمن يتحدث مع طفل صغير، قال بأن القوى التي توجِّه الحيوانات والبشر هي التي وجَّهت هذا الأرنب إلى قفصي وقال بأن هذه القوى ذاتها ستوجِّهني إلى موتي، وكما كان موت الأرنب هدية لي كذلك سيكون موتي هدية لأحد أو لشيء آخر.

كان رأسي يدور فلقد أنهكتني الأحداث والتفاصيل اليومية البسيطة. رحت أقنع نفسي بأن هذا الذي أمامي مجرد أرنب ولكنني لم أستطع بأي شكل من الأشكال أن أنزع من رأسي فكرة التماهي التي عشتها مع الأرنب، لم أستطع التخلص من فكرة أن هذا الأرنب هو أنا.

أكد دون جوان على ضرورة أن آكل ولو قطعة

صغيرة من لحم هذا الأرنب، وبهذه الطريقة أكون قد جعلت هذه المعلومة التي تعلمتها سارية المفعول.

فقلت بصوت غليظ: «لا، لن آكل أية قطعة».

فوبخني قائلاً: «نحن أوراق نتساقط ذات اليمين وذات الشمال من أيدي هذه القوى» وأردف يقول: «لا تعطي أهمية للأنا Ego الخاص بك، تخلى عن أنانيتك واستغل هذه الهدية بالشكل المناسب.

رفعت الأرنب عن الأرض كان لا يزال ساخناً، مال دون جوان علي وهمس في أذني هذه الكلمات: «خاض هذا الأرنب حربه الأخيرة في هذا العالم في الشرك الذي نصبته له، شركك كان حربه الأخيرة. فلقد قلت لك أن تجوله وقفزه بحرية في هذه الصحراء الرائعة قد انتهى».

قال السيد عارف: «يالها من قصة قوية».

فضلّت البقاء صامتاً لفترة طويلة، فلقد أدركت أن دون جوان معلم قدير ولا يمكن تعليم وعي الموت بأجمل مما علّمه ولا يمكن للإنسان أن يعيش وعي الموت بطريقة أجمل من الطريقة التي استخدمها مع كارلوس. أخبرت السيد عارف بهذه الفكرة فوافق عليها.

نظرت حولي فشعرت بأن هؤلاء الناس الجالسين في هذا المكان المفعم بالتاريخ يتنفسون بشكل عادي دون أي انفعال وكأنهم خالدين ولن يموتوا أبداً. عجباً، لو جاء دون جوان إلى هذا المكان فما الذي يمكن أن يقوله فيما يتعلق بهؤلاء الناس؟ ثم فكرت بأن دون جوان قد يقول: «وما دخلك أنت بهم، ثم ما الذي تفعله وأنت تعي وتدرك هذه العَظَمة؟!».

فكرت بالمكان الذي أجلس فيه، ألقيت نظرة على البطاقة التي أعطاني إياها النادل. كانت البطاقة تبدأ بالعبارة التالية: «عندما يُسأل عن

المركز التاريخي الأهم في استانبول، التي اعتُبرت على مدى قرون مركز العالم، فإن الجواب سيكون ولا شك: السلطان أحمد.

«فهنا، في هذه المنطقة توجد كافة الأوابد التي تدل على مركز العالم في الماضي».

«احتلت مدرسة جعفر آغا، التي أنشأها معمار سينان، مكانها بصمت ضمن هذه الأوابد».

لا شك أنها احتلت مكانها هنا بصمت إذ لم أسمع من قبل أنه تم الحديث عنها أو جاء ذكرها في مكان ما. تابعت قراءة البطاقة: «**أُنشئت مدرسة جعفر آغا من قبل معمار سينان بين عامي 1559- 156. ثم أُتبعت لوقف خدمات الثقافة التركية وقد تم ترميمها بالكامل في عام 1989 واعتباراً من هذا التاريخ صارت مدرسة جعفر آغا تمارس نشاطاتها كمركز للأعمال اليدوية التطبيقية التركية حيث يتم فيها تعليم فن الخط والتطريز والخياطة والتلوين والدباغة وصناعة التقليديات والحفر على الخشب وصناعة الدمى الفلكلورية وصناعة الأعواد والناي والغيتار وبالإضافة لذلك تعتبر مكاناً لإقامة المعارض ومركزاً لبيع القطع المعروضة.**

وقد تحولت هذه المدرسة التي تم ترميمها بالكامل من قبل الوقف عام 1998 إلى مركز لاستضافة الفعاليات السياحية والثقافية ولإقامة الحفلات والمعارض وإلقاء المحاضرات بصفتها مركزاً ثقافياً وفنياً وتعليمياً.

أُدرج على غلاف البطاقة الخلفي وتحت عنوان «الأعمال اليدوية التطبيقية التركية» قائمة تضم الأعمال اليدوية وتحتها مخطط لمنطقة سلطان أحمد ولوّنت مدرسة جعفر آغا باللون الأحمر وتحت المخطط كُتب العنوان ورقم الهاتف.

قرأت والسيد عارف سوية ما كُتب في البطاقة، خطر على ذهني ما قاله جتين ألتان فيما يتعلق بأهمية وعي التاريخ. لم أكن أعرف الأشخاص الذين قدموا هذه المعلومات من خلال هذه البطاقة ولكنني أرسلت لهم من أعماق قلبي ألف شكر.

❖ ماذا قالوا؟:

كنت قد أنجزت دراسة حول الحكم والأمثال التي قيلت فيما يتعلق بوعي الموت، سألت السيد عارف فيما إذا كانت هذه الدراسة تهمه أم لا، وعندما عرفت أنها تهمه دخلت في الموضوع قائلاً: «ثمة مقولة حول الموت للمفكر الانكليزي فرنسيس بيكون يقول فيها: «الموت صديقنا، ومن لا يريد استضافته في بيته لا يكون موجوداً أساساً». بعد استماعه لهذا القول قال السيد عارف: «وعي الموت وعي أساسي تم الحديث عنه عبر التاريخ بشكل مستمر كما تم التفكير فيه دائماً ولكن قلة من الأشخاص استطاعوا إيجاد معنىً لحياتهم من خلال استيعاب وعي الموت بشكل جدي وكأننا نعيش في عالم من الخيال».

قلت: «ولكن هناك مقولات حول الموت لا تملك المستوى نفسه من الجدية» وقدَّمت وودي ألن Woody Allen مثالاً على ذلك، إذ يقول وودي ألن: «الموت واحد من الأعمال التي يمكن للإنسان أن ينجزها وهو نائم» ويضيف قائلاً: «الفرق بين الموت والجنس هو: يمكنك انجاز الموت بمفردك ودون أن يسخر أحد منك» ضحك السيد عارف وقال: «لا شك أن القدرة على السخرية في موضوع جدي كهذا يحتاج للكثير من المهارة» فقلت: «وهذا ما يُعرف عن وودي ألن ولطالما فكرت بأن وودي ألن يعتقد بأنه إذا كتب بطريقة أخرى فإن الناس سيقلعون عن قراءة ما يكتبه». بعد فترة من الصمت طرح السيد عارف سؤالاً قائلاً:

- يمكن طرح حقيقة الموت أمام أي إنسان كأمر لا مفر منه، فعندما أقابل شخصاً ما أكون متأكداً من أمرين: أولهما أنه وُلد والآخر أنه سيموت. إذ لا يمكن للإنسان إنكار وجود الموت... حقيقة إننا كأناس عاديين نفكر ونتصرف ونعيش وكأننا خالدون ولن نموت ولكننا نعرف، كحقيقة عقلية، أن الموت أمر لا مفر منه.

استمعت للسيد عارف، التقت نظراتنا، يبدو أنني كنت أنظر إليه ولسان حالي يقول له: «ولماذا تقول لي هذه المعلومة؟!» فواصل حديثه قائلاً:

- يعترف كل إنسان بوجود الموت. ولكن الأفكار تختلف عندما يأتي الحديث إلى موضوع ما بعد الموت، أو ما الذي سيحدث بعد الموت، هل لديك فكرة حول هذا الموضوع؟!.

- ليس كثيراً ولكن ما أعرفه أن هناك أفكاراً مختلفة حول هذا الموضوع، فما يقوله العلم يختلف عمّا تقوله الأديان، ولكنني أذكر أنني قرأت في مكان ما عن ثلاثة اعتقادات مختلفة.

- ما هي هذه الاعتقادات؟.

أول هذه الاعتقادات هي **النظرة البيولوجية**: عندما يتوقف عمل الدماغ يفقد الجسد الحياة. ولا شيء آخر. وأما **الاعتقاد الآخر** فيقول: عندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الجنة أو إلى جهنم، وهذه الحياة الدنيا ما هي إلا مكان اختبار قصير، فإن قدمت امتحاناً جيداً تذهب إلى الجنة وإن كان امتحانك سيئاً تذهب إلى جهنم. العديد من الأديان تنظر إلى أن هذين المفهومين يمثلان «الآخرة» فالعالم الآخر خالد لا نهاية له، وقد يذهب الإنسان إلى الجنة بعد أن يحترق بما فيه الكفاية في نار جهنم وكذلك هناك احتمال أن يُغفر له وذلك حسب نوع ذنوبه وحجمها كما أن هناك احتمال أن لا تُغفر ذنوبه ويبقى في نار جهنم إلى أبد الآبدين.

- ما أعرفه أو بالأحرى ما علموني إياه أن هذه هي الحياة الآخرة.

- وهـذا مـا عُلِّم لي أيضاً. ولكـن ثمـة اعتقـاد ثالـث وهـو التناسـخ. فحسب هذه النظـرة تحتـاج الـروح لكـي تـستكمل تطورهـا إلى التنقـل في أبدان مختلفـة ضـمن أكثـر مـن حيـاة، وهـذا أمـر ضـروري مـن أجـل تطـور الـروح وقـد ضُبط كل مجـيء للـروح إلى هـذه الحيـاة بحيث تـستكمل تطورهـا علـى أفضل وجه، فعلى سبيل المثال يمكن للإنسان الـذي لم يتعلم في حياتـه الأولى كيفيـة تربيـة الطفـل بمسؤولية أن يـأتي في حياتـه التاليـة ولديـه أطفـال ويـتعلم أصـول تربيتهم بمسؤولية. «الهندوسية هي أحد الأديان التي أُنشئت على أساس مبـدأ التناسخ.

- يا سيد دوغان منذ فترة شاهدت على شاشة التلفاز برنامجاً حـول هذا الموضوع؛ حيث تناول البرنامج موضـوعاً متعلقـاً بأنـاس مـاتوا في أمـاكن مختلفـة مـن تركيـا ثـم وُلـدوا مـن جديـد واسـتطاعوا التعـرف علـى بيـوتهم وآبائهم وأمهاتهم في الجيل السابق.

- نعم، أنا أيضاً شاهدت برامجاً من هذا النوع. ما أريد قوله أن هـذه الاعتقادات الثلاثة ليست من الاعتقادات غير المألوفة بالنسبة لشعبنا.

- ولكـن علـى اعتبـار أننـا نـدين بالديانـة الإسـلامية، فـإن الاعتقـاد الشائع لـدينا هـو الاعتقـاد الـذي يعتمـد علـى الـدين الإسـلامي فيمـا يخـص العالم الآخر.

- طبعاً هذا أمر طبيعي، ولكن ما أريد الوقوف عنـده هـو كيـف يـؤثر وعـي المـوت علـى شـكل حيـاة الإنسان؛ إذ أن وعـي المـوت عنـد المحـارب مـن العناصر الأساسية في حياته.

- مـا أسـتطيع رؤيتـه هـو أن معنـى حيـاة المحـارب وشخـصيته المتكاملـة وتحمله للمسؤولية وقوته ونقاء نيته جميعها تعتمد أساساً على وعيه للموت.

- يسمي دون جوان هذه النقطة «العيش كمن يؤدي رقصته الأخيرة»، وهذه الطريقة في العيش تمثل شكل حياة المحارب.

❖ وعـي الشـعـر:

وصل حديثي مع السيد عارف إلى نهايته. قال السيد عارف: هل تعلم يا سيد دوغان بأنه بعد حديثنا هذا سيجري تغيير على الكثير من الأشياء المتعلقة بنظرتي إلى الحياة؟! فلقد بتُ أؤمن بضرورة التفكير ملياً قبل اتخاذ أي قرار، وبعد اتخاذه سأعمل على تطبيقه حتى الموت كما يقولون... وهناك أيضاً جانب ملفت للنظر في حديثنا ألا وهو أنني بتُ أشعر بالتغيُر الذي طرأ على نظرتي للشعر.

عندما تطرق إلى الشعر أحببت أن أخبره بما أفكر به حول هذا الموضوع:

- أنا أيضاً لم يبدأ اهتمامي بالشعر إلا متأخراً، أقصد اهتمامي بالمعنى الفلسفي للشعر فلقد بت أنظر إلى الشعر من زاوية رقصة التبعية - تحقيق الذات، ومن زاوية حرية الإنسان في أن يعيش حياته الذاتية والآن بت أنظر إليه من زاوية وعي الموت. تُعتبر قصيدة «خمسة وعشرين عاماً» للشاعر جاهد صدقي تورانجي إحدى أجمل الأمثلة الكلاسيكية الدالة على وعي الموت.

- يا سيد دوغان أعتقد أن حديثنا قد وصل إلى نهايته، أحبِّذ إنهاء هذا الحديث من خلال قراءة بعض الأشعار ولكن ليس بحوزتنا الآن أي ديوان شعر.

- اعتقد أنت كما تشاء.

- هل أحضرت معك ديوان شعر أيضاً؟!.

- نعم، ووضعت إشارات على الصفحات التي سأقرأ منها.

- حقيقة لقد حضَّرت لهذا الأمر بشكل ممتاز، وهل اخترت أيضاً الشعراء الذين ستقرأ بعضاً من أشعارهم؟!.

- أنا اخترت وأنت ستقرأ.

أعطيته كتاب «أنطولوجيا الشعر التركي في القرن العشرين» الذي

أعده إلهامي سويسال، فتح أول صفحة من الصفحات التي وضعت إشارات عليها من خلال وضع قصاصات من الورق بين الصفحات. ثم شرع يقرأ قصيدة بعنوان «السفينة الصامتة» للشاعر يحيى كمال:

السفينة الصامتة

ها قد حان موعد الانطلاق..

فغادرت السفينة إلى المجهول..

شقَّت عباب البحر بصمتٍ

كأنها خالية من المسافرين

فلا منديل يلوِّح فيها ولا ذراع..

والمودِّعون في الميناء يتلوون ألماً من هذا الرحيل.

العيون التي تراقب الأفق الأسود منذ أيام

مغرورقة بالدموع...

القلوب حزينة...

فهذه السفينة ليست الأخيرة.

القلوب ملوَّعة...

و هذا المأتم أيضاً ليس الأخير.

المحب والمحبوب ينتظرون في هذه الدنيا..

لا يعلمون أن الأحبة الذين ذهبوا لن يرجعوا.

الذين ذهبوا ممتنُّون ولا شك من المكان الذي ذهبوا إليه..

ها قد مضت السنون ولم يعودوا من سفرهم.

أنهى السيد عارف قراءته بقوله: «يا له من شعر قوي»، صمت لحظة ثم نظر إليَّ وقال: «أريد أن أطرح عليك سؤالاً» فقلت: «أسأل» فقال:

- عندما أفكر بالموت أو عندما أقرأ هذا النوع من الأشعار وأصل إلى وعي الموت تغمرني موجة من الحزن.

- وأنا أيضاً أعيش الحالة ذاتها.

- ولكن فكرتك الأساسية تقول: عندما يصل الإنسان إلى وعي الموت يستوعب أهمية الزمن وأهمية اللحظة ويستوعب عظمة الحياة وجمالها وبذلك يمتلك حياته. أليس كذلك؟ أقصد هل فهمت فكرتك بشكل جيد؟.

- نعم.

- ولكن عندما أقرأ أشعاراً كهذه على سبيل المثال أصل إلى حالة لا أشعر فيها إلا بالحزن والألم، فما هو السبب؟.

- السبب يا صديقي العزيز عارف يكمن في أننا، أنت وأنا، أناس عاديون ولذلك نحن نقرأ الشعر بواسطة الأنا الموضوعي Ego ولكن إذا استمعنا إلى الشعر ضمن إطار الأنا المراقِب فإننا سنبدأ بإدراك المعنى الذي يعطيه المحارب للشعر.

- حسناً، ولكن كيف سأستمع إلى هذا الشعر ضمن إدراك المحارب؟.

- من المستحيل امتلاك الإنسان لإدراك المحارب ما لم يكن محارباً، فالتحول إلى محارب هو مسألة وجود وليس مسألة امتلاك معلومات وحسب. فيجب قبل كل شيء حل المسألة الوجودية للفرد. أريد تناول هذا الموضوع في حديثنا القادم الذي سيتركز على موضوع التغيُر، وقتئذٍ يمكننا الحديث بالتفصيل.

- حسناً، إن هذا الموضوع يشغلني حقاً.

- وأما ما يشغلني أنا فهو كيف سنفهم الشعر الذي سنقرؤه الآن.

كنت أشرت إلى عدة قصائد للشاعر جاهد صدقي تورانجي، فبدأ بقراءة القصيدة الأولى:

هكذا يكون الشباب

صوت ما يزلزلني كل يوم

يتكرر كلما تكَّتِ الساعة:

«ماذا فعلت للحقل... أين محصولك؟

هل ستدخل ليلك بيدٍ فارغة؟

فكِّر قليلا ها هو العمرُ قد انتصف...

هكذا يكون الشباب.. يأتي ويذهب

ويتحطّم بعد ذلك ذراعك وجناحك

وأنت تركض من نافذة إلى أخرى..

آه على تلك الأيام التي لم أعرف قيمتها

وعلى باقة الورد التي رميتها دون أن أشم عبيرها

وعلى ذاك الصنبور التي جعلت ماءه سبيلاً

وعلى الرياح التي هبَّت ولم أفتح لها شراعاً

تعال وانظر إلى المياه التي تميل نحو الغرب

لقد تغيُر صوت البلبل على الشجرة

الظلال ترخي ستارتها على نافذتي

ها قد أتى زمنكِ... يا أيتها الذكريات...

صمت السيد عارف بعد انتهائه من قراءة القصيدة وقال: «هذا أيضاً شعر قوي» وأردف قائلاً: «أعتقد أن دون جوان كان سيحب هذه القصيدة كثيراً» فسألته:

- ولماذا كان دون جوان سيحب هذا الشعر برأيك؟.

- هناك عدة أسباب؛ فالحياة التي يعيشها غير المحارب تكون مليئة بعبارات التمني، ويتم الحديث كثيراً عن الندم والحزن والقسر. كما أن عبارات «عدم معرفة قيمة الأيام، وباقة الورد التي رُميت دون أن تُشم، والأشرعة التي لم تُفتح للرياح» تُذكِّر بما قاله دون جوان لكارلوس.

- من أي جانب تذكّر بما قاله دون جوان؟.

- هنا، ثمة قصة حياة لم تُعش بالكامل حتى الشبع، فقد كبح نفسه باستمرار ولم يستطع التصرف كما يريد. فهي قصة إنسان نادم. فقد قال دون جوان: «إن كنت تشعر أنك إنسان خالد فيمكنك أن تكون متردداً وخائفاً كما تشاء» ويضيف قائلاً: «أما إذا كنت تعيش في دنيا فانية فإنك لن تجد فيها مكاناً للتردد والخوف».

... التردد والخوف يمنعاننا من انجاز ما يجب إنجازه كبشر.

- بالتأكيد.

ثم تابعت حديثي وأنا أشعر بالدهشة من استيعاب السيد عارف الجيد للموضوع ومن تذكره لأقوال دون جوان:

- نعم، إذ يتم في هذه القصيدة الحديث عن حرية المحارب التي يدركها الإنسان العادي فيما بعد ويتشوق إليها من أعماقه. ثم أردفت قائلاً: «ستجد القصيدة التالية مفعمة بالمعنى أيضاً».

شرع السيد عارف بقراءة قصيدة بعنوان «عباس» للشاعر جاهد صدقي تورانجي:

عباس

هيا يا عباس... ها قد حان الوقت
كنت تقول في المساء.. ها قد جاء المساء
افرش مائدة المشروب
وليسترح هذا القلب من آلامه.
لتكن مائدتنا تحت تلك الشجرة
عند حافة الحوض تماما...
أرسلْ خبراً للقمر لكي يطلع هذه الليلة
اضرب السجادة السحرية بسوطك
سيطر على المسافة والزمن

دع الغبار يتطاير خلفك..

هيا... هذه هي أوامر جاهد

اذهب.. واحضر الحبيبة من بشيكتاش

أريد أن أعيش شبابي من جديد.

أغمض السيد عارف عينيه والكتاب في يده وقال: «لا أذكر أنني قرأت في حياتي شعر كهذا ولم أفهم أو أعيش شعراً كهذا».

خطر على ذهني خاطر يتعلق بهذه القصيدة.

- دُعي مصطفى كَسَر ذات مرة إلى برنامج هوليا أفشار، قرأ هذه القصيدة في البداية ارتجالاً وعندما انتهى من قراءتها أعقبها بعبارة «الحمد لله على السلامة» بلهجة من يقول: «يجب أن يُفعل كل شيء في وقته، فالندم لا يفيد الإنسان في شيء» وبعد ذلك غنى هذه القصيدة ملحنة. وقتها رأيت ثقافة حية ماثلة أمامي. الشاعر كتب والموسيقي لحَّن والمطرب انفعل وأطرب. نال هذا الموقف إعجابي.

- يا سيد دوغان ما رأيك أن نلتقي يوماً من أجل قراءة الشعر فقط؟ فلم أرَ الشعر ذو معنى كما أراه اليوم.

- الشعراء يقدمون حكماً وأفكاراً عظيمة، ولكنهم يقدمونها بطريقة مرمَّزة وغامضة وشفافة ولكي نتمكن من فهمهم يجب أن نكون منفتحين جداً، أي لا يجب أن نقرأهم اعتماداً على البعد الذهني أو النخبوي أو الثقافي وحسب، بل يجب أن نترك أبواب القلب والإحساس مفتوحة.

- دور من منَ الشعراء الآن؟

- جاء الآن دور الشاعر أورهان ولي كانك.

فتح السيد عارف على الصفحة المؤشر عليها وراح يقرأ قصيدة بعنوان: فراق...

فـراق

أبقى خلف السفينة الراحلة أراقبها

لا أستطيع رمي نفسي في البحر...

الحياة جميلة..

ولا أستطيع البكاء...

رجولتي لا تسمح بذلك.

- لماذا اخترت هذه القصيدة يا سيد دوغان؟.

- أولاً قل لي ما رأيك فيها؟.

- يا لها من قصيدة مفعمة بالشفافية تفوح منها رائحة الإنسان. فلقد طرح وجوده بلغة جميلة.

- أثَّرت بي هذه القصيدة من زاويتين: تأمله لنفسه وشفافيته وصدقه في هذا التأمل من جهة ومن جهة أخرى تقبُّله لنفسه كما هي.

- نعم أنا أيضاً أشاركك الرأي، ولكنني لا أرى في القصيدة فكرة وعي الموت.

- لا، لا يوجد، ولكن ثمة فراق في القصيدة والفراق في الحقيقة هو الذي يجعل الموت مؤلماً، قال الشاعر: «إنه أمر الله لو لم يكن في الأمر فراق» ولهذا السبب أرى أن بقاءه خلف السفينة يراقبها وهي تحمل حبيبته التي لن يراها ثانية هو نوع من أنواع الموت.

- أمر غريب، إذ أن قصيدة أورهان ولي هذه لم تملأ قلبي بالحزن بل جعلت روحي تمتلئ بمشاعر المحبة والحميمية والصداقة وبمشاعر تقول: «أنا أيضاً هكذا».

- نعم إنها كلمات قيلت بطريقة لا تضخم الحقائق بل تقبل الأمور كما هي... كلمات مفعمة بالإنسانية.

قصيدتنا الأخيرة أيضاً ستكون للشاعر أورهان ولي.

أعطاني السيد عارف الكتاب وقال: «ياأستاذي اقرأ أنت هذه القصيدة» فشرعت بقراءة قصيدة بعنوان «راحة».

راحـــــة

تقول: لو ينتهي هذا الصراع

تقول: لو لم أجُع.

تقول: لو لم أتعب

تقول: لو لم أشعر بالحاجة للتبُول

تقول: لو لم أشعر بالنعاس

إذن لم لا تقول:

لو اموت؟.......

- ما هي علاقة هذه القصيدة بوعي الموت ياسيد دوغان؟
- لا علاقة مباشرة بين هذه القصيدة وبين وعي الموت.
- هل لها علاقة بواحد من المواضيع التي تحدثت عنها؟
- أنا أرى هذه العلاقة فهل تراها أنت؟
- أشعر أنني دخلت إلى امتحان. لم أرَ أية علاقة مباشرة مع أي من المواضيع المتعلقة بمصطلح المحارب.
- كتب أورهان ولي هذه القصيدة لنفسه أو لإنسان آخر. فكِّر الآن بإنسان يشتكي من «الجوع» و«التعب» والشعور بالحاجة للتبول «في الحقيقة كثيراً ما يشتكي الآباء والأمهات من أطفالهم بهذه الطريقة بقولهم: «دائماً يجوع» «دائماً يشكو من التعب» و«دائماً يشعر بالحاجة للتبول» أتعلم ما هو المحزن بالموضوع؟ المحزن هو عدم قبول الحقيقة كما هي أو بالأحرى عدم احترام الحقيقة. إذ أن عدم الاحترام هذا يعبِّر عن نفسه على شكل مقاومة ضد الحقيقة. فالشاعر يوجِّه رسالة يريد أن يقول من خلالها: «إن كنت

تريد أن تعيش أو إن كنت قد قرَّرت أن تعيش فأنت مجبر والحالة هذه على قبول حقائق الحياة التي ستعيشها».

- نعم أستطيع إدراك ذلك. فحين كنا نناقش موضوع تكامل الشخصية قلتَ لي بأن احترام الحقيقة تشكل أساساً لتكامل الشخصية. ما رأيك هل رسبت في الصف؟

- كلا لم ترسب في صفك. ولكنك لم تستحق حتى الآن استلام شهادتك - ضحكنا كلانا - دفعت الحساب، لأنه دوري بالدفع ثم خرجنا من المقهى ورحنا نتمشى في شارع جعفرية

إذا تابعنا سيرنا في الشارع سنصل إلى شارع آخر يتواجد فيه فنادق أناضول. في البداية لم نرَ اسم الشارع وأما متحف آيا صوفيا فإنه موجود على اليمين في نهاية الشارع الذي يتواجد على جهته اليسرى منازل رائعة مشيُدة من الخشب. لقد حافظت هذه المنازل على أسلوب العمارة العثمانية. شبك النوافذ المطلة على الشارع أعطت تلك المنازل ميزة جمالية خاصة.

ذهب كلٌ منا في طريقه بعد أن اتفقنا على اللقاء الأسبوع القادم في مكان مجاور للسلطان أحمد.

8
التغيُّـر

ثمة منطقة فيها مستودعات ومراكز توزيع دور النشر موجودة في منطقة جفال أغلو على الطريق المؤدي إلى السلطان أحمد. التقيت مع السيد عارف فأحببنا أن نتمشّى قليلاً.

نادي اتحاد الكتاب موجود هنا في إحدى الأزقة الخلفية. اقترحنا التوجه إليه. وفي النهاية عثرنا على مركز استانبول الثقافي - مدرسة محمد آغا - اتحاد الكتاب الأتراك.

يوجد حلاق رجالي أمام مركز الكُتّاب الثقافي. وضع الحلاّق في منتصف الطريق منشراً متنقل نشر عليه مناشف ذات ألوان مختلفة ليعرضها لأشعة الشمس. إلى جانبها أصيص ملئ بالورود والأزهار وإلى جانب الأصيص توجد شجرة. ولأن الطريق مغلقٌ أمام حركة السيارات. فقد وضعت الطاولات والكراسي في منتصف الطريق.

يتم النزول إلى مركز الكتّاب الثقافي من خلال سلّم حجري. وما أن وضعنا أرجلنا على أول درجة حتى دنا منا شابٌ ودعانا للدخول، مظهراً لنا اهتماماً خاصاً ورداً على أسألتنا بكل تودد واحترام وأخبرنا بأن أحد الموظفين سيأتي بعد قليل وسنجد عنده أجوبة لكافة أسئلتنا، من الواضح جداً أن هذا الشاب يحب المكان ومسرور لأنه يعمل فيه.

يُدخل إلى الفناء عبر السلّم الحجري. غالباً ما يوجد سبيل ماء وبركة في فناءات المدارس ولكن هذا الفناء خالٍ منها.

اصطفت خمسة أعمدة على كل جانب من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب يوجد عمود واحد على كل جانب. رُصفت أرض الفناء حديثاً بأحجار من المرمر وزرعت أشجار النخيل في الأصائص الكبيرة الموجودة في الفناء وأما في الأصائص الصغيرة فقد زُرِعت الورود والأزهار ولكن لم يتم الاعتناء بها بالشكل المناسب. يوجد براد كبير في مدخل المطبخ الذي أُنشئ في غرفة صغيرة موجودة في الفناء الذي وزِّعت فيه الطاولات والكراسي، ومن مكبرات الصوت المعلقة على الجدران تنبعث موسيقي تركية كلاسيكية.

تمت حماية الفناء من المطر والرياح من خلال وضع أغطية بلاستيكية صلبة وسميكة فوقه. وقد وضعت تدفئة مركزية في الفناء وبذلك يتمكن الإنسان من الجلوس هنا شتاءً وهو يشعر بالدفء.

جلسنا على إحدى الطاولات القريبة من الجدار. طلبت لبناً وأما السيد عارف فقد طلب كأساً من الشاي.

سألت النادل الذي أحضر طلباتنا قائلاً: «هل يتردد الكتاب إلى هذا المكان؟» فقال بكل فخر: «يأتي إلى هنا كتَّاباً كباراً يا أخي المحترم» فخطر على ذهني أن أسأله «مثل من؟» ولكني تراجعت لأن سؤالاً كهذا قد يجعله يشعر وكأنه في امتحان.

أخذت رشفة من كأس اللبن ثم نظرت إلى السيد عارف فرأيت في عينيه نظرة ألفتها كثيراً تقول: «هيا يا أستاذي أنا مستعد» فبدأت الحديث:

- سيد عارف، أريد في هذا اللقاء الحديث عن موضوع التغيُر.

- أي نوع من التغيُر ذاك الذي سنتحدث عنه يا سيد دوغان؟.

- بداية، أريد التحدث عن التغيُر بشكل عام. إذ قد يكون هذا التغيُر فردياً وقد يكون اجتماعياً وقد يكون ثقافياً.

- إذن لسنا مضطرين للحديث عن تغيُّر متعلق بالمحارب.

- ولكن في النهاية أريد تحويل المواضيع إلى التغيُّر الذي يؤدي إلى خلق الإنسان المحارب. فلقاءاتنا جميعها تأتي ضمن إطار «التحول إلى محارب» وبهذه النية بدأنا أحاديثنا.

- أخذت رشفة من كأس اللبن وبحثت عن وضعية جلوس مريحة وفي النهاية أخذت وضعية أشعرتني بأن ظهري وخصري ورجلي في وضع مريح فبدأت الكلام:

- فكَّر الفلاسفة بموضوع التغيُّر وناقشوه كما فعلوا في كافة المواضيع التي تناولوها، وأول شيء أدركه الفلاسفة هو: «لايمكن للحكمة أن تتشكل من تلقاء ذاتها» وأكدوا على ضرورة العمل وبذل الجهد لكي يحصل الإنسان على الحكمة.

«هكذا بدأت الأفكار تتمحور حول «التغيُّر من أجل الحكمة» وأعتقد أن أول الموضوعات التي درستها الفلسفة بدأت بطرح سؤال مفاده «هل ما أفعله هو الصواب؟» بداية طرح الناس هذا السؤال فيما بينهم ثم تحولت هذه الأحاديث إلى نقاشات منهجيه وبذلك ولِدت الفلسفة.

❖ اليونان القديمة:

- في أي عام بدأت الفلسفة بالظهور يا سيد دوغان؟.

- ما نعرفه أن الفلسفة بدأت مع فلاسفة اليونان، ولكن الباحثين الذين تركزت دراساتهم على الحضارة السنسكريتية يقولون بأنهم عثروا على ثقافة أقدم من الفلسفة اليونانية. ويمكن قول الشيء ذاته بالنسبة للحضارة المصرية، ولكن إذا اعتمدنا على المعطيات المكتوبة يمكننا القول إن المناقشات الفلسفية الأولى بدأت في القرن السادس قبل الميلاد.

- أي قبل فترة زمنية تقدر بألفين وخمسئة عام.

- نعم، اعتقد بعض هؤلاء الفلاسفة أنه يتوجب عليهم الانسحاب من المجتمع والانزواء لكي يتمكنوا من التفكير والمناقشة، وطبعاً لم يكن لهذه الفئة من الفلاسفة أي مسعى يتعلق بتغيير الناس؛ فقد أراد هؤلاء تمضية حياتهم بالتفكير وإجراء الملاحظات.

- عندما يُلفظ اسم فيلسوف لا يخطر على ذهني إلاَّ هذه الفئة من الفلاسفة.

- اتَّخذت فئة أخرى من الفلاسفة موقفاً مختلفاً حيث كانوا يؤمنون بقدرتهم على إنتاج فلسفة حقيقية من خلال العيش مع الناس والتحدث معهم وبأن يكون لهم عمل يكسبون قوت يومهم منه مثل باقي الناس ومن خلال الحفاظ على تواصلهم مع المجتمع.

- أي أنها فلسفة داخل الحياة وليست خارجها. هل يمكننا القول بأنها عملية إنتاج فلسفة من خلال العيش؟!

- نعم. اختاروا ممارسة الفلسفة من خلال العيش. وأما الفئة الثالثة من الفلاسفة فقد آمنت بوجود حقيقة مثالية وعملت على الوصول بالمجتمع إلى حالة تتناسب مع هذه الحقيقة المثالية. ويمكن القول أن عملية التغيير، أي تغيير المجتمع أمر ضروري بالنسبة لهذه الفئة من الفلاسفة، ولذلك يجب إجراء التغيير باتجاه محدد على اعتباره حاجة ضرورية للمجتمع.

- لا شك أن لكل فئة من هذه الفئات الثلاث مقاربات مختلفة فيما يخص موضوع التغيير.

- تماماً، فبالنسبة للفئة الأولى من الفلاسفة قد يتحقق التغيير وقد لا يتحقق، ولكن المهم بالنسبة لهم هو المشاهدة والملاحظة وفهم لماذا يتحقق هذا التغيير أو لماذا لا يتحقق، وأما فلاسفة الفئة الثانية فقد آمنوا بضرورة إحداث التغيير من خلال العيش. فقد قالوا لا يمكن فهم التغيُّر من الخارج من خلال ملاحظته، بل يجب العيش ضمن إطار التغيُّر.

أما فلاسفة الفئة الثالثة فلم يكتفوا بالإيمان بضرورة التغيُّر بل شمرُّوا عن سواعدهم وبذلوا جهوداً حثيثة في الاتجاه الذي يجب تحقيق التغيُّر فيه.

توقفت عن الكلام بعد هذه المقدمة العامة وبينما كنت أرشف من كأس اللبن مدَّ السيد عارف يده إلى كأس الشاي.

- هل سمعت بفيلسوف يدعى أرسطو؟.

- هل يمكن ألاَّ أكون قد سمعت به؟ كنا نبدأ دروس المنطق بأمثلة منه.

- نعم، فمنطق أرسطو لا يزال حتى الآن يحافظ على حيويته، ولأرسطو أيضاً مقولات حول التغيُّر. يقول: «التغيُّر ليس أمراً سيئاً ووجوده لا يدل على أن العالم أو المجتمع على خطأ أو ينقصه شيء ما» فالتغيُّر بالنسبة لأرسطو أمر طبيعي، ولكل شيء هدف وجودي يسعى إلى تحقيقه ويظهر التغيُّر بشكل طبيعي بغية تحقيق هذا الهدف. فحسب أرسطو جوهر الأشياء يحدد ماهيتها ويحدد فيما بعد حالة التغيُّر التي تشهدها هذه الأشياء، فجوهر البلوط، على سبيل المثال يسعى إلى التغيُّر في الاتجاه الذي يخلق شجرة البلوط، وجوهر الصخرة يسعى إلى التحول إلى تراب بعد تعرضها على مدى آلاف السنين لعوامل الحت بفعل الأمطار والرياح.

- أعتقد أن أرسطو يطلق مصطلح «الجوهر» على ما نطلق عليه اليوم «الطاقة الكامنة»

- حقيقة يوجد في الوقت الحاضر العديد من المفكرين بمن فيهم علماء النفس يقولون بأن كل كائن يسعى في اتجاه تحقيق طاقاته الكامنة غير المرئية، وكل بذرة تسعى لتحقيق طاقاتها الكامنة الخاصة بها وكل طفل يسعى إلى تحقيق طاقاته الكامنة الخاصة به.

- إذن التغيُّر أمر طبيعي لا بد منه.

- وهذا ما أراد أرسطو تأكيده حين قال: «التغيُّر موجود داخل الكائن كطاقة كامنة» طبعاً لم يستخدم أرسطو العبارة ذاتها، ولكن يمكننا التعبير عن فكرته بهذه العبارة التي استخدمتها.

- وبهذا المعنى يتقدم التغيُّر ضمن اتجاه محدد وكأن له هدف ما أليس كذلك؟ فالبلوط على سبيل المثال يتغيَّر بهدف التحول إلى شجرة بلوط.

- بالتأكيد يا سيد عارف، وهذا ما أراد أرسطو قوله. لقد أثرت فكرة أرسطو هذه على المفكرين والعلماء على مدى قرون من الزمن، وبقيت فكرته حول التغيُّر هي الأقوى والأكثر انتشاراً بين الأفكار حتى مجيء الأب الروحي لمصطلح التغيُّر تشارلز داروين.

- مَن مِنَ الفلاسفة غير أرسطو فكر بموضوع التغيُّر؟!

- الفلسفة ليست مجالي كما تعلم ولكنها إحدى المجالات التي أوليها الكثير من الاهتمام ولهذا السبب أستطيع ذكر أسماء المفكرين الذين اهتموا بهذا الموضوع والحديث عن أفكارهم الرئيسية دون الغوص عميقاً فيها.

- ليكن...

- يقول هيروقليطس: يحدث التغيُّر كنتيجة لصراع الأضداد.

- لهذه المقاربة جانب يذكرّنا بالمقاربة الدياليكتيكية.

- نعم كثيراً ما تصادف أموراً كهذه، وأكثر ما يشدني إلى الفلسفة القدرة على رؤية أشكال مختلفة لفكرة دارجة اليوم عُبِّر عنها منذ آلاف السنين بطريقة بسيطة وشفافة. طبعاً هذا لايعني أن فكرة الدياليكتيك مطابقة لفكرة هيروقليطس بل أتحدث عن إمكانية رؤية أسس الفكر في مراحل تطورها التاريخي.

- أفهم ذلك وأنا أيضاً لم أقل أنها الفكرة ذاتها بل أردت لفت الانتباه إلى نقاط التشابه.

- لا يقر الفيلسوف بارمينيديس بفكرة التغيُر إذ يقول: «يبدو لنا ظاهرياً أن الأشياء تتغيَّر ولكن في الحقيقة كل شيء يبقى على حاله ولا شيء يتغيَّر البتة»

- سمعت أن هذه الفكرة استخدمت من أجل تطور الإنسان ولكن هذا الفيلسوف يقول أن الأشياء أيضاً لا تتغيَّر.

- كيف سمعت بأن البشر لا يتغيَّرون؟

- كثيراً ما كنت أسمع أقوالاً مثل: «تنحني الشجرة عندما تكون غضة» و«الإنسان بعد الأربعين لا يتغيَّر» و«مهما غليت القطران لن يتحول إلى سكر».

- نعم، أنا أيضاً سمعت بأقوال كهذه، وكل واحدة منها تعبِّر عن وجهة نظر فلسفية، هل أنت مدرك لذلك؟ ولأن الذين يستخدمون هذه الأقوال غير مطلعين على الفلسفة فإنهم لا يدركون أنها تعكس وجهات نظر فلسفيه.

- ينظر الذين يستخدمون هذه الأقوال إليها على اعتبارها تعكس لبَّ الحقيقة، أي يؤمنون بأنها تعبِّر عن الحقيقة ذاتها.

- يؤمن أفلاطون أن ثمة أشكال مثالية للأشياء في عالم المثل، والتغيُر يحدث لكي تصل هذه الأشياء إلى صيغها المثالية، ويبيِّن مدى بُعد هذه الأشياء أو قربها من صيغها المثالية.

- يرى أفلاطون أن ما ندعوه الآن طاقة كامنة قد تحقق في عالم المثُل وهو على شكل صيغة مثالية ثابتة لا يمكن أن تتغيَّر. لا أعلم إن كنت قد فهمتُ هذا الموضوع بشكل صحيح.

- وبهذا المعنى يرى أفلاطون أنه لا وجود للتغيُر في عالم المثُل، فثمة كمال في هذا العالم، ولا ضرورة للتغيُر في عالم يكون كل شيء فيه موجوداً على أكمل وجه.

- تحدثت منذ قليل عن تشارلز داروين، على حد علمي لدى داروين مقاربة مختلفة عن فكرة أرسطو.

- نعم، فلقد أتى داروين بأسلوب تفكير مختلف.

- من أي جهة؟.

- بداية، يربط داروين التغيُرات التي تطرأ على الفرد بأساس التغيُرات التي تطرأ على النوع.

- لم أفهم شيئاً مما قلته.

- ما تحدثنا عنه هو التغيُر الذي يحققه الإنسان خلال حياته. فالتغيُر عند البلوط يهدف إلى التحول إلى شجرة بلوط. هكذا فسَّر داروين التغيُر على أنه أمر يتجاوز حدود عمرنا.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- لنتناول موضوع تطور الطيور، في البدء كانت توجد الزواحف وحسب داروين تطورت هذه الزواحف خلال مئات الآلاف من السنين مظهرة تمايزاً فيما بينها، فبعضها جحظت عيناه وبعضها أظهرت غضاريف بين أصابع رجليه وبعضها الآخر نبتت له زوائد لها بنية الأجنحة، وخلال تكاثر استمر مئات الآلاف من السنين ظهرت زواحف يمكنها التحرك بسرعة من خلال خفق زوائدها التي تشبه الأجنحة، واستمرت هذه الأنواع بالعيش مع بقية الزواحف الأخرى، ولكنها استطاعت الوصول إلى غذائها بسرعة أكبر من غيرها لأنها تمتلك هذه الزوائد الشبيهة بالأجنحة، والتي عملت على زيادة سرعتها، والأهم من هذا كله أنها تمكنت من الهرب من أعدائها بسرعة والذهاب بعيداً، وأثناء هروب هذا النوع الطائر من الزواحف من أعدائه، بدأ النوع الذي لا يملك أجنحة بالموت وبالتالي بالانقراض، وفي نهاية هذه المرحلة التي استمرت مئات الآلاف من السنين بدأ نوع الطيور بالظهور على الأرض.

مصطلح داروين لا يدَّعي وجود هدف لهذا التغيُّر بل يقول بأنه مرتبط بالمصادفات فقط. والانتخاب أو الاصطفاء الطبيعي يحدِّد التغيُّرات التي ستستمر أو التغيُّرات المعرضة للزوال، والتغيُّر الدائم هو ذاك الذي يتلاءم أكثر من غيره مع البيئة، ويتم تصفية التطور الذي لا يبدي أي انسجام أو تلاؤم مع البيئة ويبدأ بالزوال.

- وإذا طبقنا هذه الفكرة على تطور الإنسان سنجد أن التغيُّر الذي طرأ على بعض أنواع القرود أكسبها تفوقاً في التلاؤم مع البيئة ولهذا السبب تكاثر النوع الذي يمتلك خصائص يسميها «مزايا إنسانية» وانتشرت، وأما الأنواع التي لم تكتسب هذا التفوق في التكيف مع البيئة فقد بقيت تحت سيطرة النوع الأول. أليس كذلك؟!.

- أجل، هذا ما جاء به مصطلح التطور. وأما أرسطو فقد حصر تفكيره ضمن إطار حياة الفرد وبهذا المعنى بحث في عملية التغيُّر، فبالنسبة له لا وجود للتغيُّر العشوائي أو المرتبط بالمصادفة، فالعالم يتشكل من أجزاء مترابطة فيما بينها ولكل جزء غاية وهدف خاص به. والبشر أيضاً أعضاء في هذا العالم الهادف ولهم أيضاً هدف خاص بهم، وهم مضطرون للتفكير كبشر لأنهم يمتلكون العقل والمنطق والقدرة على تأمل العالم والتفكير به لأن لوجودهم هدف يسعون لتحقيقه ولذلك يجب على البشر، وهم يعيشون، ألاَّ ينسوا هدف وجودهم كبشر.

- هذا القسم الأخير يشبه ما تورده الكتب الدينية.

- نعم، إدراكك في مكانه. لماذا أتيننا إلى هذا العالم؟! «ثمة مسؤوليات يجب عليك كإنسان القيام بها» هذا المفهوم موجود في كافة الأديان ولكن قد يكون المضمون الذي يحدِّد ما يجب القيام به مختلف من دين إلى آخر، ولكن أسلوب المقاربة العامة هي ذاتها في كافة الأديان.

- إنني متلهف لمعرفة موقف رجال الدين من أرسطو.

- عرف رجال الدين أرسطو كصديق مقرب منهم، وفسروا أسلوبه في التفكير على مدى قرون على أنه يدعم اعتقاداتهم الدينية واستخدموا هذا الأسلوب، ولكن عندما قُضي على احتكار الكنيسة للتعاليم الفلسفية ودُرست في أجواء تعليمية أكثر علمانية تبيَّن أنه لا وجود لمصطلح «العالم الأخر» في فكر أرسطو، فالروح بالنسبة له تولد مع ولادة الجسد وتموت بموته ولكن هذه الفكرة لم ترُق للكنيسة.

أنهيت كأس اللبن وجاء دور الماء فسكبته في الكأس وكذلك فعل السيد عارف بعد أن أنهى كأس الشاي.

❖ التاو Tao:

- اشتغل أبناء الثقافة الراسخة في آسيا أيضاً بالفلسفة، فقد قام لاو-تزو «Lao - Tzo» بالتعريف بفلسفة عُرفت باسم «تاو Tao» وبيَّن أسس هذه المقاربة التي تشمل كافة مناحي الحياة.

- سمعت سابقاً بالتاو، ولكنني لا أعرف فلسفته.

- التاو عبارة عن نظام متكامل، وأنا أيضاً لا أعرف هذا النظام بالكامل، وما أعرفه هو: كل شيٍّ بالنسبة للتاويين يعيش حالة تغيُّر باتجاه التحول إلى ضده، فالحياة تتقدم باتجاه الموت وكذلك الموت يتقدم باتجاه الحياة، والأشياء الرطبة تجف والجافة تصبح رطبة، والقوي يصبح ضعيفاً والضعيف يصبح قوياً.

- والنساء يصبحن رجالاً والرجال يصبحون نساء.

- هل تقول هذه المعلومة لأنك متأكد منها أم أنك تمزح؟.

- لا، إنني أمزح.

- امزح كما تشاء ولكن بعض المفكرين في أمريكا يدَّعون وجود عملية كهذه في أمريكا.

- أنا قلت ما قلته كنوع من المزاح.

- يقول عالم النفس الشهير كارل يونغ أن الفرد يتمتَّع بخصائص أنثوية من جهة وذكورية من جهة أخرى ويضيف قائلاً: عندما يهرم الذكور تزداد لديهم خصائص الأنوثة كالحساسية وإعطائهم أهمية للعلاقات بين الأفراد، كما تزداد خصائص الذكورة عند النساء كازدياد العدوانية والفاعلية.

- قلتُ شيئاً هاماً دون أن أدري.

- يرى التاويون أن الدنيا تتوازن من خلال التغيُّر الموجود بين هذين القطبين وأعطوا لهذين الضدين اسم «**ين**» و«**يانغ**» حيث تشكل هاتان القوتان كلاً متكاملاً من خلال امتزاجهما ببعضهما. في هذا الشكل، يشكل اللونان الأبيض والأسود كلاً متكاملاً من خلال تداخلهما مع بعضهما، وكأن كل واحد منهما متجه نحو الآخر، فيبدو وكأن كل لون يدخل في الآخر في محاولة منه لأن يتحول إلى هذا الآخر، أي يتحول إلى ضده، وفي منتصف أو في جوهر اللون الأسود توجد نقطة سوداء كما توجد نقطة بيضاء في جوهر اللون الأسود. وهذا الشكل يعني أن كل شيء يحمل في جوهره جزءاً من ضده.

- حسناً. ولكن هل يمكن رؤية قوّتي الين واليانغ في العالم؟.

- يقول التاويون يُصنف كل شيء في الدنيا ضمن مجموعات على شكل ين ويانغ، حيث تأخذ الين مواصفات الأنوثة: تراب، ماء، شتاء، بينما يأخذ اليانغ مواصفات الذكوره: وجه السماء، والنار والصيف. الشخص الحكيم هو الذي يعرف أي الأشياء ين وأيها يانغ فيعيش حياة مستقرة ومنسجمة من خلال إقامة انسجام بين تأثير هاتين القوتين.

- إقامة الانسجام بين تأثيرات هاتين القوتين يعني في الحقيقة خلق انسجام في عملية التغيُر. أليس كذلك؟.

- بالتأكيد، ولأنهم يعيشون حالة تغيُر منسجمة فهم لا يدخلون في صراع أو في مواجهة.

- خلال حديثك عن التغيُر هل ستتناول الفلسفة الدياليكتيكية؟.

- نعم، فالفلسفة الديالكتيكية من أهم وجهات النظر المتعلقة بموضوع التغيُر، وقد كنت أستعد للحديث عن الفلاسفة الألمان:

❖ هيجل:

- جورج ولهلم فريدريك هيجل من أهم الفلاسفة الذين تأثروا بالفيلسوف الألماني كانط، فقد فسَّر هيغل المصطلحات التي طوَّرها كانط على أنها رؤية جديدة للتاريخ. وطبعاً كان لا بد من ظهور بعض الفروق الأساسية بينه وبين كانط أثناء ذلك وهذا أمر طبيعي، فبينما يتحدث كانط، على سبيل المثال، عن ثبات الفئات «Kategori» وعن عدم تغيُرها، يؤكد هيغل على أن الفئات على اتصال مستمر مع أضدادها وبالتالي فهي تتغيَّر.

«يقول هيغل: يُعبِّر تغيُر الفئات عن نفسه مع مرور الزمن كعملية طبيعية، فهذه الفئات تتغيَّر من جهة وتتابع من جهة أخرى اتصالها مع أضدادها.

يطلق هيغل على هذه العملية مصطلح الديالكتيك، وقد أخذ هذا المصطلح عن أفلاطون، فقد كان أسلوب سقراط التعليمي يتضمن تواصل على شكل سؤال وجواب وقد أطلق على هذا الأسلوب مصطلح الجدل/ الدياليكتيك، وقد أستخدم هيغل المصطلح ذاته لتحديد عملية تأثير الأشياء فيما بينها.

- لم أكن أعلم أن أفلاطون هو من أوجد هذا المصطلح.

- نعم هو من أوجده. يتشكل الجدل / الدياليكتيك على الشكل التالي: تدخل الأطروحة - وهو الاسم الذي يطلقه هيغل على الفكرة - في صراع مع ضدِّها وهو ما يطلق عليه هيغل اسم الأطروحة المضادة، ويتم حل هذا الصراع الدائر بين الأطروحة والأطروحةالمضادة من خلال بزوغ فكرة جديدة أو أطروحة جديدة يطلق عليها اسم: تركيب.

- هل يمكنك أن توضح ذلك بمثال؟.

- قبل تقديم المثال أريد الحديث عن أفكار هيغل، فحسب هيغل تسعى هذه الدنيا المعقدة التي نراها خارجنا ونطلق عليها اسم الحقيقة أو الواقع إلى فهم ذاتها من خلال هذه العملية، والعملية التي تسعى الحقيقة إلى الوصول إليها هي إيجاد تركيبتها الأخيرة ضمن هذه العملية واكتشاف ذاتها.

توقفت عن الكلام عند هذه النقطة. كان السيد عارف يصغي إليَّ باهتمام سألته قائلاً: هل هناك أية نقطة غريبة في فكرة هيغل التي أوردتها؟ فقال لا.

- وكيف لا يا سيد عارف؟.

- هل يجب أن أشعر بوجود نقطة غريبة؟.

- سأكرر ما قلته فيما يتعلق بهيغل، اسمعني جيداً: حسب هيغل تسعى هذه الدنيا المعقدة التي نراها خارجنا والتي نطلق عليها اسم الواقع أو الحقيقة إلى فهم ذاتها من خلال هذه العملية والعملية التي يسعى الواقع إلى الوصول إليها هي إيجاد تركيبته الأخيرة ضمن هذه العملية واكتشاف ذاته.

- نعم سمعت ذلك ولكن حتى الآن لا أجد أية نقطة غريبة.

- هل سمعت عبارة: «هذه الدنيا المعقدة التي نراها خارجنا ونطلق عليها اسم الواقع؟.

- أجل
- مما تتشكل هذه الدنيا؟.
- من كل شيء.
- شجر وسحاب وجبال وبحار وبشر وحشرات وكل شيء.
- نعم كل شيء.
- هل تحاول الشجرة فهم ذاتها؟!.
- حسب هيغل نعم؟!.
- وهل يسعى السحاب لفهم ذاته؟!.
- أيضاً حسب هيغل نعم.
- وهل يسعى البحر لفهم ذاته؟ يا سيد عارف يريد هيغل أن يقول من خلال هذه العبارة إن الطبيعة تبذل كل جهد واعٍ. ألا نرى ذلك أمراً غريباً؟!.
- كلا؟.
- غريب!!.
- وما الغريب في الموضوع يا سيد دوغان؟.
- إن قال لك أحدهم إن الشجر والسحاب والبحار والحشرات وكل شيء في هذا الكون يسعى لفهم ذاته. هل تقبل بما يقوله دون نقاش.
- ولكن هيغل من يقول هذا الكلام.
- وما الفرق.
- إنه فيلسوف.
- يا سيد عارف هذا النوع من الاستماع ليس نموذجاً للاستماع النقدي. فليس مهماً من الذي يقول بل المهم ما يقوله هذا الشخص. فهيغل يدّعي وجود وعي في جوهر هذا الكون، وهذا الزعم هام جداً، إذ أنه يتكلم كما يتكلم الرسول.

- كان لدى الفلاسفة اليونان مزاعم مشابهة لهذا.

- لكن الفلاسفة اليونان لم يألفوا الفكر العلمي ولم يعودوا يوجهون أفكار مجتمعاتنا المعاصرة. وبالرغم من ذلك فإن الفكر الديالكتيكي لا يزال مدرسة فكرية هامة ولا يزال يواصل تأثيره حتى الآن.

- سيد دوغان ما هو الشيء الذي تريدني أن أدركه؟.

- أريدك أن تدرك أن هيغل يدّعي وجود وعي في جوهر كل مادة لهذه الفرضية نتائج عميقة جداً.

- أدركت الآن ذلك، شكراً لجهودك.

أخذت رشفة من كأس الماء وواصلت حديثي:

- المثال الذي أورده هيغل مجرد للغاية، فالوجود أطروحة والعدم أطروحة مضادة وعندما يتداخل الوجود مع العدم يظهر الوجود ويتحقق كتركيب جديد.

يقول هيغل: «تتواصل هذه العملية دون توقف وفي النهاية سيعي الواقع ذاته ضمن وجوده الكلي وعندما يُدرك الشيء ذاته ويرى كليته تتحقق الحرية الحقيقية، وإذا لم تتحقق هذه الكلية سيضطرب الإنسان ويتألم ويشعر بالاغتراب، فالاغتراب يتشكل عندما تكون الأفكار مجزأة ومشتتة ومنسلخة عن بقية الأفكار الأخرى. فإذا كانت فكرة ما لا ترى نفسها كجزء من اللوحة الكبيرة فإنها تنسلخ عن الكل ويحدث الاغتراب.

- لحظة يا سيد دوغان. هل يمكننا القول أننا نفقد وعينا الكلي عندما لا نستطيع معرفة في أي مرحلة نحن من مراحل الأطروحة والأطروحة المضادة والتركيب الجديد؟! وكنتيجة لفقدان الوعي الكلي ندخل في شعور الاغتراب. هل يمكننا قول ذلك؟!.

- نعم إن معرفة الشخص بهذه العملية تضمن عدم انسلاخه عن الكل، إنها ملاحظة جيدة. شكراً لكَ. سأواصل حديثي: «أحد الأمثلة التي

أوردها متعلقة بمفهوم الإله. فيقول على سبيل المثال: مصطلح الإله المنسلخ عن حياة البشر والذي يعيش فوقهم دون أية علاقة معهم هو مصطلح يعيش حالة اغتراب، فإذا كان الناس يؤمنون بإله كهذا فإنه يتوجب عليهم رؤية حياتهم اليومية منسلخة عن الإله لا جزءاً منه» استخدم كارل ماركس فيما بعد مفهوم الاغتراب حين تحدث عن اغتراب العمال في أماكن عملهم. فالعامل المغترب هو عامل يمتلك عقلاً مضطرباً ومشوشاً في موضوع علاقته مع الإطار الكلي لحياته.

- هل يمكن استخدام مفهوم الاغتراب هذا بالنسبة للطلاب أيضاً؟ فالطالب الذي يسأل «لماذا أتعلم هذه المادة؟» ولا يجد جواباً على سؤاله سيشعر باغترابه عن النظام التعليمي. هل سنتناول كارل ماركس في أحاديثنا القادمة؟.

- أجل. فكارل ماركس واحدٌ من العظماء، ولن نستطيع اتمام حديثنا عن التغيُّر دون الحديث عن كارل ماركس. أريد الآن مواصلة الحديث عن هيجل، حيث يتحدث عن «السيد والعبد» في موضوع الاغتراب. فحسب هيجل الرغبة هي الشيء الوحيد الذي نمتلكه قبل وصولنا إلى الوعي الكوني الحقيقي.

- عفواً يا سيد دوغان، هل للوعي الكوني الحقيقي صلة بوعي الـ«نحن» الذي تحدثت عنه؟.

- نعم، وهكذا أفهمه، ثمة ظاهرة وردت في أفكار افلاطون وأرسطو وكانط وهيغل وماركس وفي أفكار كلٍّ من هوسرل وهيدجر اللذين سآتي على ذكرهما باختصار، يُطلق على هذه الظاهرة اليوم مصطلح «الفوضى» وقد أطلق الفيزيائيون عليها مصطلح «فيزياء المجال المتحد». وقد تم التعبير عن هذه الظاهرة في الفلسفة الهندية وفي اتجاهات التصوف الموجودة لدينا وفي كافة التقاليد الصوفية الأخرى. فحين أقول: «وعي ال

نحن» لا أكون قد قدَّمت شيئاً جديداً وكل ما هناك أن هذا المصطلح يعرِّف تطور الوعي في الحياة اليومية ضمن إطار علم نفس العلاقات. أشكرك على انتباهك لهذا المصطلح.

- يجب أن تجري دراسة حول موضوع «أسس فلسفة النحن».

- ربما تقوم أنت بدراسة كهذه وأنا سأساعدك في هذا.

- أرغب بذلك وإن استطعت لن أتوانى لحظة عن فعله، من يدري، ربما.

- لديَّ الآن مشاريع كثيرة أعمل على انجازها ولا أدعي أنه لم يخطر على ذهني القيام بدراسة كهذه ربما أقوم بها يوماً ما. لنعُد الآن إلى هيغل، أين وصلنا؟ نعم، الشيء الوحيد الذي نمتلكه قبل الوصول إلى وعي كوني حقيقي حسب هيغل هو الرغبة، فالوعي هو الذي يرغب ويطلب ولايعرف شيئاً سوى رغبته وهو أثناء مسعاه لتحقيق رغبته يتواصل مع أنواع الوعي الأخرى التي تسعى لتحقيق رغبتها أيضاً، وعندما يدخل وعيان لديهما مطالب ورغبات في تواصل فيما بينها ينشب الصراع.

- صراع على ماذا؟.

- صراع الاعتراف، أي صراع قبول أحدهما للآخر. إذ يقوم أحدهما بفرض إرادته على الآخر.

- وماذا ينجم عن هذا الصراع؟.

- يفوز أحدهما ويتحول إلى «سيد» أو «مالك» أو«زعيم» بينما يتحول الخاسر إلى «عبد» وضمن هذه العلاقة اعترف السيد والعبد كل منهما بالآخر وتقبَّل كل منها الآخر. لكن كلاهما غير سعيدين بهذه العلاقة.

- ما هو سبب عدم سعادتهما؟.

- لأن العبد من جهة وصاحبه أو سيده من جهة أخرى لا يمتلكان، حسب هيغل، إلاَّ نصف وعي. فالسيد يمتلك القدرة على فعل كل ما يريد

ولكنه لا يفعل شيئاً لأن العبد هو من يقوم بكل الأعمال وأما العبد فإنه يملك الفرصة لمعرفة نفسه من خلال الأشياء التي يفعلها بنفسه ولكن الأشياء التي يفعلها للسيد وليست له.

- وأين الحل؟.

- الحل يكمن في اعتراف كل منهما بإرادة ومطالب الآخر وأخذها بعين الاعتبار وهذا ما يؤدي إلى الوصول إلى وعي كوني حقيقي.

- إن موازاة هذا الموضوع لتطور «وعي النحن» الذي تتحدث عنه لهو أمر مثير للدهشة فالشخص الذي ينطلق من مقولة: «أنا» يجد شخصاً يقول له «نعم يا سيدي أنت» ولكنه لا يكون سعيداً، والأشخاص الذين ينطلقون من مبدأ وعي الأنا - أنت لا يحققون طاقاتهم الحقيقية ولكنهم إذا انطلقوا من مبدأ وعي النحن فإنهم يحققون ذاتهم وطاقاتهم. هذا ما ورد في أحد كتبك.

- أهنئك على هذا الربط، نعم الموازاة بين الموضوعين واضحة جداً، ولكن يا سيد عارف أثناء بحثي عن مصطلح «وعي النحن» كنت أستفيد كثيراً من الدراسات والأبحاث التي أجريت في ميدان التطور وعلم الاجتماع وعلم نفس التواصل. أي إن «وعي النحن» لم يكن نتيجة دراسة فلسفية، بل نتيجة بحث معتمد على معطيات تجريبيه نجمت عن نتائج العديد من الدراسات، ولهذا السبب فإن هذا التشابه مثيراً ويدعو للتفكير.

- بعد حديثي معك بتُّ أكثر اهتماماً بالفلسفة.

❖ماركس:

- جيد، لنكمل حديثنا حول التغيُّر.

تأثر ماركس بالنظرة التاريخية لهيغل واستخدم دياليكتيك هيغل في تفسير مصطلحات الحرية السياسية والاقتصادية.

يؤمن ماركس بأن أساليب حياة البشر تتشكل حسب علاقات الانتاج أي أن حياة البشر تتشكل حسب السلع التي ينتجونها ويبيعونها ويستخدمونها وقد أكد ماركس على أن الحياة المعاصرة تشكلت حسب النظام الرأسمالي ويقوم من لديه المال «الرأسمالي» باستئجار من لا يملك المال من أجل إنتاج السلع ثم يقوم بإضافة الأرباح على السلع المنتجة ويبيعها بأضعاف مضاعفة ويستأجر بالأموال التي يربحها عدداً إضافياً من البشر، طبعاً أثناء بيع السلع يضع أعلى ثمن لها، وأثناء إعطاء الأجور للعمال يضع الأجر الأكثر انخفاضاً.

يؤكد ماركس على أن أيام النظام الرأسمالي معدودة، لأن الرأسمالية مع الأيام ستؤدي إلى تراكم رأس المال في أيدي حفنة من البشر، وسيتكاثر عدد الذين لا يملكون لدرجة أنهم يجدون أنفسهم مضطرين لتغيير هذا النظام وبناء نظام آخر يكون المال فيه أقل أهمية.

أطلق كارل ماركس على هذا النظام الجديد اسم «الشيوعية». وحسب ماركس سيقوم كل إنسان في النظام الشيوعي ببذل الجهد في عملية الانتاج من أجل مصلحته من جهة ومن أجل مصلحة المجتمع من جهة أخرى.

ويرى ماركس أن الفرق الأهم بين الرأسمالية والشيوعية هو أن الإنسان في النظام الشيوعي سيعطي الأهمية الكبيرة للعمل الذي سيقوم به والذي سيكون له إسهامات هامة بما فيه خيره ومصلحته وخير ومصلحة المجتمع، أكثر من الأهمية التي سيعطيها لمقدار النقود التي سيحصل عليها من عمله ولقيمة السلع التي يمتلكها، ففي النظام الرأسمالي يعمل البشر دائماً من أجل حفنة من الناس، ولا يشعر الذين يعملون بهدف زيادة ربح الآخرين بالسعادة حتى وإن حصلوا على كمية كبيرة من النقود، لأنهم انسلخوا عن المجتمع واغتربوا عن أنفسهم وعن مجتمعهم.

- أرجو المعذرة يا أستاذي لأنني أقطع حديثك، ولكن أريد أن أطرح سؤالاً يتعلق بعلاقة ما تحدثنا به اليوم بما في ذلك كارل ماركس بموضوع المحارب؟ إذ لم أستطع حتى الآن إقامة علاقة بين ما تحدثنا به حتى الآن وبين مصطلح المحارب.

- هل استطعت إقامة علاقة بين التحول إلى محارب وبين عملية التغيُّر.

- والله لا أستطيع الادعاء بذلك.

- هل تتذكر الحديث الذي دار بيننا حول فهم الشعر عندما كنا نقرأ الأشعار في لقائنا السابق؟ سألتني حينئذٍ عن الطريقة التي يستمع بها الإنسان للشعر ضمن إدراك المحارب.

- نعم أذكر. سألت حينها عن كيفية تخلي الإنسان عن كونه إنساناً عادياً والاستماع للشعر ضمن إدراك المحارب.

- حسناً، وهل تتذكر ردي على هذا السؤال؟.

- قلتَ: من المستحيل امتلاك إدراك المحارب ما لم يتحول الإنسان إلى محارب.

- مرحى لكَ، تتذكَّر بشكل ممتاز.

- قلتَ أيضاً: بداية يجب حل مشكلة الوجود، كما أخبرتني بأنك ستتحدث عن موضوع التغيُّر في لقائنا التالي.

- ذاكرتك جيدة.

- ولكن لا يبدو أن هناك علاقة بين التغيُّر وبين التحول إلى محارب، إذ أنني أرى أننا مستمرِّين بدراسة ما قاله الفلاسفة حول موضوع التغيُّر.

- وهل يضايقك هذا الموضوع؟!

- كلا لا يضايقني ولكنني لازلت متشوقاً لمعرفة علاقة هذا الموضوع بموضوع التحول إلى محارب.

- إن تحول الإنسان العادي إلى إنسان محارب لهو تغيُّر هام جداً، وإن فهمك لعظمة هذا التحول الهام مرتبط بفهمك لما قيل حول موضوع التغيُّر، ولهذا أسعى لتناول هذا الموضوع بكل شموليته.

- إذن بالنسبة لك كل ما تحدثنا به حتى الآن مرتبط بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع التحول إلى محارب.

- هذا ما أراه، ولو لم يكن الأمر كذلك لما تحدثت به، ولكن بإمكانك الآن ألاَّ تدرك ما أدركه وألا تعتقد بما أعتقد به.

- مع مرور الوقت سأرى بكل وضوح علاقة ما تتحدث به وما ستتحدث به بعملية التحول إلى محارب.

- أعتقد ذلك: فأنا لا أقدم هذه المعلومات المتعلقة بموضوع المحارب لشخص سيدخل إلى الامتحان وإما أن ينجح أو يرسب، أي أن ما أفعله ليس محاولة لوضع بعض المعلومات في ذاكرتك.

- أنا مدرك لذلك.

- أعرف أنك مدرك ولكني، مرة أخرى، أريد أن أنوه إلى أننا، أنا وأنت، نتحاور ونعيش مرحلة اكتشاف تُكسبنا فهماً أكثر عمقاً، فمصطلح «التغيُّر» من المصطلحات الهامة جداً وسواء اهتممت بموضوع المحارب أو لم تهتم فإن فهم مصطلح التغيُّر سيجعلك أكثر قوة.

- إذا فهمت مصطلح المحارب هل سأصبح أكثر قوة؟ كيف؟.

- نعم إن وصولك إلى وعي متكامل لمصطلح التغيُّر سيخلق منك مدرساً أكثر فاعلية، وحياتك الزوجية ستصبح أكثر متانة وخلال تربيتك لأولادك ستتمكن من إقامة تفاعل وتواصل أكثر وعياً وأكثر واقعية وكل إنسان يسعى لإعطاء حياته معنى فإنه يعيش في سعيه هذا مرحلة تغيُّر، وكل إنسان يعمل على إدارة مؤسسة أو مشغل أو مصلحة هو إنسان يعيش مرحلة تغيُّر، فالتغيُّر موجود في جوهر الحياة.

- حسناً يا سيد دوغان، وصلتني الرسالة، وكليّ آذان صاغية.

- كنا نتحدث عن كارل ماركس.

- نعم، كنا نتحدث عن اغتراب العمال عن أنفسهم وعن مجتمعهم.

- يؤكد ماركس على أن علاقات الانتاج هي التي تحدد الدين وأساليب التفكير والاعتقادات والفن، إذ يقول: «الدين والفلسفة والاعتقادات يخلقها من يمتلك القوة وهي موجودة من أجل الحفاظ على قوة القوي فهي توضع وتمارس ضمن هذا الإطار».

- أذكر من خلال الكتب التي قرأتها، أن هناك بنية تحتية وبنية فوقية، فعلاقات الإنتاج تمثل البنية التحتية ويشكل الدين والثقافة والقيم والاعتقادات البنية الفوقية. وبما أن البنية التحتية هي التي تشكل وتحدد البنية الفوقية فإنه لا يوجد فائدة من إجراء التغيُر على البنية الفوقية ما لم يتم إجراء التغيُر على البنية التحتية، إذ لا يمكن حل المشاكل الناجمة عن البنية التحتية من خلال إجراءات ما في البنية الفوقية.

توقف السيد عارف عند هذه النقطة، نظر اليَّ بضيق وانزعاج من يجد صعوبة في قول شيٍّ صعب. ثم قال: «ياأستاذي، أنا مؤمن بذلك، أي مؤمن بصحة نظرة كارل ماركس المتعلقة بعلاقات الإنتاج وبتفسيره لديناميكية البنية التحتية والبنية الفوقية.

- يا سيد عارف، كارل ماركس واحد من كبار مفكري عصرنا وهو ليس من أكبر المفكرين وحسب بل من أكثر المفكرين تأثيراً، إذ من المستحيل تفسير أغلب ما جرى في القرن العشرين وما يجري دون اللجوء إلى أفكار كارل ماركس. «ملاحظات كارل ماركس الواقعية هي التي جعلت له كل هذا التأثير وطبعاً كانت هذه الملاحظات معززة بمفاهيم قوية، وكمثال على ذلك يمكن إجراء مقارنة بين ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية ذات النظام الرأسمالي وبين ثقافة تركيا، التي تدخل شيئاً فشيئاً في النظام الرأسمالي.

تعتبر الفردية والفردانية من القيم الموجودة بقوة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا أريد هنا الدخول في التفاصيل لأنني تناولت هذا الموضوع في كتبي السابقة، ولقد استطعت رؤية القوة التي تتمتع بها الفردية والفردانية في أمريكا بشكل واضح وصريح لأنني عشت في هذا البلد فترة طويلة من الزمن.

النزعة الفردية موجودة في تركيا ولكن الناس هنا مضطرين لإخفاء هذه النزعة. ألا تتذكر العبارات التي تقول: «لا أريد، لكن ضع ما تريد وضعه في جيبي»؟. النزعة الفردية الموجودة لدينا تشبه هذه المقولة كثيراً، وأما في أمريكا فلا أحد يصدق من يقول: أنا أفعل هذا الشيء من أجل الوطن والشعب من جهة ومن جهة أخرى يعتبرون أن سلوكاً كهذا ليس واقعياً وليس سليماً، إذ يُنتظر من الفرد في أمريكا إجراء توازن بين مصالحه ومصالح الوطن بدلاً من إنكار مصلحته كفرد، وأما هنا فينتظر من الشخص دائماً أن يقول: «أنا لا مصلحة لي بذلك وكل ما أقوم به هو لمصلحة الوطن».

- أي أن أحدهم يولي أهمية للتبعية والأخر يوليها لتحقيق الذات. ولقد أوردت أمثلة على هذا الموضوع في كتبك.

- نعم، الفكرة الأساسية التي أريد قولها هنا هي توافق هذه النقطة مع ملاحظات ماركس، فعندما تنتشر الرأسمالية في تركيا مع مرور الأيام وعندما يزداد رجال الأعمال الأتراك وعندما تصبح الشركات القوية في تركيا جزءاً هاماًمن حياة المجتمع سنرى ازدياداً في مستوى الفردية والفردانية في تركيا.

- يا أستاذي، أرى أنك تستخدم الفردية والفردانية بمعنيين مختلفين. أليس كذلك؟.

- نعم، ولكنني لم أشرح هذا الموضوع لأنك قرأته في كتبي السابقة.

ولكن في التذكير فائدة. الفردية تعني تلبية الشخص لكافة احتياجاته بشكل أناني دون التفكير بأحد سواه. أي يتمحور على مصطلح «أنا المركز» وأما الفردانية فتعني انطلاق الشخص من مصطلح «نحن المركز» وتلبية احتياجاته ضمن وعيه لحدوده ومسؤولياته ومتطلباته وحماية وضعه.

- يشكل هذا الفرق مفهوماً هاماً.

- ثمة أهمية حياتية لهذا الفرق.

- يوجد في الفردانية توازن بين التبعية وتحقيق الذات.

- مرحى لكَ يا سيد عارف، أصبت لبَّ الحقيقة.

- شكراً لك يا أستاذي.

- مرَّت الفردانية عبر تطور تاريخي، ولا أعتقد أنه من المناسب الحديث عن هذا الموضوع هنا. ولكنني أكتفي بالقول بأن الإنسان قبل أن يولد كان مخلوقاً تابعاً مئة بالمئة وأول عمل مستقل قام به بعد الولادة هو التنفس.

- نعم هذا صحيح، يضطر الطفل بعد الولادة مباشرة إلى التنفس بشكل ذاتي وإن لم يفعل ذلك يموت.

- هذا أول سلوك مستقل، ومع مرور الزمن تتسع دائرة الاستقلالية وعندما يصل إلى الرابعة أو الخامسة عشر من عمره يصل إلى مرحلة يقول فيها: «أنا لا أحتاج لأحد، فلا تقدموا لي النصائح، وإن شئتم أقدم أنا لكم النصائح».

- أي أنه يدخل في مرحلة عبورٍ من التبعية التامة إلى الاستقلالية التامة.

- نعم. ولكن بعد ذلك عندما يستوعب أن الحياة عبارة عن تفاعل وتواصل وتعاون تتحول فكرة «أنا موجود» إلى فكرة «أنا موجود وأنت أيضاً موجود».

- ما أريد قوله الآن هو أن هذه الحالة كانت موجودة على هذا الشكل من الناحية التاريخية، ففي الأزمنة الغابرة كان الأتباع والرقيق والعبيد بشراً أشبه ما يكونون بالسلع، يتم شراؤهم وبيعهم ويحق للملك أو السلطان أو لمالك الرقيق، الذي يملك القوة، التصرف بهؤلاء الناس كما يشاء.

بعد ذلك تجلت أهمية الفرد وازدادت أفكاره قوة وتجلت أهمية العمل الذي يقوم به وبدأ بعد ذلك بالدفاع عن حقوقه حتى وصلت عملية التغيُّر هذه في بعض البلدان إلى نقطة استطاع فيها الفرد أن يقول للدولة «أنتِ موجودة من أجل خدمتي، ودون ذلك لا يوجد أي معنى لبقائكِ».

- هل بدأ عهد الفردية؟!

- بدأت تسود فلسفة تقول: يجب أن يتم تقييم كل شي من أجل مصلحة الفرد، ولم يرغب الفرد برؤية أي معنى خارج حدود مصالحه الشخصية.

- تقول أن هذه الفلسفة لا زالت سائدة في الولايات المتحدة الأمريكية.

- نعم، لقد رأيت انتشاراً واسعاً للنزعة الفردية في أمريكا. انتبه، أقول انتشاراً ولا أقول بأنها ثقافة فردية بالكامل.

- ولكنك رأيت انتشاراً لمفهوم «أنا قبل كل شيء».

- نعم رأيت ذلك، ولكنني استطعت رؤية تأثير وعي الفردانية في السياسة والعمل والتعليم وفي حياة الأسرة.

- ما هي علاقة ما قاله ماركس بملاحظاتك هذه يا سيد دوغان؟

- حين قال ماركس إن علاقات الانتاج، التي أطلق عليها مصطلح البنية التحتية، هي التي تحدد شكل الثقافة، التي صنفها ضمن إطار البنية الفوقية، فإنه عبَّر عن هذه العملية على أنها تأثير في اتجاه واحد. ولكن إذا نظرت اليوم إلى البيولوجيا وعلم البيئة وعلم السلالات وعلم النفس

الاجتماعي والاقتصاد ضمن إطار «منظوماتها» ستجد أنه لايوجد أي شيء في هذه الدنيا يؤثر في شيء آخر في اتجاه واحد.

- حسناً، وكيف يحدث التأثير؟.

- من الخطأ القول «تأثير» والاصح القول «تفاعل».

- أي أن حياتنا تجرى ضمن أنظمة تؤثر ببعضها البعض بشكل متبادل، وبهذا المعنى تحدثتَ في كتابك الأخير عن مصطلح «الفوضى».

- نعم، تحدثت بهذا المعنى، طبعاً قد تختلف القواسم المشتركة للعوامل ضمن هذا التفاعل.

- أي حين تنتج الحادثة (ج) عن تفاعل العاملين (أ)و(ب) فقد يكون تأثير العامل(أ) أكبر أو أقل من تأثير العامل (ب) أهذا ما تريد قوله؟.

- أجل هذا ما أريد قوله. فإذا قلنا إن تأثير أحد العوامل منخفض فهذا لايعني أن تأثيره مساوٍ للصفر ولنفترض أن العامل(أ) هو الهدروجين والعامل(ب)أوكسجين والناتج هو الماء / H_2O / أي يوجد ذرتان من الهدروجين وذرة من الأكسجين فوجود ذرتين من الهيدروجين في صيغة الماء لايعني انخفاض أهمية الأوكسجين.

- وما هي العلاقة بين هذا الكلام وبين مصطلحي البنية التحتية والبنية الفوقية؟.

- من الطبيعي القول إن علاقات الإنتاج هي التي تحدد شكل القيم التي يؤمن بها معظم الناس وتحدد نظرتهم إلى العالم ولكن في الوقت ذاته قد يأتي شخص بمفرده وصل إلى مستوى معين من الأفكار والتطبيقات ويتمكن من تغيير عصر بأكمله.

- مثال...

- كارل ماركس مثلاً.

- فعلاً!

- أتاتورك أيضاً على سبيل المثال. فمن الحوادث النادرة أن ينمو شخص مثل أتاتورك في بنية تحتية تقليدية كالتي كانت سائدة في الامبراطورية العثمانية، وكذلك الإنجازات التي حققها أيضاً من الحوادث النادرة جداً.

- أعتقد أن قدرته على أن يكون فعالاً بعد انتقاله إلى مرحلة التطبيق هي حادثة، احتمال وقوعها أكثر انخفاضاً.

- هذا صحيح، ولكن وجود الجمهورية التركية العلمانية اليوم حقيقة لا يمكن إنكارها ولا يمكن تفسير وجود ظاهرة الجمهورية التركية اليوم دون الحديث عن وعي أتاتورك.

- والوعي يعتبر من ظواهر البنية الفوقية أليس كذلك؟.

- وكذلك وعي كارل ماركس أحد مظاهر البنية الفوقية ولا يمكننا الحديث عن كل ما جرى في القرن العشرين دون أخذ وعي كارل ماركس بعين الاعتبار.

- أي أن التغيُرات التي تطرأ على وعي شخص بمفرده قد تؤدي إلى تغيُرات في كل المجتمع وفي كافة أنحاء العالم.

- ماذا يقول مصطلح الفوضى؟!.

- ماذا يقول؟.

- يقول: الفراشة التي تطير في بكين قد تؤدي بعد ستة أسابيع إلى هبوب عاصفة في نيويورك.

- وتقول أنت: فيلسوف يكتب في ألمانيا يستطيع أن يؤثر على مصير الملايين في الصين.

- نعم هذا ما أقوله، فإذا ما نظرنا إلى الأحداث ضمن إطار «حقيقة شبكة التفاعلات» فإننا سنجد أنه يمكن لأي تغيير يطرأ في مكان ما من هذه الشبكة أن يخلق إمكانية التأثير على كافة أنحاء الشبكة.

- انطلاقاً من إدراكنا لأننا نعيش ضمن إطار «حقيقة شبكة التفاعلات» سنجد أن اكتشاف مصطلح «النقود» على سبيل المثال قد يخلق تغيُرات تؤثر على كافة مناحي الحياة.

- الأبجدية والإطارات واختراع الطباعة وغيرها الكثير من المكتشفات الحديثة، لم تكن في البداية تبدو ذات أهمية كبيرة ولكنها فتحت الطريق أمام تغيُرات لم تكن متوقعة ولم تكن بالحسبان.

- ويمكن أن تحدث هذه التغيُرات في البنية التحتية وقد تحدث في البنية الفوقية أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد، ومن هذه الزاوية أرى، كشخص اسمي دوغان، أن الوعي يشكل أساساً لكافة التغيُرات، وأرى أن التغيُرات التي تطرأ على الوعي هي الأم الكبرى والمنبع الأساسي لكافة التغيُرات الأخرى التي قد تشهدها حياة البشر.

- حسناً، وهل هناك فلاسفة يتبنَّون هذه الفكرة؟.

- بالنسبة لي أرى أن الفلاسفة الوجوديين يؤمنون بالفكرة ذاتها.

دخلنا في نقاش ساخن فمر الوقت بسرعة.

دخلت سيدة شابة محجبة إلى إحدى الغرف الموجودة على يميننا وهي تمشي بطريقة تدل على أنها تعرف هذا المكان أو أنها تعمل فيه، قلت للسيد عارف ازدادت في الآونة الأخيرة نسبة الفتيات المحجبات فأكد صحة ملاحظتي وقال: «كما تعلم أجرينا لقاءاتنا الأخيرة في مباني الأوقاف، وكأن هناك علاقة بين الذهنية المحافظة وبين الذهنية التي تتبنى هذه الأوقاف» فطلبت منه تفسير ما قاله فقال: «يبدو لي أن المثقف الذي أدار وجهه نحو الحضارة الغربية لا يهتم بالثقافة العثمانية وبالتالي لا يهتم بالأوقاف وأما المهتمين فهم غالباً ما يكونوا من الشريحة التقليدية ولهذا السبب عندما نلتقي في أماكن تابعة للأوقاف يكون من المحتمل مصادفة السيدات المحجبات أكثر من غيرهن».

إن رؤية فتيات في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من أعمارهن يدخنّ السجائر مع فتيات محجبات في نفس المكان يؤكد على ميزة جوهرية خاصة باسطنبول. **تثير هذه المناظر تفكيري بنظام متوحش مبهم ومعقد خاص بغابات لم تطأها رجل إنسان.**

أحضر النادل الكولا والشاي اللذان طلبناهما. الكولا بالليمون المثلجة مفيدة جداً مع حوار كهذا. أخذت رشفة وأنا أشعر بلذتها وتابعنا حديثنا.

❖المقاربة الفينومينولوجية/الظاهراتية:

- في بدايات القرن العشرين تشكل تياران أساسيان في الفلسفة الغربية هما: التجريبية والعقلانية، كتيارين نقيضين لبعضهما البعض، فقد كانت التجريبية تنظر إلى العالم على أنه آلة باردة تعمل بمفردها بعيداً عن أفكار البشر فيما يخصُ حياتهم، بينما تخلت العقلانية عن عالم كهذا وركّزت على التفكير وعلى العالم الذي خلقته الأفكار.

كانت الظاهراتيه / الفينومينولوجيا هي التيار الفلسفي الذي وفّر إمكانية التوافق بين هذين التيارين: فبينما كانت تتم مناقشة المشاكل الفلسفية والعالمية بهدف وضع حلول لها، عملت الفينومينولوجيا على وضع حلول لمشكلة فقدان المعنى التي تشهدها حياة البشر.

نتج عن الفينومينولوجيا تيار عُرف بالوجودية التي تحولت إلى التيار الفلسفي الأكثر عطاءً في القرن العشرين حيث وفرت إمكانية تحول حقائق الحياة الباردة إلى حقائق ذات معنى في حياة الفرد.

نظر الفيلسوف الألماني ادموند هوسرل إلى العالم الخارجي من جهة وإلى علاقة أعضاء الحس التي تختبر هذا العالم من جهة أخرى، وكما قال كانط قبله بمئة وخمسين عاماً: «إن ما نختبره هو عالمنا الفينومينولوجي».

- هل كرر ما قاله كانط؟

- كلا لم يكرر ما قاله كانط، ففي فينومينولوجية هوسر ثمة علاقة وثيقة بين هذا العالم الذي نراه وبين وعي الفرد، أي إنهما وجهان لعملية واحدة، ولكي يتم إدراكه لابد من وجود شيء يساعد على الإدراك ولا يمكن الوصول إلى حقيقة الإدراك دون وجود المفاهيم. ماذا يعني هذا الكلام؟

- لا أعرف. تشّوش عقلي.

- هذا يعني أن الإدراك والحقيقة امتدادان لشيء واحد، فهناك علاقة وثيقة بين الإدراك والحقيقة وكأنهما وجهان لعملة واحدة.

- وماذا أضافت وجهة النظر هذه إلى حياة الإنسان؟ أي ماهو الجديد الذي أضافته؟!.

- ألا تجد تشابهاً بين هذا الكلام وبين مصطلح المحارب؟.

- لا يوجد تشابه، إنه يقول الأمر ذاته.

- حسناً وما علاقة هذا بالتغيُّر؟!.

- الفهم، الفينومين (الظاهرة)، الإدراك جميعها أمور ومفاهيم تحدث ضمن إطار مفهوم الزمن. والعمل الذي يتأسس على هذه الظاهرة أي الوجود يحتل مكاناً له ضمن إطار الزمن.

- وما أهمية هذا الكلام؟.

- كل شيء موجود ضمن إطار الزمن قابل للتغيُّر، أي الوجود يعني التغيُّر.

- إننا موجودون بشكل مستمر بفضل الخيارات التي نقوم بها وبفضل الأعمال التي ننجزها انطلاقاً من هذه الخيارات.

- نعم، ونحن نتحمل مسؤولية ذلك كاملة.

- أي أن كل فرد يخلق معنى «للحياة الخاصة به».

- وطبعاً أثناء خلقه معنىً لهذه الحياة عليه أن يعرف الخيارات

والإمكانيات التي يعيش ضمن إطارها. فأثناء إجراؤه خياراً ما عليه معرفة مجموعة الأشياء التي سيختار من بينها ولماذا اختار هذا الشيء دون سواه.

- حسناً وإذا لم يولِ إنسان ما أية أهمية لكل هذه الأشياء وبقي غير مهتم.

- يمكنه أن يبقى غير مهتم.

- وقد لا يتمكن من ذلك.

- نعم يمكنه ألاً يكترث ويمكنه أن يكترث.

- ولكن الإهتمام يحتاج لشجاعة أكبر أليس كذلك، إذ أن إجراء التغيُر بشكل واعٍ يحتاج لبذل الجهود ويحتاج لتوفير الجرأة والشجاعة.

- ها أنت أدخلت إلى موضوعنا مفهومين هامين.

- ما هما؟.

- الأول، هو الفرق بين الإنسان العادي والإنسان غير العادي. فالإنسان العادي لا يفكر ببذل الجهود الرامية إلى خلق حياة خاصة به فهو يعيش دائماً ضمن مفهوم «هكذا بدأتَ وهكذا ستنتهي» إنسان كهذا لا يمكن أن يهتم بالتغيُر ولكن إذا قال له أحدهم «يجب أن تتغيُر» فإنه وقتها سيهتم بالتغيُر.

- أي أنك تضع تعريفاً للإنسان الجامد الذي ترجح عنده كفة التبعية. ما هو المفهوم الثاني؟.

- المفهوم الثاني هو: عندما يصل الفرد إلى مستوى فهم خياراته فإنه في الوقت ذاته يكون قد وصل إلى فهم الحدود والإمكانيات التي توفرها هذه الخيارات، والموت هو أحد أهم هذه الحدود، فوعي الموت يوفّر لنا الإمكانية لمعرفة أننا لن نعيش إلى الأبد ويوفر لنا أيضاً إمكانية تحمل مسؤولية أننا نعيش الآن وفي هذه اللحظة.

- وهذا يعني أن التغيُّر لا يقتضي معرفة الخيارات وحسب بل ويقتضي أيضاً معرفة أننا نعيش الآن وهنا ضمن إطار هذا العالم الفاني.

- أعتقد يا سيدعارف أن كل ما تحدثنا به أصبح واضحاً، البحث عن المعنى واليقظة والنيَّة والشخصية المتكاملة والمسؤولية والقوة ووعي الموت والتغيُّر. وكما ترى جميع هذه المواضيع متداخلة فيما بينها ومرتبطة ببعضها بشكل عضوي، ويتخذ المحارب موقفاً خاصاً به في كل موضوع من هذه المواضيع.

- نعم، إنني أشعر بهذه الرابطة العضوية، لقد فهمت ذلك بشكل محدود ولكنني لم أستطع حتى الآن رؤية هذا الموضوع بشكل واضح وجلي. أعتقد مع مرور الوقت سأتمكن من رؤية هذا الموضوع من كافة جوانبه.

- لا أشك بذلك مطلقاً.

- لفت انتباهي أمر هام يا سيد دوغان. طرحتُ منذ قليل سؤالاً يقول: «ماذا لو وجد إنسان لا يولي أية أهمية لكل هذه النقاط وماذا لو بقي غير مكترث؟» فقلت: «هذا ممكن» أهذا يعني أن تشكيل الإنسان لحياة خاصة به أو مواصلة حياة عادية، حسب رأيك، ليس محكوماً بأية ضرورة وأكثر من ذلك سيكون بعيداً عن المساءلة؟

- أجل.

- ولكن يوجد تناقض هنا.

- أي تناقض؟

- ما دام لحياة الإنسان العادي ذات القيمة التي تتمتع بها حياة المحارب وما دام لا يوجد بينهما أي فرق، فلماذا نجتمع هنا ونواصل حديثنا باحثين عن سبيل التحول إلى محارب؟ أي يجب أن لا يكون ثمة فرق سواء أكنت معلماً عادياً أو معلماً غير عادي.

- هذا صحيح، حقيقة لا يوجد أي فرق.

- إذن لماذا نلتقي ونتحدث بشكل متواصل ولماذا نهدر كل هذه الساعات؟

- لأنك تعيش حالة البحث عن معنى. ولأنك تريد إعادة النظر في خياراتك بغية إعطاء حياتك معنى.

- لم أفهم. أرجو أن توضح لي أكثر.

- ما أريد قوله لا يوجد أية سلطة، باستثنائنا نحن الإثنين تقرِّر فيما إذا كان لهذه الحياة معنى أو ليس لها أي معنى، فكل شخص، نعم كل شخص مضطر لأن يعيش سواء وجد لحياته معنى أم لم يجد، ففي النتيجة هذا العادل الكبير يجعلنا متساوين.

- من هو هذا العادل الكبير؟!

- احزر.

- الموت.

- نعم الموت، فالشخص الذي يجد أن لحياته معنى أو يجد أنه لا يوجد لحياته معنى هو ذات الشخص الذي يتجه إلى حالة البحث عن معنى عندما يشعر أن حياته فاقدة للمعنى.

- يعني أنني ذهبت بنفسي إليك حين بدأت أشعر أن حياتي لا معنى لها، ولو لم آتي إليك وأطلب منك التحدث معي لما كنت سألتني قائلاً: «لماذا لا تمارس مهنة التعليم بهذه الطريقة أو بتلك؟».

- لا أعلم فيما إذا كنت سأتساءل أو أستفسر ولكن ما أعرفه هو: لو أنني جئت إليك دون أن تأتي إلي وتطلب التحدث معي وقلت لكَ: «هيا تعال لنضيف إلى حياتك معنى ولأحولك إلى معلم محارب» لكنتُ ابتعدتُ عن أسلوب العمل كمحارب، علماً لا أعتقد أنني وصلت حقاً إلى مستوى المحارب، ولهذا السبب لا تزال حياتي مليئة بالتساؤلات والاستجوابات. ولكن الحمد لله أنني أعرف أن هذا احتيال مني.

- ماذا تقصد بالاحتيال؟.

- صيغ التنصل من المسؤولية وإلقاء التهم على الآخرين وتحميلهم المسؤولية وقيام الأنا الموضوعي «ego» برمي التهم على الآخرين بغية التنصل من المسؤولية.

- إذن المحارب يسعى إلى التغيُّر ولكن تغيير الآخرين ليس من ضمن أهدافه.

- إذا أراد المحارب حقيقةً تغيير الآخرين فإنه يكتفي بتقديم إسهاماته في هذا الموضوع هذا كل ما في الأمر. فالمحارب إنسان نذر نفسه لكي يكون أفضل ما يمكن أن يكونه ضمن إطار المعنى الذي أعطاه لحياته.

وهذه التضحية لا تكون على المستوى الذهني وحسب، بل هي تضحية تشمل القلب والروح. فالمحارب قام باختياره بإرادة حرة وهو لذلك يتحمل مسؤولية المستقبل الذي نذر نفسه في سبيل تحقيقه ضمن إطار شخصية متكاملة. وهو ابتداء من اللحظة التي يختار فيها يعيش حياته بشكل استراتيجي ضمن إطار نية صافية، فكل فكرة يؤمن بها وكل عمل يقوم به يحمل بصمة الشعور بالمسؤولية والشخصية المتكاملة والنية الصافية.

- حسناً والآخرون، أليسوا جزءاً من هذه اللوحة؟.

- كما أنا وأنت أجزاء من هذه اللوحة كذلك الآخرون يشكلون جزء من هذه اللوحة.

- كيف؟.

- يعرف المحارب أن التبعية جزء من حياته، لكنه هو الذي يختار الشيء الذي سيكون تابعاً له، فهو يجرى خياراً استراتيجياً بنية صافية.

- وكيف يمكن تطبيق هذا على العلاقة القائمة بيني وبينك؟.

- أنت حضرت وهذا كان خيارك. ولم يجبرك أحد ما على حضور الندوة التي أقمتها، أليس كذلك؟.

- كلا، حقيقة جئت بملء إرادتي... جئت بلهفة.

- وبملء إرادتك أيضاً تحدثت معي ولم يجبرك أحد أليس كذلك؟.

- كلا. انتظرت انتهاء الندوة، ولم يكن سهلاً عليَّ اختراق الازدحام والوصول إليك. ولكني كنت مصراً على الحديث معك.

- انتبه. خيارك هنا واضح وصريح ولا يوجد إجبار أو إكراه وأنا الذي اخترت الحديث معك. فأنا الذي اخترت أن يكون الحديث بعد انتهاء الندوة وأنا الذي اخترت أن يكون بيننا لقاءات مستمرة.

- وبذلك يكون كل منا اختار اتجاه التبعية الخاصة به. أهذا ما تريد قوله؟.

- نعم هذا ما أقوله.

- ولكنك لا تحاسب أو تستجوب المعلمين الذين لا يأتون للحديث معك.

- طبعاً أنا، كإنسان، لا أحاسبهم، بل أتقبَّلهم كما هم. ولكن إذا جاءني أحد منهم وطلب مني قائلاً: «تفضل لنشرب كأساً من الشاي أو تفضل لنتسامر أو لنتجاذب أطراف الحديث» فإنني لن أقبل دعوته. وأنا لا أرفض دعوتهم هذه لأنهم أناسٌ سيؤون أو لأن لديهم خطأ ما.

- ولماذا إذاً؟.

- لأنني أمتلك وعي الموت. ولأنني أعي أن لي في هذه الحياة عمر قصير.

تعالَ لأجرى لك هذه العملية الحسابية.

- عملية ماذا؟!.

- عملية حسابية حول ما تبقى من عمري في هذا العالم.

- ولكنك لا تعرف الساعة التي ستموت فيها.

- يمكنني تقدير ذلك اعتماداً على المتوسط الحسابي.

- هيا قدِّر إذن.

- إذا استمرت أحوالي الصحية والشروط التي أعيش فيها كما هي عليه الآن فإنني أخمّن أن أعيش حتى السابعة والثمانين. أنا مدرك أنني أعطيت رقماً مرتفعاً، فقد توفي والدي في الرابعة والثمانين من عمره وأمي أصيبت بالسرطان وتوفيت في الرابعة والأربعين من عمرها. وأخي الأكبر مني توفي في التاسعة والسبعين، ومهما يكن من أمر سنفترض أنني سأعيش حتى السابعة والثمانين من عمري.

- ولكن الأهمية ليست بعدد السنين وحسب بل هناك أيضاً الشهور والأيام.

- صحيح لنفترض أنني سأموت في اليوم نفسه الذي ولدت فيه.

- حسناً.

- أنا في الثانية والستين من عمري. فكم تبقى لي؟.

- لم أفهم.

- أقصد كم عاماً بقى لي في هذا العالم؟

- 25 عاماً.

- كم يوماً؟

أمسك السيد عارف قلماً وورقة وضرب ب/ 365 /.

- /9125/

- هذا يعني أنه بقى لي في هذا العالم الجميل تسعة آلاف ومئة وخمسة وعشرون يوماً.

- أنت أيضاً تتحدث كما تحدث دون جوان مع كارلوس.

ضحكنا.

- كم ساعة بقي لي؟.

- يمكننا معرفة ذلك من خلال ضرب /9125 /يوماً بأربع وعشرين ساعة (ضربها) ستكون النتيجة /219... / مئتان وتسعة عشر ألف ساعة.

- طبعاً أنا لا أملك حرية التصرف بهذه الساعات كلها كما أشاء وأرغب، فهناك وقت يمضي أثناء ذهابي وإيابي من العمل وكذلك هناك وقت أمضيه في الحمام وتناول الطعام والتسوق والنوم وهذه ساعات إجبارية لا بد منها.

- إذن يتبقى لكَ في اليوم من وقتك ثلاث أو أربع ساعات.

- وربما أربع أو خمس ساعات. وضمن هذه الساعات سأعيش حياة خاصة بي. فإذا ما جاء أحدهم وقدَّم لي دعوة بقوله: «تفضل يا أستاذي لنلعب طاولة النرد، تفضل لنشرب الشاي أو تفضل لنتسامر أو لنتجاذب أطراف الحديث» فإنني سأقبل أو أرفض وأنا مدركاً للوقت المتبقي لي. ضمن إطار هذا الوعي وهذا الإدراك انتقي خياراتي.

نظر السيد عارف إلى عيني وقال:

- لقد استوعبت الآن يا أستاذي وبصورة أفضل قيمة الوقت الذي أمضيناه سوية. لم أفكر من قبل بأهمية هذا الخيار.

- لا تنسَ أن هذا الاختيار تم دونما إجبار أو إكراه. إنه خيار خاص بي تماماً، أنفِّذه دون أن أفكر بـ«ماذا سيقول عني الآخرون» أو هل من المعيب فعل هذا أم لا »

- أفهم ذلك.

اقترحت على السيد عارف الجلوس قليلاً في الخارج. وبينما كنا ننهض تقدم النادل منا وقال لقد جاء المسؤول عن هذا المكان وبإمكاننا التحدث معه . وفعلاً تحدثنا مع الموظف ذي الوجه البشوش وأعطانا بعض المعلومات التاريخية المتعلقة بهذا المكان. وحسب المعلومات التي قدمها لنا عرفنا أن هذا المكان يُعرف باسم كظلرآغاسي[12] محمد آغا، حيث طلب

---

[12] - كظلر آغاسي: لقب يُطلق على كبير آغاوات الحرملك في العصور العثمانية.

هاجي محمد آغا، وهو أحد آغاوات دار السعادة في قصر توب كابي، من المعماري معمار سينان إنشاء هذه المدرسة.

وقد فُقدت اللوحة التي كانت معلقة على باب المدخل الرئيسي والتي كُتب عليها تاريخ الإنشاء واسم من قام به عندما أُجري ترميم شامل عام/1965 /. باختصار، لم يصل إلينا أي كتاب حول تاريخ إنشاء هذه المدرسة ولكن يُعرف من مصادر أخرى أنها أُنشئت عام /988 /هجرية(158. ـ 1581 ميلادية) وعُيِّن أول مدرس فيها عام /99. /، وقد وضعت عام /1989 / تحت تصرف اتحاد الكتاب.

شكرنا الموظف على هذه المعلومات التي قدمها لنا، ثم جلسنا خارج المدرسة على أحد المقاعد الملاصقة للجدار والمطلة على الطريق. لفت انتباهي رجل ذو لحية بيضاء يشرب كأساً من الشاي ويقرأ كتاباً وضعه أمامه ثم يدوّن ما يقرأه في دفتر موجود بين يديه. أدركت أن هذا الشخص من الناس الذين يضفون لوناً جميلاً على استانبول. المحلات والمطاعم الموجودة أمامنا أُشيدت من أجل السيَّاح، وكأن هؤلاء لا يأتون لرؤية تركيا المعاصرة بل يأتون إلى متحف عثماني، وكأنه يتم خلق عالم سياحي منسلخ عن تركيا.

❖ وعي خاص:

عُدنا إلى حديثنا من جديد. قلت:

- إدراكي ووعيي عبارة عن عملية أساسية تحدد وجودي. هذه هي النقطة التي وصلنا اليها، وأما الآن فسنتحدث عن وعي خاص سنطلق عليه مصطلح «حدود الأنا».

- أليست هي الأنا التي نعرفها؟!.

- نعم نطلق على هذا المصطلح تقنياً في علم النفس اسم «الأنا

الموضوعي»/ego / ففي حديثنا السابق عن الأنا استخدمناها على أنها الأنا الموضوعي ولهذا سنكتفي هنا باستخدام مصطلح الأنا فقط. أرجو أن تحاول الإصغاء دون الوقوف عند المصطلحات التقنية.

- حسناً.

- حدود الأنا هي التي تعرِّف علاقات هذه الأنا مع البيئة، وبهذا المعنى سأستخدم هذه الحدود، وكما تَعرف الحدود هي التي تعرِّف وتحدد شيئاً ما، وتحدد أين ينتهي هذا الشيء وأين تبدأ حدود الأشياء الأخرى، كما تحدد العلاقة بين هذا الشيء وبين محيطه وبيئته، فإذا كان هذا الشيء راضياً عن حدوده فإنه سيسعى للبقاء ضمنها. وأما إذا أراد توسيع حدوده فهذا يعني أنه غير راضٍ عن هذه الحدود، أي أنه يعيش حالة عدم اشباع أو عدم رضا، وحالة عدم الرضا هذه هي التي تقف وراء سعي الفرد لتغيير نفسه وبيئته.

- إذن ثمة إدراك أو وعي بإزالة حالة عدم الرضا التي تقف وراء عملية التغيُّر أليس كذلك؟!.

- لقد تحدث فريدريك بيرلس مؤسس مدرسة الجشتالت في العلاج النفسي مطولاً حول هذا الموضوع وقد أتينا على ذكره فيما سبق.

- عن أي موضوع تحدَّث؟.

عن موضوع الحدود وحالة عدم الرضا، فحسب بيرلس أول حدود ندركها هي تلك التي نحددها بواسطة الجلد أي التمييز بين تلك «التابعة لي» والموجودة تحت جلدي و«الأخرى» الموجودة خارجه، وبعد ذلك أبدأ بالتمييز على الصعيد النفسي بين الأشياء «التابعة لي» والأشياء الأخرى الواقعة خارجي. **وضمن هذا السياق يتم اكتساب مصطلحي التماثل والتمايز معناهما.**

- وماذا تقصد بالتمايز يا أستاذي؟.

- التماثل أو الهوية هو مجموعة العناصر التي تستخدمها في الرد على سؤال «من أنا؟». فأن أكون أباً لأولادي أو كاتباً أو عالم نفس أو رجلاً أو طالباً جميعها عناصر موجودة في تماثلي، طبعاً يوجد في تماثلي العديد من الأشياء يمكن إضافتها إلى هذه القائمة.

- أن أكون معلماً يعد واحد من أقوى العناصر الموجودة في تماثلي.

- نعم، ولهذا السبب دخلت في عملية البحث ولهذا السبب أيضاً بدأت هذه العملية، وأشير هنا إلى أن حدود العناصر التي تشكل تماثلنا قد تكون واسعة وقد تكون ضيقة.

- كأن أمارس مهنة التعليم وأنا أفكر بالطلاب الموجودين في مدرستي أو الموجودين في بلدي.

- أو الموجودين في العالم.

- لكنني لا أعرف لغة أجنبية.

- هذا ليس موضوعنا، نتحدث الآن عن الحدود والمثال الذي قدمته صحيحاً للغاية، إذ يمكن للحدود أن تكون ضيقة ويمكن أن تكون واسعة.

- تتغيُر معرفتي بذاتي وبحدودي حسب ضيق هذه الحدود أو اتساعها.

- بالتأكيد. فكل ما هو موجود ضمن حدودي يكون مرتبطاً بي أنا: صديقي وقريتي ومعارفي، وبذلك إذا اكتفيت بتعريف نفسك على أنك تمارس مهنة التعليم في مدرستك يكون الطلاب الذين تقول بأنهم «طلابي» هم أصدقاؤك ومقرَّبون منك وأما «الطلاب الآخرين» فإنهم موجودون خارج نطاق طلابك ومشاكلهم لا تهمك كثيراً.

- وإذا عرَّفت نفسي على أني أمارس التعليم على طلاب هذا البلد فسيقع «طلاب بلدي» جميعهم في ساحة اهتمامي ولن أهتم بمشاكل البلدان الأخرى.

- كما ترى، المصطلح الأساسي هو «مع من أماثل ذاتي ما هي الأشياء التي أراها ضمن حدودي»

- أرى ذلك بوضوح.

- أنظر بإيجابية إلى كل ما هو موجود داخل حدودي فكلهم جميلون وجيدون ومحقون وجميعهم على صواب، فالجندي الذي يقع ضمن حدودي بطل وإذا مات فهو شهيد وأما الجندي المعادي فهو جبان وقذر وإذا مات أعتبره مجرد «قتيل».

- في هذه الحالة يعينني هذا المصطلح على معرفة الحدود التي سأعرِّف ذاتي ضمنها وعلى معرفة من سأنظر إليه بعين الصديق ومن سأنظر إليه بعين العدو.

- نعم، وأما التمايز فهو الوجه الآخر للتماثل، فالتماثل هو مجموعة «العناصر التي تجعلني أنا» وأما التمايز فهو مجموعة «العناصر التي تجعل من المختلف عني (آخر)»

- أعلم بأنك لا تريدني أن أطرح عليك هذا السؤال ولكنني حتى الآن لم أعرف ما علاقة كل ما نتحدث به بعملية التحول إلى محارب.

- الآن سندخل إلى هذا الموضوع.

- إذن سنقف عند العلاقة بين موضوع التغيُّر وموضوع التحول إلى محارب أليس كذلك؟!.

- نعم بداية أحب أن أذكرك بأمر هام وهو أن المحارب إنسان تمكن من تحقيق التوازن على قطبي التبعية وتحقيق الذات دون الانزلاق إلى أيٍّ قطب منهما، لا شك أنك تذكر هذه النقطة، ولكن الأهم من التذكر هو أنك تفهم هذا الموضوع أليس كذلك؟!.

- سأقول لك كل ما فهمته وأنت قل لي إن كنت فهمت جيداً أم لا.

- حسناً.

- التبعية جزء لا يتجزأ من حياتنا الاجتماعية، ففي حياة كل إنسان تبعية ما، لأنه يعيش ضمن مجتمع وتُسند إليه أدوار اجتماعية مختلفة «أب أو أم أو معلم أو جار أو ابن أو عم أو خال» وهو مضطر لأن يعيش هذه الأدوار، فعندما يكون الجنين في بطن أمه يكون تابعاً لها وعندما يولد سيكون ولا شك «ابناً» لأحد ما، فلديه أب ولديه أم فالتبعية جزء لا بد منه للحياة.

- هذا صحيح. وتحقيق الذات؟.

- يدرك الفرد وجوده ضمن فينوميناته الشخصية-انتبه للمصطلحات التي تعلمتها- فهو يدرك بأن هذه الإدراكات والأحاسيس والأفكار هي إدراكاته وأحاسيسه وأفكاره.

- لقد لامست الموضوع ضمن إطار الفلسفة الوجودية، أي أن الفرد يبدأ من خلال إدراكه لأحاسيسه وأفكاره.

- أجل. وبذلك يكون هناك وعي ناجم عن التبعية، أي أن ثمة وعي يسأل عمّا يجب أن يشعر به وما يجب أن يفكر به وما يجب أن يفعله على اعتباره أباً أو معلماً ومن جهة أخرى لدى كل فرد إحساس وفكر خارج حدود الأبوة والأمومة والتعليم. كيف وجدتني؟ هل تراني فهمت الموضوع جيداً؟!.

- ممتاز. يمكنك تحقيق تماثلك مع عناصر التبعية ضمن إطار التبعية ـ تحقيق الذات، فأنت على سبيل المثال تستطيع تحقيق تماثل مبني على الأدوار الاجتماعية

- وبذلك أكون شخصاً يجيب على سؤال «من أنا» بقوله: «أنا معلم»، «أنا مسلم»، «أنا ابن فلان» أو أستطيع الإجابة على سؤال «من أنا؟» متخذاً من عواطفي وأحاسيسي وأفكاري منطلقاً لجوابي، وبذلك أستطيع أن أعرِّف نفسي بالقول: «أنا من يريد تحقيق كذا» أو «أنا من يريد الوصول إلى منصب كذا».

- نعم وعندما تريد تفضيل أحد هذين القطبين أكثر من الآخر تكون

قد رسمت حدود تماثلك حسب هذا القطب الذي فضّلته، ففي المثال القائم على التبعية ستتحول الأحاسيس والعواطف والأفكار المتعلقة بتحقيق الذات إلى «آخر» وستشعر بالتمايز عن الأشياء المتعلقة بتحقيق الذات،

– يا إلهي بتُّ أرى أهمية الحدود أكثر من أي وقت مضى. ويصحُ عكس ذلك أليس كذلك؟

– نعم. فإذا ما رسمت حدودك من خلال تمايزك مع قطب تحقيق الذات فسيكون لديك ردود فعل تجاه كل الأشياء المتعلقة بالتبعية، وتجاه الأشياء الناجمة عن الحياة الاجتماعية. وستشعر بتمايزك واغترابك عنها.

– وكيف يحل المحارب مشكلة كهذه؟!.

– أثناء قيام المحارب بعملية التماثل يمرُ بعملية تحوُل.

– وكيف يتم هذا التحوُل؟.

– خلال قيام المحارب بتعريف حدود «الأنا» الخاصة به يوازن بين قطبي التبعية وتحقيق الذات، وبذلك لا يهمِّش الحياة الاجتماعية من جهة ومن جهة أخرى لا يشعر بالتمايز أو الاغتراب عن الأشياء النابعة من جوهره.

– وهل هذا هو التحوُل.

– لا، ليس هذا هو التحوُل، فالتحوُل يبدأ مع الانتقال إلى ما بعد الأنا.

– وماذا يعني الانتقال إلى ما بعد الأنا؟.

– تحدثنا فيما سبق عن «الأنا المراقِب» هل تذكر؟.

– طبعاً أذكر.

– انعطاف المحارب يتحقق بالوصول إلى الأنا المراقِب.

– أعتقد أنه عليك تفسير هذه النقطة أكثر.

– أعرف هذا يا سيد عارف، فهذا المصطلح ليس سهلاً وأستطيع شرح هذا التحوُل مدعماً بالأمثلة التي علّمها دون جوان لكارلوس.

يستخدم دون جوان مصطلح الإعجاب بالنفس ونظرة الإنسان إلى نفسه على أنه إنسان هام جداً، ويعني بذلك حسبما فهمت، « التمركز حول الأنا » ورؤية كل شيء وتفسيره ضمن إطار الأنا الموضوعي وإعطاء معنى للكون حسب علاقته مع الأنا الموضوعي الخاص به فدون جوان يريد استخدام مصطلح «الإعجاب بالذات» محافظاً على مصداقيته مع علم المصطلحات terminolgie التي يستخدمها.

- حسناً وأنا سأصغي لما ستقوله ضمن إطار هذا المعنى.

- جيد اتفقنا. كان دون جوان يستخدم هذا المصطلح كثيراً أثناء حديثه مع كارلوس. وكان يقول:

«الإعجاب بالذات يفسد الإنسان ويجعله فجاً ومغروراً. ولكي يكون الإنسان حكيماً يجب أن يكون دمثاً وخفيف الظل.

«بينما كان دون جوان وكارلوس يسيران في نزهة على المرج راح كارلوس يبدي غضبه تجاه كل شيء، انعكس الغضب على مشيته ونظراته.

وعندما رآه دون جوان راح يقهقه بصوت عالٍ. وكلما كانت قهقهات دون جوان تعلو كان غضب كارلوس يزداد. بعد ذلك جلس دون جوان وراح يردد أغنية مكسيكية مقلداً أحد المغنين وهو يمد نبرات صوته وكأنه يبكي، وبالرغم من الغضب الذي كان يتملك كارلوس فقد بدأ يضحك إذ لم يتحمل هذا الموقف الساخر الذي نجم عن طريقة أداء دون جوان للأغنية ثم دار بينهما الحديث التالي:

«أرأيت لقد أضحَكَتك هذه الأغنية السخيفة غير

أن هذه الأغنية ليست سخيفة بالنسبة للذي يؤديها وبالنسبة للذين يدفعون نقوداً كي يستمعوا إليها «فسأله كارلوس: «وماذا تقصد؟»

«أنت تتعامل بجدية مع أشياء لا يمكن لإنسان عاقل أن يتعامل معها إذ أنك أنت أيضاً، كما المغني الذي يغني هذه الأغنية وكما الذين يستمعون إليها، تتعامل بجدية مع عالمك المضحك الخاص بك».

ثم أردف قائلاً: «إذا كنت تريد التعلم عليك أن تتخلى عن إعجابك بنفسك، إنك معجب بنفسك كثيراً. لقد أقنعت نفسك بأنك مهم جداً. يجب أن تغيّر هذه النظرة فلقد تحولّت بنظر نفسك إلى إنسان مهم لدرجة أنك بت تعطي لنفسك الحق بأن تغضب من كل شيء يصادفك وتشعر بأنك مهم لدرجة أنك تهدد هذا العالم بمغادرته إذا لم يصبح كما تحب وترغب. أنت تنظر إلى نفسك على أنك إنسان ذو شخصية وموقف وتتصرف على هذا النحو لأنك تشعر بهذا ولكن لا معنى أبداً لتفكيرك بهذه الطريقة، لأنك إنسان ضعيف ومعجب بنفسه لدرجة الغرور.

حاول كارلوس الاعتراض على ما يقوله دون جوان ولكن الأخير لم يعتذر بل على العكس واصل نبرته في الحديث قائلاً: «انظر إلى حياتك، فأنت لم تنهِ أي عمل بدأته. لماذا؟ لأن هذا الإعجاب بالذات الملعون الذي تشعر به يمنعك من بذل الجهد لإنجاز أي عمل، فأنت

ترى نفسك هاماً جداً لدرجة أنك لا تستطيع تحقيق أي شيء من خلال العمل وبذل الجهود.

لا يجد كارلوس أي كلمة يقولها أمام هذه اللهجة الحادة والحاسمة والواقعية التي تطغى على حديث دون جوان، ولأن كل ما قاله دون جوان صحيحاً فقد كان غضب كارلوس يزداد من جهة ومن جهة أخرى يشعر أنه يتعرض للتهديد.

يقول دون جوان: «يجب أن تتخلى عن إعجابك بنفسك» ثم ينطلق وهو يزيد سرعته شيئاً فشيئاً وهذا ما أجبر كارلوس على زيادة سرعته. وعندما توقفا عند منطقة صخرية بعد ساعة من المسير، كان غضب كارلوس قد تلاشى تماماً. فيقول: «يا للعجب لقد تلاشى غضبي تماماً فأنا لا أشعر بالغضب» فيقول دون جوان: «العالم الذي نعيش فيه غامض جداً ومليء بالأسرار» ثم يردف قائلاً: «هل أنت مستعد للحديث حول موضوع الإعجاب بالذات؟» ويتابع قائلاً: «طالما تعتقد بأنك أهم شيء في هذا العالم فلن تتمكن من إدراك وفهم هذا العالم الذي يحيط بك، إنك أشبه ما تكون بحصان معصوب العينين ترى أنك مختلف وأهم من كل شيء».

بعد ذلك يشير إلى نبتة صغيرة ويقول: «سأتحدث مع صديقتي الموجودة هناك» ويتجه نحو النبتة الصغيرة. يجلس القرفصاء أمامها ويداعبها ثم يبدأ حديثه معها. بداية يتحدث بلغة لم يفهمها كارلوس وبعد ذلك يتحدث باللغة الإسبانية. يخاطب النبتة بعدة كلمات لا معنى لها

ثم ينهض: «ليس مهماً ما تقوله لهذه النبتة إذ يمكنك اختلاق الكلمات التي تريدها ولكن المهم هو شعورك بالمحبة تجاهها والأهم من كل هذا هو شعورك بأنكما متساويان» ثم يؤكد على ضرورة أن يعتذر الذين يجمعون النبات قبل قطفه وأن يقولوا له بأنهم ذات يوم سيقدمون أجسادهم طعاماً له، ثم يقول: «النتيجة التي يجب التوصل إليها تفيد بأننا والنباتات متساويان. فلا نحن أهم منها ولا هي أهم منّا» ثم يلح على كارلوس قائلاً: «هيا تحدث مع هذه النبتة الصغيرة وقل لها بأنك لم تعد معجباً بذاتك.

يذهب كارلوس إلى النبتة ويركع أمامها ولكنه لا يستطيع التكلم معها بأي حال من الأحوال، لأنه يعتبر أن الركوع أمام النبتة والحديث معها نوع من الهراء، ولكنه يدرك تماماً أنه لم يبقَ في نفسه أي أثر للغضب الذي كان يشعر به. يربِّت دون جوان على كتفي كارلوس ويقول له إن عدم شعوره بالغضب خطوة هامة على طريق التغيُر ثم يقول: «من الآن فصاعداً تحدَّثْ مع النباتات الصغيرة، واصل حديثك معها حتى تصل إلى حالة تستطيع فيها الحديث مع هذه النباتات بأريحية حتى وإن كان يوجد حولك أناس آخرون». ثم يشير إلى التلال التي إلى جانبه ويقول: «اذهب إلى تلك التلال. وهناك تحدّث مع النباتات الموجودة فيها بمفردك».

فيسأله كارلوس: «ألا يمكن أن أتحدث مع تلك

النباتات بصمت؟» يضحك دون جوان لدى سماعه هذا السؤال ويضرب على رأس كارلوس برفق ثم يقول: «لا، يجب أن تتحدث معها بصوت عالٍ وبوضوح وصراحة، وعكس ذلك لن تردَّ عليك».

يذهب كارلوس إلى المكان الذي أشار دون جوان إليه، وهو يضحك من غرابة سلوك دون جوان، ولكن بعد وصوله يجد أن الموقف مضحكٌ جداً لدرجة أنه لا يستطيع التحدث مع النباتات.

بعد انتظار فترة من الزمن يعود كارلوس إلى المكان الذي يقف فيه دون جوان. يقترب منه وهو على ثقة بأن دون جوان يعلم علم اليقين أنه لم يتحدث مع النباتات. لم ينظر دون جوان إلى وجه كارلوس بل يدله إلى مكان بجواره لكي يجلس فيه ويقول له: راقبني جيداً، سأتحدث الآن مع صديقتي الصغيرة».

يجلس إلى جوار نبتة صغيرة وينحني عليها ويحدثها ويضحك». اعتقد كارلوس لفترة أن دون جوان قد فقد عقله. حين كان دون جوان يهمُّ بالنهوض يقول لكارلوس: «قالت لي صديقتي النبتة الصغيرة بأن أكلها مفيد للصحة، فإذا ما أكل الإنسان منها باقة صغيرة ستكون مفيدة لصحته وقالت لي بأنه يوجد إلى الأمام حديقة مليئة بمثيلاتها من النباتات».

ثم يشير دون جوان إلى حديقة تبعد مئة وخمسين متراً. ويقول: « هيا لنذهب ونعثر عليها». يضحك كارلوس من أطوار دون جوان المخادعة ويحدِّث

نفسه قائلاً: «طبعاً دون جوان يعرف هذه المناطق كما يعرف راحة يده. ولهذا سنجد هناك هذا النوع من النباتات.

يطلب دون جوان من كارلوس الانتباه جيداً لهذه النبتة فهي صالحة للأكل من جهة وهي عشبة طبية من جهة أخرى. فيقول كارلوس بنبرة ساخرة: «النبتة أيضاً هي التي أخبرتك بهذه المعلومة أليس كذلك؟» فينظر دون جوان إلى كارلوس نظرة إنسان لم يصدق ما سمعته أذناه ثم يهز رأسه يميناً وشمالاً ويضحك قائلاً: «إن مكرك يجعلك أحمقاً أكثر مما أتوقع، إذ لماذا تخبرني هذه النبتة بمعلومة عرفتها طوال حياتي؟» وعندما يصل إلى السفح يطلب دون جوان من كارلوس تقديم الشكر للنباتات. ولكن كارلوس يشعر أن الموقف مضحك للغاية ولهذا لا يستطيع تقديم الشكر للنباتات بصوت عالٍ.

يردد دون جوان عبارة أشبه ما تكون بالأحجية فيكررها كارلوس عدة مرات لكي يتسنى له فهمها والتفكير بها:

«العالم الذي يحيط بنا مفعم بالأسرار، ونحن البشر لسنا أفضل من أي شيء كما أننا لسنا أسوأ من أي شيء، فإذا عاملتنا إحدى النباتات بكرم وجود يجب علينا تقديم الشكر لها، وإلاَّ فقد لا تسمح لنا بمغادرة هذا المكان».

عندما يلفظ هذه العبارة يرمق كارلوس بنظرة

تصيب كارلوس بالقشعريرة فينحني بخوف على النبتة ويقول لها: «شكراً لكِ» بصوتٍ عالٍ.

فيضحك دون جوان بصوتٍ عالٍ.



كان السيد عارف يصغي باهتمام لما أتحدث به ثم قال: «دوان جوان معلم ساحر وقديرٌ جداً» وأردف يقول: إن طلبه من كارلوس التكلم مع النباتات عبارة عن اكتشاف عبقري» فقلت له: «معك حق فلقد ألفَتْ ثقافتنا كثيراً مصطلح التخلي عن الإعجاب بالذات ولم يكن من المصادفة أن يُتْرك الذين كانوا يذهبون إلى تكايا الدراويش لكي يصبحوا طلاباً فيها، على الأبواب لمدة أيام أو أسابيع قبل أن يُسمح لهم بالدخول إلى التكية، حيث يملُّ المعجبون بذاتهم من الانتظار فيغادرون ولا يبقى إلاَّ الذين حضروا لكي يصبحوا طلاباً بالفعل. وبعد أن يتم قبولهم يُطلب منهم القيام بأقذر المهام وأوسخها وعندما يصلون إلى مرحلة يمتنعون فيها عن التذمر والشكوى، مهما كان شكل المهمة المكلفين بها أي عندما يصلون إلى حالة يستطيعون فيها القيام بأي عمل دون شكوى أو تذمر يتم قبولهم طلاباً في التكية. هذا الأسلوب يحمل معنىً عظيماً من هذه الناحية.

عدنا من جديد إلى حديث دون جوان مع كارلوس:

- أتعرف يا سيد عارف أن دون جوان كثيراً ما كان يطرح على كارلوس السؤال التالي: «**كيف يمكن للإنسان أن يعجب بنفسه في عالم مجهول يُحتمل مجيٌ الموت فيه في كل لحظة؟» وينصحه دائماً بالتخلي عن إعجابه بنفسه.**

ذات مرة يتحدث كارلوس مع دون جوان ويخبره بأنه لم يحب أحداً

محبة حقيقية ولم يحترم أحداً في حياته حتى أنه لا يحب نفسه ولا يحترمها. وقد كان الجواب الذي رد به دون جوان غريباً ومثيراً: «**نعم أستطيع أن أتوقع بأنك لم تُكن لنفسك حباً حقيقياً**» وبعد ذلك يطلب منه ألاَّ يندم على أي شيء فعله، لأن وصف الإنسان سلوكه بأنه سيئ وقبيح وهدام وشعوره حيال ذلك بالندم نابعٌ من إعجابه بنفسه دون أي مبرر.

نظر السيد عارف إلي مبتسماً وقال: «لم أفكر أبداً بهذا الموضوع» وأردف قائلاً: «أتعلم يا سيد دوغان أن هذا الكلام صحيح مئة بالمئه. فالإنسان الذي يشعر دائماً بالندم والذنب هو إنسان مغرور ومعجب بنفسه وأنا لم أفكر بهذا الموضوع أبداً» فقلت له بأنني أنا أيضاً لم أفكر في هذا الموضوع، ثم خطر على ذهني عكس الشعور بالذنب وهو مديح الذات: ثم فكرّت بالفلسفة التاوية. كم كانت على حق، فقد كان ثمة إعجاب بالنفس في أساس مديح الذات وعندما يذهب الإعجاب بالنفس يذهب الاثنان معاً.

- اكتشفت والسيد عارف هذا الموضوع في اللحظة ذاتها تقريباً، وكنا أنا وهو، نفكر بأننا اكتشفنا أمراً هاماً.

سألت السيد عارف فيما إذا كان يشعر بالذنب كثيراً فقال:

- ليس كثيراً، ولكن هناك أشياء كثيرة أشعر حيالها بالندم. وأنت؟.

- وأنا أيضاً لطالما كان الندم والشعور بالذنب من الضيوف الذين يترددون عليَّ كثيراً، ولكنني لم أكن أعتقد في أي وقت من الأوقات بأن إعجابي بنفسي هو الذي يقف وراء شعوري بالندم وشعوري بالذنب.

- هل أصبحت على معرفة بذلك؟.

- نعم، ولكن عندما كنت أغضب كنت أعلم أن إعجابي بنفسي هو الذي يقف وراء غضبي.

- هل الإعجاب بالنفس يقف وراء كل شعور؟.

- سؤالٌ جميلٌ، لنطرحه على دون جوان.

- هل كنت ترغب بالحديث مع دون جوان يا سيد دوغان؟.
- لا أعتقد أن الحديث مع دون جوان سيكون ذا معنى.
- لماذا؟.
- لأنه رجل عملي ورجل ممارسة. وإنني لعلى ثقة بأنه لن يرضى عن إلتقاء شخصين مثلنا يجلسان في مكان ما ويناقشان موضوعاً ما، لأن أسلوبه قائم على وضعنا في موقف ما، ثم مراقبتنا عن بُعد ليرى بوضوح إلى أي مرحلة وصلنا في تعلمنا وما هي الأمور التي لم نتعلمها.
- ولماذا لا تعلمني بهذه الطريقة؟.
- ألماذا لا أعلمك ضمن جوٍّ عمل؟.
- كما فعل دون جوان مع كارلوس.
- يا سيد عارف، دون جوان معلم عظيم فإذا ما قرأت كافة كتب كارلوس ستعرف أن دون جوان حكيم هندي أحمر يمتلك قوى خارقة، أما أنا فلا يحق لي أن أصب ماءً على يده لأنني لم أصل إلى مستواه.
- أستغفر الله يا أستاذي.
- لا لا، أنا لا أقول هذا الكلام لمجرد الحديث، إذ لا يوجد في حياة دون جوان أي عمل لم يُنجز. فلقد أنجز كل ما يجب عليه إنجازه، ولا يوجد في حياته ندم أو خوف أو غضب أو ليت. إنه نقي وصافٍ، إنه محارب بكل ما في الكلمة من معنى، وأما أنا فحياتي مليئة بالندم والخوف والغضب والأمنيات. أتعرف ما هو الاختبار الذي أراه مهماً جداً بالنسبة لي؟!.
- أي اختبار؟!.
- اختبار يبيّن المستوى الذي وصلت إليه في حل مسألة الإعجاب بالذات.
- وكيف ستختبر ذلك؟.
- بالذهاب إلى مطعم لا يعرفني أحد فيه. وليكن هذا المطعم من

المطاعم التي يرتادها المغرورون والمعجبون بأنفسهم، على أن لا يعرفني صاحب المطعم أو العاملون فيه أو الزبائن.

- هل تتشوق لمعرفة ما ستشعر به بينهم؟.

- كلا. بل سأعمل نادلاً في هذا المطعم، على أن يعاملوني كما يعاملون أي نادل عادي، وأن ينظروا إليّ كآلة سيتم رميها بعد استخدامها. وإذا خدمتهم لا يشكروني بل حتى لا ينظروا إلى وجهي، وأن يعاملوني انطلاقاً من فكرة أن كل ما أطلبه هو الإكرامية.

- حسناً، ما الذي سيحدث إذا عاملوك بهذه الطريقة؟.

- سأتأمل عالمي الداخلي. وعندما أصل إلى مرحلة تنتفي من داخلي كافة مشاعر الغضب والمحاسبة والدونية والتفوق، وقتها أكون قد خطوت خطوة جبارة على طريق النجاح.

- أليس من حقك أن تغضب إذا عاملوك بطريقة سيئة لمجرد أنهم يمتلكون النقود؟.

- لن أكون مستعداً للتحول إلى محارب طالما أنني أعتقد أن من حقي أن أغضب.

- هل يجب أن يكون المرء فارغاً تماماً؟.

- نعم، يجب أن يكون لا شيء.

- في حالة كهذه سيسحقونك.

- شعوري بأنهم يسحقونني سيكون تعبيراً عن إعجابي بنفسي. ولكن إذا أوصلت إعجابي بنفسي إلى مستوى الصفر أكون قد خلقت في حياتي إمكانيات التحول إلى محارب.

أمسكت بالكتاب السابع[13] لكارلوس وشرعت أقرأ مقطعاً كنت قد أشرت إليه من الصفحة 128:

---

[13] CARLOS CASTANEDA: THE FIRE FROM WITHIN POCKET BOOKS NEWYORK 1984

«المحاربون مستعدون للوصول إلى حالة إدراك ذاتهم، ولا يمكن أن ينجحوا في هذا إلاً عندما يتخلون تماماً عن إعجابهم بأنفسهم.

- كما ترى، الإدراك هو الهدف الأساسي للمحارب والإعجاب بالنفس من أكبر العراقيل التي تمنع حدوث الإدراك.

- أكبر عدو.

- أحسنت يا سيد عارف. الآن فهمت لماذا يطلق على المحارب هذا الاسم.

- لأن المحارب يعيش صراعاً كبيراً مع الإعجاب بالذات ومع الأنا الخاص به.

- هؤلاء ألد أعدائه.

- لا شك يا أستاذ بأنك خضت هذا الصراع ولكن لم تحقق نجاحاً تاماً في هذا الصراع.

- نعم، فعلاً لم أنجح ولكني لم أتخلَّ عن النضال ولن أتخلى عنه طوال حياتي.

- وكيف ستعرف فيما إذا حققت النجاح أم لا؟!

- عندما تتطهَّر حياتي من الإعجاب بالنفس والأنا الموضوعي والخوف والغضب والغيرة والحزن، هذه الصفات التي تشكل أساساً للإحساسات السلبية.

- والحزن أيضاً؟!.

- نعم، فلقد ذكره دون جوان لكارلوس بكل وضوح وصراحة:

«الإعجاب بالذات يقف وراء الوقوع في نوبة السوداء (مالنخوليا) فالمحارب أيضاً يشعر بالحزن ولكنه يستخلص من هذا الحزن قدرة على السخرية والضحك».

اقترحت على السيد عارف أن نتمشى قليلاً. فبدأنا السير باتجاه متحف توب كابي، الذي ذهبنا إليه قبل أسبوع. لم يكن سهلاً الحديث أثناء المشي ولكن من جهة أخرى شعرنا بالملل من الجلوس في المكان نفسه. وصلنا إلى نهاية شارع جعفرية، ثم أنعطفنا إلى اليمين، لم أرَ حتى الآن اللوحة التي كُتب عليها اسم الشارع الذي دخلنا فيه، تم الاعتناء بالمنازل الموجودة على طرفي الشارع بشكل جيد حيث زرعت ألوان وأشكال مختلفة من الأزهار والورود أمامها. مرَّ من أمامنا شابٌ وفتاتان، انحنى الشاب وقطف وردة وقدمها للفتاة التي تسير على يمينه. لم يكن الشاب منزعجاً من قطف هذه الوردة كما لم تكن الفتاة منزعجة من أخذها حين قُدِّمت لها. إلى الأمام قليلاً قرأنا اسم الشارع على اللوحة المعلقة على أحد الجدران الموجودة على يمين الشارع: شارع صوغوك شيشمة. بعد هذه اللوحة وعلى يمين الشارع وجدنا مقهىً فارغاً تماماً تابع لهذه المنازل التي حُوِّلت إلى بنسيون. عندما مررنا من أمامه رأينا نادلاً شاباً يرتِّب الكراسي.

لا يوجد أية حركة مرورية في شارع صوغوك شيشمة وهذا ما جعلنا نواصل حديثنا بكل أريحية.

بداية طرح السيد عارف سؤالاً:

❖ التغيُّر والمحارب:

- سيد دوغان، تحدثنا في لقائنا اليوم عن موضوع التغيُّر. وحسبما فهمت تمحور حديثنا حول تغيُّر يؤدي إلى تحويل الإنسان العادي إلى إنسان محارب. وسؤالي الآن: لماذا التغيُّر من أجل التحول إلى محارب؟.

- أنا أيضاً لدي سؤال سأطرحه عليك: لماذا تريد أن تصبح معلماً؟.

- لأنني أجد أن التعليم ذو معنى وإذا ما أصبحت معلماً ستصبح حياتي أيضاً ذات معنى.

- ومن أعطى هذا المعنى للتعليم؟ لا أعتقد أن والدك أو والدتك هما من أعطياه هذا المعنى.

- طبعاً ليس أبي أو أمي من أعطاه هذا المعنى، حتى زملائي المعلمين لم يقرروا هذا، إنه قرار صادر عني أنا.

- حسناً ولكن ما الذي يجعل التعليم ذا معنى بالنسبة لك؟.

- عندما أفكر بهذا الموضوع آخذاً كافة الأبعاد والجوانب بعين الاعتبار أجد أن التعليم مهنة تعطي لحياتي معنى أكثر من باقي المهن.

- ولكنك لا تستطيع الشعور بهذا الأمر إلاّ داخل وعيك وداخل العالم الذي تدركه أنت. أليس كذلك.

- بالتأكيد. ولا سبيل آخر أمامي. لا يمكنني أن أفكر أو اتَّخذ قراراً حول هذا الموضوع إلاّ داخل وعيي أنا.

- حسناً. ما الذي يحاول المحارب تحقيقه؟.

- هذا ما أساله.

- كلا أنت لم تسأل بهذه الطريقة بل سألت: لماذا التغيُّر من أجل التحول إلى محارب؟ وأنا أسأل: ما الذي يحاول المحارب تحقيقه؟.

- ألا يعبِّران عن المعنى ذاته.

- وكيف ذلك؟.

- إذا كان سؤالي على الشكل التالي: «من أجل تحقيق أي شيء يجب أن أصبح محارباً؟» ألا أكون قد عبرت عن المعنى ذاته؟.

- ها .... الآن فهمت. نعم لهما المعنى ذاته. فلقد بدأ المحارب، حسب تعبير دون جوان، رحلته من أجل الإدراك الكلي للعالم ومن أجل الوصول إلى أعلى مستوى من تطور الوعي.

- أليس لهذا علاقة مع الوصول إلى الأنا المراقب الذي تحدثت عنه سابقاً؟

- أجل، هذا متعلق به. تحدثنا عن الأنا الموضوعي وتحدثنا عن الوجه الآخر لهذا الأنا وهو الإعجاب بالذات، وأما الأنا المراقِب فهو الأنا الذي استقر فيه إدراك المحارب.

- ولكنني حتى الآن لم أحصل على جواب لسؤالي، أو لأقل: لم أجد جواباً يرضيني، ما أقصده لماذا يتوجَّب عليَّ أن أصبح محارباً؟.

- يسعى المحارب إلى مواصلة حياته من خلال الوصول إلى أعلى درجة من التطور تمكِّنه من تطوير وعيه وعَيْشَ حياته ضمن هذا الإطار.

- ولكن لماذا؟.

- لأن العمل الأكثر معنى في حياته هو ذاك العمل الذي يؤمِّن له فرصة لتطوير وعيه.

- هذا يعني أن السبب الذي يجعلني أرغب بأن أصبح معلماً هو ذات السبب الذي يدفع المحارب لأن يكون محارباً.

- حسناً سأطرح الآن سؤالاً عليك: لماذا تريد أن تصبح معلماً ومحارباً في الوقت ذاته. وبالأحرى لماذا تريد أن تصبح معلماً محارباً؟!.

- يا أستاذي، هل تريدني أن أقدِّم أصدق وأوضح جواب على سؤالك هذا؟!.

- بالتأكيد. أرجوك.

- لأنك أنت ترغب بذلك.

- ألأني أرغب بذلك؟!!...

- أجل.

- إنك تمزح يا سيد عارف أليس كذلك؟

هزَّ السيد عارف رأسه مبتسماً وقال: «إن قلت لك بأنني لا أمزح أكون قد وقعت في تناقض مع كل ما تحدثنا به حتى الآن» وأردف يقول:

«التعليم هو قراري الأكيد ومصطلح المعلم المحارب هو الضمانة الأكيدة لممارسة التعليم بأنقى نية وبوعي ودون تردد. ثم تابع حديثه:

- قال أرسطو، على ما أذكر، إن جوهر الأشياء هو الذي يحددٌ نوعية التغيُر الذي سيطرأ على هذه الأشياء. وأنت تقول بأننا نطلق اليوم على هذا الجوهر مصطلح الطاقة الكامنة. وأقول أنا، ضمن هذا السياق، توجد في جوهر الإنسان رغبة بالتحول إلى محارب إذ لا يمكن للإنسان أن يفجِّر طاقاته الحقيقة إلاَّ إذا أصبح محارباً. وأما بالنسبة لسؤالي: «لماذا يجب أن أتغيَّر وأصبح محارباً؟» فأنا سأجيب عليه على الشكل التالي: «لكي أحقق كامل طاقاتي كإنسان».

- استطعتَ يا سيد عارف الربط بشكل جيد بين طاقة الإنسان والتحول إلى محارب. الإنسان العادي هو الذي يعيش الحياة التي يختارها له الآخرون لأنه لا يجرؤ على خلق حياة خاصة به ولهذا السبب لا يتمكن من تحقيق طاقاته.

- تحدثت عن الحياة الخاصة، تلك التي يمكن للإنسان أن يقول عنها: «هذه هي حياتي»، ضمن إطار روح المحارب فقط يستطيع الإنسان خلق حياة خاصة به. أليس كذلك؟!.

- أوافقك الرأي تماماً، لأنني أفكر كما تفكر. إذ لا يمكن للإنسان خلق حياة خاصة به إلاَّ ضمن إطار موقف المحارب.

- أحاول الآن يا سيد دوغان إيجاد رابطة بين الفلاسفة الذين تحدثت عنهم وبين موضوع تغيُر المحارب. فقد قال هيروقليطس على سبيل المثال: يحدث التغيُر كنتيجة طبيعية لصراع الأضداد. وقد وجَدَتْ هذه المقولة تعبيراًمختلفاًعند هيغل على شكل أطروحة وأطروحة مضادة وتركيب جديد وأما ماركس فقد فسَّر التاريخ ضمن إطار المنطق الدياليكتيكي.

- نعم ولكن كيف ربطت هذه الأفكار بعملية التحول إلى محارب؟.

- حسب معلوماتي، عنصر التبعية هو الأطروحة التي جاءت مع المحارب بالولادة، فقد كان تابعاً عندما كان لا يزال في بطن أمه وفي مرحلة الطفولة يبقى الإنسان تابعاً لأنه مرتبط بالآخرين وتابعاً لهم. وبعد ذلك يضطر للاعتراف بنفسه ضمن علاقاته مع الآخرين، والأطروحة المضادة لعنصر التبعية هي عنصر تحقيق الذات أو الاستقلالية التامة أي ما نطلق عليه مصطلح «الأنا» وفي هذه المرحلة ينزع الفرد إلى فعل ما يريده فقط دون الإهتمام بأحد.

- وفي كلتا الحالتين السلوك غير سوي.

- نعم في كلتا الحالتين السلوك غير سوي لأنهما لا تمثلان حقيقة الإنسان.

- هذا صحيح، لأن حقيقة الإنسان تتضمن الحالتين: التبعية من جهة وتحقيق الذات من جهة أخرى.

- يجب أن يوجد العنصران في آن واحد وهذا ما استطاع المحارب الوصول إليه، أي نجح في الوصول إلى التركيب حسب تعبير هيجل.

- هذا التركيب يمثل وعي المحارب، فثمة وعي مراقب يقف وراء التبعية من جهة وتحقيق الذات من جهة أخرى. ولذلك نستطيع أن نرى لدى هذا النوع من البشر تحقيقاً كاملاً لطاقة الإنسان.

كنا نشعر كلانا بلذة ومتعة هذا الاكتشاف الذي وصلنا إليه سوية.

توقفنا لفترة وكأننا نحاول استيعاب اكتشافنا.

بدأت الكلام قائلاً:

- يا سيد عارف لا يبدأ المحارب رحلة التحول بقوله: «أنا سأصبح محارباً».

- لم أفهم يا أستاذي، هل يمكنك تكرار ذلك؟.

- لا يبدأ المحارب رحلة التحول بقوله: «أنا سأصبح محارباً» أي أن

الإنسان يضع رجله على طريق التحول إلى محارب عندما يحاول إنجاز عمل ما في مجال ما على أكمل وجه. فإذا ما نذرت إحدى الأمهات نفسها في سبيل ممارسة أمومتها على أكمل وجه تكون قد وضعت رجلها على طريق التحول إلى محارب. قد لا ترى نفسها هكذا وقد لا تعطي نفسها هذا الاسم، ولكن «نذر نفسها في سبيل ممارسة أمومتها على أكمل وجه» سيدفعها للخروج من التبعية المطلقة ومن الاستقلالية المطلقة. وكلما وصلت إلى الوعي المراقب مع مرور الزمن سيتطور وعيها وكلما تطور وعيها ترى ضرورة تبنيها لنقاء نية المحارب ولمسؤوليته ولشخصيته المتكاملة.

- يمكن أن يقال الشيء نفسه بالنسبة لي أليس كذلك؟! أي أن «نذر النفس في سبيل ممارسة الأمومة في أرقى حالاتها» تشبه إلى حدٍ بعيد «نذر النفس في سبيل ممارسة التعليم في أرقى حالاته» أليس كذلك؟.

- أجل. ويمكن للمصرفي والدكتور والضابط والحرفي والمدير العام ورئيس مجلس إدارة شركة ما والموظف الحكومي أن يتخذوا ذات القرار.

- أي أن التحول إلى محارب عبارة عن وسيلة والمهم هو ما يريد الإنسان تحقيقه. هذا ما يبدو لي.

- بالتأكيد. فالتحول إلى محارب ضروري لكي ينجز الشخص عملاً ما على أحسن وجه. فالحياة المثلى والحياة النموذجية تتحقق ضمن إطار موقف المحارب.

- وجهة نظر كهذه تضع عملية التحول إلى محارب بأكملها ضمن رؤية مختلفة.

- من أي ناحية؟.

- أتحدث ضمن إطار ثنائية الوسيلة والغاية، فأنا، على سبيل المثال كنت أستمع لعملية التحول إلى محارب على أنها غاية بحد ذاتها، وأما الآن فإنني أنظر إليها كوسيلة من أجل خلق حياة مثلى.

- أفهم الآن ما تريد قوله ولكن ياسيد عارف لا تنسَ أنه لو تسنى لنا سؤال دون جوان عن رأيه في هذا الموضوع لقال: التحول إلى محارب هدف أساسي في الحياة وما مهنة التعليم والطب ومهنة الضابط إلاّ وسائل للعيش. فنحن نأتي إلى هذه الحياة لكي نتعلم كيف نصبح محاربين.

- أفهم ذلك يا أستاذي. ولكن هل كان دون جوان يؤمن بالتقمص أي بالعودة إلى الحياة من جديد؟.

- لا أعلم، فأنا لم أعثر على أي دليل يمكّنني من الإجابة بنعم أو لا، وأنا أفهم ما تريد قوله، فلا شك أن ثمة فكرة تدور في رأسك مفادها: هل ستواصل الروح ذهابها من الحياة وإيابها إليها حتى يتعلم صاحبها كيف يصبح محارباً.

- نعم هذا ما يشغل تفكيري.

- دعك من موضوع التقمص، ما أردته هو لفت النظر إلى اختلاف وجهات النظر حول موضوع التحول إلى محارب وفيما إذا كان المحارب هدفاً أم وسيلة. هل نحن متفقان حول هذا الموضوع؟.

- طبعاً. أرى أن هذا الموضوع يختلف حسب اختلاف وجهات النظر. أنا أرى التحول إلى محارب عبارة عن وسيلة وأما التعليم فإنه هدفي في هذه الحياة.

- هدفك هو ممارسة وظيفتك كمعلم. ولكنك تستطيع أيضاً رؤية سبب وجوب ممارستك هذه الوظيفة كمعلم محارب بكل وضوح.

- هذا واضح، يجب أن أصبح معلماً محارباً لكي أمارس مهنة التعليم على أكمل وجه ولكن الكلمة التي أضع تحتها خطاً هي كلمة معلم وليست كلمة محارب.

- جيد، اتفقنا. كنتَ قد سألتَ: ما هي الغاية من التغيُر والتحول إلى محارب هل تذكر ذلك؟.

- نعم أذكر.

- أعتقد أنه علينا الآن طرح هذا السؤال على الشكل التالي: ما هي الغاية من التغيُّر والتحول إلى معلم محارب؟

- إذا طرح السؤال بهذا الشكل سأرى الجواب واضحاً تماماً.

- بل يصبح الجواب أكثر سهولة.

- نعم، لكي أصبح معلماً من أرقى مستوى يمكن الوصول اليه.

إلى الأمام قليلاً يوجد سبيل السلطان أحمد. ولكن لا توجد عليه أي لوحة تُعرِّف به. جنديان من الدرك يناوبان على باب متحف قصر توب كابي. فوق السبيل كُتِبَتْ عبارة بالأحرف العربية ولكن لا أنا ولا السيد عارف استطعنا قراءتها. أغصان الشجرة المكسورة تساقطت في حديقة السبيل المحاطة بقضبان حديدية. ثمة شاب يلتقط صورة لفتاة، بعد أن التقط الصورة سأله السيد عارف قائلاً «عذراً، هل تعلم ما اسم هذا السبيل؟» فأجابته الفتاة: «والله، نحن أيضاً لا نعرف اسمه».

اقترحت على السيد عارف أن يكون لقاؤنا القادم في منزلي. ثم أرشدته إلى منزلي فرسمت له مخططاً على ورقة، بعد ذلك تصافحنا على أمل اللقاء في اليوم نفسه من الأسبوع القادم الساعة الثانية بعد الظهر.

9
أعمالٌ لم تُنجز

التقنيا في منزلي الواقع في منطقة جهانغير. باب المنزل الذي أسكنه يفضي مباشرة إلى غرفة الجلوس. لفتت إطلالة منزلي نظر السيد عارف حال دخوله البيت. إذ أن منظر المضيق يظهر بزاوية واسعة من غرفة الجلوس. فما أن تقف هنا حتى يظهر أمامك بكل وضوح متحف توب كابي ونهاية بحر مرمرة وبداية مضيق البوسفور وقلعة الفتاة ومنطقة أوسكودار والجسر المعلق. ومن النافذة الجانبية يظهر فندق مرمرة ويظهر بعده إلى الأسفل أكداس الأبنية الأسمنتية البشعة التي لم تكتمل بعد ولكن إن شاء المرء يمكنه أن لا ينظر من هذه النافذة.

اتجه السيد عارف إلى النافذة وقال: تطلُّ هذه البناية على منظر جميل يا سيد دوغان».

- أعلم يا سيد عارف. وربما هذا هو السبب الذي جعلني لا أبدأ بالشعور بالراحة إلاَّ بعد مرور وقت طويل.

- هل كان يوجد مايزعجك هنا؟.

- لم أرَ أنني أستحق هذا المنظر، ولا يزال حتى الآن في داخلي نوع من الإنزعاج.

❖ الشعور بالاضطهاد والعجز:

- غريب يا أستاذي وما هو هذا الشعور؟ هل يمكن أن توضح أكثر؟.

- والله إنه شعور يصعب شرحه، إنه شعور أشبه ما يكون بشعورك عندما تضيق ثيابك عليك ولا تعود تحتملها بأي شكل من الأشكال.

- ألا تستطيع تحمُل هذا المنظر؟.

ـ لا، لا، أحب هذا المنظر كثيراً، بل أراه خلأباً وساحراً. كما قلت لك، المشكلة أنني لا أرى بأنني أستحق هذا المنظر.

- لأنك ابن لعائلة فقيرة؟.

- أنا على ثقة بأن لذلك الموضوع تأثير كبير، حتى أنني أنظر إلى الأجرة التي أدفعها على أنها تبذير كبير لا داع له. طبعاً هذا الشعور نابع من كوني نشأت في أسرة فقيرة وأكملت تعليمي في ظروف صعبة، ولكن شعوري بأنني لا استحق هذا المنظر ينبع من نوع من أنواع الخوف.

- خوف من ماذا؟.

- خوف من أنني لن أستطيع أن أستمر وخوف من أن قدرتي غير كافية.

بينما كنت أشاهد هذا المنظر مع السيد عارف من النافذة نتحدث عن تأثري به خطر على ذهني أمر فقلت:

- لا أعلم يا سيد عارف فيما إذا كان قد واجهك أمرٌ كان يواجهني في شبابي باستمرار، فعندما كنت أرى فتاة جميلة في جلسةٍ ما، في الصف أو في لقاءات مع الأصدقاء، كنت أدرك جمالها فوراً فأضطربُ وأعيش حالة رومانسية فأُسحر بمشيتها الخلاّبة ووبحركات رموشها الجذابة وبنظراتها الساحرة وبانسدال شعرها الجميل على كتفيها وجاذبية شفتيها وفجأة أشعر بانزعاج وألم في داخلي.

- يا أستاذي كل ما قلته واضح وجميل وأستطيع فهمه ولكن ما لم أستطع فهمه هو سبب شعورك بالألم والانزعاج.

- إن شعور الانسحاق والعجز الذي أشعر به عندما أشاهد هذا المنظر، هو الشعور بالاضطهاد والعجز نفسه الذي كنت أشعر به عندما كنت أنظر إلى إحدى الفتيات، فقد كنت أشعر بأنني لا أليق بتلك الفتاة ولم أكن أجرؤ على النظر إليها طيلة جلوسي معهم، ولكنني بالرغم من هذا كنت لا أفكر إلا بها فقد كانت تستحوذ على تفكيري.

- لو راقبك أحد ما وقتها لن يفهم بأنك تفكر بهذه الفتاة التي كانت أمامك.

- بالتأكيد لن يتوقع أنني أفكر بها. لديَّ طبع مختلف عن طباع العديد من الناس، الفتاة التي لا أنظر إليها ولا أتحدث معها تكون هي الفتاة التي أفكر بها وأهتم بها.

- طبعاً وبعد مغادرتك الجلسة كنت تشعر بالتوتر والتعب.

- نعم، كانت رؤية امرأة جميلة تشعرني بالألم والضيق، فقد كنت أنظر إليها نظرة إنسان ظمآن في الصحراء إلى كأس مليء بالماء الصافي، وبالأحرى كنت أنظر إليها بعقلي إذ لم أكن أستمر بالنظر إليها بعينيَّ أكثر من ثلاث ثوانٍ.

- والآن عندما تنظر إلى هذا المنظر تدخل في حالة من الشعور بالاضطهاد والعجز أليس كذلك؟!.

- وصفت الحالة بكلمات تناسبها تماماً: الشعور بالاضطهاد والعجز. توقفنا عن الكلام. هز السيد عارف رأسه بأسلوب أظهر فيه أنه فهم كل ما قيل، وقال:

- لقد تحدثت معك يا أستاذي عن الفتاة التي رفضت الزواج بي لأنني معلم.

- نعم مرَّ حديث كهذا بيننا.

- عدم رغبتها بالزواج بي.....

توقف السيد عارف عن الكلام، يبدو أنه يحاول النطق بكلمات تضايقه، صمتُ وانتظرت حديثه، بعد فترة من الصمت تابع كلامه قائلاً:

- عدم رغبتها بالزواج بي سبَّب لي جرحاً عميقاً. أحسست بأنني مضطهد وعاجز.

صمتَ لفترة ثم أردف يقول:

- بتُّ أعتقد أنني إن بقيت في مهنة التعليم سأعيش طوال حياتي وأنا أشعر بالاضطهاد والعجز.

- إذن يا سيد عارف فهمت جيداً كل ما تحدثت به.

- أجل يا أستاذي أفهمك جيداً.

- في الحقيقة، الموضوع الذي سنتحدث به اليوم له علاقة وثيقة بالشعور بالاضطهاد والعجز.

جلسنا على الأرائك الموجودة في الصالون. قال السيد عارف إن الأرائك مريحة جداً وألوانها متناسقة. فقلت له: «ابنتي إليف هي التي أحضرتها ورتبتها وأما أنا فأجلس عليها فقط» بعد ذلك بدأت الحديث:

- قبل الدخول في صلب الموضوع الذي سنتناوله اليوم يا سيد عارف أرغب بالحديث عن حادثة عشتها، لا أذكر العام الذي وقعت فيه بشكل دقيق ولكنني أعتقد أنني كنت في السنة الأخيرة في الجامعة وكنت متجهاً من أنقرة إلى اسطنبول، توقف الباص بالقرب من مدينة بولو من أجل الاستراحة وتناول الطعام. بعد أن تناولت طعامي أحببت أن أتمشى حول البناء الذي أكلنا فيه وحول محطة الوقود المجاورة له. ثمة إلى جوار المبنى مجرى نهرٌ جاف مليء بالأوساخ والقمامة وعلب الصفيْح والعلب البلاستيكية والزجاجات الفارغة.. وفوق النهر يوجد جسر ضيق يقف على

حافته كلب يجلس على قائمتيه الخلفيتين وينظر إلى الأفق. واصلت النظر حولي غير أن الكلب استحوذ على تفكيري ولم أستطع التخلص من التفكير به وكأنني وجدت فيه شيئاً مميزاً، نظرت إليه من جديد، كان متخشباً في مكانه كما التمثال لا يبدي أية حركة، دنوت منه ونظرت إليه بدقة، أحسست بأنه يعيش حالة من الحزن العميق وأدركت جيداً مدى تأثري بملامح الحزن المرتسمة على وجهه، وعندما نظرت إليه نظرة أكثر وعياً رأيت لديه شعوراً بالعجز، كان يقف وقفة مفعمة بالحكمة نابعة من تقبُّله لحالة العجز التي يعيشها.

- انزعجت كثيراً بسبب تأثري بهذا الكلب إلى هذه الدرجة.

- كم كان عمرك وقتئذٍ يا سيد دوغان؟.

- أعتقد كان عمري عشرين أو واحداً وعشرين عاماً.

- لفت انتباهي قولك بأنك شعرت بالانزعاج جرَّاء تأثرك بهذا الكلب. فلماذا شعرت بالانزعاج؟!.

-كنت أعتقد في تلك السنوات أن الرجل الحقيقي هو ذاك الإنسان الفج والقاسي الذي يحطِّم ويكسر ويضرب، ففي مجتمع وفي وقتٍ يُنظَر فيه إلى الرجل على أنه قوي وفج وصعب المراس أقوم أنا بالنظر إلى هذا الكلب وأشعر بهذا الحزن العميق الذي يشعر به وأجد في موقفه نوع من الحكمة. طبعاً كان الأمر غريباً بالنسبة لي، ومن الطبيعي ألاَّ يتمكن شخص بوضعي هذا أن يلفت نظر جانان.

.توقفت عن الكلام. نظر السيد عارف إليَّ كمن يسألني «من تكون جانان هذه؟» فأجبته على السؤال الذي ارتسم على وجهه:

- عندما كنت في الجامعة وقعتُ في غرام فتاة تدعى جانان.

نظر السيد عارف إليَّ وعلى وجهه ابتسامة مبهمة. تبادلنا النظرات فيما بيننا، رجلان يفهمان بعضهما جيداً. تابعت حديثي قائلاً:

- الشاب الذي نال إعجاب جانان رجل طويل القامة منتصبها، ناضج وواثق من نفسه وجريء، ولو كان في مكاني لنظر إلى الكلب ولكنه ما رآه أبداً.

«بينما كنت أتألم وأنسحق ضمن مجموعة من الصراعات الداخلية تابعت تقدمي من الكلب. وعندما اقتربت منه جيداً رأيت أن قائمته الخلفية اليسرى مكسورة، أعتقد أنه لم يمر وقت طويل على إصابته فقد كان جلد رجله مهشماً ومتدلياً مغطى بطبقة من الدم لم يمضِ وقت طويل على تخثرها.

«ما زاد من تأثري لهذا الكلب هو وقفته المفعمة بالأصالة والحكمة. شعرت بالألم يملأ قلبي والدموع تملأ عينيَّ ومن جديد غضبت من نفسي. طبعاً لا يمكن لجانان أن تعُجبَ بشاب ضعيف سريع التأثر لدرجة البكاء مثلي، لم أستطع منع نفسي من التقدم، اقتربت منه ووقفت إلى جانبه ونظرت إليه فسالت الدموع من عينيَّ. رأيت في عينيه بؤساً وتقُبلاً لهذ البؤس وثمة شعور بالعجز، ورأيت في عينيه أيضاً حكمة عظيمة. ما هي الحكمة؟ قد تسألني كيف رأيت هذه الحكمة النابعة من عينيه؟ ولكنني لا أمتلك أي جواب أرد به على سؤالك، إذ لم أعرف كيف أدركت أو كيف فهمت كل هذه الأشياء، ما أعرفه أنني رأيتها جميعها في عيني الكلب: البؤس والشعور بالحاجة وتقُبل حالة البؤس والحكمة. أعتقد أنه هو أيضاً رأى الدموع المنسكبة من عيني، أدار رأسه من جديد إلى المكان الذي كان ينظر إليه وعاد إلى ألمه وإلى وقفته المفعمة بالكبرياء، لا أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، كنت حزيناً ومفعماً بالشعور بالعجز وقلة الحيلة.

استغرق السيد عارف في الحكاية التي أرويها، كان يصغي إليَّ بروحه. نظرت إليه مبتسماً وقلت: «إن جذور شعوري بالاضطهاد والعجز تعبِّر عن نفسها في هذه الحكاية أيضاً» هزَّ رأسه معبِّراً عن فهمه لما أقول.

ثم واصل النظر إليّ بعينين متشوقتين لمعرفة نتيجة الحكاية. فتابعت حديثي:

- تابعت سيري وأنا أفكر. لم يكن باليد حيلة إذ أن الباص سينطلق بعد خمس أو عشر دقائق ولا أعرف كيف يمكنني مساعدة هذا الكلب كنت أشعر بالعجز بل وأكثر من ذلك كان دماغي مشوشاً ومضطرباً.

«من جهة كنت أدرك أن شاب صغير يعرف أن حزني الشديد على كلب أزقة لا صاحب له، لا يمت إلى مشاعر الرجولة بأي صلة، كأنني كنت غاضباً من نفسي بسبب هذه المشاعر التي ألمّت بي. لو كنت أمتلك تلك الخصائص التي يمتلكها ذاك الشاب لربما كانت جانان قد أصبحت حبيبتي الآن، ولكن من جهة أخرى كنت أشعر بقربي من هذا الكلب الذي أمامي وأشعر بألمه وبعجزه. كنت أدرك تماماً أن مشاعري حقيقية وبأنني عاجز عن فعل أي شيء من أجل الكلب.

- يا أستاذي هل تفكر اليوم بالطريقة ذاتها؟!.

- كيف؟!.

- أقصد هل لا زلت تعتقد بأنك لو امتلكت خصائص الرجل القاسي والفج لكانت تلك الفتاة اهتمّت بك أكثر؟.

- كلا. لم أعد أفكر بتلك الطريقة. ولكنني الآن أتحدث إليك بالتفصيل عن الأفكار التي كانت تنتابني في تلك الفترة من حياتي.

- فهمت.

- نادى معاون سائق الباص على الركاب، فصعدت الباص منهاراً ومنسحقاً ودماغي مشوشٌ ومضطربٌ. ولازلت منذ ثلاثين عاماً أو أكثر أحمل هذه الذكرى المؤلمة في ذاكرتي بكل ثقلها.

- يا أستاذي عسى ألاّ تكون قد ربطت بين عدم حصولك على جانان وبين هذه الذكرى المتعلقة بذاك الكلب.

- لا أعلم، ربما ربطت كلا الحادثتين ببعضهما، ولكن ثمة أشياء في هذه الحادثة تقف وراء علاقتي مع جانان.

بعد فترة من الصمت تابعت حديثي عن ذكرى أخرى:

- عندما كنت طفلاً كان لدينا كلب أطلقنا عليه أسم «بندق»، أصيب هذا الكلب بمرض جلدي فاضطر أخي جلال الذي يكبرني سناً لأن يقتله.

- ألا يمكن أن تكون حادثة قتل الكلب هذه قد أثرّت بك كثيراً؟!.

- أذكر أنني حزنت كثيراً وبكيت. وقتها أيضاً أحسست بالعجز.

- هل لك أن تروي هذه الحادثة؟.

صمت لفترة وبعد لحظات من التفكير تابعت حديثي:

- كنت في العاشرة من عمري، توفيت والدتي شتاء تلك السنة، كنا ننتقل إلى مزرعة تبعد خمسة أو ستة كيلومترات عن البلدة التي نسكن فيها ونمضي كامل شهور الصيف في المزرعة. كانت مزرعتنا مليئة بأشجار التين والمشمش والتوت والرمان كما كنا نزرع البندورة والبصل والباذنجان والفليفلة. أصيب كلبنا بندق ذات يوم بمرض جلدي. وكنا، نحن الأطفال نحبه كثيراً ولذلك لم نستطع منع أنفسنا من اللعب معه. ولم تمضِ فترة طويلة حتى أصبت أنا وأخي شاهين، الذي يكبرني بسنتين، بمرض القراع/ داء الثعلبة. قال الجميع أن إصابتنا بهذا المرض الجلدي عدوى من الكلب، بدأ الشعر يتساقط من مكان محدود في رأس كل منّا. لم يكن يوجد في الوسط الذي نعيش فيه أي شخص واعٍ أو مسؤول ليهتم بنا أو يأخذنا إلى الطبيب أو لينقل بندق إلى الطبيب البيطري. كان والدي منشغل عنا ويردد دائماً أمام مسامعنا بأن الدكان قد أفلس وبأنه خصص كامل وقته للاهتمام به. كنا جميعنا أشبه ما نكون باليتامى.

كان لي أخ يكبرني سناً، يدرس في الجامعة في كلية الحقوق وكان كثيراً ما يذهب إلى طوروس ويمضي وقته في صيد الحجل فقد كان مغرماً

بالصيد كثيراً، وكان يخاف من انتقال العدوى إلى الجميع، ولهذا قرر، بالرغم من حزنه العميق، أن يطلق النار على الكلب ويقتله. نادى للكلب فجاء إليه وهو يهز ذيله. نظر إلى وجه أخي ثم تمدد على الأرض واضعاً رأسه بين قوائمه. وبعد قليل خرجت الطلقة من البندقية واخترقت عشرات الخرادق جسد بندق النحيل. فصرخ ثم قفز عن الأرض عدة قفزات وانقطع صوته وتكوَّم على الأرض مثل كيس مليء بالدم.

«دفنَّا بندق دون أن نضع فوق التراب قطعة خشب أو حجراً لتدل على وجود جثته. وبعد فترة ذهب بندق وطواه النسيان. وأما بالنسبة لي ولأخي شاهين فقد شُفينا من داء الثعلب بعد أن حلقنا مكان الإصابة بموس الحلاقة ووضعنا عليها محلول اليود الثوم.

– هل كان الكلب الذي رأيته في بولو يذكِّرك ببندق؟.

– كلا، لأنه لا يشبهه أبداً. إذ أن بندق كان كلباً نحيلاً وصغيراً وهذا ما جعلنا نطلق عليه اسم بندق وأما الكلب الذي رأيته في بولو فقد كان ضخماً أشبه ما يكون بكلب الرعاة.

– ألا يمكن أن تكون مشاعرك المتعلقة بالكلب الذي كان في بيتكم قد انعكست على الكلب الذي رأيته في بولو؟!.

– أعتقد ذلك. ربما تكون حساسيتي حيال تألم الكلب نابعة من تلك الحادثة.

– أكثر ما لفت انتباهي هو شعورك بالانسحاق والعجز والاضطهاد، أرجو أن تحدثني قليلاً عن شعورك بالاضطهاد والعجز، وما هو سبب شعورك هذا. ماذا لو عدتَ إلى الوراء وأحييت هذه الذكرى وعشتها من جديد؟!..

صمتُ لفترة. أطبقت عيني وبعد قليل من التفكير بدأت الحديث:

– كنت في تلك الفترة من حياتي أرغب أن أنال إعجاب جانان، ولكن

جانان هذه بمن تعجب؟ تُعجب بأفضل إنسان يجسِّد مواقف يسميها المجتمع «رجولية». هذا ما كنت أفكر به، ولم أكن أولي اهتماماً بمن أكون أنا بل بكيف يُراد لي أن أكون.

– يا أستاذي، هذا الوضع ألا يشبه الوضع الذي أعيشه أنا؟ فعندما يتحول الأمر إلى سؤال «ماذا سيقول الآخرون؟» يتم استبعاد فكرة: «ماذا سيقول دوغان» وتُطرح جانباً بل وتصبح فكرة لاأهمية لها.

– بالتأكيد.

وبعد أن استغرق السيد عارف بالتفكير قال: «كما يبدو لا آباؤنا ولا أمهاتنا ولا معلمونا ولا أصدقاؤنا ولا أحد يهتم بمسألة: «من أنت» فالجميع يولي كامل اهتمامه لـ «ما يجب أن تكون». ثم فكَّر قليلاً وأردف يقول:

– أعتقد أننا تعلمنا قمع مشاعرنا ورفضها وعدم تقبُلها بدلاً من التعرف إليها وفهمها واحترامها.

– يا سيد عارف، هنا، في هذه النقطة بالذات يكمن سبب اغتراب الإنسان عن ذاته وهنا تكمن جذور «الحياة النكرة» لقد وضعت يدك على نقطة ذات أهمية حياتية، وهذا أيضاً يسبب الشعور بالاضطهاد والعجز.

❖ الأبوَّة السيكولوجية:

– يا أستاذي، خطر على ذهني أمر مفاده: ثمة أبوَّة أهم من الأبوة البيولوجية والأمومة البيولوجية ألا هي أن يمتلك الإنسان أباً وأماً من الناحية النفسية.

– إذن أنت تميز بين الأبوة البيولوجية والأمومة البيولوجية من جهة وبين الأبوة السيكولوجية والأمومة السيكولوجية من جهة أخرى.

– نعم، لقد خطر هذا المصطلح على ذهني عندما فكرت بتربية الطفل.

- هل يمكنك شرح هذه النقطة؟.

- الأبـوة البيولوجيـة واضـحة جـداً، إنهـا تعبّـر بالكامـل عـن الرابطـة الدموية. غير أن الأبوة السيكولوجية فإنها متعلقة بكيفية بناء هذا الطفل من الناحيـة الروحيـة والسيكولوجية. لكـل طفـل أم وأب مـن الناحيـة البيولوجية ولكن ربما يكون هذا الطفل قد تُرك يتيماً من ناحية الأبوة السيكولوجية، أي ربما لم يهتم أحد بتعليم هذا الطفل تطوير طاقاته.

- لاشك أنك تريد القول: لم يهتم أحد به بشكلٍ واعٍ.

- أجل هذا ما أقصده. إنني أتحدث عن عدم قيام أي شخص بإقامة علاقات تواصل وتفاعل مع هذا الطفل وعدم صرف الوقت من أجل تطويره عن دراية ومعرفة ونيَّة مسبقة.

- مصطلح «الأبوة السيكولوجية» يا سيد عارف مصطلح غريب ومثير وسأفكر به مطولاً. أعتقد أنك تقصد أن يُتمنا النفسي هو الذي يقف وراء خجلنا وترددنا وشعورنا بالاضطهاد. هل استطعت فهمك بشكل صحيح؟!.

- نعم يا أستاذي، هذا ما أقصده، إذ لم يلعب آباؤنا أو أمهاتنا أي دور من شأنه العمل على تطويرنا.

- أي أن آباءنا تركونا وحيدين من خلال موقفهم غير المبالي، فكبرنا كما الأعشاب في الغابات. وبقينا محرومين من توجيهاتهم ورعايتهم.

- نعم، ولهذا السبب لم نتطور.

- أنا أفكر بشكل مختلف يا سيد عارف.

- كيف؟!.

- أنا أرى أن آباءنا وأمهاتنا لم يكونوا غير مبالين، فلقد اهتموا بنا بشكل فعال حتى استطاعوا أن يحوّلونا إلى أناس مسحوقين ومقموعين وعندما تحطمت أرواحنا وباتت مهشمة ارتاحت ضمائرهم معتقدين أنهم قاموا بمهمتهم الأبوية، كآباء وأمهات، على أكمل وجه.

- إذن لم نكبر كالأعشاب في الغابات؟!.

- كلا لم نكبر كالأعشاب في الغابات، ليته كان لنا خيارٌ كهذا.

- ولِمَ هذا التمني يا سيد دوغان؟.

- لأن الإنسان يمتلك طاقات جبّارة لدرجة أنه لو توفرت له إمكانية النمو بحرية كما تنمو الأعشاب في الغابات لتطور بما يتفق مع جوهره ولتحول إلى إنسان مستقل بذاته يعيش جوهره كما هو.

توقفت عن الكلام ثم فكرت بإضافة شيء ما إلى التشبيه، المتعلق بالطبيعة، الذي قدمه السيد عارف. ثم تابعت حديثي قائلاً:

- معظمنا يا سيد عارف نصبح أباءً لا لكي نطور طاقات أطفالنا بل لكي نقلّمها بل وأستطيع القول أن نظامنا التعليمي أُسِّس على هذه الفلسفة.

- حديثك عن فلسفة التعليم يلفت انتباهي أكثر من غيره كوني أعمل في هذا السلك. فما الذي تقصده بفلسفة التعليم يا سيد دوغان؟.

- إنني أتحدث عن فلسفة تقليم طاقات الأطفال بدلاً من تطويرها.

توقفت عن الكلام فخطر على ذهني مثال أحببت الحديث عنه:

❖ خبير في رعاية شجرة البونزائي:

- عندما كنت في كاليفورنيا قمت بزيارة مدينة سان فرانسيسكو فاصطحبني أحد الأصدقاء المقيمين في هذه المدينة إلى حديقة غولدن غيت التي تضم حديقة منسقة على الطريقة اليابانية. ففي الحرب العالمية الثانية قامت الحكومة الأمريكية بتجميع اليابانيين الموجودين في المدينة ونفيهم إلى منطقة صحراوية وبعد إنتهاء الحرب عادت الأسر اليابانية إلى مدينة سان فرانسيسكو من جديد. ولكي تنال إدارة المدينة رضا هؤلاء المواطنين ذوي الأصول اليابانية خصصت لهم أرضاً في حديقة غولدن غيت ليقيموا عليها حديقة يابانية.

قاطعني السيد عارف ليسألني عن السبب الذي جعل الحكومة الأمريكية آنذاك تنفي ذوي الأصول اليابانية فقلت:

- لا أعرف تفاصيل الموضوع وأعتقد أن السلطة السياسية في ذاك العهد وجدت أنه من الخطر من ناحية الأمن القومي، بقاء المواطنين ذوي الأصول اليابانية في سان فرانسيسكو. ولقد قرأتُ أكثر من مرة في الصحف أن بعض اليابانيين لا يزالون حتى الآن مستائين من الإدارة الأمريكية.

وأردفت قائلاً:

- أكثر ما لفت انتباهي أثناء تجولي في الحديقة اليابانية هو شجرة البونزائي التي وُضعَتْ أمامها لوحات كُتب عليها معلومات حول تاريخ هذا النوع من الشجر، وكُتب عليها اسم العائلة التي كانت أول من قام بتطوير هذا النوع حتى أخذت هذا الشكل من خلال إتباع أسلوب التقليم المستمر.

«نظرت إلى الشجرة فوجدتها قزمة، قصيرة وعريضة، وعرفت من اللوحة أن عمرها يزيد على مئة وخمسين عاماً، ويكنُ اليابانيون احتراماً شديداً للشخص الذي يطور تقنية التقليم هذه، وينظرون إلى كل شخص يمنع نمو هذه الشجرة وتحولُها إلى شجرة ضخمة ويبقيها شجرة قزمة، على أنه استاذ كبير في هذا المجال.

- هل تقصد أن آباءنا خبراء في التقليم؟.

- بل ونمدح كل من يبقي أطفاله أقزاماً بقولنا: «مرحى لهذا الأب أو لهذه الأم فلقد ربوا ولدهم تربية رائعة لدرجة أنك لا تسمع من فمه أية كلمة، يجلس في كل مكان مثل الرجل العاقل أو تجلس كالسيدة المؤدبة.

- بتُ الآن أفهم ياسيد دوغان ما كنت تريد قوله. حقيقة لم يدعنا الكبار نكبر بحرية كما الأعشاب في الغابات فقد كانوا يقلّموننا باستمرار كما يفعل أساتذة شجرة البونزائي الخبراء.

- وهذا هو منبع شعورنا بالانسحاق والاضطهاد والخجل.

- أي أننا مقلَّمون.

- لقد تقلَّمت روحنا مع كل أسف، ولكن يجب ألاَّ تنسَ أن آباءنا لم يفعلوا هذا عن سوء نية، فهُم، حسب وجهة نظر الثقافة التي نشؤوا فيها، يعتقدون بأنهم آباء جيدون، فعندما يتشوق الطفل الصغير، على سبيل المثال لمعرفة ما بداخل ساعة الطاولة يمد يده إليها، يلتقطها ويفتحها، فيعاقبه والده أو تعاقبه أمه بعد توبيخه بقولهم: «الا تخجل مما اقترفت يداك، لقد خرَّبت الساعة» فالمهم بالنسبة لأهل كهؤلاء هو تربية طفل لا يمد يده إلى الساعة. وهناك نوع من الأهالي عندما يرون ولدهم وقد فك أجزاء الساعة يصلون إلى نتيجة مفادها «هذا الطفل يحتاج للعبة تزيل فضوله الرامي إلى استكشاف ما حوله ولهذا يجب أن نحضر له ألعاباً محددة من أجل تطوير هذا الجانب من شخصيته» فالمهم لهؤلاء الأهل هو تربية فعالة تلبي فضول هذا الطفل.

توقفت عن الكلام لفترة، ثم عُدت إلى موضوع كنا تحدثنا عنه سابقاً بقولي:

- نشأت في بيئة ثقافية لا تعتبر النظر إلى الكلاب والتألم من أجلها أو التعاطف معها عملاً رجولياً، وقد كنت مؤمناً بأنه: «لا يجب أن تكون لديَ أحاسيس كهذه» لكن أحاسيسي كانت قوية جداً وحقيقية وكانت تطغى على كامل روحي.

صمتُ من جديد ونظرت إلى السيد عارف ثم حاولت لململة افكاري لأننا وصلنا إلى الموضوع الأساسي الذي التقينا من أجله فتابعت حديثي:

- أتحدث عن هذا الموضوع وعيناي تزرفان الدموع، فلقد أيقظ هذا الحديث ذكرى حملتها في ذاكرتي منذ أربعين عاماً.

«أتعلم ما هو المحزن في هذا الموضوع؟! عندما أسعى لذكر هذه

الأحداث بين معارفي، دعك من فهم عواطفي وأحاسيسي، إنهم يحاولون أن يعلموني كيف تكون الأحاسيس الحقيقية.

صمتُ من جديد، كأن السيد عارف أعطاني فرصة لإخراج هذه الإحساسات التي حبستها في داخلي زمناً طويلاً. فتابعت حديثي قائلاً:

- من الطبيعي أن أشعر بالانسحاق والاضطهاد، ففي الحقيقة أنا غير موجود، وكل ما هنالك أن لي دوراً يجبّ أن أعيشه ضمن هذه الثقافة فهل يمكن للأنا التي في داخلي والتي نمت ضمن كمٍ من الرسائل المشابهة طوال حياتها أن تقبل بأن هذه الأحاسيس والعواطف النابعة من داخلي عبارة عن أحاسيس طبيعية وواقعية؟.

هز السيد عارف رأسه ببطء للدلالة على أنه فهم ماقصدته.

تابعت كلامي:

- فلكي أقدِّم شيئاً لهذا الكلب يجب عليَ أن أدرك بأن أحاسيسي المتعلقة به «طبيعية» و«واقعية» و«هامة»، وقتها، وفقط وقتها أستطيع تقديم شيئاًله.

- تتحدث عن فعل شيء ما لهذا الكلب يا سيد دوغان ولكن هناك العديد من الأشخاص سينظرون إليك نظرة غريبة إذا عرفوا أنك «ألغيت رحلتك إلى استانبول لمجرد أنك رأيت في بولو كلباً رجله مكسورة».

- أنا واثق من أنهم سينظرون إليَّ بهذه الطريقة، حاول أن تذكر معي حادثة الرجل الترابزوني، كل شخص محق ضمن منظومة مفاهيمه وسلوكياته الخاصة به. المهم هنا هو: ما الذي أفعله أنا فيما يخص حياتي؟.

فكرت قليلاً وأردفت قائلاً:

- كنت واثقاً من عجزي عن تقديم المساعدة لذاك الكلب لدرجة أنه لم يخطر على ذهني حتى الطريقة التي سأقدِّم من خلالها المساعدة والعون

له. فقد تهت في شعوري بالاضطهاد والعجز لدرجة أنني لم أكن أفكر حقيقة بإمكانية تقديم شيء له.

❖ حياة حماسية وقوية وذات معنى:

ابتسم السيد عارف وتنهَّد كمن يهمُّ بالحديث فصمتُ لكي أفسح له مجالاً للتكلم فقال:

- هل يمكننا يا سيد دوغان الاعتقاد بأنه لم يخطر على ذهنك أبداً فكرة تقديم المساعدة للكلب لأنك لم تكن تعيش حياة محارب، ولأنك كنت تفكر وتشعر ضمن إطار الإمكانيات التي يمتلكها أي إنسان عادي. هل يمكننا التفكير بهذه الطريقة؟!.

- أجل يمكننا ذلك. ولنفترض أنني إنسان يعرف مشاعره جيداً ويتقبَّلها ويعطيها أهمية وقيمة ولو كنتُ قادراً على توجيه سلوكي انطلاقا من فكرة: «يوجد هنا كلب يحتاج إلى مساعدتي، ولأسباب أجهلها تأثرت كثيراً بحالته وأشعر بأن قلبي يتمزق من أجله، وبأنني أشعر بأن هذه المشاعر نابعة من صميم قلبي ومن جوهر ذاتي، وإذا ما أدرت ظهري لهذا الكلب أكون قد أدرت ظهري لمشاعري ولجوهر ذاتي، وإذا أتيت بأي سلوك من شأنه تحويل مشاعري إلى مشاعر لا قيمة لها فسأكون قد فرَّغت ذاتي من محتوياتها ونفيت عنها قيمتها».

«الآن لدي حالة معينة توجب عليَّ تقديم خدمة ما من خلال قيامي بما أستطيع فعله على أكمل وجه»

«سآخذ حقيبتي من الباص وبعد إتمام عملي هنا سأذهب إلى استانبول بواسطة باص آخر.

يجب بداية أن أعثر في الجوار على طبيب بيطري، وأن أبدأ مهمتي بالتواصل والاحتكاك مع الناس لكي أتمكن من الحصول منهم على

معلومات ويمكن أن يكون هؤلاء الناس معلمين أو أطباء أو موظفين أو حرفيين.»

لن يثق معظم هؤلاء بأنهم سيستطيعون فعل أي شيء في هذا الموضوع لأنهم نشؤوا في ذات المجتمع الذي نشأت فيه.

وعلى اعتبار أنني واثق من هذا الموضوع ولأنني موجود هنا لتقديم المساعدة بكل صدق فإن بعض هؤلاء سيكونون مثلي وسيتأثرون من الأعماق وسيفكرون، مثلما فكرتُ، بتقديم المساعدة. ولا شك بأن أشخاصاً كهؤلاء سيكونون متميزين وربما تتشكل بيننا صداقة قد تستمر طوال العمر. وعندما يلتف حولي عدة أشخاص يصغون لهذه الأصوات النابعة من قلبي ستزداد ثقتي وإمكانيتي، وربما تقديم المساعدة التي ستُقدم لهذا الكلب خلال ساعتين أو ثلاث ساعات.

أو ربما أبذل كل الجهود ولا أحصل على نتيجة ايجابية».

توقفت عن الكلام ونظرت إلى وجه السيد عارف وقلت هذه العبارات»

- لو أنني بذلت جهداً كهذا لما تشكل هذا الجرح في قلبي منذ أربعين عاماً ولا يزال يمزّقه حتى الآن.

انفعل السيد عارف كثيراً ثم حدَّق في عيني وهو يهز رأسه بحركات واضحة تدل على أنه متفق معي حول هذا الموضوع، تابعت حديثي:

- لو أنني فعلت هذا لأحسست بحرية عظيمة ورائعة وربما يقول البعض أن هذا الرجل فقد عقله ولكن مقابل ذلك أعرف جيداً مدى الحماس والحيوية التي كنت سأشعر بهما.

توقفت عن الكلام.... التقت نظراتنا فيما بينها ثم تابعت كلامي:

- يا سيد عارف، هذه هي الحرية التي نتشوّق أنا وأنت لها.

- أي أنها حياة خالية من الجوانب المؤلمة.

- نعم، حياة قوية وذات معنى ومفعمة بالحماس.

حال دخولنا إلى البيت استغرقت بالحديث لدرجة أنني نسيت القيام بواجب الضيافة. قررنا أن نشرب الشاي فذهبنا سوية إلى المطبخ. قال السيد عارف: «يا أستاذي دعني أُعِدُّ الشاي» ولكنني لم أسمح له فوضعت الإبريق على النار ثم وضعت بعض المأكولات والفواكه في الأطباق.

حملنا الشاي والفواكه إلى غرفة الجلوس. كان يوماً جميلاً مشمساً وبواخر نقل الركاب تمرُّ في المضيق من بين بواخر الشحن كما الزهور البيضاء لم تكن الرافعات والسفن الضخمة الموجودة في ميناء حيدر باشا حارم تسيء إلى هذا المنظر الرومانسي بل كانت تضفي إليه نوعاً من الجمال.

❖ وأسفاه على هذا المنظر:

بدأتُ الحديث بعد أن أخذنا مواقعنا في الغرفة:

- تعلم بأنني أذهب في الصيف إلى كاليفورنيا وأقيم هناك شهرين أو ثلاثة أشهر. من أكثر الأشياء الجميلة التي كنت أقوم بها هي الذهاب إلى الحدائق الوطنية التي تبعد مسافة ست أو سبع ساعات بالسيارة وأمضي عدة أيام في الجبال والسهول والأنهار والصخور، حيث كنت أخيِّم هناك، وهكذا كان يتسنى لي التعايش مع الطبيعة بانسجام تام.

ذهبت وصديق لي أتى إلى كاليفورنيا لتقوية لغته الانكليزية، إلى منطقة مينيرال كينغ الموجودة في غابة سيكوي وهي من أكثر الأماكن التي كنت أحب التخييم فيها. كان صديقي قد طلّق زوجته منذ فترة قصيرة ويحاول الآن أن يعيش حياة مستقلة. كان يمضى أيام الصيف في تقوية لغته الانكليزية ظناً منه أن تعلم اللغة سيساعد على ترقيته في عمله.

ذات يوم ركنّا سيارتنا في الوادي لكي نسير على طريق زراعي في

منطقة ريفية. ثمة غرفة هاتف موجودة إلى جوار المنطقة التي ركنًا سيارتنا فيها. أحبَّ صديقي الاتصال بتركيا هاتفياً لمعرفة نتائج امتحان ولده من إدارة المدرسة التي قدَّم امتحانه فيها.

وأما أنا فقد جلست على صخرة في ظلِّ إحدى الأشجار. فهمت من حديث صديقي على الهاتف أن ولده نجح في الإمتحان ويحق له الدخول إلى الفرع الذي يريده، بعد ذلك تحدث مع طليقته التي يقيم ولده عندها، وبعد أن أنهى حديثه الهاتفي دنا مني رغبة منه بأن أشاركه سعادته فقال: «نعم لقد نجح ولدي» غير أنه كان يعتريه بعض القلق والتوتر، فواصل حديثه قائلاً: «إنني أغضب كثيراً من زوجتي السابقة» وأردف قائلاً: «اتصلتْ أمي بزوجتي لتقول لها بأن ولدنا نجح في الإمتحان ويحق له الدخول إلى الفرع الذي يريده فردَّت عليها زوجتي قائلةً: أنا لا أريده أن يقرأ هذا الفرع» غضبت كثيراً، إذ ما هو السبب الذي يجعل زوجتي تتحدث مع أمي في هذا الموضوع وقد كنا اتفقنا سابقاً على الفرع الذي سيدخله ولدنا؟ فلماذا غيرَّت رأيها؟ أغضب منها دائماً لأنها تغيِّر رأيها كثيراً ولا يمكنها الالتزام بكلمة تقولها».

كانت الشمس تلمع في سماء زرقاء صافية، الصخور الموجودة على السفح المجاور للوادي من ناحية اليسار تكاد تلامس السماء وتخبئ خلفها قطعاناً من السحب البيضاء، وأما على يمين الوادي فقد كانت غابة الصنوبر الخضراء ترتفع ممتدة إلى الأعلى مرتفعة شيئاً فشيئاً وكأنها تضيع بين قطعان السحب البيضاء المتناثرة في الأفق، كان عرض قاع الوادي يبلغ كيلومتراً واحداً يسير في وسطه نهرٌ كبير يحمل مياه الثلوج التي تذوب في الأعلى.

ثمة جسر خشبي صغير على يسار المكان الذي ركنًا فيه سيارتنا وكانت المياه التي تتدفق تحت الجسر تلطم الحجارة والصخور مصدرةً صوتاً أشبه ما يكون بهدير الشلال. الوادي مليء بالأزهار التي تناثرت فوق مرج أخضر فشكلت معه لوحة فنية رائعة الجمال.

مشينا أنا وصديقي على الطريق الزراعي الموجود على الجهة اليسرى من الوادي وبدأنا الصعود إلى الأعلى تاركين النهر على يسارنا.

تابع صديقي حديثه: «هذا هو حال زوجتي دائماً، تقول لك شيئاً ما فتثق أنت بكلامها وترتِّب أمورك بناء عليه ولكنها بعد يومين تغيُر رأيها، فكيف لك أن تثق بإنسانة مثلها لا يوجد شيء في حياتها له علاقة بالانسجام ولكن لمَ العجب، إنها لا تفعل شيئاً جديداً... يخطر بذهني الآن أن أتصل بها هاتفياً لأعرِّفها حدودها وأقول لها: ألن نثق يوماً بكلامكِ؟! ثم انظري إلى نتائج أفعالك».

كنت أستمع لصديقي وأراقبه، إنه في هذه اللحظة لا يعي جمال الشمس أو السحب أوالأشجار أوالأزهار التي تملأ الوادي ولا الهواء العليل... كنت أصغي اليه من خلال وعيي المراقِب من جهة وأتامل هذا الجمال الخلاَّب الذي أعيش بين أحضانه من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة أقول في نفسي: «وا أسفاه على هذه اللحظات وعلى هذا المكان».

كان صديقي يواصل حديثه الذي استمر لمدة ساعة كاملة، وأما أنا فلم أفعل شيئاً سوى الإصغاء له بيد أنني كنت بين الحين والآخر أتأمل الجبل والوادي والسحب والأزهار حتى أنني كنت أصرخ أحياناً بصوتٍ عالٍ: يالجمال هذا المكان... يالروعته.

استحوذ الغضب على صديقي لدرجة أنه ما عاد يستمع لحديثي المتقطع حول جمال هذا المكان.

قاطعني السيد عارف عند هذه النقطة قائلاً:

- يا أستاذي كثيراً ما أعيش هذه الحالة. ألم تعشها أنت؟.

- وكيف لا؟ فلقد عشتها كثيراً وأذكر أنني رأيت الكثير من معارفي في حالة كهذه.

- هل هذا يعني أن هذه الحالة بُعدٌ طبيعي من أبعاد الحياة؟!.

- نعم إنها كذلك بالنسبة للإنسان العادي.

- وبالنسبة للمحارب؟.

- لا، المحارب لا يقع في هذه الحالة، وإذا وقع فيها فإنه ينتبه إليها فوراً وينهيها.

❖هل أخرجتم كلب الراعي في نزهه؟!.

- لمَ لا يقع المحارب في حالة كهذه؟.

- ذات يوم حضرت ندوة حول علم نفس الجشتالت. وجّه المحاضر سؤالاً للحضور مفاده: «هل أخرجتم كلباً ما في نزهة؟».

رفع بعض الحضور أياديهم. فسألهم عن أنواع الكلاب التي أخرجوها في نزهة فأجابه كلٌ منهم على سؤاله.

فطرح عليهم سؤالاً آخر: هل أخرج أحدكم كلب الراعي في نزهة؟ «شخص واحد من بين الحضور رفع يده وقال: «نعم أنا، ولكن لا أعلم فيما إذا كنت أنا من أخرجه أم هو الذي أخرجني في نزهة» وبعد فترة من الصمت قال: «غالباً هو من أخرجني في نزهة».

الذين يُخرجون كلب الراعي في نزهة يذهبون إلى المكان الذي يريده الكلب إذ أنهم يعيشون معه صراعاً دائماً.

«وكذلك الأعمال التي لم تُنجز. إذ أنها تعيقنا عن إدراك (الآن وهنا) وهي في ذلك ككلب الراعي توجهنا إلى الوجهة التي تريدها.

«إن أعمال صديقي التي لم تُنجز مع زوجته توجهه حتى وهو في كاليفورنيا في غابة «سيكوي» الجميلة، إلى المكان الذي تريده، تماماً كما يفعل كلب الراعي مع صاحبه، وتوصله إلى حالة لا يمكنه خلالها رؤية (الآن وهنا).

كان السيد عارف يهز رأسه ببطء كمن فهم ما أقوله، ثم نظر إلى عينيَّ وقال ما يفكر به:

- يا سيد دوغان، كان لديك عمل لم ينته مع الكلب الذي رأيته في بولو. أليس كذلك؟.

- نعم، ولهذا سردت لك تلك الحكاية، فثمة عمل لم يُنجز في كل حالة لا أستطيع فيها التعبير عن نفسي بسبب شعوري بالاضطهاد والخجل، إذ أن الأعمال التي لم تُنجز تمنعني من أن أعيش(الآن وهنا) حتى الارتواء والشبع.

فقال السيد عارف بلهجة إنسان اكتشف أمراً هاماً:

- لقد فهم المحارب(الآن وهنا) ضمن إطار وعي الموت، وهو لذلك يعيش الآن وهنا في كل لحظة. أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد يا سيد عارف، لقد عبَّرت عن الموضوع بشكل دقيق ولهذا السبب الذي ذكرته لا يحمل المحارب على كاهله أي أعمالٍ لم تُنجز لأنه يواصل حياته بعد إنجاز كل أعماله.

❖ما هو العمل الذي لم يُنجز؟!:

- وكيف يمكننا تعريف العمل الذي لم يُنجز يا سيد دوغان؟!.

وكيف لنا أن ننتبه إلى الأعمال التي لم تُنجز في حياتنا؟.

- يرى فريدريك بيرلس بأن الأعمال التي لم تُنجز عبارة عن خلل أو عدم توازن متشكل في العالم الداخلي للإنسان... وبالأخرى هو عبارة عن جشطالت أو عبارة عن كلٍ لم يكتمل.

- ماذا تعني كلمة جشطالت؟!.

- الجشطالت كلمة ألمانية تعني «الشكل» وتعني أيضاً الكمال أو اللانقصان، أو الشكل المكتمل. ولأن الفلاسفة الألمان كانوا أول من استخدم هذه الكلمة في دراساتهم عن الإدراك فقد بقيت المعاجم النفسية تستخدمها كما هي أي الجشطالت.

- أغلب الظن أن بيرلس تلقى تعليمه في ألمانيا.

- نعم، أعتقد أنه عاش طفولته وشبابه في النمسا وهناك تلقى تعليمه وبعد ذلك هرب من ألمانيا الهتلرية واستقر كمحلل نفسي في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤسس المقاربة التي أطلق عليها مصطلح علم نفس الجشطالت، ولقد تم إنشاء المقاربة الجشطالتية على أساس المقاربة الفينومينولوجية.

حدثتك عن الفينومين. أليس كذلك؟.

- أتذكرها على أنها العالم الذي ينتبه إليه الشخص ويدركه. هل هذا صحيح؟!.

- نعم صحيح. ولا يمكن أن تتشكل فينومينة الفرد من حوادث منفصلة عن بعضها البعض، إذ تنزع هذه الفينومين إلى التشكل على شكل كلٍ متكامل. إنها تنزع دائماً لأن تصبح جشطالتاً(شكلاً متكاملاً).

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟!.

- حسب بيرلس أنت تنظر إلى هذه الطاولة على أنها كلٌ مؤلف من مجموعة أجزائه أي مجموعة ما يوجد فوقها: كؤوس الماء والمحارم وزجاجات الماء، جميعها تؤلف من هذه الطاولة كلاً متكاملاً. فعندما تنظر إلى كأس الماء لا تنظر إليه على أنه مؤلف من شيئين: «كأس» و«ماء» بل تراه كأس ماء أي تراه كلاً متكاملاً. ما هو سبب وجود هذه النزعة لديك؟ سببها أن الإنسان «يشعر» بأن هذا الكل، وبلغة تقنية هذا الجشطالت، ذو معنى أكثر. ولم يختر الإنسان هذه الطريقة بالإدراك بعد طول تفكير، أي أنها ليست قراراً ذهنياً أو علمياً بل هي نتيجة نجمت عن أسلوب عمل الدماغ، فحسب بيرلس يعيش الدماغ في حالة بحث مستمر عن الجشطالت.

- وما علاقة هذا بالأمور التي لم تُنجز؟.

- سأشرح لك هذا الموضوع من خلال المثال التالي: لنفرض أنك عطشت. ماذا تفعل إن عطشت؟.

- أشرب ماءً.

- نعم، عندما تعطش يقوم جسمك بإرسال معلومة إلى دماغك فتبلغه بأن جسمك يعيش حالة عدم توازن وهو يحتاج للماء. إن إزالة هذا النقصان وتلبية هذه الحاجة سيشكل الجشطالت، ولا يكتمل الجشطالت حتى يزول العطش وهذا عبارة عن عمل لم يُنجز وبذلك لا تستطيع على هذا الصعيد الوصول إلى كلٌ ذي معنى.

- إذن هل يمكن أن يكون الإنسان، والحال كذلك، واقعاً تحت تأثير العديد من الحاجات ولديه العديد من الأمور التي لم تُنجز؟.

- طبعاً ممكن.

- إذن ما هو الوضع الذي سينجم عن هذا؟ ألا يضطرب دماغ الإنسان؟.

- الأمر الذي يُدرَك بسرعة أكبر هو الذي يوجِّه العضوية. سأضرب لك مثالاً على ذلك.

- كنت سأطلب منك مثالاً على ذلك.

- أعلم، ولهذا اقترحت أن أضرب مثالاً قبل أن تطلبه. إذا ما شبَّ حريق هنا ماذا تفعل؟.

- أهرب.

- هل يمكن أن تقول: لأذهب إلى المرحاض وأبول قبل أن أهرب من الحريق أو لأتناول بعضاً من الطعام لأنني قد أشعر بالجوع بعد قليل؟

- وهل أنا مجنون كي أفعل ذلك؟ سأعمل على الهرب فوراً.

- حسناً، بدأت بالهرب الآن بكل ما أوتيت من قوة وسرعة. وبعد فترة من الزمن، ربما بسبب الخوف أو الاضطراب أو الانفعال الزائد، انقطع

نفسك ولم تعد تستطيع التنفس. هل تواصل هربك أم تتوقف قليلاً لتلتقط أنفاسك؟.

- طبعاً أتوقف وألتقط أنفاسي.

- لنفترض أنك نجوت من الحريق وعادت إليك أنفاسك. ولكنك انتبهت إلى أنك مضطر للذهاب إلى المرحاض من جهة وشعرت بالجوع من جهة أخرى. ماذا تفعل؟!.

- أعطي الأولوية للأمر الأكثر إلحاحاً.

- أجل هذا ما تفعله. وجسدك ينتظر منك هذا السلوك. فكما ترى العمل الذي يوجّه السلوك هو العمل الأكثر إلحاحاً من بين الأعمال التي لم تُنجز.

- هل تتعلق الأعمال التي تنته بهذا النوع من الحاجات البيولوجية. أقصد هل تقف الحاجات البيولوجية دائماً وراء الأعمال التي لم تُنجز؟!.

- تشكل الحاجات أساساً للأعمال التي لم تُنجز، ويمكن أن تكون هذه الحاجات بيولوجية كما في مثالنا السابق، وقد تكون ذات أبعاد مختلفة متعلقة بوجود الشخص وقد تكون من أنواع أخرى.

- ما معنى الأبعاد الأخرى المتعلقة بوجود الفرد؟.

- جيد أنك سألتني هذا السؤال يا سيد عارف، لأنه يُدخلنا إلى واحدة من النقاط الهامة جداً.

اشتهيت تناول فنجان من القهوة وأما السيد عارف فقد فضل شرب كأس من الشاي. فأحضرت قهوة لي وجدّدت الشاي للسيد عارف وأحضرت كأسين من الماء.

كانت النافذة مفتوحة تنبعث منها أصوات الأطفال الذين يلعبون في الشارع. أولاد بوابي البنايات يلعبون دائماً في هذا الشارع. خُيِّل إليَّ أنني أعرف صوت أحد هؤلاء الأطفال. فبالرغم من أنني لم أره أبداً أظن أنني

أعرفه جيداً من صوته، فهو يشاغب ويغشُ باستمرار، يصرخ ويصيح دائماً ثم يجهش بالبكاء. وبعد أن ينهي صراخه المدوّي بفترة قصيرة يتدخل رجل أو تتدخل امرأة بلهجة أناضولية لا أعرفها وتؤنّب الأطفال الأخرين وتجبرهم على تنفيذ ما قاله هذا الطفل، وكان الأطفال الآخرون يعترضون على ذلك، وفي النهاية كان الطفل الذي يصرخ كثيراً يحقق كل ما يريده.

أسمع الآن صوته من جديد.

ثمة ناقلة وقود كبيرة بنية اللون تمرُ من المضيق قادمة من بحر مرمر باتجاه البحر الأسود. كان الجسر المعلّق يلمع في مياه المضيق كما تلمع القلادة. يبدو من السيارات التي تسير فوقه أن حركة المرور لم تزدحم بعد.

عدنا إلى حديثنا من جديد...

❖ أبعاد الوجود:

- أقول يا سيد عارف إن الإنسان، حسب المقاربة الفينومينولوجية، يواصل وجوده على عدة أبعاد أساسية أي أن الفرد يسعى لإيجاد ذاته ضمن عدد من الأبعاد الأساسية.

- هل يسعى لهذا الأمر بشكل واعٍ؟ أقصد هل يخاطب نفسه بشكل واعٍ ويقول: «يجب أن أوجد ذاتي حسب هذه الأبعاد؟.

- لا. يتم هذا الأمر كما تلبي العضوية حاجتها وتزيلها. كيف يخبرك جسدك باحتياجاته؟ على شكل إحساس أليس كذلك؟ أي أنك تدرك إحساسك بالعطش أو بالجوع أو بالتعب فتأتي بالسلوك المناسب لذلك، أي تشرب أو تأكل أو ترتاح وبذلك تحافظ على توازن جسدك بشكل سليم.

- إذن هل يمكننا إطلاق مصطلح «أبعاد حاجات الوجود» على هذه الأبعاد الأساسية؟!.

- أجل يمكننا ذلك. فكما للجسد حاجات بيولوجية كالطعام والشراب والاستراحة كذلك للإنسان حاجات نفسية خاصة بوجوده.

- وعندما لا يتم تلبية هذه الحاجات يدخل الفرد في حالة عدم توازن من الناحية الفينومينولوجية ويظهر إلى الوجود ما أطلقنا عليه مصطلح الأعمال التي لم تُنجز. أليس كذلك؟!.

- أجل. لقد وضعت يدك على أهم جانب في هذا الموضوع.

- يا أستاذي، هل سنتحدث عن أبعاد الوجود؟.

- طبعاً، لا بد من الحديث عنها فموضوعنا هو الأعمال التي لم تُنجز. ماذا نعني بالأعمال التي لم تُنجز؟ نعني أنه لم يتم إكمال أحد جوانب الجشطالت، أي لم يكتمل عمل ما في حياة الإنسان وبقي ناقصاً. وهذا يعني أيضاً أن امرأً ما بقي ناقصاً. فما هو هذا الشيء الذي بقي ناقصاً؟

عندما يحدث العطش ياتي الماء فيزيله وبإزالة العطش يكتمل الجشطالت وتعود حياة العضوية إلى توازنها وتكون قد أتمَّت عملها فيما يخص العطش، ولا يبقَ لديها أية حالة بحث متعلقة بهذا الدافع. بعد إزالة العطش تدخل العضوية في حالة بحث جديدة في حال وجدت نواقص أخرى بغية إزالتها.

لكي نتمكن من فهم الأعمال التي لم تُنجز فيما يتعلق بوجود الفرد داخل فينومينته يجب علينا معرفة الأبعاد الأساسية لوجوده. وبعد هذه النقطة فقط يمكننا فهم ما بقي ناقصاً لم يكتمل.

- أي إذا كنا لا نعلم بوجود الحاجة للماء لدى الفرد فلن نستطيع معرفة أن هذا الشخص يسعى من أجل الماء، ولا يمكننا تقديم الماء له لإزالة عطشه إلاّ بعد إقراره بأنه يحتاج للماء. وكذلك الأمر، سنتمكن من فهم الأعمال التي بقيت ناقصة لم تكتمل من خلال معرفتنا بأبعاد الوجود الأساسية. هل تراني فهمت الموضوع جيداً يا سيد دوغان؟!.

- ممتاز.

- ما هي إذن أبعاد الوجود الأسياسية؟!.

- سأتحدث عنها الآن ولكن بعد أن آخذ رشفة من قهوتي.

أخذت رشفة من فنجاني وتبعتها برشفة من كأس الماء.

ثمة ناقلة وقود متجهة نحو البحر الأسود، باخرة الركاب المنطلقة من أوسكودار باتجاه كباتاش انحرفت عن مسارها قليلاً كي لا تصطدم بناقلة الوقود. فكَّرت بالناس العاملين في ناقلة الوقود وبالركاب في باخرة نقل الركَّاب: لو سمعوا المواضيع التي كنت والسيد عارف نتناولها منذ قليل فكم كانوا سيهتمون بها وبماذا كانوا سيفكرون.

❖ بُعد أن تكون موجوداً أو غير موجود:

بعد فترة من الزمن تابعت الحديث:

- من المفيد التنويه إلى ما يلي: تتشكل الأبعاد الأساسية للوجود ضمن فينومينة الفرد، أي ضمن عالم إدراكه وفهمه. غير أن هذا الإدراك قد لا يكون إدراكاً عقلياً أو ذهنياً بل إدراكاً يبقى على مستوى الإحساس أيضاً. إذ يكفي أن يشعر الفرد أو أن يعتقد بوجود ذلك.

- أي يكفي أن يفهم الفرد، وليس أحداً آخر، ذاته وأن يشعر بها.

- أجل أول بعد من أبعاد الوجود الأساسية هو بعد الانتباه إلى هذا الوجود. ففي هذا البعد يعيش الفرد، من الناحية النفسية، فينومينته على شكل «أنا موجود» أو «أنا غير موجود».

سألت السيد عارف فيما إذا كان قد وقف ذات مرة بالدور من أجل استلام شيء ما. فقال طبعاً. فسألته فيما إذا كان أحد الأشخاص قد قام بمخالفة قواعد الدور وأخذ دوره فقال: «يا أستاذي لا تنسَ أننا نعيش في تركيا وهذا الانتهاك يُعتبر أمراً طبيعياً هنا».

- ما هو شعورك عندما يأخذ أحدٌ ما دورك في الطابور يا سيد عارف؟.

- أشعر بالضيق والانزعاج. إذ أن عدم إعطائك أي اعتبار والتعامل معك وكأنك غير موجود لهو أمر يثير الغضب.

- إذن في هذا الموقف الذي نتحدث عنه لا يتم تلبية الحاجة الأولى للوجود، بل ويتم إهمالها.

- وكأنهم. بمعنى من المعاني، يقولون لي أنت لست موجوداً.

- نعم، فعلاً إنهم يقولون لك بأنك غير موجود، ولكنك كإنسان ولدت لكي تكون موجوداً، وهذه حاجة موجودة لديك، فأنت مستمر في الحياة لكي تكون موجوداً.

- وهذا يعنى أنه عندما أتلقى رسالة أو إشارة من أحد ما تدل على أنني غير موجود في أي موقف من المواقف، أكون قد وُضِعت في موقف لا يختلف عن الموقف الذي أعيشه لحظة العطش.

- يا له من تشبيه ممتاز، نعم في كل مكان يتم التعامل معك فيه على أنك غير موجود ويتم تهميشك فيه تظهر إلى الوجود حالة عدم توازن ضمن فينومينتك، فتجد نفسك تبذل الجهود الحثيثة من أجل إزالة هذا القلق واللاتوازن. فماذا تقول للذي يأخذ دورك في الطابور على سبيل المثال؟!.

- غالباً ما أستخدم عبارات من قِبل: «ياأخي انظر يوجد دور هنا، فأرجو أن تدخل في الطابور».

- حسناً، وماذا يحدث بعد ذلك؟.

- والله يمكن للإنسان أن يواجه مواقف مختلفة في هذا المجال، فإذا ما قال الشخص: «عفواً لم أر الطابور» وأخذ مكانه بشكل طبيعي فإن غضبي يزول فوراً، لأن هذه هي حالة الإنسان فقد يكون حقاًلم يرَ الطابور.

- أي أن حالة عدم التوازن هذه التي يشعر الإنسان بها تزول كما تزول حالة عدم التوازن الناجمة عن العطش؟ إذ أنك تقول: «يزول غضبي».

- أجل، لأنه يكون قد عاملني كإنسان.

- وبذلك يكون قد تم تلبية حاجة «التعامل معك كإنسان»

- أجل.

- حسناً وهل تقابل أشخاصاً آخرين يتصرفون بطريقة مختلفة؟.

- طبعاً. ففي إحدى المرات قلت لشخصٍ انتهك نظام الطابور: «ادخل في الطابور يا صديقي» فنظر إليَّ باشمئزاز وقال «هاأنذا أقف بالطابور ألا ترى ذلك؟».

- حسناً. وبماذا شعرت عندما قال لك ذلك؟.

- خطر بذهني أن أذهب وأضربه ولكنه كان أضخم مني ومن جهة أخرى كان له أصدقاء خارج الدور يقفون كالعصابة يبحثون عن المشاكل، فبقيت صامتاً ولم أفعل شيئاً.

صمت السيد عارف ثم أخذ رشفة من كأس الماء وأردف قائلاً:

- عندما تحدث مواقف كهذه يزداد غضبي ويستمر وأبقى محتفظاً بهذا الغضب في داخلي.

- ألايزال غضبك مستمراً حتى الآن، ولو بنسبة ضئيلة، من الرجل الذي قال لك: «هاأنذا أقف في الطابور ألاترى ذلك؟».

- لأعترف لك يا أستاذي: نعم.

- أي إنها تتحول إلى عمل لم يُنجز. أليس كذلك؟!.

- نعم، ولهذا عندما يحدث أمر كهذا مرة أخرى أكون أكثر حساسية لكأن غضبي القديم يُضاف الى الحادثة الجديدة.

- وصلنا إلى نقطة جيدة ونستطيع القول: تمتاز بعض الأعمال التي لم تُنجز بخاصية التراكم.

- ياأستاذي، هذه خاصية يطول الحديث عنها، أفكر أحياناً بالعلاقة الزوجية. لنفترض أن رجلاً ما لا يولي أهمية لزوجته ولا يصغي لها ولا يرد على أسئلتها. وفي كل مرة يعاملها بهذه الطريقة تنزعج وتكتم انزعاجها وتغضب ولكنها لا تصرِّح بغضبها فتتراكم الأعمال التي لم تُنجز في نفسها، ومن ثم يأتي اليوم الذي تصل فيه هذه التراكمات إلى نقطة لا تُحتمل، فما أن يهملها زوجها أو يهمِّشها حتى تنفجر.

ربما يكون هذا الموضوع، أي الموضوع الذي أدى إلى الانفجار، تافهاً وبسيطاً جداً غير أن رد فعل المرأة في الحقيقة لم يكن على هذا الأمر التافه بل يكون رد فعل على كل الأمور والأعمال التي لم تُنجز والتي تم تراكمها.

- طبعاً، يصاب الرجل بالدهشة حين تنفجر زوجته ولسان حاله يقول: «ماذا جرى لهذا المرأة، هل أصيبت بالجنون؟».

- نعم، أضف إلى ذلك أن قلق هذه المرأة المتعلق بوجودها يتفاقم ويصل إلى مرحلةٍ يعبِّر فيها عن نفسه كلما رأت زوجها.

- عبَّرت عن هذا الموضوع بشكل رائع. ولكي تعود علاقة هذين الزوجين، اللذين تحدثت عنهما، إلى حالتها الطبيعية يجب أن يتم إنجاز كافة الأعمال التي لم تُنجز.

- يا أستاذي، ويمكننا قول الأمر ذاته بالنسبة للعلاقات داخل الشركة، إذ يمكننا الحديث عن علاقة الإدارة بعمالها كما تحدثنا عن علاقة الزوجين فيما بينهما. فإن أهملت الإدارة عمالها وإن تراكمت الأعمال التي لم تنته فيما بينهم فلن تكون علاقتهم وردود أفعالهم مختلفة كثيراً عن علاقة الزوجين وردود أفعالهم.

- بالتأكيد. كذلك الأمر بالنسبة لعلاقة الإدارة بالمدرسين الموجودين في المدرسة التي تُدرِّس فيها.

- ويصحُ هذا الأمر أيضاً في علاقة الدولة بمواطنيها، فعندما أراجع دائرة حكومية تواجهني هناك العديد من الأعمال التي لم تُنجز.

- من المؤكد أنك تستخدم مصطلح الأعمال التي لم تُنجز في العديد من المعاني.

- أ، أ ... طبعاً، ففي الدوائر الحكومية لا نتمكن من إنجاز الأوراق المطلوبة، والأسوأ من هذا أننا نغادر الدائرة بالعديد من الأعمال التي لم تُنجز فيما يخص الوجود الذي نتحدث عنه.

- إذا نظرت إلى علاقة الدولة مع الموظف الذي يعمل في دائرة حكومية فستجد أيضاً أعمالاً كثيرةً لم تُنجز.

- أي أنك تريد القول إن هناك أعمالاً لم تُنجز فيما يتعلق بمسألة الوجود في كل مكان توجد فيه علاقات اجتماعية.

- نعم هذا ما أريد قوله، لأن الإنسان يمكن أن يكون موجوداً أو غير موجود فقط وفقط ضمن شبكة علاقاته، ولا يمكن أن يتحقق إشباع أو إزالة الحاجة إلى الوجود إلاّ ضمن هذه العلاقات.

- يا أستاذي ثمة نتائج هامة وخطيرة لهذا الموضوع فيما يخص تربية الأطفال.

- طبعاً يا سيد عارف. فلقد وضعتَ يدك على مجالٍ هام ولكنني الآن لا أريد الدخول في مواضيع كهذه وسأكتفي بالقول: طالما أن الأهل لا يلبّون حاجة طفلهم فيما يخص مسألة إثبات وجوده فمن المستحيل أن ينمو كفرد سوي وسليم.

- ألهذا الحد؟!.

- نعم الأمر هام إلى هذا الحد. إذ أن هذا يمثل الحاجة الأساسية للوجود.

- ولكن توجد حاجات وجود أخرى أليس كذلك؟!.

❖ بُعد الحدود:

- من أهم حاجات الوجود الأساسية هو تقدير الوجود أو إعطاءه الاعتبار والاهتمام. ولكن كما توقعتَ، ثمة حاجات أخرى للوجود، إحدى هذه الحاجات هي احترام حدود الفرد وعدم انتهاكها.

- لا شك أن المقصود هنا هو الحدود النفسية....

- تتشكل حدود الفرد من كل شيء موجود ضمن فينومينته، ويستطيع أن يصفها بقوله: «هذا جسدي، هذا مكاني، هذه أغراضي، هذه معلوماتي، هذه مشاعري».

- هل أُعتبر انتهكت حدود شخص ما إذا أخذت أغراضه دون إذنه؟.

- ما رأيك أن تجيب أنت على هذا السؤال؟ هل تغضب إذا أخذ شخصٌ ما أغراضك دون إذنك؟.

- هذا مرتبط بمن يكون هذا الشخص.

- ولهذا قلتُ شخص ما دون أن أحدِّد هويته.

- إن كان شخصاً غير محدد أغضب طبعاً. ولكن هناك بعض الأصدقاء وبعض الأشخاص المقربين مني يستطيعون أخذ بعض أغراضي دون إذني.

- تتغيَّر الحدود النفسية للإنسان حسب نوع العلاقة القائمة بينه وبين الأخرين، ولكن هناك حدود لا يمكن تجاوزها حتى ولو كان الشخص من أعز المقربين.

- هذه الحدود غير مرئية، إنها حدودٌ نفسيةٌ.

- طبعاً إنها حدود نفسية تشكلت ضمن فينومينة الشخص. ولكنه لا يعرف هذه الحدود أو بالأحرى لايعرف أنه وضع لنفسه هذه الحدود.

- ألا يعرف بها؟.

- نحن لا ننتبه إلى هذه الحدود ما لم يتم انتهاكها. وعندما تُنتهك حدود الإنسان ينتبه لوجودها.

في أحدى الندوات التي قدمتها دعوت سيدة متزوجة إلى المنصة لكي أشرح هذا المصطلح. ثم أرسلتُ هذه السيدة، التي لم أكن أعرفها سابقاً، إلى زاوية الصالة، وبعد أن تركتُ بيني وبينها مسافة كبيرة بدأتُ معها حديثاً ودياً. وبعد نصف دقيقة سألتها فيما إذا كانت المسافة التي بيننا مناسبة للحديث أم لا. فقالت بأن المسافة كبيرة جداً. وعندما طلبت منها الاقتراب حتى تصل إلى المسافة التي تشعر فيها بالراحة والاطمئنان، اقتربت مسافة معينة ثم توقفت تاركة مسافة متر واحد بيننا، سألتها إذا ما كانت هذه المسافة تشعرها بالاطمئنان فعلاً، فقالت: إنها مرتاحة جداً. فقلت لها: «لنفترض لدينا **مقياس راحة- توتر** مدرَّج من الواحد إلى العشرة، ولنفترض أن مقياس التوتر الآن على نقطة الصفر بسبب المسافة التي بيننا. والآن سأقترب منكِ شيئاً فشيئاً، فإذا ما تغيَّر مستوى توترك وانزعاجكِ ضعي نقطة من واحد إلى عشرة وذلك حسب نسبة التوتر، أي عبِّري عن مدى توترك من خلال هذه الأرقام» وفعلاً كلما كنت أقترب كان يزداد توترها وتعبِّر عن هذا التوتر من خلال وضع أرقام مثل ثلاثة أو خمسة وبعد ذلك قالت بأن توترها ازداد كثيراً، فتوقفت عن التقدم باتجاهها. أجريت هذه التجربة أكثر من مرة ودائماً كنت أسال المفحوصين قائلاً: لو تقدم زوجك إلى هذه المسافة هل تشعرين بالتوتر ذاته؟ ودائماً كان يأتيني الجواب: «لا» ويقولون بأنهم لا يشعرون بالتوتر عندما يقترب إلى هذه المسافة أحد الأقارب: زوج، زوجة، ولد أو أخت أو أخ. وكانوا يخبرونني بأنهم لم يكونوا يدركون بوجود هذا النوع من الحدود لديهم.

- الآن يا أستاذي بدأت أفهم سبب توجيه نظري إلى الأرض أو إلى السقف عندما أكون في المصعد مع شخص لا أعرفه.

- مثال ممتاز. غالباً ما يتم انتهاك حدود الناس في المصاعد. لأن هذا الوضع يخلق حالة عدم توازن ضمن فينومينة الفرد وتستمر حالة التوتر هذه حتى تزول حالة عدم التوازن.

- أي حتى خروجهم من المصعد.

- أجل يعتبر هذا الشعور من الأبعاد الهامة للوجود، ويحتل مكاناً له في حياة الإنسان كأحد الظواهر الهامة جداً.

- في حياة البشر فقط؟!.

- أنا لا أتحدث عن عالم الحيوان. ولكن على اعتبار أنك تحدثت عن هذا الموضوع أستطيع القول: لا شك أنك تعلم بأن هذه الحدود في عالم الحيوان تؤدي إلى صراع حياة أو موت.

- ألا ترى يا أستاذي أن العديد من الصراعات القومية التي تجري اليوم متعلقة بالصراع على الحدود أو بالأحرى امتداد لأعمال لم تُنجز متعلقة بالحدود؟.

- طبعاً يمكننا رؤية ذلك بوضوح ولكن لن ندخل في مواضيع سياسية كهذه، ولنكتف بالقول إن حماية الشخص لحدوده والاعتراف بها من قبل الآخرين هي واحدة من الحاجات الهامة للإنسان.

وإن أي انتهاك لهذه الحاجة يخلق عدم توازنات هامة، وإذا لم يتم إزالتها فإنها تترسخ في حياة الإنسان على اعتبارها أعمالاً لم تُنجز.

دخلنا في نقاش جاد وجميل، أحسست بالحاجة للذهاب إلى المرحاض فابتسمت وقلت للسيد عارف: «أعاني الآن من حالة عدم توازن» نظر السيد عارف إلى وجهي ليفهم ما أريد قوله ولكنه لم يفهم فقلت له يجب أن أذهب إلى المرحاض، فضحك وقال: «لديَّ أنا أيضاً حالة عدم توازن شبيهة بتلك التي تعاني منها» وبذلك قررنا إعطاء «استراحة لتلبية الحاجات».

عندما كان السيد عارف في الحمام غسلت قليلاً من العنب الخالي من البذور والشبيه بقطع الكريستال ووضعته على الطاولة إلى جانب المقاعد التي نجلس عليها. عندما عاد السيد عارف ورآه قال: «كأنك قرأت أفكاري يا أستاذي، فقد قلت في نفسي لو وُجد قليلٌ من العنب لأكلناه» ثم تابعنا حديثنا:

❖ بُعد المسؤولية:

- المسؤولية واحدة من الأبعاد الأساسية للوجود فالإنسان يرغب في إنجاز كافة الأمور التي يرى أنها واقعة ضمن ساحة مسؤوليته.

- يبدو أن لهذا علاقة وثيقة بوعي الحدود.

- نعم هناك علاقة وثيقة بينهما. ما هي الأشياء التي تقع ضمن حدود مسؤوليتي وما هي الأشياء التي تقع ضمن حدود مسؤولية غيري؟! وعندما لا تتحقق تطلعاتي المتعلقة بهذه الأشياء الواجب إنجازها تحدث حالة عدم توازن داخل فينومينتي.

- يأستاذي، من جديد سأطلب منك مثالا على هذا الموضوع.

- تذكر أنني حدَّثتك في بداية لقائنا عن صديق لي كنا نتنزه سوية في غابة سيكويا في كاليفورنيا. أليس كذلك؟!.

- نعم أذكر.

- وتذكر أنه كان يغضب دائماً من زوجته لكونها تتحدث بأحاديث متناقضة، فما تتحدثه اليوم تناقضه غداً؟.

- نعم. وهذا موضوع متعلق بالانسجام والشخصية المتكاملة والمسؤولية فلقد تشكلت في فينومينة تلك المرأة حالة عدم استقرار أو عدم توازن.

- أعتقد أنه كثيراً ما تحدث صراعات في أماكن العمل حول الانسجام وتكامل الشخصية والمسؤولية.

- من الطبيعي ظهور هذه المشاجرات والصراعات ولكن الأمر غير الطبيعي هو أن تصل هذه الصراعات إلى مستوى الأعمال التي لم تُنجز.

- تؤثر الأعمال التي لم تنته في أماكن العمل سلبياً على العلاقات القائمة بين الناس وعلى الإنتاج وعلى حب العمل.

- نعم، لها تأثير سلبي. إذ أن الأعمال غير المنتهية في مكان العمل تخفض من سرعة عمل المؤسسة وقد تكون في كثير من الأحيان سبباً هاماً في انهيار المؤسسة والقضاء عليها.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك يا سيد دوغان؟!.

- كلا لن أقدم مثالاً، لأنني أتحدث معك ضمن إطار التحول إلى محارب ولهذا السبب لن أدخل في مواضيع متعلقة بأماكن العمل.

❖ بُعدُ شعور الفرد بأنه إنسان طبيعي:

عندما فهم السيد عارف بأنني لم أهتم بأوضاع أماكن العمل شعر بالحاجة لأن يطرح سؤالاً متعلقاً بالمحارب فقال: «هل لدى المحارب أعمال لم تُنجز؟!».

- سؤال جميل ولكن اسمح لي قبل الإجابة على هذا السؤال أن نتابع إلقاء نظرة سريعة على الأبعاد الأساسية للوجود وبعد ذلك سنقيم علاقة بين ما تحدثنا به وبين المحارب.

- حسناً.

- شعور الفرد بأنه إنسان طبيعي واحد من الأبعاد الأساسية للوجود. وهو شعور مفاده: «لا يوجد في شخصيتي ما هو غريب أو غير مألوف، وأنا شخص يقبلني الجميع كما أنا».

- أي طالما أن الذين يعيش الفرد بينهم يقولون له: «أنت إنسان طبيعي ولا يوجد في شخصيتك أي أمر غريب، فإنه لن يوجد في فينومينته

أي نوع من أنواع عدم التوازن التي قد تحدث إذا ما قال أحدهم له: «ثمة غرابة وأشياء غير مألوفة في شخصيتك أو إذا أظهروا له انطباعاً يفيد بذلك.

- ويبدأ سعي الإنسان من أجل إعادة التوازن ويقيم تواصلاً مع الشخص الذي يبدي هذا الانطباع. وإذا تم إعادة التوازن إلى وضعه الطبيعي في فينومينة هذا الشخص في نهاية التواصل الذي أقامه فإن العلاقة تستمر على أحسن حال، ولكن إذا لم يؤدّ هذا التواصل إلى إزالة حالة عدم التوازن فإن هذا الموضوع يتحول إلى عمل لم يُنجز.

أكلت عدة حبات من العنب وتابعت حديثي:

- والأمر ذاته يحدث في أبعاد الوجود الأخرى، هناك بُعدٌ آخر من أبعاد الوجود الأساسية وهو: بُعد أن يكون الفرد جديراً بالمحبة. أي أن يشعر الإنسان داخل فينومينته بأنه جدير بأن يشتاق إليه الآخرون ويحبونه ويرغبون بالعيش معه، وبأن ينظر إلى نفسه على أنه إنسان يستطيع أن يشتاق للآخرين ويحبهم ويرغب بالعيش معهم.

وهناك بعد آخر يتمحور حول رغبة الفرد بأن يرى نفسه جزءاً هاماً من هذا الكل الكبير، وبأنه جزء ذو قيمة ولا يمكن الاستغناء عنه ويُطلق على هذا البعد مصطلح «بُعد رغبة الإنسان بأن يكون ذا قيمة».

آخر بعد من أبعاد الوجود الأساسية هو رغبة الفرد بأن يمتلك القدرة التي تمكّنه من تحقيق كل رغباته، أطلق على هذا البعد مصطلح بُعد الثقة. فالإنسان يرغب بأن يكون واثقاً من أنه يمتلك القدرة التي تمكّنه من تحقيق رغباته وبتلبية هذه الحاجة يؤمن الإنسان ويثق بأنه يمتلك القدرة التي تمكّنه من تطبيق أفكاره وتحقيق رغباته ومتطلباته.

- حقيقة يا سيد دوغان، إن أبعاد الوجود هذه أساسية ومن النوع الذي يشمل كافة نواحي الحياة. وهذا يعنى أنه إذا لم يتم تلبية واحدة أو

أكثر أو إذا لم يتم تلبية كافة هذه الأبعاد فستقع حالة عدم توازن في حياة الإنسان ويدخل في هذه الحالة تحت تأثير الأعمال التي لم تُنجز.

- وعندما يكون الأمر كذلك، لن يعيش الإنسان «الآن وهنا» ولن يدركه ولن يعطيه أي معنى، بل سوف يستحضر الماضي إلى الآن ويواصل عيش هذا الماضي بدلاً من أن يعيش حاضره. فالأعمال التي لم تُنجز تحوِّل الماضي إلى سجن يحبسنا خلف قضبانه.

❖ أن يكون الإنسان مليئاً بالأعمال التي لم تُنجز:

- قدمتَ يا سيد عارف مثالاً عن مدى تأثير الأعمال التي لم تُنجز على العلاقات الزوجية، وأنا الآن سأقدم مثالاً على هذا الموضوع: «الموضوع الأول الذي سأقف عنده هو: يمكن أن يبدأ أحد الزوجين، سواء كان الرجل أو المرأة، حياتهما الزوجية بالعديد من الأعمال التي لم تُنجز.

ضحك السيد عارف وقال: «ليكن الله بعونهما» فضحكت وتابعت حديثي:

- أنا أرغب بتقديم مثال وحسب، لنفترض ان هذه الزوجة/الفتاة عندما كانت صغيرة لم تكن تجد عند والدها المحبة والتقدير، وهما من حاجات الوجود الأساسية، ولأنه لم يتم تلبية هذه الحاجة تكبر هذه الفتاة وفي داخلها عمل لم ينته وعندما تصل إلى مرحلة الزواج تعثر على شخص يذكِّرها بوالدها ويمتلك شخصية تشبه شخصيته، طبعاً، غالباً لا يعرف الفرد سبب ذلك ولا يدركه وكل ما يعرفه أن الشخص الذي اختاره إنسان «هام» و«جذاب» و«مؤثر» وبعد أن «تعشق» هذا الرجل وتتزوج به تعمل على تلبية حاجة المحبة والاهتمام التي لم تجدها عند والدها من خلال زوجها.

طبعاً الزوج ليس مدرك لكونه تزوج بفتاة صغيرة يوجد في داخلها عمل لم يُنجز، فيعاملها كما تُعامل المرأة الناضجة فيضع العلاقة الجنسية

على قائمة الأولويات، لأنه يدرك أنه بهذه الطريقة سيتم تلبية حاجات الوجود الأساسية له ولزوجته ضمن إطار الحياة الزوجية.

- أنت تعرف يا سيد دوغان بأنني لست متزوجاً، وإنني أخاف كثيراً من الزواج عندما تتحدث بهذه الطريقة.

- ممتاز. من حقك أن تخاف كما تشاء، وبذلك تأخذ قرارك كإنسان محارب بأعلى مستوى من الوعي الذي تحضره إلى الوسط لكي لا تتخذ قراراً اعتباطياً كالذي اتَّخذته أنا.

- هل تضمن لي أن أكون سعيداً؟!.

- قل لي يا سيد عارف، هل يوجد أية ضمانات في هذه الحياة؟ طبعاً ليس هناك أية ضمانة. ولكن لاشك بأنك تقبل معي بأنك ستشعر بالطمأنينة والمعنى والقوة في حال عرفت العمل الذي تقوم به وعرفت لماذا تقوم به.

- في الحقيقة الآن بتُ أعرف هذا يا أستاذي، فلقد زال من ذهني الاضطراب والتشوش الذي كنت أعاني منه فيما يتعلق بمهنة التعليم وصرت أعرف جيداً ما الذي أفعله ولماذا أفعله.

صمتنا لفترة....

أطلقتْ سفينة نقل وقود تمرُ من المضيق، زمورها لتنبيه قوارب الصيادين الصغيرة التي تقف في طريقها. بقيتْ أصداء الزمور في آذاننا لفترة ليست قصيرة. نهضنا كلانا ونظرنا إلى السفينة وإلى القوارب الموجودة في المضيق.

كانت القوارب تبدو صغيرة وضعيفة أمام السفينة الضخمة، وبالرغم من ذلك فقد كانت هذه السفينة مضطرة لتضع هذه القوارب بالحسبان وتطلق زمورها من أجل تنبيهها.

جلسنا بعد ذلك وأكلنا بعض حبات من العنب.

- لا شك بأنك تفكر بعلاقة كل ما تحدثنا به بموضوع التحول إلى محارب.

- أستطيع توقع هذه العلاقة ولكنني أنتظر منك تفسيراً أكثر وضوحاً.

- من خلال الوعي المراقِب الذي يمتلكه يدرك المحارب كافة المراحل التي يعيش فيها فالإدراك حسب فريدريك بيرلس هو أفضل علاج. فالإنسان عبارة عن مخلوق يدرك باستمرار، وإذا استمر بالحفاظ على إدراكه يقظاً فإنه سيدرك فوراً حالة عدم التوازن التي تحدث في حياته لحظة حدوثها، ويبذل كل ما بوسعه من أجل إعادة التوازن إلى أفضل شكل ممكن ويُتمم عمله الذي لم يُنجز.

- هل يمكننا القول بأن المحارب إنسان يحافظ على استمرارية إدراكه المزُوَّد بوعيه المراقِب؟ لهذا السبب يكون احتمال تراكم الأعمال التي لم تُنجز عند المحارب ضعيفاً جداً.

- ملاحظتك في مكانها يا سيد عارف. فمن جهة يفهم المحارب الوضع من خلال وعيه المراقِب ومن جهة أخرى يتزوَّد في عمله هذا بنيَّة نقية ضمن إطار وعيه للموت من خلال خفض مستوى إعجابه بنفسه إلى أدنى حدٍ.

«فالأنا الموضوعي أو الـ«Ego» كما تعلم مصدر للعديد من الرغبات النابعة أساساً من عنصر التبعية. لماذا؟ لأن حب الاعتراف به من قبل الآخرين وحب الشهرة واكتساب إعجاب الآخرين وتقديرهم وامتلاك القوة أكثر من الآخرين، جميعها تنبع من الأنا الموضوعي.

«أمَّا الأنا المراقب فإنه يتسامى على هذا النوع من الرغبات، إنه يدرك وجود هذه الرغبات ولكنه يكتفي بمراقبتها، فهو يعبِّر عن ذاته ضمن إطار النيَّة الصافية وضمن العلاقة مع اللوحة الكبيرة.

فشعورك الذي يتمحور حول: «ما الذي سيقوله الآخرون عني؟ أو لقد أخطأت باختياري مهنة التعليم» لَهوَ شعور نابع من الأنا الموضوعي

الخاص بك. ومن جهة أخرى، إن نيَّتك المتمحورة حول: «توفير الإمكانيات اللازمة لكي يصل طلابي وزملائي المعلمين إلى أفضل مستوى يمكنهم الوصول إليه» عبارة عن إدراك نابع من الأنا المراقب.

«فطالما أنك تعيش ضمن مستوى الأنا الموضوعي الخاص بك فإن حياتك ستمتلىء بأكداس الأعمال غير المنتهية التي ستتراكم فوق بعضها البعض. ولأنك الآن لا تعبِّر عن وجودك من خلال الأنا الموضوعي بل من خلال الأنا المراقِب فإننا نستطيع القول إنه لا يوجد في حياتك عمل لم ينته من نوع: «ما الذي سيقوله الآخرون عني؟»».

- هذا يعني أن المحارب سعيد ضمن إطار حياته الخاصة به لأنه يعبِّر عن وجوده من خلال الأنا المراقب، فحياته هي حياة خاصة به وحده. هل يمكننا قول هذا؟!.

- بالتأكيد. فحياة المحارب، حقيقةً، حياة خاصة به وحده.

- حسناً، وهل يمكننا ياسيد دوغان القول إن المحارب يدرك كافة حالات عدم التوازن لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن الوعي الذي يحضره إلى الوسط؟!

- أجل لقد لامست نقطة هامة ورائعة: إذ ليس من خِصال المحارب خلق حالات داخله بذريعة أنه لا يريد أن يجرح الآخرين أو يكسر خاطرهم. فالمحارب يعيش حياته من خلال إتمام كل شيء «الآن وهنا» ضمن إطار شخصيته المتكاملة ونيَّته الصافية وبإحساس عالٍ بالمسؤولية. فهو لا يعمل أبداً على تخزين أعمال لم تُنجز داخله.

- حسناً، ولكن ما الذي سيحدث إن انزعج منه أحدهم بسبب هذا السلوك؟!.

- صحيح أن المحارب يولي أهمية لعنصر التبعية في حياته وفي شخصيته ولكنه لا يسمح بأن يُستخدم كتابع. وكما قلت سابقاً، يتصرف

المحارب ضمن بُعد التبعية من خلال خياراته الحرة ويعيش ضمن شخصية متكاملة وبشعورٍ عالٍ بالمسؤولية، وأما الذين ينزعجون من رؤية المحارب كما هو فهؤلاء لا تستمر صداقتهم معه لفترة طويلة، إنها أشبه بعملية الاصطفاء الطبيعي، والمحارب يولي هذه العملية الأهمية القصوى.

❖ إذا لم تتوفر إمكانية إقامة التواصل /التفاعل:

- حسناً يا سيد دوغان، أحياناً يصادفك وضع ما، كأن لا توجد إمكانية إقامة تواصل مع من حولك من أجل إتمام عمل لم يُنجز، فمثلاً شخص يوجد بينه وبين والده عمل لم ينته، ولكن والده توفى، ما الذي يجب أن يفعله هذا الشخص خاصة وأنه لا يمكن الحديث مع الموتى؟!.

- هناك العديد من الأشخاص يوجد بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم أعمال لم تُنجز، والناس الذين لا يعانون من ذلك قليلون جداً. لماذا؟! لأننا، ونحن ننمو ونكبر ننظر إلى آبائنا وأمهاتنا على أنهم الأقوى بين كل الناس ولذلك نتأثر بكل ما يعملونه وبكل ما لا يعملونه وبكل ما يقولونه وبكل ما لا يقولونه وإننا ندركهم بأشكال مختلفة في الفينومين الخاص بنا. ولأننا في معظم إدراكاتنا هذه ننظر إلى الأحداث ضمن إطار حاجاتنا الخاصة بنا وضمن إطار فينومينة وجودنا فإننا نرى آباءنا وأمهاتنا مخطئين «فأنا على سبيل المثال، كنت وحتى زمن قريب أشعر بهذا الشعور تجاه والدي».

- هذا يعني أنه يوجد بينك وبين والدك عمل لم ينته أليس كذلك؟!.

- نعم كان يوجد.

- وهل أنجزت هذا العمل الذي لم يُنجز؟.

- نعم أنجزته.

- وكيف أنهيته يا سيد دوغان؟!.

- بفضل الدراما السيكولوجية التي طبَّقها علي أوستون دوكمان.

- كيف حدث هذا؟ هل ثمة ما يمنع الحديث عن هذا الموضوع؟.

- لا، لا يوجد. يمكنني الحديث عن هذا الموضوع. كنا نقيم ندوة مشتركة أنا وأوستون دوكمان....

- عفواً يا سيد دوغان. هل أوستون دوكمان الذي تتحدث عنه هو ذاته مؤلف كتاب «التقمص العاطفي وصراعات التواصل»؟.

- أجل هو بذاته، وهو عضو هيئة تدريسية في كلية التربية في جامعة أنقرة.

- أهو بروفيسور؟.

- أجل.

- ما لفت انتباهي يا أستاذي أنك لا تحبِّذ استخدام الألقاب.

- يتم استخدام الألقاب في تركيا بشكل مفرط، ربما لهذا السبب لا أحبِّذ استخدامها. فأنا أرى أن المهم ليست الألقاب والمراتب بل الأفكار ومضمونها.

- إذن تقول بأن الأمر سيان سواء صدرت فكرة ما عن أستاذ جامعي أو عن أي مواطن لا يحمل أي شهادات؟

- طبعاً تفرق من حيث الاعتبار ومكانة الشخص. لا تحاول حرف منحى الحديث ودعني أكمل كلامي.

- حسناً يا أستاذي. كنتَ تتحدث عن الندوة التي أقمتها بالاشتراك مع أوستون دوكمان.

- ها.. أجل. فلقد قام السيد أوستون يومها بتطبيق **سيكو - دراما** على الأشخاص المشاركين في الندوة بغية زيادة حساسيتهم فيما يتعلق بالعلاقات التي تحتل مكانها في حياتهم. وقد شاركت أنا أيضاً مع مجموعة المشاركين.

«وضعتني هذه السيكودراما، التي تناولت علاقتي مع والدي، في وضعٍ اضطررت فيه لأن أنظر إلى الأحداث بعيني والدي».

«حتى ذلك الوقت كنت أقيِّم والدي سلباً، كنت أحاسبه وأحاكمه دائماً لأنه لم يهتم بي ولأنه لم يخصص لي وقتاً للإطلاع على شؤوني ولأنه لم يتصرف بشكلٍ واعٍ فيما يخص تطويري. وإنني اليوم أقول كلامي هذا وأنا أشعر بالخجل من نفسي، حتى أنني في بعض الندوات كنت أقدِّم والدي مثالاً على الأب الفاشل.

«وعندما جعلني السيد أوستون أنظر إلى الأحداث بعيني والدي وضعت نفسي مكانه وفجأة أدركت كل شيء. بداية، أدركت كيف كانت تمارس الأبوة بين أبناء جيله ثم اكتشفت أن والدي لم يكن أسوأ من بقية الآباء من أبناء جيله، بل أحياناً كان أفضل منهم من عدة نواحٍ، فمثلاً، كان قد خصص لكل ولد من أولاده دفتر مذكرات وكان يعطي كل ولد من أولاده الدفتر الخاص به عندما يتزوج.

- وهل خصص لك دفتر مذكرات؟.

- نعم، ولكنه لم يكتب في دفتري الخاص بي سوى ثلاث صفحات، ولكن المهم أنه كان لدى الرجل نية بالكتابة، ولم أسمع في منطقة سيليفكة عن أي أب من أبناء جيله قام بذلك.

- حقاً أنها فكرة هامة، حتى اليوم لا يفكر أحد من الآباء أو الأمهات بشيء من هذا القبيل. ما هو المستوى التعليمي لوالدك يا سيد دوغان؟.

- هرب من المدرسة عندما كان لا يزال في المرحلة الإعدادية.

- هرب، ولِمَ هرب؟!.

- تيتَّم والدي عندما كان في الخامسة من عمره، أي أنه كبر يتيماً. وعندما أكمل المرحلة الابتدائية، أصبح أنور باشا، وبإقتراح من أحدهم، ولي أمره فسجَّله في مدرسة أضنا. طبعاً كل هذه الأحداث جرت قبل تأسيس الجمهورية.

«اهتمت إدارة المدرسة بوالدي كثيراً بسبب كون ولي أمره رجلاً مثل أنور باشا. ذات يوم انتبه طبيب المدرسة أن والدي لا يتناول الأطعمة التي

وضع عليها ثوم، فنادى للطباخ وقال له: «ستضع قليلاً من الثوم على كافة الأطعمة التي يتناولها هذا الطفل، يجب أن يعتاد على أكل الثوم» وفعلاً بدأ الطباخ يضع قليلاً من الثوم على كافة المأكولات التي كان يقدمها لوالدي الذي كان يكره الثوم منذ طفولته المبكرة، أي عندما وصل إلى تلك المرحلة لم يكن قد ذاق طعم الثوم بعد، لا أعلم فيما إذا كان لهذا الأمر علاقة بالوراثة، ولكن ما أعرفه أنه لم يذق طعم الثوم طلية حياته.

عندما بدؤوا بوضع الثوم في طعامه اكتفى بتناول الخبزالناشف، وعندما أدرك أن هذا الوضع سيستمر خلع ثياب المدرسة ذات ليلة وارتدى سرواله وتدلى من النافذة بواسطة ملاءة السرير، ثم قفز وهرب من المدرسة ولم يعد إليها بعد ذلك.

- أتعلم ما الذي أفكر به الآن ياسيد دوغان؟!.

- لا، بماذا تفكر؟.

- ذات مرة قال دون جوان لكارلوس: كل شيء في هذه الدنيا هام ولا يوجد أي شيء أقل أهمية من أي شيء آخر. تذكرت هذه العبارة وأنت تروي لي القصة، فإذا ما طرح عليَّ أحدٌ ما سؤالاً مفاده: «هل تناول الثوم أمر هام أم لا؟ لا أعتقد بأنني سأهتم بهذا السؤال كثيراً، ولكن انظر إلى تأثير الثوم على حياة والدك وبالتالي على حياتك.

- ملاحظة رائعة يا سيد عارف لم أفكر بها مطلقاً إنك محق تماماً فيما قلته. المهم، عندما نظرت إلى الأحداث بعيون والدي صرت أراه كإنسان فعل أجمل ما يمكن أن يفعله شخص يمتلك الوعي الذي كان يمتلكه، وأحسست يومها بضيق شديد في داخلي.

«والآن أدرك كثرة الأخطاء التي ارتكبتها بحق أولادي على الرغم من أنني حصلت على درجة دكتوراه في علم النفس من أمريكا. فعندما أنظر إلى الوراء أرى العديد من الأخطاء التي ارتكبتها والتي تعتصر قلبي وتجعلني

أشعر بالذنب. فهمت جيداً بأن والدي، الذي هرب من المدرسة الإعدادية وواصل حياته كيتيم ضمن أجواء منطقة سيليفكة، قام بمهمته كأب على أكمل وجه ودون أن يدري بذلك. وقتها انزعجت كثيراً وبكيت في الندوة واعتذرت من والدي أمام الجميع، وتعهدت بأنني لن أحاسبه أو أسائله بعد الآن أبداً، وبأنني لن أقدمه مثالاً على نموذج الأب غير الناجح. وبذلك انتهى غضبي تجاه والدي ولم يبق لديَّ أي عمل لم ينته فيما يتعلق بهذا الموضوع.

– تؤمن إذاً بإمكانية استخدام السيكودراما في هذا الموضوع، أقصد في موضوع الأعمال التي لم تنته.

– الإنسان لا يحتاج للسيكودراما إذ يكفي برأيي أن يتخيّل الإنسان نفسه مكان الشخص الذي لم يُنجز عمله معه ويجري معه حواراً وينظر إلى الأحداث بعينيه ويتقمصه عاطفياً وبذلك يستطيع فهم كل تصرفاته وربما سيعذره.

– عندما يعذر الإنسان تنتهي الأعمال التي لم تُنجز. أليس كذلك؟.

– نعم ولذلك يعتبر العذر والعفو سلوكاً سليماً جداً، طبعاً لا أقصد هنا العفو الخارج من بين الشفتين بل أقصد ذاك النابع من القلب والعقل والذي يحتاج لثراء عاطفي، إذ أن هذا السلوك لا يمكن أن يقوم به إنسان تضخم لديه الأنا الموضوعي.

– في إحدى أحاديثنا السابقة تحدثت عن الرجل الترابزوني الكهل، لا يبدو أن شخصاً كهذا الكهل يراكم في داخله أعمالاً لم تُنجز. أليس كذلك؟!.

– يا سيد عارف لقد وضعت يدك على نقطة هامة جداً. إنك محق جداً في هذا، لأن هذا الرجل الترابزوني اتَّخذ حقاً موقف الإنسان المحارب.

«هل تذكر أيضاً ما الذي قاله لمعاون سائق الباص الشاب عندما صفعه على وجهه؟!.

– قال له: «ها... أنت من صفعني، واضح أنني استحققت هذه الصفعة».

- نعم، أي أنه يقول له: أنت لست مجنوناً لكي توجه لي هذه الصفعة دون سبب - اسمح لي يا سيد عارف باستخدام المفاهيم الجديدة التي تعلمناها - ويردف قائلاً: إن أفضل حالة وجودية ذات معنى ضمن فينومينتك الآن هي أن توجه لي هذه الصفعة، وحسب فينومينتك استحققت أنا هذه الصفعة.

- ولكنه لا يهمل فينومينته فيقول له متسائلاً: «ولكنني لا أعلم لِمَ استحققتُ هذه الصفعة... هيا قل لي إذن، لماذا استحققتُ هذه الصفعة؟! ولو لم يفعل هذا لما أطلقنا على موقفه هذا مصطلح موقف المحارب أليس كذلك؟!.

- بالتأكيد. وكان سيبدأ بتكديس الأعمال التي لم تنته في داخله. وإن جملته التي تقول: «ولكنني لا أعلم لماذا استحققت هذه الصفعة هيا قل لي كيف استحققتها؟ «تعبّر عن موقف الطالب، إذ أن موقف الطالب يُقرُ بأن كل شيء في هذه الحياة عبارة عن اكتشاف جديد داخل فينومينة الفرد، إنها فرصة للتعلُم وفرصة للتطور، أساساً هذه هي نية المحارب.

- أهنئك من كل قلبي يا سيد عارف لأنك أدركت هذه النقطة.

ارتسمت على وجه السيد عارف ابتسامة تعبّر بوضوح عن امتنانه ونظر إلى وجهي وقال: «كما ترى يا أستاذي، تعبك لا يضيع سدىً» فضحكنا.

شعرت بالرضى والامتنان لأنني خصَّصتُ هذا الوقت من أجل السيد عارف وتأكدت الآن من أنني لم أخطئ في تقييمي لجودة «حالة البحث عن معنى» التي رأيتها في عيني السيد عارف عندما التقينا أول مرة.

حان وقت المغادرة. أخبرني أحد الأصدقاء عن وجود مقهى شاي في حديقة غول هانة فقررنا أن نلتقي فيها الأسبوع القادم في الساعة الثالثة بعد الظهر.

فقلت: إن هذا الموعد يناسبني. ثم أوصلته إلى باب الشقة وودعته هناك.

10

لكي يصبح الإنسان محارباً

التقينا في الساعة الثالثة بعد الظهر أمام باب حديقة غول هانة. دخلنا من باب الحديقة الموجود عند جامع السلطان أحمد وسلكنا الطريق صعوداً، أصطفّت محلات البوظة والحلويات والبوشار وبوظة مرعشلي على يسار الطريق ويمينه. اقترينا من المكتبة فخرجت سيدة محجبّة من باب الدكان المجاور وقالت: تفضلوا فقلنا إننا نتفرّج فقط. فابتسمت ولم تقل أي شيء. يعمل بائع البوظة على جذب انتباه المشاة من خلال قرع الجرس الذي يمسكه بيده. يبدو أن معظم الكتب الموجودة في المكتبة ذات طابع ديني. عندما كنّا نسلك طريقنا صعوداً رأى السيد عارف بائع المخللات فاشتهى تناول قليل من المخلل الحار فطلب من البائع، وهو طفل في الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمره، كأساً من المخلل الحار. فوضع الطفل مرقاً حاراً في كأس من البلاستيك وأضاف إليها قطعاً من الخيار والملفوف ثم قدَّمه للسيد عارف الذي سألني «ألا تريد تناول المخلل يا أستاذي» فقلت: «لا : شكراً» وأوضحت بأنهم يضيفون الكثير من الملح على المخلل وهذا ما يرفع ضغطي. عندما كنا نواصل سيرنا شرب السيد عارف قليلاً من ماء المخلل وأكل عدة قطع منها ثم قال لن أكلها إنها حارَّة جداً. ثم بحث عن مكان يرمي فيه الكأس الفارغ ولكننا لم نجد أية سلة مهملات.

وصلنا إلى حديقة الشاي المطلّة على مناظر خلابة. تتكون حديقة الشاي هذه من عدد من الطاولات والكراسي المنتشرة تحت الأشجار بعد ذلك جلسنا على طاولة مطلة على البحر. يوجد في أسفل الحديقة مباشرةً أسوار استانبول وسكة القطار، ثمة حديقة جميلة بين حديقة غول هانة وسكة القطار نمت أشجارها بشكل جميل وسليم. خطرت على ذهني الحروب التي دارت رحاها على هذه الأسوار فكرت: ربما يعبِّر الذين ماتوا هنا عن أنفسهم من جديد من خلال إعطاء هذه الحيوية للأشجار. جلست على الطاولة بحيث كان البحر أمامي بينما كان اتجاه السيد عارف نحو منطقة سيركجي. على يميني يمتد بحر مرمرة... تتجول فوقه قطيع من السحب البيضاء، تبدو الجزر أمامنا بوضوح، عندما ينظر الإنسان من هنا يفهم سبب تسمية جزيرة هيبلي بهذا الإسم. من الشطر الآخر من استانبول تظهر أمامنا مناطق حيدر باشا وحرم وقلعة الفتاة وصلاجك وأوسكودار. ومن الممكن أيضاً رؤية بناء ثانوية حيدر باشا، الطريق البحري مزدحمٌ جداً حيث يكتسب حيويته من ناقلات النفط وسفن الشحن وبين هذه وتلك تنتشر بواخر النقل الداخلي وباصات النقل البحري التي تنقل الركاب بين مناطق المدينة.

يشكل جسر المضيق كلاً متكاملاً مع زرقة البحر التي تحته والسحب البيضاء التي فوقه. تقع مناطق أورتاكوي وبشيكتاش وكراكوي ضمن مجالي البصري.

قال السيد عارف: «يمتلك هذا المكان إطلالة على منظر طبيعي يقدر بـ270 درجة» وفعلاً، كنا في واحدة من أجمل مناطق استانبول، وقد شعرت بالسعادة لأنهم حوّلوا هذا المكان إلى حديقة شعبية. جاءت الشاي وهي عبارة عن سماور لشخصين، في الإبريق الأعلى توجد الشاي المخمَّرة وفي الأسفل إبريق يحتوي على الماء الساخن. طلبنا من النادل الذي أحضر

لنا زجاجة ماء وكأساً أن يجلب لنا كأساً آخر. أخبرت السيد عارف بأننا سنلقي نظرة في هذا اللقاء على ما قاله دون جوان فيما يخص الإنسان المحارب. وبدأنا بالحديث: فسألني السيد عارف قائلاً: يبدو واضحاً أنك تولي دون جوان أهمية كبيرة يا سيد دوغان، فما هو السبب الذي يجعلك تولي دون جوان كل هذه الأهمية؟! فقلت:

- أرى أنه شخص يمتلك شخصية قوية، إذ أنه يطبق كل ما يقوله في أفعاله وفي حياته، ناهيك عن أن مشاهداته واقعية وأفكاره من النوع الذي يمكن تطبيقه في الحياة. فلديه أسلوب يحاكي فكري العلمي وفي الحقيقة ثمة جوانب لأفكاره وتعاليمه تجاوزت الفكر العلمي بنسبة كبيرة. بيد أنني لا أريد أن أبحث هذه الجوانب خلال حديثي معك.

- لماذا لا تريد بحث هذه الجوانب؟!.

- يصب الهدف الأساسي للقاءاتي معك في توضيح موضوع «المعلم المحارب» ولا يصب في مجال ممارسة الفلسفة بشكل عام ولهذا السبب أرغب باستبعاد كل المواضيع التي لا تتعلق بحياتك بشكل مباشر.

- حسناً. لقد فهمت يا أستاذي. كيف سنلقي نظرة على ما قاله دون جوان؟.

- لقد تفحَّصت كافة الكتب التي ألفها كارلوس كاستانيدا ووقفت بشكل خاص عند المقاطع التي تناولت موضوع المحارب ووضعت إشارات عليها سنعمل اليوم على دراسة المقاطع التي وضعتُ تحتها إشارة.

- بذلتَ جهداً كبيراً يا سيد دوغان.

- إنه موضوع يستحق بذل الجهد كما أنني أناقشه مع شخص يستحق بذل الجهد من أجله.

- ابتسم السيد عارف ابتسامة تعبِّر عن خجله لكنه لم يقل شيئاً.

- قرأت كتب كارلوس كاستانيدا باللغة الإنكليزية ولهذا السبب

سأعطي عناوين هذه الكتب باللغة الإنكليزية أعرف أن هذه الكتب مترجمة إلى اللغة التركية ولكن لا أعرف تحت أي اسم ترجم كل منها.

نعثر على أول عبارات حول المحارب في كتاب كارلوس الموسوم «A. Separaterealty» وهذا الكتاب هو الثاني لكارلوس فيما يتعلق بدون جوان. فقد كان كارلوس يقوم خلال فترات محددة بمغادرة لوس أنجلوس والمجيء إلى المكسيك بسيارته من أجل زيارة دون جوان وكانا أحياناً يذهبان بسيارة كارلوس إلى الجبال والهضاب أو إلى البلدات الأخرى. ففي إحدى الرحلات التي قاما بها سوية يقرران أخذ قسط من الراحة في أحد المقاهي فيسأل دون جوان كارلوسَ عن أحواله فيجيب كارلوس بأنه لا يشعر بأن أحواله على ما يرام. فيحدق دون جون بوجه كارلوس ويفهم حالة الإنزعاج التي يعانيها. يبدأ دون جوان حديثه بالقول:

> **«بعد أن قررت المجيء إلى المكسيك يجب أن تكون قد تخليت عن مخاوفك التافهة» ويتابع قائلاً: يجب أن يضع قرارك بالمجيء إلى هنا حداً لكافة مخاوفك، فلقد جئت لأنك رغبت بالمجيء وهذا هو أسلوب الإنسان المحارب لقد قلت لك مراراً وتكراراً: إن العيش كمحارب هو من أكثر أشكال الحياة تأثيراً. يمكنك قبل أن تقرّر أن تحزن وتفكر كما تشاء ولكن بعد أن تقرر يجب أن تواصل طريقك وأنت متخلص من الحزن والأفكار فهناك ملايين القرارات لا زالت تنتظرك** «ص 47».

- لقد تطرقنا إلى هذا الموضوع سابقاً يا سيد عارف. فلقد تحدثنا عن أن المحارب يفكر بشكل جيد قبل اتخاذ القرار ولكن بعد اتخاذ القرار لا ينظر إلى الخلف أبداً ولا يشعر بالندم بل يصب كامل اهتمامه على تنفيذ هذا القرار بكل ما يمتلك من قوة.

- نعم أذكر ذلك.

- ماذا لو طبقنا هذا الأمر على حياتك؟.

- أنا، عارف أوكورر؟!

- أجل، أنت عارف أوكورر. هل فكّرت وقررت الآن متابعة مهنة التعليم؟

- أجل.

- هل فكرت بكل المواضيع التي يجب أن تفكر بها، وهل تأثرت بالشكل الكافي بكافة المواضيع التي قد تؤثر عليك؟!.

- أعتقد ذلك.

- لا أريدك أن تعتقد. يجب أن نكون واثقاً من هذا الموضوع مئة بالمئة. هل فكرت بالشكل الكافي بنتائج مواصلتك مهنة التعليم. ما هي الطريقة التي ستتزوج بها، وكيف سيصبح وضعك المالي، وكيف سيصبح شكل علاقتك مع والدك ووالدتك، وما هي الشروط التي ستربي أطفالك ضمنها وكيف سينظر المجتمع إليك. هل فكرت جيداً بكل هذا؟.

- كلا.

- هذا يعني، والحالة هذه، أنك لم تقارب المسألة مقاربة إنسان محارب.

- ولكنني أشعر أن قراري صحيح، أعلم أنني اتَّخذت قراراً صائباً.

- إذا لم تفكر بالقدر الكافي بالرغم من وجود الوقت الكافي لديك فهذا يعني أن ثمة كسل في هذا الموضوع.

- حسناً، وماذا تقترح عليّ فعله؟.

- أرى أن تضع قائمة بكافة الأبعاد الهامة المتعلقة بحياتك: المهنة، الزواج، الأبوة، متابعة شؤون أسرتك، أن تكون صاحب أملاك، السياحة

ورؤية العالم، أن تكون صاحب مركز مرموق.... إلخ.. وكلما طالت هذه القائمة يكون أفضل.

«بعد ذلك ادرس مطولاً كل بُعد متعلق بمهنة التعليم؛ ما هي المشاكل التي قد تواجهك. فكر بكل مشكلة على حدة فمثلاً كيف ستكون حياتك الزوجية، وكيف ستمارس مهنتك كأب وإذا أردت القيام بسياحة حول العالم كيف ستحقق ذلك. لا تتسرع باتخاذ القرار. بعد التفكير بكل هذه النقاط ستتخذ قراراً أكيداً يبعدك عن الإجابة بكلمة «أعتقد».

- أفهم يا أستاذي. سأنفّذ ما قلته.

- طبعاً لا أريدك ن تنفذ ذلك لأنني اقترحته أنا عليك بل لأنك وجدته ذا معنى ولأنك ترغب فعلاً بتنفيذه. لأن المحارب حين يقوم بعمل ما فإنه يقوم به لأنه هو الذي اختاره.

- هذا مؤكد. لا يكن لديك أي شك بذلك.

- ما رأيك لو نكتب على هذه الورقة قائمة بخصائص المحارب؟!.

- أتقصد كلما تحدثتَ عن أمر أقوم أنا بإضافته إلى القائمة؟!.

- أجل. وفي النهاية نحصل على القائمة المطلوبة.

- حسناً. في هذه الحالة نستطيع القول: قبل أن يتخذ المحارب أي قرار يفكر، يبحث، يراجع، لا يتسرع، يأخذ كل نقطة بعين الإعتبار. ولكن عندما....

- أرى أن نكون تحليليين أكثر ونتحدث بالتفصيل هل يمكنني البدء بمثال ما؟.

- طبعاً، تفضل يا أستاذي.

- سأردد ما قلته أنت ولكن سنقسم النقاط التي تحدثت عنها إلى عدد أكبر من الخطوات.

«قبل أن يتخذ المحارب أي قرار يفكر، يبحث، يراجع، لا يتسرع، ويأخذ كل نقطة بعين الإعتبار».

شعرت بالحاجة لوضع تفسير لنقطة هامة قبل مواصلة الحديث:

- أريد هنا يا سيد عارف توضيح نقطة هامة، وهي أن الإنسان العادي لا يسعى لإدراك الوضع الذي يعيشه ولا يدرك أفكاره وأحاسيسه إلاّ إذا اضطر لذلك، وأما الإنسان المحارب فإنه منذ البداية يهدف لإدراك كل شيء وكل وضع وهو يريد أن يكون الوعي الذي يحضره إلى الوسط كاملاً دائماً ومتواصلاً. ولهذا السبب أريد أن أعبِّر عن هذه النقطة بعد إضافة شرط جديد إلى الخاصة الأولى كما يلي:

«قبل أن يتَّخذ المحارب أي قرار يفكر، يبحث، يراجع، لا يتسرع، ويأخذ كل نقطة بعين الإعتبار ويتحمل مسؤولية كامل الوعي الذي يحضره إلى الوسط.

توقفت عند هذه النقطة ونظرت إلى وجهه كمن يسأله «هل ما قلته واضحٌ» فردَّ السيد عارف عليَّ بنظرة تفيد بأنه فهم كل شيء فتابعت حديثي:

- ما ذكرته سابقاً هو الخاصية الأولى للمحارب. وأما الخاصية الثانية فهي حين يتخذ المحارب قراره فإنه يتخذه بإرادة حرة، أي أن قراره عبارة عن خيار.

- يا أستاذي لم أفهم النقطة الثانية بشكل جيد.

- إن هذه النقطة حساسة جداً يا سيد عارف. ومن المفيد الوقوف عندها باهتمام.

❖ الاختيار:

- «أريد إلقاء الضوء على هذا الموضوع من خلال المثالين التاليين: ومن جديد سنتخذك مثالاً: تريد اتخاذ قرار فيما يخص إنتقاء مهنة التعليم، وبناءً على توصياتي قمتَ بوضع قائمة تتضمن كافة الأبعاد الهامة

المتعلقة بحياتك وأجريت دراسة لهذه الأبعاد ضمن إطار القرار المتعلق بامتهان التعليم، وفي نهاية المطاف اتَّخذت قرارك. أسألك عن قرارك فتقول «لقد اتَّخذت قراراً بأن أصبح معلماً» فأسألك. ولماذا؟.

لنفترض أنك أجبت على سؤالي كما يلي: «أرى أنني من خلال مهنة التعليم أستطيع أن أكون أكثر فائدة لهذا البلد، وأدرك أنني يجب أن أصبح معلماً. طبعاً ربما لن أصبح صاحب أموال وممتلكات إذا صرت معلماً ولن أستطيع القيام بجولة في أنحاء العالم ولن ينظر إليّ أبي وأمي على أنني إنسان ناجح ولكنني أعتقد بأنه من الضروري أن أصبح معلماً ضمن هذه الشروط خدمةً لمصالح المجتمع الذي أعيش فيه ولهذا السبب قررت أن أصبح معلماً.

- بهذه الطريقة أكون اتَّخذت قراراً كما يتخذ المحارب قراره.

- كلا يا سيد عارف. حتى هذه النقطة لا تكون قد اتَّخذت قراراً كما يتَّخذ المحارب قراره.

- ولكن يا أستاذي إنك تشوش دماغي فلقد وضعت قائمة تتضمن كافة الأبعاد الهامة الموجودة في حياتي وفكرتُ بكل بُعد من هذه الأبعاد وتناولته بالبحث الدقيق واتَّخذت القرار المتعلق بما سأفعله.

- المسألة بكاملها تكمن هنا في هذه النقطة. فأنت لم تتخذ قرارك بعد.

- كيف؟ لم أفهم.

- لم تتخذ قرارك بعد.

- حسناً. ومن الذي اتَّخذ القرار إذن؟.

- القائمة التي وضعتها هي التي اتَّخذت القرار. وبالأحرى الشروط التي تضمنتها قائمتك هي التي اتَّخذت القرار.

- كيف؟!.

- إن مراجعة الشروط الموجودة في القائمة ودراستها أمر ضروري إذ أن مراجعة الشروط ودراسة أدق تفاصيلها ومناقشتها تقدم لك المعومات فقط، ولكن الشروط لا تتَّخذ قراراً. بل المحارب هو الذي يختار القرار.

- هذا يعني أنني لم أفهم موضوع اتِّخاذ القرار بشكل جيد.

- هذا ما يبدو. فعندما يُقال: «يجب فعل كذا بسبب س، ع، ص، » يتحول (س) و(ع) و(ص) إلى أسباب متعلقة بمن سيتَّخذ القرار.

- إذن يجب أن أقول: لقد راجعت الأسباب (س) و(ع) و(ص) واتَّخذت قراراً بفعل كذا على اعتباري إنساناً راجع هذه الأسباب.

- أجل، ويصح هذا الأمر أيضاً في موضوع اختيار مهنة التعليم، بعد دراسة ومراجعة كل شيء. هذا الموضوع مهم جداً. سأعيد قوله مرة أخرى: **بعد مراجعة كافة النقاط الواجب مراجعتها وبعد أن تمتلك كافة المعلومات اللازمة تجري اختيارك بحرية.**

بعد قليل من التفكير أحببت إخبار السيد عارف بمقاربة المحارب المتعلقة بعملية الاختيار:

- عندما تراجع كافة النقاط التي أدرجتها في القائمة يكون عقلك ومنطقك قد أجرى تقييماً لكل نقطة في هذه القائمة. هذا التقييم ضروري وهام جداً.

أحببت أن يصغي لكل كلمة سأقولها ولهذا السبب توقفت عن الكلام لفترة تمكنني من جذب اهتمامه ونظرت إلى وجهه ولأنني في أحاديثي السابقة كنت ألجأ لذات الأسلوب عندما يصل الحديث إلى نقطة هامة ولأنه بات يعرف هذا الأسلوب فقد نظر إليّ نظرة كأنه يقول من خلالها:

«نعم أنا مستعد للاستماع»

- بعد أن تُراجع كافة الشروط المدرجة في القائمة بواسطة عقلك يقوم قلبك بإجراء الاختيار. فعملية الاختيار التي يقوم بها المحارب هي

عملٌ من اختصاص القلب. يقول دون جوان: «طريق المحارب هو طريق القلب والفؤاد»[14].

- إذن القلب هو الذي سيختار مهنة التعليم.

- نعم، فالمحارب، بهذا المعنى، شخص اكتشف مراد قلبه ويواصل حياته من أجل تطبيق مراد قلبه في حياته.

- ولهذا السبب يجب الوقوف مرة أخرى عند عبارة دون جوان حين قال: يجب على القرار المتعلق بالمجيء إلى هنا أن يزيل كافة مخاوفك، فلقد جئت لأنك أحببت المجيء. وهذا هو: أسلوب المحارب.

- الآن بتّ أفهم جيداً سبب طلبك مني كتابة «**حين يتخذ المحارب قراره فإنه يتخذه ضمن إرادة حرة أي أن قراره عبارة عن خيار**» على قائمة خصائص المحارب على اعتباره الخاصية الثانية للمحارب، فعندما أراجع كل ما تتضمنه القائمة من نقاط يجب مراجعتها لا أكون أنا من يقوم بعملية الاختيار بل القائمة هي من تقوم بذلك.

- الفرق هام جداً بين الحالتين يا سيد عارف.

- طبعاً، وهذا يعني بأنه يتوجب عليَّ الوصول إلى نقطة أستطيع فيها القول:

«لقد صرت معلماً لأنني اخترت مهنة التعليم بواسطة قلبي بعد أن راجعت كل النقاط المتعلقة بذلك وفكرت بها ملياً»

- نعم. الآن كل شيء على ما يرام. أصبحتْ مهنة التعليم الآن إحدى خياراتك. وأما النقطة الثالثة التي سندرجها على قائمة الخصائص هي:

«**لا يشعر المحارب بالندم فيما يخص القرارات التي اتَّخذها**».

كتب السيد عارف هذه الخاصية التي ذكرتها ثم نظر إليّ وقال:

---

(14) one must alwayschoose the path with heart in order to be at one's best». p 84..

- أنا لم ألتزم بأي شرط من شروط اتخاذ القرار عند المحارب. فلم أفكر بأخذ كافة الشروط اللازمة بعين الاعتبار ولم أجرِ خياراً خاصاً بي كما أنني لم أكن سعيداً بقراراتي، بل كنت في وضع مضطرب جداً.

- ومع ذلك كنت تعتقد بأنك خلال دقيقة واحدة معي تستطيع حل كل هذه المشاكل.

ضحكنا. كانت ضحكة السيد عارف أشبه ما تكون بطفل أعطى كامل ذاته للعبة يلعبها. إن تعريض الإنسان نفسه للمراقبة والتأمل دون أية مقاومة لهو عمل يحتاج لجرأة كبيرة. ولكنه لا يفعل ذلك كإنسان جريء بل يفعله ببراءة طفل يضحك. خطرت على ذهني حديقة الأطفال التي رأيناها عندما كنا نسلك طريقنا صاعدين إلى حديقة الشاي. نظرت إلى الحديقة عندما مررنا من أمامها فرأيت مراجيح مكسورة ومحطمة وإلى جانبها عدَّة ألعاب للتسلق هي الأخرى مكسورة ومحطمة وثمة ثلاثة أطفال في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم بنتان وصبي يحثَّان السير باتجاه الحديقة، ويريد الطفل الركوب بالأرجوحة وكذلك الطفلتان الصغيرتان ولكنهما تعرفان أن أمهما لن تسمح لهما بذلك. وتراقبان أمهما لمعرفة ردود فعلها حيال ذلك الطفل.

الطفل مصرٌ على ركوب الأرجوحة. فتقول الأم: «لا، لا، سنذهب الآن للتفرج على البحر. هيا تعال، إن منظر البحر جميل جداً» ولكن من الواضح جداً أن «منظر البحر الجميل جداً» لا يتمتع بالنسبة للطفل بنفس الجاذبية التي يتمتَّع بها الركوب في الأرجوحة.

اتجهت الطفلتان إلى أمهما بعد أن فقدتا الأمل بالركوب في الأرجوحة. وأما الطفل فقد قفز من فوق تلة صغيرة وهو متجه نحو أمه معبِّراً بذلك عن تذمره مما جرى فخاطبته أمه قائلةً: «أحسنت، يا لها من قفزة جميلة» فكفَّ عن تذمره وضحك ثم عاد وقفز من فوق التلة الصغيرة من جديد فتركت الطفلتان يدي أمهما وقفزتا من فوق التلة، ولكن أمهما لم

تقل لهما «أحسنتما» بل خاطبتهما قائلةً: «هيا سنتأخر، سنذهب الآن للتفرج على البحر».

شعر الطفل بالإرتياح وراح يمشي أمامهم ويقفز عن أي شيء يأتي أمامه وأما الفتاتان فقد سارتا ممسكتين بيدي أمهما وهما تشعران ببعض الحزن.

ثمة ثلاث فتيات محجبّات قادمات من الجهة المقابلة. تعابير الخجل على وجههن ولكنه خجل ممتزج بانفعال. يمسكن في أيديهن قطعاً من غزل البنات. يبدو عليهن السعادة لأنهن يتنزهن في الحديقة. شعرت عندما رأيتهن بأن وجوههن ستحمرُ خجلاً فيما إذا نظر إليهن شاب ما وستخفق قلوبهن وسيتبادلن معه النظرات دون النطق بأية كلمة وستكفي هذه النظرات لأن يكون هذا اليوم «يوماً مليئاً بالمغامرات» وربما سيتحدثن عن معاني هذه النظرة فيما بينهن. أدركت شوقي الكبير لمعرفة الحديث الحماسي «المغامر» الذي سيدور فيما بينهن.

فكرت بيني وبين نفسي «أيُ معنى» متكاملاً ينشئه كل إنسان داخل حياته.. معنى متعدد الأبعاد، متشابك ومعقد ومتغيُر بسرعة. ولكن هذا المعنى الذي يعطى لحادثة ما هو «المعنى الحقيقي» بالنسبة للإنسان الذي يعيش هذه الحادثة ومن هذه النقطة تستطيع القول بأن: «من يقول: لا، المعنى الذي تعطيه خاطئ وعليك أن تفهم الحادثة حسب المعنى الذي أعطيه أنا لها» مناقض للطبيعة والمنطق كما هو الحال بالنسبة لمقولة: «لا يوجد شيء اسمه: «الجاذبية الأرضية»».

❖ المحارب صبور ويعرف سبب انتظاره:

نظرت إلى السيد عارف بعد أن أدركت ثراء المشاهد الإنسانية الموجودة حولي. كان هو الآخر يجري مشاهداته المتعلقة بما حوله خطر

ببالي أن أسأله: «ما هو الشيء الذي لفت نظرك، وما هي الأشياء التي شاهدتها؟» ولكنني لم أطرح عليه سؤالاً كهذا كي لا أشتت الموضوع الذي نتحدث به. كان الأطفال الثلاثة على وشك الغياب عن الأنظار والطفل لا يزال يقفز فوق كل تلة صغيرة تقف أمامه. الفتيات يبتعدن عن المكان وهنّ لا يزلن يتحدثن فيما بينهن بكل انفعال.

واصلت حديثي مع السيد عارف:

- عندما كان كارلوس طفلاً كسر ذراع أحد الأطفال في إحدى المسابقات التي شارك فيها. أنزل لوحاً خشبياً على طفل صغير كنوع من المشاكسة. ولكن الطفل لم يدرك أن كارلوس هو من كسر يده، فاحتضنه كما يحتضن أخاه الكبير وطلب منه المساعدة - كارلوس، كان دائماً هو الفائز الأول في مسابقات الجري وفي كافة النشاطات الرياضية الأخرى - وعندما رأى أنه كسر ذراع الطفل خاف من أن «تقطع يد الطفل» وأصيب بشعور بالذنب. وتحت تأثير هذا الشعور قرَّر بينه وبين نفسه ألاّ يفوز في المسابقات التي سيشارك فيها فيما بعد.

«بعد أن أخبر دون جوان بهذه الحادثة سأله قائلاً: «**ما الذي عليّ فعله؟ بماذا تنصحني؟!**» فقال له دون جوان: «**ستنتظر بصبر، ستنتظر وأنت تعرف بأنك تنتظر وتعرف لماذا تنتظر. هذا هو أسلوب المحارب**»

أسألك الآن يا سيد عارف ما الذي استخلصته من هذه الحادثة. و«هل تنتظر بصبر، وأنت تعرف بأنك تنتظر وتعرف لماذا تنتظر؟ »،

- لا أعرف كيف سأطبِّق هذا الأمر على وضعي يا سيد دوغان.

- من جهة نقول بأن المحارب، رجل ممارسة وعمل ومن جهة أخرى نقول يجب أن يعرف كيف ينتظر بصبر، ألا تشعر بالتناقض بين الحالتين.

- أجل.

- وكيف سنحل هذا التناقض؟!.

- لا شك أن إحدى الحالتين خاطئة. في الحقيقة يعتبر الصبر من أحد المزايا التي تعطى لها قيمة كبيرة ولكن ما فهمته حتى الآن هو أن المحارب رجل ممارسة وعمل واعٍ.

- حسناً. ولكن فكِّر بوضع المزارع. فالمزارع رجل عمل وممارسة من جهة ومن جهة أخرى المزارع رجل صبور. أليس كذلك؟!.

في هذه الأثناء لاحت على وجه السيد عارف ابتسامة مفادها: «الآن فهمت» وعبّر عما يجول في خاطره:

- المزارع، يقوم بما عليه القيام به في وقته ولكنه ينتظر بصبرٍ حتى يجني نتيجة ما قام به. وهو مدرك بأنه ينتظر ويعرف ما الذي ينتظره، إذن علينا أن نضيف إلى القائمة ما يلي: «**رابعاً: المحارب ينتظر بصبر، ويعرف بأنه ينتظر ويعرف ايضاً لماذا ينتظر**».

- حسناً. هل تعرف أنت بأنك تنتظر وهل تعرف لماذا تنتظر؟ انتبه؛ لم أنس سؤالي الذي طرحته سابقاً.

- أعتقد أنني لا أعرف يا سيد دوغان.

- ما رأيك بانتظار التحول إلى «معلم محارب».

- لم أفكر بهذا الموضوع. يجب أن أفكر ملياً بهذا الموضوع.

- أجل فكر كما تشاء. ولكن لا تنسَ بأن هذا الانتظار يشبه الانتظار الذي يقوم به المزارع.

- تقصد بأنه عليَّ أن أنتظر بعد تنفيذ كل الأعمال التي عليّ القيام بها...

- ليس بعد القيام بها وحسب، بل أثناء مواصلة القيام بالأعمال الواجب عليك القيام بها يجب في الوقت ذاته انتظار عملية التحول إلى محارب.

- أي الإستمرار في هذه الرحلة بصبر دون يأس ودون انزعاج ودون الوقوع بالإنهيار.

- أجل.

- فهمت يا أستاذي. أرى بوضوح أنني لا أمتلك أياً من هذه الخصائص السابقة التي ألقينا نظرة عليها . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يضطرب دماغي وأن يشوش وأن أصاب بالإكتئاب.

- لا يوجد شيء يحدث بالمصادفة يا سيد عارف. الملاحظة التي قمت بها تظهر مدى واقعيتك. أعرف تماماً أن هذه أيضاً إحدى خصائص المحارب وأنا واثق من أن دون جوان سيتطرق إلى هذه الخاصية في أحد الكتب.

- هل نضيفها إلى القائمة؟!.

- كلا، أرى أن ننتظر قليلاً.

- إن أضفنا هذه الخاصية على الأقل أواسي نفسي بأن هذه الميزة موجودة لديّ.

❖ موقف استراتيجي:

بدأت حديثي وأنا أراجع الكتاب:

- ذات مرة وبينما كان دون جوان يتحدث مع كارلوس حول موضوع التحول إلى محارب قال دون جوان:

> **«لكي يصبح الإنسان محارباً يجب أن يكون على وعي كامل بالموت. ولكن الوعي الكامل بالموت يجعل الإنسان يتمحور حول أناه وهذا ما يجعله إنساناً ضعيفاً ولهذا السبب عندما يصل الإنسان إلى وعي الموت يقوم بالخطوة الثانية: يتعلم عدم الإكتراث بالموت. وبذلك يتحول الموت إلى رفيق للإنسان يمده بالقوة اللازمة بدلاً من أن يتحول إلى معلومة تعمل على شلٍّ**

حركته... » يقول كارلوس بأنه لا يجد أية جاذبية في فكرة انسحاب الإنسان من هذه الحياة وعدم اكتراثه بها. ويقول لـ دون جوان: «لا أريد الإنزواء» فيرد دون جوان على كارلوس بجواب يفيد بأن الإنسحاب من الدنيا والإنزواء هو نوع من أنواع التعود والإدمان والهوس فالمنزوي، شخص وضع نفسه في العزلة بإرادته. الإنسحاب من العالم ليس من الأعمال التي يقوم بها المحارب.

قوة وحيدة يتمتع بها الإنسان الذي تطهَّر من رغباته وتقبّل الموت على أنه رفيق له وهذه القوة هي: القرارات التي يتخذها بنفسه. ولهذا السبب يجب على المحارب أن يجري إختياره بكل حرفة وخبرة ويجب أن يقبل تحمّل كامل مسؤولية قراراته وأن يعلم أنه بعد أن يتخذ قراره لن يبقى في حياته مكان لـ «ياليت» أو «لو» أو لأيٍ من عبارات التمني.

وبذلك يوجّه المحارب حياته بشكل استراتيجي متمتعاً بقوة قراراته متطهّراً من رغباته واعياً لفكرة الموت. فوعي الموت يرشده إلى الطريق الصحيح ويطهّره من رغباته ويجعله قوياً. كما أن قطعية قراراته وصرامتها توجّهه إلى التفكير الجيد وبذلك تجعله يتخذ أفضل قرار يمكنه اتخاذه بشكل استراتيجي. وبذلك يفعل كل شيء بلذة ومتعة وضمن جوٍ من العطاء الكامل.

عندما يتصرف إنسان ما بهذا الشكل يكون قد

أصبح محارباً ويظهر الصبر الذي يتحلى به الإنسان المحارب»[15].

كان السيد عارف يستمع لما أقرؤه من الكتاب بكل اهتمام. نظر إلى قائمة خصائص المحارب ثم نظر إليَّ. كان لا يعرف ما الذي سيكتبه.

- تفكر الآن على الأغلب بالخاصية التي ستكتبها.

- أجل. لأنني استمعت إليك باهتمام نسيت كتابتها على قائمة الخصائص.

- حسناً، لنعد قليلاً إلى الخلف وننظر إلى ما قاله دون جوان حول خصائص المحارب.

- يجب أن يكون متمتعاً بوعي الموت. يمكننا كتابة هذه على أنها الخاصية الخامسة أليس كذلك؟.

- أجل. إنها الخاصية الخامسة. ولكنه لن يكون أسيراً لوعي الموت هذا. يجب أن يتخذ حياله موقفاً لا مبالياً.

- إذن يمكننا كتابة الخاصية السادسة كما يلي: «أن يتخذ موقفاً لا مبالياً من الموت».

- يتحدث أيضاً عن التطهر من الرغبات.

- برأيي هذا أمر يأتي مع موقف اللامبالاة. فلن نكتبها على أنها خاصية مستقلة بذاتها. وسنكتب بدلاً عنها: **الخاصية السادسة هي: اتخاذ موقف لا مبالٍ من الموت والتطهُّر من الرغبات.**

- أوافقك الرأي. ما قلته أكثر شمولية يا سيد عارف هل يمكننا كتابة: **يعيش حياته ضمن موقف استراتيجي على أنها الخاصية السابعة؟.**

---

[15] نفس المصدر الصفحة 2- 15.

- أجل سأكتبها. هل هناك خاصية أخرى؟.

- كذلك تحدَّث عن خاصية سلبية. وهو يقصد الخاصية التي يجب عدم توفرها.

- أيُ خاصية؟ لا أتذكرها.

- ألاّ يكون مدمناً على شيء وألاّ يكون مهووساً بشيء.

- أجل، أجل، ذكر هذا عند حديثه عن الإنزواء.

- حسناً. سأكتبها على اعتبارها الخاصية الثامنة: «**لا يمكن للمحارب أن يكون مدمناً على شيء أو مهووساً بشيء**».

- حسناً يا سيد عارف كيف تنظر إلى نفسك من زاوية هذه الخصائص؟.

- لست واعياً للموت ولست لا مبالياً به. ولا أستطيع الإدعاء بأنني متطِّهر من رغباتي ومتطلباتي ولا أعيش ضمن موقف استراتيجي. ولكنني أعتقد أنني لست مهووساً بأي شيء.

- لا يزعجك تقييم حياتك ضمن إطار هذه الخصائص أليس كذلك؟.

- كلا، لا يزعجني. بل أراها خصائص تحفِّز على التعلم.

- كان دون جوان يذكِّر كارلوس دائماً بموضوع الإدمان والهوس.

- هل كان كارلوس مدمناً على أشياء محددة؟.

- كان كارلوس بالنسبة لدون جوان إنساناً مدمناً على أشياء كثيرة مثل «الغضب والخوف» و«الإستمناء الفكري» و«الحزن».

- إنها كثيرةً جداً.

- أساساً كل ما يواظب الإنسان على فعله ولا يدخل ضمن صفاء نية المحارب هو نوع من الإدمان. فمثلاً إذا واصلنا لقاءاتنا أنا وأنت خارج حدود هدفنا يكون هذا حسب دون جوان نوع من الإدمان.

- إذن كل شيء لهّيتُ نفسي به خارج حدود قراراتي الإستراتيجية كان نوعاً من الإدمان.

- أجل.

- إن هذا يؤدي إلى خلق وعيٍ رائعٍ بالمسؤولية، ولكن ألا يملُّ الإنسان بعد فترة من الزمن من حياةٍ كهذه؟ وبالأحرى ألا يتعب؟

- هل تبدو صارمة؟.

- أجل. فهل سأبعد نفسي عن كل شيء وأنام وأصحو وأنا أفكر بأنني سأصبح معلماً؟.

- هكذا يبدو أليس كذلك؟.

- هكذا بدا لي الآن.

- أفهمك يا سيد عارف. وهكذا بدت لي في البداية، في الحقيقة إن حياة المحارب مفعمة بالسعادة والحيوية والطاقة والحركة ولا يوجد لديه أي شعور بأنه مجبر على حياة كهذه.

- كيف يمكن لحياة مليئة بالشروط والضوابط أن تكون مفعمة بالسعادة والحيوية والطاقة والحركة؟.

- من الطبيعي أن تبدو لك الأمور الآن على هذا النحو. سنعود إلى هذا الموضوع إن شئت بعد إلقاء نظرة على خصائص المحارب وعكس ذلك نكون قد دخلنا في نقاش بمعلومات ناقصة.

- ولكن يجب أن نعود إلى هذه النقطة حتماً. لأن هذه النقطة هامة جداً بالنسبة لي.

- أفهم هذا لأنها هامة بالنسبة لي أيضاً. إذا نسيتُ ذكرّني.

- حسناً. سأذكرك.

لفتت انتباهي سيدة متوسطة بالعمر تضع إشارباً على رأسها وتجلس بمفردها. وجهها متجه نحو السيركجي وظهرها نحونا. لم أستوعب

مجيء أمرأة بهذا الزي إلى هنا لتشرب الشاي بمفردها وتتمتع بهذه المناظر. وعندما أخبرت السيد عارف بملاحظتي هذه قال: «يا أستاذي زوجها هناك بين هؤلاء الرجال الذين يتفرجون على المباراة». نظرت إلى الذين يتفرجون على المباراة فعلاً كانوا جميعهم رجالاً. كان طفلان في السادسة والثامنة من عمرهما يجلسان إلى جوار رجل متوسط العمر يجلس بين الذين يتفرجون على المباراة. أشار السيد عارف إليهم وقال: « يُحتمل أن يكونوا هؤلاء» وفعلاً بعد إنتهاء المباراة جاء الرجل والطفلان إلى الطاولة التي تجلس المرأة عليها وتابعوا شرب الشاي سوية، لم أشعر أن المرأة كانت تشعر بالتوتر أو الإستياء أو الملل بسبب تركها بمفردها. فقد كان أمراً طبيعياً ضمن إطار الحياة التي يعيشونها أن تُتْرك المرأة على الطاولة بمفردها عندما يريدون متابعة مباراة بكرة القدم.

❖ يحترم كل شيء ويبقى ضمن المدى المجدي للرمي:

واصلنا حديثنا بعد تلك الملاحظة:

– في حديث آخر لـ دون جوان يقول: «**لا يمكن للمحارب أن يهمل نفسه أبداً حتى لو كان الموضوع متعلقاً بالموت والمحارب لا يسلّم نفسه دون صراع. يقترب المحارب من كل شيء باحترام ولا يحشر أنفه بأمور لا تهمه ما لم يضطر لذلك، كما لا يظهر المحارب في كل مكان ولكن إذا كان لا بد من تدخله في أمرٍ ما فإنه يتدخل بعد أن يفكر بعمق ويجري الإختيار المناسب**[16]».

– تحدَّث هنا عن إحدى خصائص المحارب وهي الحياة الإستراتيجية. يقول: «**المحارب لا يهمل نفسه**» برأيي هذه تشير إلى ميزة

---

[16] – نفس المصدر الصفحة 2-18.

الحياة «الإستراتيجية» وبقية الخصائص الأخرى مثل «النضال» و«عدم دس أنفه بأمور لا تعنيه» و«التدخل بعد أن يفكر جيداً وبعد أن يجري خياراته» جميعها عبارة عن خصائص لها علاقة بالحياة الإستراتيجية.

– برأيي يجب إضافة خاصة جديدة إلى قائمتنا.

– هل هي خاصية: **المحارب يقترب إلى كل شيء باحترام**؟.

– أجل، وتكون هذه هي الخاصية التاسعة للمحارب.

– سأضيفها إلى القائمة؟.

– أكتب: يعبِّر المحارب بأشكال مختلفة وفي الأوساط المختلفة عن أنه يعيش حياة واعية واستراتيجية. ففي إحدى المرات يقول دون جوان «**المحارب ليس بليداً وليس متسرِّعاً**» وفي مكانٍ آخر يقول: «**لا يتحمَّل المحارب عبئاً لا يستطيع حمله**».

– سيد دوغان. تحدثت عن مصطلح مفاده: البقاء ضمن المدى المجدي للإصابة وقولك: «المحارب لا يتحمل عبئاً لا يستطيع حمله» يذكرني بذلك المصطلح.

– معك حق يا سيد عارف. ولهذا السبب سنقول الخاصة العاشرة للمحارب هي: المحارب يبقى ضمن المدى المجدي للإصابة. ما رأيك؟.

– إنه مناسب تماماً برأيي.

❖ طريقهُ هو طريق القلب:

بعد فترة من الصمت نظر السيد عارف إليّ نظرة من تذكرً شيئاً ما وقال:

– يا أستاذي. قلنا منذ قليل إن طريق المحارب هو طريق القلب. برأيي يجب إضافة هذه الفقرة لكي تصبح الخاصية الحادية عشر للمحارب. ما رأيك؟.

- في الحقيقة عندما نقول: يُجري المحارب «خياراً» فإننا نعني «أن القلب هو الذي يوجّه عملية الإختبار» ولكن مصطلح طريق القلب بقي غامضاً هناك. ولهذا السبب أرى أن اقتراحك في مكانه. هيا إذن لننقل الخاصية الحادية عشر: «**المحارب يختار طريق القلب، أو طريق المحارب هو طريق القلب**».

- برأيي من الأفضل أن نقول «عندما يجري المحارب خياره يصغي لصوت قلبه».

- حسناً. لننقل هذا.

❖ يرى العالم كما هو:

وصلنا إلى المقطع الأخير من كتاب كارلوس الذي وضعت عليه إشارة. يقول دون جوان: «**من أهم نجاحات المحارب هي انه يوقف الحديث الداخلي المتواصل داخل ذاته. وعندما يقوم بهذا يكون قد تمكن من رؤية العالم كما هو**». تحدثت عن فكرتي هذه مع السيد عارف فقال:

- يا أستاذي. ما معنى رؤية العالم كما هو؟

- تتذكر طبعاً عندما تحدث فريدريك برلس عن ثلاث طبقات للوعي عند الإنسان: عالمنا الداخلي وعالمنا الخارجي وعالم المفاهيم الموجود بين هذين العالمين. ويتشكل هذا العالم الموجود في الوسط من اللغة والثقافة ومع الزمن يتطور هذا العالم لدرجة أن الإنسان لا يعود يدرك أي شيء سواه.

- نعم أذكر. وقلنا إن البقاء ضمن هذه الطبقة يعني البقاء داخل السجن.

- صحيح، يقترح دون جوان طريقاً أو أسلوباً من أجل خروج المحارب من السجن أي لكي يتمكن من رؤية العالم الخارجي بعيداً عن تأثيرات الطبقة الوسطى.

- أمرٌ هامٌ جداً.

- هذا صحيح. والأسلوب الذي اقترحه بسيط جداً: إيقاف الحديث الداخلي.

- ما علاقة الحديث الداخلي مع هذه الطبقة.

- حسب دون جوان لا يمكننا المحافظة على تطلعات المجتمع وثقافته إلاّ من خلال الحديث الداخلي ومن خلاله أيضاً نحافظ على استمراريتها. وعندما ينقطع هذا الحديث الداخلي ينقطع التيار الكهربائي المغذي لهذه الطبقة فتتوقف كما يتوقف المحرك، وقتها يزول تأثير هذه الطبقة ونتمكن من إدراك هذا العالم بشكل مباشر بعيداً عن تأثير هذه الطبقة.

- حسناً. وكيف سنوقف هذا الحديث الداخلي. هل يقترح أسلوباً ما؟!.

- يقترح أسلوباً يقوم الشخص بمقتضاه بالهدوء وتوقيف أفكاره وتهدئة دماغه بالكامل. أي يقترح حسبما فهمت نوعاً من التأمل الباطني Meditosyont. هل تعرف ما هو التأمل الباطني.

- سمعت بهذا المصطلح ولكن لا أعرف ماذا يعني.

- هناك العديد من حالات التأمل الباطني ولكل واحد منها خصائص مختلفة، فعندما ينجح الشخص في التخلص من تأثير محتوى وعيه ويصل إلى الوعي المراقب، يصل إلى إدراك شيء واحد فقط وهو إدراك أنه يدرك. ويضيع كل ما عدا ذلك.

- أي أن الوعي المراقِب يعي ذاته. وبعبارة أخرى، يبدأ الوعي المراقب بمراقبة ذاته.

- نعم وهذه حالة غريبة من حالات الوعي. عندما يبدأ الإنسان بجعل هذه العملية مستمرة ودائمة يصل إلى حالة يستطيع خلالها أن يعيش «الآن وهنا» الحقيقي بكل عظمته.

- سيد دوغان. هل تقوم أنت بالتأمل الباطني.

- بدأت عام 1976 بإجراء التأمل الباطني ولا زلت مستمراً على ذلك.

- إن أردت القيام بذلك هل أستطيع تعلمه؟.

- أنا تعلمته في أنقرة. ويوجد أيضاً مركز في استانبول لتعليم التأمل الباطني Trnsandontel Med المعروف بالإختصار T. M. وكان قراري بتعلم الـ T. M من أهم القرارات المفيدة التي اتَّخذتها في حياتي.

- هل يمكن أن تحدثني بتفصيل أكثر يا أستاذي؟ ما هي فائدته؟! ماذا يعلّمون في المركز؟ وكيف تقوم به؟.

- لا أريد الدخول بالتفاصيل يا سيد عارف. ولكن إذا طلبت مني النصيحة فسأقول لك تعلمه.

- حسناً. سأفكر بهذا الموضوع. هذا يعني أن دون جوان يقول بضرورة توقيف الحديث الداخلي بهذا الأسلوب.

- أجل. ويقول بأن كارلوس لن يتمكن من التحول إلى محارب كامل ما لم يفعل هذا.

- إذن هل نكتب هذا على اعتباره إحدى الخصائص؟.

- لنكتبه.

- سأكتب: **يمكن للمحارب أن يوقف الحديث الداخلي وقت ما يشاء.**

- حسناً. أكتبه هكذا.

- نكون بذلك قد كتبنا الخاصية الثانية عشر للمحارب.

- جيد.

على إحدى الطاولات يجلس رجلان دخلا في حديث مطول دون أن يوليا المرأة التي تجلس معهما أية أهمية إذ لا ينظران إليها ولا يتحدثان

معها. حتى أنه يبدو أنهما غير مهتمين فيما إذا كانت تستمع لهما أم لا غير أن المرأة تولي انتباهاً للحديث الدائر بينهما وتصغي باهتمام. وبين الحين والآخر تتدخل وتعبّر عن رأيها بغض النظر عن اهتمامهما بها أو إن كانا يصغيان إليها أم لا. الجانب الذي لفت نظري في هذا المشهد هو أن المرأة لم تنزعج من كونهما أهملاها ولم يشركاها في الحديث. بل تحاول وبإصرار المشاركة بشكل فعال، ومن الواضح أن حديث الرجلين مع بعضهما وعدم اهتمامهما بالمرأة التي تجلس معهما يعتبر أمر طبيعي بالنسبة للمرأة من جهة وللرجلين من جهة أخرى.

قلت لنفسي «يجب أن لا يحدث هذا ويجب على المرأة أن تشارك في هذا الحديث كعضو مساوٍ لبقية الأعضاء الموجودين في الجلسة».

بعدها خطرت بذهني الأفكار التي راودتني عندما رأيت الفتيات الشابات الثلاث وفكرت بأن «كل إنسان يشكل ضمن حياته معنىً متكاملاً. وهذا المعنى هو «المعنى الحقيقي» بالنسبة للشخص الذي يعيش الحادثة «وأما القول: لا يا سيدي. المعنى الذي تعطيه خاطئ وأما المعنى الصحيح فهو الذي أعطيه أنا لهذه الحادثة «مناقضٌ للطبيعة كما يناقض الطبيعة قولنا: لا توجد جاذبية أرضية»

ومنذ قليل كنت أقول في نفسي «يجب أن يشركك الرجال بحديثهم. ويجب أن تتحدثي بشكل مساوٍ لهم. هذا هو التصرف الصحيح» وبذلك أكون قد ارتكبت الخطأ الذي كنت أطالب بعدم الوقوع فيه. إدراكي لهذا الموضوع أدهشني فعلاً وهزني بعض الشيء.

احتفظت بهذه الأفكار لنفسي. إذ لم أكن أريد حرف الحديث عن الموضوع الذي نتحدث عنه. بعد أن جدّد لنا النادل كؤوس الشاي. تابعنا بحثنا المتعلق بخصائص المحارب من الكتاب الذي أمسكه بيدي.

❖ الموقف العاطفي للمحارب:

بدأنا بمراجعة الأقسام التي وضعت تحتها خطاً والمتعلقة بخصائص المحارب من كتاب كارلوس كاستنادا الموسوم Journey to ixtlan الذي يتناول تعاليم دون جوان:

- وفي إحدى المرات وفي حالة تبعث على الخوف قام كارلوس بإنجاز ما يجب عليه إنجازه متغلباً على كافة مخاوفه. قال له دون جوان: **كما ترى يمكن التغلب على الخوف إن شاء الإنسان ذلك. والأصح يمكن أن يتصرف الإنسان دون خوف بالرغم من أنه خائف فالمحارب هو الذي يحدِّد الوضع العاطفي الذي يعيشه**[17].

- سيد دوغان. ما الذي يريد دون جوان قوله بهذا الكلام؟.

- كنا قد تطرقنا سابقاً لهذا الموضوع باختصار عندما كنا نناقش موضوع السعادة يا سيد عارف.

فالموضوع الذي عليك تذكره هو: هل الوضع الذي يعيش فيه الإنسان هو الذي يحدد عواطفه أم أن الشخص هو الذي يحدد عواطفه بعيداً عن الوضع الذي يعيشه؟!

- أجل أذكر.

- يقول دون جوان بأن المحارب هو الذي يحدد عواطفه.

- حسناً. ولكن كيف يحدد المحارب عواطفه. هل يتحدث عن هذا؟.

- يقول... لا، لا لن نتحدث عن ما يقوله بل سنتحدث عن فكرته الأساسية حول هذا الموضوع.

- حسناً. وما هي فكرته الأساسية؟.

- فكرته الأساسية تتمحور حول أن المحارب يعرف نيته ويدرك

---

(17) - نفس المصدر السابق الصفحة 21 - 119.

الوضع بصفاء نيته، يفسره ويعطيه المعنى وبعد أن يفكر بكل شيء ويراجع كل شيء يختار الممارسة التي تكون ملائمة أكثر للمستقبل الذي يريد تحقيقه و....

«والآن يا سيد عارف سأخبرك بالقسم المتعلق بالموضوع الذي نتحدث عنه».

«**ويختار العاطفة المناسبة لهذا العمل الذي سيقوم به**».

- يا أستاذي. مرة أخرى. إن شرحنا ذلك بالأمثلة سيسهل عليَّ فهم الموضوع.

- إن كان العمل الذي يقوم به هو التعبير عن أفكاره الخاصة به فإنه يظهر موقفاً جريئاً وتصميماً مناسباً لهذا العمل. أريد أن أقدم مثالاً آخر:

- لنفترض أن المحارب متزوج ويعيش حياة صعبة مع زوجته، أنت لست متزوج يا سيد عارف ولهذا قد لا تكون مطلعاً على هذه الأمور. ولكن مهما يكن الأزواج متفاهمين فإن كل زواج يمر بأيام صعبة. نعم، لنفترض أن المحارب متزوج ويعيش إحدى المراحل الصعبة مع زوجته.

« الزوجة تتهم زوجها المحارب بشيء ما ناجم عن فهمها الخاطئ له» يعني أن الحالة التي بين أيدينا من النوع الذي يمكن لأي مراقب من الخارج أن يقول عنها: «هذه الزوجة تتهم هذا الإنسان إتهاماً باطلاً وتسيء إليه دون وجه حق».

- فهمت يا سيد دوغان. ولكن ما الذي يجب على المحارب فعله؟!.

- ماذا يحدث في حالات كهذه إذا مرّت على زوج وزوجة من الناس العاديين؟.

- يقول الزوج المتهم بأن هذا الإتهام باطل ويجعل الطرف الآخر يندم على إتهامه هذا.

- وأما المحارب فإنه يدرك أولاً هذا الزواج ضمن صفاء نيته

ويتساءل: ما الذي أريد تحقيقه من هذا الزواج وما الذي أريد أن أخلقه وما هو المستقبل الذي نذرت نفسي لأجله؟ وبذلك يدرك الوضع من خلال طرح هذه الأسئلة ثم يفسره ويعطيه المعنى.

«بعد ذلك يفكر بالمستقبل الذي يريد خلقه ثم يفكر بالقيم التي يريد خلقها في علاقاته مثل المحبة والأمن والثقة والتقبّل والدعم المتبادل والتفاهم وكيف سيجعلها تحتّل مكاناً في زواجه».

«وبعد ذلك. يختار الممارسة المناسبة المتكاملة مع شخصيته والتي تصب في سياق المستقبل الذي يريد خلقه ثم يختار العاطفة المناسبة لهذه الممارسة ويبدأ التنفيذ.

- حسناً يا سيد دوغان، إذا بقينا في المثال الذي قدمته كيف سيختار المحارب الوضع العاطفي وما هو العمل الذي يقوم به ضمن إطار الوضع العاطفي؟.

- يصبح شخصاً متسامحاً وغير غضوب، يعطي قيمة لزوجته ويصغي لما تقوله بجدية، ويستمع إليها بآذان صاغية، ويحترمها ويكون مستعداً لرؤية الأحداث بعينيها. ويضفي على علاقته مع زوجته القيم نفسها التي أراد أن ينشرها بين أفراد عائلته مثل المحبة والثقة والأمن والتقبل والدعم المتبادل والتفاهم ويصمم على مواصلة حياته ضمن هذه القيم.

- حسناً. وما هو العمل الذي عليه القيام به؟.

- الاستماع- وهل الاستماع عملٌ؟

- أجل. الاستماعُ عملٌ يا سيد عارف، إنه عمل تواصل وعندما نقول تواصل يجب ألاّ يخطر على ذهننا الكلام وحسب بل الاستماع أيضاً من أهم عمليات التواصل.

كرر السيد عارف جملتي الأخيرة عدة مرات بينه وبين نفسه بقوله «الاستماع من أهم عمليات التواصل» و«الاستماع من أهم عمليات

التواصل». ثم قال: «يا أستاذي كنت أعلم أن الاستماع هام جداً ولكنني لم أكن أعلم أنه عمل عام.

ثم تابعنا حديثنا:

- الاستماع عمل يا سيد عارف. وما يجب على المحارب عمله في مثالنا السابق هو الاستماع لزوجته قدر ما يستطيع.

- لاحظ أنك ضغطت على نفسك وأنت تقول: «قدر ما يستطيع».

- أجل. قلتها بهذه الطريقة. فكر في وضع كهذا باحتمالات «الوضع العاطفي الذي يعيق عملية الاستماع».

- أستطيع أن أقدر ذلك. ولكن إن تحدثت عن هذه الاحتمالات يكون أفضل.

- عواطف عديدة مثل: توتر الأعصاب والغضب والتوتر وعاطفة: «أنا أتعرض للظلم» ونظرة «هل سأستمع إلى هذه الترهات؟ ». «أوف ف... ها قد بدأت من جديد « ... وغيرها الكثير من العواطف.

- أي أن تبنّي الإنسان لموقف دفاعي عندما تقول له زوجته أشياء معينة غالباً ما يعيق عملية الإصغاء السليم. هذا ما تريد قوله.

- أجل... المحارب لا يتخذ موقفاً دفاعياً، لماذا لا يتبنى موقفاً كهذا؟ هل تعلم؟.

- لأنه محارب.

ضحكنا كلانا. تابعت الحديث:

- المحارب لا يتخذ موقفاً دفاعياً لأنه عندما يتحدث مع زوجته عن موضوع كهذا لا يدرك الأمور بأناه الموضوعي Ego بل بأناه المراقب وكذلك يفسره ويعطيه المعنى.

- تدور وتدور وفي النهاية تعود وتسند كل شيء إلى الفرق بين الأنا الموضوعي والأنا المراقِب.

– أجل. لأنه هنا في هذا الفرق يكمن أساس كل الموضوع، ولهذا السبب بدأنا لقاءاتنا بالحديث عن هذين المصطلحين.

«ذات مرّة عندما دار الحديث حول هذا الموضوع قال كارلوس: قد لا يستطيع الإنسان دائماً السيطرة على حالته العاطفية: فمثلاً إذا وجد شخص ما تحت إمرة إنسان ظالم فماذا بيده أن يفعل؟ في وضع كهذا لا يمكن لهذا المسكين أن ينقذ نفسه. فقال دون جوان: «يمكن لهذا الإنسان الظالم أن يسبب الألم لجسد هذا الشخص ولكنه لن يستطيع أن يسبب الألم لروحه. ما أتحدث عنه هو الحالة العاطفية للمحارب وهذه ليس لها علاقة بالجسد بل علاقتها مع هذا الجوهر» ويردف قائلاً: «الأشياء التي يقوم بها الآخرون لن تستطيع تعذيب روحنا ما لم نسمح نحن بذلك».

يتخذ المحارب موقفاً عاطفياً مناسباً في كل حالة لكي يمنع أي شيء من شأنه تعذيب روحه.

يلاحظ دون جوان أن كارلوس يغضب من الناس كثيراً فيطرح عليه السؤال التالي:

«في الليلة الماضية طاردك الأسد ولم يخطر على ذهنك أن تنزعج أو تغضب منه ولم أسمعك تشتمه أو تقول ليس من حقه مطاردتنا. وكان يمكن لهذا الأسد أن ينقضَّ عليك وأن يفتِّتك حتى الموت. ومع ذلك لم تغضب أو تنزعج وأنت تصارع كي تنجو من هذا الأسد. وكان هدفك هو الهرب من هناك والنجاة. وقد نجحت بذلك بشكل جيد. فالمحارب يشكل موقفه العاطفي

بخيار واعٍ منه وليس حسبما يقوله أو يتصرفه الآخرون».

- يا أستاذي بعد كل هذه النقاشات ما هي الخاصية التي سنضيفها إلى قائمة خصائص المحارب؟.

- لنكتب المحارب يحدد بنفسه الوضع الذي يعيشه...

- إذن سأكتب الخاصية الثالثة عشر: «**المحارب يحدد بنفسه الوضع العاطفي الذي يعيشه».**

- جيد.

ألقيت نظرة حولي. أمامي تلة جاملي جَه... لفتت انتباهي كثافة هوائيات التلفزيونات فوقها. أطلق السيد عارف على هذه التلة اسم «تلة الهوائيات» ثمة طير يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال محاولة منه للحفاظ على توازنه في الهواء دون طيران تاركاً نفسه لتيار الهواء. لقد أثار إعجابي هذا الطير بجمال تحليقه وبحفاظه على توازنه في السماء دون أن يبذل أي جهد، لقد جاء هذا الطير إلى هذه الدنيا لكي يحقق هذا النجاح. لم يعلمه أحد ذلك. ثمة باخرة متجهة من سيركجي إلى حارم، عندما رأيتها تذكرت أمراً حدث قبل سنوات حين كنت طالباً في الجامعة وقتذاك لم يكن بالإمكان عبور المضيق إلاّ بواسطة الباخرة. يومها خرجت مجموعة كبيرة من الطلاب الذين يرفضون إنشاء جسر على المضيق. كانت مطالب تلك الأيام شيئاً سخيفاً وخاطئاً إذا ما قورنت بواقعنا الحالي. ولكن هذه المطالب جمّعت حولها الكثير من المؤيدين ضمن واقع تلك الفترة. عندما كنت أفكر بهذه الأشياء كان قطار يمر من تحتنا. سطح القطار مغطى بالصدأ، وقد طليت جوانب العربات باللون الأزرق. ولأن الألوان عتقت كثيراً فقد ظهر تحتها لون مائل للأخضر في بعض الأماكن ومائل إلى الأصفر في بعض الأماكن الأخرى. لم يكن القطار ينزلق كما الزيت بل كان يسير

مُصدراً ضجيجاً قوياً حتى شعرت بأن العربات قد تخرج عن السكة الحديدية في أي لحظة.

ثمة أزواج من الناس يسيرون على الشاطئ. إن إنشاء البلديات السابقة للأرصفة وإنشاءها للحدائق في بعض الأمكنة الأخرى أضفت منظراً معاصراً لهذه المنطقة. فعندما يجد المواطن أماكن يستطيع السير عليها فإنه يعرف استخدامها بشكل جيد. وإن توفير هذه الإمكانية إنطلاقاً من منطقة سراي بورنو وحتى منطقة كوم كامبي لهو إنجاز كبير بالنسبة لاستانبول. شكرتُ الذين فعلوا هذا من كل قلبي.

نهضتُ، تنهدتُ ثم جلستُ من جديد بعد ذلك بدأنا القراءة من المقاطع التي وضعت تحتها خطاً من الكتاب الرابع.

❖ تواضع المحارب:

- يقول كارلوس كاستانيدا في كتابه الرابع الموسوم بعنوان « Tales Of Power» بأنه لا يشعر أنه مستعد لأن يصبح محارباً. عندما يشعر بأنه صار مستعداً لتلقي هذا النوع من التعاليم سيأتي إلى دون جوان ويقول له بأنه سيصبح طالباً حقيقياً:

ثم دار بينهما الحوار التالي:

إنك تتحدث بغباء من جديد، فالمحارب يبدأ العمل إنطلاقاً من تقبُله لنفسه كما هي عليه. إذ يوجد في هذا التقبُل تواضع كبير. فعندما يتقبَّل نفسه كما هو لا يشعر بالندم ولا يشعر بالحقد ولا تنتابه مشاعر من مثل «ليتني لو كنت كذا»، بل يفهم أن عليه أن يبدأ من النقطة التي هو فيها من خلال تقبله لنفسه كما هي عليه بكل تواضع.

«إن فهم هذه النقطة وعيشها يستغرق زمناً فأنا على سبيل المثال كنت أمقت كلمة متواضع. فكما تعلم أنا هندي أحمر. ولطالما كنا نحن الهنود الحمر أناس متواضعين ولطالما أحنينا رؤوسنا أمام الجميع، ولم أكن أعتقد أن التواضع سيكون صفة من صفات المحارب. لقد أخطأت، فتواضع المحارب مختلف عن تواضع المتسول. فالمحارب لا يحني رأسه لأحد ولكنه في الوقت ذاته لا يطلب من أحد أن يحني رأسه له. من جهة أخرى عندما يرى المتسول شخصاً أقوى منه يسارع للخضوع له ويكون مستعداً لكنس الأرض تحته، علماً بأن المتسول إذا رأى أحداً أضعف منه يطلب منه أن يكنس الأرض تحته وأن يحني رأسه له[18].

- يا سيد دوغان إن كلام دون جوان الأخير يذكّر بمصطلحي: «وعي الأنا - الأنت» و«وعي النحن».

- أجل معك حق. يوجد تشابه وتواز كبيرين، فإذا ما أخذنا «التواضع» ضمن إطار وعي النحن فإننا نراه في علاقات الناس المتساويين بالقيمة من حيث الوجود. وأما إذا تناولناه ضمن إطار وعي الأنا - الأنت. فسيكون «تواضعاً نكرة لا معنى له».

ففي أساس التواضع النكرة يكمن خوف الإنسان من بقية البشر، ولكن في أساس التواضع الحقيقي يكمن الشعور بالمساواة.

- إذن هل يمكننا القول بأن المحارب إنسان متواضع في علاقته مع الناس الآخرين؟.

---

(18) - نفس المصدر السابق الصفحة: 19

- لا، لأننا إذا قلنا هذا نكون قد وصلنا إلى نتيجة مختلفة عمّا قاله دون جوان.

- ألا يقول دون جوان هذا؟!.

- يقول دون جوان: المحارب إنسان متواضع. ولكنه لا يقول في علاقته مع الناس الآخرين. فحسب دون جوان تواضع المحارب لا يقف عند حدود البشر بل يشمل الطيور والحشرات وكافة المخلوقات، أي أن المحارب متواضع في علاقته مع كافة أنواع المخلوقات فالمحارب يقيم علاقته مع كافة أنواع المخلوقات بعد أن يساويها بنفسه.

- حسناً. إذن هل يمكننا القول إن المحارب يقيم علاقة مع الكون بأكمله ضمن إطار وعي النحن؟.

- هاه... الآن إتفقنا يا سيد عارف. يمكننا قول هذا، فالمحارب إنسان امتلك وعي النحن الكوني.

- أهذا ما يقوله دون جوان؟!.

- كلا. لم يتحدث دون جوان عن شيء اسمه وعي النحن. ولكننا أنا وأنت نفسر الآن ما قاله دون جوان. وبالأحرى أنت سألتني بقولك: «يا سيد دوغان، هل يمكننا تفسير قوله بهذه الطريقة» وأنا قلت لك «نعم» يمكننا ذلك.

- والآن، ما هي الخاصية التي سنضيفها إلى القائمة؟!.

- ما رأيك لو نقول: المحارب إنسان متواضع؟.

- حسناً. سأكتب: **الخاصية الرابعة عشر هي «المحارب إنسان متواضع»**.

- ممتاز. أكتب هذا يا سيد عارف. عندما كنا نتحدث عن قبوله لذاته كما هي، قلت بأن هذه الخاصية موجودة لديك هل تتذكرّ؟.

- لم أتذكرّ يا أستاذي؟.

- ألا تذكر حين قلت: «أرى أنني لا أمتلك أية خاصية من الخصائص التي راجعناها حتى الآن ولم يكن مصادفة أن يتشوش دماغي وأن أُصاب بالإكتئاب.

- أجل. تذكرّت.

- قلت لك حينها: «إن هذه الملاحظة التي تتحدث عنها تبيّن أنك إنسان واقعي». وأردت أنت أن تضيف هذه الخاصية إلى القائمة. والآن عبَّرنا عن خاصية الواقعية هذه بتواضع المحارب، وأنت أيضاً تمتلك هذه الخاصية لأنك لست مدَّعياً ولأنك تتقبل ذاتك كما هي.

- هل تفكر بهذا الأمر فعلاً يا سيد دوغان.

- أجل. أفكر به بشكل فعلي.

- هل هذه الخاصية هامة؟

- برأيي كل خاصية من خصائص المحارب هامة وأساسية وهذه الخاصية أيضاً أساسية.

- شكراً لك يا سيد دوغان. ازدادت ثقتي بنفسي.

التفتُ نحو ميناء كاراكوي ونحو مستودعات الجمارك. في هذه الأثناء أطلقت إحدى البواخر زمورها.

تنتشر البواخر الصغيرة والكبيرة والصهاريج وقوارب الصيادين في البحر. بعد أن أطلقت الباخرة زمورها شبهّت هذا الجزء من البحر، الذي وقع ضمن مجالي البصري، بمخلوق ما. هكذا كان يعبُّر عن ذاته بكل حيوية... بصوته وجلبته وحركته ومنظره. كان الرجال الذين يتفرجون على المباراة لا يزالون جالسين أمام التلفزيون. أدركت أمراً هاماً وهو أن عدد الرجال الذين لا يهتمون بالمباراة ولا يتفرجون عليها ضخم جداً. فبعضهم جالس ليتفرج علىماحوله وأما معظمهم فإنهم جالسون مع أصدقائهم على الطاولات يتحدثون معهم. وبعض الطاولات يجلس عليها مزيج من الرجال

والنساء يواصلون أحاديثهم فيما بينهم. والملفت للنظر أن أصوات الضحك تنبعث أكثر ما تنبعث من الطاولات المختلطة التي يجلس عليها رجال ونساء. خدم الطاولات (النُدُلُ) يقومون بعملهم بسرعة ونشاط. لا يبدو أنهم يهتمون بأن يشغّلوا أدمغتهم بموضوع العلاقات القائمة بين الناس، بل يولون اهتمامهم للعمل بشكل مثمر ولكن لا توجد أية فجاجة في علاقتهم مع زبائنهم.

من مكاني هذا أستطيع رؤية منظرالبناء البشع الذي لم يُكمل إنشاؤه والذي أراه من نافذة منزلي. أضف إلى ذلك المبنى الرفيع ذو السطح الأحمر يشوّه منظر المنطقة.

الرجل الذي كان يتفرج على المباراة مع ولده طلب نقوداً من زوجته لكي يدفع الحساب. إذن هذه المرأة هي وزيرة المالية في البيت. أخرجتْ المرأة محفظتها من جيبها وأعطت النقود للرجل فناولها للنادل. وبعد فترة أعاد النادل الباقي من النقود للرجل فتناولها ووضعها أمام زوجته. وهذا دليل آخر على أن المرأة هي التي تمسك الإدارة فيما يخص النقود.

تذكر السيد عارف البيت الذي ذهبت إليه ابنة أحد معارفه في مدينة إسكي شهير عروساً. فقد كانت حماة تلك الفتاة تستلم وزارة المالية في البيت الذي يعيش فيه ولدان لها، أحدهما متزوج، وتنتظر دائماً أن يسلماها كل ما يكسبانه من نقود وبعد ذلك تقوم هي بتلبية احتياجات البيت وإعطائهم مصروفهم. فسألتُهُ قائلاً: وماذا جرى لهذا الزواج؟ فقال لقد تطلقت الفتاة. لم أتعجب أبداً.

❖ فرصة للتعلم:

بعد فترة من الصمت تأملنا فيها المحيط والناس الذين يعيشون فيه، تابعنا بحثنا في خصائص المحارب من الكتب التي بين ايدينا.

يقـول دون جـوان في مكـان آخـر وهـو يتحـدث مـع كـارلوس: **الفـرق الأساسي بين الإنسان العادي والمحارب هو: بينما ينظـر المحارب إلى كل شـيء علـى أنـه فرصـة للـتعلم يجـب التـصدي لهـا، يـرى الإنسان العـادي الأشـياء علـى أنهـا إمـا أشـياء محمـودة وتـستحق الـشكر أو مذمومـة وتستحق الشتيمة**[19].

– سيد دوغان. ماذا تعني بفرصة للتعلم يجب التصدي لها.

– وضعت يدك على نقطـة رائعـة يـا سـيد عـارف. ترجمتُ لـك كلمـة «Challenge» الإنكليزيـة بهـذا المعنـى، ولا يوجـد معنـى دقيـق باللغـة التركيـة لهـذه الكلمـة. ولهـذا الـسبب يجـب التعـبير بعبـارات مختلفـة حـسب الأوضـاع والحالات المختلفة، جميل أنك أدركت هذه النقطة.

– هل يمكن أن توضح معنى هذه الكلمة أكثر؟!.

– حـسناً. سـأقوم بعملـين معـك. الأول: سـنجري بعـض الملاحظـات المتعلقة بالحالات التي يتم استخدام هذه الكلمـة فيهـا. والثـاني سـنقف عنـد خاصية نظرة المحارب.

– بداية ستشرح معنى الكلمة الإنكليزية؟.

– أجل. إذا بحثنـا في قـاموس «ريدهـاوس Redhause» عـن هـذه الكلمـة سـنجد أنـه يقرأهـا تـشالينج ويوضـح بأنهـا تـستخدم فعـلاً واسمـاً في الوقـت نفـسه، ويوضـح أيـضاً بأنهـا تـستخدم كاسـم بمعنـى: التحـدي. الـدعوة إلى المبارزة، دعوة لتوضيح موضوع ما. وفي العسكرية تأتي بمعنى أمـر «قـف» أو السؤال عن الهوية وفي الحقوق: تعني الرفض الذي يقوم به القاضـي أو هيئـة التحكيم. وكفعل تستخدم بمعنى التحدى أو الـدعوة إلى المبـارزة والإعـتراض ونباح الكلب حين يشم الرائحة، (كلب الصيد)

---

[19] نفس المصدر السابق الصفحة: 1. 6

- كل المعاني التي قدمتها لا تنسجم مع المعنى الذي استخدمته فيه.

- فعلاً لا تنسجم ولهذا السبب أدخل في هذه التفاصيل والمعنى الأكثر إنتشاراً واستخداماً لكلمة «Challenge»، هو التحدي. فمثلاً أستخدم هذه الكلمة حين أدعوك لإثبات صحة شيء تقوله وتقديم الأدلة اللازمة. فهنا يوجد معنىً مفاده «هيا برهن عن صحة هذا» يوجد استخدام منتشر آخر لهذه الكلمة. فمثلاً، ذهبت لحضور ندوة وتم في الندوة تناول الموضوعات التي تعرفها فقط. ولم تجد فيها شيئاً يداعب عقلك ويجعلك تفكر ويثيرك أو يفتح لك أفقاً جديداً. يمكن استخدام هذه الكلمة بهذا الاتجاه أيضاً[20]. وكثيراً ما سمعت الطلاب في الجامعة التي كنت عضو هيئة تدريسية فيها يستخدمون هذه الكلمة بهذا المعنى فيما يتعلق بموادهم الجامعية.

- يعني بمعنى مادة صعبة أو مادة سهلة؟.

- لا. بل أكثر من معنى سهولة وصعوبة إنهم يستخدمونها للتعبير عن جانب مفاده هل تعلّم هذه الدورة أشياء جديدة تشغّل عقول الطلاب أم أنها مجرد دورة لتقديم معلومات منخفضة القيمة.

- أي أنها تستخدم بمدى إسهام هذه الدورة بشيء في حياة الطلاب؟.

- أجل. هذا صحيح. يدرك الطالب حين استخدامه هذه الصفة أن عليه «اكتساب» هذه القيمة التي ستضيفها الندوة إلى حياته، ويعلم الطالب حين استخدامه هذه الصفة فيما يتعلق بالندوة أنه لن يذهب لمجرد الجلوس في الصف والإستفادة من الندوة بل يجب أن يتصارع ويتخانق ويتحاسب مع المصطلحات التي تقدمها الندوة. فقط بعد هذا الصراع تساهم هذه الندوة في إضافة شيء لحياته.

- أفهم ذلك.

---

(20) - كما في الجملة التالية: It was not a Chalenge Semner

- وهناك استخدام آخر لهذه الكلمة كما في الجملة التالية: يمكنك النظر إلى كافة الأحداث التي تصادفك على أن كل حادثة منها تشكل مشكلة. ويمكنك أن تنظر إلى كل واحدة منها على أنها تحد «Challenge»[21]. من هنا نرى أن دون جوان يستخدم هذه الكلمة بهذا المعنى حين يقول: «**الفرق الأساسي بين الإنسان العادي والإنسان المحارب هو: أن المحارب يرى كل شيء على أنه فرصة تعلم يجب تحدّيها أو التصدّي لها، بينما يرى الإنسان العادي كل شيء على أنه جيد ويستحق الشكر أو سيء ويستحق الشتيمة**». وهذا يعني أن challenge تعني «فرصة للتعلم يجب تحدّيها أو التصدي لها».

- إن القول « يجب تحدّيها أو التصدي لها » يتضمن تأكيداً يشير إلى أن على الإنسان أن يبذل الجهد ويعمل ويكافح.

- أجل. يتم التأكيد على اتخاذ موقف فاعل.

- يعني أن الإنسان العادي يتَّخذ موقفاً سلبياً فإما أنه يشعر بالإمتنان أو يهدر وقته بالتذمر والشكوى، بينما يبذل المحارب الجهود الحثيثة باتخاذه موقفاً فاعلاً يكافح ويناضل من أجله.

- يا سيد عارف: ينظر المحارب إلى كل حادثة على أنها فرصة من أجل اكتشاف أشياء جديدة ومن أجل فهم حياته ولكي يطور نفسه ويمتلك المعلومات. ففي كل حادثة ثمة دعوة له مفادها: «تعال، راقب وأدرك وافهم وفسِّر واكتشف المعنى المختبئ في داخلي».

- يا سيد دوغان ألا تجد أن الأحداث عبارة عن ساحة تحد بالنسبة للمحارب؟! كأنها تقول له مثلاً «تعال لنرى» فيما إذا كنت تستطيع أن تفهم المعاني الموجودة في داخلي».

---

(21) كما في الجملة التالية:
You can see severything in life either as a problem or as a challenge

- لم أفكر بهذا الموضوع يا سيد عارف. ولكن معك حق في ذلك فثمة تحد هنا.

- توقفنا عن الكلام لفترة، كان السيد عارف ممتناً لأنه فهم ما قلته من جهة ولأنه استطاع أن يقدم إسهاماً ما من جهة أخرى. أخذ رشفة من كأس الماء الذي أمامه. وقال: «يجب أن نضيف خاصية جديدة ألى خصائص المحارب» وأضاف قائلاً: «**الخامسة عشر: يرى المحارب كل شيء على أنه فرصة للتعلم يجب تحديها والتصدي لها**».

- هززت رأسي تعبيراً عن موافقتي فبدأ بكتابة الخاصية التي أرادها بإضافتها إلى قائمة الخصائص. بينما كان يكتب الخاصية على القائمة انشغلت بمراجعة المقاطع التي وضعتُ إشارة تحتها من الكتاب الموجود بين يدي وعندما أنهى السيد عارف الكتابة تابعنا حديثنا.

❖ المحارب حريص على صحته:

- بينما كان كارلوس ودون جوان يجلسان في حديقة من حدائق إحدى المدن في المكسيك ويتأملان الناس دارت بينهما أحاديث مختلفة. وبعد أن تأملا حالات بعض الناس الذين لا يعتنون بأجسادهم ولا ينتبهون لصحتهم ويستسلمون لإحساسات سلبية ويقعون أسرى لعادات مضرة بالصحة مثل: التدخين والكحول. قال دون جوان «**المحارب يعتني بصحته ويحميها كما يحمي بؤبؤ العين**».

«لا يمكن للإنسان الذي لا يعتني بصحته ولا يعتني بجسده أن يولي أية أهمية لصحته النفسية»[22].

- يا سيد دوغان. ما تقوله أمر ينتظره بل ويأمله الجميع.

---

[22] نفس المصدر السابق الصفحة: 5 - 133.

- سألتني في إحدى المرات يا سيد عارف «كيف يمكننا التعرف على المحارب؟!» إن هذه الخاصية من أكثر خصائص المحارب تجسيداً ويمكن رؤيتها بسهولة. ولهذا السبب أردت الحديث عن هذه الخاصية. حقيقة إن هذا التطلع ساري المفعول من أجل كل شخص. ولكن الق نظرة حولك. كم ترى شخصاً يعتني بصحته بشكل واعٍ ويحرص على اختيار حياة سليمة وصحيحة؟.

- أجل. إنهم قلة، خطر سؤالٌ على ذهني. ألا يمكننا وصف الإنسان الذي يمتلك عادات سيئة كالتدخين وتناول الكحول والذي لا يعتني بصحته، بالإنسان السليم من الناحية النفسية؟.

- لا، لا يمكنا. بل أستطيع القول بأن شخصاً كهذا إذا أراد التخلص من هذه العادات السيئة يجب عليه أولاً مواصلة البحث عن معنى في حياته، والعثور على هدف لحياته، وبعد ذلك سيأخذ كل شيء مكانه الصحيح في حياته مع مرور الزمن بما في ذلك العادات الجيدة.

- إذن هل يمكننا القول بأن الأزمة النفسية تعبّر عن نفسها من خلال الإضطرابات الصحية التي يعاني منها الجسد؟!.

- تذكَّر يا سيد عارف وضعك عندما التقينا أول مرة، فلو استمر تشوشك العقلي وتشاؤمك ويأسك لكان من السهل أن تتحول إلى إنسان يدخن ويمضي لياليه بتناول الكحول، أليس كذلك؟

- أجل. حتى أن هناك أمر لم أخبرك به، لقد كنت قد بدأت التدخين قبل أن أبدأ الحديث معك بثلاثة أشهر. لكني كنت أدخن من خمس إلى ست سيجارات في اليوم، ولقد كنت أتجنب التدخين عندما نكون سوية لأنني عرفت موقفك من التدخين، ولكنني الآن لا أجد لديّ أية رغبة بالتدخين فأنا مدرك لضرورة أن تبقى صحتي جيدة لسنين طويلة لكي أحقق المُثُل التي نذرت نفسي في سبيل تحقيقها.

- ما أن يدخل المعنى والرضا والحماس إلى حياتك حتى تزول منها كافة العادات السيئة كالتدخين مثلاً.

- أجل. هذا ما جرى معي. إذن يا سيد دوغان هل يمكننا القول إذا لم يعتنِ إنسان ما بصحته وإذا واصل عاداته السيئة فإن هذا يعني أنه توجد في حياته أزمة بالمعنى والرضا والحماس؟.

- يمكننا قول ذلك.

- لو استمع لحديثنا هذا أحد الناس المحترمين الذين يدخنون...

- الناس المحترمون؟!!.

- أي الذين لهم مراكز مرموقة في المجتمع وأصحاب المهن الراقية و... لو استمع هؤلاء لحديثنا لوجدوا مبالغة كبيرة فيما نقوله ولطلبوا منا ألاّ نبالغ في موضوع التدخين وتناول الكحول.

- فعلاً أعرف العديد من الناس المحترمين في المجتمع يدخنون ويتناولون الكحول.

- وأنا أيضاً أعرف أناساً كهؤلاء وبعضهم يواصلون هذه السلوكيات التي تعتبرها غير سليمة وغير صحيحة لأنهم لا يرونها كذلك.

- أي أنهم يعيشون إنسجاماً بين ما يفكرون به وما يطبقونه.

- أجل. إنهم يعيشون حالة إنسجام كهذه. ولهذا السبب يتمتعون بشخصية متكاملة من هذه الناحية.

- حسناً. وكيف سنعرف فيما إذا كانوا يرون هذه السلوكيات غير سليمة وغير صحيّة أم لا؟.

- من خلال اختبار بسيط جداً.

- أي اختبار؟.

- أطرح على هؤلاء الأشخاص السؤال التالي: «هل تريدون من

صميم قلبكم أن يتصرف ولدكم هذا الذي تتصرفونه» فالذي يجيب بـ نعم» من صميم قلبه يكون متمتعاً بشخصية متكاملة.

- والذين يقولون «لا».

- هـؤلاء يعـانون مـن نقـص في تكامـل شخـصيتهم ويعرفـون أنهـم «مدمنون» ولا يريدون لأولادهم أن يكونوا كذلك.

- ولكـن التـصريح بهـذا الأمـر بـشكل صـريح ألا يعـني وجـود نـوع مـن تكامل الشخصية؟.

- أجل. الصدق. إنني أقدّر وأحترم الناس الذين يقولون بـصراحة بـأن هذا مضر وبأنهم أسـرى لهـذه العـادات الـسيئة. وهنـاك مـن يحـاول التحايـل من خلال بعض الألاعيب الذهنية.

- وكيف يكون هذا التحايل؟.

- كـأن يقـول: مـا الفائـدة إن عـاش الإنـسان كالعـشب إذا لم يكـن في حياته أشياء يتلذذ بها.

- ولكـن ألـيس صـحيحاً مـا يقولـه؟ أي فائـدة في أن يعـيش الإنـسان كالعشب؟.

- عنـدما يولـد الطفـل يـأتي لكـي يحقـق حيـاة رائعـة لا لكـي يعـيش كالعشب. وعندما يعيش كمحـارب فإنـه يعـيش أفـضل أحاسيـسه وحماسـه. فذات مرة قال دون جوان موجهاً كلامه لكارلوس: **المحارب لا يحتـاج لـشيء من الخـارج. فلديك في داخلـك كل شـيء مـن أجـل القيـام بهـذه الرحلـة الرائعـة الـتي يـسمونها الحيـاة. أحـاول أن أبـيّن لـك أنـه مـن الممكـن أن تعيش حياتـك كإنسان حقيقـي مـن خـلال مواصلتك حياتـك كمحـارب. فالحيـاة كافيـة بـذاتها ولا تحتـاج لـشيء مـن الخـارج لكـي تفـصح عـن نفسها فهي تفصح عن نفسها بنفسها لأنها كاملـة ومكتملـة**[23].

---

[23] Tales of power p 52

يا سيد عارف إنه لمن الجهل الكبير عدم رؤية هذه العظمة التي تتميز بها الحياة والبحث عن اللذة في المشروب والدخان والحشيش وفي بقية العادات السيئة ومن الخطأ القول بأن الحياة ستصبح بلا معنى وستصبح «مثل العشب» إذا لم توجد فيها هذه العادات السيئة.

- ولكن الذين يقولون هذا الكلام هم من الناس الذين تلقوا تحصيلاً علمياً عالياً. هل يمكن أن نقول عن هؤلاء أيضاً بأنهم جاهلين؟!

- لو كان الإنسان يتحوَّل إلى مثقف من خلال المعلومات التي يخزِّنها في ذهنه لتوجب علينا أن نقول عن بعض زملائك المعلمين ذوي التجربة بأنهم أشخاص مثقفون. إن الجهل الذي أقصده هو افتقار الحكمة

- أفهم هذا يا سيد دوغان ولكن ما هي الصيغة التي سنضيف من خلالها هذه النقطة الى قائمة الخصائص؟ هل يمكن أن نضيفها كما يلي: المحارب يحرص على صحته؟.

- برأيي هذه صيغة جميلة.

- إذن لنضف إلى القائمة: **الخاصية السادسة عشر: «المحارب يحرص على صحته».**

- جيد.

❖ يغذي المحارب شعوراً بالإمتنان والشكر لكل شيء ساهم في تطويره:

- ذات مرة وعندما كان الحديث حول الموت قال دون جوان: يتوجَّه المحارب قبل أن يموت بالشكر لكل شخص احتلَّ مكاناً في حياته وقدَّم له فائدة ما، وطلب من كارلوس أن يشكر جميع من كان له مكان في حياته فرداً فرداً. وقام كارلوس وهو يفكر بأن موته يقترب بتوجيه الشكر لكل من كان له مكان في حياته فرداً فرداً ولكل من لن يراهم بعد الآن وهو يزرف

الدموع. ولكنه لم يحتمل الموقف فراح يبكي بشدة وبدأ بالتعبير عن كل الأحزان والآلام التي راكمها خلال سنين.

«لم يقطع دون جوان حديث كارلوس. ولكن بعد أن ينهي كارلوس حديثه الممتزج بدموعه يقول دون جوان: «**يعرف المحارب آلامه ولكنه لا يستسلم لها، وأنت عندما تصل إلى المجهول العظيم لن تذهب حزيناً ومنهاراً، بل ستذهب كمحارب فالمحارب متحمس دائماً، لأنه نال شرف العيش كمحارب خلال حياته التي عاشها ولهذا السبب ينتابه شعور متكامل بالتواضع والإمتنان والشكر. المحارب متحمس لأنه عاش حياته بكل تفاصيلها.**

- وهل يموت كارلوس وقتها يا سيد دوغان؟.

- عندما سمع هذه الكلمات اقتنع بأنه سيموت وكان يستمع لما يقوله دون جوان ضمن هذا الإطار.

لا، لا يموت ويواصل تأليف كتبه. ولكن هذا اللقاء يكون الأخير له مع دون جوان.

- وهل يكون هذا آخر كتب كارلوس؟.

- لا. ولكنه يتناول في كتبه التالية أحاديثه مع دون جوان عندما كان معه وملاحظاته وذكرياته.

- ماذا سنكتب على القائمة يا أستاذي؟.

- ما هو رقم الخاصية القادمة؟.

- السابعة عشر.

- إذن لنكتب الخاصية السابعة عشر «**يغذي المحارب شعوراً بالإمتنان والشكر لكل شخص ولكل شيء ساهم في حياته**» ما رأيك؟.

- ممتاز يا سيد دوغان.

- شعبنا يقول عن هذه الحالة «الشعور بالإمتنان» ولديَّ حادثة متعلقة بهذا الأمر أريد أن أحكيها لك:

«كنت متوجهاً بواسطة التكسي إلى مكان ما في استانبول. رحت أتحدث مع السائق والحديث جرَّ حديثاً آخر فقال السائق: يا أخي إن أساس الأمراض التي نعاني منها (يقصد هنا إنعدام الطمأنينة والإستقرار في المجتمع) يكمن في عدم الشعور بالإمتنان والشكر» وأردف يقول: «الذي لا يعرف الشكر لا يجد الطمأنينة في قلبه» أعجبتني هذه الجملة كثيراً. والآن دون جوان يقول الجملة ذاتها. وهنا يمكننا التحدث ضمن إطار أكثر إتساعاً، إذ يوجد بين شعبنا حكماء هامون جداً منتشرون هنا وهناك.

– يا سيد دوغان ما دام الحكماء منتشرون هنا وهناك بين شعبنا فلماذا تسوء أمور مجتمعنا إلى هذا الحد؟... أقصد، اذهب إلى بيت هذا السائق وأنا على ثقة بأنك ستجد في منزل هذا الرجل الذي قال هذه الحكمة أسلوباً أبوياً متمحوراً على الخوف. حتى أستطيع القول بأنه لن يخطر على باله أن يمارس أسلوباً أبوياً يطوِّر من خلاله طاقات أولاده. فهل يمكن لشخص حكيم أن يربي أولاده بهذه الطريقة؟ يخطر بذهني أن ثمة ما يعرقل هؤلاء الذين تسميهم حكماء.

– أفهم ما تريد قوله يا سيد عارف. ربما أكون قد تصرفت بشكل عاطفي بعض الشيء. أي عندما كان السائق يتحدث عن موضوع الشكر والامتنان ربما كان يتحدث ضمن بنية ذهنية جامدة، ولأنني أريد رؤية شعبنا حكيماً فقد راقت لي فكرته وقلت «يا لهذه الحكمة» يعني ربما تكون على حق، وربما يكون ما قاله عبارة عن كلام وحسب.

– حسناً وكيف سنعرف فيما إذا كان عبارة عن كلام وحسب أم لا؟.

– سننظر إلى حياة الذي يقول هذا الكلام وسننظر إلى علاقته الزوجية وإلى أسلوبه الأبوي وإلى علاقاته مع الآخرين، وسننظر فيما إذا كان ما يقوله يبقى ضمن إطار الكلام أم يتحول إلى فعل وتطبيق. ملاحظتنا هذه هي التي ستعطينا الجواب على السؤال الذي طرحته.

- يعني أنك تقول: المهم هو فعل الرجل وليس كلامه؟.

- في الحقيقة أنا لا أقول لك. أنت من يقول وما تقوله صحيح وفي مكانه. أشكرك على هذه النقطة الجميلة التي أثرتها.

- شكراً يا أستاذي: نظرتك لي على أنني إنسان مهم تروق لي كثيراً.

- إنك إنسان مهم يا أستاذ عارف. بل ومهم جداً.

❖ الزهرة المحاربة:

انتبهت إلى أنني كتبت ملاحظات ما بخط يدي على الصفحة الأخيرة من الكتاب الذي بيدي، وتذكرت المكان الذي قرأت فيه هذا الكتاب. لم أدوّن التاريخ تحت ما كتبته على الكتاب ولكنني أعتقد أن تاريخ قراءتي لهذا الكتاب هو آب عام 1987 أو 1988 تحدثت عن هذه الذكرى للسيد عارف:

- أقمت بمفردي في خيمة لمدة أسبوع في مخيم كولد ويتر Cold wader في المنطقة التي تدعى مينرال كينغ Mineralking في حديقة سيكويا الوطنية Seguia park في كاليفورنيا، وقرأت كتب كارلوس كاستانيدا قراءة مطولة. كنت أقضي النهارات جالساً على منطقة صخرية على ضفة النهر أعرّض نفسي للشمس من جهة وأقرأ كتابي من جهة أخرى وعندما كنت أشعر بالجوع أسارع لتناول السندويشات التي أعددتها مسبقاً.

ذات مرة كنت جالساً على صخرة فرأيت بين الأحجار الموجودة على الضفة المقابلة زهرة صفراء نبتت من تلقاء ذاتها في منتصف إحدى الصخور، كانت جذورها داخل الصخرة وكان جزء منها يلامس الماء وهذا ما جعلها في حالة حركة مستمرة. نظرت مطولاً إلى هذه الزهرة رأيت فيها روحاً محاربة ومن وحي هذا المنظر أمسكت قلمي وكتبت على الصفحة الأخيرة من الكتاب هذه العبارات باللغة الإنكليزية:

«وجود هذه الزهرة يعبِّر عن روح المحارب التي لا تُقهر، قوتها

الوحيدة نابعة من بذرتها المتشبثة داخل صخرة موجودة على ضفة نهر. إنها تستخدم قوتها العظيمة المستمدة من بذرتها كمحارب يتمتع بموقف متكامل وروح لا تقهر. لا مكان للتذمر أو للملل في حياتها المفعمة بالقوة والحماس، حماس الحياة في كل لحظة»

أذكر أنني تحدثت مع الزهرة وعبَّرت لها عن إعجابي الشديد بها وتحولت هذه الزهرة إلى واحدة من المعلمين الهامين في حياتي. فكلما وجدت نفسي أتذمر من الشروط الصعبة التي أعيشها أتذكر الزهرةالمحاربة التي خلقت حياة لها داخل صخرة موجودة على ضفة نهر فأستجمع قواي وأحاول أن أعمل أفضل ما يمكن عمله على أكمل وجه بكل حماس الحياة.

تناول السيد عارف الكتاب من يدي وقرأ ما كتبته ثم أغلق الكتاب وأعطاني إياه وقال: «يا أستاذي لم أتمكن من فهم ما كتبته بشكل جيد لأن لغتي الإنكليزية غير جيدة ولكنني أدرك مدى أهمية هذه الذكرى وسمو معنى هذه الملاحظة. ولم أكن لأفكر أبداً أن تتحول زهرة ما إلى معلم يمتلك هذه القوة وهذا التأثير».

صمتنا لفترة. ثم خاطبني السيد عارف قائلاً: «إنك تقاسمني أشياء خاصة كثيرة فيما بيننا... كم أنا إنسان محظوظ. إنني أتوجه بالشكر من كل قلبي لك يا سيد دوغان».

فعبَّرت له عن ازدياد قيمة هذه الذكرى في نظري لأن أحداً ما تقاسمها معي، وعبَّرت عن شعوري بأنني إنسان محظوظ أيضاً لأنه سلّمني نفسه عقلاً وفؤاداً يستمعان لحديثي ولهذا ازدادت قيمة أفكاري كثيراً.
اقترب وقت الوداع طرح السيد عارف سؤالاً خطر على ذهنه:

- يا أستاذي، قلت أن كارلوس ألَّف تسعة كتب. والآن أنهينا الكتاب الرابع فمتى سنتناول الكتب الأخرى؟.

- يا سيد عارف، راجعت بنفسي المقاطع التي وضعتُ تحتها إشارة في الكتب الأخرى فيما يتعلق بخصائص المحارب ورأيت أننا تناولناها في مجالات أخرى وفي مناسبات عديدة، ولهذا السبب لم أر داعٍ لمطالعة ما تبقى من كتب.

- يا أستاذي ماذا لو أوصلنا هذه الخصائص إلى العشرين أو لو طرحنا خاصتين وجعلناها خمسة عشر؟.

- ولماذا؟.

- لا أعلم. ولكن بدا لي أن الرقم سبعة عشر غير مناسب.

- أنا واثق من أننا سنجد خصائص كثيرة إن طالعنا كتب كارلوس، لكنني أرى أن هذه الخصائص التي كتبناها تعبِّر بشكل جيد عن روح المحارب.

- ماذا سنفعل في لقائنا القادم يا أستاذي؟.

- أقترح مناقشة كيفية تطبيق المصطلحات التي تناولناها حتى الآن على حياتك. ما رأيك بهذا الموضوع.

- يا أستاذي. أيمكن أن لا تأخذني مثالاً لهذا الأمر؟.

- سنراجع المصطلحات الهامة التي تناولناها خلال أحاديثنا حتى الآن، وسنرى كيف ستحتل هذه المصطلحات مكاناً لها في حياتك وستكون هذه فرصة جيدة لك. إننا هنا لا نحاكم حياتك بل ننشئ لك أسس مستقبل قوي.

- أساساً أنا متفق معك يا سيد دوغان وأنا مدرك بأنها ستكون فرصة جيدة بالنسبة لي.

نهض السيد عارف وابتسم ثم قال: «ولهذا السبب أحس بالامتنان والشكر في داخلي».

فابتسمت أنا أيضاً وتابعت كلامي:

- بعد ذلك سنجد تطبيقات موقف المحارب فيما يخص بلدنا، أريد إجراء بعض الملاحظات حول هذا الموضوع. أي من الآن فصاعداً ستكون بعض أحاديثنا يومية وتطبيقية أكثر من كونها مجردة وفلسفية سنجري بعض الملاحظات بعد تطبيق المفاهيم والمصطلحات المجردة على الحياة، ولنرى إلى أين ستنقلنا هذه الأحاديث وهذه الملاحظات إنني متشوق لمعرفة ذلك وأشعر بالانفعال.

كلانا يعرف أن موعد الوداع قد حان. كان السيد عارف مستعداً. قلت:

- يا سيد عارف كنت ستذكّرني بشيء ما. هل نسيت؟.

- بماذا كنت سأذكرك يا أستاذي؟.

- لا أعلم... فكّر أنت؟.

فكَّر السيد عارف ثم نظر إلى ورقة فارغة أمامه ونظر إليَّ وقال:

- لم أذكر أي شيء يا سيد دوغان.

- عندما كنا نتحدث عن خصائص المحارب بحثنا في مصطلحات الإدمان والهوس. فقلتَ وقتها: «إذن كل ما ألتهي به في حياتي باستثناء قراراتي الإستراتيجية عبارة عن إدمان وهوس» هل تذكَّرت؟.

- أجل.

- بعد ذلك طرحتَ عليَّ السؤال التالي: «كل هذه الأمور تزوِّد الإنسان بوعي عظيم بالمسؤولية. ألن يملَّ الإنسان بعد فترة من الزمن من حياة كهذه؟ وبالأحرى ألن يتعب منها؟!!» فقلت لك: «هل ترى هذه الأمور جدية إلى هذا الحد؟» فقلت: «أجل. إذن هل من المعقول أن أبتعد عن كل شيء وأنام وأصحو ولا أفكر بشيء إلاَّ بكيف سأصبح معلماً؟» فقلت لك: «في الحقيقة إن حياة المحارب مفعمة بالسعادة والطاقة والحيوية والحركة ولا يوجد فيها أي شعور بالقسر وبالإحباط. فقلت: «وكيف

لحياة مليئة بالشروط والقواعد أن تكون مفعمة بالسعادة والطاقة والحيوية والحركة؟».

- أجل. أجل. الآن تذكرت، وقلتَ لي بعد أن نلقي نظرة على خصائص المحارب سنعود إلى هذا الموضوع. ذكرّني بذلك.

- يمكننا الآن مناقشة هذا الموضوع.

- يا أستاذي، هل يمكن أن نناقش هذا الموضوع في بداية لقائنا القادم؟ لأنه يتوجب عليَّ أن أكون بعد ساعة في الضفة المقابلة مِن استانبول. ولا أريد أن أستمع لموضوع شيّق كهذا وأنا متعب.

- حسناً، اتفقنا. ولكن لي رجاء واحد؛ قبل المجيء إلى لقائنا القادم اذهب إلى حديقة ألعاب الأطفال أو إلى أي مكان آخر وراقب الأطفال وهم يلعبون لمدة نصف ساعة... فقط راقب كيف يلعبون وحاول أن تدرك كافة التفاصيل.

- لِمَ يا سيد دوغان؟.

- فيما بعد سأشرح لك سبب ذلك. افعل ما قلته لك وحسب.

- حسناً.

افترقنا بعد أن اتفقنا على اللقاء الأسبوع القادم على هضبة تشامليجه.

11
مراجعة

التقينا على هضبة تشامليجه ثم مشينا باتجاه المنشآت الاجتماعية لبلدية محافظة استانبول. على يسار الطريق المرصوف الذاهب إلى أرناؤوط يوجد كراج للسيارات وعلى يمين المدخل توجد مبانٍ حكومية وإلى الأمام قليلاً يوجد مطعم. لقد تم تخطيط هذه المساحة الكبيرة بشكل ممتاز لتتحوَّل إلى حديقة فيها طرق للتنزه وأماكن للزهور والأشجار واصطفت فيها المقاعد بشكل رائع. في المدخل مباشرةً أنشئ عرزال مغلق أشبه بالزاوية الشرقية وما أدهشني هو رؤية عروسين هناك، وفيما بعد عرفت أن العرسان يأتون إلى هنا بعد ليلة الدخلة. فقد ساد بين الناس اعتقاد بأن المجيء إلى هنا بعد ليلة الدخلة يجلب الحظ والسعادة.

داخل الحديقة وُزِّعت الكراسي الصغيرة والطاولات الصغيرة أيضاً. كما وُزِّعت غرف تحضير الشاي في كل مكان. جلسنا حول إحدى هذه الطاولات وطلبنا من النادل كأسين من الشاي. كنا محاطين بمناظر بانورامية رائعة، إن التواجد بين أناس من كل الأشكال والألوان لهو أمر يبعث على السعادة... الأطفال جاؤوا إلى هنا برفقة أهاليهم وهم يشعرون بالسعادة لأنهم وجدوا فرصة للعب قريباً من أهاليهم.

سألت السيد عارف فيما إذا وجد الفرصة المناسبة لمراقبة الأطفال

وهم يلعبون أم لا . فضحك وأخبرني بأنه وجد الفرصة فسألته عن الأشياء التي لفتت انتباهه:

❖ الأطفال وهم يلعبون:

- طلبتَ مني مراقبة الأطفال وهم يلعبون لمدة نصف ساعة ولكنني لم أتمالك نفسي فراقبت لعبهم أكثر من ساعة. قبل كل شيء وجدتهم حيويين وسعداء ومحبين للمشاركة إلى أبعد حد . كانوا يتمتعون بالألعاب التي يلعبون بها، يتحدثون بما يخطر على ذهنهم مباشرةً وينفذونه مباشرةً أيضاً .

«كثيراً ما كان الأطفال يبدون مقاومة ضد الكبار الذين يطلبون منهم مغادرة اللَّعب والذهاب إلى البيت. فهم لا يريدون الذهاب إلى البيت بل يريدون مواصلة اللعب».

«من الأشياء التي لفتت انتباهي أيضاً . أن معظم الشجار الذي كان يقع بينهم كان نابعاً على العموم من فهمهم المختلف لقواعد اللعبة التي يلعبونها، القاعدة هكذا، لا بل هكذا . وبعد التوصل إلى اتِّفاق حول قواعد اللعبة يعودون فوراً إلى اللعب بجدية وبطاقة كبيرة.

- يا سيد عارف، استخدمتَ كلمة مثيرة جداً أثناء حديثك عن لعب الأطفال. إذ قلت: «يلعبون بطاقة كبيرة وبجدية» لفت انتباهي كلمة جدية.

- حقيقةً كانوا يلعبون كمن يقوم بعمل جدّي للغاية. أي كانوا يلعبون لعبتهم كإنسان جاد فيما يقوم به من عمل.

- حسناً . وهل كان الأطفال سعداء وهم يلعبون؟.

- لا شك. فقد كانت السعادة والحماسة واضحة عليهم.

- ليس لأن الآخرين يريدون منهم اللعب بل يلعبون لأنهم هم من أرادوا ذلك أليس كذلك؟.

- طبعاً هم يقررون اللعبة التي سيلعبونها ومن ثم يبدؤون اللعب بها.

- حسناً. وهل هذه الملاحظة خاصة بأولئك الأطفال أم يمكن قول الشيء نفسه من أجل أي أطفال آخرين يلعبون.

- برأيي هذه الملاحظة تصحُ على كافة الأطفال.

توقفنا عن الكلام لفترة. أخذت كما أخذ السيد عارف رشفة من كأس الشاي ثم سألته قائلاً:

- حسب اعتقادك، لماذا طلبتُ منك مراقبة الأطفال وهم يلعبون؟.

- فكَّرت بهذا الموضوع، ثم قلت لا شك أن هذا له علاقة أكيدة بالمحارب. توقَّعت شيئاً ولكن لا أعلم فيما إذا كان صحيحاً أم لا.

- ماذا توقَّعت؟.

- طرحتُ سؤالاً عليك يتعلق بحياة المحارب «كيف لحياة مليئة بالشروط والقواعد أن تكون مفعمة بالسعادة والطاقة» فكرتُ أن تكون الملاحظة لها علاقة بهذا السؤال.

- حسناً وما هو جوابك؟.

- لألعاب الأطفال قواعدها أيضاً ولا يسمحون أبداً لأحد بانتهاك هذه القواعد. ولكنهم مع ذلك كانوا سعداء ومفعمين بالحيوية أثناء لعبهم.

- برأيك لِمَ كان أولئك الأطفال سعداء ومفعمين بالحيوية؟.

- لأنهم اختاروا اللَعِب بهذه الألعاب بأنفسهم وهم من وضع قواعد هذه الألعاب وأثناء اللعبَ ليست لديهم أية غاية أخرى إلاَّ اللعب بتلك الألعاب.

- أي أن نواياهم الخاصة باللعب صافية ونظيفة؟.

- هاه... نعم. كما صفاء نوايا المحارب.

- أعتقد أنك وجدت بنفسك جواباً للسؤال الذي طرحته عليَّ في لقائنا السابق من خلال مراقبة الأطفال وهم يلعبون. المحارب يعيش حياته

كما يعيش الطفل حياته بكل براءة وجدية وحب بالمشاركة. فالحياة بالنسبة له عبارة عن وسط للتعلم والاستكشاف يمكن عيشه في كل لحظة، إنها مغامرة عظيمة.

- حصلت على جواب لسؤالي يا سيد دوغان. شكراً لك.

هنا ... وسطٌ للتجمع جاءت إليه كافة شرائح مجتمعنا، الشباب والعجائز والرجال والنساء والموظفون والحرفيون، العائلات جاءت بكل من فيها، الجد والجدة والأب والأم والأطفال. ونادراً ما كنا نستطيع رؤية شاب وفتاة يتمشيان متشابكي الأيدي. ولكن عدد العرائس اللواتي يرتدين فساتين العرس البيضاء. عددت سبعة منهن.

- سيد عارف، أريد في لقائنا لهذا اليوم مراجعة المصطلحات التي تناولناها حتى الآن.

- هل تريد أن تتأكد من أنني أتذكر هذه المصطلحات أم لا؟.

- كلا، ليس كذلك. ما أفكر به مختلف تماماً، أريد أن أتناول المصطلحات التي تحدثنا عنها من جديد. ولكن هذه المرة أريد التوقف عند كيفية تطبيق هذه المصطلحات على حياتك وبشكل خاص على حياتك على اعتبارك معلم.

- سيكون هذا مفيداً جداً بالنسبة لي.

- هكذا أفكر أنا أيضاً. هل نبدأ؟.

- لنبدأ.

❖ حالة البحث واليقظة:

- تتذكر يا سيد عارف أننا تعارفنا بعد إحدى الندوات التي كنتُ أشارك فيها. حضرتَ إلى الندوة وعندما انتهت جئتَ إليَّ وقلت: «لدي سؤال يا أستاذي. هل يمكن أن آخذ من وقتك عدة دقائق؟ ».

- نعم أذكر ذلك.

- عندما التقينا لأول مرة تأثرت بملامح وجهك وبنظرات عينيك فقد كان على وجهك مزيج من الاضطراب والتوتر والسعادة والقلق. وعندما التقت نظراتنا مع بعضها أحسست أن عيوننا فهمت بعضها، صرنا صديقين، شعرت بهذا الشيء من أعماقي. وبعد ذلك بدأنا بهذه اللقاءات المنظمة.

«أحسست في أول لقاء لنا أنك في حالة بحث، وأنا لا أصادف في مجتمعنا الكثير من الناس الذين يعيشون حالة بحث كهذه، فكل شخص يسعى لتغيير شخص آخر. ولأن القليل من الناس يطرحون سؤال: « ماذا عليَّ أن أفعل لكي أتغيَّر» فقد تأثرت بشكل إيجابي بكونك تعيش حالة بحث. وازدادت سعادتي أكثر لأنك مُعلماً.

- لم أكن أحلم مجرد حلم بأن أتحدث معك كل هذا الوقت ولهذا أشعر بالسعادة تغمرني.

- أنا أيضاً تمتعت بلقاءاتنا. ولم أتمتع وحسب بل تعلمت أشياء كثيرة واكتشفت أشياء جديدة ولهذا السبب أشعر بالسعادة فعلاً كوني أمضيت هذا الوقت معك.

«كنتَ قد اخترتَ مهنة التعليم ولكن مع مرور الزمن صرت تتساءل بقولك: عجباً، هل اتَّخذتُ قراراً خاطئاً» ولكن لم تكن تدرك سبب تفكيرك وتساؤلك هذا. في لقائنا الأول تناولنا السبب الذي جعلك تشعر بهذا الشيء ولم تكن ترغب أن تكونَ واحداً ممن يمارسون التعليم من أجل لقمة العيش».

وعندما مارست «التعليم من أجل التطوير» وجدت نفسك في مواجهة أهلك وزملائك في التعليم وصديقتك وصاحب البيت الذي كنت تفكر باستئجاره فرحت تفكر بأنك إنسان خيالي والأسوأ من ذلك بأنك « عبارة عن مغفل» عقله لا يعمل.

أحببتُ حينها أن أناديك بلقب «الأستاذ عارف» لأنني حقيقة وجدت

أنك شخص نذر نفسه في سبيل التعليم وبأنك شخص تليق فعلاً بهذه المهنة. وعندما سألتني «لماذا أشعر بأنني أحمق» هل تذكر ما هو الجواب الذي أعطيتك إياه؟.

- قلتَ بأنني أجري تقييمات خاطئة.

- كلا لم أقل هذا. بل قلت إنك تحاول فهم التعليم من أجل التطوير في وسط يجري فيه تداول وتطبيق مصطلح «التعليم من أجل لقمة العيش».

- أجل الآن تذكرت. قلت يومها: «إنها فلسفة حياةٍ خاصة بالتعليم من أجل التطوير».

- أجل. هذا ما قلته. فهمتَ الآن ولاشك ماذا تعني فلسفة الحياة هذه أليس كذلك؟ ».

- تتحدث عن فلسفة الحياة عند المحارب.

- أجل أتحدث عن المحارب. وكنتَ يومها قد خطوت الخطوة الأولى على طريق التحول إلى محارب.

- وهل خطوت الخطوة الأولى على طريق التحول إلى محارب منذ لقائِي الأول معك.

- لا، بل كنت قد خطوت خطوتك الأولى هذه قبل أن تلتقي معي.

- وأي خطوة تلك التي كنت قد خطوتها يا سيد دوغان؟.

- خطوة: «البحث عن معنى».

- أي كنت في حالة بحث. أهذا ما تريد قوله؟.

- أجل هذا ما أريد قوله. تلك هي الخطوة الأولى والأهم. طوال لقاءاتي معك التقينا في عدة أماكن مختلفة وأثناء جلوسنا هناك رأينا المئات من البشر وكان معظم هؤلاء يمضون وقتهم في ما نسميه «حديث الغزلان»[24] هكذا

---

[24] - أحاديث فارغة (المترجم).

كانوا يستهلكون الزمن، الذي يُعَدُ أفضل ما أعطتهم إياه الحياة، بكل راحة بال.

«الذي يعيش حالة بحث ليس إنساناً متذمراً، وقلة من الناس يعيشون حالة بحث، ولهذا السبب كنتَ متميزاً من هذا الجانب».

- هل الإنسان مضطر للدخول في حالة يأس لكي يكون متميزاً؟.

- عادة ما تكون فترة البحث مليئة بالمنغصات حيث يبدأ دماغ الإنسان بالتشوش والاضطراب، ويبرد فؤاده ولا يعود يستمتع بأي شيء. هذا أمر حتمي تقريباً. عندما التقيت بي لأول مرة كنت على هذه الحالة أليس كذلك؟!.

- أجل هكذا كانت حالتي.

- حسناً. وما هو أول شيء أدركته في لقائنا الأول؟.

- أدركت بأنني تحولت إلى شخص يعطي أهمية لآمال وتطلعات الآخرين في شخصيتي وبالأحرى أعطيت أهمية لما يفكر به الآخرون وما يقولونه عني أكثر من الأهمية التي أعطيها لتقييماتي ولتفكيري. فلقد ابتعدت عن جوهري.

- لماذا؟.

- لأنني بدأت أجري تقييماتي ضمن بُعد «التبعية» في الحياة وافترضت أنني غير موجود ضمن بُعد «تحقيق الذات» وعندما بات الأمر كذلك كان لا بد أن أُنشئ حياتي على قاعدة «حسبما يقوله الآخرون».

- أي في الجواب الذي أجبت به على سؤالي «من أكون» لم يكن هناك سوى بُعد واحد وهو «أنا إنسان تابع».

- نعم تحولت إلى شخص تابع وحسب، وكان سبب ذلك عدم مراقبتي للأحداث بواسطة وعيي المراقِب. حيث بدأ الأنا الموضوعي أو الـ Ego - حسب تعبيرك - بتحديد إدراكي للعالم وقلت يومها عن هذا الوضع «التواجد في السجن».

- خطوت الخطوة الثانية عندما أدركت هذا الأمر.

- لم أكن مدركاً لأنني خطوت الخطوة الثانية يا أستاذي. ما هي الخطوة الثانية التي خطوتها؟.

- خطوتك الثانية هي الخطوة التي تلي حالة البحث وهي اليقظة.

- يعني أنني أدركت مشكلتي. أهذا ما تريد قوله؟!.

- أجل. فلقد بدأت يقظتك عندما أدركت ضرورة القيام بشيء ما، وأن نظرتك القديمة ما عادت تنفع وكذلك عندما أدركت ضرورة إنشائك أساساً جديداً لحياتك.

- مفهوم.

- تناولنا في لقاءنا الثاني الجوانب الفلسفية لليقظة، وهنا تكمن الفكرة الأساسية التي توقفتُ عندها بإصرار وهي: إذا لم تطور وعيك لن تستطيع إدراك الفينومينات المناسبة لهذا الوعي. ما معنى هذا؟. هذا يعني أنه دون الوصول إلى وعي محدد لا يمكن أن تدرك أنك موجود داخل الزنزانة، والأهم من هذا لن تستطيع الخروج من الزنزانة دون الوصول إلى وعي محدد وواضح.

- سيد دوغان، أذكر أنك قلت وقتها: «الذي وضعك في الزنزانة التي تعيش فيها هو أنت ولأن وعيك قاصر تحمِّل الآخرين مسؤولية وجودك داخل الزنزانة». هل تذكر؟

- نعم أذكر ذلك يا سيد عارف. بعد ذلك تحدثنا عن طبقات الإدراك الثلاثة: **الطبقة الأولى**: هي إدراك الشخص ذاته **والطبقة الثالثة**: هي إدراك الإنسان للعالم الخارجي، وأما **الطبقة الثانية** فهي طبقة وسطى موجودة بين الطبقتين الأولى والثالثة وتتكون من اللغة والثقافة. فحياة الإنسان المتعلقة بتبعيته وأدواره الاجتماعية وعلاقاته مع الآخرين ومهنته وموقعه وكافة حياته الاجتماعية الأخرى موجودة في هذه الطبقة

المتوسطة، وقد بدأت هذه الطبقة المتوسطة بعرقلة وصولك إلى عالمك الداخلي، وهذا ما كان يشكل أساس الأزمة لديك.

- الأنا الموضوعي؟!! هذا الأنا الموضوعي أليس كذلك؟!!.

- نعم. الأنا الموضوعي. أو الشيء الذي نطلق عليه مصطلح Ego: إنه عبارة عن وعي يتشكل في الطبقة الوسطى، فلكي تدرك جوهرك يجب أن تتخلص من تأثير هذه الطبقة الوسطى أي يجب أن تدرك أنك موجود داخل الزنزانة التي تحدثنا عنها سابقاً. نطلق مصطلح «اليقظة» على هذا الإدراك.

- هناك تعبير كنت قد استخدمته ونال إعجابي وهي «حياة نكرة».

- نعم، إذ عند استخدام هذا التعبير يصبح كل شيء في مكانه.

- هل يمكننا القول بأن اليقظة هي حالة انتقال من الحياة النكرة إلى الحياة الحقيقية وهي انتقال إلى إدراك وجود حياة حقيقية خاصة بي؟!.

- نعم. يمكننا ذلك. لقد عبّرت عن هذه النقطة بشكل جيد. فكما تذكر تحدثنا عن أن الإنسان الذي يعيش حياة نكرة لا يمكنه أن يكون حراً وقلنا: المحارب إنسان حر بكل ما في الكلمة من معنى.

- أذكر ذلك يا أستاذي ولكن لم نكن وقتها قد تحدثنا عن المحارب.

- صحيح يا سيد عارف لم نكن قد تحدثنا عنه. ولكننا كنا قلنا إنه إنسان لا يعيش «حياة نكرة» وأكدنا على أنه إنسان حر.

- إحدى الخصائص التي بقيت في عقلي من ذاك اللقاء أن المحارب إنسان جريء. ولقد بقيت هذه الخاصية في عقلي لأنك قلت يومها: «لكي ينهي المحارب الحرب التي في داخله يجب أن يواجه نفسه بكل جرأة» بعد ذلك فكرت كثيراً بهذا الموضوع. إذ لم أفكر من قبل بأن الإنسان يجب أن يمتلك الجرأة لكي يواجه نفسه ولم يكن يعني هذا الكلام لي أي شيء ولكن

عندما فكرت في هذا الموضوع تبيَّن لي أن الجرأة الحقيقية ضرورية حقاً عندما يريد الإنسان مواجهة نفسه. وأذكر أنك قلت: «إن الصراع الداخلي أي ذاك الصراع الذي يجري داخل الإنسان لا يلفت الانتباه في ثقافتنا ولا يتم الإعلان أبداً عن صراع كهذا.

- إنك تتذكر جيداً يا سيد عارف.

- يا أستاذي، تعريفك للجرأة في ذاك اللقاء أثَّر بي كثيراً: «أن يؤمن الإنسان بطاقاته الذاتية وأن يعيش من أجل تحقيق ذاته دون أن يخاف من نفسه».

- في الحقيقة إن عبارة »أن يعيش من أجل تحقيق ذاته». تشير إلى هدف حياة المحارب. ولقد تناولنا هذا الموضوع في لقاء آخر وقلنا إن كل وسط بالنسبة للمحارب حتى وإن كان وسطاً تلقَّى فيه صفعة أو نال فيه شتيمة هو وسطُ استشكاف يمكنه استخلاص درس منه.

- أنا أتذكر أنه وسط للتعلم يمكن استخلاص الدروس منه.

- نعم. أعتقد أننا ذكرناه يومها بهذه العبارة ولكنني الآن أرى مفهوم «استشكاف» أكثر قوة. لأن الحياة بالنسبة للمحارب هي رحلة مليئة بالإستشكاف.

- تحدَّثنا أيضاً عن نية المحارب.

- نعم. توقفنا أيضاً عند النية التي يجلبها المحارب معه إلى الوسط الذي سيعيش فيه.

❖صفاء نيَّة المحارب:

- قلتَ: «إحدى الخصائص الأساسية التي تميِّز المحارب عن الإنسان العادي هي صفاء نيته ونقاؤها: وأذكر أنني بعد ذاك اللقاء جلست أفكر بموضوع النية.

- تتشكل النية عادة من تلقاء ذاتها من أجل تلبية حاجة ما. هكذا يكون الأمر دائماً عند الإنسان العادي المتحجّر الذي لا يدرك هذا الأمر. وأما المحارب فهو يدرك احتياجاته ويدرك أيضاً نيته النابعة من هذه الحاجة. فبينما يكون الإنسان العادي تائهاً ضمن احتياجات الأنا الموضوعي وبينما يكون دماغه مشوشاً ومضطرباً فإن احتياجات المحارب تكون نابعة من وعيه المراقب ويكون دماغه وقّاداً، واضحاً وهادئاً.

- يا سيد دوغان أنا لم أختر مهنة التعليم بوعيي الموضوعي ولهذا السبب كنت سعيداً ولكن بدأ دماغي يتشوش عندما بدأت أنظر إلى قراري هذا ضمن احتياجات الأنا الموضوعي.

- تشخيصك صحيح يا سيد عارف، وما فعلناه خلال لقاءاتنا كان عبارة عن خلق الإمكانية لكي تعيد النظر بقرارك بعد التخلص من تأثير الأنا الموضوعي.

- حقيقة بتُ أحب قراري وبات عقلي متوقداً وقلبي مفعماً بالحماس.

- صار بإمكانك الآن في أي وسط توجد فيه أن تطرح على نفسك السؤال التالي: «ما الذي أستطيع استكشافه في هذا الوسط وكيف يمكنني استخدام ما اكتشفته في حياتي كمعلم؟».

- بتُ أطرح هذا السؤال الآن، أحياناً أنسى ولكن على العموم في كل وسط أوجد فيه أطرح على نفسي السؤال التالي: «ما هي الإمكانيات المتوفرة الآن من أجل زيادة طاقات طلابي وزيادة تطوير زملائي المعلمين في مهنتهم» أعمل على رؤية ذلك وإدراكه وغالباً ما أجد العديد من الإمكانيات في كل وسط أوجد فيه.

- تتذكر يا سيد عارف في ذاك اللقاء أنني توقفت بإصرار عند فكرة مفادها: إن نية الفرد ودوافعه هي التي تشكل بنية وعيه وإدراكاته.

- يا سيد دوغان لقد توصلت إلى نقطة سأقولها لك فإن كانت صحيحة وافق عليها وإن كانت غير ذلك لنناقشها.

فكرتي هي: عندما ندخل إلى وسط ما فإن نيتنا المتعلقة بهذا الوسط تلعب دورها الأكثر فاعلية في أساس إدراكنا أي في أساس كيفية إدراكنا لهذا الوسط.

- أجل. هذا صحيح.

- ونيتنا أيضاً، تحدد احتياجاتنا في ذاك الوسط، هل هذا صحيح أيضاً.

- أجل هذا أيضاً صحيح.

- كذلك هي التي تحدد فيما إذا كان مصدر احتياجاتنا موجود داخل الأنا الموضوعي أم داخل الأنا المراقب. ماذا تقول حول هذا؟.

- أقول صحيح.

- إذن المشكلة الأساسية للإنسان هي: بأيٍ وعي سيحدد وسيعرِّف نفسه: فإن عرَّف نفسه بالأنا الموضوعي فإنه سيدرك الوسط الموجود فيه ضمن تناسبه مع الاحتياجات التي تتناسب بدورها مع هذا الأنا.

- أوافقك على ذلك تماماً يا سيد عارف. المشكلة الأساسية هي هل سيعرِّف الإنسان نفسه بوعي الأنا الموضوعي أم بوعي الأنا المراقِب.

- حسناً يا أستاذي. أصبحتْ هذه النقطة واضحة تماماً بالنسبة لي.

- ولكنني سأذكرك بأمر.

- يعني ألا يمكن أن تكون واضحة إلى هذه الدرجة؟ فلقد بسَّطت الموضوع كثيراً.

- أنا آسف يا سيد عارف. ليت الأمور بسيطة وليت الحدود واضحة كما تعتقد. تذكر ولا شك المفهوم الذي ناقشناه تحت عنوان «الوعي المستحضر إلى الوسط».

- أجل. أذكر المثال المتعلق بالمصباح الكهربائي عشرين واط أو خمسين واط.

- عندما يتطور الإنسان وتزداد خصائص المحارب لديه فإنه سيحضر إلى الوسط نية محارب كاملة. يمكن التمييز بين الأنا الموضوعي والأنا المراقب فقط عند الإنسان الذي أكمل مراحل المحارب وأصبح شخصاً حكيماً. ولكن بالنسبة للذين لا يزالون على طريق التحول إلى محارب فإنهم يعانون من صعوبة ضبط نوع ودرجة الوعي الذي سيحضرونه إلى الوسط وهذا تحذير ساري المفعول بالنسبة لك بشكل خاص.

- ولماذا لي بشكل خاص يا أستاذي؟.

- أنت عازب وشاب ووسيم وسليم البنية أي أن الـ «أنا» الموضوعي الخاص بك يعيش احتياجات قوية وذات معنى.

- ليكن.

- الكلام سهل ولكن غداً عندما تتعرف على فتاة جميلة وناضجة وتحرك قلبك بقوة سيصعب عليك مراقبة الوعي الذي ستحضره إلى الوسط. وهذا أمر طبيعي. آمل أن لا يخفق قلبك لفتاة تجعلك تتخلى عن التعليم.

- يا أستاذي أنا خائف بما فيه الكفاية فلا تخفني أنت أيضاً.

- حسناً، أنا آسف، أساساً أنا لا أخاف عليك أبداً، بل على العكس من ذلك أنا واثق من أنك عندما تكتسب خصائص الإنسان المحارب ستصبح رجلاً أكثر جاذبية وستجذب الفتاة الأكثر ملاءمة لقلبك وإلى حياتك كما المغناطيس.

- إ... هاه.. أرحتَ قلبي قليلاً.

نظرت حولي. جلت بنظري في المكان بحثاً عن امرأة جميلة ثم سألت السيد عارف: «أي امرأة تراها أكثر جاذبية؟» ولكننا على ما يبدو لم نكن

جدّيين في هذا الموضوع لكي نجد امرأة من النوع الذي يؤثر بنا ويجعلنا نتحدث عنها.

بدأنا نشعر بالجوع. كانت روائح الكفتة والكباب تفوح من المواقد وتعبق في المكان. وبعد أن تحدثنا قليلاً قررنا الذهاب إلى المطعم.

طرحت سؤالاً على السيد عارف وبدأت الحديث:

❖ خلق المستقبل:

- تحدثنا في لقاءاتنا التي تلت ذلك عن خلق المستقبل وبشكل خاص عن تكامل الشخصية. وأنا متلهف الآن لمعرفة أي الأفكار التي تناولناها أثناء حديثنا عن تكامل الشخصية أثرت على حياتك.

- يا أستاذي، الفكرة التي كان لها كبير الأثر في شخصيتي هي أن أساس تكامل الشخصية قائم على احترام الحقيقة. أحسست بأن هذه الفكرة جافة ولكنني وجدتها صحيحة وغريبة في الوقت ذاته. إذ لم أفكر في هذا الموضوع من قبل.

«بعد أن التقيت بك فكرت بالشروط التي نشأتُ فيها وفيما إذا كانوا قد علموني، حين كنت أنمو وأكبر، قيمة ما تحثُ على احترام الحقيقة. فوجدت أننا كباقي العائلات لم نحضر وعياً حول هذا الموضوع إلى الوسط الذي نعيش فيه.

وأنا الآن مُصِر كمعلم على أن أنتبه إلى هذا الموضوع في علاقتي مع طلابي. واكتشفت بعد ذاك اللقاء معك أن عدم احترام الحقيقة يقف وراء العديد من السلوكيات والتصرفات، ابتداءً من قواعد المرور وحتى إنشاء المنازل وصولاً إلى إدارة الشركات.

- حسناً يا سيد عارف ولماذا يتجاهل إنساننا الحقيقة إلى هذا الحد. هل فكرت بهذا الموضوع أيضاً؟.

- لأن الأسرة التي نشأ فيها إنساننا هي أسرة ذات أرضية قائمة على الخوف أو على السلطة المزاجية.

- وكيف توصلت إلى هذه النتيجة؟.

- عندما فكرت بما تحدثنا به. تبيَّن لي هذا الموضوع بكل وضوح إذ أن التربية الأسرية، التي تعتبر دماغ الطفل غير موجود وكذلك هذه التربية القائمة على التعليم الحفظي الذي يعتبر عقل الطفل غير موجود، تعلمنا، أي تعلم إنسان هذا البلد لاأن يحترم الحقيقة بل أن يحترم السلطة وبالأصح أن يحترم مَنْ بيده العصا ولهذا السبب أعتقد أننا نقوم بتصرفات لا يمكن أن يستوعبها عقل الإنسان الغربي.

- إن ملاحظتك هذه حادة جداً يا سيد عارف ولكنها في الوقت ذاته ملاحظة تطلق الأحكام.

- اجل إنها تطلق الأحكام ولكنني أشعر أن ما فكرت به هو الحقيقة بذاتها.

- هل يمكنك تقديم مثال على قولك بأننا نتصرف ونحن نشعر بالراحة تصرفات لا يمكن لعقل الإنسان الغربي أن يستوعبها.

- منذ عدة أيام كنا نسير على طريق ذي اتجاه واحد على شكل رتل من السيارات كنت جالساً في سيارة خلف شاحنة تسير بسرعة 60-65 كم وفي الجهة المقابلة كان هناك رتل آخر من السيارات قادم، السائق الذي خلفنا كان يشعل ضوء سيارته ويطفئه طالباً منا الخروج عن الطريق لكي يتجاوزنا.

- كيف؟ هل كان يريد منكم الخروج عن الطريق والوقوف على اليمين؟.

- كان يريد تجاوزنا ولكننا لم نفهم بأي حال من الأحوال كيف سيتجاوزنا لأنه لا توجد على يميننا أية مساحة فارغة لكي ننسحب ونقف

فيها أضف إلى ذلك أننا نسير بسرعة طبيعية ولا يمكننا عرقلة السير، ثم إن انسحبنا إلى اليمين واستطاع تجاوزنا فلن يستطيع تجاوز الشاحنة التي أمامنا لأن السيارات القادمة من الطرف الآخر لا تنقطع أبداً.

- تعتقد أن سائق السيارة التي كانت خلفكم غير عقلاني، أليس كذلك؟.

- أجل هذا ما أعتقده. أريد أيضاً أن أقول: لو كانت سيارتنا سيارة عسكرية أو سيارة شرطة لما قام السائق الذي خلفنا بإطلاق غمازاته أو بمحاولة تجاوزها. أنا واثق من هذا.

- يقول أوستون دوكمان في كتابه الموسوم «التقمص العاطفي وصراع التواصل» بأن أناسنا لا يقيمون فيما بينهم علاقات ناضجة بل يقيمون علاقات أب وأم مع طفل. ويقول بأننا حين نربِّي أطفالنا لا نخاطب الجانب الواقعي أو الجانب الناضج فيهم أو الجانب المتعلق بالمشكلة، أي يا سيد عارف ملاحظاتك في مكانها وكمعلم ينتظرك عمل صعب وشاق.

- يا سيد دوغان أذكر أنك قلت: مصدر الشرور جميعها ومصدر الأخطاء والتخلف نابع من عدم احترامنا للحقيقة، ففي مجتمع أُسره ومعلِّموه وصحفه وكل مؤسسة فيه لا تحترم الحقيقة لا يمكن أن ينشأ الطفل فيه ككائن عقلاني. عبارتك هذه أثرت بي كثيراً وكلما فكرت بهذا الموضوع أرى أهمية الأعمال التي سأقوم بها كمعلم وإنني أوافق على عبارتك التي تقول: «تكمن صحة وسلامة مستقبل مجتمع ما في الاعتماد على ذهن وعقل الأطفال وفي احترام هذا العقل والعمل على تطويره» أساساً بتُ أدرك أهمية أن يكون الإنسان معلماً انطلاقاً من هذه النقطة.

- لا يمكن أن تنتظر من إنسان لا يشعر باحترام الحقيقة أن يدرك حقيقته وأن يحترمها. إذ أن أساس تكامل الشخصية يعتمد على احترام الحقيقة.

- أفهم كلامك بكل وضوح يا سيد دوغان عندما تعرّف تكامل الشخصية على أنه الانسجام بين الجوهر والقول والعمل. يجب إدراك الجوهر واحترام هذه الحقيقة المدركة، يجب معرفة ما تقول، أي يجب إدراك الكلمة واحترمها، أي يجب معرفة ما العمل الذي ستقوم به وأن تكون منسجماً مع حقيقة هذا العمل. أي أستطيع أن أرى بكل وضوح إن إدراك الحقيقة واحترامها يشكل أساساً لتكامل الشخصية.

- يا سيد عارف إنه لمن الطبيعي عند كل إنسان أن يدرك وأن يعطي قيمة لما يدركه وأن يشعر ويفكر ويعمل بشكل منسجم مع ما يدركه. فإن انتفى الخوف يتحرك الإنسان ويتصرف بشكل طبيعي ولكن عندما يخاف الإنسان لا يستطيع التصرف والتحرك بشكل طبيعي.

- ولهذا السبب أنا ضد تربية الطفل القائمة على الخوف.

- ربما لا تستطيع تغيير بنية الأسرة يا سيد عارف ولكن يمكنك خلق بيئة تعليمية في صفك تقوم على أساس حب التعلم والحماس وحب الاستكشاف بدلاً من البيئة التعليمية التي تأخذ من الخوف أساساً لها.

- هنا تكمن لذة هذا العمل أي لذة مهنة التعليم بالنسبة لي.

- ولكن يجب أن لا ننسَ يا سيد عارف التأكيد على ضرورة أن تمتلك وعياً عالياً في كل مستوى من مستويات تكامل الشخصية من أجل النجاح في هذا العمل.

- لقد فكرت كثيراً بهذا الموضوع يا أستاذي، ولن أقيم علاقة مع حقائق عالمي الداخلي وحسب بل في الوقت ذاته سأكون منسجماً مع القيم والمبادئ الأساسية التي أؤمن بها. طبعاً وسأعمل على تطبيق قيمي وعالمي الداخلي ضمن وعي مستمر بأهدافي وبوضعي وبالعالم الذي أريد خلقه.

- أرى في عينيك محارباً قوياً كالمارد. إنني فخور بك يا سيد عارف.

- شكراً لك يا أستاذي.

صمتَ لفترة. كان على وجهه مسحة حزن. نظر إليَّ ثم تابع حديثه قائلاً:

- هل تعلم يا أستاذي ما هو المحزن في الأمر؟.

- ماذا يا سيد عارف؟ ما هو المحزن؟.

- المحزن في الأمر أن معظم المعلمين مظلومين فلقد أعطوا أنفسهم كلياً لطلابهم وهم مستعدون لفعل شيء ما، ولكنهم لا يجدون من يدعمهم ويشجعهم وينظر إلى ما يقومون به على أنه عمل ذو معنى كما لا يجدون البيئة التي تقول لهم: «أنتم أيها المعلمون أغلى من الروح».

- أفهم ما تريد قوله يا سيد عارف. ولا تنسَ أيضاً أن الأهالي لا يقمعون أطفالهم عن سوء نية ولكن هذا ما يعرفونه، والمعلمون يخلقون بأنفسهم بيئاتهم ضمن المدى المجدي لمسدساتهم. أي يجب أن تكون الخطوة الأولى نابعة من قوتهم الذاتية.

- عدنا من جديد إلى موقف المحارب.

- أجل، وهل تستطيع أن ترى طريقاً آخر؟

- نعم. أستطيع القول إن طريق المحارب هو الطريق الأكثر تأثيراً.

- إن موضوع التأثير هذا ينقلنا إلى موضوع القوة. وقد تناولنا هذا الموضوع في إحدى لقاءاتنا السابقة.

❖ أن تكون قوياً:

- نعم أذكر أنني بعد ذاك اللقاء فكرت بكيف يمكنني أن أكون معلماً قديراً.

- فكرت بموضوع كيف يمكن أن تكون معلماً قديراً أليس كذلك؟.

- نعم يا سيد دوغان.

- وما هي النتائج التي توصلت إليها؟!.

- بداية يجب أن لا أنتظر أن أكون معلماً قديراً قبل أن أكون إنساناً قديراً فلكي أقول أنا قوي وأمتلك القوة يجب أن يكون مقودَ حياتي بيدي. هذه هي النتيجة الأولى التي توصلت إليها.

- هذا مؤكد. أنا متفق معك على هذه النقطة. وضمن هذا الإطار كنا قد تحدثنا عن كيفية تأدية الرقصة الذاتية ضمن توازن متفاعل بين التبعية وتحقيق الذات.

- طبعاً. يجب أن أعرف كمعلم ما الذي أريده وإلى أي اتجاه يجب أن أتوجه ولهذا السبب عليَّ أن أحتفظ في عقلي بثلاثة أشياء:

نيتي ووضعي وأهدافي.

- هل هذا أمر صعب؟.

- هل تقصد وضع نيتي ووضعي وأهدافي في عقلي؟.

- أجل. هل من الصعب أن تضع هذه الأشياء في عقلك دائماً؟.

- أنا لن أحفظها ومن ثم أضعها في عقلي، فلقد تحوَّلت إلى جزء لا يتجزأ من حياتي كما هو الحال بالنسبة ليديَّ ورجليَّ وعينيَّ وأذنيَّ وشعري وبالأحرى أصبحت جزءاً مني. فهل رأيت إنساناً نسي رجله في مكان ما؟!.

- يا له من ردٍّ ممتاز. اعذرني على سذاجة السؤال الذي طرحته ولكنني لست نادماً على طرحي له لأنه حفَّزك على إعطاء مثال رائع لن أنساه أبداً.

- شكراً لك يا أستاذي. كلما فكرت بموضوع القوة أقطع عهداً على نفسي بأن أكون حريصاً على عدم استخدام الخوف، الذي يستخدم كمصدر أساسي للقوة في ثقافتنا، سواء كان في علاقتي مع طلابي أم في علاقاتي داخل الصف أو خارجه.

- حسناً ولكن كيف ستصبح قوياً في علاقتك مع طلابك؟.

- بتُّ أعرف كيف أصبح قوياً بعد أن ناقشنا المصادر الثلاثة للقوة.

- هل يمكنك تقديم مثال على ذلك؟.

- بداية سأكون قوياً بشخصيتي على اعتباري عارف أوكورِرْ، فالقوة الأساسية هي تلك القوة النابعة من سلامة وصحة شخصيتي، وما تبقى من قوى فإنه سيتم إنشاؤها فوق هذه القوة الأساسية.

- كيف ستؤثر هذه القوة النابعة من سلامة شخصيتك على حياتك كمعلم؟ هل توضح أكثر؟.

- سأجعل زملائي المعلمين والإدارة والطلاب يثقون بكلامي وبأفكاري وبسلوكياتي، فإن أعطيت كلمة فيجب أن يثقوا تماماً بأنني سأكون ملتزماً بها، وإن قلت بأن أمراً ما صحيحاً فإنهم سيكونون على ثقة بأنني ما قلت ذلك إلاّ بعد تفكير وبحث وسأكون إنساناً موثوقاً به.

- أمثلة رائعة. هذه فهمناها. ستكون قوياً من خلال شخصيتك وبعد ذلك؟.

- كما سأكون حريصاً على أن أكون قوياً من خلال شخصيتي كذلك سأكون قوياً من خلال تواصلي، فعندما أكون في حالة تواصل سواء مع طلابي الصغار أو مع الإداريين الأقوياء فسأكون مدركاً لما يلي: مع من أتكلم وماذا أتكلم ولماذا أتكلم وكيف سأتكلم ومتى أتكلم إذ أن وعيي النابع من إدراكي لهذا سيمدّني بالقوة اللازمة.

- هذا مؤكد. وطبعاً عندما تقرر أن تصبح واعياً إلى هذه الدرجة فلن يكون هناك فرصة للحديث عن أشياء لا معنى لها مع طلابك وزملائك ومع بقية الناس.

- ولا أريد أن تكون. أنا متأكد تماماً أن حياتي ستكون أكثر حماساً، أضف إلى ذلك أنه بهذه الطريقة سأتمكن من توجيه المستقبل الذي أريد خلقه بشكل طبيعي.

- تتحدث عن المستقبل الذي تريد خلقه من أجل طلابك وزملائك المعلمين أليس كذلك؟.

- نعم. طبعاً إن هذا الشيء الذي تسمّيه قوة نابعة من الموقف الذي أتّخذه هي القوة النابعة من قيامي بنذر نفسي في سبيل خلق إمكانيات من أجل تطوير طلابي.

- وما هو مصدر هذه القوة الأخيرة.

- مصدره المستقبل الذي أريد خلقه.

- نعم أستطيع رؤية ذلك. أعتقد أنه يكمن وراء هذا المستقبل الذي سيجعلك قوياً مستقبلٌ يشمل كل شيء والجميع يستطيعون الاستفادة منه.

- أي أنه ليس مستقبلاً لخدمة أناي الموضوعي «Ego» وحسب.

- نعم. إنك تخلق مستقبلاً يقدم الخدمات للجميع هذا ما يمدّك بالقوة يا سيد عارف.

- لقد فهمت في اللقاء الذي تحدثنا فيه عن القوة مدى أهمية معرفة لِم سأقول «نعم» ولِم سأقول «لا».

- هل يبدو هذا أمراً مهماً بالنسبة للمعلم؟.

- ليس فقط للمعلم بل هو مهم لكل إنسان يعطي قيمة للوقت.

توقفنا عند هذه النقطة واتجهنا نحو المطعم لتناول طعامنا. كان يوجد عند الباب طابور قليل العدد فسألنا الموظف كم من الوقت سننتظر فقال: سيأتي دوركم بعد خمس أو عشر دقائق، وهذا ما حدث فعلاً إذ بعد خمس دقائق دخلنا إلى المطعم كان يوجد في المطعم طاولات صغيرة وحولها عدد من الكراسي التي لا مساند لها.

على الفور وُضِعَتْ المحارم والشوك والملاعق والسكاكين على الطاولة. يوجد من المشروبات عصير الفواكه والعيران والماء والكولا فقط... ولائحة الطعام مكونة من الدجاج المشوي والرز والسلطة والرز مع الحليب.

كُتبَ على علبة المحارم المنشآت الاجتماعية لبلدية استانبول وتحتها كُتبَتْ عناوين وأرقام هواتف كافة المنشآت الاجتماعية الموجودة في استانبول:

المنشآت الاجتماعية في جامليجه وفاتح باشا وارناؤوط وفلوريا واستينا وبيكوز. يبدو على هذا المطعم طابع المنشأة التي تتم إدارتها من قبل شركة خاصة، لباس النُدُل موحَّد: قميص أصفر وبنطال أسود ويعملون بسرعة كبيرة. على الطاولة التي أمامنا يجلس شابان يتحدثان مع بعضهما بحرارة وإلى جانبهما تجلس سيدة شابة جميلة ذات شعر أحمر اللون يبدو وكأنها تستمع إليهما ولكن منظرها يدل على أنها منزعجة من وجودها هنا. ولكن الشابين غير منتبهين حتى لوجودها معهما، فهما يتحدثان بحرارة وحيوية بموضوع يهمهما، ولكنه لا يعني للمرأة أي شيء، بكل حرارة وحيوية. تمشينا قليلاً بعد الطعام وتفرجنا على هذا المنظر البانورامي من عدة زوايا مختلفة. جلسنا تحت شجرة واسترحنا لكي يتسنى لنا بعد قليل الحديث بشكل مريح. بردَ الطقسُ قليلاً فارتديت كنزة بلا أكمام كنت قد أحضرتها معي. قال السيد عارف بأنه لم يتأثر ببرودة الطقس.

❖ المسؤولية:

– أستاذ دوغان. كنت قد بدأت الحديث بمقطع متعلق بـ«دون جوان» عندما تناولت موضوع المسؤولية أذكر أنني تأثرت كثيراً بذاك المقطع الذي قرأته على مسامعي. فقد كان دون جوان في ذلك المقطع قد توقَّف عند وعي المسؤولية ووعي الموت وقال بأنه لا يوجد أي شيء أكثر أهمية من أي شيء آخر.

– أجل تذكر ذلك الحديث جيداً يا سيد عارف. حسناً ولكن هل

هنـاك نتـائج اسـتطعت كمعلـم استخلاصـها مـن ذاك اللقـاء واسـتطعت تطبيقها على حياتك؟.

- ثمـة العديـد مـن النتـائج الهامـة، فقبـل كـل شـيء أدركـت بالكامـل ضرورة أن أمارس مهنـة التعليـم ضـمن شـعور بالمسؤولية، ولـيس لـدي أدنـى شك في هذا الموضوع.

- برأيك ما هو الفرق بين من يمارس التعليم وهـو يتحمـل المسـؤولية وبين من يمارس التعليم دون أدنى شعور بالمسؤولية؟!.

- الإنسان الذي يمارس التعليم ضمن شعور بالمسؤولية مستعد دائماً للمحاسبة ودفع الثمن، إذ أنه يتصدى لهذا الموضوع ضمن حدود قوته ونيتـه وممارسته. ومـن المهـم هنـا أن يكـون الإنـسان ممتلكاً لحياتـه، وأمـا الإنـسان الذي لا يتحمل المسؤولية فإنه يدرك الموضوع مهما كـان نوعـه خـارج حـدود وعيه وقوته وعمله وممارسته.

- طبعـاً أثنـاء إجـراء هـذه المقارنـة بـين هـذين النـوعين مـن المعلمـين أعرف تماماً أن كليهمـا اختـارا مهنـة التعليم بشكل واعٍ، وأنهمـا كانـا أحـراراً حين أجريا اختيارهما.

- وبجيـد أنـك نوهـت إلى أنهمـا كانـا واعـيين وأنهمـا اختـارا مهنتـهما بحرية.

- أثنـاء مناقـشة موضـوع المـسؤولية أدركـت وجـود أربعـة مواضـيع مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً.

- أية مواضيع؟

- الاختيـار، الحريـة، المـسؤولية وتكامـل الشخـصية. هـذه المواضـيع الأربعة مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً، وكمعلم، استوعبت مدى أهميـة قيـام المرء باختيار مهنة التعليم وأؤكد مـرة أخـرى أنـني اخترت هـذه المهنـة بـشكل نهائي.

- هل تقصد اختيار مهنة التعليم؟.

- أجل. لقد بات التعليم اختياري الأكيد. إنني أشعر بذلك في داخلي، ولقد اتُّخذت قراري هذا بكل حرية وأشعر بتحمل المسؤولية الكاملة عن قراري هذا. وعندما أبدأ بالتطبيق سأستمد قوتي من هذا القرار.

- مبارك لك يا سيد عارف... إنني فخور بك.

- شكراً يا أستاذي. لا تدرك مدى المساعدة التي قدمتها لي، فمنذ اليوم الذي تحدثنا فيه عن المسؤولية زال التذمر والشكوى من حياتي. إذ لم أكن أعلم من قبل أن التذمر والشكوى يأتيان من عدم الشعور بالمسؤولية. أشعر أحياناً برغبة بالتذمر وما أن أفتح فمي من أجل ذلك حتى أسارع إلى النظر فيما إذا كنت قد حققت مسؤولياتي ضمن المدى المجدي لمسدسي أم لا.

وكما تتوقع. لم أعد أوجه طاقاتي ووقتي باتجاه الشكوى والتذمر بل أوجهها باتجاه الشيء الذي سأحققه.

- كنا قد تناقشنا سابقاً عن الـ «نعم» والـ «لا» في حياتنا، وتحدثنا عن المسؤولية المتعلقة بـ «نعم» و«لا».

قاطعني السيد عارف وقال:

- عذراً لأنني قاطعتك بالحديث يا سيد دوغان ولكن أحب أن أقول إن ثمة وعي بالحدود موجود في أساس الـ «نعم» والـ «لا» التي نقولها. وإنني أرى أن ثمة علاقة بين المسؤولية ووعي الحدود. وعندما أفكر بموضوع «ما الذي يدخل ضمن حدودي وما هي الأشياء التي أشعر بأنني مسؤول عنها؟» يواجهني مصطلح «النية».

- لقد فكرت بشكل جيد بالعلاقة القائمة بين المفاهيم والمصطلحات التي تناولناها.

- أجل فكرت. فمنذ لقائي الأول معك وجدت نفسي في مكان

مختلف وكل موضوع تناولناه في كل لقاء من لقاءاتنا كان يدعم وضعي هذا.

فلقد أسَّست المواضيع فوق بعضها بعضاً. فدون استيعاب مفهوم «البحث عن معنى» لن يكون من السهل عليَّ استيعاب مصطلح اليقظة، ودون أن أعرف المكان الذي تحتلّه اليقظة في حياتي لن أستطيع إدراك أهمية مصطلح «النيَّة» وإن إنشاء المواضيع فوق بعضها وتنسيقها قد سهَّل الأمر عليَّ كثيراً.

- هذا ما كنت أفكر به أنا أيضاً. وقد ارتحت كثيراً لمعرفتي أن تسلسل المواضيع ساعدك كثيراً.

- أحد المصطلحات الجديدة التي أثَّرت بي أيما تأثير في لقائنا الذي تناولنا فيه موضوع المسؤولية هو معرفتي بأن السعادة مرتبطة بموقف الإنسان من الأحداث والظواهر أكثر من ارتباطها بالوضع الذي يعيش الإنسان فيه.

- حسناً. وكيف أثَّرت بك هذه المعرفة؟!

- إنني مدرك الآن أكثر من أي وقت مضى للموقف الذي أتَّخذه، وعندما أشعر أني جامد ومنهار وتعيس أدرك مباشرة «أن سبب تعاستي ليس الحدث الذي جرى أمامي بل إدراكي لهذا الحدث».

انظر كم هو بشوش الوجه هذا الأب الذي يتحدث مع ولديه، وكم هما سعيدان من وضعهما. مَنْ الذي يخلق سعادتهما هذه؟ لو شاء هذا الأب الآن لنظر إلى الأشياء السلبية المتعلقة بهذين الطفلين ولفتح الطريق أمام شعوره من جهة وأمام شعور طفليه من جهة أخرى بالتعاسة...

«أساس تعاستنا يكمن في المعنى الذي نعطيه للأحداث والظواهر. إن إدراكي لهذا الأمر قد أثرى حياتي»

رحت أنا أيضاً أراقب الأب والطفلين الذين تحدث السيد عارف عنهم. فامتلأت نفسي بالأحاسيس الدافئة. تحرك ألم ما في داخلي. أمضى أولادي أربع سنوات من عمرهم دون أب، ولا شك بأن هذا الألم كان سيعبِّر عن نفسه بطريقة أو بأخرى. رأيت أن قراري بالذهاب إلى عند أولادي والقيام بأداء مهمتي كأب معهم كان موقف محارب. سررت من نفسي بسبب هذا السلوك.

صمتنا فترة من الزمن.

❖ وعي الموت:

بعد ذلك طرحت على السيد عارف سؤالاً:

- هل تذكر يا سيد عارف الموضوع الذي ناقشناه في اللقاء الذي جاء بعد لقائنا الذي تناولنا فيه موضوع المسؤولية؟!.

- وهل يمكن ألا أتذكَّر؟ فلقد تناولنا موضوع وعي الموت وأثَّر بي أيما تأثير.

- حسناً. ماذا فكرت فيما يتعلق بما تحدثنا به وما هي الأشياء التي أدركتها؟!.

- تبلور مفهوم فرادة اللحظة التي أعيشها. فلقد أدركت تماماً أن هذه اللحظة التي أعيشها الآن لا يمكن أن تتكرر.

- حسناً. وما هو تأثير هذا الإدراك؟.

- اكتسبتْ كل لحظة أعيشها أهمية خاصة. وبدأتُ أدرك أنني لا أعيش«الآن وهنا»، والأمر الآخر الذي أدركته هو أنني إذا لم أعش الآن وهنا فإن ذكرياتي ستمحى وتصبح حياتي فقيرة.. وإحدى الأفكار التي طُرحت في ذاك اللقاء وأثَّرت بي هي: في الوقت الذي يفرِّغ الإنسان العادي حياته من معناها من خلال قبوله خلود الإنسان كأرضية لحياته، نجد أن الإنسان

المحارب يغني حياته بالمعنى من خلال قبوله بأن وعي الموت هو الأرضية التي يُنشئ حياته عليها.

- من الأشياء التي بقيت في ذاكرتي من ذاك اللقاء يا سيد عارف هو: حينما قلت لي: «هل تعلم يا سيد دوغان أكثر ما يثير تفكيري هو اتخاذ القرارات بشكل واعٍ وتنفيذ هذه القرارات بكل ما يمتلك الإنسان من قوة دون أدنى شعور بالندم، في هذه النقطة بالذات أرى نقطة ضعفي».

- ولِمَ بقيت هذه العبارة في ذاكرتك يا أستاذي؟.

- لقد أجريتَ هذه الملاحظة فيما يتعلق بحياتك. وإن القدرة على إجراء هذه الملاحظة تحتاج جرأة ووضوحاً في الوعي وتحتاج للثقة لكي تخبرني بأمر كهذا. لهذا السبب أثَّرت بي وبقيت في ذاكرتي.

- أدركت في ذاك اللقاء أيضاً مدى قدرة الشعر، وخاصةً حين يأتي الفراق الناجم عن الموت في آن واحد مع فكرة الخلود، وكأن أساس الحزن هو هذا الفراق. يومها أُعجِبتُ جداً بالأشعار التي قرأتها.

- حسناً. وهل فكرت. كمعلم. بالاستفادة من هذه الأشعار في الصف؟!.

- كلا لم يخطر على ذهني أمر كهذا ولكنني أدركت أهمية ذلك الآن. فعلاً قد يكون الشعر عاملاً قوياً في خلق البيئة التعليمية، جيد أنك قلت لي هذا يا سيد دوغان. سأفكر بهذا الموضوع بشكل جدي.

قررنا المشي قليلاً... تبدو الجزر أمامنا، جزيرة كارتال، وخلفها تظهر جزيرة بندك... هوائيات الراديو والتلفزيونات منتصبة خلف بعضها. ثمة شباب وصبايا وعائلات مع أطفالهم ومجموعات الأصدقاء يسيرون مثلنا. يمكن سماع الموسيقى التركية الكلاسيكية التي تعزف في المطعم من مكبِّرات الصوت المعلَّقة بأغصان الأشجار.

- ما هو الموضوع الذي تناولناه بعد مناقشة وعي الموت ياسيد عارف؟

❖ التغيُّر:

- تحدثنا عن كيفية التحول من إنسان عادي إلى محارب.

- أجل. هذا كان موضوعنا الأساسي. ولكن بشكل عام تحدثنا عن التحول إلى محارب ضمن إطار كيفية حدوث «التغيُّر» في حياة الإنسان. ما الذي لفت انتباهك وما الذي بقي في ذاكرتك مما تحدثنا به في تلك الجلسة.

- أعترف يا سيد دوغان بأن هذا الموضوع كان من أصعب المواضيع التي تحدثنا عنها. ولقد اهتممت كثيراً بأفكار الفلاسفة المتعلقة بأسس التغيُّر. وحيرني كثيراً كيف فكر الإنسان وقبل آلاف السنين بهذه الشمولية بكافة تفاصيل هذا الموضوع.

- أجل. أعتقد أن قراءة تاريخ الفلسفة وبالأحرى قراءة تاريخ الفكر ستكون ممتعة جداً.

- كان مفهوم الاغتراب عند هيغل من الموضوعات المثيرة جداً بالنسبة لي. ولقد وجهتني إلى التفكير بالاغتراب الإنسان عن حياته وعمله وعن الأسرة التي يعيش في كنفها وعن شركته ومجتمعه.

- هل تتذكر ما الذي كان يقصده هيغل بمفهوم الاغتراب؟.

- يقول هيغل يصبح الإنسان حراً عندما يرى وحدته وتكامله، وطالما أن الإنسان لا يعيش هذا التكامل وهذه الوحدة فإنه سيتعذب وسيعيش هذا الاغتراب، والإنسان الذي يعرف موقعه ضمن هذا التكامل لا يمكن أن يشعر بالاغتراب.

- حسناً ولماذا تجد هذا الأمر مهماً يا سيد عارف؟.

- هذه الفكرة تجعلني أفكر ملياً بفكرتك حول «وعي النحن» فإذا انسلختُ كمعلم عن وعي التكامل لن يبقى أي معنى لمهنتي أو لجهودي، وقتها أكون قد اغتربت عن طلابي وعن مهنتي وعن مجتمعي ولهذا السبب أولي أهمية لهذه الفكرة.

- هل هناك أفكار أخرى توليها الأهمية ذاتها.

- قلت لي فكرة تحولت إلى دليل عمل لي كمعلم فقد قلت «تقوم كافة التغيُرات على أساسٍ من الوعي. فالتغيُرات الحاصلة على مستوى الوعي تعتبر مصدر التغيُرات الأخرى التي تحدث في حياة الإنسان».

- ولماذا تحولت إلى دليل عمل لك؟.

- لأنني أرى، على اعتباري أمارس مهنة التعليم، ضرورة تقديم كافة طاقاتي ووقتي من أجل تطوير الوعي.

- إنها ملاحظة جيدة يا سيد عارف. مرحى لك.

- هناك مصطلح آخر طُرح أثناء لقائنا ذاك وأثّر بي كثيراً وهو المقاربة الفينومينولجية أو الوجودية.

- كمعلم، كيف تقيِّم هذا الموضوع؟.

- فهمت ضرورة أن أتذكر أن إدراك طلابي يشكل حقيقتهم وواقعهم، وبأنه لا يوجد أي حقيقة بالنسبة لهم خارج حدود إدراكهم، وإنْ أقمت تواصلاً مع طلابي دون أن أنسى هذا الموضوع سأولي أهمية للأحداث كما يراها طلابي أي سأنظر إلى الأحداث والوقائع بعينهم.

- إن إدراك هذه النقطة مهم جداً في حياة المعلم.

- أنا على قناعة تامة بأنه لا يمكن للإنسان أن يكون معلماً قديراً دون إدراك هذه النقطة.

- أوافقك الرأي.

- أذكر أيضاً أنني قلت: «لا يقتضي التغيُر معرفةَ الخيارات وحسب،

بل يقتضي أيضاً إدراك أننا نعيش «الآن وهنا في دنيا فانية» كان هذا بمثابة اكتشاف بالنسبة لي. فلم أفكر في حياتي بأن وعي الموت يخلق رغبة بالتغيُّر، أقصد لم أفكر بهذا الموضوع حتى تحدثنا عنه، فلقد كنت أعرف أن التغيُّر والموت نقيضان ولكنني أرى اليوم أنهما متكاملان.

– لقد اكتشفتَ أشياء هامة جداً يا سيد عارف.

– نعم اكتشفت يا أستاذي وفهمت في ذاك اللقاء لِمَ كان الناس الذين يريدون الانضمام إلى التكايا ينتظرون أياماً على أبوابها قَبل أن يُقبلوا فيها، أي أن الحديث عن موضوع التغيُّر قد أثرى شخصيتي من الناحية الفلسفية، فعلى سبيل المثال سمعت في ذاك اللقاء لأول مرة بفكرة «يكمن وراء كل نوبة مالنخوليا (السوداء) اهتمام بالذات».

بعد تجولنا في الحديقة قررنا الجلوس وشرب فنجان من القهوة. طلبنا القهوة من النادل وتابعنا حديثنا.

لفتت انتباهي فتاة ترتدي ثياباً حمراء وتجلس على الطاولة التي أمامنا، لقد اشتقت لرؤية امرأة ترتدي ثياباً حمراء. يوجد محبس في يد الفتاة اليمنى لا شك أنها مخطوبة ولكن خطيبها ليس هنا. نظرت إلى وجهها لأرى فيما إذا كان يبدو عليها علامات فراق وحزن ولكنها كانت هادئة تستمع لما يتحدث به الآخرون الجالسون معها.

– هل تذكر يا سيد عارف ما الذي تحدثنا به بعد حديثنا عن التغيُّر؟.

– نعم أذكر تحدثنا عن كيف أثَّر بك الكلب الجريح في بولو عندما كنت طالباً في الجامعة.

ابتسم السيد عارف. فقلت له ضاحكاً: «وما الذي بقي في ذاكرتك من حديثنا عن الكلب الجريح».

– تعرف يا أستاذي إنني أمزح. ولكنني فعلاً تأثرت بحديثك المتعلق

بذاك الكلب. وعندما سألتموني فيما إذا كنت أذكر ما دار بيننا في ذاك اللقاء أحببت أن أقول هذا.

نظرت حولي لأرى فيما إذا كان أحد من الموجودين قد أحضر كلباً معه. فرأيت أحدهم قد أحضر كلبه، فهمت ما الذي يريد قوله السيد عارف. إنه يمزح ولكن لطالما صادفت أموراً كهذه في ندواتي، وعلى العموم، الشيء الوحيد الذي يتبقى في ذاكرتهم من حديثي عن الأعمال التي لم تُنجز هو حكاية الكلب الجريح.

❖ الأعمال التي لم تُنجز:

تابع السيد عارف حديثه:

- تحدثنا عن الأعمال التي لم تُنجز. وبعد حديثنا هذا أدركت كم هي كثيرة الأعمال التي لم تُنجز في حياتي.

- حسناً وكمعلم...

- كمعلم أدركت أنه لا يمكن لإنسان لديه أعمال كثيرة لم تُنجز أن يصبح محارباً وبأني لن أصبح معلماً محارباً طالما لديَّ أعمالٌ كثيرةٌ لم تُنجز.

- حسناً وماذا تصبح إذن؟.

- حمَّالاً.

- ماذا؟.

- أجل أصبح حمَّالاً، فالأعمال التي لم تُنجز هي قُمامة حياتنا، ونحن نحمُل هذه القمامة دائماً في عقولنا أو في قلوبنا.

وبعد أن صمت قليلاً تابع حديثه:

- كان صعباً عليَّ أن أدرك مدى حجم القمامة التي أحملها ويحملها غيري من الناس الآخرين.

- في اجتماعنا ذاك تحدثنا عن نوعين من الأبوَّة: أبوَّة بيولوجية وأبوَّة سيكولوجية (نفسية).

- أجل.

- أنا أتذكر هذا المصطلح جيداً. يمكن أن يقوم المعلمون دون دراية منهم بلعب دور الأبوَّة السيكولوجية لبعض الطلاب وليس لجميعهم.

- لا أشك مطلقاً يا سيد دوغان بأن بعض المعلمين يتحولون، دون دراية منهم، إلى آباء لمعظم الطلاب.

- أشاركك الرأي يا سيد عارف.

- والمحزن في هذا الموضوع يا سيد دوغان أننا نقوم، دون دراية منا، بدور الآباء لطلابنا ونستمر بتقليم شجرة البونزائي التي بدأ آباؤهم بتقليمها.

- أي أنكم تجرون لهم عملية تقليم باهتمام خاص لكي لا تتطور طاقاتهم.

- ولقد قلتُ أيضاً بأن الآباء والمعلمين يعتقدون بأنهم يفعلون خيراً من أجل الطفل من خلال إجراء عملية التقليم هذه. ولكم هذا الوضع مؤلم بالنسبة لي.

- هذا يعني أنك تدرك مدى احتياجنا لكم كمعلمين.

- بل ومتأكد من وجود آلاف المعلمين الذي يحترقون ويتألمون مثلي. والمهم الآن هو إجراء اللقاءات والتفاهم حول هذه المصطلحات وتطوير استراتيجية ما وتطبيقها بشكل قوي.

- نعم ولكن هذه المشكلة ليست من المشاكل التي يمكن وضع الحلول لها والقضاء عليها على المدى القصير، ولكن كما قلت تحتاج إلى حل بعيد المدى.

- إذا كان الذين يبحثون عن حلول بعيدة المدى من الناس الذين

يحملون على ظهورهم كمية كبيرة من القمامة فإنهم لن يقدّموا طاقاتهم لهذا الحل بل للقمامة التي على ظهورهم.

- يا سيد عارف. أخي الأكبر يدعى حسن، وهو رجل يحب المزاح والمقالب كثيراً يعمل بقالاً في منطقة سيليفكا . والحادثة التي سأرويها الآن جرت عندما كنت طفلاً في العاشرة أو الحادية عشر من عمري. في تلك الأيام كان يوجد في سيليفكا رجل فقير يقوم بأعمال متعددة يدعى موسى. وكان موسى هذا قد جاء من ناحية غولنار مع زوجته وطفليه الصغيرين واستقر في سيليفكا .

«كان موسى يحفر الآبار ويعمل حمّالاً ويجمع الأعشاب، باختصار كان يقوم بكل عمل يطلب منه. كان إنساناً بسيطاً وساذجاً ولهذا السبب كان الناس يسخرون منه كثيراً حيث كان يصدق كل ما يقوله الآخرون فيضحكون على ما يقوله أو على ما يفعله».

كان والدي يعتقد أنه من الأولياء، فبينما كان يحفر بئراً لنا وقع حجر كبير موجود عند فوهة البئر إلى قاعه وكان هو موجوداً في الأسفل ولكنه نجا من هذه الحادثة دون أن يخدش، بل لم ينتبه إلى الموضوع وتابع عمله بكل سذاجة. فقال والدي: «موسى هذا عبد مقرَّب من الله، ولهذا يحميه الله» ثم نبهنا قائلاً: «يا اولاد اكسبوا رضا موسى لأن مرتبته عالية عند الله».

ذات يوم وبينما كان يحمل كيساً ثقيلاً جداً مرَّ من امام دكان أخي حسن فنادى له: «موسى... يا موسى».

- رفع موسى رأسه بصعوبة لكي يرى من يناديه وقال: «تفضل يا حسن آغا».

- «تعال، لدي ما أقوله لك».
- «حاضر يا حسن آغا سأضع الحمولة وآتي إليك».
- «تعال يا روحي، أليس لنا خاطر عندك؟».
- فقال: «يا حسن آغا، أنت على رأسي» وجاء إلى الدكان.
- «تعال لأطلب لك كأساً من الشاي ولنشرب شاينا سوية ونتحدث قليلاً».
- «الله يوفقك يا حسن آغا سأوصل الحمولة وآتي».
- «يا روحي وهل طارت الدنيا؟ هيا تعال لنشرب شاينا ونتسلى».

عندما كنت أروي القصة كان السيد عارف يضحك من جهة ومن جهة أخرى يبدي تعاطفه مع موسى بتعابير وجهه. وأما أنا فقد كنت أتذكر كيف كنت متضايقاً من هذه الحادثة التي بقيت في ذاكرتي منذ الطفولة، إذ كيف للإنسان أن يكون ظالماً وكيف يمكنه أن يجد لذة في ممارسة هذا الظلم.

- والآن، لماذا رويت لك قصة موسى يا عارف؟

- يحمل الإنسان حمولة ثقيلة على ظهره طوال عمره. وأثناء وجود هذه الحمولة على ظهره لا يعطي الأعمال التي يقوم بها الوقت والطاقة اللازمة.

- تماماً، لقد أصبت لبَّ الحقيقة. هذا هو الأثر الأكثر سلباً للأعمال التي لم تُنجز على حياتنا. يستغل زمن الإنسان وطاقته ومن ثم يستهلكها كما تتسرب المياه من ثقب في حوض.

- سيد دوغان. في لقائنا ذاك تحدثت عن أبعاد الوجود أيضاً وعرَّفت الوجود على أنه حاجة... تخطر الآن على ذهني الفكرة التالية:

يقوم الآباء والمعلمون بتقليم أطفالهم ليبقوا أقزاماً كشجرة البونزائي، وهم في الحقيقة يعملون هذا لكي لا يجعلوا أطفالهم يعيشون كافة أبعاد الوجود أي كمن يقول للطفل: «أنت غير موجود» أو«لديك عطب ما» أو «أنت لست أهلاً للمحبة» أو «أنت بلا قيمة» أو «أنت بلا قوة»، أليس كذلك يا أستاذي؟.

– نعم معك حق. إذ تتطور طاقة الإنسان وقدراته عندما يعيش أبعاد الوجود. وإن لم يعش هذه الأبعاد لن يطوّر طاقاته وأنا أوافقك على كل ما قلته يا سيد عارف.

– إذا لم يتم تلبية حاجات الوجود ألن تتشكل عند هؤلاء الصغار أعمالٌ لم تُنجز وتبدأ بالتراكم في حياتهم.

– وضعت يدك على نقطة هامة يا سيد عارف.

– نعم. فالشخص الذي لا يعيش أبعاد الوجود يبدأ بتكديس الأعمال التي لم تُنجز فوق بعضها ويبدأ بإضافة عمل جديد إلى قمامة الأعمال التي لم تُنجز في كل لحظة لا يعيش فيها أبعاد الوجود.

– أثناء الحديث عن الأعمال التي لم تُنجز تحدثتَ عن أمور متعلقة بوالدكَ أثَّرت بي أيَّما تأثير.

يا سيد دوغان عندما أفكر بهذا الموضوع أرى: بأن التقمُّص العاطفي Empati أي رؤية الأحداث كما يراها شخص آخر تكمن في أساس فهمنا لهذا الشخص الآخر. وأما فهم الشخص الذي أمامنا فهو يشكل الخطوات الأولى للعفو عنه.

– طبعاً أنت تعلم أنني لم أعذر والدي، لأنني فهمت أنه لم يفعل شيئاً يستحق أن أعذره عليه.

– نعم أعلم، ولكن لو كان فعل ما يستحق العفو عنه فسيكون التقمُّص العاطفي Empati أولى خطوات العفو عنه.

– صحيح، بهذا المعنى أنا أوافقك الرأي.

لم أعرف للوهلة الأولى فيما إذا كان الجسر الذي أراه أمامي هو جسر المضيق أم جسر فاتح. قال السيد عارف: «إنه الجسر الأول يا أستاذي». عندما قال هذا وقع نظري على منطقة أورتاكوي وحديقة يلدز وبشكتاش. واستطعت رؤية قصر جراغان وفندق كونارد. لم آتِ من قبل بمفردي إلى هذه الأماكن. ذهبت إلى أماكن عديدة بذريعة اللقاء مع السيد عارف وبدأت اكتشف جانباً مختلفاً لاستانبول ثم فكرت بيني وبين نفسي قائلاً: «يجب أن أذهب إلى أماكن مختلفة بمفردي».

كان بإمكاني رؤية منطقة تقسيم وفندق هيلتون وأحياء كاباتاش وفندقلي وجيهانغير. حاولت توقع مكان وجود المنزل الذي أسكنه. أعتقد أنني اقتربت من المعرفة ولكن لم أستطع تحديد المبنى الذي توجد فيه شقتي.

بعد مشاهدة هذه المناظر بفترة من الزمن طرحت على السيد عارف سؤالاً وبدأنا حديثنا من جديد.

❖ خصائص المحارب:

- في لقائنا الأخير تحدثنا عمَّا قاله دون جوان حول خصائص المحارب. كمعلمٍ، هل فكرت بمعنى هذه الخصائص.

- أثناء الحديث عن هذه الخصائص تحدثنا بشكل أساسي عن موضوع كيفية تطبيق المعلِّم، بشكل خاص، ، لهذه الخصائص ووجدت نفسي مشتتاً ومثيراً للشفقة.

ضحكنا كلانا.

- ومع هذا أجد من المفيد إلقاء الضوء من جديد على هذا الموضوع.

- حسناً يا أستاذي لنلقي الضوء. تمحورت الخاصية الأولى للمحارب حول تحمله مسؤولية كاملة عن مستوى الوعي الذي يحضره إلى

الوسط قبل اتخاذ أي قرار. فعندما اتَّخذتُ قراراً بأن أصبح معلماً لم أكن أمتلك وعي المسؤولية هذا. لأنني لم أكن أعرفه، أي أنني لم أكن أعرف أي مفهوم من المفاهيم التي تحدثنا بها في لقاءاتنا.

- هذا أمر طبيعي. انظر إلى المجتمع الذي تعيش فيه؛ كم شخص من أبناء جيلك اليوم يألف هذه المفاهيم؟ إنهم قلة لدرجة أنني أستطيع القول بأنهم غير موجودين.

- أحد المفاهيم التي أثَّرت بي أكثر من غيرها هي تلك التي تؤكد على أن **القرار عبارة عن خيار وإنَّ قلب الإنسان هو من يجري هذا الاختيار**، كان هذا موضوعاً جديداً بالنسبة لي وإنني مسرور جداً لأنني تعلمت هذا.

- سابقاً كنت تعتقد أن القرار من عمل الذهن وحسب أليس كذلك؟.

- أجل هكذا كنت أعتقد ولكن الأمر لم يكن كذلك فالقرار يستمد قوته من كونه خياراً يقوم به القلب.

- أجل. القلب هو مصدر الاتجاهات والميول. فهناك توجد طاقة لا تنضب ولا تعرف للانتهاء طريقاً.

- هل أكمل يا أستاذي؟.

- أجل، أجل استمر يا سيد عارف.

- قلنا المحارب لا يشعر بالندم حيال القرارات التي يتَّخذها وأما أنا فقد شعرت بالندم حيال القرار الذي اتَّخذته فيما يخص اختيار مهنة التعليم.

ابتسم السيد عارف قليلاً ثم صمت. نظر إلى وجهي وقال: «جيد أنني شعرت بالندم وانتقلت إلى حالة البحث بتأثير من هذا الشعور وبذلك تسنى لي التعرف إليك والحديث معك».

- ماذا قالوا: في كل شيء خير.

ضحكنا كلانا.

- تمحورت خاصية أخرى حول: «**ينتظر المحارب بصبر ويعرف ماذا ينتظر ولماذا ينتظر**» فأنا على اعتباري إنسان شعر بالندم حيال قراراته لم أنتظر بصبر، ولم أكن أعلم ماذا أنتظر وطبعاً عندما يكون الأمر كذلك لن أعرف لماذا أنتظر.

- حسناً والآن: هل تنتظر بصبر وهل تعرف لماذا تنتظر؟!.

- أجل. الأمر مختلف الآن، إني أنتظر افتتاح المدارس بفارغ الصبر، ولديَّ رغبة عارمة بأن أبدأ رحلتي كمعلم محارب.

- ثمة نوع من قلة الصبر في أسلوب حديثك.

- الأمر هكذا ربما. يجب أن أكون مدركاً لذلك. أساساً ما أريد قوله هو أنني أعي تماماً أني أسير على طريق التحول إلى محارب وأنا أنتظر ضمن إطار هذا الوعي.

- فيما يتعلق بوعي الموت...

- أما فيما يتعلَّق بوعي الموت فلقد تأثَّرت بما قلته لي وبما قاله دون جوان لكارلوس حول هذا الموضوع. لقد تحول وعي الموت الآن إلى رفيق درب لي. أنظر إلى كل شيء انطلاقاً من هذه الأرضية... بتُ أعيش «الآن وهنا» بشكل واعٍ. طبعاً هذا ليس انطلاقاً من موقف «كل شيء فارغ في هذه الدنيا الفانية» بل انطلاقاً من وعي يقول: «هذه اللحظة ذات قيمة عالية ولن تتكرر أبداً، عش ضمن إطار وعيك بفرادة هذه اللحظة التي لن تتكرر».

- فهمت يا سيد عارف. هذا يعني أن تغييراً جذرياً طرأ على إدراكك للحياة.

- أجل هذا صحيح فأنا أعي الموت جيداً ولكنني لم أستسلم لوعي الموت فأنا مفعم بحماس الحياة.

- ماذا ستقول حول خاصية: **حياة المحارب تسير ضمن موقف استراتيجي؟**.

- لا أستطيع القول أنني طبَّقتُ هذه الخاصية بالكامل ولكنني الآن، قياساً بما كنت عليه سابقاً، أشعر أنني مدرك جداً لكل كلمة أقولها ولكل فعل أقوم به، وبتُّ أكثر إدراكاً للوعي الذي أحضره لأفكاري وأحاسيسي وكلامي وأعمالي على المدى القصير من جهة وعلى المدى الطويل من جهة أخرى.

- هذا تطور هام يا سيد عارف.

- أجل، فلقد أصبحتْ الحياة التي أعيشها الآن هي حياتي أنا وليست حياة أحد غيري وهذا شعور ممتع للغاية.

- أحسنت يا سيد عارف. ما الذي تريد قوله أيضاً فيما يتعلق بخصائص المحارب.

- يا أستاذي أنا أتحدث بعد النظر إلى القائمة التي بيدي، كتبنا الخاصية الثامنة على القائمة كما يلي: «**المحارب لا يُدمِن على شيء ولا يولع بشيء**» فأنا لا زلت حتى الآن مدمن على أشياء كثيرة وأنا مدرك لذلك وأعرف أيضاً أنني مع مرور الزمن سأتغلَّب على هذا الأمر.

توقف السيد عارف عن الكلام ووضع القائمة التي كانت بيده أمامه وراح يراجعها ويقرؤها بهمس... تتحرك شفتاه ببطء ثم يهز برأسه ولسان حاله يقول: «نعم تذكرت» بعد ذلك تابع حديثه قائلاً:

- لم أكتسب كل هذه الخصائص بشكل كامل ولكنني على ثقة بأنني سأصبح معلماً قديراً عندما أكتسبها جميعها.

الخاصية التاسعة هي: «**يقترب المحارب من كل شيء بكل احترام**» والعاشرة: «**يقوم المحارب بعمله ضمن المدى المجدي لرمياته**». أريد أن أحتفظ بكل هذه الخصائص في ساحة وعيي بشكل مستمر ولكنني الآن لا أستطيع القول أنني أطبقها بكمالها وتمامها.

- المهم أن تبقى ضمن ساحة وعيك. أريد أن أحدِّد وجودها ضمن

وعيك على منحيين. الأول: أن تدرك وجود هذه الخصائص والثاني: أن تدرك أنك ستصبح معلماً قديراً عندما تطبق هذه الخصائص على حياتك. وكما فهمت منك هذان المنحيان موجودان الآن ضمن وعيك أريد أن أضع نقطة وننهي لقاءنا لهذا اليوم بعد الحديث عن الخصائص الثلاثة المتبقية.

- هل أقرؤهم يا أستاذي؟.

- أجل. من فضلك.

- الخاصية الخامسة عشر: «**يرى المحارب في كل شيء فرصة للتعلُّم يجب التصدي لها**».

- حسناً يا سيد عارف برأيك ماذا تعني لك هذه الخاصية على اعتبارك معلم؟.

- أفكر بضرورة ممارستي مهنة التعليم ضمن إطار مفاهيم المواطن الترابزوني.

- مرحى لك. تابع قراءة القائمة.

- الخاصية السادسة عشر: «**يحرص المحارب على صحته**» أي يجب إعطاء أهمية للصحة البدنية والروحية ضمن إطار القول المأثور الدارج في ثقافتنا: «الصحة تاج كل شيء» ويجب أن يكون إحضار أعلى مستوى من الوعي لموضوع الصحة أي للطعام والشراب والاستراحة والنظافة جزءاً لا يتجزأ من حياتي.

- رائع، رائع. ما هي الخاصية الأخيرة؟.

- الخاصية السابعة عشر: «**يشعر المحارب بالشكر وبالامتنان لكل شيء ولكل أحد ساهم بشيء ما من أجل حياته**» قبل أن نتناول هذه الخاصية بالنقاش لم أكن أشعر بالشكر والامتنان لطلابي وأما الآن فإنني أشعر بهذا الامتنان، فلدي شعور بالامتنان لكل طالب من طلابي إذ أن وجودهم يعني استمرار وجودي.

أنهى السيد عارف حديثه... تلاقت نظراتنا فقد حان وقت الفراق...

- اليوم الأحد أليس كذلك يا سيد عارف؟ ما رأيك أن يكون لقاؤنا في الأسبوع القادم يوم السبت؟!.

- كما تريد يا أستاذي، أين سنلتقي؟.

- في المكان الذي التقينا فيه أول مرة.

- هل تقصد في المقهى الذي بجانب ميناء الباصات البحرية الموجود في كباتاش؟.

- نعم سنلتقي الساعة الثالثة بعد الظهر.

- يا أستاذي أنا سأذهب إلى صديقي الذي يسكن في جنارجك ومن هناك سأحضر إلى كباتاش.

- أختي وأسرتها يقضون الصيف في جنارجك. متى ستذهب إلى هناك؟.

- غداً. سأبقى هناك لمدة أسبوع.

- أتمنّى لك وقتاً سعيداً يا سيد عارف. إذن ستبقى أسبوعاً عند صديقك.

- بيننا قرابة بعيدة ولقد أمضينا طفولتنا سوية. إنه يعمل في يالوفا، لكنه يقيم في جناجك.

بعد ذلك ذهبنا أنا والسيد عارف إلى أوسكودار وقبل أن نفترق سألت السيد عارف فيما إذا كان لديه رقم هاتف بيتي ورقم الخليوي. فقال: «لديَّ رقم هاتف البيت فقط». فأعطيته رقم الخليوي. وطلبت منه أن يتصل بي إن حدث معه أي شيء لأنه سيأتي من مكان بعيد.

تصافحنا في أوسكودار وافترقنا.



12
لنواصل

وقع زلـزال كـبير ليلـة الاثـنين ـ الثلاثـاء. وفي صـباح اليـوم التـالي وعندما راح تأثير الصدمة وجاءت الأخبار من يَلَوا وجنارجك بدأ قلقي يزداد على أختي وأسرتها في المصيف. ثم تذكرت السيد عارف فازداد قلقي عندما تذكرت أنه كان موجوداً في جنارجك وقت وقوع الزلزال هناك.

كان من المستحيل الاتصال بالسيد عارف لأنني لم أكن أملك عنوان المكان الذي سيقيم فيه أو رقم هاتفه. وبالرغم من كافة الجهود التي بذلتها لم أستطع الاتصال بأختي وعلمت بعد ثلاثة أيام بأنها غادرت جنارجك من أجل زيارة والد زوجها الذي أصيب بوعكة صحية فتأكدت من أنها لم تكن موجودة في جنارجك وقت وقوع الزلزال ولكنني لم أستطع الحصول على أي خبر عن السيد عارف، وفي النهاية اتصل بي السيد عارف على هاتفي الخليوي يوم الجمعة. سررت جداً بسماع صوته. قال لي بأن المنطقة الذي كان فيها أُلحق بها أضرار جسيمة ولكن وضْعَ صديقه وأسرته ووضْعَه هو جيد جداً وبأنه يعمل منذ ثلاثة أيام بين الأنقاض وبأن الوضع هناك سيء جداً.

أعربت له عن شكري لأنه اتَّصل بي وأزال قلقي. أخبرته عن

قلقي المتعلق بأختي وبأنها لم تكن موجودة في المنطقة حين وقوع الزلزال:

- إنه يوم حشر بكل ما في الكلمة من معنى فكل إنسان يتكلم ما بدا له وسيل من الاتهامات يتجه إلى هنا وهناك... يعيش الناس ألماً كبيراً.

- أجل. الوضع مؤلم جداً يا أستاذي يحار الإنسان بما سيفعل.

- كل إنسان يحاول فعل شيء بنية صافية ولكنه لا يعرف ماذا يفعل ولا يعرف كيف سيفعل ومن أجل من، كما لا يعرف متى سيفعل.

- وأنا أيضاً أعيش الحالة ذاتها يا سيد دوغان. أريد فعل شيء ما ولكنني محتار فيما سأفعل وكيف سأفعله.

- يوجد الآن الكثير من الناس يفكرون مثلك يا سيد عارف إن هذه الطاقة البشرية الكبيرة معطلة تماماً بسبب فقدان التنظيم والتخطيط والقيادة الجيدة.

- إن الألم الناجم عن العجز يضع الإنسان في وضع مختلف.

- أجل، إنك تشعر بعجز من نوع آخر، ولو بدأ الإنسان عمله ولو كافح بوعي لما شعر بهذا العجز.

- لدي اقتراح.

- ما هو اقتراحك يا أستاذي؟.

- سنعقد سلسلة جديدة من اللقاءات سوية ولنتناول في سلسلة اللقاءات هذه المشاكل والملاحظات والنقاشات والمواضيع الاجتماعية.

- أكون ممتناً لك يا سيد دوغان.

- جيد. قدّم أنت الآن ما تستطيع من مساعدة في المنطقة الموجود فيها وبعد ذلك خذ قسطاً من الراحة وبعد شهر سنتواصل هاتفياً ونحدّد موعداً للبدء في لقاءاتنا.

- حسناً يا أستاذي.

- أشكرك من جديد على اتصالك بي يا سيد عارف إننا نعيش أياماً هامـةً جـداً. دوّن ملاحظاتـك وأفكـارك وبعـد ذلـك سنناقـشها. يـا اللّه... أستودعك اللّه..

أنهينا المكالمة على أمل اللقاء من جديد.

..... تمّت .....

المحـــارب

أول خطوة في بناء وطن متطور هي بناء إنسان يعي ذاته ويعيش من أجلها لا من أجل الآخرين إذ ليس علينا أن نختار طريقاً لحياتنا يتناسب مع الآخرين لا مع أنفسنا. وعندما نختار ما يناسب شخصيتنا نستطيع أن نكون أكثر عطاءً لكن حتى نختار ما يتناسب يجب أولاً أن نعرف أنفسنا وحتى نعرف أنفسنا يجب أن نتأمل ما يجري داخلنا وأن نمتلك الثقافة العالية التي تجعل تأملنا ذا معنى، وكم نحن بحاجة إلى هذا الكتاب الذي يأخذنا في رحلة لاكتشاف الذات. إنه لا يقدم معلومات جاهزة بقدر ما يقدم آلية للتفكير نستطيع من خلالها أن نكتشف ذاتنا ونسعى لتغييرها.

يتحدث الكاتب في هذا الكتاب عن محارب يشن أقسى حرب في العالم ضد نقاط الضعف التي يعاني منها في شخصيته. ولا يدَّعي الكاتب بأنه كتب هذا الكتاب بمفرده، بل كتبه برفقة الأستاذ عارف، والأستاذ عارف هذا شاب دفعته الأزمة النفسية التي يعيشها إلى حالة البحث عن معنى لحياته وهذا ما دفعه إلى الكاتب ليلتقي به ويتحدث معه. ولهذا يقول الكاتب "لا أقول أتحدث في هذا الكتاب بل نتحدث، لأنني والأستاذ عارف كتبنا هذا الكتاب سوية".





